- فرانز مهرنغ -

كارل ماركس

عن دار الطليعة

الإعداد الإلكتروني: جريدة "المناضل-ة" http://www.almounadi-a.info

الفصل الأول

السنوات الأولى

1- البيت والمدرسة

ولد كارل هينريخ ماركس في 5 أيار 1818 في تريير. ولا يعرف عن أسلافه إلا القليل، وذلك بسبب الفوضى والدمار اللذين لحقا بالسجلات الرسمية في الراينلاند خلال الأوقات العصيبة التي سادت تلك البلاد في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. فمثلا لا تزال السنة التي ولد فيها هينريخ هاينه موضع خلاف.

غير أن الحال بالنسبة لكارل ماركس ليس بهذا السوء، فهو قد ولد في زمن ساده قد أكبر من السلام، ولكن، مع ذلك، عندما توفيت إحدى عماته في أواخر القرن الماضي مخلفة وصية غير قانونية، لم تستطع كل التحقيقات القضائية التي أجريت للتحقق من الورثة الشرعيين أن تكشف تاريخ ولادة ووفاة أبويها، أي جد وجدة كارل ماركس. كان جد كارل ماركس يدعى ماركس ليفي، ولكن اسم ليفي أسقط فيما بعد، وكان هذا الرجل حاخاما في تريير ويعتقد أنه توفي عام 1789، وعلى كل حال لم يكن حيا في عام 1810، ولكن زوجته ايفا ماركس كانت حية إذ ذاك ويعتقد أنها توفيت عام 1825.

كان لهذين الزوجين أولاد عدة، وقد كرس اثنان منهم هما صموئيل وهرشل نفسيهما للعمل الأكاديمي. وخلف صموئيل، الذي ولد في 1871 وتوفي في 1829، والده كخاخام في تريير. أما هرشل والد كارل ماركس فقد ولد عام 1782، ودرس الحقوق ليصبح محاميا في تريير، وأصبح فيما بعد قاضيا، وتبنى المسيحية في عام 1824 متخذا لنفسه اسم هينريخ ماركس، وقد توفي في عام 1838.

تزوج هينريخ ماركس من يهودية هولندية اسمها هنرييتا برسبرغ، ويتبين من شجرة عائلتها أن أجدادها كانوا حاخامات لمدة قرن من الزمن، على حد قول حفيدتها اليانور ماركس. توفيت هنريتا برسبرغ في 1863. وخلف هينرخ ماركس وزوجته هنريتا وراءهما عائلة كبيرة، ولكن في الوقت الذي جرت فيه التحقيقات القضائية التي اشرنا إليها، والتي زودتنا بهذه المعلومات عن أصول وفروع العائلة، كان هناك فقط أربعة أبناء على قيد الحياة هم: كارل ماركس، وصوفيا أرملة محام يدعى شمالهاوزن في ماسترخت، واميلي زوجة مهندس يسمى كونرادي في تريير، ولويز زوجة تاجر يدعى يوتا في كيب تاون.

تمتع كارل ماركس بطفولة مرحة خلو من الهموم، بفضل السعادة الزوجية القصوى التي كانت تظلل أبويه، وبفضل أخته صوفي الابنة الكبرى للعائلة. وقد بعثت «مواهب ماركس الرائعة» في نفس أبيه أملا في أن تستخدم هذه المواهب يوما في خدمة الإنسانية، أما والدته فقد أعلنت أن ماركس ابن حظ ستسير كل أموره على ما يرام. غير أن ماركس لم يكن ابن أمه مثلما كان غوته، ولا كان ابن أبيه كما كان ليسنغ وشيلر. فقد كانت أم ماركس، مع كل الحنان والرعاية اللذين أسبغتهما على زوجها وأولادها، منغمسة تماما في الشؤون المنزلية، وظلت طوال عمرها تتكلم الألمانية بلغة غير سليمة، ولم تشارك في نضالات ابنها الفكرية، بغير التساؤل الذي يشوبه أسى الأم عما كان سيؤول إليه حال الابن لو انه سلك السبيل القويم. ويبدو أن ماركس صار في وقت لاحق على علاقة جيدة بأقاربه من جهة أمه في هولندا، وعلى الأخص مع حاله فيليبس، فهو يشير باستمرار إشارات ملؤها الصداقة الودود لـ«هذا الولد الكبير الطيب»الذي مد له يد العون فيما بعد عندما واجه في حياته مصاعب مادية.

وعلى الرغم من أن والد كارل ماركس توفي بعد بضعة أيام من بلوغ ولده سن العشرين، إلا أنه لاحظ من طرف خفي «الشيطان» الذي يركب ابنه المفضل. ولم يكن ما يزعج والد ماركس القلق المسرف الذي يعتور الآباء في العادة تجاه حياة أبنائهم العملية، بل الإحساس الغامض بأن في شخصية ولده شيئا صلبا كالغرانيت، شيئا غريبا تماما عن طبيعته هو، تلك الطبيعة اللينة المطواعة. يتوقع المرء أن تكون لدى والد ماركس كيهودي وكواحد من سكان الراينلاند وكمحام مناعة مثلثة ضد غوايات «يونكر» شرقي الألب، لكن هينريخ ماركس كان في الواقع وطنيا بروسيا وان ليس بالمعنى المعتاد الذي يرتبط بهذه الصفة اليوم، فقد كان وطنيا بروسيا من طراز «فريتز الشيخ»[1]. لقد كان «إيديولوجيا» من النوع الذي كان نابليون يكرهه وعن حق. وعلى الرغم من أن نابليون منح ليهود الراين مساواة في الحقوق المدنية، وأعطى الراينلاند ذاتها القانون النابليوني، ذلك الكنز الثمين الذي تعرض لهجمات مستمرة من الرجعية البروسية، إلا أن والد ماركس كان يكره نابليون. ولم يهتز إيمان هينريخ ماركس «بعبقرية» الملكية البروسية، على الرغم من أن الحكومة البروسية كان يمكن أن تجبره على تغيير دينه ليستطيع الحفاظ على موقعه البرجوازي. وكثيرا ما قال أشخاص على معرفة بالأمور في العادة، أن هذا هو الحال فعلا، وأن هينريخ ماركس اضطر لهذا السبب بالذات إلى تبني المسيحية. ومن الواضح أن هؤلاء يقولون ذلك كي يجدوا تبريرا أو على الأقل عذرا لعمل لا يحتاج في الواقع إلى عذر أو تبرير. ذلك أننا لو نظرنا إلى الأمر حتى من وجهة النظر الدينية، لوجدنا أن رجلا يعترف مع لوك وليبنتز وليسنغ بـ«الإيمان المحض بالله» ليس له مكان في الكنيس، بل هو ينتمي إلى الكنيسة الرسمية البروسية التي كانت تسودها في ذلك الحين عقلانية سمحة هي ما يسمى بدين العقل الذي ترك أثره حتى على «مرسوم الرقابة البروسية» الذي صدر عام 1819.

[1] «فريتز الشيخ» اسم للتحبب كان يطلق على فريدريك الكبير ملك بروسيا.

لم يكن التنكر لليهودية في ذلك الحين ينطوي على مجرد التحرر الديني، بل كان يشتمل أكثر من ذلك على التحرر الاجتماعي. ذلك أن الجالية اليهودية كجالية لم تسهم بشيء على الإطلاق في المخاضات الفكرية الكبرى التي كانت تأخذ بالمفكرين والشعراء الألمان. وكان الضوء المتواضع الذي أشعه موسى مندلسون يحاول عبثا قيادة «أمته» إلى الحياة الفكرية لألمانيا، وفي الوقت الذي قرر فيه هينريخ ماركس تبني المسيحية بعثت حلقة من اليهود الشباب الحياة في مجهودات مندلسون لتواجه الفشل ذاته، على الرغم من أن رجالا كادوارد غانز وهينريخ هاينه كانوا في صفوفها. وكان غانز الذي قاد المغامرة أول من ألقى الراية طرح العلم وانتقل إلى المسيحية، فشتمه هينريخ هاينه شتيمة مقذعة إذ قال «نعم بطل ولكن بالأمس، أما اليوم فوغد»، ولم لم يمض طويل زمن حتى اضطر هاينه ذاته إلى الاقتداء بالمثل الذي ضربه غانز والحصول على «بطاقة دخول إلى مجتمع الثقافة الأوربية». فكان أن أسهم كل من غانز وهاينه بقسط في المجهودات الفكرية لألمانيا في ذلك القرن، بينما أتى النسيان على أسماء صحبهما الذين ظلوا أوفياء للتطور الثقافي لليهودية.

هكذا كان تبني المسيحية يشكل تقدما حضاريا بالنسبة للمتحررين من اليهود، وبهذا المعنى فقط يجب أن يفهم تغيير هينريخ ماركس لدينه ودين عائلته عام 1824. وقد تكون ظروف خارجية حددت اللحظة التي تم فيها هذا التغيير، ولكن هذه الظروف لم تكن بالتأكيد هي السبب. لقد تزايد تفتيت الملكيات العقارية والمزارع من جانب المرابين اليهود خلال الأزمة الزراعية في العشرينات فاندلعت نتيجة لذلك موجة من العداء للسامية في الراينلاند. وفي هذا الوضع لم يكن من واجب رجل لا يطال الشك أمانيه كوالد ماركس أن يتحمل أي قسط من هذه الكراهية، بل لم يكن من حقه أن يفعل ذلك بالنظر إلى اعتباره لأولاده. ولربما أدت وفاة والدته في ذلك الحين إلى تحرره من اعتبارات طاعة الوالدين، تلك الاعتبارات التي تتفق مع جماع شخصيته، ولربما لعب تخرج ابنه الكبير من المدرسة في السنة التي غيَّر فيها دينه دورا في اتخاذه لقراره النهائي.

ولكن سواء أكان الأمر كذلك أم لم يكن، فليس هناك من شك في أن هينريخ ماركس قد حاز على ثقافة إنسانية حررته تماما من كل التحيزات اليهودية، وقد منح هذه الحرية لابنه كارل كتراث ثمين. وليس هناك في الرسائل العديدة التي كتبها هينريخ ماركس إلى ابنه التلميذ ما يدل على أي أثر للسمات اليهودية المخصوصة، سواء الجيدة منها أو الرديئة. وهذه الرسائل مكتوبة بالطريقة الأبوية العاطفية المفصلة وبالأسلوب الذي كان يسود مراسلات القرن الثامن عشر عندما كان الألماني الحقيقي يتفجر حبا ويتمزق غيظا. وتعالج هذه الرسائل عن طيب خاطر الاهتمامات الفكرية للابن دون أي اثر لضيق الأفق البرجوازي الصغير، بينما تبدي اعتراضا حاسما ومبررا تماما على لهاث الابن خلف الشهرة كما يفعل «أي شويعر». ولكن وعلى الرغم من كل السرور الذي كان ينتاب الرجل العجوز عندما يفكر في مستقبل ابنه إلا أنه «بشعره الذي وخطه الشيب وروحه التي أصابها بعض الركود»، لم يكن يستطيع أن يتخلص من فكرة أن قلب ابنه قد لا يكون كبيرا كعقله وانه ربما لا يجد فسحة كافية لتلك المشاعر الدنيوية الرقيقة التي يستمد منها الإنسان أعظم العزاء في وادي الدموع.

ولربما كانت شكوكه مبررة بهذا المعنى. فالحب الحقيقي الذي كان يحمله في أعماق قلبه لابنه لم يجعله أعمى البصيرة بل جعله متنبئا إلى حد ما. ولكن ما من إنسان يستطيع أن يتنبأ بالنتائج النهائية لأعماله، ولذا لم يدرك هينريخ ماركس ولا كان بمقدوره أن يدرك أن كنز الثقافة البرجوازية الغني الذي أعطاه لابنه كارل كتراث ثمين ينهل منه طيلة الحياة، لم يفعل شيئا غير مساعدة «الشيطان» الذي كان يخشاه على الانطلاق، ذلك الشيطان الذي لم يكن هينريخ ماركس يعرف ما إذا كان شيطانا «سماويا» أم «فاوستيا». فعندما كان كارل لا يزال في بيت أبويه كان يحكم قبضته بسهولة بالغة على أمور كلفت هاينه ولاسال النضالات الأولى العظيمة في حياتيهما وتركتهما مثخنين بجراح لم يشفيا منها شفاء تاما أبدا.

ليس من السهل أن نرى ماذا أسهمت الحياة المدرسية في تطور ماركس الصبي. إذ أن كارل ماركس لم يتحدث قط عن رفاقه في المدرسة كما أن أحدا منهم لم يترك لنا أي معلومات عنه. سرعان ما أنهى ماركس دراسته في كليته في تريير، وتحمل شهادة تخرجه تاريخ 25 آب 1835. وهي كالعادة مصحوبة بالتمنيات الطيبة للشاب اليافع وبالملاحظات المعتادة فيما يتعلق بتحصيله في المواضيع المختلفة. غير أنها تؤكد على وجه الخصوص أن كارل ماركس كثيرا ما كان قادرا على فهم وتفسير أكثر الفقرات صعوبة في المواد الكلاسيكية، وخاصة تلك الفقرات التي تكمن صعوبتها لا في غرابة لغتها بل في موضوعها وعلاقات الأفكار فيها. وتعلن الشهادة أن موضوعات ماركس اللاتينية تبدي غنى في الفكر وألفة عميقة بالموضوع ولكنها كثيرا ما تكون مثقلة بمادة غير مناسبة.

وفي الامتحانات النهائية واجه ماركس بعض الصعوبات في مادتي الدين والتاريخ، ولكن الأساتذة الممتحنين في مادة الإنشاء الألماني وجدوا في مقاله فكرة «ملفتة للنظر»، فكرة سنجد أنها في الواقع هامة جدا. كان موضوع المقال «أفكار شاب قبل اختياره مهنته»، وكان حكم الممتحنين على المقال انه يظهر غنى في الأفكار وبناء متناسقا جيدا، ولكنه أيضا يبين بوضوح الخطأ الذي يقع فيه كاتبه على الدوام، خطأ المبالغة في السعي وراء التعابير الغريبة الجميلة. ثم يورد الممتحنون في حكمهم المقتطف التالي حرفيا «أننا لا نستطيع دائما أن نتخذ لأنفسنا المهنة التي نشعر أنها تناسبنا، فعلاقاتنا في المجتمع تبدأ في التبلور بهذا القدر أو ذاك قبل أن نكون في موقف يمكننا من تقرير هذه العلاقات». هكذا تبدو اللمحة الأولى لهذه الفكرة في ذهن ماركس الشاب وكأنها البرق في ليلة صيف، هذه الفكرة التي كان تطويرها وإتمامها خدمة أبدية أداها ماركس للإنسانية.

2-يني فون فستفالن

التحق ماركس علام 1835 بجامعة بون، وظل هناك سنة كاملة، ولكن دراسته للحقوق أبان تلك السنة لم تكن واسعة ولا عميقة.

وليست هناك معلومات مباشرة عن هذه الفترة، ولكن يمكننا القول استنادا إلى رسائل والده إليه أن قدرا من البذور البرية انغرس في ماركس في ذلك الحين. ففي البداية نجد والده يشكو فحسب من «الفواتير على طريقة كارل، دون علاقة ودون نتيجة» (يصح القول في ماركس أن المنظّر الكلاسيكي للنقود لا يستطيع أن يخرج من حساباته المالية بشيء)، ولكننا فيما بعد نجد والد ماركس يشكو بمرارة من «مزحات ماركس الجامحة».

كانت السنة التي قضاها ماركس في بون تبدو مغامرة طلابية نموذجية تتوجب عندما بلغ النضوج في سن الثامنة عشرة وخطب رفيقة طفولته. كانت هذه صديقة لأخته الكبرى صوفي التي ساعدت على تمهيد السبيل أمام اتحاد القلبين الشابين. كانت هذه الخطبة في الواقع أول انتصار وأعظم فرصة لهذا الذي ولد سيدا للرجال، انتصارا بدا لأبيه «مستعصيا تماما على الفهم»، إلى أن اكتشف الأب أن في الفتاة أيضا «بعضا من العبقرية» وأنها قادرة على القيام بتضحيات يستحيل على فتاة عادية أن تأتي مثلها.

كانت يني فون فستفالن فتاة ذات جمال أخاذ غير معتاد، وليس ذلك فحسب، بل كانت أيضا تتمتع بروح وسلوك غير عاديين أيضا. كانت تكبر كارل ماركس بأربع سنوات، ولكنها كانت لا تزال في أوائل العشرينات من عمرها. وكان جمالها النضر يتفتح عن ايناعته الأولى، فيحيط بها الكثير من الإعجاب والكثير من الغزل. وكابنة لموظف رفيع المركز، كان بإمكانها أن تجد لنفسها زوجا مناسبا. لكن يني ضحت بكل الآفاق المفتوحة أمامها في سبيل «مستقبل خطر غير مأمون» على حد تعبير والد ماركس، الذي كان يحدس فيها من حين لآخر ذلك الحس الداخلي القلق الذي يزعجه كثيرا، ولكنه أضحى في ذلك الوقت مقتنعا تماما «بالفتاة الملائكية الساحرة»، حتى أنه أقسم لابنه أنه يجب أن لا يخسرها حتى لأمير.

تفتق المستقبل عن قدر من الخطر والافتقار إلى الطمأنينة أكبر مما كان يخشاه هينريخ ماركس حتى في أسوأ تصوراته. لكن يني فون فستفالن بجمالها الذي يشع سحرا خلابا طفوليا لازمت الرجل الذي اختارته لنفسها بشجاعة ثابتة بطولية رغم كل المعاناة والعذاب. وقد لا تكون يني استطاعت أن تخفف عن كارل عبء الحياة بالمعنى المألوف، ذلك أنها كانت ابنة نعمة ولم تكن على الدوام قادرة على معالجة مصائب الحياة قدرة امرأة من الشعب معتادة على المصاعب. ولكن يني بتفهمها العميق للعمل الذي نذر ماركس نفسه له كانت شريكة جديرة لحياته.

تنم رسائل يني الباقية عن نفس أنثوي حق. فقد كانت تتحلى بطبع كالذي وصفه غوته: يوحي بالصدق في كل حالة وكل مزاج سواء انعكس في الثرثرة المرحة في الأيام السعيدة أو انعكس في القلق المستبد بامرأة سلبها الفقر والحرمان طفلها فلم تستطع حتى أن تؤمن له مستوى متواضعا. وكان جمال يني فخر زوجها على الدوام، فبعد أن ارتبط مصيره بمصيرها بعشرين عاما نجده في عام 1863 يكتب من تريير حينما ذهب ليحضر جنازة أمه: «كل يوم أحج إلى بيت وستفالن القديم، إنه يثير اهتمامي أكثر مما تفعل كل الآثار الرومانية، فهو يذكرني بأيام صباي السعيدة وهو قد احتوى يوما بين جدرانه كنزي الغالي. وكل يوم يسألونني ذات اليمين وذات اليسار عن شريكتي أجمل فتاة في تريير، و«ملكة حفلات الرقص». لا شك أن مما يثلج قلب الرجل أن يجد أن زوجته تحيا في ذاكرة بلده كاملة كالأميرة الساحرة». وعندما كان ماركس على فراش الموت، متجردا كما كان من كل عاطفية مفرطة، تحدث بلهجة حزينة مؤثرة عن أجمل فترة من فترات حياته ممثلة بيني وستفالن.

ارتبط الشابان بالخطبة قبل أن يحصلا أولا على إذن من والدي الفتاة، فإذا بذلك يبعث الضيق في نفس والد ماركس. ولكن لما يمض طويل زمن حتى تم الحصول على الموافقة. فعلى الرغم من اسم المستشار لودفيغ فون وستفالن ولقبه، إلا أنه لم يكن من «يونكر» شرقي الألب ولا كان من البيروقراطية البروسية القديمة. كان والده فيليب وستفالن واحدا من أبرز الشخصيات في التاريخ العسكري. فقد كان سكرتير الدوق فرديناند، دون برونشفايغ، الذي قاد جيشا مختلطا تموله انجلترا، وحمى به غرب ألمانيا، خلال حرب السنين السبع، من ميول لويس الخامس عشر ومدام دو بومبادور التوسعية. وقد أصبح فيليب وستفالن رئيس الأركان الحقيقي لجيش الدوق في مواجهة كل الجنرالات الألمان والانجليز. وقد قوبلت خدماته بالعرفان حتى أن ملك انجلترا عرض عليه أن يجعله مساعدا لقائد الجيش، غير أن فليب وستفالن رفض هذا الشرف، غير أنه أجبر على ترويض روح الاستقلال لديه إلى الحد الذي قبل به لقبا، وكانت الأسباب التي حدته إلى ذلك هي الأسباب ذاتها التي حدت هيردر وشيلر إلى قبول المهانة ذاتها: كي يستطيع الزواج من ابنة عائلة بارونات اسكتلندية أتت إلى معسكر الدوق فريديناند لتزور أختا لها متزوجة من الجنرال الذي يتولى قيادة القوات الانجليزية المساعدة.

كان لودفيغ فون وستفالن واحدا من أبناء هذين الزوجين. فورث عن والده اسما تاريخيا في حين كان أجداده لأمه يبعثون ذكريات تاريخية عظيمة، فقد قضى أحد أجدادها في المحرقة خلال النضال من أجل الإصلاح الديني في سكوتلندا، بينما أعدم آخر في سوق ادنبره لكونه قد أثار على جيمس الثاني. ونتيجة لهذا التقليد العائلي كان لودفيغ فون وستفالن في مرتبة أعلى بكثير من ضيق النظر الكريه الذي يتسم به اليونكر ذوي الكبرياء الشبيه بكبرياء الشحاذين والذي تتسم به أيضا البيروقراطية الجاهلة. كان لودفيغ في البداية موظفا في برونشتفايغ، لكنه لم يتردد في الاستمرار في الخدمة عندما ضم نابليون دوقية برونشفايغ الصغيرة إلى مملكة وستفاليا، ذلك أن لودفيغ كان اقل اهتماما بالتقاليد الموروثة من اهتمامه بالإصلاحات التي عالج بها الغزاة الفرنسيون الأوضاع المتردية في وطنه الصغير. غير أن معارضته للسيطرة الأجنبية لم تكن ضعيفة بأي حال.

ولدت ابنته يينى في سالزوديل في الثاني عشر من شباط عام 1814 حيث كان يعمل حاكما إداريا، وبعد سنتين نقل إلى تريير ليعمل كمستشار للحكومة. فقد كان رئيس الوزراء البروسي هاردنبرغ لا يزال في خضم حماسته الأولى، وكان لا يزال يتمتع بحكمة كافية جعلته يدرك أن عليه أن يرسل إلى الراينلاند، التي احتلت حديثا والتي كانت لا تزال تميل بمشاعرها إلى فرنسا، أقدر الرجال وأقلهم تأثرا بالمفارقات اليونكرية المعهودة.

ظل ماركس إلى آخر يوم في حياته يشير إلى لودفيغ فون وستفالن بالعرفان وبأعظم التقدير. وعندما خاطبه بلقب «صديقي الأبوي العزيز» وأكد له «حبه البنوي»، فقد كان في ذلك في الواقع أكثر من واجب عائلي يقوم به زوج الابنة تجاه والدها. فلقد كان باستطاعة وستفالن أن يلقي مقطوعات كاملة من قصائد هومر، وكان يعرف عن ظهر قلب معظم مسرحيات شكسبير بالانجليزية وبالألمانية أيضا. فوجد كارل ماركس في «بيت وستفالن القديم» كثيرا من الحوافز ما كان ليجدها في بيته وما كانت مدرسته لتقدمها له. وكان ماركس منذ السنوات الأولى واحدا من المقربين إلى قلب وستفالن. وليس بعيدا أن يكون وستفالن قد منح موافقته للخطبة بسبب الزواج السعيد الذي كان والداه هو يتمتعان به، ففي نظر الناس اختارت أم وستفالن، بنت العائلة البارونية الارستقراطية، زيجة غير مناسبة عندما اقترنت برجل من العامة فقير ولا يعدو كونه موظفا حكوميا.

لم تعش روح الوالد في ابنه الأكبر الذي اتخذ لنفسه حياة بيروقراطية. بل أسوأ من ذلك، أصبح خلال فترة الرجعية في الخمسينات وزيرا لداخلية بروسيا، ودافع عن المطالب الإقطاعية التي رفعها أكثر اليونكر جهلا وفظاظة حتى ضد رئيس الوزراء مانيتوفل، الذي كان على الأقل بيروقراطيا ذكيا. ولم تكن هناك في أي وقت من الأوقات علاقة حميمة بين هذا الابن، فرديناند فون وستفالن، وبين أخته، التي كانت في الحقيقة أخته غير الشقيقة. فقد كان يكبرها بخمسة عشر عاما وكان ابنا لأبيها من زيجة سابقة.

أما ادغار فون وستفالن فقد كان الأخ الشقيق ليبني. وقد ابتعد هذا إلى اليسار عن الطريق التي انتهجها والده بقدر ما ابتعد أخوه غير الشقيق إلى اليمين. وقد ذهب أحيانا إلى حد التوقيع على البيانات الشيوعية التي كان يصدرها صهره كارل ماركس، ولكنه لم يصبح يوما نصيرا موثوقا. وقد ارتحل إلى ما وراء البحار وتقلبت حظوظه، ثم عاد ليظهر هنا وهناك شخصا جامحا طائشا، ولكنه احتفظ ليبني وكارل ماركس بركن دافئ في قلبه أما هما فقد سميا ابنهما الأول باسمه.

الفصل الثاني

تلميذ هيغل

السنة الأولى في برلين

قرر والد ماركس أنه يجب أن يكمل دراسته في برلين، حتى قبل أن يخطب بيني فون وستفالن. ولا تزال هناك وثيقة مؤرخة في الأول من تموز عام 1863 يسمح فيها هينريخ ماركس لابنه كارل أن يلتحق بجامعة برلين ليتابع فيها دراسة الحقوق والاقتصاد السياسي التي بدأها في بون، لا بل هو يعلن أن ذلك هو ما يرغب فيه.

وقد تكون الخطبة ذاتها قد عززت شعوره بأن عليه أن يتخذ هذا القرار، ذلك أن طبيعة والد ماركس الحذرة جعلته يشعر أن افتراق الحبيبين على الأقل لفترة من الوقت أمر مرغوب فيه. وقد تكون وطنية الأب البروسية سببا في اختياره لبرلين، ولربما وقع اختياره عليها لأن جامعتها لم تكن تحمل تقليد «أيام الكلية الرائعة» التي كان والد ماركس المتعقل يعتقد أن ابنه قد نهل منها الكفاية في بون. لقد قال لودفيغ فويرباخ مشيرا إلى برلين «لا شك أن الجامعات الأخرى باخوسية بالمقارنة مع هذا المشغل».

لم يختر الطالب الشاب برلين بنفسه. فقد كان يحب بلاد الراينلاند المشمسة، وظلت العاصمة البروسية، برلين، بغيضة إلى قلبه مدى العمر، ولا يمكن أن تكون فلسفة هيغل قد اجتذبته إلى برلين، إذ أنه لم يكن يعرف عنها شيئا، على الرغم من أنها بسطت سيادتها على جامعة برلين بعد وفاة صاحبها أكثر مما فعلت وهو على قيد الحياة. ثم كان هناك ما صاحب انتقاله إلى برلين من بعاد عن حبيبة قلبه. صحيح أنه آلى على نفسه أن يقنع بموافقتها على الاقتران به في المستقبل وأن يتخلى عن كل مظاهر الحب والحنان في الوقت الحاضر، ولكن وعود المحبين من هذا القبيل شهيرة بكونها حبرا على ورق. وفيما بعد كان ماركس يقول لأبنائه أن هيامه بوالدتهم قد جعل منه في تلك الأيام مجنون هوى، وفي الحقيقة لم يخلد قلبه الشاب المتقد إلى الراحة إلا بعد أن حصل على إذن بأن يكتب لها على الأقل.

غير أن أول رسالة منها وصلته بعد أن كان قضى في برلين كاملة. ونحن على معرفة بهذه السنة من حياة ماركس أوثق من معرفتنا بأي سنة سبقتها أو لحقتها من حياته، وذلك بفضل رسالة كتبها إلى والديه ليعطيهما «فكرة ما عن السنة المنصرمة هنا». وتكشف هذه الرسالة الممتعة عن الرجل كله ضمن الشاب الصغير السن، الرجل الذي يكافح من أجل الوصول إلى الحقيقة حتى يصل به الأمر حد الإنهاك الجسدي والعقلي، كما تكشف عن ظمأه الذي لا يرتوي إلى المعرفة، وقدرته التي لا حدود لها على العمل المتواصل، ونقده القاسي لنفسه، وتلك الروح المقاتلة الشرسة التي ربما تطغى على القلب والمشاعر ولكن فقط عندما تبدو المشاعر على خطأ.

حصل ماركس على الشهادة الأولى في 22 تشرين الأول 1836. ولم يكن يهتم كثيرا بالمحاضرات الأكاديمية. ففي تسعة فصول استغرق كل منها نصف سنة، وقع على اثنتي عشرة محاضرة فقط، معظمها من المحاضرات الإلزامية في الحقوق، وربما لا يكون سمع غير القليل من هذه المحاضرات الاثنتي عشرة. وكان ادوار غانز المحاضر الرسمي الوحيد في الجامعة الذي ترك أثرا على تطور ماركس العقلي، فقد استمع ماركس إلى محاضرات غانز في قانون العقوبات والقانون المدني البروسي، وقد شهد غانز نفسه بالكد الفائق الذي أبداه ماركس في هاتين المادتين. غير أن السجال القاسي الذي يشنه ماركس في كتاباته الأولى على المدرسة التاريخية في القانون أهم بكثير من أي شهادة من هذا النوع (تكون دائما متأثرة باعتبارات شخصية)، ذلك أن المحامي ذي العقل المدرب فلسفيا، غانز، هو الذي رفع عقيرته بفصاحة وقوة ضد ضيق أفق هذه المدرسة وتحللها وتأثيرها الضار على التشريع وتطور القانون.

لقد درس ماركس، كما يقول هو، الحقوق كمجرد مادة مساعدة مع التاريخ والفلسفة. وفيما يتعلق بهاتين المادتين الأخيرتين، لم يكن ماركس يبدي الكثير من الاهتمام بالمحاضرات على الإطلاق، ولم يفعل أكثر من أن سجل اسمه للمحاضرات الإلزامية المعتادة في المنطق التي كان يلقيها غابلر، الخلفية الرسمي لهيغل الذي كان أكثر أتباع هيغل العاديين عادية. لقد كان كارل ماركس مفكرا في الأساس، وحتى في الجامعة كان يعمل مستقلا، فاكتسب في سنة واحدة غنى في المعرفة ما كانت المحاضرات التي تلقن ببطء لتقدمها له في عشر سنسن أو يزيد.

عند وصول ماركس إلى برلين، صرخ به «عالم الحب الجديد» مسترعيا اهتمامه. فسكبت مشاعره «الممكنة شوقا وتحرقا بلا أمل» نفسها في ثلاثة كراسات ممتلئة بالقصائد المهداة جميعا «إلى عزيزتي وحبيبتي على الدوام يبني فون وستفالن». ووصلت الكراسات إلى يدي يبني في كانون الأول عام 1836، فاستقبلها «بدموع الفرح والحزن»،كما أبلغت صوفي أخت ماركس أخاها في برلين. وبعد ذلك بسنة يصدر الشاعر في رسالة طويلة إلى والديه حكما بالإدانة على بنات أفكاره هذه: «إنها مشاعر مسطحة لا شكل لها ولا هيئة، ليست طبيعية في شيء، كل شيء تذروه الرياح، تناقض كامل بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، أفكار خطابية بدلا من أن تكون تأملات شعرية». وبعد كل هذه اللائحة الطويلة من الخطايا، يبدي الشاعر الحدث، كظرف مخفّف، استعداده «ربما لمنح بعض من دفء المشاعر والمعاناة إلى النار الشعرية».

تتكشف هذه القصائد الشابة، بشكل عام، عن نفس من الرومانسية التافهة، ونادرا ما يتخللها نفس شعري حقيقي. وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت من الناحية الفنية خرقاء وبائسة إلى حد لا يجوز بعد أن غنى كل من هاينه وبلاتن ما غنيا. هكذا بدأت الموهبة الفنية التي كان ماركس

يحوز على قدر كبير منها، والتي عبرت عن نفسها فيما بعد في كتاباته العلمية، تتطور في مسالك جانبية غريبة. لقد ارتفع ماركس بالقدرة الرمزية التي تتمتع بها لغته إلى مصاف أعظم الأدباء الذين كتبوا بالألمانية، وكان يعلق أهمية كبيرة على التناسق الجمالي في كتابته، على عكس أولئك المساكين الذين يعتبرون أن الأسلوب الجاف جفاف الغبار شرط أول للكتابة الجدية، ولكن ورغم ذلك لم تكن موهبة الشعر واحدة من تلك المواهب التي وضعتها في مهده آلهة الفنون والعلوم.

لم يكن الشعر، كما كتب لوالديه، أكثر من اهتمام ثانوي ممتع. فقد كان يدرس الحقوق دراسة شاملة، وكان يشعر فوق كل شيء بالرغبة في مصارعة الفلسفة. فقرأ هينيكوس وثيبوت وغيرهما من الثقاة، وترجم إلى الألمانية الكتابين الأولين من كتب جوستينيان القانونية، وسعى إلى وضع فلسفة للقانون. وقد استهلكت «هذه المعزوفة المشؤومة»، كما يقول، ما يقرب من 300 دفتر، ولكن هذه ربما كانت شطحة قلم. فقد رأى في النهاية «خطل الأمر كله» فرمى بنفسه إلى أحضان الفلسفة ليضع نظاما ميتافيزيقيا جديدا، لكنه انتهى مرة أخرى إلى إدراك عبثية جهوده. وخلال دراسته، تبنى ماركس عادة تلخيص الكتب التي يقرأها، وفي الوقت ذاته تسجيل أفكاره حولها، مثلا قرأ لاوكون بقلم لسنغ وايرفن بقلم سولجر، وتاريخ الفن لوينكلمان والتاريخ الألماني للودن وكان في القوت ذاته يسطر خواطره حولها. كذلك ترجم جرمانيا لتاسيتس، وبدأ تعلم الانجليزية والايطالية بمفرده ولكنه لم يحقق في ذلك سوى القليل من التقدم. ثم قرأ القانون الجنائي لكلاين، وكذلك الحوليات، كما قرأ كل الإنتاج الأدبي الحديث، ولكن ذلك كان عرضا وخلال أوقات فراغه فحسب.

ومرة ثانية كرس ماركس نهاية الفصل لقراءة الشعر، وعندئذ تفتحت أمامه آفاق الشعر الحقيقي وكأنها أرض حوريات تخلب الألباب، وتهاوى أمام عينيه كل ما صنع من الشعر.

طبقا لكل هذا، كانت نتيجة الفصل الأول «كثيرا من ليالي الأرق، ومعارك كثيرة ضيفت وكثيرا من الحوافز الداخلية والخارجية»، ولكن مع ذلك لم يربح ماركس الكثير، بل أنه أهمل الطبيعة والفن والعالم وخسر الأصدقاء. وبالإضافة إلى ذلك عانت صحته من الإجهاد، فكان أن انتقل إلى سترالو، التي كانت حينئذ قرية صيد هادئة صغيرة، بناء على نصيحة الأطباء. وفي سترالو أبلّ ماركس بسرعة واستعاد روحيته المصارعة مرة أخرى.

وفي الفصل الثاني، التهم ماركس كثيرا من صنوف المعرفة، ولكنه بالتدريج أيقن أن فلسفة هيغل هي العمود الثابت الوحيد في فيض الأشياء الدافق. كانت أول معرفة لماركس بهذه الفلسفة مفتتة، فلم يرق له «لحنها الغريب المتنافر»، ولكنه خلال نوبة ثانية من المرض درسها من البداية حتى النهاية، وسرعان ما انضم إلى ناد للهيغيليين الشباب، وهناك في خضم صراع الآراء، أصبح يشعر أنه أكثر ارتباطا «بفلسفة العالم الراهن».

يشرح كارل ماركس كل هذا لوالديه، ويختتم رسالته سائلا إياهما أن يسمحا له بالعودة حالا بدلا من العودة في فصح السنة القادمة، كما سبق أن وعد والده. ويعلن أنه يريد أن يبحث مع والده «التقلبات الكثيرة» التي تعرضت لها شخصيته خلال عملية تكوينها، وأنه لن يستطيع أن يطرح جانبا «الأشباح القلقة» إلا في حضور والديه العزيزين. إن هذه الرسالة عظيمة الأهمية بالنسبة لنا اليوم، فهي مرآة نستطيع أن نرى فيها ماركس الشاب بوضوح، ولكن والديه لم يستقبلاها بسرور. فقد رأى والده، الذي كان قد أصبح يعاني المرض، فيها «الشيطان» الذي طالما خشيه والذي أصبح الآن يخشاه بصورة مضاعفة لأن ابنه وقع في حب «شخص معيَّن» كان الأب الشيخ يحبه كابن له، ولأن عائلة محترمة قد أقنعت أن توافق على علاقة كان من الواضح طبقا لمجريات الأمور أنها ستكون حبلى بالمخاطر والاحتمالات الكئيبة لابنتها المحبوبة. لم يكن والد ماركس أنانيا إلى درجة يملي معها على ابنه طريقا معينا في الحياة إذا كانت الطرق الأخرى تؤدي كذلك إلى الوفاء بـ«التزامات مقدسة»، ولكن ما أصبح الوالد الشيخ يراه أماه لم يكن غير بحر هائج لا يبدو فيه مرسى أمين.

ولذا، قرر الأب على الرغم من «ضعفه» الذي كان يعرفه أفضل من أي شخص آخر أن يكون «قاسيا مرة واحدة»، فكان في جوابه على رسالة ابنه قاسيا على طريقته الخاصة فاختلطت في الرسالة الجوابية المبالغات التي تفتقر إلى الحذر بالتأوهات الحزينة. ويسأل الأب ابنه كيف استطاع القيام بواجباته ويجيب عنه: «ليعنا الله!!! افتقار إلى النظام، وتجول حائر في كل حقول العلم، وتمعن طويل في الأمور تحت قنديل شاحب، واتجاه نحو الشيخوخة في ثوب أكاديمي وشعر غير مصفف بدلا من الاتجاه نحوها وكأس بيرة في اليد. انعزال عن المجتمع ووضع كل ما هو شريف، بما في ذلك حفظ اعتبار الأب، في منزلة ثانوية. حصر الحياة الاجتماعية في غرفة حقيرة تستخدم فيها وسائل يبني الغرامية وعظات الأب لإشعال الغليون، وهذا بالمناسبة أفضل من وقوعها بسبب الفوضى والإهمال في أيدي أشخاص آخرين».

وبعد ذلك يغلب على الأب الأسى، ولكي يبقى قاسيا دون رحمة يحصن نفسه ببعض الأدوية التي وصفها له الطبيب. وينتقل ليعالج بحزم سوء إدارة كارل «أن ابني العزيز ينفق 700 ثالر في السنة لو أننا قد قددنا من ذهب. كل ذلك رغم النصائح ورغم أن أغنى الأغنياء لا يحتاج أكثر من 500 ثالر». وهو بالطبع يعترف أن ابنه ليس مسرفا، ولكن يمكن للمرء أن يتوقع ممن يخترع كل أسبوع نظاما جديدا ليمحوه في الأسبوع التالي أن يتعب رأسه بتفائه الأمور؟ فالكل يمد يده إلى جيب كارل والكل يحتال عليه يمنا وشمالا.

وتمضي الرسالة على هذا النحو بعضا من الوقت، وفي النهاية يرفض الأب بحزم أن يسمح لابنه بالعودة إلى البيت «العودة إلى البيت الآن غباء. إنني أعلم جيدا أنك لا تهتم بالمحاضرات كثيرا –حتى تلك التي تدفع رسومها- ولكنني على الأقل أصر على التمسك باللياقة. إنني لست عبدا لآراء الآخرين، ولكنني لا أحب الثرثرة على حسابي». وعلى أية حال، يستطيع كارل أن يعود في الفصح، كما جرى ترتيب الأمور من قبل، أو حتى قبل ذلك بعشرة أيام، فوالده ليس متزمتا.

وخلال كل هذه الشكاوي نستطيع أن نلمس تأنيبا للابن لأنه لا قلب له. وما دامت هذه التهمة قد وجهت إلى كارل ماركس مرارا وتكرارا فقد يكون من المناسب هنا، إذ ترد هذه التهمة للمرة الأولى ولربما بقدر أكبر من الصحة، أن نقول عنها ما يجب أن يقال. وبالطبع لن نردد الجملة الرائجة عن «الحق في التمتع بالحياة»، فهذه جملة اخترعتها حضارة براقة لتغطي بها أنانيتها الجبانة، وكذلك لن نورد الجملة الأقدم عن «حق العبقري» في السماح لنفسه بأكثر مما يسمح به للإنسان العادي. لقد انبثق النضال المتواصل من أجل الحقيقة وقدر أكبر من الحقيقة الذي وسم ماركس على الدوام من أعماق قلبه. وكما قال مرة، لم يكن مخبأه حصينا إلى درجة تمكنه من أن يدير ظهره «لآلام البشرية»، أو كما قال هتن، معبرا عن الفكرة ذاتها، أثقله الله بقلب جعل أحزان البشرية المعتادة تؤثر فيه بحدة اكبر مما تؤثر في الآخرين. ولم يفعل رجل أبدا أكثر مما فعل ماركس لتدمير الأسباب الجذرية «لشقاء البشرية». ولقد شقت سفينته طريقها في بحار الحياة الهائجة عبر العواصف والأعاصير وتحت نيران متواصلة من الأعداء. وكان علمه يرفرف دائما على الصاري، ولكن الحياة على السفينة ذاتها لم تكن مريحة لا للقبطان ولا للبحارة.

لم يكن ماركس بالتأكيد خلواً من المشاعر نحو من كانوا قريبين له. وصحيح أن روحية الصراع لديه كانت تتغلب على مشاعره عندما يكون ذلك ضروريا، ولكنها لم تكن قادرة البتة على القضاء عليها تماما، وكثيرا ما كان الرجل حين نضج يشكو بمرارة من أن أولئك القريبين منه كانوا يقاسون من حظه السيئ في الحياة أكثر مما كان يقاسي هو ذاته.

سرعان ما بيَّن الطالب الشاب أنه يأبه للضيق الذي يعاني منه والده، فتخلى في الحال عن رغبته في العودة إلى البيت، حتى في عيد الفصح، فسبب ذلك كثيرا من خيبة الأمل لوالدته ولكنه في الوقت ذاته أفعم قلب أبيه بالرضى، وبدأ غضب الأب يتبدد سريعا. غير أن الوالد تمسك بشكاواه وإن يكن قد تخلى عن مبالغاته، فكتب أنه بالتأكيد لا يستطيع مجاراة ابنه في فن التفكير المنطقي المجرد.وكان في ذلك الحين قد تقدم به العمر لدرجة أنه لم يكن يستطيع دراسة المصطلحات الضرورية للدخول في قدس الأقداس. ولكن كانت هناك مسألة واحدة لا ينفع فيها التفكير المجرد، وفي صدر هذه المسألة بالذات التزم الابن صمتا مشوبا بالكبرياء، تلك هي مسألة النقود التي يبدو أنه فشل في فهم أهميتها لرب عائلة كأبيه. وعلى أية حال، أعلن الأب أن الإجهاد يجبره على الإلقاء بأسلحته جانبا.

لسوء الحظ، كان لهذه الجملة الأخيرة معنى أكثر جدية بكثير مما تشير إليه الفكاهة المستترة التي بدأت تظهر في الرسالة مرة أخرى. فقد كانت الرسالة مؤرخة في 10 شباط عام 1838 وكان هينريخ ماركس قد نهض لتوه من فراش المرض الذي كان قد لازمه أسابيع خمسة. لكن التحسن الذي طرأ على صحته ومكنه من النهوض لم يستمر، فعاد إليه المرض، الذي يبدو أنه أصابه في كبده، وساء، إلى أن توفي بعد ذلك بثلاثة أشهر بالضبط في 10 أيار عام 1838. ولقد واتته المنية في وقت مناسب وفر عليه خيبات أمل كانت ستفتت قلبه شيئا فشيئا.

كان كارل ماركس يدرك دوما بامتنان ما كان أبوه له، وكما كان الوالد يحمل ابنه في أعماق قلبه، كذلك حمل الابن صورة أبيه في قلبه إلى أن أخذها معه إلى القبر.

الهيغليون الشباب

قضى كارل ماركس، بعد ربيع عام 1838 عندما فقد أباه، ثلاث سنوات في برلين، فتحت خلالها الحياة الفكرية في حلقة الهيغليين السباب أمامه أسراره الفلسفية الهيغلية.

كانت الفلسفة الهيغلية تعتبر في ذلك الحين الفلسفة الرسمية للدولة البروسية، وكان التنشتاين وزير الثقافة وجوهانز شولز مستشاره الخاص قد أحاطاها بعنايتهما. عظَّم هيغل الدولة بوصفها حقيقة الفكرة الأخلاقية، بوصفها العقل المطلق والهدف المطلق بذاتها، ولذا فقد كان لها بالنسبة له الحق الأعلى تجاه الفرد الذي كان واجبه الأسمى أن يكون عضوا في الدولة. وكان من الطبيعي أن تلقى هذه التعاليم بصدد الدولة ترحيب البيروقراطية البروسية، ذلك أنها كانت تدافع عن تعقب الديماغوجيين2.

لم تكن فلسفة هيغل فلسفة مرائية. وتطور هيغل السياسي يفسر لماذا اعتبر الشكل الملكي، الذي يحتضن أفضل مجهودات عبيد الدولة، أفضل شكل للدولة. وعلى أقصى حد كان هيغل يعتبر أن من الضروري أن تتمتع الطبقات المسيطرة بقدر غير مباشر من المشاركة في الحكومة، ولكن حتى هذا القدر يجب أن يكون محدودا بطريقة اتحادية، ولم يكن مستعدا لاعتبار التمثيل العام للشعب بالمعنى الدستوري الحديث أكثر مما كان ملك بروسيا أو مهبط وحيد متيرنيخ مستعدا لذلك.

غير أن النظام الذي وضعه هيغل لنفسه كان على تناقض عدائي مع الطريقة الجدلية (الديالكتيكية) التي تبناها كفيلسوف. فمع مفهوم الكينونة، يعطي مفهوم اللاكينونة، ومن التناقض العدائي بين المفهومين ينتج المفهوم الأعلى، مفهوم الصيرورة. وكل شيء كائن وغير في الوقت ذاته، ذلك أن كل شيء في حالة تغير مستمر، في تطور صاعد أو هابط مستمر. ولذا فإن التاريخ عملية تطور صاعد من الأدنى إلى الأعلى في تحول لا ينقطع. وقد انطلق هيغل بمعرفته الشاملة ليبرهن على ذلك في أكثر فروع علم التاريخ تنوعا، على الرغم من أنه فعل ذلك فحسب في شكل يتطابق مع مفهومه المثالي الخاص للفكرة المطلقة التي تعبر عن نفسها في كل الأحداث التاريخية. وقد أعلن هيغل أن هذه الفكرة المطلقة هي الروح الجوهرية للعالم كله، رغم أنه لم يعط أي معلومات أخرى عنها.

---

[2] الديماغوجي هو الاسم الذي أطلق على كل الراديكاليين والليبراليين في عصر مترينخ في طول القارة الأوربية وعرضها. فلما منعت كل أشكال التحريف الديمقراطي بموجب قرارات كارلسباد عام 1819، أصبح الديماغوجيون يعتبرون خارجيين على القانون. أما «تعقب الديماغوجيين» فقد كان الاسم الذي أطلق على حملة الاضطهاد الشرس الذي سلط عليهم.

لذا، لم يكن الزواج بين فلسفة هيغل ودولة فريدريك-وليامز أكثر من زواج مصلحة يدوم ما دام كل من الزوجين مستعدا لتكييف نفسه مع الآخر. وقد تم ذلك بشكل ممتاز أيام تعقب اليدماغوجيين. لكن ثورة 1830 أعطت التطور الأوربي دفعة قوية جعلت الناس يعتبرون أن طريقة هيغل أكثر جدارة من النظام الذي وضعه. وعندما تبددت آثار ثورة يوليو، التي كانت ضعيفة على أية حال فيما يتعلق بألمانيا، وخيم صمت القبور مرة أخرى على أرض المفكرين والشعراء، سارعت اليونكرية البروسية إلى نبش رومانسية القرون الوسطى المتعفنة لتواجه بها الفلسفة الحديثة. وقد كان ذلك سهلا على اليونكرية لأن إعجاب هيغل كان موجها إلى البيروقراطية المستنيرة أكثر مما كان موجها إلى البيرقراطية المستنيرة أكثر مما كان موجها إلى اليونكرية، كما أن هيغل رغم كل تعظيمه للدولة البيروقراطية لم يفعل شيئا للحفاظ على الدين بين صفوف الشعب، وهذا المجهود هو لب كل التقاليد الإقطاعية وفي نهاية المطاف تقاليد كل الطبقات المستغِلة.

ولذا حصل الصدام الأول في حقل الدين. فقد أعلن هيغل أن القصص التوراتية يجب أن ينظر إليها بالطريقة ذاتها التي ينظر بها إلى القصص الدنيوية. ذلك أنه ليست هناك علاقة بين الإيمان ومعرفة الأمور الحقيقية والعامة. ثم جاء دافيد شتراوس ليأخذ كلمة المعلم على عواهنها وبنشاط بالغ. فطالب بأن يخضع التاريخ التوراتي للنقد التاريخي المعتاد، ونفذ طلبه هذا في كتابه «حياة يسوع» الذي ظهر عام 1835 وأحدث ضجة بالغة. وفي هذا الكتاب التقط شتراوس خيوط حركة الاستنارة البرجوازية في القرن الثامن عشر، بينما كان هيغل قد تحدث عن «الاستنارة الزائفة» باحتقار بالغ. وقد مكنت شتراوس طريقته الجدلية من أن يخوض في المسألة أبعد مما فعل رايماروس القديم من قبله. ولم يعتبر شتراوس الدين المسيحي خدعة، كما لم يعتبر الحواريين مجموعة من الأوغاد، ولكنه فسر المكونات الخرافية لقصة الإنجيل بالمنتجات الواعية للمجتمعات المسيحية الأولى. واعتبر الكثير من العهد الجديد تقريرا تاريخيا بصدد حياة يسوع، كما اعتبر يسوعا ذاته شخصية تاريخية، بينما افترض أساسا تاريخيا لكل الحوادث الأكثر أهمية التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس.

كان شتراوس من ناحية سياسية غير مؤذ على الإطلاق، وبقي كذلك طيلة أيام حياته، ولكن الصوت السياسي انطلق بحدة أكبر في «هاليش ياربشر»3 التي أسسها عام 1838 كل من ارنولد روغه وثيودور ايشترماير لتكون ناطقة باسم الهيغليين الشباب. وكانت هذه الصحيفة تعني أيضا بشؤون الأدب والفلسفة، وكان المقصود في البداية أن تكون مجرد صفعة لـ«برلينر ياربشر» التي كانت تنطق باسم الهيغليين القدامى. كان روغه قد شارك في حركة «بورشن شافت»4 وقضى ست سنوات في سجون كوبينك وكولبرج ضحية لحملة تعقب الديموغاجيين المجنونة، وسرعان ما أصبح لروغه اليد الطولى في الشراكة مع ايشترماير الذي توفي شابا. لم ينظر روغه إلى مصيره السابق نظرة مأساوية، وفيما بعد أدت به زيجة موفقة إلى أن يصبح محاضرا في جامعة هال. فعاش حياة مريحة رغم مصائبه السابقة، وسمح له ذلك أن يعلن أن نظام الدولة البروسية حر وعادل. وكان بالفعل يود أن يجعل من شخصه مصداقا لقول الموظفين البروسيين الكبار من أن أحدا لا يستطيع النجاح أكثر من ديماغوجي مرتد. ولكن كانت هذه هي المشكلة.

لم يكن روغه مفكرا مستقلا، ولا كان يتمتع بروحية ثورية، ولكن كان له من الثقافة والجلد والعزم ما يكفيه ليكون محررا لصحيفة علمية، وقد قال عن نفسه، في إحدى المناسبات، دون مجانبة الصواب، أنه متاجر بالمواد الفكرية بالجملة. فكان أصبحت «هاليش ياربشر» تحت قيادته ملتقى كل الأرواح الشاردة، ملتقى كل الرجال الذين يتمتعون بالمزية السيئة الحظ من وجهة نظر الحكومة، مزية حقن الصحافة بقدر أكبر من الحيوية. فمثلا، ساهم دافيد شتراوس في اجتذاب انتباه القراء أكثر مما فعل كل علماء اللاهوت الأرثوذكسيين الذين كانوا يقاتلون بأنيابهم وأظافرهم ليبرهنوا على عصمة الكتاب المقدس. صحيح أن روغه تعمد أن يطمئن السلطات إلى أن صحيفته تروج لـ«المسيحية الهيغيلية ولبروسيا الهيغيلة»، ولكن التنشتاين وزير الثقافة، الذي كان قد بدأ يتعرض لضغط الرومانتكيين الرجعيين، لم يثق بهذا التأكيد ورفض أن يستجيب لإلحاح روغه في الحصول على وظيفة حكومية لقاء خدماته. فكانت النتيجة أن بدأت «هاليش ياربشر» تدرك أن شيئا ما يجب أن يفعل لتحطيم القبور التي تثقل كاهل الحرية والعدالة البروسية.

كان الهيغليون الشباب في برلين، الذين قضى كارل ماركس في وسطهم ثلاث سنوات، يساهمون جميعهم تقريبا في «هاليش ياربشر». وكانت عضوية النادي تتكون بصورة رئيسية من محاضرين جامعيين وأساتذة وكتَّاب. ومن بين هؤلاء كان روتنبرغ الذي يصفه كارل ماركس في إحدى رسائله الأولى لأبيه بأنه «أقرب الأصدقاء إليه» يعلّم الجغرافيا في مدرسة برلين للضباط، ولكنه طرد بدعوى أنه وجد ذات صباح ثملا في إحدى الثكنات، ولكن الحقيقة أنه طرد شكا في أنه كتب «مقالات حقودا» في صحف ليبزيغ وهامبورغ. أما ادوارد ماين فقد كان على صلة بمجلة قصيرة العمر نشرت قصيدتين من قصائد ماركس، كانت لسوء الحظ القصيدتين الوحيدتين اللتين نشرتا له. وكان ماكس ستيرنر يعلّم في إحدى مدارس الفتيات في برلين، ولكن من الصعب القول أنه كان ينتمي إلى النادي في الوقت ذاته الذي كان ينتمي فيه ماركس إليه، وليس هناك ما يدل على أنه وماركس عرفا بعضهما شخصيا. وعلى أية حال فإن المسألة ليست على جانب من الأهمية. فليس هناك ارتباط فكري بين الاثنين. ومن جهة أخرى، كان برونو باور، وهو محاضر في جامعة برلين، وكارل فريدريك كوبن، وهو أستاذ في مدرسة دوروثين الثانوية للمواضيع الحديثة، أبرز عضوين في النادي، كما كان لهما أثر عظيم على ماركس.

كان ماركس في حوالي العشرين من عمره عندما انضم إلى نادي الهيغليين الشباب، ولكنه، وكما حدث كثيرا في السنوات اللاحقة كلما دخل حلقة جديدة، سرعان ما أصبح مركز النادي. وقد أدرك كل من باور وكوبن، اللذين كانا يكبرانه بحوالي عشر سنوات، ملكته المتفوقة، فأصبحا يريان في هذا الشاب، الذي لا يزال أمامه الكثير ليتعلمه منهما، خير رفيق. فحمل الكتاب الذي أثار سجالا حادا والذي نشره كوبن عام 1840 في الذكرى المئوية لولادة فريدريك الأكبر ملك بروسيا إهداء إلى «صديقي كارل ماركس».

---

[3] حوليات هال، كانت العادة في ألمانيا في ذلك الحين إصدار ما يسمى بالحوليات، التي لم تكن في الحقيقة غير مجموعة من المقالات، وكان ذلك يعود إلى الرغبة في تفادي الرقابة، التي كانت تطبق بشدة على المنشورات الأصغر حجما، ولكنها لم تكن تطبق على المنشورات التي تتعدى 320 صفحة.

[4] حركة بورش شافت تأسست في بينا عام 1815 كحركة طلابية ديمقراطية برجوازية، وحظرت بموجب قرارات كارلسباد.

كان كوبن يملك قدرا كبيرا من موهبة التأريخ، ولا تزال مساهماته في «هاليش ياربشر» شاهدا على ذلك. ونحن مدينون لكوبن بأول معالجة تاريخية حقا لسيادة الإرهاب خلال الثورة الفرنسية الكبرى. وقد أخضع كوبن ممثلي الكتابة التاريخية المعاصرين، ليو ورانك ورومر وشلوسر، إلى أفضل وأصلب النقد وأكثره حيوية. كما أنه ساهم هو نفسه في مختلف حقول البحث التاريخي: من مقدمة أدبية للميثولوجيا النوردية، تستأهل مكانا إلى جانب أعمال جاكوب غريم ولودفيغ أوهلاند، إلى عمل طويل عن بوذا، اكتسب إعجاب شوبنهاور الذي لم يكن ميالا للهيغيليين القدامى. ولا شك في أن توق رجل مثل كوبن إلى «البعث الروحي» لأسوأ طاغية في التاريخ البروسي (فريدريك الأكبر) كي «يقضي بالنار والحديد على كل أولئك الذين يحولون بيننا وبين الأرض الموعودة» يكفي لإعطائنا صورة عن الوضع الغريب الذي كان يعيش فيه هؤلاء الهيغيليون الشباب.

غير أن هناك عاملين يجب أن لا يصرف النظر عنهما: أولا حاولت الرجعية الرومانتيكية وكل ما يتصل بها كل ما في وسعها لتسويد ذكرى «فريتز القديم» (فريدريك الأكبر). وقد وصف كوبن ذاته هذه الجهود بأنها «مواء رهيب». وثانيا لم يكن هناك بعد تفحص نقدي وعلمي يوفي حياة الملك البروسي حقها، ولم يكن ممكنا ظهور مثل هذا التفحص لأن المصادر الحاسمة الضرورية لعمل كهذا لم تكن قد فتحت بعد. لقد كان فريدريك الأكبر يتمتع بسمعة جعلت منه ممثلا للاستنارة، وكان هذا كافيا كي يعجب به البعض ويكرهه البعض الآخر.

كذلك استهدف كتاب كوبن التقاط خيوط حركة الاستنارة البرجوازية في القرن الثامن عشر، وفي الواقع لاحظ روغه مرة أن بوير وكوبن وماركس يشتركون في أنهم جميعا ينطلقون من هذه الحركة. وقد دحض كوبن «الخطب المصطنعة» ضد فلسفة القرن الثامن عشر. وقال أنه على الرغم من أن رواد حركة الاستنارة البرجوازية الألمان يميلون إلى الإطالة المملة، إلا أننا مدينون لهم بالكثير، وقد كان عيبهم الوحيد أنهم لم يكونوا مستنرين كفاية. وهنا كان كوبن يغمز من قناة مقلدي هيغل الذين يفتقرون إلى التفكير.

وكان أن أصابت الرمية هدفها، فقد شجب فارنهاغن الكتاب في الحال في صحيفة الهيغليين القدامى ووصفه بأنه «مثير للتقزز»، ولربما كان يشعر بألم عميق على وجه الخصوص لكلام كوبن الصريح عن «ضفادع طين المستنقعات»، تلك الثعابين التي لا دين لها ولا وطن، ولا معتقدات ولا ضمير ولا قلب، والتي لا تشعر لا بالبرودة ولا بالحرارة ولا بالفرح ولا بالألم ولا بالحب ولا بالكراهية، التي لا إله لها ولا شيطان، تلك المخلوقات التعيسة التي تتردد على باب الجحيم فلا يسمح لها بالدخول لفرط دناءتها.

عظَّم كوبن «الملك العظيم كفيلسوف عظيم» فحسب، ولكنه ذهب في دفاعه عنه أبعد مما يسمح به حتى مقدار التي كانت سائدة عن فريدريك في ذلك الحين. فقد أعلن «أن فريدريك، خلافا لكانط، لم يلتزم بشكلين من أشكال العقل: أحدهما نظري يقدم شكوكه واعتراضاته بنزاهة وتماسك، والآخر عملي ينوء تحت وصاية الرأي العام ويصلح ما أفسده الأول. وليس هناك غير الفكر البدائي الفج من يعتقد أن فكر (فريتز القديم) النظري يبدو ما ورائيا بالمقارنة مع فكره العملي على وجه الخصوص، على العكس من ذلك، لم يتخلف الملك في فريتز عن الفيلسوف أبدا».

لا شك في أن من يجرؤ اليوم على ترداد ما قاله كوبن يجعل نفسه عرضة لتأنيب أكثر الناس فجاجة وبدائية حتى ولو كانوا من المدرسة التاريخية البروسية القديمة، وحتى في العام 1840، كان من الإفراط وضع أعمال الاستنارة التي وضعها فيلسوف مثل كانط في منزلة واحدة مع نكات الاستنارة المزيفة التي كان يلعبها الطاغية البروسي على الفرنسيين اللامعين الذين قنعوا بأن يكونوا مهرجي بلاطه.

لقد عانى كوبن من فقر وفراغ حياة برلين التي أصابت من الهيغليين الشباب الذين كانوا يعيشون هناك مقتلا، وعلى الرغم من أنه كان يجب أن يكون أكثر قدرة على حماية نفسه من ذلك أكثر من الآخرين، إلا أنها أثرت عليه أكثر مما أثرت عليهم، وعبرت عن نفسها في سجال لا شك في أنه كتبه بجماع قلبه. لقد كانت برلين تفتقر إلى العمود الفقري الصلب الذي منحته الصناعة النامية في الراينلاند للوعي البرجوازي هناك. فكانت النتيجة أنه عندما اتخذت المسائل الراهنة شكلا عمليا، تخلفت العاصمة البروسية عن كولون وحتى عن ليبزيغ وكونيغسبرغ. وقد كتب البروسي الشرقي والسرود عن أهل برلين يقول: «إنهم يظنون أنفسهم أحرارا وجريئين عندما يهزأون بكيرف وهاغن وبالملك والأحداث الجارية، وهم يجلسون بسلام في مقاهيهم يتمازحون بطريقتهم المعهودة». وفي الواقع لم تكن برلين أكثر من ثكنة عسكرية ومدينة سكنية، وكان سكانها البرجوازيون الصغار يعوضون عن الخضوع الجبان الذي يبدونه أمام كل أداة من أدوات البلاط. وكان الملتقى المنتظم لهذا النوع من المعارضة صالون فضائح يديره فارهاغن الذي ارتجف هلعا لفكرة الاستنارة على الطريقة الفريدريكية كما فهمها كوبن.

وليس هناك ما يدعو للشك في أن ماركس لم يكن يشاطر الآراء التي يعبر عنها الكتاب الذي حمل اسمه إلى الجمهور للمرة الأولى. فقد كان صديقا حميما لكوبن وتبنى أسلوبه إلى حد بعيد. وعلى الرغم من أن طريقيهما افترقا بعد ذلك بفترة قصيرة، إلا أنهما ظلا صديقين على الدوام، وعندما عاد ماركس ليزور برلين بعد ذلك بعشرين عاما وجد كوبن «تماما كما كان دوما» واحتفى الاثنان بلقائهما وأمضيا معا كثيرا من الساعات الممتعة. ولم يمض طويل وقت بعد ذلك توفي كوبن في 1863.

3- فلسفة وعي الذات

غير أن كوبن لم يكن القائد الحقيقي للهيغليين الشباب في برلين، بل كان القائد برونو باور الذي كان متعارفا على أنه التلميذ المخلص للمعلم، خاصة وأنه قد أبدى قدرا كبير من الغطرسة في هجومه على كتاب شتراوس «حياة يسوع»، ذلك الهجوم الذي قارعه شتراوس بنشاط. وكان بوير يتمتع بحماية وزير الثقافة، التنشتاين، الذي كان يعتبره شابا موهوبا يعد بمستقبل باهر.

غير أن برونو باور لم يكن ممن يبحثون عن مهنة، وباءت نبوءة شتراوس بالفشل عندما أعلن أن باور سينهي أيامه في «الأكاديمية المحنطة»، أكاديمية هنفستنبرغ. على العكس من ذلك، أمسك باور عام 1839 بخناق هنفستنبرغ الذي أراد أن يصور إله العهد القديم، إله الغضب والانتقام، إلها للمسيحية. وقد بقيت السجالات الأدبية التي نجمت عن ذلك ضمن حدود السجال الأكاديمي، ولكنها كان حادة إلى درجة جعلت التنشتاين العاجز المصاب بالفزع ربيبه المفضل من وسط الاورثوذكسيين المثيرين للشك، الذين كانوا حقودين بقدر ما كانوا أصيلين. فأرسل باور في خريف 1839 إلى جامعة بون كمحاضر، وفي نيته أن يعينه أستاذا قبل نهاية العام.

لكن برونو باور، كما تدل رسائله إلى ماركس، كان يمر في فترة تطور عقلي كانت ستنقله أبعد من شتراوس. فبدأ نقدا للأناجيل حطم في النهاية آخر الحطام الذي تركه شتراوس قائما. وأكد أنه ليست هناك ذرة من الصحة التاريخية في قصة الإنجيل، وأن كل ما فيه نتاج الخيال وأن المسيحية لم تفرض كدين عالمي على العالم الروماني-الإغريقي القديم ولكنها كانت نتاج هذا العالم. وبهذا التطور اتخذ باور الطريق الوحيد الذي يطرح إمكانية الاستقصاء العلمي للمسيحية، فلا غرابة إذن في أن يسخف علماء اللاهوت المعاصرون، الذين يشغلون أنفسهم بتجميل صورة الأناجيل خدمة للطبقات الحاكمة، أي محاولة للتقدم على الطريق الذي شقه برونو باور.

وبينما كانت هذه الأفكار تنضج في رأس برونو باور، كان ماركس صديقه الذي لا يفارقه، وكان يرى فيه أقدر رفيق سلاح. وما أن حط الرحال في بون، حتى بدأ يحاول إقناع ماركس باللحاق به. وكان يقول أن ناديا للأساتذة في بون لا يعدو كونه نادي بلهاء بالمقارنة مع النادي الهيغلي في برلين، فقد كان هذا الأخير على الأقل مركز اهتمامات فكرية. وكذلك كان هناك الكثير من التسلية في بون، أو على الأصح ما يسمونه تسلية، ولكنه لم يضحك في بون يوما مثلما كان يضحك في برلين عندما كان لا يفعل غير اجتياز الطريق مع ماركس. وما على ماركس إلا أن ينهي «امتحانه التافه» (فكل ما يحتاجه الأمر دراسة أرسطو وسبينوزا وليبنتز)، ويكف عن أخذ هذا الهراء بجدية. ولا شك في أن ماركس سيجد فلاسفة بون لعبة سهلة. وفوق كل شيء، فإن من الضروري إصدار صحيفة جديدة، لا سيما وأن تخريف «هاليش ياربشر» لم يعد محتملا. وبرونو باور يشعر بالأسى لروغه، ولكن بحق السماء، لماذا لا يطرد روغه الهوام من صحيفته؟

تبدو رسائل باور ثورية أحيانا، ولكن ما يفكر فيه على الدوام ليس إلا ثورية فلسفية، وهو يميل إلى الاعتماد على دعم الدولة أكثر مما يميل إلى الاعتماد على عدائها. فلم يكد يكتب لماركس في كانون الأول 1839 أنه يبدو مقدرا لبروسيا أن لا تتقدم إلا على حساب هزائمها في المعارك، على الرغم من أن ذلك بالطبع لا يعني خوض هذه المعارك على جثث المئات، حتى ألزم نفسه بعد ذلك ببضعة أشهر وعقب وفاة حاميه التنشتاين والملك العجوز «بأرفع فكرة في حياة دولتنا»، بروح آل هوهنزلرن الذين كرسوا أربعة قرون من الجهد السامي لتسوية العلاقات بين الكنيسة والدولة. وفي الوقت ذاته وعد بأن العلم لن يحجم عن الدفاع عن فكرة الدولة ضد اغتصاب الكنيسة. فالدولة يمكن أن تخطئ، ويمكن أن يعتريها الشك بالعلم فتستخدم ضده سلاح التهديد، ولكن العقل ينتمي إلى الدولة بأصالة لا يمكنها معها أن تخطئ طويلا. أجاب الملك على هذا الولاء بتعيين الرجعي ايشهورن خليفة لالتنشتاين، ومضى ايشهورن حالا إلى التضحية بحرية العلم لصالح اغتصاب الكنسية، وذلك بقدر ما كانت هذه الحرية مرتبطة بفكرة الدولة، أي بحرية التعليم الأكاديمي.

كان باور، سياسيا، أقل جدارة من كوبن، فقد اقترف كوبن خطأ فيما يتعلق بأحد آل هوهنزلرن الذي ارتفع فوق المستوى العام للعائلة، ولكنه ما كان ليقترف خطأ في مما يتعلق «بروح البيت المالك». ولم يكن كوبن أبدا يشعر بالألفة تجاه الإيديولوجية الهيغلية مثلما كان باور، ولكننا يجب أن لا نغفل عن كون قصر النظر السياسي الذي لازم باور لم يكن غير الوجه الآخر لحكمته الفلسفية. فقد اكتشف في الأناجيل الترسبات الفكرية للعصر الذي وضعت فيه، وكان من رأيه –وذلك منطقي من وجهة النظر الإيديولوجية المحضة –أنه إذا كان الدين المسيحي بترسباته الفلسفية الإغريقية –الرومانية المضطربة قد نجح في التغلب على فلسفة العالم الكلاسيكي، فإن النقد الحازم الواضح الذي تقدمه الجدليات الحديثة سيكون قادرا بسهولة أكبر على إزاحة كابوس الثقافة المسيحية-الجرمانية.

لقد كانت فلسفة وعي الذات هي التي أعطت لباور هذه الثقة الملهمة. فقد كانت المدارس الفلسفية الإغريقية قد تطورت من التحلل القومي للحياة الإغريقية وفعلت كل ما بوسعها لإخصاب الدين المسيحي. ولكنها لم تكن لتقارن بأفلاطون في العمق التأملي ولا بأرسطو في المعرفة الشاملة، وقد عاملها هيغل بنوع من الاحتقار. فقد كان الهدف المشترك لهذه المدارس جعل الفرد مفصولا بطوفان جائح رهيب عن كل ما ترسب فيه وشكل حاميا له، جعله مستقلا عن كل ما هو خارج ذاته وسوقه ثانية على حياته الداخلية بحثا عن السعادة الحقيقية في سلام الروح، ذلك السلام الذي يمكن أن يظل ثابتا بينما العالم كله ينهار من حوله.

لكن باور قال أن الأنا النحيلة، في وسط أنقاض عالم يختفي، تخشى نفسها بوصفها القوة الوحيدة. فهي تسلب وعيها نفسه بأن تصور قوتها العامة نفسها على أنها قوة غريبة خارج ذاتها. فهي في إله الإنجيل الذي يتغلب على كل قوانين الطبيعة ويخضع كل الأعداء ويعلن من نفسه حتى على الأرض سيد العالم وحكم كل الأشياء، تخلق أخا معاديا ولكن أخا للحاكم الدنيوي في روما، ذلك الذي يستولي على كل الحقوق ويتمتع بسلطة على الموت وعلى الحياة. غير أن الإنسانية قد تدربت في ظل العبودية للمسيحية على إعداد نفسها بشكل أكثر كمالا للحرية، ولذا فهي تستطيع أن تحيط بها تماما عندما تكسبها. والوعي الأبدي للذات، عندما يحقق ذاته ويفهم ذاته ويستوعب كنهها، يملك قوة تخضع منتجات استلابه هو ذاته.

إذا وضعنا جانبا طريقة الكلام التي كانت سائدة في الحديث الفلسفي في تلك الأيام، فإننا نستطيع أن نشرح بكلام أبسط واقرب إلى الفهم الأمر الذي اجتذب باور وكوبن وماركس إلى فلسفة وعي الذات الإغريقية. فهنا أيضا كانوا في الحقيقة يلتقطون خيوط حركة الاستنارة البرجوازية. لم تنتج مدارس وعي الذات الفلسفية الإغريقية القديمة عبقريا واحدا تمكن مقارنته بعباقرة الفلسفة الطبيعية القديمة من أمثال ديمقريط وهرقليط، ولا بعباقرة الفلسفة المجردة من أمثال أفلاطون وأرسطو، ولكنها مع ذلك لعبت دورا تاريخيا عظيما. فهي قد فتحت أمام

العقل البشري آفاقا رحبة جديدة وكسرت الحدود القومية للهيلنستية كما كسرت الحدود الاجتماعية للعبودية، تلك الحدود التي لم يحلم أفلاطون ولا أرسطو باجتيازها. وهي كذلك أخصبت إلى حد بعيد المسيحية البدائية التي كانت دين المضطهَدين والمعذَّبين، ولم تنتقل المسيحية إلى أفلاطون وأرسطو إلا فيما بعد عندما أصبحت دين القوة المضطهدة والمستغلة. وعلى الرغم من أن هيغل عامل فلسفة وعي الذات بلا اكتراث بشكل عام، إلا أنه أشار صراحة إلى الأهمية القصوى للحرية الداخلية للفرد في خضم مأساة الإمبراطورية الرومانية التي محت بيد من حديد نبل وجمال الفردية الروحية. وقد بعثت حركة الاستنارة البرجوازية في القرن الثامن عشر فلسفات وعي الذات الإغريقية: بعثت شك الشكوكيين Scepties وكراهية الابيقوريين للدين وكذلك المشاعر الجمهورية للرواقيين.

وقد فعل كوبن الشيء ذاته في كتابه عن فريدريك الأكبر، الذي كان يعتبره واحدا من أبطال حركة الاستنارة، حين قال «تمثل الابيقورية والرواقية والشكوكية أعصاب الجسم العضوي الذي حددت وحدته الطبيعية المباشرة جمال وأخلاقية العصور القديمة الكلاسيكية والذي انهار عندما ماتت هذه العصور. وقد تبنى فريدريك الأكبر كل هذه الفلسفات الثلاثة ومزجها بقوة عظيمة، فأصبحت العوامل الرئيسية في نظرته للعالم وفي شخصيته وفي حياته كلها». ولقد كان ماركس مستعدا للموافقة على أن ما قاله كوبن عن علاقة هذه الفلسفات الثلاث بالحياة الإغريقية له «أهمية أكثر عمقا».

شغلت ماركس أيضا المسألة التي اهتم بها رفيقاه، ولكنه عالجها بطريقة مختلفة. فقد سعى إلى «وعي إنساني للذات بوصفه الإله الأسمى» ولم يتسامح أمامه تجاه أي إله، سواء أكان هذا الإله منعكسا في مرآة الدين المشوهة أو في الهواية الفلسفية لطاغية، ولكنه كان يسعى إلى ذلك بالعودة إلى الأصول التاريخية لهذه الفلسفة التي كانت نظمها تمثل بالنسبة له مفتاح التاريخ الحقيقي للروح الإغريقية.

4- رسالة الدكتوراه

كان برونو باور محقا في نفاذ صبره عندما حث ماركس على الانتهاء من «امتحانه السخيف»، فقد كان ماركس حينذاك في خريف 1839 قد درس ثمانية فصول، ولكن باور بالتأكيد لم يفترض أن ماركس يعاني من حمى الامتحان بالمعنى المعتاد وإلا ما كان أكد له أنه يستطيع التغلب على أساتذة الفلسفة في بون في أول لقاء.

كان من صفات ماركس التي لازمته حتى آخر أيامه أن نهمه الذي لا يشبع للمعرفة يمكنه من استيعاب المسائل الصعبة بسهولة، وفي الوقت نفسه كان حس النقد الذاتي الذي لا يرحم لديه يمنعه من الانتهاء منها بالسرعة ذاتها. ولا بد أن ماركس تبعا لذلك غاص في أعمق أعماق الفلسفة اليونانية، ولا شك في أن دراسة نظم فلسفة وعي الذات الثلاثة فحسب لم يكن مسألة تمكن تسويتها بسهولة. وكان من الطبيعي أن لا يفهم باور، الذي ينتج أعماله بسرعة كبيرة لا تضمن لها البقاء، ذلك فانغلز ذاته أبدى أحيانا فيما بعد بعض نفاذ الصبر تجاه ماركس الذي لم يكن يعرف للنقد الذاتي حدودا ولا نهاية.

غير أن «الامتحان السخيف» واجه ماركس، وإن لم يكن باور، بصعوبات أخرى. فحينما كان والده حيا، قرر ماركس أن يختار لنفسه حياة أكاديمية دون أن يتخلى نهائيا عن احتمال اللجوء إلى حياة عملية مهنية. ولكن ومع موت التنشتاين، اختطى أكثر مظاهر الحياة الأكاديمية جاذبية، ذلك المظهر الذي كان يعوض عن نقائصها العديدة، وهو بالتحديد الحرية النسبية التي كانت ممنوحة للفلاسفة في مقاعدهم الأكاديمية. ولم يكن باور ذاته يمل تكرار الإشارة إلى أن هذه هي الفائدة الوحيدة للثوب الأكاديمي.

وفي الواقع، سرعان ما اكتشف باور أنه حتى الأبحاث العلمية لأستاذ بروسي لا يمكن القيام بها دون عوائق. فبعد وفاة التنشتاين في أيار 1840 شغل مستشاره الخاص لاندنبرغ الوزارة وأبدى وفاء لذكرى رئيسه الراحل جعله يريد الوفاء بالوعد الذي قطعه لباور بتعيينه تعيينا دائما في بون. غير أنه ما أن عين ايشهورن وزيرا للثقافة، حتى رفضت كلية اللاهوت في بون تعيين باور أستاذا على أساس أن ذلك سيشوش تناسق الكلية. وبذلك نجحت الكلية في البرهنة على الشجاعة النادرة التي يتحلى بها الأساتذة الألمان عندما يكونون واثقين من أن رؤساءهم يدعمونهم سرا.

كان باور قد أمضى عطلة الخريف في بون، وكان على أهبة العودة إلى بون عندما بلغته الأنباء. وفي الحال جرت نقاشات في دائرة أصدقائه حول ما إذا كان قد حدث انفصال لا صلاح له بين المدرستين العلمية والدينية، وما إذا كان من يدعم المدرسة العلمية يستطيع أن يوفق بين ضميره العلمي وبين العمل في كلية للاهوت. حافظ باور ذاته على وجهة نظره المتفائلة بشأن الدولة البروسية ورفض عرضا شبه رسمي بأن يعمل في حقل الكتابة الأدبية ويتلقى منحة تفرغ من الدولة. وعاد إلى بون مليئا بالعزم على مواصلة المعركة، آملا أن يستطيع مع ماركس الذي سيلحق به حل الأزمة.

ولم يكن أي منهما قد تخلى عن فكرة إصدار مجلة راديكالية معان ولكن آمال ماركس في الحصول على وظيفة أكاديمية في إحدى جامعات الراين بدت ضئيلة على وجه التأكيد. فهو كصديق ومساعد لباور سيتلقى استقبالا عدائيا من طغمة الأساتذة في بون، وهو إلى ذلك ليس مستعدا للعمل بنصيحة باور والسعي إلى رضى ايشهورن أو لاندنبرغ كي يصبح كل شيء في بون «مناسبا». فلقد كانت آراء ماركس بصدد مثل هذه القضايا حازمة جدا، ولكن حتى لو كان ميالا للمضي على هذا الطريق الزلق فإنه ما كان ليستطيع الحفاظ على توازنه طويلا، لأن الأمد لم يطل بايشهورن حتى بدأ يفصح عن لونه الحقيقي. فكي ينتهي من غوغاء الهيغليين المحنطين في جامعة برلين مرة واحدة وإلى الأبد، عين أستاذا يدعي شيلنغ عميدا. وكان شيلنغ هذا عجوزا انتهى في أواخر أيامه إلى الإيمان بالكشف، فقام بوضع حد لطلبة جامعة هال الذين رفعوا استرحاما مهذبا إلى الملك بوصفه عميد الجامعة الأعلى يطلبون فيها تعيين شتراوس أستاذا في هال.

وفي ظل هذه الظروف، قرر ماركس كهيغلي شاب أن لا يقدم امتحانه في بروسيا أبدا. ذلك أنه لم يكن راغبا في إعطاء من يدورون في فلك ايشهورن فرصة الإيقاع به، رغم أنه لم يكن ينوي إطلاق التهرب من النزال. على العكس من ذلك، قرر أن يتقدم برسالة الدكتوراه إلى إحدى الجامعات الصغيرة ثم ينشرها كبرهان على معرفته وقدراته، مصدرا إياها بمقدمة متحدية، ثم يذهب بعد ذلك إلى بون للإقامة فيها وإصدار المجلة الموعودة مع باور. وبهذه الطريقة لن تكون جامعة بون مغلقة أمامه تماما، فهو يستطيع كحامل دكتوراه من إحدى «الجامعة الأجنبية» أن يلتزم ببعض الشكليات فحسب ليحصل على الحرية في الجامعة كمحاضر مستقل.

كانت هذه هي الخطة التي نفذها ماركس فعلا. ففي 15 نيسان تلقى درجة الدكتوراه في الفلسفة غيابيا من جامعة يينا على أساس أطروحة مكتوبة تعالج الفروق بين الفلسفة الطبيعة لابيقور ولديمقريط. وكانت هذه الأطروحة جزءا من عمل أكبر كان ماركس ينوي أن يعالج فيه الفلسفات الشكوكية والابيقورية والرواقية بعلاقتها مع الفلسفة الإغريقية التأملية ككل. أما في الأطروحة ذاتها فقد اكتفى بالإشارة إلى هذه العلاقة على أساس مثال واحد فقط وبالعلاقة مع الفلسفة التأملية الأقدم فحسب.

كان ديمقريط هو الفيلسوف الذي التزم بين الفلاسفة الطبيعيين الإغريقيين الأقدم بالمادية. فمن لا شيء لا يمكن أن ينجم شيء، ولا شيء كائن يمكن أن يفني، وكل تغير ليس إلا اتحاد أو انفصال جزئيات. ولا شيء يحدث عرضا، بل كل شيء يحصل بسبب وبالضرورة. ولا شيء كائن غير الذرات والفراغ، وكل ما عدا ذلك رأي. والذرات موجودة بعدد غير محدود وبتنوع في الأشكال غير محدود كذلك. والذرات جميعا تسقط في الفراغ اللامتناهي، فتصطدم الذرات الأكبر التي تسقط بسرعة أكبر بالذرات الأصغر، فتنجم عن ذلك الركات المادية والدورانات التي تشكل بداية تكوين العوالم. وعدد لا يحصى من العوالم يتشكل ويمضي بتعايش وتتابع.

أخذ ابيقور هذا المفهوم للطبيعة عن ديمقريط، ولكنه أدخل عليه بعض التعديلات، وأشهر هذه التعديلات هو ما يسمي «انحراف الذرات». فقد أكد ابقراط أن الذرات تنحرف في سقوطها، أي أنها لا تسقط في خط عمودي مستقيم بل بانحراف عن هذا الخط. ومن سيسرو إلى بلوتارش إلى ليبنتز وكانط، اتهم ابيقور بالسخف لاعتقاده بهذه الاستحالة الفيزيائية، ووصف بأنه مجرد مقلد لديمقريط أخذ عنه نظامه وشوهه. غير أن هذا الاتجاه نحو شجب السخف الفيزيائي الذي وقع فيه أبيقور كان أحيانا مصحوبا بميل إلى اعتبار الفلسفة الابيقورية أكثر نظام فلسفي مادي رقيا وتطورا في العالم الكلاسيكي، وذلك يعود بدرجة كبيرة إلى أن قصيدة لوقريط التعليمية خلّدت فلسفة أبيقور، بينما لم تستطع البقاء في وجه عواصف القرون والأيام غير بقايا لا أهمية لها من فلسفة ديمقريط. وقد سخَّف كانط انحراف الذرات بوصفه «اختراعا أحمقا»، ولكنه مع ذلك اعتبر ابيقور أنبل فيلسوف للحواس بالمقارنة مع أفلاطون أنبل فلاسفة العقل.

وبالطبع، لم ينكر ماركس وقوع الفلسفة الابيقورية في اللامعقولية الفيزيائية، كما أنه شجب «لامسؤولية أبيقور في تفسيره للظواهر الفيزيائية»، ولكنه بين أن محك الحقيقة الوحيد كان بالنسبة لابيقور شواهد حواسه: اعتقد ابيقور أن قطر الشمس قدمان لأنها كانت تبدو هكذا لعينيه. غير أن ماركس لم يقنع بدحض هذه السخافات الواضحة بجملة أو اثنتين، ولكنه انطلق ليبحث عن العقل الفلسفي في اللاعقل الفيزيائي. ففعل ذلك طبقا للكلمات الجميلة التي استخدمها في تشريف معلمه هيغل في إحدى هوامش الأطروحة حين قال أن مدرسة فلسفية ارتكب معلمها خطيئة التوفيقية يجب أن لا تلومه على ذلك، بل يجب أن تسعى إلى تفسير التوفيقية بنقص المبدأ الذي لا بد أن تكون جذورها ضاربة فيه، وبذلك تحول إلى تقدم للعلم ما يجب أن يبدو تقدما للضمير.

إن ما كان نهايته بذاته بالنسبة لديمقريط، لم يكن غير وسيلة في سبيل غاية بالنسبة لأبيقور. فأبيقور لم يهدف إلى فهم الطبيعة، ولكن إلى الوصول إلى نظرة للطبيعة يمكن لها أن تدعم نظامه الفلسفي. وقد انقسمت فلسفة وعي الذات كما عرفها العالم الكلاسيكي إلى ثلاثة مدارس، فمثل الابيقوريون طبقا لهيغل الوعي المجرد للذات المفردة، بينما مثل الرواقيون الوعي العام المجرد للذات، وكلاهما عقيدتان أحاديتا الجانب، تتعارضان مباشرة، بسبب من أحاديتهما مع الشكوكيين. أو كما عبر مؤرخ لاحق للفلسفة اليونانية عن العلاقة ذاتها حين قال: في الرواقية والابيقورية واجهت المناحي الفردية والعامة للروح الذاتية الانعزال الذري للفرد واستسلامه النابع من وحدة الوجود للذات الكلية بالدعاوي ذاتها، بينما استطاعت الشكوكية توفيق هذا التناقض العائلي.

وعلى الرغم من الأهداف المشتركة التي كانت تحدو الابيقوريين والرواقيين، أن المدرستين سارتا على طريقين مفترقين لاختلاف نقطتي بدئهما. فقد جعل استسلام الرواقيين للذات الكلية منهم جبريين فلسفيا، فضرورة كل حدث أمر بدهي بالنسبة لهم، وجعلهم ذلك أيضا مقتنعين بالجمهورية سياسيا أما في حقل الدين فلم يستطيعوا التحرر من صوفية خرافية محدودة. وقد تطلعوا إلى العون من هرقليط، الذي اتخذ الاستسلام للذات الكلية لديه أقسى شكل متصلب لوعي الذات، على الرغم من أنهم لم يبدوا نحوه سوى القليل من الاحترام كما فعل الابيقوريين تجاه ديمقريط. ومن جهة أخرى، جعل مبدأ الفردية المنعزلة الابيقوريين قدريين فلسفيا، جعلهم دعاة للإرادة الحرة لكل فرد، كما جعلهم ذلك سياسيا يقاسون بصبر-والنصيحة التوراتية: أطيعوا أولي الأمر منكم، موروثة عن أبيقور-بينما جعلهم متحررين من كل رابطة دينية.

ثم يبين ماركس في سلسلة من الأبحاث العميقة كيف يمكن تفسير «الفرد بين الفلسفة الطبيعة لديمقريط ولأبيقور. فقد شغل ديمقريط نفسه بالوجود المادي للذرة، بينما اهتم أبيقور كذلك بالذرة كمفهوم، بشكلها وكذلك بمادتها، بوجودها وكذلك بجوهرها. فاعتبر أبيقور الذرة الأساس المادي لعالم الظواهر، وليس ذلك فحسب، بل اعتبرها أيضا رمز الفرد المنعزل والمبدأ الشكلي لوعي الذات الفردي المجرد. وقد استنتج ديمقريط من السقوط العمودي للذرات ضرورة كل الحادثات، بينما جعل أبيقور ذراته تنحرف عن الخط المستقيم في سقوطها، وإلا فكيف يمكن –كما يتساءل لوقريط، أفضل شارح لأبيقور، قصيدته التعليمية-للإرادة الحرة أن توجد؟ كيف يمكن أن تنتزع إرادة الكائن الإنساني الحي من قبضة القدر العنيدة؟ وهذا التناقض بين الذرة كظاهرة والذرة كمفهوم واضح عبر الفلسفة الأبيقورية كلها، وهو يجبرها على تبني تفسير اعتباطي تماما للظواهر الفيزيائية، تفسير ووجه بالكثير من التسخيف حتى في العالم الكلاسيكي. ولا تزول تناقضات الفلسفة الأبيقورية

الطبيعية إلا في حركات الأجرام السماوية، ولكن في الوقت ذاته يقضي على مبدأ وعي الذات الفردي المجرد في وجه الوجود العام الأبدي. وهكذا تتخلى الفلسفة الأبيقورية الطبيعية عن كل المراسم المادية، وينطلق أبيقور ليحارب بوصفه «أعظم مستنير إغريقي»-كما يسميه ماركس -ضد طغيان الدين الذي يرهب الإنسان بنظرات شؤم ينزلها عليه من أعالي السماء.

يتكشف ماركس في أول عمل له عن مفكر بناء، حتى ولو كان المرء يعارض تفسيره للفلسفة الأبيقورية. وفي الواقع يتبدى تفكيره المستقل بصورة أوضح، إذ أن الاعتراض الوحيد الممكن على تفسيره لأبيقور هو أنه طور المبادئ الأساسية للفلسفة الأبيقورية واستخلص منها نتائج أوضح من تلك التي استخلصها أبيقور ذاته. لقد أعلن هيغل أن الأبيقورية هي الانصراف عن التفكير عن مبدأ، ومن المؤكد أن واضع هذه الفلسفة الذي علّق، كرجل –علّم نفسه بنفسه- أهمية كبرى على لغة الناس العاديين، لم يغلف أفكار بطريقة الكلام التأملية الخاصة بفلسفة هيغل والتي فسر بها ماركس هذه الفلسفة (الأبيقورية). إن تلميذ هيغل، ماركس، يشهد بهذه الأطروحة على نضوجه هو ذاته. فهو يستخدم الطريقة الجدلية استخداما محكما، وأسلوبه يتمتع بقوة التعبير التي ميزت على الدوام لغة معلمه هيغل، والتي كان يفتقر إليها أتباعه بشكل محزن.

غير أن ماركس في عمله هذا لا يزال يقف كلية على الأسس الإيديولوجية للفلسفة الهيغيلية، ولعل أكثر ما يدهش القارئ المعاصر في هذا العمل هو الحكم السلبي الذي أصدره على ديمقريط. فهو يعلن أن كل ما فعله ديمقريط هو وضع فرضية تمثل نتيجة التجربة وليس مبدأها المحرك، ولذا فإن هذه الفرضية لم تتحقق أبدا ولم تؤثر ماديا على الاستقصاء العملي للظواهر الطبيعية. وهو من ناحية أخرى يمتدح أبيقور بوصفه واضع علم الذرة. على الرغم من تفسير هذا الأخير الاعتباطي للظواهر الفيزيائية وعلى الرغم من أنه يبشر بالوعي الفردي المجرد للذات، مع أن ذلك كما يعترف ماركس يلغي كل علم حقيقي موثوق لأن العلم يسود في طبيعته الأشياء لا في الوحدة المفردة.

لم تعد هذه المسألة مطروحة للبحث اليوم. فبقدر ما يوجد اليوم أي علم للذرة، وبقدر ما أصبحت نظرية الجزئيات الأولية وتطور كل الظواهر نتيجة الحركة أساسا لكل الأبحاث المعاصرة في الظواهر الطبيعية وفي تفسير كل قوانين الصوت والضوء والحرارة والتغيرات الكيميائية والفيزيائية في الأجسام المادية، فإن ديمقريط وليس أبيقور هو الرائد. غير أن فلسفة الفترة التي عايشها ماركس، أو على الأصح الفلسفة المجردة التي عايشها، كانت هي العلم لدرجة جعلته يصل نتيجة يصعب علينا اليوم أن نفهمها لولا أنها تبدي جوهر شخصيته ذاته.

ففيما يتعلق بماركس، كان العيش يعني العمل على الدوام، والعمل يعني الصراع. ولذا فإن ما جعله معاديا لديمقريط هو افتقار هذا الأخير إلى «مبدأ محرك» أو، كما قال ماركس ذاته فيما بعد، وقوع ديمقريط في «العيب الرئيسي لكل الماديات السابقة»: تقدير الشيء والحقيقة والحس على شكل موضوع أو فكرة فقط وليس ذاتيا، ليس في الممارسة، ليس في النشاط الإنساني الحسي. ومن جهة أخرى فإن ما جعله ينجذب إلى أبيقور هو «المبدأ المحرك» الذي سمح لهذا الفيلسوف أن يثور على الدين ووطأته الثقيلة.

تبدي المقدمة التي كان ماركس ينوي نشرها مع أطروحته والتي أهداها إلى حمية روحية قتالية شرسة. «ما دامت قطرة من دم تنبض في قلب الفلسفة القاهرة للعالم، فإن الفلسفة ستناهض على الدوام أعداءها بكلمات أبيقور: «ليس شريرا من يحتقر آلهة الجموع، ولكن الشرير من يتقبل رأي المجموع في الآلهة. إن الفلسفة لا ترفض ما قاله بروميثوس (إنني في الحقيقة اشتعل كراهية لكل الآلهة). وعلى أولئك الذين يشكون سوء أحوالهم، يجيب ماركس كما أجاب بروميثوس هيرميز خادم الآلهة: «كونوا على ثقة من أنني لن استبدل مصيري التعيس بعبوديتكم المستكينة».

بروميثوس هو أنبل قديس وشهيد في تاريخ الفلسفة. بهذه الجملة، اختتم ماركس مقدمته الجريئة، التي أفزعت حتى صديقه باور، ولكن ما بدأ لهذا الأخير «تهورا لا ضرورة له» لم يكن في الواقع غير كلام بسيط تفوه به رجل كان مقدرا له أن يعيش بروميثوس آخر في النضال وفي المعاناة كذلك.

5- الانيكدوتا و«راينيخه تزايتونغ»

لم يكد ماركس يحصل على دبلوم الكرامة المكتسبة حديثا حتى انهارت كل الخطط التي وضعها للمستقبل نتيجة ضربات أخرى سددتها الرجعية الرومانتيكية.

ففي صيف عام 1841، عبأ ايشهورن كل كليات اللاهوت في حملة مشينة على برونو باور بسبب من انتقادات باور للأناجيل، وفي الحال خانت كل الجامعات، عدا جامعتي هال وكونيغسبرغ، مبدأ الحرية الأكاديمية البروتستنتي، وكان على باور أن يستسلم. وهنا تبخرت كل آمال ماركس في الحصول على موطئ قدم له في جامعة بون.

وفي الوقت ذاته انهارت خطة إصدار مجلة فلسفية راديكالية. فقد اعتبر الملك الجديد نفسه دعما لحرية الصحافة، وبناء على إصراره تم إعداد قانون جديد محكم للرقابة. وفي نهاية عام 1841 رأى هذا القانون النور، ولكن في ذلك الحين ساد الاعتقاد بأن تقييد حرية الصحافة لم يكن سوى نزوة رومانتكية. لكن الملك أوضح ثانية حقيقة فهمه لحرية الصحافة في صيف 1841 عندما صدر أمر يدعو روغه إلى وضع صحيفته، التي كان يطبعها وينشرها ويغاند في ليبزيغ، تحت تصرف الرقابة البروسية أو تمنع في كل الولايات البروسية. فكان أن أدى هذا الحادث بروغه إلى فهم «بروسيا الحرة العادلة» على حقيقتها، مما جعله ينتقل إلى دويسدن، حيث بدأ هناك اعتبارا من أول تموز عام 1841 إصدار مجلته تحت اسم «دويتشه ياربشر». وفي الوقت ذاته، بادر إلى تبني لهجة أكثر حدة، كان ماركس وباور قد افتقداها في كتاباته السابقة، فجعلهما ذلك يقرران المساهمة في مجلته، بدلا من تأسيس مجلة خاصة بهما.

لم ينشر ماركس في النهاية أطروحة الدكتوراة. إذ لم يعد هدفها المباشر أمرا ملحا، وفيما بعد قال مؤلفها أنها وضعت جانبا بانتظار أن تبعث كجزء من دراسة أكبر عن الفلسفة الأبيقورية والرواقية والشكوكية ككل. لكن «مسائل فلسفية وسياسية من نوع مختلف» لم تسمح لماركس بتنفيذ نيته الأصلية.

كان أحد أهم هذه المسائل البرهنة على أنه ليس أبيقور فحسب، بل وهيغل أيضا، كانا ملحدين تماما. ففي تشرين الثاني 1841 نشر ويفاند «إنذارا» بعنوان «الورقة الأخيرة في الحكم على هيغل والملحدين والمعادين للمسيحية». وفي هذا المنشور عمد المؤلف المجهول، تحت قناع من الإيمان الاورثوذكسي، إلى النواح على إلحاد هيغل بلهجة النبوءة التوراتية، وبرهن على إلحاد هيغل بشكل مقنع جدا من خلال أعمال هيغل ذاته. فاثار المنشور أصداء واسعة، خاصة وأن القناع الاورثوذكسي خدع جمهور القراء في البداية. حتى أن روغه ذاته انخدع به. وفي الواقع لم يكن مؤلف المنشور غير برونو باور، وكان ينوي إتمام العمل مع ماركس والبرهنة من خلال جماليات هيغل وفلسفة الحق لديه على أن الهيغليين الشباب، لا الهيغليين القدامى، هم ورثة المعلم الحقيقيون.

غير أن المنشور مُنع في هذه الأثناء، وبدأ ويغاند يضع عراقيل في وجه نشر أية أجزاء أخرى منه. وبالإضافة إلى ذلك، سقط ماركس مريضا، كما مرض حموه الذي ظل طريح الفراش إلى أن توفي في 3 آذار 1842. وفي ظل هذه الظروف وجد ماركس أن «من المستحيل عمل شيء ذي قيمة»، ولكنه أرسل للمجلة «مساهمة صغرى» في 10 شباط. وفي الوقت ذاته وعد روغه أنه سيضع نفسه بكل قواه تحت تصرف المجلة. كانت «المساهمة الصغرى» مقالة عن تعليمات الرقابة الأخيرة التي صدرت بمبادرة من الملك، وكانت هذه المقالة بداية حياة ماركس السياسية. وفي هذه المقالة يعري ماركس نقطة نقطة بنقده العميق السخافات المنطقية المختبئة وراء ستار من الرومانتيكية الضبابية. وكان موقفه معارضا بصلابة لفرح «الليبراليين المزيفين» وحتى بعض الهيغليين الشباب، الذين ظنوا أن عليهم أن يمجدوا «الشمس المرتفعة في السماء» بسبب «الروح الملكية» التي تتخلل تعليمات الرقابة.

يطلب ماركس في الرسالة التي أرفقها للمقالة طبع المقالة بأسرع ما يمكن «إلا إذا راقب الرقيب نقدي». ولم يكن تشاؤم ماركس في غير محله، ففي 25 شباط كتب له روغه يقول أن «دويتشه ياربشر» تعاني عظيم المعاناة من الرقابة، وأن نشر «مقالتكم قد أصبح مستحيلا». كما أنبأ روغه ماركس أنه قد اختار «نخبة من الأعمال الرائعة» من بين المواد التي رفضتها الرقابة، وأنه ينوي نشرها في سويسرا على هيئة «انيكدوتا (مجموعة أعمال نادرة) فلسفية». وفي 5 آذار كتب ماركس معبرا عن حماسة عظيمة للمشروع. وكان نشر مقالة ماركس عن الفن المسيحي، التي كان ينوي إصدارها كجزء ثان من «الورقة الأخيرة» قد أصبح مستحيلا بسبب «انبعاث الرقابة» في ساكسونيا. فأعاد ماركس كتابتها وعرض على روغه أن يضمنها للانيكدوتا، بالإضافة إلى دراسة نقدية لفلسفة الحق الطبيعي لدى هيغل. وأبلغه أن هذه الدراسة النقدية تبدي ميلا إلى الهجوم على الملكية الدستورية بوصفها هجينا متناقضا تماما في ذاته. قبل روغه المقالتين، ولكنه لم يتسلم شيئا غير المقالة التي تعالج تعليمات الرقابة.

وفي 20 آذار أعلن ماركس أنه ينوي تخليص مقالته في الفن المسيحي من أسلوب «الورقة الأخيرة» ومن الحدود الضيقة التي تفرضها طريقة الكلام الهيغلية، ليخصها في القوت ذاته بمعالجة أكثر كمالا وأكثر تحررا. ووعد أن ينهي ذلك في منتصف نيسان. وفي 27 نيسان كانت المقالة قد «قاربت على الانتهاء» وتسلم روغه رسالة من ماركس يطلب منه فيمها أن «يمهله بضعة أيام أخرى»، ويخبره أنه سيحصل على ملخص للعمل فحسب، لأن المقالة نمت وكبرت فأصبحت كتابا. ووعد ماركس أنه سيكون مستعدا للتخلي عن كل محاولة لإيجاد عذر إلا إذا كانت «عوامل خارجية غير سارة» تشكل عذرا كافيا. ووعد كذلك أن لا يمس أعمالا أخرى قبل أن تنتهي مساهمته في الانيكدوتا. وفي 21 تشرين الأول أرسل روغه لماركس يقول له أن الانيكدوتا جاهزة للنشر في زيوريخ، وأنه لا يزال يحتفظ لماركس بمكان فيها، على الرغم من أن ماركس كان حتى الآن كريما في وعوده أكثر منه في عمله، ومع ذلك فروغه يعرف ما الذي يستطيع أن يعمله ماركس حين يقرر العمل.

كان روغه يكبر ماركس بستة عشر عاما، ولكنه مثل كوبن وباور كان يكن احتراما عظيما لقدرات ماركس الشاب، رغم أن ماركس أفقده صبره. إذا لم يكن ماركس أبدا كاتبا يرتاح للتعامل معه ناشروه أو مساعدوه، ولكن أحدا من هؤلاء لم يفكر أبدا في أن يعزو التأخير الناجم عن غنى الأفكار وعن ميل إلى النقد الذاتي لا يحم إلى الكسل أو الإهمال.

وفي هذه الحالة الخاصة التي نحن بصددها، كان هناك عامل آخر إعطاء مزيدا من العذر في نظر روغه، ذلك أن اهتماما أقوى بكثير من الاهتمام الفلسفي بدأ يشغل ماركس. فهو قد دخل بمقالته عن تعليمات الرقابة الحلبة السياسية، واستمر في نشاطه هذا على أعمدة «راينيخه تزايتونغ» بدلا من أن يحيك خيوط الفلسفة للانيكدوتا.

تأسست «راينخه تزايتونغ» في كولون في 1 كانون الثاني 1842، ولم تكن في البداية صحيفة معارضة إطلاقا، بل كانت مؤيدة للحكومة. ومنذ بدء المشاكل مع المطارنة في الثلاثينات أصبحت «كولونيخه تزايتونغ» بمشتركيها الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف لسان حال حزب الالترامونتين الذي كان يسيطر على الراين بلا منازع ويسبب لسياسة الحكومة متاعب جمة. ولم يكن موقف «كولونيخه تزايتونغ» نابعا من أي حماسة حقيقية للقضية الكاثوليكية بقدر ما كان ناجما عن اعتبارات تجارية، فقد كانت تعي تمام الوعي أن قراءها أبعد ما يكونون عن الافتتان بشريعة برلين. وقد كان احتكار «كولونيخه تزايتونغ» قويا لدرجة أن أصحابها كانوا ينجحون باستمرار في شراء أي صحيفة منافسة حتى ولو كانت تتمتع بدعم من برلين. وفي كانون الأول 1839 منح امتياز لصحيفة «راينخه الغماينه تزايتونغ» أملا في أن تستطيع كسر احتكار «كولونيخه تزايتونغ»، ولكن لم يمض طويلا وقت حتى كانت «راينيخه تزايتونغ» مهددة بالمصير الذي لحق سابقاتها. وفي اللحظة الأخيرة، تدخلت مجموعة من الأثرياء واشترت أسهم الصحيفة لتطلقها من جديد على أسس جديدة. فحبذت الحكومة المشروع، وسمحت للصحيفة التي أعيد تنظيمها تحت اسم «راينيخه تزايتونغ» باستخدام امتياز سابقتها.

لم تكن برجوازية كولون تنوي التسبب في متاعب للنظام البروسي، على الرغم من أن عامة الشعب في الرانيلاد كانت تكره النظام بوصفه استعبادا أجنبيا. وكانت التجارة تتطور في الرانيلاند بشكل مرض جعل البرجوازية تتخلى عن عواطفها الموالية للفرنسيين، وبعد إنشاء الزولفرين (الاتحاد الجمركي) أصبحت البرجوازية تطالب عمليا بسيادة بروسيا على ألمانيا كلها. وكانت مطالب البرجوازية في الراينلاند متواضعة جدا بالمقارنة مع مطالبها الاقتصادية التي كانت تهدف إلى تحقيق سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي في الرانيلاند، حيث كان هذا النمط قد حقق تقدما عظيما. فرفعت المطالب التالية: الإدارة الاقتصادية لأموال الدولة، وتوسيع خدمات السكك الحديدية، وتخفيض رسوم المحاكم والطوابع، وإدخال علم مشترك وقناصل مشتركين للزولفرين، وباختصار كل المسائل التي تظهر على لائحة الرغبات البرجوازية.

غير أنه تبين أن الرجلين اللذين أنيطت بهما مهمة إعادة تنظيم هيئة تحرير الصحيفة، وهما جورج يونغ وداغبورت أوبنهايم، هما من الهيغليين الشباب المتحمسين، وأنهما متأثران إلى حد بعيد بموسى هس، الذي كان ابن رجل أعمال من الراين والذي لم يدرس الفلسفة الهيغلية فحسب، بل درس الاشتراكية الفرنسية كذلك. فقام هذان الرجلان باستخدام كتاب من حلقتهما الثقافية وعلى الأخص من الهيغليين الشباب، حتى أنهما بناء على نصيحة من ماركس أناطا بروتنبرغ مهمة تحرير المقالة المنتظمة الخاصة بالشؤون الألمانية، مع أن هذه النصيحة التي قدمها ماركس لم تكن فكرة سديدة كما تبين في ما بعد.

لا بد أن ماركس كان مرتبطا بالمشروع منذ البداية. فقد نوى الانتقال من تريير إلى كولون في نهاية آذار، ولكنه وجد أن الحياة في كولون صاخبة إلى حد لا يتحمله، فحط رحاله مؤقتا في بون التي كان برونو باور قد اختفى منها ملاحظا «أن من المؤسف أن لا يبقى أحد ليضايق الارثوذكسيين». وبدأ ماركس في بون مساهماته في «راينيخه تزايتونغ»، تلك المساهمات التي جعلته يتخطى بكثير غيره ممن كانوا يساهمون في الكتابة في تلك الصحيفة.

وعلى الرغم من أن الارتباطات الشخصية ليونغ واوبنهايم كانت الوسيلة الأولى لجعل الصحيفة ملتقى للهيغليين الشباب، إلا أن من الصعب الافتراض أن هذا التغير في طابع الصحيفة كان ممكنا دون موافقة أو علم أصحابها. ولربما كان هؤلاء أذكياء لدرجة أدركوا معها أنهم لن يستطيعوا أن يجدوا في ألمانيا كلها أدمغة احدّ وأمضى من تلك التي تساهم في صحيفتهم. ولقد كان الهيغليون الشباب موالين لبروسيا، ولربما كان برجوازية كولون تعتبر كل ما عدا ذلك مما يكتبه هؤلاء ولا تستطيع فهمه مجرد مفارقات غير ضارة. ومهما كان التفسير الصحيح لهذا الأمر، فإن أصحاب الجريدة لم يتدخلوا في شؤونها، على الرغم من أن الشكاوي من «الميل التخريبي» للصحيفة بدأ ترد من برلين في الأسابيع الأولى لنشوء الصحيفة، حتى أن برلين هددت في نهاية الربع الأول من العام بمنع الصحيفة كلية. وكان ما أثار الإدارة الحكومية في برلين بصورة رئيسية تعيين روتنبرغ الذي كان في نظرها ثوريا رهيبا والذي كان موضوعا تحت رقابة سياسية صارمة. وحتى في أيام آذار 1848، كان فريدريك وليم الرابع يرتعد أمام روتنبرغ معتقدا أنه المحرض الحقيقي للثورة. ولكن على الرغم من الاستياء الذي عم برلين من الصحيفة، لم توجه لها الضربة القاضية، ويعود ذلك بصورة رئيسية على أن ايشهورن، وزير الثقافة، كان برغم رجعيته الكاملة، يشعر بضرورة وجود ما يعادل الاتجاهات الالترامونتينية[5] في «كولونيخه تزايتونغ». وعلى الرغم من أن «راينيخه تزايتونغ» تكاد «تكون أكثر خطورة»، إلا أنها مع ذلك كانت تلعب بأفكار لا يمكن أن تجتذب العناصر الصلبة والموثوقة في المجتمع.

لم يكن هذا بالتأكيد خطأ المساهمين الذين أرسلهم ماركس، وفي الواقع عملت الطريقة العملية التي عالج بها ماركس المسائل الراهنة أكثر مما عملت حتى مساهمات برونو باور وماكس ستيرنر للتوفيق بين أصحاب الصحيفة وبين الهيغلية الشابة. وإلا فإن من المستحيل فهم كيف عين ماركس محررا للصحيفة في تشرين الأول 1842 بعد بضعة أشهر من إرسال أول مقالة له.

للمرة الأولى، أتيحت لماركس فرصة إظهار مقدرته الفائقة على أخذ الأمور كما هي وعلى جعل الظروف المتحجرة ترقص بأن يعزف لها أغانيها.

6- مجلس مقاطعة الراين

خلال السنة المنصرمة، انعقد المجلس المحلي لمقاطعة الراين تسعة أسابيع في دسلدورف، فمضى ماركس في سلسلة من خمس رسالات طويلة لإيضاح نشاطاته. فبين أن مجالس المقاطعات عاجزة، وأنها هيئات تمثيلية مزيفة أقامها العرش البروسي ليخفي بها نكثه للوعد الذي قطعه عام 1815 بمنح دستور للبلاد. فهذه المجالس تعتقد جلساتها مغلقة ولم يكن يسمح لها في أحسن الأحوال بإبداء رأيها إلا في مسائل محلية تافهة. ومع ذلك لم تجتمع هذه المجالس إطلاقا بعد نشوب المشاكل مع الكنيسة الكاثوليكية في كولون وبوسن عام 1837، ولم تكن المعارضة للحكومة لتأتي، إن أتت، من غير مجلسي الراين وبوسن، ولكنها حتى حينذاك لا يمكن أن تكون غير معارضة الترامونتينية.

كانت هذه الهيئات الثمينة محمية بفعالية كبيرة من أية انحرافات ليبرالية باشتراط أن تكون ملكية الأرض شرطا لازما للعضوية. وأن يكون نصف الأعضاء من ارستقراطية الريف وثلثهم من ملاك الأراضي المدنيين وسدسهم من ملاك الأرض الفلاحين. غير أنه لم يكن وضع هذا المبدأ الرفيع موضع التنفيذ بكل عظمته في كل مكان، فمثلا كان من الضروري القيام بتنازل أو اثنين للروحية العصرية في الرانيلاند، لكن ارستقراطية الأرض كانت تشكل على الدوام أكثر من ثلث الأعضاء، ولما كانت كافة القرارات تتخذ بأغلبية ثلثي الأصوات، لم يكن ممكنا تمرير أي قرار دون موافقة الارستقراطية. أما ملاك الأراضي المدينيون فقد كانوا خاضعين لتحديد هو أنه يجب أن تكون قد مرت عشر

[5] نزعة كاثوليكية متعصبة تنادي بالسيادة المطلقة للبابا.

سنوات متواصلة على ملكيتهم للأرض قبل أن يصبحوا أهلا للترشيح للمجالس. وكاحتياط احترازي آخر، احتفظت الحكومة بحقها في الاعتراض على انتخاب أي موظف رسمي مديني.

وعلى الرغم من أن مجالس المقاطعات كانت موضع احتقار عام، إلا أن فريدريك وليم الرابع أعاد عقدها عام 1841 بعد اعتلائه العرش، وذهب أبعد من ذلك فوسع صلاحيتها نوعا، ولكن ذلك لم يكن إلا لخداع دائني الدولة الذين وعدهم العرش عام 1820 بعدم تعويم قروض جديدة إلا بموافقة الجمعية العامة للرايخ التي ستنشأ في المستقبل. وقد قام جوهان جاكوبي بإصدار كتيب شهير يدعو فيه مجالس المقاطعات أن تطلب من العرش الوفاء بوعده، ولكنه لم يلق سوى آذان صماء.

وحتى مجلس الراين استسلم بشكل مخز، وفعل ذلك في المسائل السياسية المتعلقة بالكنيسة، تلك المسائل ذاتها التي كانت الحكومة تخشاه بسببها. فقد رفض المجلس بأغلبية ثلثي الأصوات طلبا يقضي بمحاكمة مطران كولون الذي ألقي عليه القبض بصورة غير قانونية أو إعادته إلى منصبه، على الرغم من أن عدالة هذا المطلب لم يكن يرقى إليها الشك سواء من وجهة النظر الليبرالية أو الالترامونتينية. ولم يأت المجلس إطلاقا على ذكر الدستور وعالج بطريقة جد جبانة التماسا وقعه أكثر من ألف من مواطني كولون يطالبون فيه بالسماح للجمهور بحضور جلسات المجلس ونشر تقرير يومي كامل عن أعماله، كما طالبوا بحق بحث أمور المجلس وغير ذلك من أمور المقاطعة في الصحافة وإصدار قانون صحافة محدد بدلا من الرقابة. فكان كل ما فعله المجلس أن طلب من الملك السماح له بنشر قائمة بأسماء المتحدثين في جلساته، وبدلا من طلب إصدار قانون صحافة محدد، طالب المجلس بإصدار قانون رقابة يمنع التطبيق الاحتياطي للرقابة على الصحف. فكانت مكافأة العرش للمجلس على هذا الجبن الرفض الحازم حتى لهذه المطالب المتواضعة.

ولم يبد المجلس أمائر الحياة إلا عندما انتفض مدافعا عن مصالح ملاكي الأرض. ولقد كانت إعادة القوانين الإقطاعية القديمة أمرا غير ممكن (حتى أن الرأسميين الذين أرسلوا إلى الرانيلاند أرسلوا إلى برلين تقارير بهذا المعنى)، ذلك أن أي محاولة لفعل شيء من هذا القبيل ستواجه معارضة شرسة من قبل أهالي الرانيلاند. فهؤلاء ليسوا مستعدين على وجه الخصوص للتسامح تجاه أي تدخل في حق تقسيم ملكية الأرض تقسيما إراديا، سواء أكان ذلك في مصلحة ارستقراطية الريف أو مصلحة الفلاحين، على الرغم من أن التقسيم غير المتناهي للملكيات الزراعية قد أدى فعلا إلى تفتيت الملكيات، كما بينت الحكومة عن حق. ولذا فقد رفض المجلس بأغلبية 49 صوتا ضد ثمانية أصوات اقتراحا بوضع قيود معينة على تقسيم الأراضي «لمصلحة الحفاظ على طبقة فلاحية قوية»، وكان ذلك لأن المجلس متفق مع المقاطعة التي يمثلها حول هذه النقطة بالذات. ولكن بعد ذلك غاص المجلس في التشريع على هواه وأقر عددا من القوانين اقترحتها الحكومة ضد جمع العيدان أو انتهاك الأراضي الخاصة والغابات. لقد عن ملاك الأرض في المجلس بلا حياء ولا وازع سلطاتهم التشريعية واستخدموها لمصالحهم الخاصة.

وضع ماركس خطة شاملة لمقارعة المجلس. ففي الرسالة الأولى، التي كانت مؤلفة من ست مقالات طويلة، عالج مناقشات المجلس حول حرية الصحافة ونشر تقرير عن أعمال المجلس. وقد كان السماح للمجالس بنشر تقرير عن أعمالها دون نشر أسماء المتكلمين أحد الإصلاحات التي حاول الملك أن يشجع بها المجالس، ولكنه واجه في ذلك معارضة عنيفة من المجالس ذاتها. ولم يذهب مجلس الراين مذهب مجلسي بوميرا وبرانبدرغ اللذين رفضا رفضا قاطعا نشر أي تقارير عن أعمالهما، ولكن الغطرسة الغبية، التي تجعل الممثلين المنتخبين كائنات عليا غير خاضعة لنقد من يدلون بأصواتهم، كشف عن نفسها أيضا في سلوك مجلس الراين. «لا يستطيع المجلس أن يتحمل ضوء النهار. فسرية دائرته الخاصة به توافقه أكثر بكثير. وإذا كانت مقاطعة قد حبت جماعة من الأفراد بثقة كافية إلى حد أنها أناطت بهم تمثيل حقوقها، فإن من الطبيعي أن يكون هؤلاء الأفراد متواضعين بما فيه الكفاية ليقبلوا هذا الشرف، ولكن من المبالغة أن يطلب مهم أن يخضعوا أنفسهم ونمط حياتهم وسلوكهم لحكم المقاطعة التي لم تكد تعطيهم ثقتها». بهذه السخرية الجميلة، يتهكم ماركس على أول ظهور لتلك الظاهرة التي اسماها فيما بعد «القماءة البرلمانية»، تلك الظاهرة التي كرهها طوال عمره.

ولم يكن سيف ماركس أكثر حدة وقسوة فيما مضى منه فيما يتعلق بحرية الصحافة. ولقد اعترف روغه دون حسد «بأن من المستحيل أن يقال شيء أكثر عمقا أو أبعد كمالا» مما قاله ماركس «في صالح حرية الصحافة. وإننا لنستطيع أن نهنئ أنفسنا لأن هذا التمكن العبقري الناضج من الأفكار التي طالما عانت من التشوش المبتذل قد وجد طريقه إلى صحافتنا». وفي إحدى المقاطع يشير ماركس إلى الطقس الجميل السعيد لبلاده، وحتى اليوم يتبدى في تلك المقالات دفء وإشعاع الصيف يداعب كروم العنب على ضفاف الراين. تحدث هيغل مدة عن «الذاتية التعيسة لصحافة سيئة يمكن لها أن تصفي كل شيء». لكن ماركس عاد إلى حركة الاستنارة البرجوازية، فتعرف في «راينيخه زايتونغ» على الكانطية بوصفها النظرية الألمانية للثورة الفرنسية. غير أنه عاد إليها بكل اتساع الأفق السياسي والاجتماعي الذي فتحته أمامه جدليات هيغل. ويكفي المرء أن يقارن مقالات كارل ماركس في «راينيخه زايتونغ» بمقالات جاكوبي «أربع أسئلة» ليتيقن من عظم تفوق ماركس. فقد ناشد جاكوبي المرة تلو الأخرى الوعد الملكي بإصدار الدستور وكأنه لب المسألة وجوهرها، بينما لم يعتبر ماركس هذا الوعد حريا حتى بالذكر.

ومع كل مديح ماركس للصحافة الحرة بصفتها العين اليقظة للشعب بالمقارنة مع الصحافة الخاضعة للرقابة التي تعاني من رذيلة أساسية هي الرياء، تلك الرذيلة التي تولد كل الرذائل الأخرى بما فيها نقيصة السلبية، المثيرة للتقزز حتى من وجهة النظر الجمالية، إلا أنه لم يغفل الأخطار التي تتهدد الصحافة الحرة. لقد طالب أحد ممثلي الملاك بحرية الصحافة كجزء لا يتجزأ من حرية التجارة، أما ماركس فقد تساءل «هل يمكن اعتبار صحافة تمتهن نفسها لتصبح تجارة صحافة حرة؟ لا شك في أن على الكاتب أن يكسب مالا ليتمكن من العيش والكتابة... إن أول حرية للصحافة يجب أن تكون تحريرها من التجارة. والكاتب الذي يحط من قدر الصحافة ليجعل منها وسيلة مادية يستحق عقابا على هذه العبودية الداخلية عبودية خارجية هي الرقابة، أو لربما كان وجوده ذاته عقابا له». لقد التزم ماركس طيلة حياته بهذه المبادئ وعاش بالمعيار

ذاته الذي كان يطالب الآخرين بالالتزام به: يجب أن تكون الكتابة غاية بذاتها، ويجب أن لا تكون وسيلة له وللآخرين إلا بأقل قدر، حتى أنه يتوجب عليه إذا دعت الضرورة أن يضحي بوجوده ذاته في سبيل كتاباته.

كانت الرسالة الثانية حول أعمال مجلس الراين تعالج «مسألة المطران» كما كتب ماركس ليوتغ. لكن الرقابة منعت هذه الرسالة فلم تر النور، على الرغم من أن روغه عرض أن ينشرها في الانيكدوتا. وكتب ماركس لروغه في 9 تموز 1842 قائلا «لا تظن أننا نعيش هنا في الراينلاند في جنة سياسية. فإدارة جريدة مثل راينيخه تزايتونغ أمر يحتاج إلى إصرار وتصميم عظيمين. لقد رفضت الرقابة مقالتي الثانية عن المجلس التي تعالج مشاكل الكنيسة، والتي بينت فيها أن المدافعين عن الدولة قد اتخذوا لأنفسهم موقفا دينيا، بينما اتخذ المدافعون عن الكنيسة موقفا سياسيا. ولا شك في أن رفض مقالتي أمر مؤسف لأن كاثوليكي كولون الأغبياء كانوا سيقعون في الفخ فيجذب الدفاع عن المطران عددا متزايدا من الناس. وبالمناسبة، إنك بالكاد تستطيع تخيل غباء الطريقة التي عامل بها الطغاة المقاطعة الاورثوذكسية. ولكن المسألة تتوجت بالنجاح، فقد قبلت بروسيا إقدام البابا أمام العالم كله، ولكن حكومتنا مع ذلك لا تزال تظهر في العلن دون أن تحمر خجلا». تشير الكلمات الأخيرة إلى أن فريدريك وليم غامر تبعا لميوله الرومانتكية بالتفاوض مع الإدارة البابوية، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن أظهرت عرفانها بتخطيه شمالا ويمينا طبقا لأعرق التقاليد البابوية.

إن ما يكتبه ماركس في هذه الرسالة إلى روغه لا يعني أن ماركس كان يريد حقا بدفاعه عن المطران أن يوقع الكاثوليك المغفلين في مصيدة. على العكس من ذلك، ظل ماركس مخلصا تمام الإخلاص لمبادئه ومنطقيا تماما عندما أعلن أنه بإلقاء القبض بصورة غير قانونية على المطران لأنه قام بواجباته الدينية، ومطالبة الكاثوليكيين بمحاكمة قانونية للرجل الذي ألقي القبض عليه خلافا للقانون، اتخذ المدافعون عن الدولة موقفا دينيا واتخذ المدافعون عن الكنيسة موقفا سياسيا. ولا شك في أنه كان أمرا حاسما جدا أن تتخذ «راينيخه تزايتونغ» موقفا صحيحا في عالم مضطرب، وذلك بالضبط للأسباب التي يذكرها ماركس في الرسالة ذاتها إلى روغه: لأن الحزب الالترامونتيني الذي كانت الصحيفة تعارضه بنشاط كان أخطر قوة سياسية في الرانيلاند ولأن المعارضة اعتادت أن تشن نضالها ممن داخل الكنيسة ومن داخلها فقط.

عالجت الرسالة الثالثة، التي كانت مكونة من خمس مقالات طويلة، أعمال المجلس بصدد قانون ضد جمع العيدان في الغابات. وفي هذا المجال اضطر ماركس أن «يهبط من عليائه إلى الأرض»، أو أنه كما فسر الأمر في مجال آخر، شعر بالإحراج إذ وجد أنه يتعين عليه أن يتحدث عن مصالح مادية لم يجعل هيغل لها مكانا في نظامه الإيديولوجي. وفي الواقع لم يتمكن ماركس من معالجة المشكلة بالدقة التي كان سيعالجها بها لو فعل ذلك في السنين اللاحقة. كانت المسألة موضع الخلاف نزاعا بين الحقبة الرأسمالية النامية وبين آخر بقايا الملكية العامة للأرض، كانت صراعا قاسيا بهدف نزع ملكية جماهير الشعب. فمن 207478 حكما جنائيا بدأت في روسيا عام 1836 كان ما لا يقل عن 150 ألفا، أي ما يقارب الثلاثة أرباع، يتعلق بجمع العيدان في الغابات وانتهاك أراضي الغير الخ.

استطاعت المصالح الاستغلالية لملاك الأراضي، خلال مناقشات المجلس، أن تفرض بلا خجل دعاواها، حتى أنها ذهبت في ذلك أبعد من نصوص مشروع القانون الذي قدمته الحكومة. فدخل ماركس الحلبة بنقد لاذع نيابة عن «الجماهير التي لا تملك والتي لا حقوق سياسية واجتماعية لها». غير أن تفكيره كان لا يزال قائما على اعتبارات العدالة وليس بعد على اعتبارات الاقتصاد. فطالب بأن لا تخرق الحقوق المعتادة للفقراء، ووجد أساس هذه الحقوق في شكل غامض إلى حد ما من أشكال الملكية لم يكن طابعه طابع ملكية خاصة بشكل محدد ولا طابع ملكية عامة، ولكن مزيجا من كليهما معا، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات القرون الوسطى. وقد قضى على هذه الأشكال الهجينة الغامضة من الملكية بتطبيق نصوص القانون المدني المجرد المأخوذ من القانون الروماني، ولكن الحس الغريزي بالعدالة متضمن في الحقوق المعتادة للطبقات الأفقر، وجذور هذه الحقوق ايجابية ومشروعة.

وعلى الرغم من أن المنظور التاريخي لهذه المقالة يحمل «طابعا متذبذبا»، إلا أنها تبين لنا ما الذي حفز المدافع العظيم عن «الطبقات الأفقر» إلى العمل. فوصفه للنذالات التي اقترفها ملاك الأرض وللطريقة التي داسوا بها على المنطق والعقل والقانون والعدالة وفي النهاية على مصالح الدولة، كي يشبعوا مصالحهم الذاتية على حساب الفقراء والمعوزين يكشف لنا الغضب المشبوب ضد الظلم الذي دفعه إلى العمل. «إن المجلس، كي يدمر جامع العيدان ومن يطأ أرض الغير، لم يكسر أطراف القانون فحسب، بل أصاب منه القلب كذلك». وكان ماركس يرغب على أساس هذا المثال المحدد أن يبين ما الذي يمكن توقعه من جمعية للمصالح الطبقية الخاصة عندما تضع لنفسها جديا مهمة التشريع.

في الوقت ذاته، كان ماركس لا يزال ملتزما بالفلسفة الهيغلية في القانون والدولة، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك على طريقة حواريي هيغل الاورثوذكسيين الذين امتدحوا الدولة البروسية على أنها مثالية. على العكس من ذلك قارن ماركس الدولة البروسية بالدولة المثالية الناجمة عن الفرضية الفلسفية الهيغلية. فاعتبر الدولة المثالية الجسم العضوي الذي يجب أن تجد فيه الحرية السياسية والأخلاقية والقانونية تحققها، بينما يطيع الفرد قوانين الدولة فقط لأنها القوانين الطبيعية لعقله هو، القوانين الطبيعية للعقل الإنساني. نجح ماركس من وجهة النظر هذه في معالجة مناقشات المجلس في القانون ضد جميع العيدان، وكان ممكنا أن ينجح في الرسالة الرابعة التي تعالج قانونا ضد انتهاك أراضي الغير، ولكنه لم ينجح في الرسالة الخامسة التي كان ينوي أن يتوج بها هذه الرسائل جميعا ويبحث فيها مسألة تقسيم الأرض.

كان ماركس متفقا مع برجوازية الرانيلاند في الوقوف إلى جانب الحرية الكاملة لتقسيم الملكية الزراعية. وكان موقفه يتلخص في أن عدم إعطاء الفلاح الحق في تقسيم ملكيته كما يشاء يعني إضافة إفقار قانوني إلى الإفقار المادي. غير أن هذا الاعتبار القانوني لم يكن واسعا بما يكفي لتقديم حل للمشكلة. الاشتراكيون الفرنسيون قد أوضحوا أن الحرية غير المحدودة لتقسيم الملكية الزراعية تؤدي إلى خلق بروليتاريا لا حول لها ولا قوة، ووضعوا ذلك على المستوى ذاته مع الانعزال التفتيتي الذي يصيب الحرفي. ولذا كان على ماركس إذا أراد معالجة المشكلة أن يجرب أولا النتائج التي توصلت إليها الاشتراكية.

لا شك في أن ماركس أدرك ضرورة ذلك، وأكيد أيضا أنه ما كان ليتهرب من المسألة لو أنه أكمل سلسلة الكتابات التي بدأها. غير أنه لم يصل إلى هذا الحد، فما أن نشرت رسالته الثالثة حتى أصبح محررا لراينيخه تزايتونغ، ووجد نفسه أما اللغز الاشتراكي قبل أن يكون في وضع يستطيع معه حله.

7- خمسة أشهر من النضال.

خلال أشهر الصيف، قامت «راينيخه تزايتونغ» برحلة صغيرة أو اثنين في الحقل الاجتماعي. ويبدو أن مولس هس كان وراءهما. ففي إحدى المناسبات أعادت طباعة مقالة عن أحوال السكن في برلين مأخوذة من منشورات ويتلنغ بعنوان «مساهمة في مسألة معاصرة هامة»، وفي مناسبة أخرى نشرت تقريرا عن مؤتمر عقده الخدم في ستراسبورغ. وأضافت إليه ملاحظة مسالمة فحواها أنه إذا كانت الطبقات غير المالكة توجه اليوم أنظارها إلى ثروات الطبقات الوسطى، فإن هذا يمكن أن يقارن بنضال الطبقات الوسطى ضد الارستقراطية الإقطاعية في عام 1789، مع فارق واحد هو أن المشكلة ستلاقي هذه المرة حلا سليما.

على الرغم من صغر الملاحظة، إلا أنها كانت كافية لدفع «الغماينه تزايتونغ» في اوغسبرغ إلى اتهام «راينيخه تزايتونغ» بمغازلة الشيوعية. وفي الواقع، لم يكن ضمير «الغماينه تزايتونغ» صافيا في هذا المجال، ذلك أنها سبق ونشرت مقالات أكثر حدة بقلم هينريخ هاينه عن الاشتراكية الفرنسية والشيوعية، ولكنها كانت الصحيفة الوطنية وربما العالمية المهمة الوحيدة التي تشعر أن «راينيخه تزايتونغ» تهدد مركزها. وعلى الرغم من أن الهجوم العنيف الذي شنته «الغماينه تزايتونغ» لم يكن ذا باعث رفيع، إلا أنه لم يكن كذلك يخلو من حذق خبيث. فقد أوردت «الغماينه تزايتونغ» في مقالها عدة تلميحات إلى أبناء التجار الأغنياء الذين يلعبون بالأفكار الاشتراكية ببساطة وبراءة دون أن يكون لديهم أدنى نية لاقتسام ممتلكاتهم مع عمال أحواض السفن أو مع الرجال العاملين في كاتدرائية كولون، وأضافت تقول أن من الطفولية تهديد الطبقات الوسطى في بلد متخلف اقتصاديا كألمانيا بالمصير الذي آلت إليه الارستقراطية في فرنسا عام 1789، خاصة وأن الطبقات الوسطى الألمانية لا تكاد تجد فسحة تتنفس فيها بحرية.

كان من واجب ماركس أن يرد على هذا الهجوم المقذع، ولكنه وجد ذلك أمرا مزعجا. فهو لم يكن راغبا في الدفاع عن أشياء كان هو نفسه يعتقد أنها تتسم بسذاجة الهواة، ولكنه لم يكن كذلك في موضع يسمح له أن يبدي رأيه الواضح في الشيوعية. ولذا فقد حاول ما وسعه من جهد أن ينقل المعركة إلى أرض العدو، باتهام «الغماينه تزايتونغ» بالميول الشيوعية، ولكنه في الوقت ذاته اعترف بأنه ليس من حق «راينيخه تزايتونغ» أن تتخلص بجملة أو اثنتين من مسألة يعكف على حلها شعبان عظيمان. ولذا فإن «راينيخه تزايتونغ» ستخضع الأفكار الشيوعية لنقد شامل «بعد دراسة شاملة عميقة مطولة» ذلك أن كتابات ككتابات ليروكس وكونسيدرايه، وفوق كل شيء كتابات برودون المتينة لا يمكن معالجتها بأفكار مصطنعة عرضية هي بنت لحظتها. غير أن «راينيخه تزايتونغ» ليست مستعدة للاعتراف بهذه الأفكار في شكلها الحالي بأنها حقيقية نظرية، وهي بالتالي لا ترغب أبدا في تحققها ولا تظن أن تحققها أمر ممكن.

فيما بعد، أعلن ماركس أن هذا السجال أفسد حماسته للعمل في «راينيخه تزايتونغ» ولذا فقد انتهز «بشغف» الفرصة للانسحاب. غير أنه كثيرا ما يختلط السبب بالنتيجة عندما يستعيد المرء الأحداث السابقة. فقد استمر ماركس بجماع روحه وقلبه في العمل في «راينيخه تزايتونغ»، وبدا أنها مهمة لديه لدرجة أنه كان على استعداد للمخاطرة بالافتراق عن زملائه القدامى في برلين من أجلها. ولم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله لهؤلاء الأصدقاء القدامى، فقد حولت تعليمات الرقابة النادي الهيغلي الذي «كان على الأقل مركزا للاهتمامات الفكرية» إلى جمعية لمن يدعون بـ«الأحرار» كادت تضم كل نجوم الأدب في فترة ما قبل آذار في العاصمة البروسية. وهم يجتمعون الآن ليلعبوا لعبة التظاهر بأنهم ثوريون سياسيون واجتماعيون. وقد أزعجت هذه التطورات ماركس حتى خلال أشهر الصيف، فأعلن أنه إذا أعلن المرء انعتاقه، فإن في ذلك إخلاصا للضمير، أما الانغماس سلفا في الدعاية للنفس والتزلف لها فأمر آخر. ومضى قائلا أن برونو باور موجود على كل حال في برلين، وهو لاشك سيمنع حدوث «حماقات».

كان ماركس مخطئا لسوء الحظ في افتراضه هذا. فقد ظل كوبن مترفعا عن تهريجات «الأحرار»، ولكن برونو باور لم يفعل ذلك بالتأكيد، بل لعب الدور الرئيسي في هزلهم: المسيرات الصاخبة عبر الشوارع، والمشاهد الفضائحية في بيوت الدعارة والمشارب، المضايقة المؤسفة لرجل دين مسالم في حفل زواج ستيرنر عندما أخذ باور خواتم نحاسية من حقيبة كانت في يده وأعطاه لرجل الدين قائلا أنها مناسبة لتكون خواتم زواج. وقد جعلت كل هذه الأعمال «الأحرار» موضع نصف إعجاب ونصف فزع من جانب كل بلداء العقول، ولكنهم بذلك أساؤوا إلى القضية التي يفترض أنهم كانوا يمثلونها.

وبالطبع، كان لهذه التهريجات البهلوانية أثرا مدمرا على الإنتاج الفكري لـ«الأحرار»، فواجه ماركس صعوبات جمة في التعامل مع مساهماتهم في «راينيخه تزايتونغ». فقد كانت الرقابة تمنع الكثير من مساهماتهم، لكن ماركس قال لروغه في إحدى الرسائل «لقد سمحت لنفسي بالتخلص من الكثير منها. فقد أرسل لنا ماين ومن يدورون في فلكه رزما من الخربشات، خالية من الأفكار ومكتوبة بأسلوب متحلل، وجميعها مطعمة بقليل من الإلحاد والشيوعية (التي لم يكلف أي منهم نفسه عناء دراستها). وبسبب من افتقار روتنبرغ الكامل إلى أي حس نقدي أو استقلال أو مقدرة، اعتاد هؤلاء على اعتبار «راينيخه تزايتونغ» أداة طيعة في أيديهم، ولكنني لا أنوي البتة السماح باستمرار هذا». وكان هذا هو السبب الأول الذي «جعل أفق برلين متلبدا بالغيوم»، على حد تعبير ماركس.

حدث الشقاق في تشرين الثاني 1842، عندما زار هيرويغ وروغه برلين. وفي ذلك الحين كان هيرويغ في أوج شهرته في ألمانيا كلها، وفي كولون استطاع أن يحظى بصداقة ماركس. وقد قابل روغه في دريسدن، وذهب معه إلى برلين، حيث لم يجد كلاهما بالطبع أي فضيلة في

تهريجات «الأحرار». وتشاجر روغه مع برونو باور، لأن هذا كما أوضح روغه أراده أن يوافق «على أسخف الأمور» مثل أن الدولة والملكية الخاصة والعائلة يجب أن تحل كمفاهيم دون الاهتمام بالجانب العملي من المسألة إطلاقا. كذلك امتعض هيرويغ من الأحرار «بشدة»، فثأر هؤلاء لامتعاضه منهم بتوبيخه بطريقتهم المعهودة على مقابلته للملك وخطبته لفتاة غنية.

احتكم الفريقان لراينيخه تزايتونغ. فطلب هيرويغ بالاتفاق مع روغه نشر بيان فحواه أنه على الرغم من أن «الأحرار» أناس ممتازون كأفراد إلا أن رومانتيكيتهم السياسية وجنون العظمة لديهم، واهتمامهم البالغ بالإعلان عن أنفسهم تضر قضية الحرية، كما قال لهم روغه وهيرويغ صراحة. نشر ماركس هذا البيان، فما كان من ماين، الذي نصب نفسه ناطقا باسم الأحرار، إلا أن أمطره بوابل من الرسائل التي تفتقر إلى التهذيب.

أجاب ماركس في البداية على هذه الرسائل ببرود وبصورة موضوعية في محاولة لضمان تعاون مثمر مع «الأحرار»: «طلبت التقليل من الشكاوي الغامضة والجمل النارية والإعجاب بالذات، والمزيد من العيانية ومعالجة أكثر تفصيلا للظروف الواقعية وعرضا لمعرفة عملية أكبر فيما يتعلق بالمواضيع التي يتعدون لمعالجتها. وقلت لهم أنني اعتقد أنه ليس صحيحا بل ليس أخلاقيا أن تسرّب العقائد الاشتراكية والشيوعية، أي طريقة جديدة كليا للنظر إلى العالم، في الانتقادات الدراماتيكية العرضية الخ. وقلت أنه إذا كان لا بد من بحث الشيوعية فإن ذلك يجب أن يتم بطريقة مختلفة وشاملة. كذلك طلبت منهم أن ينتقدوا الدين بانتقاد الظروف السياسية وليس العكس، لأن ذلك يتفق أكثر مع طبيعة الصحيفة وضرورة تثقيف الجمهور، ولأن الدين، الفارغ بحد ذاته، يعيش من الأرض وليس من السماء، وهو سيختفي وحده عندما تُحلّ الحقيقة المقلوبة التي يمثل نظريتها. وفي النهاية قلت لهم أنهم إذا أرادوا أن يعالجوا الفلسفة فإن عليهم أن يقللوا من التغزل بفكرة الإلحاد (ذلك التغزل الذي يذكر بأولئك الأطفال الذين يخبرون أيا كان وبصوت عال أنهم لا يخافون البعبع) ويحاولوا أن يعرفوا الناس على معناها». إن هذه الملاحظات تعطينا لمحة عن المبادئ التي كان ماركس يحرر «راينخه تزايتونغ» على هديها.

غير أن ماركس تلقي، قبل أن تصل هذه النصيحة مسامع من كان يجب أن تصل مسامعهم، «رسالة وقحة» من ماين لا يطلب فيها أمرا أقل من أن تكف الصحيفة عن «المسايرة» وأن تتخطى الحدود ، وبكلمات أخرى أن تتحدى الصحيفة احتمال منع صدورها من أجل «الأحرار». وهنا نفد صبر ماركس، وكتب لروغه قائلا «أن هذا كله يدل على درجة رهيبة من الغرور. إنهم لا يدركون أننا من أجل الحفاظ على صحيفة سياسية يجب أن نكون مستعدين للتخلي عن بعض تفاهات برلين التي لا تعالج شيئا غير مصالح هذه الطغمة...

إننا يوما إثر آخر نتحمل مغالطات الرقابة والرسائل الوزارية وشكاوي حاكم المقاطعة وإنذارات مجلس المقاطعة واحتجاجات أصحاب الصحيفة الخ الخ. إنني لا أتمسك بمنصبي إلا لأنني أشعر أن من واجبي الوقوف في وجه نوايا الطغاة قدر الإمكان، ومن هنا تستطيع أن تتخيل المضايقة التي سببتها لي هذه الرسالة، ولقد أرسلت إلى ماين ردا حادا حاسما».

كان هذا في الواقع الشقاق النهائي بين ماركس و«الأحرار» الذين انتهوا جميعا نهاية محزنة سياسيا، من برونو باور الذي عمل فيما بعد في «كروز تزايتونغ» و«بوست» إلى ادوارد ماين الذي أنهى أيامه محررا لـ«دانزيفر تزايتونغ» ووصف حياته الضائعة عبثا بنكتة حزينة تقول أنه لم يعد يسمح له بتسخيف أحد غير البروتستنت الاورثوذكس لأن مالك الصحيفة الليبرالي منعه من انتقاد المنهج البابوي آخذا بعين الاعتبار جمهور القراء الكاثوليك. ووجد آخرون من حلقة «الأحرار» ملجأ في الصحافة شبه الرسمية وحتى الرسمية. فمات روتنبرغ مثلا بعد ذلك بعدة عقود محررا لـ«بروسيشر ستاتس انزيغر».

غير أن روتنبرغ كان في ذلك الحين، في خريف عام 1842، رجلا يخشاه الكثيرون، وطالبت الحكومة بفصله من «راينيخه تزايتونغ». فخلال الصيف كله، عملت الحكومة كل ما وسعها من جهد لتجعل حياة الصحيفة لا تطاق، ولكنها لم تمنعها أملا في أن تموت بذاتها. ففي 8 آب بعث فون شرابر، حاكم الراينلاند، بتقرير إلى برلين يقول فيه أن عدد مشتركي الصحيفة يبلغ 885 مشتركا فقط، ولكن ماركس تسلم تحرير الجريدة في 15 تشرين الأول، وفي 10 تشرين الثاني وجد فون شرابر لزاما عليه إبلاغ برلين أن عدد المشتركين زاد من 885 إلى 1820، وأن ميول الصحيفة أخذت تصبح وقحة وعدائية أكثر فأكثر. ولكي تزيد «راينيخه تزايتونغ» الأمور سوءا، حصلت على نسخة من قانون مقترح للزواج ذي طبيعة رجعية جدا، ونشرت محتوياته قبل أن تكون السلطات مستعدة لذلك. فأغضب ذلك الملك لأن القانون كان يهدف إلى جعل الطلاق أكثر صعوبة، مما سيجعله يلاقي بالتأكيد معارضة عنيفة من جمهور الشعب، ولذا طلب الملك أن تهدد الصحيفة بالإغلاق إذا لم تفصح عن اسم من زودها بمشروع القانون. غير أن وزراء الملك لم يكونوا راغبين في وضع تاج الشهادة على رأس «راينيخه تزايتونغ»، لأنهم كانوا يعلمون جيدا أن اقتراحا مهينا كهذا سيرفض في اللحظة ذاتها التي يقترح فيها، ولذا فقد قنعوا بالمطالبة بإقصاء روتنبرغ وتعيين محرر مسؤول يوقع الصحيفة عوضا عن ناشرها، رينان. وفي الوقت ذاته عين رقيب جديد يدعي ويتاس بدلا من الرقيب القديم دوليشال الذي فاحت رائحة غبائه.

وفي 30 تشرين الثاني، كتب ماركس إلى روغه يقول «بفضل الغباء الهائل للإدارة الحكومية يعتبر روتنبرغ، الذي سبق أن حرم من تحرير المقالة الألمانية (التي يقتصر عمله الآن على تصحيح تنقيطها) ولم يعط المقالة الفرنسية إلا بعد تدخلي، يعتبر خطيرا، مع أنه ليس خطيرا، إلا على الصحيفة وعلى نفسه. ومع ذلك، طالبت الحكومة حازمة بإقصائه. لقد وفرت الإدارة البروسية على الناشر (رينان) تجربة مؤلمة، أما الشهيد الجديد، البارع في حمل دوره الجديد والتكلم بلغته، فإنه يستغل الفرصة إلى أبعد الحدود. فهو يكتب في كل مكان، بما في ذلك برلين، أنه يمثل مبدأ راينيخه تزايتونغ الذي تعرض للنفي، وأن الصحيفة على وشك أن تراجع موقفها من الحكومة». إن مارك يذكر الحادث لأنه صعد من نزاعه مع «أحرار» برلين، ولكن يبدو أنه ذهب أبعد مما يجب في الهزء بـ«الشهيد» روتنبرغ.

لا يمكن أن نعني ملاحظة ماركس أن الحكومة طلبت إقصاء روتنبرغ «بحزم» وأن الناشر رينان قد وفر على نفسه بذلك تجربة غير سارة إلا أن «راينيخه تزايتونغ» استسلمت لضغط الحكومة ولم تحاول الاحتفاظ بروتنبرغ. وعلى أية حال، كان مصير محاولة كهذه، لو بذلت، الفشل. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك من الأسباب ما يدعو إلى تجنيب الناشر رينان تجربة غير سارة أي استجوابه لدى البوليس ووضع لائحة اتهامية ضده، فهذا أمر ما كان الرجل المسكين غير المسيس ليحتمله. على أن رينان وقع احتجاجا مكتوبا ضد التهديد بمنع صحيفته، ولكن كتابة الاحتجاج (الموجود الآن في ملفات مدينة كولون) يبين أن ماركس هو الذي كتبه.

يعلن الاحتجاج أن «راينيخه تزايتونغ» إذ «تستسلم للقوة» توافق على إقصاء روتنبرغ وتعيين محرر مسؤول. كما يؤكد للسلطات أيضا أن «راينيخه تزايتونغ» ستفعل بسرور كل ما من شأنه أن يتفق مع طبيعة صحيفة مستقلة لتتفادى منعها، وأنها مستعدة لجعل مقالاتها معتدلة بالقدر الذي تسمح به موضوعاتها. إن هذه الوثيقة مكتوبة بحذر دبلوماسي لم يظهر مثيله أبدا في حياة كاتبها اللاحقة، ولكن من غير العدل وزن كل كلمة من كلماتها، كما أن من غير العدل القول أن ماركس قد خرق معتقداته بأي شكل ملحوظ، حتى عندما تكلم عن الموقف البروسي للصحيفة. وقال أن العواطف البروسية للصحيفة قد أبدت نفسها في السجال ضد مواقف «الغماينة تزايتونغ» المعادية للبروسية وفي تحريفها لمصلحة توسيع الزولفرين ليشمل ألمانيا الشمالية-الغربية وكذلك في الإشارات المتعددة إلى العلم الألماني الشمالي مقابل النظريات الفرنسية والألمانية الجنوبية الضحلة. وكذلك يبين ماركس في هذه الوثيقة أن «راينيخه تزايتونغ» كانت الصحيفة «الراينية والألمانية الجنوبية» الأولى التي أدخلت الروح الألمانية الشمالية إلى الجنوب، فساهمت بذلك في التوحيد الفكري للفروع المتشعبة للشعب الألماني.

كان رد فون شرابر حاكم الراينلاند على هذا الخطاب يفتقر إلى الاحترام: حتى ولو أقصي روتنبرغ في الحال وعين بدلا منه محرر مسؤول، فإن مسألة منح الصحيفة امتيازا قاطعا تعتمد مع ذلك على سلوك الصحيفة في المستقبل. على أية حال، أعطيت الصحيفة مهلة حتى 12 كانون الأول لتعيين محرر مسؤول، على الرغم من أن الأمور لم تسر إلى هذا الحد، إذ نشب في منتصف كانون الأول سبب آخر للخلاف. فقد نشرت الصحيفة مقالتين لمراسلها في برنكاسل تتعلقان بالحالة التعيسة لفلاحي موسل، فأدى ذلك بفون شرابر إلى إرسال تصحيحين كانا فارغين في المحتوى وناشزين في الأسلوب. فما كان من «رانيخه تزايتونغ» إلا أن امتدحت «الكبرياء الهادئة» البادية في تصحيحات فون شرابر، معلنة أن هذه التصحيحات قد أخجلت عملاء البوليس، وأنها كانت تقصد «إلى القضاء على الشك بقدر ما كانت تهدف إلى إعادة الثقة». ولكن ما أن تجمع لدى الصحيفة مواد كافية حتى بدأت في منتصف كانون الثاني نشر مقالات خمس مليئة بالوثائق التي تدل على أن الحكومة قد قمعت شكاوى فلاحي موسل بقسوة وشراسة. وهكذا تعرض أكبر مسؤول حكومي في الراين للهزء به أمام الجمهور، ولكنه وجد ما يعزيه إذ علم أن الحكومة قررت في 21 كانون الثاني 1843 وبحضور الملك أن تحظر صدور الجريدة.

كان عدد من الأحداث حصل نحو نهاية السنة المنصرمة قد أغضب الملك: رسالة تحد عاطفية كان هيرويغ قد أرسلها من كونيفسبرغ ونشرتها «الغماين تزايتونغ» في ليبرغ دون معرفة كاتبها، تبرئة المحكمة العليا لجوهان جاكوبي من تهمة الخيانة العظمى والطعن في الذات الملكية، وأخيرا إعلان «دويتشه ياربشر» في رأس السنة تأييدها «للديمقراطية»في الحال وكذلك «الغماينه تزايتونغ» في الأراضي البروسية، وكان لا بد من حظر «شقيقتهما الداعرة» في سياق التطهير الشامل، خاصة وأن هذه الأخيرة أزعجت السلطات بنشرها احتجاجا قاسيا على حظر الصحيفتين الأوليين.

كان العذر الرسمي الذي قدم لحظر «راينيخ تزايتونغ» هو افتقارها إلى امتياز رسمي، «كما لو أنه كان بإمكانها أن تظهر يوما واحدا في بروسيا دون موافقة رسمية في حين أن كلبا لا يستطيع أن يتنفس دون رخصة حكومية»، على حد تعبير ماركس. أما السبب المكمل «الموضوعي» لحظر الصحيفة فكان الحديث المعتاد عن موقفها الشائن -«الهراء القديم عن سوء نيتها وارتجاجها وتنظيرها الفارغ»، كما أعلن ماركس بلهجة احتقار. وسمح للصحيفة أن تصدر حتى نهاية الفصل آخذا لمصالح أصحابها بعين الاعتبار. فكتب ماركس إلى روغه يقول: «خلال فترة تأجيل الحكم بإعدامنا، نخضع لرقابة مضاعفة. فرقيبنا الحقيقي، وهو رجل شريف جدا، خاضع لرقابة فون جيرالخ، حاكم المقاطعة وهو أبله سلبي مطيع. وعندما تكون الصحيفة جاهزة للطبع، فإنها يجب أن توضع تحت أنف الشرطة فإذا ما ظنوا أنهم يشمون فيها أي شيء مناهض للمسيحية أو البروسية، فإنها لا ترى النور».

أبدى القاضي ويثاس من الشرف ما يكفي للاستقالة من منصبه كرقيب، فأرسل السكرتير الوزاري سان بول من برلين ليحل محله، فصار هذا يقوم بواجب الرقابة بشكل بلغ حد الكمال، حتى أن الرقابة المزدوجة سحبت في 18 شباط.

شعر كل سكان الراينلاند أن حظر الصحيفة إهانة شخصية موجهة لهم جميعا، ففقز عدد المشتركين إلى 3200 مشترك، بينما رفعت عرائض عليها آلاف التواقيع إلى برلين في محاولة للحيلولة دون الضربة القاضية. وذهب وفد من مالكي أسهم الصحيفة إلى برلين لمقابلة الملك، فلم يسمح لهم بمقابلته، أما العرائض التي أرسلها الناس فقد ألقيت في سلال المهملات وتعرض الموظفون الحكوميون الذين وقعوها إلى تأنيب قاس. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن مالكي الأسهم صاروا يميلون إلى التخفيف من حدة لهجة الصحيفة، أملا في أن ينجح ذلك حيث فشلت مناشداتهم. فكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي حدا بماركس إلى الاستقالة من منصبه كمحرر، على الرغم من أنه بالطبع عمل ما في وسعه لمضايقة الرقابة قدر ما يمكن وحتى اللحظة الأخيرة.

كان الرقيب الجديد، سان بول، بوهيميا شابا. وكان قد شارك في احتفالات السكر والعربدة التي كان يقيمها «الأحرار» في برلين، وسرعان ما وجد نفسه منغمسا في شجارات مع الحراس الليليين على أبواب بيوت الدعارة في كولون. غير أنه كان رجلا خبيثا، وسرعان ما كتشف «المركز العقائدي» لـ«راينيخ تزايتونغ» «والمصدر الحي» لنظرياتها. وهو يتحدث في تقاريره إلى برلين باحترام اضطراري عن ماركس الذي يبدو أنه أحدث في نفسه أثرا بالغا على الرغم من «الأخطاء التأملية» التي ظن أنه وجدها في وجهات نظر ماركس. وفي 2 آذار كان باستطاعة سان بول أن يكتب إلى برلين قائلا انه بالنظر «إلى الظروف الراهنة» فقد قرر ماركس أن يقطع علاقته براينيخه تزايتونغ ويغادر

بروسيا. وقد جعل هذا التقرير مغروري برلين يلاحظون في سجلاتهم أنه ما من خسارة إذا هاجر ماركس من بروسيا لأن «آراءه الديمقراطية المغالية تناقض مبادئ الدولة البروسية»، وفي 8 آذار أرسل سان بول تقريرا مشوبا بلهجة الانتصار إلى برلين يقول: «لقد استقال الدكتور ماركس، الروح المحركة للصحيفة كلها، أمس، وخلفه في رئاسة التحرير اوبنهايم وهو رجل معتدل وإن يكن غير هام... إنني مسرور جدا بذلك، فقد أنفقت على مراقبة الصحيفة اليوم ربع الوقت الذي كنت أنفقه عادة». ثم يطري الرقيب ماركس إذ يقترح على برلين السماح باستمرار صدور الصحيفة ما دام ماركس قد تركها. لكن سادته أبدوا من الجبن قدرا أكثر مما أبدى هو، فقد أعطوه تعليمات بأن يرشو محرر «كولونيخه تزايتونغ» وأن يتهدد ناشرها الذي كان قد أصبح، بعد تجربة «راينيخه تزايتونغ» يدرك أن المنافسة الخطرة لصحيفته ممكنة. ونجحت الحيلة المشينة.

في وقت مبكر وفي 25 كانون الثاني، وهو اليوم الذي عرف فيه في كولون بقرار حظر «راينيخه تزايتونغ» كتب ماركس إلى روغه يقول: «لم أدهش. فأنت تعلم وجهة نظري في تعليمات الرقابة منذ البداية. وأنني أعتبر أن ما حدث الآن ليس إلا نتيجة منطقية. إنني أعتبر حظر راينيخه تزايتونغ دلالة على تقدم الوعي السياسي، ولذا فإنني أستقيل. وعلى أية حال كان الجو قد أصبح خانقا لدرجة لم أعد أحتملها. إنه لأمر سيء أن تعمل بعبودية وأن تقاتل بالوخزات بدلا من أن تقاتل بالسيف حتى ولو كان تقاتل قتالا في سبيل الحرية. لقد تعبت من رياء السلطات وغبائها وفظاظتها وتعبت من خضوعنا لها والتزامنا بأوامرها ومحاولتنا التهرب منها. والآن أعادت لي الحكومة حريتي... ليس هناك ما أستطيع أن أفعله في ألمانيا. إن المرء يحقر نفسه بالبقاء هنا».

8- لودفيغ فويرباخ

وفي الرسالة ذاتها يشعر ماركس روغه بتسلمه المجموعة (الانيكدوتا) التي ساهم فيها بمولوده السياسي الأول. ظهرت هذه المجموعة في مجلدين ونشرتها في زيوريخ في بداية آذار 1843 دار ليترارشي كونتور التي جعلها يوليوس فوبل ملجأ للكتّاب الذين اضطروا إلى الهرب من الرقابة الألمانية.

وفي هذه المجموعة نزل الحرس القديم من الهيغليين الشباب إلى الساحة. ولكن صفوفهم كانت قد بدأ تتذبذب. وفي هذه المجموعة أيضا كان لودفيغ فويرباخ، المفكر الجريء الذي ألقى بكل فلسفة هيغل إلى كومة النفايات وأعلن أن «الفكرة المطلقة» ليست غير الروح الميتة للاهوت وهي بذلك ليست إلا إيمانا بالأشباح، المفكر الذي وجد كل أسرار الفلسفة في تأمل الإنسانية والطبيعية. ولقد كانت مقالته «موضوعات أولية في إصلاح الفلسفة» التي نشرت في الانيكدوتا كشفا بالنسبة لماركس أيضا.

في السنين اللاحقة، أرّخ انغلز للتأثير الكبير الذي مارسه فويرباخ على تطور ماركس الفكري بظهور «جوهر المسيحية»، أشهر كتاب لفويرباخ، في 1841. إذ يعلن انغلز مشيرا إلى «الأثر المحرِّر» لهذا الكتاب أن المرء لا يمكن أن يتخيل الأثر الذي أحدثه دون أن يقرأه: «كانت الحماسة عامة شاملة، وأصبحنا جميعا أتباعا لفويرباخ في الحال». غير أن كتابات ماركس في «راينيخه تزايتونغ» لا تبدي أي أثر لتأثير فويرباخ. وعلى الرغم من أن ماركس «رحب بحماسة» بالأفكار الجديدة مبديا تحفظا نقديا أو اثنين، إلا أن ذلك لم يكن إلا في شباط عام 1844 عندما ظهرت «دويتشه فرانزوشيش ياربشر» وأشارت حتى في اسمها ذاته إلى علاقة ما بأفكار فويرباخ.

كانت أفكار «الموضوعات الأولية» موجودة بشكل جنيني في «جوهر المسيحية»، ولذا فإن الخطأ الذي وقعت فيه ذاكرة انغلز قد يبدو غير هام، ولكنه في الواقع ليس كذلك لأنه قد يؤدي إلى إعطاء فكرة خاطئة عن العلاقة الفكرية بين فويرباخ وماركس. لقد كان فويرباخ لا يرتاح إلا للعزلة مع الطبيعة، ولكنه لم يكن رغم ذلك يفتقر إلى الروح القتالية. فقد كان مع غاليليو يعتبر المدينة سجن العقول التأملية، أما في حرية الحياة الريفية فإن كتاب الطبيعة مفتوح لكل من يتمتع بقدر من الذكاء يمكنه من قراءته. كان هذا هو دفاع فويرباخ عن نفسه في وجه كل الانتقادات التي وجهت له بسبب الحياة الانعزالية التي يحياها في بركبرغ. كان فيورباخ يحب العزلة في الريف، لا لأنه يؤمن بالحكمة القديمة القائلة أن السعيد هو من يعيش مغمورا، بل لأنه كان يجد في العزلة العزم الذي يمكنه من مواصلة النزال. لقد كان انعزاله نتيجة شعوره بالحاجة إلى وضع أفكاره بهدوء بعيدا عن ضجيج المدينة وضوضائها الذي يمكن أن يحول بينه وبين تأمل الطبيعة التي كان يعتبرها مصدر كل حياة وكل أسرار الحياة.

كان فويرباخ رغم العزلة التي يحياها في مقدمة الصراعات العظيمة التي كانت رحاها تدور في زمنه. فقد أعطت مساهماته لمنشورات روج مكانتها وسمعتها. كما أنه بيَّن في «جوهرالمسيحية» أن الإنسان هو الذي يصنع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان وأن الكائن الأعلى الذي تخلقه مخيلة الإنسان ليس إلا الانعكاس التخيلي لوجود الإنسان ذاته. غير أنه في الوقت الذي ظهر فيه كتاب فويرباخ، كان ماركس قد حول انتباهه إلى النضال السياسي فقاده ذلك إلى خضم الحياة العامة، بقدر ما كانت الحياة العامة موجودة في ألمانيا إذ ذاك، ولم تكن الأسلحة التي شحذها فويرباخ في كتاباته مناسبة لأمور كهذه. كانت الفلسفة الهيغلية قد أثبتت عجزها عن حل المسائل المادية التي نشأت خلال عمل ماركس في «راينيخه تزايتونغ» عندما ظهرت «الموضوعات الأولية في إصلاح الفلسفة» ووجهت ضربة قاضية إلى الفلسفة الهيغلية بوصفها الملجأ الأخير للاهوت وعموده العقلاني الأخير. ولذا فقد أثر الكتاب في ماركس تأثيرا بالغا، على الغرم من أنه أبدى تجاهه في الحال بعض التحفظات النقدية.

كتب ماركس إلى روغه في 13 آذار يقول: «أن حكم فويرباخ لا تبدو مستساغة لي من ناحية واحدة فقط هي بالتحديد أنها تشغل نفسها كثيرا بالطبيعة ولا تبدي إلا القليل من الاهتمام بالسياسة. على الرغم من أن التحالف مع السياسة هو الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها الفلسفة المعاصرة أن تصبح حقيقة. لكنني افترض أن الأمر سيكون على ما كان في القرن السادس عشر عندما واجهت مجموعة المتحمسين للطبيعة

مجموعة من المتحمسين للدولة». كان اعتراض ماركس معقولا تماما، ذلك أن فويرباخ لا يذكر السياسة في «الموضوعات الأولية» إلا مرة واحدة، وحتى في هذه المرة يمثل موقفه رجعة على موقف هيغل لا تقدما عليه. لكن المهم في الأمر هو أن ماركس قرر أن يتفحص فلسفة القانون والدولة عند هيغل مثلما تفحص فويرباخ فلسفته في الطبيعة والدين.

ونجد في رسالة ماركس إلى روغه فقرة أخرى تكشف لنا عن مدى تأثر ماركس بفويرباخ في ذلك الحين. فحالما أدرك ماركس أنه لا يستطيع الاستمرار في الكتابة تحت وطأة الرقابة البروسية، وان الجو في بروسيا قمعي بما لا يطاق، قرر أن يغادر ألمانيا، ولكن مع زوجته المقبلة. وكان قد كتب إلى روغه في 25 كانون الثاني يتساءل عما إذا كان يستطيع أن يعمل في «دويتشر بوت» التي كان هيرويغ ينوي إصدارها في زيوريخ. لكن هيرويغ لم يستطع تنفيذ خطته إذ أنه طرد من زيوريخ. وعندئذ تقدم روغه باقتراحات منها أن يشتركا معا في تحرير «ياربشر» بعد إعادة تسميتها، مقترحا أن يأتي ماركس إلى ليبزيغ لبحث «مكانا لعبتنا».

وفي رسالة بتاريخ 13 آذار، وافق ماركس مبدئيا، ولكنه أبدى رأيا أوليا في «خطتنا المشتركة» كما يلي: «بعد سقوط باريس اقترح البعض ابن نابليون وصيا على العرش. بينما اقترح آخرون برنادوت حاكما لفرنسا. وكان البعض الآخر يحبذ لوي فليب. لكن تيليران أجاب: أما لوي الثامن عشر أو نابليون. فتلك مسألة مبدأ، أما ما عداها فمؤامرة. وأنا أقول أن كل ما عدا ستراسبورغ (وربما سويسرا) مؤامرة وليس مسألة مبدأ. إن الكتب الضخمة ليست لعامة الشعب، وأفضل ما نستطيع فعله هو إصدار مجلة شهرية. فحتى لو سمح لدويتشه ياربشر بالظهور ثانية فإنها لن تعدو كونها تقليدا للفقيدة المأسوف على ذكراها، وذلك ليس بكاف اليوم. ومن جهة أخرى فإن «دويتشه- فرانزوسيش ياربشر (الحوليات الألمانية-الفرنسية) مسألة مبدأ، وأمر مثمر ومشروع يبعث على الحماسة».

يستطيع المرء أن يسمع في هذه الرسالة صدى «الموضوعات الأولية» لفويرباخ التي يعلن فيها أن فلسفة حقيقية متناغمة مع الحياة والإنسانية يجب أن تكون ذات أصل غالي-جرماني. إذ يجب أن يكون القلب فرنسيا والرأس ألمانيا، فالرأس يصلح والقلب يثوِّر. ففقط حيث كانت هناك حركة وعاطفة وانفعال ودم وإحساس، كانت الروح، فلم ينقذ الألمان من مدرستيهم غير روح ليبنتز بمبدئه المادي-المثالي.

أجاب روغه على رسالة ماركس في 19 آذار معلنا أنه يوافق تماما على «المبدأ الغالي-الجرماني»، لكن تسوية الجانب العملي من المشروع استغرقت بضعة أشهر أخرى.

9- الزواج والإبعاد

كان على ماركس خلال سنوات نضالاته العامة الأولى أن يواجه كذلك عددا من المصاعب المنزلية. ولم يكن يشير إلى هذه المصاعب إلا مضطرا وعندما تجبره على ذلك ضرورة مزعجة. فقد كان من حسن حظ ماركس أنه وهب القدرة على الترفع عن صغائر المشاكل في سبيل «الأمور العظيمة للإنسانية». ولكن حياته وفرت له، لسوء الحظ، فرصا كثيرة يمارس فيها هذه المقدرة.

نجد موقف ماركس هذا تجاه مشاكل كهذه واضحا بطريقة مميزة في أول كلام له يتعلق «بمشاكله الخاصة الحقيرة» وصل إلينا. فهو يكتب إلى روغه في 9 تموز 1842، معتذرا عن تأخره في إرسال المساهمة التي وعد بها للانيكدوتا، فيذكر عددا من هذه المصاعب، ثم يقول: «ضاع ما تبقى من الوقت في خلافات عائلية مزعجة. فعلى الرغم من أن عائلتي ميسورة، إلا أنها وضعت في طريقي مصاعب جعلتني أواجه مؤقتا ظروفا محرجة للغاية. وأنا لا أستطيع بالطبع إزعاجك بوصف مشاكلي الخاصة الحقيرة، ولعل من حسن الحظ أن المشاكل العامة تجعل من المستحيل على أي رجل ذي سلوك قويم أن يسمح لمشاكله الخاصة بإزعاجه». إن هذه واحدة من الإشارات الكثيرة إلى الصلابة الفائقة في شخصية ماركس، والتي طالما أثارت على الرجل «الذي لا قلب له» غضب ضعاف العقول الذين «تزعجهم المشاكل الخاصة».

لم تعرف أية تفاصيل عن هذه «الخلافات العائلية المزعجة جدا»، ولم يشر ماركس إليها إلا مرة واحدة وبطريقة عرضية، عندما كانت «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» على وشك الصدور. فقد كتب إلى روغه قائلا أنه حين تتخذ خططهما شكلا أوضح، سيذهب إلى كروزناش، حيث ذهبت أم زوجته المقبلة لتعيش بعد وفاة زوجها، ليتزوج هناك ويمضي بعض الوقت في بيت حماته «لأنه يتعين علينا أن نعد بعض المواد قبل أن نبدأ... إنني أستطيع أن أؤكد لك دون أية رومانتيكية أنني غارق في الحب من رأسي حتى أخمص قدميّ وبكل جدية. لقد مر على خطبتنا أكثر من سبع سنوات، كان على زوجتي المقبلة فيها أن تقاتل لأجلي قتالا مريرا، جزئيا ضد أقاربها الارستقراطيين الذين يعتبرون «أبانا الذي في السموات» والحكومة في برلين أهلا لاحترام متساو، وجزئيا ضد عائلتي ذاتها التي يسيطر عليها بعض الكهنة وغيرهم من أعدائي». وقد أحدثت هذه الصراعات أثرا سيئا على صحتها. لذا فقد اضطرنا، أنا وزوجتي المقبلة، طيلة سنوات إلى خوض صراعات لا ضرورة لها، أكثر في الواقع من أناس كثيرين لهم من العمر ثلاثة أضعاف عمرنا ويتحدثون على الدوام عن (تجربتهم في الحياة)». عدا عن هذه الإشارات الغامضة نوعا ما، لا نعرف شيئا عن مصاعب فترة الخطوبة.

اتخذت ترتيبات إصدار المجلة الجديدة سريعا وبدون أن يضطر ماركس إلى الذهاب إلى ليبزيغ. فقد وافق فروبل على نشر المجلة، بعد أن تعهد روغه الذي كان ميسورا بالمساهمة بـ 6000 ثالر في «ليترارسيش كونتور». ووعد ماركس براتب قدره 500 ثالر في الشهر كمحرر، فتزوج بيني في 19 حزيران 1843.

بعد ذلك، بقي أن يتقرر المكان الذي ستصدر فيه «دويتشر فرانزوسيش ياربشر»، وكانت الاختيارات مطروحة بين بروكسيل وباريس وستراسبورغ. ولا شك في أن الشابين كانا يفضلان عاصمة الالزاس، ولكن في النهاية اتخذ قرار بإصدار المجلة في باريس، بعد أن زار

فروبل وروغه باريس وبروكسيل وقاما باستقصاءات مفصلة هناك. ووجدا أن الصحافة تتمتع في بروكسيل بقدر أكبر من الحرية بعد صدور قوانين أيلول والنص على إيداع ضمانات مالية، ولكن العاصمة الفرنسية أقرب اتصالا بالحياة الألمانية. وكتب روغه لماركس يقول أنه سيعيش حياة مرتاحة بمبلغ 3000 فرنك أو أكثر من ذلك بقليل.

أمضى ماركس، طبقا لخطته، بضعة أشهر من حياته الزوجية في بيت حماته، وفي تشرين الثاني نقل بيته الزوجي إلى باريس. وآخر إشارة وثائقية إلى حياة ماركس المبكرة في ألمانيا هي رسالة إلى فويرباخ بتاريخ 23 تشرين الأول 1843 يسأله فيها المساهمة في العدد الأول من «ياربشر»، والأفضل أن تكون نقدا لشيلنغ، ويقول: «أشعر أنني محق في الافتراض انطلاقا من مقدمتك للطبعة الثانية. من (جوهر المسيحية) أن لديك ما تقوله في هذا المجال. سيكون ذلك فاتحة جيدة. ألا تعتقد ذلك؟ كم نجح السيد شيلنغ في خداع الفرنسيين بذكاء: أولا كوزن الضعيف الانتقائي ثم ليروكس الذكي اللامع. ولا يزال بيير ليروكس ورفاقه يعتبرون شيلينغ الرجل الذي وضع واقعية معقولة موضع المثالية الماورائية، وضع أفكارا من لحم ودم موضع الأفكار المجردة، وضع فلسفة للعالم موضع الفلسفة الشكلية... ولذا فإنك لا شك تقدم خدمة جليلة لمجلتنا وخدمة أكثر جلالا لقضية الحقيقة إذا قدمت لنا نقدا لشيلنغ يظهر في العدد الأول. فأنت الرجل المناسب لأنك النقيض المباشر لشيلنغ. لم تكن أفكار شيلنغ الأمنية في شبابه، تلك الأفكار التي لم يكن يملك وسيلة لتحقيقها غير الخيال، ولا طاقة غير الغرور، ولا قوة دافعة غير الأفيون، لم تكن تلك أكثر من حلم شباب خيالي، ولكنها أصبحت فيك حقيقة وواقعا واتخذت فيك وزنا رجوليا... ولذلك فإنني اعتبرك النقيض الطبيعي والضروري لشيلنغ، نقيضا حددته قوتا الطبيعة والتاريخ التوأمين». كم هي ودودة لهجة هذه الرسالة، وفي الوقت ذاته كم من الفرح يعتمل في قلب كاتبها توقعا لصراع عظيم!

لكن فويرباخ تردد. وكان قد امتدح المشروع لروغه ولكنه رفض أن يساهم فيه. حتى أن مناشدة مبدئه الغالي-الجرماني لم تحركه. لقد كانت كتاباته هي التي أخرجت السلطات عن طورها ودفعتها إلى القضاء ما كان تبقى من الحرية الفلسفية في ألمانيا، وبذلك أجبرت المعارضة الفلسفية على مغادرة البلاد، إلا إذا كانت مستعدة للاستسلام استسلاما تعيسا.

لم يكن فويرباخ ذاته بالرجل الذي يستسلم، ولكنه لم يكن في الوقت ذاته قادرا على استجماع شجاعة كافية للاندفاع إلى خضم الأمواج التي كانت تتلاطم من حول أرض ألمانيا الميتة. فكان رد فويرباخ على الكلمات النارية التي حاول ماركس أن يكسبه بها ردا ودودا، ولكنه مع ذلك كان ردا بالرفض. لقد كان ذلك يوما أسود في حياة فويرباخ، منذ ذلك الحين بدأت عزلته تصبح عزلة فكرية كذلك.

الفصل الثالث

المنفى في فرنسا

1- «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر».

لم تولد المجلة الجديدة ولادة محظوظة. فقد صدر منها عدد مزدوج في نهاية شباط عام 1844. فكان العدد الأول والأخير.

فقد ثبت أن من المستحيل تحقيق «المبدأ الغالي-الجرماني» أو كما أعاد روغه تسميته «التحالف الفكري بين فرنسا وألمانيا». ذلك أن «المبدأ السياسي لفرنسا» لم يبد أي شوق إلى قبول مساهمة ألمانيا، إلى قبول «الحكمة المنطقية» للفلسفة الهيغلية، التي كان يفترض فيها أن تكون البوصلة التي تهدي الفرنسيين الذين كان روغه يرى أنهم تائهون في الميتافيزقية.

كان روغه ينوي أن يتصل أولا بلامارتين ولامينيه ولوي بلان وليروكس وبرودون، ولكن حتى هذه القائمة الأولية كانت مشوشة بما فيه الكفاية. فلم يكن لدى أحد منهم سوى ليروكس وبرودون أية فكرة عن الفلسفة الألمانية، ومن هذين كان واحد يعيش في الريف بينما كان الآخر قد تخلى عن الكتابة مؤقتا ليشغل عقله باختراع آلة للطباعة. أما الآخرون، بمن فيهم لوي بلان الذي كان يعتبر الفوضوية في السياسة امتدادا للإلحاد في الفلسفة، فقد رفضوا جميعا أن يتعاونوا، مقدمين هذا الاعتراض أو ذاك.

من جهة أخرى، كان العدد الأول يضم عددا مرموقا من المساهمين الألمان: فعدا عن المحررين كان هناك هاينه وهيرويغ وجوهان جاكوبي، وكلها أسماء من الصف الأول، أما في الصف الثاني فكان موسى هس بالإضافة إلى محام شاب اسمه بيرينز، وكل ذلك بالإضافة إلى أصغر المساهمين سنا، فريدريك انغلز، الذي ظهر للمرة الأولى على المسرح، بعد جولات متعددة في مجال التأليف، في كامل استعداده وقوته. ولكن حتى هذه المجموعة الألمانية كانت مشوشة. فقد كان بعضهم لا يفهم إلا القليل من الفلسفة الهيغلية والأقل من «الحكمة المنطقية»، وفوق كل ذلك سرعان ما نشب بين المحررين خلاف جعل استمرار التعاون بينهما مستحيلا. افتتح العدد المزدوج، الذي قدر له أن يكون العدد الوحيد، بمراسلات بين ماركس وروغه وفويرباخ وباكونين، وهو روسي شاب ارتبط بروغه في دريسدن وقدم إلى «دويتشه ياربشر» مساهمة أثارت الكثير من النقاش. وكانت هذه المراسلات تتكون من ثمانية رسائل، كل منها موقع بالحروف الأولى لاسم مؤلفه، وتوضح هذه التوقيعات أن ماركس كتب منها ثلاثا وكذلك روغه، بينما كتب كل من فويرباخ وباكونين رسالة واحدة. وفيما بعد أعلن روغه أن المراسلات كانت من وضعه، وأنه كان قد «استخدم مقتطفات من رسائل حقيقية هنا وهناك». وقد ضم هذه الرسائل إلى مجموعة أعماله الكاملة، ولكن من الملاحظ أن المراسلات شوهت في هذه المجموعة تشويها كبيرا، وأن الرسالة الأخيرة الموقعة بأحرف اسم ماركس الأولى، والتي تشكل لب المراسلات جميعا، قد حذفت. ولا يترك محتوى هذه الرسائل أي شك في أن كاتبيها هم من تظهر الأحرف الأولى لأسمائهم عليها. وبالقدر الذي تشكل فيه هذه الرسائل تأليفا منتظما، فإن ماركس يلعب الدور الأساسي فيها. ولكن ليس من الضروري إنكار احتمال أن يكون روغه قد ساهم دونما براعة في رسائله وفي رسالتي باكونين وفويرباخ.

افتتح ماركس واختتم المراسلات، وتشبه المقدمة التي وضعها لحنا ملهما. فهو يقول أن الرجعية الرومانتكية تؤدي إلى الثورة، وأن الدولة مسألة جدية لدرجة لا يمكن معها النزول بها إلى مستوى مسرحية تهريجية، وأن سفينة محملة بالحمقى يمكن أن تتقاذفها الرياح دون أن يصيبها ضرّ، ولكنها في النهاية ستواجه حتفها لمجرد أن الحمقى أبوا أن يصدقوا ذلك. فيجيب روغه بنواح طويل حول صبر الفلستيين[6] الألمان الذي لا ينفذ والذي يشبه صبر النعاج. وقد كانت مساهمته «ساذجة وبائسة» كما اعترف هو نفسه في ما بعد، أو كما أجاب ماركس في الحال وبقدر أكبر من التهذيب: «أن رسالتك مرثاة جيدة، ترنيمة جنائزية تبهر الأنفاس، ولكنها ليست سياسية على الإطلاق». ذلك أنه إذا كان العالم ملكا للفلستيين فإن من المفيد دراسة سادة العالم هؤلاء، على الرغم من أن الفلستي سيد للعالم فقط لأنه يملأ العالم بمجتمعه هو، كما تملأ الديدان جثة منخورة. وما دام الفلستي هو الأساس المادي للملكية، فإن الملك ذاته لا يمكن أن يكون إلا ملكا للفلستيين. ولقد حاول الملك الجديد، الذي يفوق والده وعيا وحيوية، أن يحلّ دولة الفلستيين، ولكن ما دام الفلستي فلستيا، فإنه لن يستطيع أن يجعل من نفسه رجلا حرا ولا من رعاياه أحرارا.

هكذا فإن دولة العبودية والخنوع المحنطة قد عادت إلى الحياة، ولكن حتى في هذا الوضع اليائس هناك أمل جديد. وهنا أشار ماركس إلى افتقار السادة إلى الكفاءة وإلى خمول خدمهم ورعاياهم الذين يتركون الأمور لمشيئة الله، وهذان الأمران معا كافيان للتسبب في كارثة. ثم أشار إلى أعداء الفلستية، إلى كل الرجال الذين يفكرون ويقاسون، أولئك الذين توصلوا إلى فهم الأمور. كما أنه أشار إلى تكرس نظام العبودية القديم، الذي يدفع كل يوم بمقاتلين جدد إلى ساحة النضال من أجل قضية الإنسانية، بينما نظام الأرباح والتجارة، نظام الملكية واستغلال الإنسانية يؤدي أسرع فأسرع إلى انقسام داخل المجتمع، انقسام لا يستطيع النظام القديم أن يصلحه لأنه لم يخلق ولم يشف، بل وجد وتمتع فحسب. ولذا فإن المهمة المطروحة هي جر العالم القديم إلى ضوء النهار، وتطوير العالم الجديد بطريقة إيجابية.

كتب كل من باكونين وفويرباخ إلى روغه مشجعين، كل على طريقته الخاصة. بينما أعلن هذا الأخير أنه تحول على يد «الفوضويين والفلاسفة الجدد». وكتب فويرباخ مقارنا نهاية «دويتشه ياربشر» بنهاية بولندا، معلنا أن جهود بضعة رجال لا بد أن يثبت عدم فاعليتها في

[6] الفلستي Philistine هو من يتمسك بمثل ومبادئ الطبقة الوسطى دون أن يعير الأمر قدرا كبيرا من التفكير، وهو خاصة المثقف المعادي للتقدم.

مستنقع مجتمع متفسخ، ومن ثم كتب روغه إلى ماركس يقول: «كما فشلت الحرية الارستقراطية والإيمان الكاثوليكي في إنقاذ بولندا، كذلك فشل العلم المحترم والفلسفة اللاهوتية في إنقاذنا. إننا لن نستطيع الاستمرار في حياتنا العملية إلا إذا افترقنا عنهما افتراقا حاسما. لقد ماتت «ياربشر» والفلسفة الهيغلية ملك للماضي. فلنناضل من أجل صحيفة في باريس نستطيع فيها أن ننتقد أنفسنا وألمانيا ككل بحرية تامة وأمانة لا تتزحزح».

كانت لماركس الكلمة الأولى كما كانت له الكلمة الأخيرة: من الواضح، أنه يتوجب إيجاد نقطة التقاء جديدة للعقول المفكرة المستقلة. فعلى الرغم من أن الشك لا يطال الماضي، إلا أن هناك الكثير من التشوش فيما يتعلق بالمستقبل. «لقد حدثت فوضى عامة في صفوف المصلحين، ولا شك في أنهم جميعا مضطرون إلى الاعتراف بأنه ليست لديهم أفكار دقيقة حول المستقبل. غير أن ميزة الحركة الجديدة تكمن بالضبط في أننا لا نريد أن نتوقع العالم الجديد دوغماتيا، بل نريد أن نستكشفه عبر نقد العالم القديم. حتى الآن كان حل الأحجية يقبع على الدوام في أدراج الفلاسفة، وكان كل ما يتعين على العالم الخارجي الغبي القيام به هو أن يغمض عينيه ويفتح فمه ليتلقى كعكة العلم المطلق. لقد علمنت الفلسفة نفسها، وأبلغ دليل على ذلك هو أن الوعي الفلسفي ذاته اندفع إلى وسط الأحداث، لا بصورة مصطنعة وإنما كليا. وليس من مهمتنا بالتأكيد بناء المستقبل مسبقا وحل كل المشاكل مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن من مهمتنا بالقدر ذاته من التأكيد أن ننتقد العالم القائم بلا رحمة. وأعني بلا رحمة أنه يتعين علينا أن لا نخاف النتائج التي نتوصل إليها، ولا نخاف الاصطدام بالقوى السائدة».

لم يكن ماركس يرغب في نشر أي معيار دوغماتي، وكان يعتبر الشيوعية كما يبشر بها كابت وديزامي وويتلنغ تجريديا دوغماتيا. إن اهتماما ألمانيا المعاصرة الرئيسي ينصب على الدين وفي المكان الثاني فحسب على السياسية، سواء رضي المرء عن ذلك أم لم يرض. ولذا لم يكن مفيدا أبدا تقديم نظام جاهز كما في «الرحلة إلى ايكارا»[7]، بل يجب على المرء أن يبدأ بالأمور من حيث هي.

شجب ماركس موقف «الاشتراكيين» الذين كانوا يشعرون أنهم أرفع من أن يهتموا بالمسائل السياسية. فالحقيقة الاجتماعية يمكن التوصل إليها في أي مكان من التناقض في الدولة السياسة، من الصدام بين رسالتها المثالية وبين فرضيتها العملية. «ولذا فليس هناك ما يمنعنا من بدء نقدنا بنقد السياسة، وبالاشتراك في السياسة، أي في النضال الحقيقي. وبذلك يجب علينا أن نتجنب تقديم أنفسنا للعالم في صورة دوغماتية وبمبدأ جديد يعلن: هذه هي الحقيقة، فلتنحنوا لها ولتعبودها. علينا أن نطور للعالم مبادئ جديدة انطلاقا من مبادئه القديمة. يجب علينا أن لا نقول للعالم: أوقف صراعاتك، فهي حمقاء، وأصغ لنا فنحن نملك الحقيقة. بدلا من ذلك، يجب علينا أن نبين للعالم السبب في صراعاته، وهذا وعي يجب على العالم أن يصل إليه سواء أكان يحب ذلك أم لا». ويلخص ماركس برنامج الصحيفة الجديدة كما يلي: مساعدة العصر على إدراك (فلسفة نقدية) صراعاته ورغباته.

توصل ماركس إلى هذا الإدراك، ولكن روغه لم يفعل، حتى أن المراسلات ذاتها تبدي أن ماركس كان القائد، وأن روغه كان المقود. كذلك كان هناك عامل مكمل هو أن روغه سقط مريضا بعد وصوله إلى باريس فلم يستطع أن يقوم بالكثير في تحرير المجلة. وهكذا لم يستطع ممارسة قدرته الرئيسية بشكل كامل، وكان ماركس يبدو له «عرضيا جدا» بما لا يسمح له بالقيام بمهمة التحرير. ولم يستطع روغه، كذلك، أن يعطي للصحيفة الشكل والمضمون اللذين كان يعتبر أنهما يناسبانها، كما أنه لم يستطع حتى أن ينشر مساهمة له فيها. ومع ذلك، لم يكن مستاء كثيرا من العدد الأول، فقد وجد فيه «بعض الأشياء الممتازة التي ستثير أصداء واسعة في ألمانيا» على الرغم من أنه اشتكى من أن «عددا من الأشياء غير المصقولة» فقد نشر في عجلة، وأنه كان يستطيع أن يدخل عليها بعض التحسينات. ولربما كان المشروع قد استمر، لولا أن حالت بعض العوائق الخارجية دون ذلك.

أولا، سرعان ما استنفذت الأموال المرصودة لمجلة «ليتراريسيش كونتور» وأعلن فروبل أنه لن يستطيع الاستمرار دون المزيد من الأموال، وثانيا سارعت الحكومة البروسية إلى اتخاذ إجراءات حالما أعلن عن صدور «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» فلم تكن الصحيفة لتلاقي تعاطفا من ميترينخ ولا من غيزوت، ولم يكن أمام الحكومة غير أن تقنع بالتعميم على كل حكام المقاطعات البروسية أن «ياربشر» تمثل خيانة عظمى وطعنا في الذات الملكية، وهذا ما فعلته في 18 نيسان 1844. وفي الوقت ذاته أعطيت لحكام المقاطعات تعليمات بإلقاء القبض على روغه وماركس وهايند وبيرنز ومصادرة أوراقهم بأقل ما يمكن من الضجة إذا وطئوا التراب البروسي. ولما كان يتعين اقتناص الدب قبل سلخه، كان هذا الإجراء دونما ضرر نسبيا، ولكن ضمير ملك بروسيا أصبح أكثر خطرا عندما أعطى تعليماته بزيادة الرقابة على الحدود. فنجحت الشرطة في مصادرة 100 نسخة من المجلة كانت مخبأة في قارب في الراين، و200 عدد على الحدود الفرنسية قرب برغزابرن. وبالنظر إلى صغر حجم توزيع المجلة، كانت هذه ضربة قاصمة.

وعندما تكون الخلافات الداخلية محتدمة، فإن المصاعب الخارجية تفلح في جعلها أكثر مرارة واحتدادا. يقول روغه أن هذه الظروف سرعت افتراقه عن ماركس، بل كانت السبب فيه، ولربما كان هناك بعض من الحقيقة في هذا القول، فبينما لم يكن ماركس يعير للمسائل المالية أدنى اهتمام، كان روغه على العكس من ذلك يبدي تجاهها حذرا أشبه بحذر البقال. ولم يتردد روغه في أن يقدم لماركس نسخا من الصحيفة بدلا من النقود كجزء من الراتب المتفق عليه مع ماركس، ولكنه يدعي أنه غضب أيما غضب عندما اقترح ماركس عليه أن يخاطر بأمواله ويحاول الاستمرار في إصدار المجلة، وهو يشير إلى أن ماركس لم يكن يعرف أي شيء فيما يختص بتجارة الكتب. ولا شك في أن ماركس خاطر بأمواله في مناسبات كهذه، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد اقترح على روغه المخاطرة بأمواله هو. ولربما كان قد نصح روغه بأن لا يلقي السلاح لدى أول هزيمة، ومن الممكن أن يكون روغه قد اعتبر ذلك هجوما خطيرا على جيبه، خاصة وأنه كان قد غضب من قبل لاقتراح ماركس أنه يجب أن يقدم بعض الأموال لنشر أعمال ويتلينغ.

[7] يوتوبيا كتبها اتيان كابت.

غير أن روغه يشير في ما بعد إلى السبب الحقيقي لافتراقه عن ماركس، عندما يعترف بأن السبب المباشر كان خصاما حول هيرويغ، الذي وصفه بأنه «وغد... ربما بحدة أكثر مما يجب»، بينما أكد ماركس على «المستقبل العظيم» الذي ينتظر هيرويغ. وفي الحقيقة كان روغه على حق، فلم يكن لهيرويغ أي «مستقبل عظيم»، كما كانت الحياة التي كان يعيشها إذ ذاك في باريس عرضة حقا للانتقاد. حتى أن هاينه شجبه بحدة، بينما يعترف روغه نفسه أن ماركس لم يكن أيضا مسرورا جدا بالرجل. على أية حال كان الخطأ الذي وقع فيه ماركس «المر الحقود» مشرفا له، أكثر مما شرفت روج «الأمين الذي لا يرقى إليه الشك» غريزته المصيبة، ذلك أن ماركس كان مهتما بالشاعر الثوري، بينما كان روج مهتما بالأخلاقية البرجوازية الصغيرة.

كانت هذه هي الأهمية الكامنة في الحادث الصغير الذي فصل ما بين الرجلين إلى الأبد. ولم يكن لافتراق ماركس عن روغه الأهمية السياسة التي كانت لسجالات ماركس مع برونو باور وبرودون فيما بعد. ولربما كان ماركس كثوري قد أصيب بالضيق من روغه قبل أن تجعل حادثة هيرويغ علاقتهما أمرا لا يطاق، حتى ولو افترضنا أن الحادث وقع كما يصفه روغه.

وإذا كان المرء يرغب في رؤية روغه من جانبه الأفضل، فإن عليه أن يقرأ المذكرات التي نشرها بعد ذلك بنحو عشرين سنة. تعالج مجلدات المذكرات الأربعة حياة روغه إلى حين توقف «دويتشه ياربشر» عن الصدور، أي طوال الفترة التي كان فيها روغه المثال الناصع لتلك الطليعة الأدبية من الأساتذة والطلبة الذين كانوا يتكلمون نيابة عن برجوازية كانت تعيش على تجارة صغيرة وأوهام كبار. وهي تحتوي ثروة من الصور الساحرة لطفولة روغه في أراضي روغن الواطئة وبومارانيا، كما تصف وصفا فريدا في اللغة الألمانية أوقات الاضطراب زمن تعقب الديماغوجيين. لكن كارثة روغه كانت أن مذكراته ظهرت حين بدأت البرجوازية الألمانية تتخلى عن أوهامها الكبيرة لمصلحة التجارة الكبيرة، ولذا مرت المذكرات دون أن يأبه لها أحد، بينما استقبلت مذكرات رويتر، وهي كتاب لا يقارن بمذكرات روغه سواء من الناحية التاريخية أو الناحية الأدبية، بعاصفة من التصفيق. كان روغه فعلا عضوا نشيطا في حركة «بورشن شافتن»، بينما اشترك رويتر في الحركة اشتراكا عرضيا جدا. غير أن البرجوازية الألمانية كانت قد بدأت تغازل الرماح البروسية، ففضلت «فكاهة رويتر الذهبية» وطريقته المازحة في وصف امتهان العدالة أيام تعقب الديماغوجيين، على «الفكاهة الجريئة» التي وصف بها روغه فشل سجانيه في تحطيم روحه، وكيف حصل على حريته الداخلية أثناء سجنه.

ولكن حتى في وصف روغه، يشعر المرء أن ليبرالية ما قبل آذار لم تكن في التحليل الأخير غير فلستية رغم كل الكلمات الجميلة، وان الناطقين باسمها لم يكونوا غير فلستيين، وأنهم ظلوا كذلك حتى النهاية. كان روغه أكثر هؤلاء حماسة، وقد قاتل بشجاعة كافية ضمن حدوده الإيديولوجية، ولكن المزاج الفلستي ذاته جعل ارتداده أمرا سهلا، عندما اصطدم في باريس بتناقضات الحياة الحديثة وجها لوجه.

كان روغه قد اتخذ الاشتراكية على أنها هواية المحسنين الفلسفيين، ولكن شيوعية حرفيي باريس جعلته يرتعد هلعا وملأته بخوف، لا لخشيته على سلامته الشخصية، بل لخشيته على جيبه. ولقد وقع روغه في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» صك الموت على الفلسفة الهيغلية بقدر عظيم من الزهو والخيلاء، ولكن ما انتهى العام حتى رحب بفلسفة ستيرنر، أكثر خلفاء الفلسفة الهيغلية سوقية وابتذالا، بوصفها الدرع الواقي من الشيوعية التي اعتبرها أغبى الغباوات، ووصفها بأنها مسيحية جديدة يبشر بها السذج ونظام يعني تحقيقه انحطاط البشرية إلى الدرك الأسفل.

وهنا أصبح الافتراق بين ماركس وروغه نهائيا لا صلاح له.

2- منظور فلسفي

لذا كانت «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» مولودا طرحا. فما أن أصبح واضحا أن محرريها لا يستطيعان العمل سوية، حتى أصبح افتراقهما أمرا لا أهمية له، وفي الواقع كان من الأفضل أن يفترقا في وقت أبكر. وكان يكفي أن ماركس قد قفز قفزة عظيمة نحو رؤية أوضح للأمور.

نشر ماركس في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» مساهمتين: «مقدمة لنقد فلسفة الحق عند هيغل»، وملاحظات عن كتابين في المسألة اليهودية أصدرهما برونو باور.وعلى الرغم من اختلاف المساهمتين اختلافا بينا في موضوعيهما، ألا أنهما كانت مرتبطين ارتباطا وثيقا في محتواهما الإيديولوجي. وفيما بعد لخص ماركس نقده لفلسفة الحق لدى هيغل بالقول أن مفتاح فهم التطور التاريخي يكمن في دراسة المجتمع، الذي يحتقره هيغل، وليس في دراسة الدولة التي يمجدها. وفي المساهمة الثانية يعالج ماركس وجهة النظر هذه بقدر أكبر من التفصيل الذي عالجها به في المساهمة الأولى.

من جهة أخرى ترتبط المساهمتان ببعضهما ارتباط الوسيلة بالهدف. فالأولى تقدم هيكلا فلسفيا للصراع الطبقي البروليتاري، بينما تقدم الثانية هيكلا فلسفيا للمجتمع الاشتراكي. غير أن أيا منهما لم تهبط من السماء، بل أنهما كليهما تشيران إلى التطور الفكري لكاتبهما تطورا منطقيا تماما. فقد انطلقت المساهمة الأولى مباشرة من فويرباخ، الذي أتم في الجوهر نقد الدين، الذي هو الفرضية الكامنة وراء كل نقد: الإنسان يصنع الدين، وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان.

يبدأ ماركس بالقول لكن الإنسان ليس كائنا مجردا يوجد خارج العالم. الإنسان هو عالم البشر، هو الدولة وهو المجتمع، إنه عالم أنتج الدين وعيا مقلوبا للعالم لأن العالم ذاته مقلوب. ولذا فإن النضال ضد الدين نضال غير مباشر ضد ذلك العالم الذي يشكل الدين شذاه الروحي. هكذا

يصبح الوصول إلى حقيقة الواقع المعاصر، بعد أن اختفت سماوية الحقيقة، مهمة التاريخ. وهكذا يتحول نقد السماء إلى نقد للأرض، ونقد الدين إلى نقد للقانون ونقد اللاهوت إلى نقد للسياسة.

غير أن الفلسفة وحدها هي التي تستطيع أن تقوم بهذه المهمة التاريخية لألمانيا. ذلك أنه إذا نظر المرء إلى ألمانيا في عام 1843، لوجد أنها لا تكاد تكون في سنة 1789 الفرنسية، وأقل من ذلك لا تكاد تكون في بؤرة المشاكل المعاصرة. فإذا أخضع الواقع الاجتماعي-السياسي المعاصر للنقد، فإن النقد يجد نفسه خارج الواقع الألماني أو أنه سيفشل في الوصول إلى هدفه الحقيقي. وكمثال على أنه يتوجب على التاريخ الألماني أن يقوم بالتمارين المتعبة القديمة، تماما كمجند خامل، يذكر ماركس «واحدة من المسائل الرئيسية المعاصرة»، مسألة علاقة الصناعة، أو بالأحرى علاقة عالم المال ككل، بعالم السياسة.

فهذه المسألة تشغل الألمان على شكل تعرفة حماية وعائدات ضخمة ونظام الاقتصاد الوطني. وهكذا يبدأ الألمان حيث انتهى الانجليز والفرنسيون. فالأوضاع القديمة المهترئة التي يثور عليها هذان البلدان نظريا والتي لا يتسامحون تجاهها إلا كما يتسامح المرء تجاه قيوده، يجري الترحيب بها في ألمانيا على أنها شمس المستقبل المشرق الصاعدة. وبينما المسألة في انجلترا وفرنسا مسألة «الاقتصاد السياسي أو سيادة المجتمع على الثروة»، فإن المسألة في ألمانيا هي مسألة «الاقتصاد الوطني أو سيادة الملكية الخاصة على الجنسية الوطنية». ومن هنا فإن المسألة في الحالة الأولى تكمن في حل العقدة، بينما هي في الحالة الثانية مسألة عقدها أولا.

وعلى الرغم من أن الألمان ليسوا معاصرين لغيرهم من الأمم تاريخيا، إلا أنهم معاصرون لها فلسفيا. فنقد الفلسفة الألمانية في القانون والدولة، الذي اتخذ أكثر شكل منطقي له على يد هيغل، يؤدي مباشرة إلى مركز المسائل المعاصرة الملحة.

ثم يحدد ماركس بوضوح موقفه من الاتجاهين اللذين وجدا جنبا إلى جنب في «راينيخه تزايتونغ» وبالنسبة لفويرباخ. لقد ألقى فويرباخ بالفلسفة إلى سلة المهملات، ولكن ماركس يبين أنه إذا كان على المرء أن يعالج المسائل الحيوية حقا، فإن عليه أن لا ينسى أن الحياة الحيوية للشعب الألماني لم تزدهر حتى الآن إلا في عقل هذا الشعب فقط. وهو يخاطب «بارونات القطن وعمالقة الحديد» قائلا: «إنكم على حق إذ تطالبون بتصفية الفلسفة، ولكنكم لا تستطيعون أن تصفوها قبل أن توجدوها». وهو على العكس من ذلك يخاطب برونو باور وأتباعه قائلا: إنكم على حق إذ تطالبون بإيجاد الفلسفة، ولكنكم لا تستطيعون إيجادها قبل أن تصفوها أولا.

يتمخض نقد فلسفة القانون عن مهام لا سبيل إلى حلها إلا بالممارسة. فكيف يمكن لألمانيا أن ترفع نفسها إلى مستوى في ارتفاع المبدأ، أي إلى ثروة لن ترفعها إلى مصاف الشعوب الحديثة فحسب، بل وأيضا إلى المستوى الإنساني الذي سيكون المستقبل القريب لهذه الشعوب؟ كيف يمكنها أن تتخطى بقفزة مصيرية لا نقائصها الذاتية فحسب، بل وفي الوقت ذاته نقائص الشعوب الحديثة أيضا، تلك النقائص التي يجب في الواقع أن تشعر أنها تحرير لها من نقائصها الذاتية، والتي يجب أن تسعى للوصول إليها؟

إن سلاح النقد لا يستطيع بالتأكيد أن يحل محل نقد الأسلحة. فالقوة المادية يجب أن يطاح بها بالقوة المادية، ولكن النظرية ذاتها تصبح قوة مادية عندما تتملك الجماهير، وعندما تفعل فإنها تصبح في الحال راديكالية جذرية. غير أن ثورة جذرية تحتاج إلى عنصر سلبي، إلى أساس مادي. والنظرية تتحقق في شعب ما بقدر ما هي إدراك لحاجات هذا الشعب. ولا يكفي أن تندفع الفكرة نحو التحقق، بل يجب أن يفرض الواقع نفسه على الفكرة. بيد أن هذا أمر تفتقر إليه ألمانيا، حيث حقول المجتمع المختلفة مرتبطة ببعضها ملحميا وليس دراماتيكيا، حيث ثقة الطبقات الوسطى الأخلاقية قائمة فحسب على الوعي بأنها الممثل العام لكل ما هو مبتذل في الطبقات الأخرى جميعا، حيث كل حقل من حقول المجتمع البرجوازي يعاني من هزيمته قبل أن يحتفل بانتصاره ويبدي ضيق أفقه قبل أن تتاح له فرصة إبداء سعة أفقه، فتكون كل طبقة منغمسة في صراع مع الطبقة الأدنى منها قبل أن تستطيع خوض صراع مع الطبقة الأعلى.

لكن هذا لا يعني أن الثورة الجذرية، وهي الانعتاق الإنساني العام، مستحيلة في ألمانيا، ولكنه يعني فحسب أن الثورة السياسية فقط، تلك الثورة التي تبقى على أعمدة البيت، هي المستحيلة. فالشروط الأولية لثورة سياسية كهذه مفقودة في ألمانيا: من جهة طبقة تأخذ على عاتقها تحرير المجتمع من وضعها المحدد الخاص بها، ولكن بشرط واحد هو أن يجد المجتمع كله نفسه في الوضع ذاته الذي تعيشه هذه الطبقة، أي أنه مثلا يملك النقود والتعليم أو يستطيع الحصول عليها بسهولة. ومن جهة أخرى طبقة تتركز فيها عيوب المجتمع، حقل اجتماعي محدد يكون مسؤولا عن جريمة المجتمع كله، حتى يبدو التحرر من هذه الطبقة انعتاقا ذاتيا للمجتمع كله. فلقد قولب الطابع السلبي العام للارستقراطية الفرنسية ورجال الدين الفرنسيين الطابع الايجابي العام للطبقة الملامسة لهما مباشرة والمعادية لهما وهي البرجوازية.

ويستنتج ماركس من استحالة نصف الثورة إمكانية الثورة الجذرية. ويتساءل أين تكمن هذه الإمكانية، ويجب: «في تكوّن طبقة قيودها جذرية، طبقة من المجتمع البرجوازي ليست من المجتمع البرجوازي، طبقة هي انحلال كل الطبقات، حقل من حقول المجتمع له طابع شامل نتيجة معاناته الشاملة، حقل لا يطالب بحق مخصوص لأن ظلما مخصوصا لم يقع به بل وقع به الظلم كله، حقل لم يعد يستطيع الطموح إلى لقب تاريخي بل إلى لقب إنساني، حقل لا يقف على تناقض أحادي الجانب مع النتائج، بل على تناقض شامل وكامل مع فرضيات الدولة الألمانية ذاتها، وأخيرا حقل لا يستطيع أن يحرر نفسه دون أن يحرر كل حقول المجتمع كذلك، وباختصار طبقة تمثل الفقدان الكامل للإنسانية ولذا فهي لا تستطيع أن تربح ذاتها إلا عبر إعادة كسب كاملة للإنسانية. انحلال المجتمع هذا هو البروليتاريا». وقد بدأت هذه الطبقة في النمو في ألمانيا نتيجة للحركة الصناعية التي اجتاحت البلاد، ذلك أنها لم تتكوّن بفعل فقر أساسه طبيعي بل بفعل فقر أنتج اصطناعيا، لا بفعل جمهرة من البشر ينوءون ميكانيكيا تحت ثقل المجتمع، ولكن بفعل جمهرة من البشر ناجمة عن الانحلال إلحاد للمجتمع، وبصورة رئيسية عن انحلال الطبقات الوسطى، على الرغم من أن الفقر الطبيعي والعبودية الألمانية-المسيحية دخلت صفوفها بالطبع وتدريجيا.

وكما أن الفلسفة تجد أسلحتها المادية في البروليتاريا، كذلك فإن البروليتاريا تجد أسلحتها الفكرية في الفلسفة. وحالما يغرس الفكر جذوره بعمق في عامة الجماهير، يحدث انعتاق الألمان وتحولهم إلى بشر. إن انعتاق الألماني هو انعتاق الإنسان. والفلسفة لا يمكن أن تتحقق دون تصفية البروليتاريا، والبروليتاريا لا تستطيع أن تصفي نفسها دون أن تدرك الفلسفة. وعندما تتحقق كل الشروط الداخلية، يعلن يوم البعث الألماني.

تقف هذه المقالة، من حيث الشكل والمحتوى، في مقدمة مقالات ماركس الشابة التي وصلت إلينا. ولا شك في أن تلخيصا موجزا للأفكار الرئيسية التي احتوتها لا يستطيع أن يعطي ولو فكرة تقريبية عن غنى الفكر الذي ينظمه ماركس في شكل دقيق محكم. أما أولئك الأساتذة الألمان الذين وجدوا أسلوبها مبتذلا وطريقتها مفتقرة إلى الذوق بشكل مرعب، فلا شك في أنهم قدموا دليلا غير مشرف ضدهم هم. غير أن روغه هو الآخر وجد «حكمها البارعة... مصطنعة جدا»، وانتقد «افتقارها إلى الشكل» ولكنه اكتشف فيها «موهبة نقدية تتطور إلى الجدل، ولكنها أحيانا تنحط إلى الغطرسة». ولم يكن هذا نقدا متجنيا، ذلك أن ماركس كان أحيانا يتهلل ابتهاجا لصوت ضربات سيفه، رغم أن هذا السيف أثبت أنه حاد وقاطع. إن الغطرسة آفة كل الشباب الموهوب.

بيد أن المنظور الفلسفي الذي تفتح هذه المقالة أبوابه لا يزال بعيدا. فما أن أحد استطاع أن يبرهن بشمول أكثر مما فعل ماركس في ما بعد أنه ما من أمة تستطيع أن تقفز قفزة مصيرية فوق مراحل تطورها التاريخي الضرورية، ولكن المنظورات الغائمة التي رسمها في مقالته هذه لم تكن خاطئة. ففي التفاصيل حدثت الأمور على نحو مختلف، أما في الشكل العام فقد حدثت كما تنبأ ماركس. وتاريخ البرجوازية الألمانية وكذلك تاريخ البروليتاريا الألمانية هما معا شاهده.

3- في المسألة اليهودية

ليست المساهمة الثانية التي نشرها ماركس في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» ساحرة إلى هذا الحد في شكلها، ولكنها تكاد تكون في قوة تحليلها النقدي متفوقة على الأولى. وفي هذه المساهمة يتفحص ماركس الفرق بين الانعتاق الإنساني والانعتاق السياسي على أساس رسالتين في المسألة اليهودية كتبهما برونو باور.

لم تكن هذه المسألة قد غاصت بعد في ذلك الحين في أوحال السامية والعداء للسامية. فقد كانت طبقة من طبقات المجتمع، تمثل تناميا مطردا كواحدة من أبرز ممثلي رأس المال التجاري والاقراضي، محرومة من كل حقوقها المدنية بسبب دينها، عدا عن الامتيازات التي كانت تتمتع بها نتيجة ممارساتها الربوية. وقد أعطى أشهر ممثل «للحكم المستبد المستنير»، فيلسوف سان سوسي فريديريك الأكبر، العالم، درسا رفيعا بمنح «حرية الصيارفة المسيحيين» لليهود المتولين الذين ساعدوه في تزييفه للعملات وغير ذلك العمليات المالية المريبة، بينما سمح للفيلسوف موسى مندلسون بالبقاء على الأرض التي يحكمها، لا لأن هذا كان يناضل لقيادة «شعبه» وإدخاله في الحياة الفكرية لألمانيا، بل لأنه كان يحتل منصب ماسك دفاتر واحد من المتولين اليهود ذوي الامتيازات. ولو فصله رب عمله من العمل، لأصبح محروما من كل حقوقه.

وحتى رواد حركة الاستنارة البرجوازية، عدا واحد منهم أو اثنين، لم يبدوا أي اعتراض على الحرمان القانوني لقطاع كامل من السكان بسبب الدين لا غير. فقد كان الدين اليهودي كريها بالنسبة لهم لأنه كان مثالا على التعصب الديني الذي تعلمت المسيحية منه «تزمتها الإنساني»، بينما لم يبد اليهود من جهة أخرى أي اهتمام كان بحركة الاستنارة البرجوازية. وقد سر اليهود عندما بدأ النقد المستنير يأخذ برقبة الدين المسيحي، ولكنهم ملأوا الدنيا ضجيجا، كما لو أن خيانة للإنسانية قد وقعت، عندما حول هذا النقد ذاته انتباهه إلى الدين اليهودي. وقد طالب اليهود بالتحرر السياسي لليهودية، ولكن ليس بمعنى إعطاء حقوق متساوية للجميع ولا بنية التخلي عن موقعهم الخاص، بل بنية تعزيز موقعهم الخاص، وكانوا على استعداد طيلة الوقت للتخلي عن المبادئ الليبرالية لحظة تصطدم هذه المبادئ بأية مصلحة يهودية مخصوصة.

كان من الطبيعي أن يمتد نقد الدين الذي شنه الهيغليون الشباب إلى الدين اليهودي، الذي اعتبروه مرحلة بدائية من المسيحية. وقد حلل فويرباخ اليهودية على أنها دين الأنانية: «لقد حافظ اليهود على خصوصياتهم الخاصة حتى يومنا هذا. ومبدأهم وإلههم هو المبدأ العملي للعالم-الأنانية على شكل دين. تركز الأنانية الإنسان على ذاته، ولكنها في الوقت ذاته تحدّ من رؤيته النظرية لأنه يفقد اهتمامه بكل ما لا يرتبط مباشرة برفاهه الفردي الخاص». وقال برونو باور الشيء ذاته تقريبا، معلنا أن اليهود قد تسللوا إلى شقوق المجتمع البرجوازي وصدوعه ليستغلوا عناصره كما فعلت آلهة أبيقور التي عاشت في صدوع العالم متحررة من أي عمل محدد. ودين اليهود هو الخديعة والخبث الحيوانيين، وبه أشبع اليهود حاجاتهم الحسية. وقد عارض اليهود على الدوام التقدم التاريخي، وبسبب من كراهيتهم لكل الشعوب الأخرى انعزلوا عن العالم وعاشوا حياة عقيمة خصيا.

فسر فويرباخ سلوك الدين اليهودي من سلوك اليهود، ولكن باور رغم شمول مقالته في المسألة اليهودية وجرأتها وعمقها، التي قابلها ماركس جميعا بالمديح، رأى المسألة من خلال منظور لاهوتي فحسب. فأعلن أن اليهود كالمسيحيين لا يستطيعون أن يكسبوا حريتهم إلا بالتغلب على الدين. أما الدولة المسيحية فهي لطابعها الديني ذاته لا تستطيع تحرير اليهود، بينما لا يمكن تحرير اليهود بسبب طابعهم الديني. ولذا فإن على المسيحيين واليهود أن يكفوا عن كونهم مسيحيين ويهودا إذا كانوا يرغبون في أن يصبحوا أحرارا. ولكن بما أن المسيحية قد نسخت اليهودية كدين فإن أمام اليهودي طريقا أطول يتعين عليه قطعها قبل أن يستطيع كسب حريته. وفي رأي باور أن على اليهودي أن يتعلم أولا المسيحية والفلسفة الهيغلية قبل أن يستطيع تحرير نفسه.

وهنا تدخل ماركس ليقول أنه لا يكفي التساؤل عمن سيحرّر وعمن سيتحرر. بل يجب على النقد أن يذهب أبعد من ذلك، فيتساءل أي نوع من التحرر، أهو تحرر سياسي أم تحرر إنساني. ففي بعض الدول تحرر المسيحيون واليهود سياسيا تحررا تاما دون أن يكونوا بذلك قد تحرروا إنسانيا. ولذا فلا بد أن هناك فرقا بين التحرر السياسي والتحرر الإنساني.

كان جوهر التحرر السياسي هو الدولة الحديثة المتطورة جدا، وكانت هذه الدولة كذلك دولة مسيحية تماما، ذلك أن الدولة المسيحية- الجرمانية، دولة الامتيازات، لم تكن غير الدولة الناقصة، الدولة التي لا تزال لاهوتية لم تتطور بعد في وضوحها السياسي. غير أن الدولة السياسية في مراحلها العليا لم تطالب اليهود بالتخلي عن اليهودية أو تطالب الإنسانية بشكل عام بالتخلي عن الدين كله. بل حررت اليهود ودفعها طابعها ذاته إلى ذلك. ولكن حتى في الدول التي ينص فيها دستور الدولة صراحة على أن ممارسة الحقوق السياسية مستقلة تماما عن المعتقدات الدينية، رفض مواطنو الدولة رغم ذلك الاعتقاد بأن رجلا لا دين له يمكن أن يكون رجلا شريفا ومواطنا صالحا. هكذا فإن وجود الدين لم يتناقض إطلاقا مع التطور الكامل للدولة. وقد كان التحرر السياسي لليهودي والمسيحي وللرجل المتدين بشكل عام هو تحرر الدولة من اليهودية والمسيحية والدين بشكل عام. فالدولة تستطيع أن تحرر نفسها من عائق دون أن يتحرر من هذا العائق حقا الكائن الإنساني في الدولة، وهنا حدود التحرر السياسي.

ثم يطور ماركس هذه الفكرة أبعد من ذلك. فيقول أن الدولة كدولة سلبت الملكية الخاصة. وصفى الكائن الإنساني الملكية الخاصة بطريقة سياسية حالما ألغى الامتيازات السلبية والايجابية التي تمنحها الملكية، كما حدث في كثير من الدول الأمريكية الشمالية. وصفت الدولة الفروق في المولد والمركز الاجتماعي والثقافة والمهنة بطريقتها الخاصة عندما أعلنت أن فروق المولد والمركز الاجتماعي والثقافة والمهنة فروق غير سياسية، وعندما أعلنت أنه بغض النظر عن هذه الفروق فإن كل عضو في الجسم السياسي يشترك بالتساوي في سيادة الشعب. ومع ذلك، سمحت الدولة للملكية الخاصة والثقافة والمهنة أن تعمل بطريقتها الخاصة وأن تجعل تأثيرها الخاص بها محسوسا، أي كملكية خاصة وثقافية ومهنة. وهكذا فإن وجود الدولة لم يلغ هذه الفروقات، بل أنه افترض وجودها مسبقا. وقد اعتبرت الدولة نفسها دولة سياسية صرفة وجعلت شموليتها محسوسة في مواجهة عناصرها المكونة هذه.

إن الدولة السياسية المتطورة تماما هي في الجوهر الحياة الاجتماعية للإنسانية مقابل حياتها المادية. وقد بقيت كل فرضيات هذه الحياة الأنانية موجودة خارج نطاق الدولة في المجتمع البرجوازي كصفات مميزة لهذا المجتمع. وكانت العلاقة بين الدولة السياسية وبين فرضياتها الخاصة بها، سواء أكانت عناصر مادية مثل الملكية الخاصة أو عناصر إيديولوجية مثل الدين، علاقة التناقض العدائي بين المصالح الخاصة والمصالح العامة. وقد تكثف الصدام الذي وجد الكائن الإنساني، كتابع لدين معين، نفسه فيه مع مواطنيته في الدولة ومع الرجال الآخرين كأعضاء في المجتمع، تكثف على شكل شرخ بين الدولة السياسية والمجتمع البرجوازي.

إن المجتمع البرجوازي أساس الدولة الحديثة كما كانت العبودية الكلاسيكية أساس الدولة الكلاسيكية. وقد اعترفت الدولة الحديثة بأصولها بإعلانها للحقوق العامة للإنسان، التي يسمح لليهود بالاستمتاع بها قدر ما يسمح لهم بممارسة الحقوق السياسية. إن الحقوق العامة للإنسان تعترف بالفرد البرجوازي الأناني وبالحركة الحرة للعناصر الفكرية والمادية التي تشكل محتوى حياته ومحتوى الحياة البرجوازية المعاصرة. وهي لا تحرر الإنسان من الدين، بل تعطيه حرية الدين. ولا تحرره من الملكية الخاصة، بل تعطيه حرية الملكية. ولا تحرره من خزي التجارة، بل تعطيه حرية التجارة. لقد خلقت الثورة السياسية المجتمع البرجوازي بتحطيم نظام الرقع الإقطاعي وكل مؤسساته من الروابط التي كانت تعبر عن انفصال الناس عن الدولة، وخلقت الدولة كمؤسسة للجميع، كدولة حقيقية.

ثم يخلص ماركس إلى القول: «التحرر السياسي هو تقليص الإنسان إلى عضو في المجتمع البرجوازي، إلى فرد مستقل أناني، من جهة، وإلى مواطن في الدولة، إلى كائن أخلاقي، من جهة أخرى. وفقط عندما يستعيد الإنسان الفردي الحقيقي المواطن المجرد في الدولة ذاته ويصبح كائنا اجتماعيا كانسان فرد في حياته التجريبية وفي عمله الفردي وظروفه الفردية، فقط عندما يدرك الإنسان قواه الذاتية وينظمها كقوة اجتماعية، وبالتالي لا يعود يفصل القوة الاجتماعية عن نفسه على شكل قوة سياسية، عندئذ وعندئذ فقط يكتمل انعتاق الإنسانية».

ويظل القول بأن المسيحي كمسيحي أقدر على التحرر من اليهودي، ذلك القول الذي سعى باور إلى إثباته انطلاقا من الدين اليهودي، يظل هذا القول خاضعا للنقاش. وينطلق ماركس من فويرباخ الذي فسر الدين اليهودي انطلاقا من الإنسان اليهودي وليس الإنسان اليهودي انطلاقا من الدين اليهودي، ولكنه يذهب أبعد من فويرباخ إذ يكشف عن الصغر الاجتماعي المخصوص الذي يعكس نفسه في الدين اليهودي. ماذا كان الأساس العلماني لليهودي؟ الضرورة العملية، المصلحة الذاتية. وماذا كانت العبادة العلمانية لليهودي؟ البيع والشراء. وماذا كان ألهه العلماني؟ النقود. «وإذن: سيكون التحرر من البيع والشراء ومن النقود، أي من اليهودية العملية الحقيقية، هو التحرر الذاتي لعصرنا. فأي تنظيم للمجتمع يلغي الشروط الضرورية للبيع والشراء، أي يلغي إمكانية البيع والشراء، يجعل اليهودي مستحيلا. ذلك أن وعيه الديني سينحل إذ ذاك مثل الروائح الكريهة في جو المجتمع الصافي والحيوي. ومن جهة أخرى، عندما يدرك اليهودي ذلك، عندما يدرك أن سلوكه العملي عبث لا طائل تحته، ويعمل على إلغائه، فإنه حينئذ يعمل، منطلقا من تطوره السابق الخاص به، على تحرير الإنسانية ذاتها، وينقلب ضد أعلى تعبير عملي عن الاستلاب الذاتي الإنساني». ويعتبر ماركس اليهودية عنصرا عاما معاصرا ضد-اجتماعي، دفعه إلى علوه الراهن التطور التاريخي والتعاون الحماسي بين اليهود أنفسهم، دفعه ذلك إلى علو لا بد معه أن يحل ذاته.

حقق ماركس بهذه الرسالة كسبا مزدوجا. فقد غاص إلى جذور الارتباط بين المجتمع والدولة. وقال إن الدولة ليست كما تخيل هيغل واقع الفكرة الأخلاقية والعقل المطلق والهدف المطلق بذاته. وعلى الدولة أن ترتضي لنفسها مهمة أدنى بما لا يقارن، وهي مهمة الإشراف على فوضى المجتمع البرجوازي الذي أناط بالدولة مهمة حراسته، فوضى الصراع العام بين الإنسان والإنسان وبين الفرد والفرد، حرب كل الأفراد، الذين لا يفصلهم عن بعضهم البعض سوى فرديتهم، ضد كل الأفراد، الحركة العامة غير المعاقة لكل القوى الأولية التي أطلقت من

قيودها الإقطاعية، العبودية الواقعية على الرغم من أن الفرد الحر المستقل ظاهريا يعتبر خطأ أن الحركة غير المعاقة لعناصره المستلبة كالملكية والصناعية والدين هي حريته الخاصة، بينما هي لا تمثل في واقع الأمر غير استعباده التام واغترابه عن الإنسانية.

ثم أدرك ماركس أن المسائل الدينية المعاصرة ليس لها سوى أهمية اجتماعية. فأوضح تطور اليهودية لا في النظرية الدينية بل في الممارسة الصناعية والتجارية، التي وجدت لها انعكاسا مذهلا في الدين اليهودي. فاليهودية العملية ليست غير العالم المسيحي المتطور تماما. وبما أن سلوك المجتمع البرجوازي سلوك يهودي تجاري كامل، فإن اليهودي ينتمي إلى هذا المجتمع بالضرورة، وهو يستطيع أن يطالب بالتحرر السياسي مثلما يستطيع الطالبة بالحقوق العامة للإنسان. غير أن تحرر الإنسانية هو التنظيم الجديد للقوى الاجتماعية، تنظيما يجعل الإنسان سيد تلك المصادر التي تعطيه الحياة. وهكذا نرى في المعالم الضبابية لهذه المقالة هيكل المجتمع الاشتراكي وقد بدأ في التكون.

كان ماركس في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» لا يزال يحرث الحقل الفلسفي، ولكن في الاثلام التي قلبها محراثه النقدي بدأ الأنوية الأولى للمفهوم المادي للتاريخ تمتلئ بالحياة، وسرعان ما ازهرت في شمس الحضارة الفرنسية الدافئة.

4- الحضارة الفرنسية

لربما كان ماركس قد أنهى مساهمته في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر»، على الأقل في نقاطهما الأساسية، عندما كان لا يزال في ألمانيا، ومن المحتمل أن يكون ذلك خلال الأشهر الأولى لزواجه السعيد. ولما كانت الأفكار التي تتضمنها هاتان المساهمتان تتجه نحو الثورة الفرنسية الكبرى، فقد كان من الطبيعي أن يندفع ماركس إلى دراسة تاريخ هذه الثورة حالما أعطاه وجوده في باريس فرصة استكشاف مصادر هذا التاريخ، وكذلك مصادر سابقة هذه الثورة، المادية الفرنسية، ولاحقتها، الاشتراكية الفرنسية.

كانت باريس تستطيع في ذلك الحين أن تزعم عن حق أنها تقع في مركز الحضارة البرجوازية، فبعد سلسلة من الأوهام والكوارث، استطاعت البرجوازية الفرنسية في النهاية أن تحقق في ثورة تموز 1830 ما كانت قد بدأته في ثورة 1789 الكبرى. وانتهت قوى البرجوازية إلى التمطي بارتياح، على الرغم من أن القوى القديمة لم تتحطم تماما بأي شكل من الأشكال، وفي الوقت ذاته كانت القوى الجديدة قد بدأت تجعل تأثيرها محسوسا. فكانت النتيجة اندلاع معركة لا تنتهي بين الأفكار، تارة هنا وطورا هناك، كما لم يكن في أي مكان آخر في أوربا، وبالتأكيد كما لم يكن في ألمانيا القابعة في صمت تحت وطأة الموت الفكري.

اندفع ماركس إلى هذا الطوفان الذي يدفع الحياة في الأوحال من جديد. وفي 1844 كتب روغه إلى فويرباخ يعلمه أن ماركس يقرأ كميات هائلة ويعمل بحماسة غير عادية، لكنه لم يكن ينهي شيئا، بل كان ينقطع عن عمله باستمرار، ليقفز في بحر لا نهاية له من الكتب. ويعلمه كذلك أن ماركس أصبح عنيفا يثور بسرعة، خاصة عندما يعمل ثلاث أو أربع ليال بلا انقطاع. وقد وضع ماركس جانبا نقده للفلسفة الهيغلية كي يستطيع الاستفادة من إقامته في باريس لكتابة تاريخ «المؤتمر» بعد أن جمع المادة الضرورية وتبنى عددا من وجهات النظر المثمرة. ولعل شهادة هذه الرسالة تكتسب قيمة أكبر لأنها لم تكتب على الإطلاق بلهجة المديح.

لم يكتب ماركس تاريخ «المؤتمر»، ولكن هذه الحقيقة لا تثير شكا في معلومات روغه، بل هي على العكس من ذلك تشهد بصحتها. فكلما غاص ماركس أعمق في الأهمية التاريخية لثورة عام 1789، كلما أصبح من السهل عليه أكثر أن يتخلى عن نقد الفلسفة الهيغلية كوسيلة للوصول إلى نظرة لمطالب العصر وصراعاته. غير أن تاريخ «المؤتمر» وحده لم يكن ليشبع ماركس، فعلى الرغم من أن «المؤتمر» أبدى حدا أقصى من الطاقة السياسية الفعالية السياسية والفهم السياسي، إلا أنه وقف عاجزا في وجه الفوضى الاجتماعية.

ليس هناك لسوء الحظ، عدا إشارات روغه القليلة، ما يساعدنا على تتبع تفصيلي لمسار الدراسة التي قام بها ماركس في ربيع وصيف 1844، غير أننا، مع ذلك، نستطيع رؤية كيف تطورت دراساته بشكل عام. فقد قادته دراسة الثورة الفرنسية إلى الأدب التاريخي للطبقة الوسطى، ذلك الأدب الذي نشأ خلال فترة عودة آل بوربون، والذي طوره رجال كانوا يتمتعون بموهبة تاريخية يسرت لهم تتبع الوجود التاريخي لطبقتهم منذ القرن الحادي عشر وتصوير التاريخ الفرنسي على أنه سلسلة متصلة من الصراعات الطبقية. يدين ماركس لهؤلاء المؤرخين –وهو يذكر منهم بالتحديد غيزوت وتيري- بمعرفته للطبيعة التاريخية للطبقات وصراعاتها، ثم ينتقل لدراسة التركيب الاقتصادي للطبقات اعتمادا على الاقتصاديين البرجوازيين، وهو يذكر منهم ريكاردو على وجه التخصيص. لقد أنكر ماركس على الدوام أن يكون قد وضع نظرية الصراع الطبقي، وحدد مساهمته بأنها تقديم البرهان على أن وجود الطبقات مرتبط بصراعات تاريخية محددة في تطور الإنتاج، وأن الصراع الطبقي يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية البروليتاريا، وأن هذه الديكتاتورية ليست إلا مرحلة انتقالية تؤدي إلى إلغاء الطبقات وإقامة المجتمع اللاطبقي. ولقد تطورت هذه السلسلة من الأفكار خلال إقامة ماركس في باريس.

كان الفلسفة المادية أحدّ وألمع سلاح استخدمته الطبقة الوسطى في صراعها ضد الطبقات الحاكمة. وقد درس ماركس خلال إقامته في باريس هذه الفلسفة بحماسة معطيا قدرا أقل من الاهتمام للفرع الذي مثله ديكارت، والذي تطور إلى العلم الطبيعي، وقدرا أكبر من الاهتمام للفرع الذي نشأ مع لوك وتطور إلى العلم الاجتماعي. ومن بين النجوم التي لمعت في دراسات ماركس تلك الأيام نجمي هيلفيتيوس وهولباخ، اللذين حملا المادية إلى الحياة الاجتماعية، وجعلا المساواة الطبيعية بين العقول البشرية والوحدة الجوهرية بين تقدم العقل وتقدم الصناعة، الفضيلة الطبيعية للإنسانية، كما جعلا القوة الحاضرة أبدا للتربية النقطة الرئيسية في النظام الذي وضعاه. وقد أطلق ماركس على تعاليمهما لقب «النزعة الإنسانية الحقيقية» كما كان قد أسمى فلسفة فويرباخ، أما الفارق في نظره فهو أن مادية هيلفيتيوس وهولباخ قد أصبحت «الأساس الاجتماعي للشيوعية».

قدمت باريس لماركس كل الفرص التي كان يحتاجها لدراسة الشيوعية والاشتراكية، كما كان قد وعد في «راينيخه تزايتونغ». وكان العالم الفكري الذي دخله ماركس في باريس باهرا، ويكاد يكون باعثا على التشوش، في خصوبة أفكاره وأشكاله. وكان الجو الفكري لباريس يحبل بأنوية الاشتراكية. حتى أن «جورنال دي ديبا»، وهي الناطقة التقليدية باسم الاوليغاركية المالية الحاكمة، لم تستطع أن تظل مترفعة تماما عن روح العصر، رغم أنها لم تفعل أكثر من نشر قصص يوجين سو الاشتراكية. وكان المعسكر المعارض يضم مفكرين لامعين مثل ليروكس، رجالا أصبحت البروليتاريا هي التي تنتجهم. وبين المعسكرين المتعارضين، كانت تقف بقايا السان سيمونية وشيعة فورييه بقيادة كونسيديرات الذي كانت الصحيفة الناطقة باسمه تدعى «ديمقراطي باسيفيك»، والمسيحيين الاشتراكيين مثل الكاهن الكاثوليكي لامنييه والاشتراكيين البرجوازيين الصغار مثل سيسموندي وبوريه وبيكير وفيدال. أما في الأدب، فقد كانت أغاني بيرانجيه وروايات جورج صاند العظيمة تعكس الأفكار والمسائل الاشتراكية.

كانت الصفة المشتركة التي تجمع بين كل هذه النظم الاشتراكية هي أنها جميعا تعتمد على حسن نية الطبقات الحاكمة، التي كانت هذه النظم تأمل في إقناعها بالدعاية السلمية بضرورة الإصلاحات الاجتماعية أو الثورة. وكانت هذه النظم جميعا وليدة خيبات الأمل بالثورة الكبرى، كما كانت تزدري الطريق السياسي الذي أدى إلى خيبات الأمل هذه، وتريد مساعدة الطبقات المقاسية لأن هذه الطبقات لا تستطيع مساعدة نفسها. فقد فشلت انتفاضة العمال في الثلاثينات، وكان أكثر قادتهم، حتى الأكثر تصميما منهم مثل باربيه وبلانكي، لا يعرفون عن الاشتراكية شيئا ولا عن أي وسيلة عملية لتحقيق ثورة اجتماعية.

ولكن حركة الطبقة العاملة نمت مع ذلك بسرعة كبيرة، ووصف الشاعر هينريخ هاينه برؤيا نبوية المشكلة التي نجمت قائلا «يمثل الشيوعيون الحزب الوحيد الذي يستأهل الاحترام في فرنسا. ولعله يتوجب على أن أشعر بالاحترام أيضا للسان سيمونيين الذين لا يزالوا موجودين تحت رايات غريبة أو للفورييين الذين ما زالوا أحياء ونشيطين، ولكن هؤلاء الطيبين تحركهم الكلمة وحدها، تحركهم المشكلة الاجتماعية بوصفها مسألة مفاهيم تقليدية ولا تحركهم ضرورة شيطانية. وهم ليسوا العبيد الذين قدرت لهم الروح العليا للوجود أن يفوا بقراراتها الهائلة. إن جيش السان سيمونيين وهيئة أركان الفورييين كلها ستنضم عاجلا أو آجلا إلى جيش الشيوعية المتنامي، ليلعبوا هناك دور آباء الكنيسة فيعطوا للضرورة القاسية الكلمة الخلاقة». هذا ما قاله هاينه في 15 حزيران 1843، وخلال سنة من ذلك التاريخ وصل إلى باريس الرجل الذي قدر له أن يلعب الدور الذي ظن هاينه أن السان سيمونيين والفروريين سيلعبوه: لقد أعطى للضرورة القاسية الكلمة الخلاقة.

عندما كان ماركس في ألمانيا، وعندما كانت وجهة نظره فلسفية بشكل غالب، أعلن أنه ضد النظم المستقبلية الجافة المفصلة تفصيلا دقيقا، ضد أية محاولة لحل مشاكل كل العصور، ضد نشر أي معيار دوغماتي، وضد فكرة «الاشتراكيين السذج» القائلين أن الاهتمام بالمسائل السياسية يحط من قدرهم. وعندما أعلن ماركس أنه لا يكفي أن تدفع الفكرة بالواقع إلى الأمام، ولكن يجب أن يصبح الواقع هو الفكرة، تحقق ذلك أمام عينيه، فقد بدأت حركة الطبقة العاملة والاشتراكية تتقاربان منذ انتفاضة العمال عام 1839 بطرق ثلاثة.

كان هناك أولا الحزب الاشتراكي الديمقراطي. ولم تكن اشتراكيته هامة كثيرا لأنها كانت تتألف من عناصر بروليتارية وعناصر تنتمي إلى الشرائح الدنيا من الطبقات الوسطى معا، كما أن الشعارات التي نقشها على راياته –تنظيم العمل والحق في العمل- لم تكن غير يوتوبيا طبقة وسطى يستحيل تحقيقها في المجتمع الرأسمالي. فهذا المجتمع ينظم العمل كما يجب أن ينظم، وبالتحديد كعمل مأجور، وهذا يفترض مسبقا وجود رأس المال، ولا يمكن إلغاؤه إلا بإلغاء رأس المال. ولم تكن الحالة بالنسبة للحق في العمل لتختلف عن ذلك، فهذا الحق لا يمكن الوفاء به إلا في الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، أي بإلغاء المجتمع البرجوازي. لكن قادة هذا الحزب، لوي بلانك وليدرو-رولان وفرديناند فولكون رفضوا برزانة متناهية أن يضربوا بالفأس على جذور المجتمع البرجوازي، معلنين أنهم ليسوا اشتراكيين ولا شيوعيين.

ولكن على الرغم من أن الأهداف الاجتماعية لهذا الحزب كانت طوباوية تماما، إلا أنها مثلث قفزة هائلة إلى الأمام، لأن الحزب اختار الطريق السياسي لتحقيقها. فأعلن أن الإصلاح الاجتماعي غير ممكن دون إصلاح سياسي، وأن الاستيلاء على السلطة السياسية هو الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الطبقات المظلومة تخليص نفسها، ولذا فقد طالب الحزب بحق الاقتراع العام. ووجد هذا المطلب صدى واسعا في صفوف البروليتاريا، التي كانت قد تعبت من المؤامرات والمكائد وصارت تسعى إلى أسلحة أكثر فعالية لمتابعة الصراع الطبقي.

وكانت جماهير أوسع قد انضوت تحت لواء الشيوعية البروليتارية الذي نشره كابت. وكان هذا في الأصل يعقوبيا تحول فيما بعد إلى الشيوعية عبر القراءة وخاصة قراءة يوتوبيا السير توماس مور. وقد تبنى كابت الشيوعية بالعلن ذاته الذي رفضها به الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولكنه كان يوافق الحزب على أن الديمقراطية السياسية مرحلة انتقالية ضرورية. هكذا أصبحت «الرحلة إلى ايكارا» التي حاول كابت أن يصف فيها مجتمع المستقبل كتابا أكثر شعبية بكثير من خياليات فورييه الرائعة، على الرغم من أن حدود كتاب كابت الضيقة جعلته متخلفا كثيرا عن عبقرية فورييه.

وفي النهاية بدأت الأصوات ترتفع واضحة جلية في صفوف البروليتاريا ذاتها، مشيرة بما لا يطاله شك إلى أنها تستعد لتحطيم قيودها. كان ماركس على ألفته، منذ أيام «راينخيه تزايتونغ» مع ليروكس وبرودون، اللذين كانا كليهما طابعين ومن الطبقة العاملة، وكان قد وعد من قبل بدراسة أعمالهما دراسة شاملة. وقد لقيت هذه الأعمال استجابة لدى ماركس لأنهما كليهما سعيا على تسخير قياد الفلسفة الألمانية لأهدافهما الخاصة، على الرغم من أنهما وقعا ضحية أخطاء خطيرة في فهم هذه الفلسفة. ويخبرنا ماركس نفسه أنه أمضى ليالي طويلة يحاول أن يشرح الفلسفة الهيغلية لبرودون. وقد التقى الرجلان فترة من الوقت ليفترقا بعد ذلك بوقت قصير، ولكن ماركس كتب بعد وفاة برودون يشهد بالقوة الدافعة العظيمة التي أعطاها برودون لحركة الطبقة العاملة، تلك القوة الدافعة التي لا شك في أنها أثرت على ماركس كذلك. وقد اعتبر ماركس

أول عمل لبرودون (الذي تخلى فيه عن كل طوباوية وأخضع الملكية الخاصة لنقد قاس وشامل بوصفها أساس كل الشرور) البيان العلمي الأول للبروليتاريا الحديثة.

ساعدت كل هذه الاتجاهات على تعبيد الطريق أمام اتحاد حركة الطبقة العاملة بالاشتراكية، ولكن هاتين كانتا على تناقض مع بعضهما، وسرعان ما نشأت بينهما تناقضات جديدة بعد خطواتهما الأولى المشتركة. درس ماركس الاشتراكية، وبدأ الآن يدرس البروليتاريا. وفي تموز 1844 كتب روغه إلى صديق له: «لقد غاص ماركس هنا في الشيوعية الألمانية –أقصد غاص اجتماعيا، لأنه بالكاد يستطيع أن يدعي أن لهذا الأمر المؤسف أي قيمة سياسية. إن ألمانيا تستطيع تحمل الخراب الجزئي الذي يحتمل أن يلحقه بها الحرفيون دون كثير علاج». ولكن سرعان ما اكتشف روغه لماذا اخذ ماركس الحرفيين وأعمالهم بجدية.

5-«فوروارتز»[8] وطرد ماركس

ليس لدينا سجل تفصيلي لحياة ماركس الشخصية في منفاه في باريس. غير أننا نعرف أن زوجته أنجبت مولودهما الأول، وكان فتاة، ثم عادت بعد ذلك إلى ألمانيا لتريه لأقاربهما بفخر. وظل ماركس على وفاق تام مع أصدقائه في كولون، وساعدته هدية منهم مقدارها 1000 تالر على جعل السنة في باريس سنة مثمرة.

كان ماركس على اتصال وثيق مع هينريخ هاينه، وفعل الكثير ليجعل عام 1844 عاما بارزا في حياة هذا الشاعر، إذ ساعده على وضع «أساطير الشتاء» و«أغنية الناسجات» والقصص التهكمية الخالدة عن الطغاة الألمان. ولم يظل الصديقان قريبين مدة طويلة، لكن ماركس ظل وفيا لهاينه حتى عندما أصبحت ضجة ال Ph حوله أكثر حدة من الضجة التي أثاروها حول هيرويغ، وظل ماركس ملتزما الصمت عندما استشهد به هاينه عن غير حق قائلا أنه يوافق على أن المنحة السنوية التي يتلقاها الشاعر من وزارة غيزوت ليست أمرا معيبا. وكما نعلم، حاول ماركس في شبابه عبثا أن يصادق آلهة الشعر، وظل طوال حياته يتعاطف مع الشعراء، مبديا باستمرار تسامحا كبيرا تجاه نقاط ضعفهم الصغيرة. فقد كان يشعر أن الشعراء قوم غرباء يجب أن يسمح لهم بأن يحيوا كما يريدون، كما يجب أن لا يقاسوا بمعايير البشر العاديين أو حتى المتفوقين. وإذا أريد للشعراء أن يصدحوا، فلا بد من إطرائهم، أما قض مضاجعهم بالنقد العنيف فلا يجدي فتيلا.

لكن ماركس كان يعتبر هاينه أكثر من مجرد شاعر، كان يعتبره مناضلا كذلك. وعندما نشب النزاع بين بورن وهاينه، سارع إلى دعم هاينه معلنا أن المعاملة الغبية التي تلقاها كتاب هاينه عن بورن على أيدي الحمير المسيحيين الألمان لا سابق لها في أي فترة من فترات التاريخ الألماني، الذي لم يكن يفتقر إطلاقا إلى الأغبياء. ولم يخدع ماركس بما قيل عن خيانة هاينه المزعومة، مع أن هذه التهمة أثرت على انغلز ولاسال، ولكن لهذين عذرا في أنهما كانا صغيري السن. كتب هاينه إلى ماركس في إحدى المناسبات معتذرا عن «أحاجيه المشوشة» قائلا «أننا لا نحتاج سوى القليل من الإشارات لنفهم بعضنا»، وكان لهذه الجملة أهمية أعمق من الأهمية المباشرة التي دعت إليها.

كان ماركس لا يزال طالبا عندما أعلن هاينه عام 1843: «أن روح الحرية التي تنفسها أدبنا الكلاسيكي أقل فعالية بين العلماء والشعراء ورجالات الأدب منها بين الحرفيين والعمال». وبعد ذلك بسنوات عشر، عندما كان ماركس يعيش في باريس، أعلن هاينه: «أن البروليتاريين في نضالهم ضد الوضع الراهن يستطيعون أن يدّعوا أن الأرواح التقدمية والفلاسفة العظماء هم قادتهم». ولا شك في أن تحرر هذا الحكم ودقته تبدوان أكثر وضوحا عندما يتذكر المرء أن هاينه كان في الوقت ذاته يصب جام احتقاره على السياسة القميئة التي كانت تتلهى بها جماعات المنفيين والتي كان بورن يلعب فيها الدور الرئيسي. وقد أدرك هاينه أن هناك فارقا بين أن يشغل بحفنة من الحرفيين وبين أن يفعل بورن الأمر ذاته.

كان هاينه وماركس مشدودين إلى بعضهما برباط روح الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية، وبكراهية مشتركة عميقة للكسل المسيحي-الجرماني، لتلك التوتونية المزيفة، التي سعت على تحديث الثوب القديم للحماقة الألمانية بالجمل الثورية. فكان ماسمان وفينيدي اللذين عاشا في قصص هاينه الساخرة يقتفيان آثار بورن، على الرغم من أن بورن ربما كان متفوقا عليهما حذقا وذكاء. لكن بورن لم يكن يقدر لا الفن ولا الفلسفة، كما بدا واضحا من إعلانه أن غوته عبد موزون مقفى وأن هيغل عبد غير موزون ولا مقفى، وعندما انفصل بورن عن التقاليد العظيمة للتاريخ الألماني لم يقم رابطا فكريا مع القوى الجديدة في الثقافة الأوربية الغربية. أما هاينه، من جهة أخرى، فلم يكن يستطيع التخلي عن غوته وهيغل دون أن يتخلى عن نفسه، ولذا فقد غاص في الاشتراكية الفرنسية بنشاط وحمية كمصدر جديد للحياة الفكرية. ولا تزال أعمال هاينه حية تثير غضب الأحفاد كما أثارت غضب الأجداد أما كتابات بورن فقد أتى عليها النسيان، لا لأسلوبها السيئ فحسب، ولكن أيضا لعقم محتواها.

أعلن ماركس مشيرا إلى الأقاويل التي أثارها بورن من وراء ظهر هاينه، حتى عندما كانا يقفان جنبا إلى جنب، والتي نشرها القيمون على تركة بورن الأدبية في ما بعد مدللين على افتقارهم للحكمة، أعلن أنه لم يكن يتصور إطلاقا أن بورن سخيف ومزيف وحقير إلى هذه الدرجة. غير أن ماركس لم يكن ليشكك في إعانة بورن الشخصية بسبب هذا الحادث لو أنه استطاع أن ينفذ نيته في الكتابة حول النزاع. إن من الصعب دائما أن يجد المرء أسوأ من أولئك الراديكاليين الاورثوذكسيين الضيقي الأفق الذين يلفون أنفسهم بثوب فضيلتهم الممزق ولا يقفون عند حد في هجومهم مع من هم أكثر تحررا وذكاء ممن يتمتعون بملكة إدراك العلاقات التاريخية الأكثر عمقا. ولقد كان ماركس على الدوام إلى جانب هؤلاء الأخيرين لا إلى جانب الأوائل، خاصة وأنه كان صديقا للفاضلين.

[8] إلى الأمام

أشار ماركس في السنوات اللاحقة إلى «الارستقراطيين الروس» الذين رفعوه على الأكف خلال نفيه إلى باريس، وأضاف أن ذلك أمر قليل الأهمية: لقد تعلمت الارستقراطية الروسية في الجامعات الألمانية وقضت شبابها في باريس. وكان أعضاؤها يتلقفون أكثر ما يقدمه الغرب تطرفا، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يصيروا حماة للرجعية السوداء حالما يدخلون في خدمة الدولة. ويبدو أن ماركس كان يشير إلى الكونت تولستوي، أحد عملاء الحكومة الروسية السريين، أو إلى آخرين ممن يشبهونه. ولكنه لم يكن بالتأكيد يشير إلى ذلك الارستقراطي الروسي الذي كان ماركس يمارس على تطوره الفكري في تلك الأيام أعظم الأثر، ميخائيل باكونين. وحتى بعد أن افترقت الطرق بالرجلين، ظل باكونين يشهد بهذا الأثر، وفي النزاع بين ماركس وروغه، وقف باكونين إلى جانب ماركس، على الرغم من أن روغه كان لا يزال يتبناه.

اندلع الخلاف ثانية في صيف عام 1844، ولكنه كان هذه المرة علنيا. كانت جريدة تسمى «فوروارتز» تظهر في باريس مرتين في الأسبوع منذ بداية العام. ولم يكن منشؤها بعيدا عن إثارة الانتقادات حولها. فقد أسسها رجل يدعى هينريخ بورنشتاين، وكان هذا يدير مؤسسة للإعلان والمسرح، وأراد بالجريدة أن ينمي أعماله هذه. أما الأموال اللازمة للجريدة فقد تقدم بها قائد الاوركسترا البروسي الملكي ميربير. ونحن نعلم من هاينه أن هذا الموسيقي كان يحب الحصول على أكبر قدر ممكن من الدعاية له، ولربما كان بحاجة إلى ذلك. وكان بورنشتاين رجل أعمال خبيث حقا، فألبس جريدته ثوب الوطنية، وعين محررا لها أدالبرت فون بورنستدت وهو ضابط بروسي سابق. وكان هذا شخصا حقيرا تماما يلعب دور «خليص» ميترنيخ وفي الوقت ذاته يتلقى الأموال من حكومة برلين. وعندما ظهرت «دوتشه فرانزوسيش ياربشر» تلقتها «فوروارتز» بسيل من الشتائم، يصعب القول ما إذا كان الطابع الغالب له طابع الغباء أم طابع الابتذال والسوقية.

غير أن الجريدة لم تزدهر ولم تنجح. فنظم بورنشتاين مؤسسة تترجم بانتظام آخر المسرحيات التي تعرض في باريس لبيعها بأسرع ما يمكن للمسرحيين الألمان، وقد سعى إلى ضرب المسرحيين الشباب وكسب الفلستيين الألمان، الذين بدأوا يبدون بعض المقاومة، بالتحدث عن «التقدم المعتدل» وشجب «التطرف» سواء أتى من اليسار أم من اليمين. وكان محرره بورنشتدت يركب القارب ذاته، إذ كان يتوجب عليه أن يهدئ من ثائرة شكوك المهاجرين إذا أراد أن يظل على اتصال بهم، وهذا أمر ضروري جدا إذا كان يريد أن يستمر في كسب الأموال التي تغدق عليه. لكن الحكومة البروسية كانت عمياء حتى عن مصالحها في الحفاظ على النفس، ومنعت بيع «فوروارتز» على أراضيها، وحذت حذوها الحكومات الألمانية الأخرى.

ألقى بورنشتدت أسلحته في بداية أيار، واعتبر اللعبة كلها لعبة خاسرة. ولكن بورنشتاين لم يفعل، فقد كان يريد المتاجرة ولم يكن يهتم بالطريقة التي تمكنه من ذلك. وبسرعة أجرى بورنشتاين حساباته بدقة وبرودة المضارب الخبيث، وقرر أنه إذا كانت «فوروارتز» قد منعت في بروسيا، فإنها على أية حال تستطيع أن تلبس ثوب الشهادة، وتستفيد من الاهتمام الذي تثيره الجرائد المحظورة، ولا شك أن الفلستيين الألمان سيعتبرون الحصول على جريدة محظورة أمرا يستحق التضحية ببعض المال. ولذا فقد كان من المناسب لبورنشتاين أن يقبل مقالة نارية قدمها له بيرينز الشاب، وبعد بعض المناورات الأولية عين بيرينز مكان بورنشتدت. ولما كان المنفيون الألمان في باريس يفتقدون جريدة تنشر لهم، فقد بدأوا يساهمون في «فوروارتز»، كل على مسؤوليته الخاصة ودون أي ارتباط بهيئة التحرير.

وكان روغه من أوائل من فعلوا ذلك، عندما تقدم باسمه الخاص ليدافع عن مساهمات ماركس في «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر»، كما لو أنه كان متفقا معها. غير أنه عاد بعد بضعة أشهر فنشر في «فوروارتز» مقالتين غير موقعتين: بضع ملاحظات قصيرة تتعلق بالسياسة البروسية، ومقالة طويلة لا تحوي شيئا غير بضعة أقاويل عن العائلة البروسية الحاكمة، تربط بينها بضعة ملاحظات عن «الملك السكير» و«الملكة العرجاء» و«وزواجهما الروحي الخالص». وكانت المقالات موقعة بتوقيع «بروسي» فبدا أن ماركس هو كاتبها، ذلك أن روغه كان ينتمي إلى مجلس مدينة دريسدن ومسجلا في السفارة الساكسونية في باريس، وكان بيرينز بافاريا من راينلاند-وستفاليا، بينما كان برونشتاين من هامبورغ، وعلى الرغم من أنه عاش وقتا طويلا في النمسا، إلا أنه لم يعش في بروسيا.

من المستحيل أن يكتشف المرء الآن ما الذي قصده روغه باختياره لهذا الاسم، ولكن رسائله إلى أصدقائه وأقاربه تبين أنه كان يغلي غضبا على ماركس الذي أشار إليه بأنه «رجل حقير تماما» و«يهودي وقح». كما أن أحدا لا ينكر أن روغه عمد بعد ذلك بسنوات إلى إرسال استرحام توبة إلى وزير الداخلية البروسي يخون فيها رفاقه في المنفى في باريس ويحمّل هؤلاء «الشبان» مسؤولية الخطايا التي اقترفها في «فوروارتز». ومن الممكن بالطبع أن يكون قد اختار اسم «بروسي» ليعطي لمقالاته وزنا أكبر، إذ أنها كانت تعالج أمورا بروسية. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلا شك أن روغه تصرف بلا مسؤولية ودون تفكير، كما لا شك في أن موقف ماركس الذي سارع إلى رد حيلة «البروسي» إلى صدره، موقف مفهوم تماما.

كان جواب ماركس موضوعا بلهجة رصينة: فقد عالج ماركس ملاحظة موضوعية أو اثنتين لاحظهما روغه حول السياسة البروسية، وعمد إلى التخلص من كل الأقاويل حول العائلة المالكة البروسية بهامش قصير: «إن هناك أسبابا خاصة تدعوني لان أشير إلى مساهمتي هذه هي المساهمة الأولى التي قدمتها لفوروارتز». وفي الواقع كانت هذه المساهمة هي الأخيرة أيضا.

كانت المسألة موضع الخلاف ثورة عمال النسيج في سيليسيا عام 1844، تلك الثورة التي عاملها روغه على أنها غير مهمة، معلنا أنها تفتقد إلى الروح السياسية، وبدون الروح السياسية لا تمكن الثورة الاجتماعية. فرد ماركس ردا كان قد وضع جوهره في مقالته «في المسألة اليهودية». لا يمكن للقوة السياسية أن تشفى أي شر اجتماعي لأن الدولة لا تستطيع إلغاء الظروف التي كانت هي ذاتها ثمرة لها. وهاجم ماركس بحدة الطوباوية، معلنا أن الاشتراكية غير ممكنة دون ثورة، ولكنه كذلك هاجم بلانكي وأتباعه بالحدة ذاتها، معلنا أن الفهم السياسي يخدع الغريزة الاجتماعية عندما يسعى إلى تحقيق التقدم بواسطة مؤامرات صغيرة لا جدوى لها. ثم حدد ماركس طبيعة الثورة بإيجاز بليغ: «إن كل ثورة تحل المجتمع القديم، وهي ثورة اجتماعية بقدر ما تفعل ذلك. إن كل ثورة تطيح بالقوة القديمة، وهي ثورة سياسية بقدر ما تفعل

ذلك». إن ثورة اجتماعية لها روح سياسية، كما يطالب بها روغه، هراء، أما ثورة سياسية لها روح اجتماعية فأمر معقول. فالثورة بشكل عام –الإطاحة بالقوة القائمة وحل العلاقات القديمة- عمل سياسي. وبقدر ما تحتاج الاشتراكية أولا إلى تدمير والحل فإنها بحاجة إلى هذا العمل السياسي. ولكن عندما يبدأ نشاط الثورة التنظيمي، عندما تظهر روح الاشتراكية وتظهر غايتها الأصيلة، فغنها تخلع عنها الثوب السياسي.

طور ماركس هذه الأفكار من رسالته «في المسألة اليهودية»، وسرعان ما أكدت ثورة عمال النسيج في سيليسيا ما قاله عن ضعف الصراع الطبقي في ألمانيا. فكتب يونغ، صديق ماركس، من كولون يقول أنه لم يعد يظهر على صفحات «كولونيخ تزايتونغ» شيء من الشيوعية أكثر مما كان يوجد سابقا على صفحات «راينيخه تزايتونغ»، وأن الصحيفة الأولى قد افتتحت قائمة اشتراكات لمصلحة عائلات عمال النسيج الذين اعتقلوا أو سقطوا صرعى. وفي حفلة وداع لحاكم المقاطعة الذي أحيل على التقاعد جمع مئة شالر من بين كبار الموظفين وأغنياء كولون، كما أن التعاطف مع الثائرين الخطرين يبدو في كل مكان. «وما قبل بضعة أشهر موقفا جديدا تماما وجريئا قد أصبح اليوم أمرا طبيعيا».

استخدم ماركس التعاطف العام الذي بدا نحو عمال النسيج ليدحض تقليل روغه من أهمية ثورتهم، ولكنه لم ينخدع لحظة واحدة «بعدم المقاومة الذي تبديه البرجوازية نحو الاتجاهات والآراء الاجتماعية الجديدة». فقد أدرك أنه ما أن يصبح لدى حركة الطبقة العاملة أي قوة حقيقية، حتى تكون النتيجة توقف الصراعات والتناقضات السياسية داخل معسكر الطبقات الحاكمة لتوجه هذه جميعا كل قوتها ضد العمال. وأوضح ماركس الفارق الكبير العميق بين التحرر البرجوازي والتحرر البروليتاري، عندما أشار على أن أحدهما ينبثق عن الرفاه الاجتماعي بينما ينبثق الآخر عن التعاسة الاجتماعية. فالثورة البرجوازية تنجم عن الانعزال عن الكومونويلث السياسي والدولة، بينما تنجم الثورة البروليتارية عن الإنسانية وعن الكومونويلث الحقيقي للإنسانية. والانعزال عن هذا الأخير أكمل لما لا يقارن، وأكثر فظاعة وأكثر تناقضا جذريا من الانعزال عن الكومونويلث السياسي، ولذا فإن القضاء على هذا الانعزال، حتى في الظاهرة الجزئية التي مثلتها ثورة عمال النسيج في سيليسيا، مسألة أكبر بكثير، تماما، كما أن الكائن الإنساني أكثر من المواطن والحياة الإنسانية أكثر من الحياة السياسية.

هكذا كانت وجهة نظر ماركس في ثورة عمال النسيج في سيليسيا مختلفة اختلافا أساسيا عن وجهة نظر روغه: «لننظر فحسب إلى أغنية عمال النسيج، لننظر الطريقة العميقة المدهشة القاسية القوية التي تطرح بها البروليتاريا شعارات تناقضها العدائي مع مجتمع الملكية الخاصة. لقد بدأت الثورة في سيليسيا حيث انتهت الانتفاضات الانجليزية والفرنسية، بدأت بوعي البروليتاريا كطبقة. وكل العمل الذي قام به عمال سيليسيا يحمل هذا الطابع. فلم يحطم هذا العمل الآلات التي تنافس العامل فحسب، بل حطم أيضا سجلات التجار التي تمثل شهادات ملكية هؤلاء. لقد كانت كل الحركات الأخرى موجهة، في البداية على الأقل، ضد الصناعيين وحدهم، ضد العدو المنظور، ولكن هذه الحركة كانت موجهة أيضا ضد الصيرفي، ضد العدو غير المنظور. وفي النهاية، لم تنفذ أية انتفاضة انجليزية بالشجاعة ذاتها، بالتخطيط ذاته، وبالإصرار ذاته».

ويشير ماركس في هذا المجال أيضا إلى الكتابات اللامعة التي كتبها ويتلنغ، الذي كثيرا ما فاق برودون في نظرياته، على الرغم من أنه تخلف عنه في الممارسة: «أتستطيع البرجوازية –بفلاسفتها وكذلك كتابها أن تدلنا على عمل واحد يبحث تحررها، يمكن أن يقارن بكتاب ويتلنغ، ضمانات التناسق والحرية؟ عندما يقارن المرء المستوى المنخفض للأدب السياسي الألماني بالظهور البديع للعامل الألماني على المسرح، وعندما يقارن الأحذية السياسية الضيقة التي تنتعلها البرجوازية الألمانية بالأحذية العملاقة التي تنتعلها البروليتاريا، فإنه يحق له أن يتنبأ بالدور العظيم الذي سيلعبه هذا الابن المهمل لألمانيا (البروليتاريا)». وأعلن ماركس أن البروليتاريا الألمانية هي المنظرة بين البروليتاريا الأوربية، تماما كما أن البروليتاريا الانجليزية هي الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية هي رجل السياسة.

لقد أكد حكم الأجيال القادمة الحكم الذي أصدره ماركس على كتابات ويتلنغ. فقد كانت هذه الكتابات بالنسبة لزمنها انجازا عبقريا، وتعززت عبقريتها بكون الخياط الألماني (ويتلنغ) مهد الطريق للتفاهم بين حركة الطبقة العاملة والاشتراكية قبل لوي بلانك وكابت وبرودون، وبطريقة أكثر فعالية بكثير.

غير أن حكم ماركس التاريخي على ثورة عمال النسيج في سيليسيا يبدو لنا اليوم غريبا. فقد قرأ فيها اتجاهات لم تكن بالتأكيد موجودة، ويبدو أن روغه قد قدر هذه الثورة تقديرا أكثر صحة عندما أعلن أنها ليست أكثر من ثورة جوع ليس لها أية أهمية أعمق من ذلك. لكننا في هذه الحالة، كما في حالة نزاع روغه وماركس حول هيرويغ، نرى أن خطأ الفلستي الكامل يكمن في اتخاذ موقف صحيح ضد العبقرية، كما أننا نرى أن القلوب الكبيرة تنتصر في التحليل الأخير على الفهم الضيق.

كانت «حفنة حرفيي المخابز»، التي أشار لها روغه باحتقار ودرسها ماركس بحماس، منظمة في «رابطة العادلين»، التي تطورت في الثلاثينات عن الجمعيات الفرنسية السرية بعد هزيمتها النهائية في 1839. وقد كانت هذه الهزيمة مفيدة للمنظمة، ذلك أنها أدت إلى انتشار العناصر وإعادة تجمعها، لا في مركزها القديم في باريس فحسب، بل أيضا في انجلترا وسويسرا حيث تسمح حرية الاجتماع والانتظام بقدر أكبر من حرية الحركة، فكانت النتيجة أن بدأت فروع الشجرة هذه تنمو بقوة أكبر من الشجرة الأم. كانت منظمة باريس بقيادة هيرمان ايوربيك الذي كان أسير طوباوية كابت الأخلاقية والذي ترجم يوتوبيا كابت إلى الألمانية. لكن ويتلنغ، الذي كان يقود منظمة سويسرا، أثبت أنه متفوق فكريا على ايوربيك، بينما أثبت قادة العصبة في لندن، الساعاتي جوزيف مول والاسكاف هينريخ باور وكارل شابر تلميذ علم الغابات السابق الذي كان يكسب عيشه بالعمل مدرسا للغات، إنهم كذلك يتفوقون على اويربيك، على الأقل فيما يتعلق بالتصميم الثوري.

ربما كان ماركس قد سمع أول مرة عن هؤلاء «الرجال الثلاثة الحقيقيين» من انغلز، الذي تحدث لماركس عندما زاره في أيلول 1844 وهو يمر من باريس، عن «الانطباع العميق» الذي تركه هؤلاء عليه. وخلال الأيام العشرة التي قضاها انغلز في باريس، أمضى معظم الوقت بصحبة ماركس، فكان أن وجدا فرصة لتعميق التوافق البعيد المدى في أفكارهما، ذلك التوافق الذي كان قد بدأ يعبر عن نفسه في مساهماتهما

لـ«دويتشه-فرانزوسيشه ياربشر». وفي هذه الأثناء كان صديقهما القديم، برونو باور، قد ارتد على هذه الآراء ونشر نقدا لها في مجلة أدبية أسسها. علم ماركس وانغلز بهذا الهجوم وهما معا في باريس، وقررا في الحال التصدي له. فجلس انغلز ووضع على الورق كل ما كان لديه حول الموضوع، لكن ماركس طبقا لعادته غاص في المسألة أعمق بكثير مما كانا قد قررا، وخلال ثلاثة أشهر من العمل الشاق المتواصل كتب كتابا ينوف على ثلاثمائة صفحة. وبانتهاء كتابه هذا في كانون الثاني 1845، انتهت أيضا إقامته في باريس.

استمر بيرنيز بنشاط، بعد تسلمه رئاسة تحرير «فوروارتز» في شن هجومه على «السذج المسيحيين-الجرمانيين في برلين»، ولم تكن الصحيفة لتخلو من الطعن في الذات الملكية، أما هاينه فقد استمر في إطلاق السهام على «الاسكندر الجديد» في قصر برلين. ولم يمض وقت طويل حتى طلبت الملكية الشرعية في ألمانيا من الملكية البرجوازية غير الشرعية في فرنسا استخدام البوليس ضد «فوروارتز». لكن غيزوت اثبت أنه ثقيل السمع، فقد كان على الرغم من آرائه الرجعية رجلا يتمتع ببعض الثقافة، وبالإضافة إلى ذلك لم يكن يرغب في لعب دور تابع الحكم المطلق البروسي مثيرا احتقار واحتجاج المعارضة في فرنسا، لكنه أصبح أكثر تصلبا عندما نشرت «فوروارتز» «مقالة شنيعة» حول محاولة رئيس بلدية ستوركوو في بروسيا قتل فريدريك وليم الرابع9. وبعد مشاورات مع مجلس وزرائه، قرر غيزوت اتخاذ إجراء ضد «فوروارتز» على أساس اعتبارين: ملاحقة المحرر المسؤول لأنه لم يودع السلطات مبلغا كافيا من المال، وملاحقته كذلك بتهمة التحريض على قتل ملك.

وافقت حكومة برلين على الاقتراح الأول، ولكن تبين أن هذا الاقتراح غير فعال عندما نفذ. فقد حكم على بيرينز بالسجن شهرين وبغرامة قدرها 200 فرنك لأنه لم يلتزم بقوانين الإيداع. لكن «فوروارتز» أعلنت في الحال أنها ستظهر في المستقبل شهرية، وبذلك تفادت تماما قوانين الإيداع. ولم تكن حكومة برلين تريد الموافقة على الاقتراح الثاني، وربما خشية أن لا يبدي محلفو باريس ميلا إلى إتعاب ضمائرهم نيابة عن ملك بروسيا، لكنها مع ذلك استمرت في إرسال الاحتجاجات احتجاجا إثر آخر، وفي النهاية طلبت طرد المحررين والكتَّاب من فرنسا. وبعد مفاوضات طويلة وافق غيزوت.

افترض في ذلك الوقت أن غيزوت اتخذ قراره نتيجة وساطة قام بها الكسندر فون همبولدت، الذي كان يمت بصلة قربى إلى وزير الخارجية البروسي، وقد ردد انغلز هذه التهمة في خطابه على قبر زوجة ماركس. وفيما بعد جرت محاولات لتبرئة همبولدت بعد وفاته على أساس أن الملفات البروسية لا تحتوي أي ذكر لوساطة كهذه. ولكن ذلك ليس كافيا لتبرئته. أولا لأن من المعروف أن الملفات ناقصة، وثانيا لأن مسائل كهذه لا توضع على الورق في العادة. وكل ما تثبته هذه الملفات هو أن أحد العوامل الحاسمة في هذه القضية جرى في الخفاء.

كانت حكومة برلين منزعجة بصورة خاصة من هاينه، الذي نشر إحدى عشرة من قصصه الساخرة عن الوضع في بروسيا وخاصة عن الملك في «فوروارتز»، ولكن هاينه كان يمثل أكثر النقاط حساسية بالنسبة لغيزوت. فهو شاعر له شهرة أوربية، والشعب الفرنسي يكاد يعتبره شاعرا وطنيا. وبالطبع، لم يكن غيزوت يستطيع تفسير هذه الصعوبات لبرلين مباشرة، ولذا يبدو أن أحدا ذكرها للسفير البروسي في باريس. ذلك أن هذا أرسل إلى برلين فجأة في 4 تشرين الأول يقول أن من المشكوك فيه أن يكون هاينه الذي لم ينشر في «فوروارتز» غير اثنتين من قصائده، عضوا في هيئة تحريرها، وفي النهاية فهمت سلطات برلين.

لذا لم يعترض سبيل هاينه، ولكن عددا من اللاجئين الألمان الذين كتبوا في «فوروارتز» أو اشتبه في أنهم فعلوا، تلقى في 11 كانون الثاني 1845 أوامر بالطرد، ومن بين هؤلاء ماركس وروغه وباكونين وبورنشتاين وبيرينز. لكن بعض هؤلاء حافظ على نفسه، فقد تعهد بورنشتاين بالكف عن إصدار «فوروارتز»، وطفق روغه ينتقل جيئة وذهابا بين سفير ساكسونيا وعدد من النواب الفرنسيين ليؤكد للجميع أنه مواطن مخلص. وبالطبع لم يكن ماركس مستعدا لفعل شيء من هذا القبيل، ولذا أعد نفسه لمغادرة باريس إلى بروكسيل.

لقد أمضى ماركس في منفاه في باريس ما يزيد على السنة، ولكنها ربما كانت أهم سنة في سنوات تجواله وتدربه. فقد كانت غنية بالتجارب والحوافز، ولكنها كانت أغنى من ذلك بكثير حيث أعطته فرصة كسب رفيق في السلاح ظل وفيا له حتى النهاية.

[9] في تموز عام 1844 حاول هينريخ تشيش قتل فريدريك وليم الرابع، ولم ينجح، فأعدم في السنة ذاتها.

الفصل الرابع

فريدريك انغلز

1- مكتب وعنبر

ولد فريدريك انغلز في 28 تشرين الثاني 1830 في بارمن. ولم يكتسب انغلز، مثله في ذلك ماركس، آراءه الثورية في بيت والديه، ولكنه اندفع إلى الطريق الثوري عبر ذكاء بالغ لا عبر فقر شخصي. فقد كان والده صناعيا غنيا، ومحافظا ذا اورثوذكسية، وكان على انغلز أن يتغلب من الناحية الدينية على أكثر مما فعل ماركس.

درس انغلز في كلية ايبرفيلد، ولكنه غادرها قبل انتهاء دراسته بسنة واحدة ليبدأ حياته العملية. فأصبح رجل أعمال ناجح، دون أن يشعر بالمتعة إطلاقا في أداء «هذا العمل الملعون» كما كان يسميه. نتعرف على انغلز أول ما نتعرف عليه، في رسائله، عندما كان له من العمر ثمانية عشر عاما ويعمل متدربا في أحد المكاتب، إلى الأخوين غاربر، وهما صديقان له منذ أيام المدرسة وكانا حينئذ يدرسان اللاهوت. وليس في هذه الرسائل كثير من الحديث عن التجارة والأعمال، عدا بضع ملاحظات كهذه: «عندما نغادر المكتب، نشعر للمرة الأولى بالارتياح». وكان انغلز الشاب، مثل انغلز فيما بعد، يميل إلى الشراب، وعلى الرغم من أنه لم يكن يسلم قياده للأحلام مثل هوف أو يفتي مثل هاينه، إلا أنه يخبرنا بفكاهة حلوة عن جلسات الشراب التي كان يحضرها في برمين.

جرب انغلز، مثل ماركس، الشعر، ولكنه أدرك، بالسرعة التي أدرك بها ماركس، أنه لم يكن يتمتع بمحبة آلهة الشعر. وفي إحدى الرسائل بتاريخ 17 أيلول 1838 أي قبل أن يكمل سنته الثامنة عشرة يعلن أن نصيحة غوته «للشعراء الشباب» قد شفته من أي وهم ساوره بصدد أي رسالة شعرية يحملها. وهو هنا يشير إلى مقالتين قصيرتين بيَّن فيهما سيد الشعر الألماني أن اللغة الألمانية قد وصلت درجة عالية من التطور تمكن أيا كان من التعبير عن نفسه شعرا، ولذا فإن أحدا لا يستطيع أن يهنئ نفسه على امتلاك ملكة الشعر.

وجد انغلز الشاب وضعا دقيقا له في نصيحة غوته، وأدرك أن قوله للشعر لن ينتج ما يحدث أثرا بالنسبة لقضية الشعر، ومع ذلك فقد قرر الاحتفاظ بالشعر «كمسألة مكملة مناسبة»، كما قال غوته، وقدم قصيدة للنشر «لأن آخرين هم حمير مثلي أو أكبر فعلوا ذلك، وأيضا لأنني لن أرفع بقصيدتي من مستوى الشعر الألماني ولن أحط منه».

لم تكن اللهجة المازحة التي تبناها انغلز دائما تخفي وراءها ميلا إلى الطيش حتى عندما كان شابا، فنحن نجده في الرسالة ذاتها يطلب من صديقيه أن يرسلا له كتبا كلاسيكية شعبية من كولون، ويخبرهما أنه يدرس جاكوب بوهيم «أن روحه شاردة ولكنها عميقة. وعلى المرء أن يدرس معظم كتاباته إذا كان يريد فهم أي منها».

ولم يمض وقت طويل حتى غاص انغلز إلى الأعماق، وفقد كل تذوق لأدب «ألمانيا الفتاة» المصطنع[10]. فنحن نجده في رسالة بتاريخ 10 كانون الثاني 1839، يهاجم «هذه الجماعة» لأنها دفعت إلى العالم بأشياء ليست موجودة في الواقع. «هذا الرجل تيودور مندت يخربش كثيرا حول ديموزيل تاغليون، الذي يعطي تفسيرات راقصة لشعر غوته، ويزين نفسه بريش اقترضه من غوته وهاينه وراهل وستيفلتر، ويكتب هراء قيما جدا عن بتينا. ولكن هذا كله حديث، حديث جدا لدرجة أنه لا بد أن يسر أي باحث عن التوافه أو أية فتاة مغرورة... وهينريخ لوب! هذا الرجل يخلق شخصية لم توجد أثر أخرى، ويكتب قصص أسفار ليست بقصص أسفار، هراء فوق هراء. إن هذا فظيع».

وجد انغلز أن «الروح الجديدة» في الأدب تعود إلى ثورة يوليو، التي أعلن أنها «أول تعبير دقيق عن إرادة الشعب منذ حروب الاستقلال»، وأن أبرز ممثلي الروح الجديدة هم بيك وغرون ولينو وايمرمان وبلاتن وبورن وهاينه وغتزكوف، واضعا الأخير في مستوى أرفع من مستوى الآخرين. ويذكر انغلز في رسالة كتبها بتاريخ 1 أيار أنه نشر مقالة في صحيفة «تلغراف» التي يصدرها هذا «الرجل الممتاز» (غتزكوف)، ولكنه طلب من محرر الصحيفة أن يحتفظ باسمه سرا لأنه كان يخشى أن يقع في «ورطة جهنمية».

لم تخدع خطابات «ألمانيا الفتاة» المسهبة حول الحرية انغلز، فيما يتعلق بانخفاض مستواها الجمالي، ولكنه لم يكن مستعدا للتسامح تجاه الهجمات التي يشنها عليها الرجعيون والاورثوذكسيون. فنضم إلى حزب المضطهَدين بلا قيد أو شرط، ولربما كان يسمي نفسه «ألمانيا شابا»، وفي إحدى الرسائل نجده يهدد صديقه قائلا: «أستطيع أن أقول لك شيئا واحدا، إذا كنت ستصبح قسا فإنك تستطيع أن تكون اورثوكسيا بالقدر الذي تشاء، أما إذا كنت ستصبح تقيا فإن عليك أن تتعامل معي». ربما كان تفضيل انغلز لبورن على وجه الخصوص نتيجة خواطر مشابهة، وكان انغلز الشاب يرى أن هجوم بورن على المخبر مينزل هو أفضل إنتاج في ألمانيا من حيث الأسلوب، أما هاين فقد كان عليه أن يقنع بإشارات عابرة مثل «شخص قذر». وكانت المشاعر مستثارة ضد هاينه في تلك الأيام حتى أن لاسال الشاب كتب في مفكرته: «لقد تخلى هذا الرجل عن قضية الحرية! لقد انتزع هذا الرجل قبعة الحرية اليعقوبية عن رأسه ووضع على رأسه النبيل قبعة مزركشة!».

---

[10] ألمانيا الفتاة جماعة من الكتاب الشبان تأسست بعد ثورة تموز 1830 الفرنسية.

غير أنه لا بورن ولا هاينه ولا أي شاعر آخر، هو الذي قاد انغلز في الطريق التي اتخذها لنفسه في النهاية، فلقد جعل منه قدره الرجل الذي كان. فقد ولد انغلز في بارمن وهي إحدى قلاع التقوى الألمانية وعاش في بريمين، وهي قلعة أخرى لهذه التقوى. ولقد مثل تحرره من هذه القيود بداية النضال العظيم من أجل الانعتاق، ذلك النضال الذي ملأ حياته كلها. نجد انغلز، عندما كان لا يزال يناضل ضد معتقدات طفولته، ليتحدث برقة غير عادية «إنني أصلي كل يوم، في الواقع كل اليوم تقريبا، من أجل الحقيقة. ولقد فعلت ذلك باستمرار منذ أن بدأ الشك يساورني. ومع ذلك لم أستطع أن أعود إلى معتقداتي... دموعي تتدفق وأنا أكتب. مشاعري مضطربة عميقة، ولكنني أشعر أنني لست تائها، وأنني سأجد طريقي إلى الله الذي أتوق له بكل قلبي. وهذا أيضا تجل للشبح المقدس، أقسم على ذلك بحياتي، حتى ولو قال الكتاب المقدس العكس آلاف المرات».

انتقل انغلز بهذه الصراعات العقلية من قادة الاورثودكسية المعاصرة إلى دافيد شترواس، مارا لفترة من الزمن بشليرماشر، ولكنه لم يكن يسعى لدى هذا الأخير إلى أساس دائم بل إلى دعم مؤقت. وفي النهاية اعترف لصديقيه اللاهوتيين أنه لن تكون له عودة. إن عقلانيا يمينيا قد يستطيع التخلي عن تفسيره الطبيعي للمعجزات وعن أخلاقيته الضحلة ليزحف ثانية إلى حفرة الاورثودكسية، ولكن التأمل الفلسفي لا يستطيع إطلاقا النزول من «القمم المغطاة بالثلج المغمورة بروعة شمس الصباح» إلى «وهاد الاورثوذكسية الضبابية». «لقد أصبحت فيما يتعلق بهذه المسألة هيغليا. ولكنني لا أعرف ما إذا كنت سأصبح هيغليا تماما أولا. غير أن شتراوس ألقى لي بالضوء على هيغل، ويبدو لي أنه جدير بالتصديق. وفي أية حال فإن فلسفة التاريخ لدى هيغل تجد صدى تاما في نفسي».

بعدئذ، أدى انفصال انغلز عن الكنيسة به إلى الهرطقة السياسية. فجعلته إحدى الخطب التي تمتدح ملك بروسيا، ذلك الرجل الذي كان مسؤولا عن تعقب الديماغوجيين، إلى القول: «لا أتوقع شيئا جيدا من أمير، إلا ذاك الذي شجت ضربات الشعب رأسه وتحطمت نوافذ قصره بحجارة الثورة».

وبهذه الآراء، كان انغلز قد تخطى بالطبع غتزكوف وصحيفة «تلغراف». وأصبح يدور في فلك «دويتشه ياربشر» و«راينيخه تزايتونغ». وبينما كان انغلز في برلين يؤدي الخدمة الإجبارية في سلاح المدفعية من تشرين الأول 1841 إلى تشرين الأول 1842، كان يعيش في عنابر قريبة من البيت الذي عاش فيه هيغل ومات، وكان بين الحين والآخر يرسل بمقالاته إلى «دويتشه ياربشر» و«راينيخه تزايتونغ». وقد تبنى انغلز اسما مستعارا هو فريدريك اوزوالد، ربما حرصا على مشاعر عائلته المحافظة الاورثوذكسية، وكان مجبرا على الاحتفاظ بهذا الاسم عندما كان يلبس بزة الجندية، وذلك بالطبع لأسباب أكثر حدة. في 6 كانون الأول 1842، كتب غتزكوف رسالة يعزي فيها كاتبا انتقده انغلز بحدة في «دويتشه ياربشر»: «لسوء الحظ كنت أول من قدم فريدريك اوزوالد إلى عالم الأدب. فقبل سنوات أرسل لي رجل أعمال شاب يدعى انغلز رسائل من بريمين عن الحالة في وبرتال. فكنت أصحح ما يرسله وأنشره. وبعد ذلك استمر يرسل لي مواد أخرى، ولكنني كنت أجد دائما أنه يتوجب علي أن أعيد كتابتها. وفجأة منعني من تصحيح ما يكتبه، وبدأ يدرس هيغل وانتقل إلى صحف أخرى. وقبل أن يظهر نقده لك بقليل أرسلت له 15 تالر إلى برلين. على أية حال، هذا هو الوضع بالنسبة لهؤلاء الشباب: إنهم مدينون لنا لأننا علمناهم أن يفكروا ويكتبوا. ثم يكون أول عمل مستقل لهم هو اقتراف جريمة طعن الأب الأدبي لهم. وبالطبع لم يكن لهذا الشر أن يستفحل لو لم ترعه «راينيخه تزايتونغ» وصحيفة «روغه». ليست هذه بالتأكيد صرخات المغربي القديم في برج الجوع، ولكنها صرخة الدجاجة العجوز عندما ترى أبناءها الصغار يبتعدون عنها مرحين.

كان انغلز خادما قادرا للتجارة في مكتبه، مثلما أصبح جنديا قادرا في العنبر. ومنذ أيام خدمته الإجبارية حتى نهاية حياته، ظل العلم العسكري واحدا من العلوم المفضلة لديه. وكان اتصاله الوثيق الدائب بالحياة العملية يعوض ما يفتقر إليه وعيه الفلسفي من عمق تأملي. وخلال سنة الخدمة العسكرية، اندمج انغلز بشغف مع «الأحرار» وساهم بمقالة أو اثنتين في نزاعاتهم، لكن ذلك كان في وقت لما تنحط أعمالهم فيه بعد. وفي نيسان 1842 نشرت كراسة من خمسة وخمسين صفحة كتبها انغلز دون أن تحمل اسما بعنوان «شيلنغ والكشف»، وفيها ينتقد «آخر الهجمات الرجعية على الفلسفة الحرة» أو محاولة شيلنغ لطرد الفلسفة الهيغلية في جامعة برلين بواسطة عقيدته في الكشف. وقد رحب روغه، الذي ظن أن الكراس من تأليف باكونين، بهذا العمل وأطراه قائلا: «إن هذا الشاب يتفوق على كل الحمير المسنين في برلين». وكان هذا العمل في الواقع يمثل فلسفة الهيغليين الشباب في أقصى نتائجها، ولكن نقادا آخرين لم يكونوا على خطأ عندما أعلنوا أن الكراس يتسم بالحيوية الفلسفية-الشاعرة أكثر مما يتسم بالعمق النقدي.

وفي الوقت ذاته تقريبا، وتحت تأثير طرد برونو باور، نشر انغلز «ملحمة مسيحية» في أربع قصائد تتهكم على «انتصار الإيمان» على «الشيطان الأكبر»، مما أفزع باور وسبب له خيبة أمل. وفي هذه الملحمة التي نشرت في نيومنستر قرب زيوريخ استفاد انغلز من ميزة الشباب ليصب جام احتقاره على النقد الذي لا موجب له.

وعندما انتهت سنة الخدمة العسكرية في أيلول 1842، عاد انغلز إلى بلده، وبعد ذلك بشهرين سافر إلى انجلترا ليصبح كاتبا في مكتب تابع لشركة غزل «ايرمين وانغلز» التي كان والده شريكا في ملكيتها. وفي طريقه إلى انجلترا، مر بكولون وتعرف إلى ماركس في مكاتب تحرير «راينيخه تزايتونغ». لكن هذه المقابلة الأولى كانت باردة، لأن ماركس كان على وشك أن يقطع علاقاته بـ«الأحرار»، وكان يعتبر انغلز واحدا من مؤيديهم، بينما كان انغلز متحيزا ضد ماركس بفعل رسائل تلقاها من الأخوة باور.

2-الحضارة الانجليزية

كان للأشهر الواحدة والعشرين التي قضاها انغلز في انجلترا الأهمية ذاتها التي ارتدتها السنة التي قضاها ماركس في باريس. إذ أن كليهما كان قد خبر المدرسة الفلسفية الألمانية، وبينما كانا في الخارج توصلا إلى النتائج ذاتها. ولكن بينما توصل ماركس إلى فهم صراعات العصر ومطالبه على أساس الثورة الفرنسية، توصل انغلز غليها على أساس الصناعة الانجليزية.

كانت انجلترا هي الأخرى قد اجتازت ثورتها البرجوازية، قبل قرن من فرنسا في الواقع. ولكن لهذا السبب بالذات نشبت الثورة البرجوازية الانجليزية في ظل ظروف أقل تطورا، وفي النهاية انحلت إلى اتفاق بين الارستقراطية والبرجوازية تمخض عن إقامة ملكية مشتركة. ولم تكن «الطبقة الوسطى» الانجليزية مضطرة إلى خوض نضال طويل مرير مع الملكية والارستقراطية كذلك الذي كان على «الطبقة الوسطى» في فرنسا أن تخوضه. ولكن بينما لم يتوصل المؤرخون إلى أن نضال «الطبقة الوسطى الفرنسية» كان صراعا طبقيا إلا بعد التفكير في ذلك مرتين، اندلع الصراع الطبقي في انجلترا، من مصدر جديد إذا صح التعبير، عندما تسلمت البروليتاريا النضال ضد الطبقات الحاكمة وقت قانون الإصلاح في 1832.

يكمن هذا الفرق في أن الصناعة الكبيرة نمت وتطورت في انجلترا أكثر مما في فرنسا بكثير. وقامت الصناعة الانجليزية، بعملية تطورية تكاد تكون منظورة، بتدمير الطبقات القديمة وخلق طبقات جديدة. وكانت البنية الداخلية للمجتمع البرجوازي الحديث مرثية بوضوح في انجلترا أكثر مما في فرنسا. درس انغلز تاريخ وطابع الصناعة الانجليزية، وتوصل عبر هذه الدراسة إلى أنه على الرغم من أن الحقائق الاقتصادية لا تلعب دورا في البحث التاريخي، أو تلعب دورا صغيرا جدا في أحسن الأحوال، إلا أنها تمثل قوة تاريخية حاسمة، على الأقل في العالم الحديث، وأن هذه الحقائق تكون أساس تطور التناقضات الطبقية العدائية القائمة. وبينما نشأت هذه التناقضات كلية نتيجة تطور الصناعة الكبيرة، فإنها تمثل أساس تطور الأحزاب السياسية والصراعات السياسية، وبالتالي تمثل أساس التاريخ السياسي كله.

كان السبب في أن انغلز وجه انتباهه أساسا نحو الحقل الاقتصادي يعود إلى مهنته. وقد كانت مساهمته في «دويتشه-فرانزوسيشه ياربشر» نقدا للاقتصاد الوطني بينما كانت مساهمة ماركس نقدا لفلسفة القانون. ومساهمة انغلز مكتوبة بكل حدة الشباب، ولكنها تبدي نضجا غير عادي. لكن الأساتذة الفلستيين الألمان وصفوها بأنها «عمل مشوش تماما» بينما وصفها ماركس بأنها من «هيكل تخطيطي لامع». وفي الواقع لم تكن هذه المساهمة أكثر من هيكل تخطيطي، ذلك أن ما قاله انغلز عن ريكاردو وآدم سميث لم يكن شاملا البتة ولم يكن كذلك صحيحا على الدوام، بينما كانت الاعتراضات التي أوردها قد وردت من قبل في أعمال الاشتراكيين الانجليز والفرنسيين. غير أن محاولته تفسير كل تناقضات علم الاقتصاد البرجوازي اعتمادا على مصدرها الحقيقي، الملكية الخاصة، كانت أمرا عبقريا، جعل انغلز يتخطى برودون الذي لم يتعد مقارعة الملكية الخاصة، على أرضها هي. ولقد احتوت ملاحظات انغلز فيما يتعلق بالآثار غير الإنسانية للتنافس الرأسمالي وبصدد نظرية مالتوس السكانية وزخم الإنتاج الرأسمالي المتزايد دوما والأزمات التجارية وقانون الأجور وتقدم العلوم، الذي أعلن أنه انحط تحت حكم الملكية الخاصة ليصبح وسيلة لتعزيز عبودية الإنسانية بدلا من أن يكون وسيلة لتحرير الإنسانية الخ، كل هذه الملاحظات احتوت على بذور الشيوعية العلمية في الحقل الاقتصادي، ولقد كان انغلز بالفعل هو الرائد في هذا المجال.

كان انغلز متواضعا جدا فيما يتعلق بمساهماته الشخصية. فقد أعلن مرة أن ماركس هو الذي أعطى لكتاباته الاقتصادية «شكلها النهائي»، وأعلن في مرة ثانية أن «ماركس كان أعظم منا جميعا، كان يرى أبعد منا وأكثر منا وأسرع منا»، وفي مناسبة ثالثة قال أن ماركس كان على أية حال سيكتشف ما اكتشفه هو (انغلز). لكن الحقيقة هي أن انغلز كان في البداية هو الذي يعطي وماركس هو الذي يتلقى فيما يتعلق بذلك الحقل الذي يجب في النهاية أن تخاض عليه النضالات الحاسمة (حقل الاقتصاد).

لا شك في أن ماركس كان أعظم الرجلين فلسفيا، وأن عقله كان أكثر دربة، ولكن إذا كان للمرء أن يتسلى بلعبة «إذا وماذا لو» دونما علاقة بالبحث التاريخي، فإنه يستطيع أن يطلق العنان لمخيلته متسائلا ما إذا كان انغلز يستطيع أن يحل وحده المشكلة التي حلها الرجلان معا، وما إذا كان يستطيع حلها في شكلها الفرنسي الأكثر تعقيدا كما فعل ماركس. غير أن الحقيقة التي تغاضى عنها البعض ظلما هي أن انغلز حل المشكلة في شكلها الانجليزي الأبسط بسهولة. إذا نظر المرء إلى نقد انغلز للاقتصاد السياسي من وجهة النظر الاقتصادية فحسب، فإنه يجد أن هذا النقد قابل للاعتراض عليه، ولكن ما يعطي لهذا النقد طابعه الجوهري ويجعل منه تقدما في العلم الاقتصادي هو طريقة المعالجة التي يدين بها الكاتب إلى مدرسة الجدل في الفلسفة الهيغيلية.

ويمكن للمرء أن يرى نقطة البداية الفلسفية بوضوح أكثر في مساهمة انغلز الثانية في «دويتشه-فرانزوسيشه ياربشر»، التي يصف فيها الحالة في انجلترا على أساس واحد من كتب كارليل، معلنا أن هذا الكتاب هو الوحيد الذي يستحق القراءة من بين الحصاد الأدبي في تلك السنة كلها، ومشيرا إلى أن الفقر الأدبي في انجلترا لا يضاهيه سوى الثراء الأدبي في فرنسا. ويضيف انغلز ملاحظة يشير فيها إلى ما يصفه بأنه استنزاف الارستقراطية والبرجوازية الانجليزية لنفسها فكريا. ويقول أن الانجليزي المثقف، الذي كان يعتبر في القارة الأوربية مقياسا للشخصية الوطنية الانجليزية، ليس إلا أحقر عبد تحت الشمس، فهو عبد تحيزه ذي الطبيعة الدينية في الغالب: «القطاع الشريف الوحيد في المجتمع الانجليزي هو القطاع الذي لا تعرفه القارة الأوربية، قطاع العمال والفقراء ومنبوذي انجلترا –على الرغم من خشونتهم وافتقارهم إلى المعنويات المرتفعة. إن أمل انجلترا في الخلاص يكمن فيهم. إنهم ليسوا مثقفين، ولكنهم متحررين من كل التحيزات، ولا زال لديهم من الحيوية ما يجعلهم مادة جيدة للتثقيف. إن المستقبل لهم». ثم أوضح انغلز مستخدما تعابير ماركس أن الفلسفة بدأت تغوص في أعماق «جماهير الشعب الساذجة». إذ لم يجرؤ أي مترجم انجليزي محترم على ترجمة كتاب شتراوس «حياة يسوع» إلى الانجليزية ولم يجرؤ أي ناشر مشهور على نشره، ولكن محاضرا اشتراكيا ترجمه وهو يباع الآن من العمال في لندن وبرمنغهام ومانشستر على شكل نشرة رخيصة الثمن.

ترجم انغلز «المقطوعات الجميلة بل وأحيانا البديعة» التي يصف بها كارليل الوضع في انجلترا وصفا قاتما. ولكنه استشهد ببرونو باور وفريدريك فويرباخ ضد اقتراحات كارليل لمعالجة الوضع: دين جديد وعبادة البطل القائمة على وحدة الوجود وما إلى ذلك. فأوضح أن كل

إمكانيات الدين قد استنفذت بما فيها مذهب وحدة الوجود الذي دحضه فويرباخ في الانيكدوتا إلى الأبد. «حتى الآن، كان سؤال يثور على الدوام: ما هو الله؟» وأعطت الفلسفة الألمانية الجواب: «الله هو الإنسان. فما على الإنسان إلا أن يدرك ذاته ويقيس كل ظروف الحياة طبقا له ويحكم عليها طبقا لطابعه هو ويخلق العالم بطريقة إنسانية تماما طبقا لما تمليه طبيعته هو ذاته، وبذلك يكون الإنسان قد حل أحجية عصرنا». وفي الحال فسر ماركس «إنسان» فويرباخ بأنه سلوك الإنسان والدولة والمجتمع، بينما فسر انغلز طابع الإنسان بأنه تاريخه، الذي يجب أن نرفعه أعلى مما رفعته أية مدرسة فلسفية سابقا، حتى أعلى مما رفعه هيغل، الذي لم يعتبره في التحليل الأخير أكثر من اختبار لصحة استنتاجاته المنطقية.

إن من الممتع حقا أن يدرس المرء بالتفصيل مساهمات ماركس وانغلز في «دويتشه-فرانزوسيشه ياربشر» ليرى كيف تطورت الأفكار ذاتها، تلونها في إحدى الحالتين الثورة الفرنسية وفي الحالة الأخرى الصناعة الانجليزية، وهما التحولان التاريخيان العظيمان اللذان يعود إليهما تاريخ المجتمع البرجوازي الحديث. فقد توصل ماركس إلى الطابع الفوضوي للمجتمع انطلاقا من حقوق الإنسان، بينما أعلن انغلز أن المنافسة هي «الابنة المدللة لعالم الاقتصاد»: «ما الذي يفترض فينا أن نعتبر قانونا لا يمكن أن يعمل إلا نتيجة الاندلاع الدوري للأزمات الاقتصادية؟ إنه ببساطة قانون طبيعي قائم على عدم وعي الأطرف المعنية». وتوصل ماركس إلى أن انعتاق الإنسانية لا يمكن أن يحصل إلا عندما يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا عبر تنظيم قواه الذاتية كقوى اجتماعية، بينما أعلن انغلز: أنتجوا بوعي كبشر لا كأفراد مفتتين لا يتمتعون بوعي اجتماعي، وعندئذ تتغلبون على كل التناقضات المصطنعة الصعبة».

وهكذا يلاحظ المرء أن الاتفاق بين النتائج التي توصل إليها ماركس وتلك التي توصل إليها انغلز يتخطى المضمون حتى ليكاد يصبح اتفاقا في النص.

3-العائلة المقدسة

كان أول عمل قام به ماركس وانغلز معا هو تجديد ضميريهما الفلسفيين، وقد اتخذ هذا العمل شكل سجال ضد «الغماينه ليتيراتور تزايتونغ» التي نشرها في كانون الأول عام 1843 في برلين برونو وأخواه ادغار واغبرت.

حاول «أحرار» برلين أن يبرروا على صفحات هذه الجريدة نظرتهم للعالم، أو ما كانوا يسمونه كذلك. وكان فروبل قد دعى برونو باور إلى المساهمة في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر»، ولكنه بعد قليل من التردد لم يفعل ذلك. فلقد تلقى غروره الشخصي ضربة موجعة من ماركس وروغه، رغم أن هذا لم يكن السبب الحقيقي لتمسكه بفلسفته القديمة في وعي الذات. ذلك أن كل ملاحظاته المريرة حول «راينيخه تزايتونغ المأسوف على ذكراها» وحول «الراديكاليين» و«أذكياء العام 1842 بعد الميلاد» كان لها أساس في الواقع. فقد أقنعه الهجوم الشرس الماحق الذي شنته الرجعية الرومانسية على «دويتشه ياربشر» و«راينيخ تزايتونغ» حالما تحولتا من الفلسفة إلى السياسة، واللامبالاة التامة التي قابلت بها «الجماهير» هذه «المذبحة الفكرية»، أقنعه ذلك أن التقدم على هذا الطريق غير ممكن. فمضى إلى الاستنتاج أن الخلاص الوحيد يكمن في العودة إلى الفلسفة النقية والنظرية النقية والنقد النقي، وبالطبع حالما يتحقق اللجوء إلى الغيوم الإيديولوجية، يصبح من السهل خلق حاكم كلي القوة للعالم من هذه المواد.

لخص برونو باور برنامج «الغماينه ليتراتور تزايتونغ»، بقدر ما يمكن الحديث عن برنامج كهذا، كما يلي: «حتى الآن، ضلت كل الحركات الكبرى في التاريخ طريقها وانتهت إلى الفشل منذ البداية لأن الجماهير اهتمت بها أو وقفت إلى جانبها، أو أنها انتهت نهاية تعيسة لأن الفكرة التي كانت تتركز حولها لم تكن سوى فكرة لا تتطلب أكثر من فهم مصطنع لأنها كانت تتوجه إلى استدرار تصفيق الجماهير». كان هذا التناقض العدائي بين «الفكرة» و«الجماهير» هو المحور الذي تدور حوله كل مقالات «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» التي أعلنت أن «الفكرة» عرفت في النهاية أين تسعى إلى خصمها الحقيقي الوحيد: خداع الجماهير لذاتها وتذبذبها.

ولذا، كانت صحيفة باور تعامل كل الحركات «الجماهيرية» بالاحتقار الذي تستأهله: المسيحية واليهودية، الاملاقية والاشتراكية، الثورة الفرنسية والصناعة الانجليزية. ولقد كان انغلز مؤدبا جدا عندما قال عن هذه الصحيفة «أن فلسفتها الهيغلية المتحللة المتفسخة تشبه عجوزا طاعنة في السن هزل جسمها فأصبح كاريكاتوريا مثيرا للتقزز، ولكنها مع ذلك لا تزال تتبرج وتتزين وتجوب الشوارع أملا في أن تصطاد لنفسها عاشقا، ذلك أن الفلسفة الهيغلية تحولت على يد «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» إلى مجرد سخافة. فعندما أعلن هيغل أن الفكرة المطلقة بوصفها روح العالم الخلاقة لم تع ذاتها إلا بصورة ثانوية في الفيلسوف، فإنه كان يعني فحسب أن الفكرة المطلقة تصنع التاريخ ظاهريا في المخيلة، كما أنه احتاط سلفا وصراحة ضد الخطأ ممكن الوقوع، خطأ اعتبار الفرد الفلسفي ذاته الفكرة المطلقة. لكن الإخوة باور وأتباعهم اعتبروا أنفسهم التجسيد الشخصي للنقد وللفكرة المطلقة التي تعيش فيهم كروح للعالم ضد كل ما تبقى من الإنسانية. كان لا بد لهذه الأبخرة من أن تنقشع سريعا، حتى في الجو الفلسفي لألمانيا، وفي الواقع لم تلق «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» سوى ترحيب خجول حتى بين «الأحرار». فلم يتعاون معها كوبن، الذي اتخذ موقفا متحفظا، ولاشتيرنر الذي كان يعد في الخفاء هجوما عليها. كذلك ترفع ماين وروتنبرغ عن الأمر، وعدا فوشر كان على الإخوة باور أن يقنعوا بكتاب من الدرجة الثالثة من بين «الأحرار»: رجل يسمى يونغنتز، وآخر ذو اسم مستعار هو زيلغا، وملازم بروسي اسمه فون زيخلنسكي عاش عمرا طويلا وقضى جنرالا للمشاة. وخلال سنة واحدة، كانت الضجة كلها قد هدأت تماما، وحين نزل ماركس وانغلز إلى الساحة ليهاجمها «الغماينه ليتراتور تزايتونغ»، كانت هذه الصحيفة قد ماتت بل أنها كانت قد طواها النسيان تماما.

ولم يكن ذلك مؤاتيا لعمل ماركس وانغلز المشترك الأول، ذلك العمل الذي أسمياه نقد النقد النقدي أو العائلة المقدسة كما يسمي بناء على اقتراح ناشرهم. وفي الحال أنبهما خصومهما لأنهما كانا يضربان جثة هامدة. وعندما تسلم انغلز النسخة الأولى من الكتاب المطبوع أعلن أنه على الرغم من أن الكتاب يمثل عملا جيدا إلا أن الاحتقار المتعالي الذي يعامل به النقد النقدي كان على تناقض مؤسف مع محتواه الذي غطى ما ينوف على ثلاثمئة صفحة وقد اعتقد انغلز أن الجمهور العام لن يطلع على الكتاب وأنه لن يواجه باهتمام من قبل القراء. لا شك في أن هذا الحكم صحيح اليوم حتى أكثر مما كان عندما صدر، لكن للكتاب جاذبية إضافية اليوم لم تكن له حينذاك. فلقد عالج أحد النقاد الكتاب فيما بعد شاجبا مماحكاته وحطه للأفكار بصورة مرعبة، ولكنه أعلن أن الكتاب رغم ذلك يحوي بعضا من أروع الأدلة على عبقرية كاتبيه وأنه في كمال شكله ودقة وإيجاز لغته يمكن أن يعتبر من بين أروع ما كتب ماركس وانغلز طيلة حياتهما.

في الفقرات التي يشير فيها الناقد يكشف ماركس عن تمكنه من ذلك النقد البنّاء الذي يهزم التخيلات الإيديولوجية بالحقائق الايجابية، ذلك النقد الذي يخلق وهو يدمر ويبني وهو يحطم. يجيب ماركس على ملاحظات برونو باور النقدية تجاه المادية الفرنسية والثورة الفرنسية بعرض موجز رائع لهاتين الظاهرتين التاريخيتين. ويجيب ماركس ببرود على حديث باور عن التناقض بين «العقل» و«الجماهير» وبين «الفكرة» و«المصلحة» قائلا: «لقد انتهت الفكرة على الدوام نهاية سيئة بقدر ما كانت متميزة عن المصلحة». وكل مصلحة جماهيرية وجدت لها تعبيرا تاريخيا ودخلت ساحة العالم كفكرة كانت تتخطى بلا استثناء حدودها الحقيقية وتتحد بمصالح الإنسانية جمعاء. لقد كانت الفكرة هي الوهم الذي دعاه فورييه نغمة كل حقبة في التاريخ. «لم تكن مصالح البرجوازية قد ضللت بل هي على العكس من ذلك كسبت كل شيء في ثورة 1789 وواجهت فيها نجاحا حقيقيا، على الرغم من أن الرثاء قد اختفى وذبلت أكاليل الزهور التي زينت بها هذه المصالح مهدها. لقد كانت هذه المصالح في الواقع قوية جدا، لدرجة أنها قهرت بنجاح قلم مارا ومقصلة الإرهابيين وسيف نابليون وصليب الكنيسة ودم آل البوربون الأزرق». وقد حققت البرجوازية الرغبات التي كانت تعتمل في صدرها في سنة 1789 و1830 مع فارق واحد هو أن استنارتها السياسية كانت قد وصلت نهايتها في ذلك الحين. فلم تعد تستطيع تحقيق الدولة المثالية ولم تعد تعمل من أجل العالم ومن أجل المصالح العامة للإنسانية في دولتها الدستورية التمثيلية، بل أصبحت ترى في هذه الدولة التعبير الرسمي عن سلطتها المقتصرة عليها والتعبير السياسي عن مصالحها الخاصة بها. لم تكن الثورة فاشلة إلا فيما يتعلق بالجماهير ذلك أن فكرة هذه الجماهير السياسية لم تكن تتطابق مع مصالحها الحقيقية، ولذا لم يكن مبدؤها الحيوي متماثلا مع المبدأ الحيوي للثورة، وكانت الشروط الحقيقية الضرورية لانعتاق الجماهير مختلفة جوهريا عن تلك الشروط التي تستطيع البرجوازية أن تحرر بها نفسها والمجتمع.

وأعلن ماركس ردا على ادعاء باور بأن الدولة تشد ذرات المجتمع البرجوازي بعضها إلى بعض بأن هذه الذرات مشدودة إلى بعضها البعض لكونها ذرات تخيلية فحسب، لكونها ذرات في سماء الخيال فقط بينما هي في الواقع تختلف اختلافا كليا عن الذرات لأنها بالتحديد ليست ذوات مقدسة بل كائنات إنسانية ذاتية أنانية. «اليوم لا يتخيل أحد، سوى الجهلة سياسيا، إن الحياة البرجوازية تتماسك بفعل الدولة، فالحقيقة أن الدولة تتماسك بفعل الحياة البرجوازية». ويجيب ماركس على تقليل باور من أهمية الصناعة والطبيعة للمعرفة التاريخية بأن يتساءل عما إذا كان يمكن القول أن النقد النقدي قد توصل حتى إلى بدايات المعرفة التاريخية، ما دام مستمرا في طرح الموقف النظري والعملي للإنسان تجاه الطبيعة جانبا وكذلك عزل العلم الطبيعي والصناعة عن الحركة التاريخية: «وكما تفصل (هذه الفلسفة) التفكير عن الشعور، والروح عن الجسد، فإنها كذلك تفصل التاريخ عن العلم الطبيعي والصناعة، وتعتبر أن التاريخ يولد في غيوم السماء بدلا من أن يولد في إنتاج المواد الخام على الأرض». وكما دافع ماركس عن الثورة الفرنسية ضد النقد النقدي، دافع انغلز عن التاريخ الانجليزي. وكان خصمه في ذلك فوشر الشاب الذي أعطى للواقع الأرضي اهتماما أكثر من أي ممن ساهموا في «الغماينه ليتراتور تزايتونغ». ومن الممتع أن نلاحظ كيف فسر انغلز قانون الأجور قانون الأجور الرأسمالي الذي أرسله بعد ذلك بعشرين عاما، عندما تبناه لاسال، إلى أعماق الجحيم بصفته «قانونا ريكارديا متفسخا». أثبت انغلز أن فوشر اقترف أخطاء فاحشة -لم يكن الرجل يعرف في عام 1844 أن القوانين الانجليزية التي تحظر الانتظام قد نقضت في عام 1842- لكن حججه كانت كثيرا ما تقترب من المماحكة، كما أنه أخطأ بالنسبة لنقطة هامة واحدة وإن يكن خطؤه مختلفا عن خطأ فوشر. شجب فوشر قانون الساعات العشر بوصفه «إجراء مصطنعا باليا» لن يضع الفأس على جذور المسألة بينما قال انغلز أن القانون تعبير، وإن يكن ألطف تعبير ممكن، عن مبدأ جذري تماما، لا لأنه يضع الفأس على جذور التجارة الخارجية وبالتالي نظام المصانع فحسب، بل لأنه سيضرب هذه الجذور في الأعماق. كان انغلز في ذلك الوقت وكذلك ماركس يعتبران قانون الساعات العشر محاولة لوضع قيود رجعية على الصناعة الكبيرة، على الرغم من أنهما كانا يشعران أن ظروف المجتمع الرأسمالي ستحطم هذه القيود مرة إثر أخرى.

لم يتغلب ماركس ولا انغلز في «العائلة المقدسة» على ماضيهما الفلسفي تماما، فهما في بداية المقدمة يستشهدان بإنسانية فويرباخ الحقيقية ضد مثالية برونو باور التأملية. ويعترف ماركس وانغلز بلا قيد ولا شرط بالتقدم الذي أحرزه فويرباخ والخدمات العظيمة التي أداها، إذ قدم الأسس العبقرية لنقد الميتافيزيقيا كلها، وأحلّ الكائن الإنساني محل سقط المتاع ومحل وعي الذات الفلسفي الخالد، ولكنهما يتخطيان المرة تلو الأخرى إنسانية فويرباخ نحو الاشتراكي- من المجرد إلى الكائن الإنساني التاريخي- وفي عالم الاشتراكية المشوش يتحسسان طريقهما بحنكة بالغة، فيكشفان عن سر الهوية الاشتراكية التي تفتخر بها البرجوازية المتخمة. ويقولان أن التعاسة الإنسانية، ذلك الانحطاط الكامل الذي يجبر الإنسان على تقبل الصدقات كي يعيش، ويخدم ارستقراطية الثروة والثقافة كوسيلة للتسلية، كوسيلة لإشباع غرورها وغطرستها. وكل جمعيات الرفاه المختلفة في ألمانيا، ومنظمات الإحسان في فرنسا والأعمال الدونكيشوتية في انجلترا والحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة الخيرية وحملات جمع الصدقات للفقراء وحتى جمع التبرعات لضحايا حوادث العمل والصناعة، كل هذه لا تملك أي أهمية أعمق إطلاقا.

كان فورييه من بين كل الطوباويين العظماء هو الذي أسهم أكثر من غيره في المحتوى الإيديولوجي «للعائلة المقدسة»، ولكن انغلز ميز بين فورييه والفوريينّ معلنا أن الفوريينّة الخصي التي تبشر بها «ديمقراتيك باسيفيك» (اسم صحيفة باريسية) ليست غير التعاليم الاجتماعية لقطاع من البرجوازية المحسنة. وهو مثل ماركس يؤكد المرة تلو الأخرى على أهمية التطور التاريخي والحركة المستقلة للطبقة العاملة، وهي أمور فشل أعظم الطوباويين في فهمها. ويعلن انغلز مجيبا على ادغار باور: «لا يخلق النقد النقدي شيئا. بينما يخلق العامل كل شيء، حتى أن مخلوقاته الفكرية تخجل النقد كله. والعمال الانجليز والفرنسيون شاهد على ذلك».

ويدحض ماركس التناقض المزعوم بين «العقل» و«الجماهير»، بأن يوضح أن النقد الشيوعي الذي مارسه الطوباويون كان في الحقيقة طبقا لحركة الجماهير الغفيرة. ولكي يكوّن المرء فكرة ما عن نبل هذه الحركة فإن عليه أن يتعرف إلى الظمأ الذي لا يرتوي للمعرفة والطاقة الأخلاقية والحافز الدائب إلى الأمام التي تسم جميعا العامل الانجليزي والعامل الفرنسي. وليس من الصعب أن يفهم المرء الحدة البالغة التي هاجم بها ماركس ادغار باور بسبب ترجمته السيئة لبرودون وتعليقاته السخيفة عليه في «الغماينه ليتراتور تزايتونغ». والاعتراض بأن ماركس ما مجد برودون في «العائلة المقدسة» إلا ليهاجمه بعد ذلك بسنوات ليس غير حيلة أكاديمية جبانة. فماركس في «العائلة المقدسة» يدافع عن انجازات برودون الحقيقية ضد محاولات طمسها وتشويهها بالجمل الفارغة التي يلوكها ادغار باور. وقد رأى ماركس في عمل برودون انجازا رائدا في الحقل الاقتصادي تماما كانجاز برونو باور ذاته في حقل اللاهوت، ولكن كما هاجم ماركس نقائص برونو باور فيما يتعلق باللاهوت كذلك هاجم نقائص برودون فيما يتعلق بالاقتصاد.

يعالج برودون الملكية على أساس النظام الاقتصادي البرجوازي بوصفها تناقضا داخليا، لكن ماركس يعلن: «أن الملكية الخاصة بحد ذاتها، كثروة، مجبرة في الوقت ذاته على الحفاظ على قيد البقاء على ذاتها وعلى نقيضها الذي هو البروليتاريا. والجانب الايجابي من هذا التناقض هو الملكية الخاصة مكتفية بذاتها. أما البروليتاريا فهي من جهة أخرى مجبرة على إلغاء نفسها وفي الوقت ذاته إلغاء نقيضها الشرطي الذي يجعلها بروليتاريا. إنها الجانب السلبي من التناقض، إنها جانبه المتحلل، إنها الملكية الخاصة وقد انحلت. ولذا ففي داخل النقيض الشرطي يكون المالك هو الطرف المحافظ وتكون البروليترايا هي الطرف المدمر. فمن أحدهما ينبثق العمل لإبقاء التناقض ومن الثاني ينبثق العمل لتدميره. إن الملكية الخاصة تتجه في حركتها الاقتصادية نحو انحلالها الذاتي، ولكن بواسطة تطور مستقل عنها وبدون وعي منها وضد رغبتها، تطور تحكمه طبيعة المشكلة من حيث أنها تنتج البروليتاريا كبروليتاريا، تنتج التعاسة الفكرية والجسدية الواعية لتعاستها، تنتج اللاإنسانية الواعية للاإنسانيتها، ولذا فهي تصفي نفسها بنفسها. والبروليتاريا بذلك تنفذ الحكم الذي أصدرته الملكية الخاصة على نفسها بخلقها البروليتاريا، تماما كما تنفذ الحكم الذي يصدره العمل المأجور على نفسه حينما ينتج الثراء للبعض والتعاسة للبعض الآخر. وعندما تنتصر البروليتاريا فإنها بذلك لا تصبح الجانب المطلق للمجتمع لأنها لا يمكن أن تصبح منتصرة إلا بحل نفسها وحل نقيضها. وبهذا لا تختفي البروليتاريا وحدها، ولكن يختفي أيضا نقيضها الشرطي، الملكية الخاصة».

ويشير ماركس صراحة إلى أنه لا يجعل من البروليتاريين، آلهة عندما ينسب إليهم هذا الدور التاريخي: «العكس هو الصحيح، لأن تجريد الإنسانية كلها بل ومظهر الإنسانية كلها كامل عمليا في البروليتاريا التامة النمو، لأن ظروف حياة البروليتاريا تمثل بؤرة كل الظروف الاإنسانية في المجتمع المعاصر، لأن الكائن الإنساني فقد في البروليتاريا، ولكنه اكتسب وعيا نظريا لهذا الفقدان، وأصبح مضطرا بفعل حاجة ماسة تماما –التعبير العملي عن الضرورة- إلى الثورة على هذه اللاإنسانية. إن البروليتاريا تستطيع ويجب أن تحرر نفسها. لكنها لا تستطيع تحرير نفسها دون إلغاء الشروط التي أعطتها الحياة، وهي لا تستطيع إلغاء هذه الشروط دون إلغاء كل ظروف الحياة الاجتماعية اللاإنسانية التي تتلخص في وضع البروليتريا ذاتها.

«إن البروليتاريا لا تجتاز مدرسة العمل القاسية التي تورث الصلابة عبثا. وليست المسألة ما يمكن لهذا البروليتاري أو ذاك، أو حتى للبروليتريا كلها، أن تتخيل اللحظة أنه هدفها. إنها مسألة ما هي البروليتاريا فعلا وما الذي ستكون مضطرة لفعله تاريخيا نتيجة لهذه الكينونة. إن هدف البروليتاريا وعملها التاريخي مقرران سلفا، بشكل واضح لا عودة عنه، في وضعها الخاص في الحياة في تنظيم المجتمع البرجوازي المعاصر كله». ويؤكد ماركس المرة تلو الأخرى أن قطاعات من البروليتاريا الانجليزية والفرنسية قد وعت هذا الدور التاريخي للبروليتاريا، وأنها تناضل بدأب لتطوير هذا الوعي إلى حد الوضوح الكامل.

لا شك في أن الجداول تحمل ماءها العذب إلى الحقول عبر مساحات شاسعة من الأرض القفر، وبالمثل فإن فصلين على وجه الخصوص في «العائلة المقدسة»، يعالجان الحكمة البالغة لطيب الذكر زيلغا، يضعان صبر القارئ موضع امتحان عصيب. على أن حكما عادلا يمكن أن يصدر على الكتاب، إذا افترضنا أنه مرتجل، والأغلب أنه كذلك. إذ أنه ما كاد ماركس وانغلز يتعرفان إلى بعضهما شخصيا حتى وصل العدد الثامن من «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» إلى باريس حاملا هجوما مقنعا، وإن يكن حادا، شنه برونو على النتائج التي توصل إليها ماركس وانغلز في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر»، ولربما كان الرجلان قد قررا الرد على صديقهما القديم بطريقة ساخرة هازئة وبأسرع ما يمكن في كتيِّب صغير. على أية حال، جلس انغلز في الحال وكتب مساهمته في الكتاب، ولم تتعد هذه المساهمة ست عشرة صفحة، ولقد أخذت الدهشة انغلز عندما سمع أن ماركس قد وسع الرد لينوف على ثلاثمائة صفحة. كذلك شعر بأن من «الغريب»، بالنظر إلى الدور الصغير الذي لعبه في كتابة الكتاب، أن يظهر اسمه عليه جنبا إلى جنب مع اسم ماركس، بل وحتى متقدما عليه.

ربما كان ماركس قد بدأ العمل بطريقته الشاملة المعهودة، ليكتشف طبقا للقول المأثور أنه يفتقر إلى الوقت الكافي ليكتب بإيجاز، أو لعله وسَّع الكتاب ليستفيد من النص الذي يعفى الكتب التي تربو على 320 صفحة من الرقابة.

أعلن مؤلفا الكتاب السجالي أن هذا الكتاب ليس إلا مقدمة لنشر أعمال مستقلة يبحث فيها كل منهما على حدة موقفه من أحدث العقائد الاجتماعية والفلسفية. ولا شك في أنهما كانا جادين تماما في هذا القول، والدليل على ذلك أنه ما أن تسلم انغلز النسخة المطبوعة الأولى من «العائلة المقدسة» حتى كان قد أنجز مخطوطة أول عمل من سلسلة هذه الأعمال.

4-عمل اشتراكي أساسي

كانت المخطوطة التي أنجزها انغلز هي «حالة الطبقة العاملة في انجلترا في 1844»، وقد نشرت في صيف 1845 في ليبزيغ، وكان الناشر ويغاند الذي كان من قبل ناشر «دويتشه ياربشر» والذي قد نشر كتاب شتيرنر «الأنا» قبل ذلك ببضعة شهور. انزلق شتيرنر بوصفه آخر مولود للفلسفة الهيغلية إلى حكمة التنافس الرأسمالي الضحلة، بينما وضع انغلز في كتابه الأساس لأولئك المنظرين الألمان الذين كانوا قد تطوروا نحو الشيوعية والاشتراكية نتيجة للانحلال الذي أوقعه فويرباخ بالفلسفة الهيغلية التأملية، والذين كانوا يمثلون الأغلبية. وقد وصف انغلز حالة الطبقة العاملة الانجليزية بكل واقعها المرعب، ذلك الواقع النموذجي لحكم البرجوازية.

عندما أعاد انغلز إصدار كتابه هذا بعد ذلك بحوالي عشرين سنة تقريبا وصفه بأنه مرحلة في التطور الجنيني للاشتراكية العالمية وأضاف: «وكما أن الجنين الإنساني يبدي في المراحل الأولى لتطوره الخياشيم التي تعود إلى أجدادنا من الأسماك، كذلك فإن هذا الكتاب يبدي في كل المواضيع العلامات التي يحملها أصل الاشتراكية الحديثة من واحد من أجدادنا هو الفلسفة الألمانية الكلاسيكية». هذا صحيح، مع تعديل واحد هو أن الكتاب يبدي هذه العلامات أقل مما تبديها مساهمات انغلز في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر». وفي هذه المرة لا يذكر انغلز لا برونو باور ولا فويرباخ، كما أنه لا يذكر «الصديق شتيرنر» إلا لماما وكي يجعله أضحوكة. على أية حال يجب اعتبار تأثير الفلسفة الألمانية على هذا الكتاب تأثيرا تقدميا وليس رجعيا كما كان على الأعمال الأولى.

لا تنبع قيمة الكتاب من الوصف الذي يورده للتعاسة البروليتارية التي حدثت نتيجة لنمط الإنتاج الرأسمالي، ذلك أنه كان هناك من سبق انغلز في ذلك، مثل بيرت وغاسكل وغيرهما ممن يستشهد بهم انغلز كثيرا. كذلك ليس ما يعطي الكتاب شخصيته المميزة ذلك الغضب الحارق الذي يوجهه ضد النظام الاجتماعي الذي يخضع الجماهير العاملة لتلك الآلام المبرحة، ولا تلك الأوصاف المؤثرة التي يصف بها هذه الآلام، ولا ذلك التعاطف القلبي الذي يبديه تجاه ضحايا هذه الآلام. فالسمة التي تثير الإعجاب والتي تجدر ملاحظتها هي ذلك الشمول الذي يفهم به المؤلف ذي الأربعة وعشرين ربيعا روح نمط الإنتاج الرأسمالي، ونجاحه انطلاقا من هذا النمط في تفسير صعود البرجوازية وكذلك انحطاطها، وفي تفسير تعاسة البروليتاريا وكذلك خلاصها. كان هدف الكتاب أن يبين كيف أن الصناعة الكبيرة خلقت الطبقة العاملة الحديثة كعرق منزوع عن إنسانيته ومحطم جسديا ومنحل فكريا وأخلاقيا إلى حد الحيوانية، وكيف أن هذه الصناعة تتطور، ولا يمكن لها ألا أن تتطور، بفعل الجدل التاريخي، الذي يبين قوانينه بالتفصيل، إلى حد أنها تطيح بخالقتها (البرجوازية). ويعلن الكتاب أن حكم البروليتاريا في انجلترا سينشأ نتيجة إتحاد حركة الطبقة العاملة بالاشتراكية.

لم يكن ممكنا أن يقوم بهذا الانجاز، الذي مثله الكتاب، غير شخص تمكن من الجدل الهيغيلي حتى أصبح طبيعة ثانية لديه، وتمكن من إيقافه على قدميه بدلا من أن يتركه واقفا على رأسه. ولذا صار الكتاب واحدا من حجارة الأساس للاشتراكية، تماما كما أراد له كاتبه أن يكون. غير أن الاهتمام الذي قوبل به الكتاب عند صدوره لم يكن عائدا لهذا السبب، بل كان نتيجة للمسألة التي عالجها. علّق أحد الرؤوس الأكاديمية الكبيرة بغرور ساخر على الكتاب قائلا أنه جعل الاشتراكية «مناسبة للتدريس في الجامعة»، وكان هذا قولا صحيحا بمعنى أن كثيرا من الأساتذة الجامعيين كسروا سيوفهم الصدئة وهم يقارعونه. وفوق كل شيء، انتفخت أوداج هذا النقاد العليم زهوا وفخارا، عندما لم تتحقق الثورة التي تنبأ انغلز بأنها كانت على الأعتاب، ولكنه بعد ذلك بخمسين عاما أعلن أن المدهش في الأمر ليس أن هذه النبوءة أو تلك لم تتحقق، بل المدهش أن الكثير من هذه النبوءات، التي يوردها صاحبها «بحماسة الشباب» تتحقق على الرغم من أن صاحبها تنبأ بأنها ستقع «في مستقبل أقرب».

واليوم لا تعود الجاذبية التي يمارسها هذا الكتاب الرائد إلى تلك «الحماسة الشابة» التي رأت كثيرا من الأمور «في المستقبل الأقرب» مما يجب. فبدون الظلال التي يرسمها هذا الكتاب، لا تبدو روعة الضوء الذي يلقيه. إن عين العبقري التي تصف شكل المستقبل انطلاقا من الحاضر ترى الأمور التي ستأتي أوضح وبالتالي أقرب مما تراه عين الحس البدهي، التي تجد صعوبة في أن تعتاد على فكرة أن الحساء لا يظهر بالضرورة على مائدة الطعام. بيد أنه كان هناك في انجلترا، بالإضافة إلى انغلز، من رأوا أن الثورة تقترب، ومنهم جريدة التايمز لسان حال البرجوازية الانجليزية الرئيسي، ولكن في هذه الحالة لم ير الضمير المثقل للصحيفة في الثروة غير الخراب والدمار بينما رأت عين انغلز الحياة الجديدة تنبثق من بين الحطام.

وجدت «حماسة انغلز الشابة» تعبيرا آخر لها عدا عن هذا الكتاب. ففي شتاء 1844-1845، كان انغلز يطرق قضبانا أخرى من الحديد في حين كان القضيب الأول لا يزال محمرا. فعدا عن إكمال الكتاب، الذي أراد له انغلز أن يكون فحسب القسم الأول من عمل أكبر يدرس التاريخ الاجتماعي لانجلترا، اقترح إصدار مجلة اشتراكية شهرية بالاشتراك مع موسى هس وإنشاء مكتبة للكتاب الاشتراكيين الأجانب ونقدا لليست، وغير ذلك. وكثيرا ما كانت خطط انغلز تتفق مع خطط ماركس الذي كان انغلز يحثه باستمرار قائلا «أنه عملك الاقتصادي، حتى ولو لم تكن راضيا عنه تماما. فهذا ليس أمرا هاما. إن عقول الناس ناضجة الآن وعلينا أن نطرق الحديد قبل أن يبرد... الوقت يمر بسرعة، أعمل على الانتهاء في نيسان. أعمل مثلما أعمل: حدد موعدا للانتهاء من العمل، ثم أعمل على طباعته بأسرع ما يمكن. وإذا كنت لا تستطيع طباعته هنا، فجرب مانهايم أو دارمشتادت أو غيرها، لكن المهم أن يظهر هذا الكتاب». ووصل الأمر بانغلز إلى حد تعزية نفسه على طول العائلة المقدسة «المدهش» بالقول أن الكتاب ليس سيئا على كل حال: «وبهذه الطريقة رأى الكثير النور بدلا من أن يظل ملقى على طاولتك ردحا من الزمن لا تعلمه إلا السماء». وكم كان على انغلز أن يرفع عقيرته محتجا على أمور شبيهة في السنوات اللاحقة.

كان انغلز نافذ الصبر عندما كان يحث ماركس على إنهاء عمله، ولكنه كان معينا بالغ الصبر عندما يتعين على العبقرية، التي تخوض نضالا قاسيا مع نفسها، أن تواجه تعاسات الحياة العملية. فما إن وصلته أنباء طرد ماركس من باريس، حتى سارع إلى افتتاح اكتتاب «لنقتسم بيننا بطريقة شيوعية كل النفقات الإضافية التي كان عليك أن تتكبدها». ويخبر انغلز ماركس بالتقدم الذي يحرزه الاكتتاب ويضيف: «لست أدري ما إذا كان المبلغ سيكفيك للإقامة في بروكسيل، ولكنني أرغب في أن أشير إلى أن المبلغ الذي سأتلقاه لقاء ذلك العمل الانجليزي سيكون بالطبع تحت تصرفك بكل سرور. على أية حال، لست بحاجة إلى هذا المبلغ لأن الرجل العجوز سيقرضني ما أحتاج إذا اضطررت إلى ذلك.

وهكذا على الأقل لن تكون للأوغاد فرصة التمتع بمضايقتك ماليا نتيجة تصرفهم المخزي». وطيلة جيل كامل، كان انغلز لا يمل في جهوده الرامية إلى الحيلولة دون الأوغاد والمتعة.

كان انغلز، الذي يبدو في رسائله أيام الشباب خفيف الظل، أبعد ما يكون عن الطيش. ولقد أثبت «ذلك العمل الانجليزي» الذي يشير إليه انغلز بلا اكتراث قيمته الأصيلة طيلة سبعين عاما. فلقد كان من تلك الكتب التي تصنع حقبة تاريخية، وكان الوثيقة الأولى للاشتراكية العلمية. وعندما كتب انغلز هذا الكتاب، كان عمره لا يتجاوز الأربعة وعشرين عاما، وكان ذلك بحد ذاته كافيا ليثير الغبار في أعين الرؤوس الأكاديمية الكبيرة، لكن موهبة انغلز لم تكن موهبة نمت بسرعة في غرفة مقفلة لتتبخر عندما تتعرض للهواء الطلق. لقد نجمت «حماسته الشابة» عن نار الفكرة العظيمة اللاهبة التي أدفأت أيام شيخوخته مثلما ألهمت شبابه.

خلال ذلك، عاش انغلز «حياة هادئة بكل وقار واحترام» في بيت والديه، حياة لا بد وأنها كانت سترضي أكثر الفلستيين مواظبة. ولكنه سرعان ما ملّها، ولم يجبره على تجربة التجارة مرة أخرى سوى «وجهي والديه الحزينين». وفي الربيع قرر أن يترك البيت ويسافر إلى بروكسيل أولا. وقد اشتدت حدة «متاعبه العائلية» نتيجة الدعاية الشيوعية في البرفلد-بارمن التي لعب فيها دورا نشيطا. وفي إحدى رسائله إلى ماركس يبلغه أن ثلاثة اجتماعات شيوعية عقدت، حضر أولها أربعون شخصا وحضر الثاني مئة وثلاثون وحضر الثالث مئتان: «يمارس الأمر جاذبية كبيرة. وليس هناك من حديث للناس غير الشيوعية، ونحن نكسب أنصارا جددا كل يوم. الشيوعية حقيقة في وبرتال، بل إنها قد أصبحت قوة فعلية» لكن هذه القوة انهارت فيما بعد بناء على طلب بسيط من الشرطة. لقد كان الوضع غريبا بالفعل، ويقر انغلز ذاته أن البروليتريا هي وحدها التي ترفعت عن هذه الحركة الشيوعية، بينما بدأ يتحمس لها أبله الناس وأكسلهم، أولئك الذين لا يهتمون في العادة إلا بأمورهم الشخصية.

لا يكاد كل هذا ينسجم مع ما كتبه انغلز في الوقت ذاته عن آفاق البروليتاريا الانجليزية، ولكن ذلك هو الرجل: فتى رائع من رأسه إلى أخمص قدميه، متأهب دائما نشيط وبعيد النظر ودؤوب، ومع ذلك فهو لا يكاد يخلو من لمسة من الطيش المحبب الذي يناسب أكثر ما يناسب الشباب الشجاع المتحمس.

الفصل الخامس

المنفى في بروكسل

1-الإيديولوجية الألمانية

ذهب ماركس وعائلته بعد طرده من فرنسا إلى بروكسل. وخشى انغلز أن تعمد السلطات في النهاية إلى إثارة المتاعب لماركس في بلجيكا أيضا. وفي الواقع جاءت المتاعب في الحال.

يكتب ماركس إلى هاينه رسالة بعد وصوله إلى بروكسل مباشرة ويخبره أن إدارة الأمن العام استدعته لتوقيع تعهد بأن ينشر أي شيء يتعلق بالسياسة البلجيكية الراهنة. ووافق ماركس على ذلك بضمير مرتاح، إذ لم يكن لديه لا نية ولا إمكانية عمل شيء من هذا القبيل. لكن ماركس تخلى رسميا عن الجنسية البروسية في السنة ذاتها، وبالتحديد في أول كانون الأول عام 1845، وذلك بعد أن استمرت الحكومة البروسية في حث السلطات البلجيكية على طرده.

لم يطلب ماركس في ذلك الحين ولا في أي فترة لاحقة جنسية أي بلد آخر، على الرغم من أن الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية منحته في ربيع عام 1848 الجنسية الفرنسية بطريقة كان فيها له الشرف كله. لم يكن ماركس مثلما لم يكن هاينه يستطيع أن يفعل شيئا من هذا القبيل، مع أن فريغارث الذي كان كثيرا ما يوضع قبالتهما كألماني حتى العظم ونقيض لامع لهذين «المتشردين بلا وطن» لم ير ما يحول دونه ودون التجنس بالجنسية الانجليزية عندما نفي إلى انجلترا.

وصل انجلز إلى بروكسل في ربيع 1845، وذهب الصديقان معا إلى انجلترا ليمكثا هناك ستة أسابيع قضياها في الدراسة. وكان ماركس خلال إقامته في باريس قد بدأ يهتم بماكلوخ وريكاردو، واستطاع خلال زيارته لانجلترا أن يتمعن بشكل أعمق في الكتابات الاقتصادية في الجزيرة الانجليزية، على الرغم من أنه لم ير في ذلك الحين «غير تلك الكتب المتوفرة في مانشستر» بالإضافة إلى المقتطفات والكتابات التي كانت في حوزة انغلز. وكان انغلز خلال إقامته الأولى في انجلترا قد أسهم في «ذي نيو مورال وورلد»، صحيفة اوين. وفي «ذي نورثرن ستار»، صحيفة الميثاقيين (الشارطيين)، فعمد خلال زيارته هذه إلى تجديد صداقاته القديمة، وقام مع ماركس بإجراء اتصالات كثيرة جديدة مع الميثاقيين والاشتراكيين.

وعندما عاد الصديقان من رحلتهما، بدآ عملا جديدا مشتركا. يذكر ماركس ذلك قائلا بإيجاز «قررنا أن نضع موقفنا المشترك سوية ضد آراء وإيديولوجية الفلسفة الألمانية، وكان ذلك في الواقع محاولة منا لتسوية حساباتنا مع ضميرنا الفلسفي السابق. ففعلنا ذلك على شكل نقد للفلسفة ما بعد الهيغلية. وكانت المخطوطة المكونة من مجلدين كبيرين في يد ناشر من وستفاليا، عندما أخبرنا بأن ظروفا طارئة جعلت نشر المخطوطة مستحيلا، وحينئذ تخلينا عن مخطوطتنا وتركناها نهبا لنقد الفئران القارص. فعلنا ذلك دون كبير أسف، فقد حققنا هدفنا الرئيسي – لقد توصلنا إلى فهم أنفسنا». وفي الواقع وصلت الفئران إلى المخطوطة لكن بقاياها تكفي كي تفسر لنا لماذا لم يشعر كاتباها بالأسى للمصيبة التي حلت بها.

لقد أثبتت تسوية حساباتهما الشاملة، بل والشاملة أكثر مما يجب، مع برونو باور أنها جوزة صلبة يصعب على قرائهما كسرها، وأتى المجلدان الضخمان اللذان يقعان سوية في قرابة ثمانمائة صفحة ليثبتا أنهما أكثر صلابة. كان عنوان الكتاب «الإيديولوجية الألمانية، نقد للفلسفة الألمانية الحديثة وممثليها: فويرباخ وبرونو باور وشتيرنر، ونقد للاشتراكية الألمانية وأنبيائها المختلفين». وقد تحدث انغلز فيما بعد من الذاكرة فقال أن نقد شتيرنر لم يكن أصغر من كتاب شتيرنر الضخم ذاته ولا شك في أن الأمثلة التي نشرت منذ ذلك الحين تثبت أن ذاكرة انغلز كانت قوية تماما. ولا يزال هذا الكتاب أكثر سجالية واستطرادا من «العائلة المقدسة» حتى في أكثر فصول هذا الأخير جفافا، والواحات في صحرائه لا تزال أكثر ندرة، مع أنها ليست مفقودة كلية، بينما ينحط العمق الجدلي، عندما يبدي نفسه، سريعا إلى المماحكة، التي يتسم بعضها بطابع صبياني نوعا ما.

صحيح أن ذوقنا فيما يتعلق بهذه المسائل قد أصبح اليوم أكثر حساسية، لكن ذلك وحده ليس تفسيرا كافيا، خاصة وأن ماركس وانغلز أثبتا من قبل وأثبتا من بعد، بل وأثبتا في الوقت نفسه أنهما قادران على النقد العميق المكثف وأن أسلوبهما يخلو من الإسهاب. لقد كان العامل الحاسم هو أن هذه الصراعات الفكرية حدثت في دائرة ضيقة جدا وأن معظم المتصارعين كانوا صغار السن، وهذه هي الظاهرة ذاتها التي شهدها التاريخ الأدبي في شكسبير ومعاصريه من الدرامائيين: ميل إلى ركوب أمواج الكلام حتى الموت، وإعطاء ما يقوله الخصوم معنى غبيا أكثر ما يمكن بالتفسير الأدبي أو بإساءته، ميل إلى المبالغة والتهور في التعبير –كل ذلك لم يكن موجها إلى عموم الجمهور بل موجها إلى الخبراء العارفين. ولا شك في أن الكثير مما لا يمكن هضمه أو حتى فهمه اليوم في فكاهة شكسبير، يمكن تفسيره بأن شكسبير كان يتأثر في عمله بوعي أو بدون بما سيقوله جرين ومارلو وبن جونسون وفلتشر عنه.

ولربما كان شيء من هذا القبيل هو ما يفسر اللهجة التي تبناها ماركس وانغلز بوعي أو بدون وعي عندما كانا يتعاملان مع باور وشتيرنر وغيرهما من الرفاق القدماء في فن الرياضة الفكرية المحضة. ولا شك في أن ما كان ماركس وانغلز سيقولانه عن فويرباخ ربما تمخض عن شيء أكثر إمتاعا لأنه سيكون أكثر من مجرد نقد سلبي محض، ولكن هذا الجزء من العمل لم يتم لسوء الحظ. ولقد كانت هناك إشارات واضحة إلى موقفهما في قول مأثور أو اثنين كتبهما ماركس عام 1845 ونشرهما انغلز بعد ذلك ببضعة عقود. إذ يشكو ماركس من أن مادية فويرباخ تفتقر إلى «مبدأ محرك» تماما مثلما اشتكى أيام دراسته الجامعية من ديمقريط. وأعلن أن هذا هو «الضعف الرئيسي في كل الماديات السابقة»: إدراك الأشياء والواقع والحسية على شكل موضوع أو فكرة فحسب وليس ذاتيا، ليس في الممارسة، ليس في النشاط الإنساني الحسي. وبالتالي تطور الجانب الايجابي بفعل المثالية ضد المادية، ولكن بصورة مجردة فقط لأن المثالية بالطبع لم تعرف أي نشاط حسي حقيقي. وبكلمات أخرى عندما تخلى فويرباخ عن هيغل، فإنه إنما تخلى عن أكثر مما يجب، بينما كان من الضروري في الواقع نقل جدليات هيغل الثورية من حيز الفكر إلى حيز الحقيقية والواقع.

عندما كان انغلز لا يزال في بارمن، كتب بجرأة إلى فويرباخ ليكسبه إلى جانب الشيوعية، فرد هذا بلهجة ودية ولكن بالسلب. وكان فويرباخ يتوقع أن يذهب إلى الراينلاند في الصيف، فقرر انغلز أن يحثه على الذهاب إلى بروكسل، وخلال ذلك أرسل انغلز هيرمن كريغ أحد تلامذة فويرباخ إلى ماركس واصفا إياه بأنه «محرض رائع».

غير أن فويرباخ لم يذهب إلى الراينلاند، وتبين أعماله اللاحقة أن الأوان قد فات ليتلخص من «قوقعته القديمة». كذلك فشل تلميذه كريغ، فقد قام هذا بدعاية شيوعية عبر الأطلنطي ولكنه أحدث في نيويورك أذى بالغا انعكست آثاره على الجماعة الشيوعية التي كان ماركس قد بدأ يجمعهما حوله في بروكسل.

2-«الاشتراكية الحقة»

كان القسم الثاني من العمل الذي خطط له ماركس وانغلز سيعالج الاشتراكية الألمانية وأنبيائها المختلفين ويحلّ «أدب الاشتراكية الألمانية العقيم كله».

كان هذا الهجوم موجها ضد أناس مثل موسى هس وكارل غرون واوتو لوينيغ وهيرمان بوتمان وغيرهم ممن خلقوا أدبا محترما خاصة في المجلات. كان هناك «غيلشافتسشبيغل» التي ظهرت شهريا من صيف 1845 إلى صيف 1846، و«راينخيه ياربشر» و«دويتشه بورغربوش» اللتين ظهرتا في 1845 و1846، و«وستفالشه دامبغبوت» وهي مجلة شهرية ظهرت أولا في 1845 واستمرت خلال الثورة الألمانية. وأخيرا كان هناك صحيفة أو اثنتان يوميتان مثل «ترييرشه تزايتونغ».

كانت الظاهرة الغريبة التي أسماها كارل غرون «الاشتراكية الحقة»، وهو تعبير تبناه ماركس وانغلز فيما بعد بسخرية، قصيرة العمر. فما أن أتى عام 1848، حتى لم يبق من آثارها شيء عمليا، واختفى ما تبقى منها تماما حالما انطلقت أول رصاصة في الثورة. ولم تمارس هذه الاشتراكية أي أثر على تطور ماركس، الذي كان ناقدها منذ البداية، لكن الحكم القاسي الذي يصدره عليها في «البيان الشيوعي» لا يلخص موقفه تجاهها. فقد كان في الوقت الذي نحن بصدده يعتبرها خليطا، يمكن أن ينجم عنه رغم كل سخافاته شيء له قيمته، بل أن انغلز كان يعتنق هذا الرأي بقدر أكبر من الصلابة.

تعاون انغلز مع موسى هس في إصدار «غيلسافتشبيغل»، كما أن ماركس قدم لها مساهمة واحدة. كذلك تعاون كل من ماركس ونغلز مع هس في مناسبات عديدة خلال فترة بروكسل، وبدا في وقت ما أن هس قد تبنى أفكارهما كليا. وحاول ماركس بلا كلل أن يقنع هاينه بالكتابة في «راينخه ياربشر»، في حين نشرت هذه الصحيفة وكذلك «دويتشه بيرغربش»، اللتين كان يصدرهما بوتمان، مقالات لانغلز. كما أن ماركس وانغلز قدما مساهمات لـ«وستفاليشه دامبغبوت»، التي نشرت جزءا من القسم الثاني من «الإيديولوجية الألمانية». وكان هذا الجزء نقدا حادا وشاملا لكتاب أصدره كارل غرون وعالج فيه الحركة الاشتراكية في فرنسا وبلجيكا.

لقد أدى كون «الاشتراكية الحقة» نجمت عن انحلال الفلسفة الهيغلية، إلى القول بأن ماركس وانغلز كانا في البداية من أتباعها، وأنهما لهذا السبب انتقداها بقدر كبير من الحدة فيما بعد، ولكن ذلك لم يكن صحيحا. فقد كان الفرق بين ماركس وانغلز من وجهة وأنصار «الاشتراكية الحقة» من جهة أخرى يكمن في أنه على الرغم من أن الجانبين وصلا إلى الاشتراكية انطلاقا من هيغل وفويرباخ، إلا أن ماركس وانغلز درسا طبيعة الاشتراكية انطلاقا من الثورة الفرنسية والصناعة الانجليزية، بينما قنع أنصار «الاشتراكية الحقة» بترجمة معادلات وشعارات اشتراكية إلى «الألمانية الهيغلية المنحلّة». وقد حاول ماركس وانغلز ما وسعهما من جهد لرفع «الاشتراكية الحقة» فوق هذا المستوى، وكانا في الوقت ذاته عادلين بما فيه الكفاية ليدركا أن هذا الاتجاه كله ليس إلا نتاجا للتاريخ الألماني. وكان مما يدغدغ غرور غرون وأصدقائه أن يقارن تفسيرهم للاشتراكية كتأمل خامل في إدراك السلوك الإنساني بأن كانط لم يفهم التعبير عن إرادة الثورة الفرنسية الكبرى إلا على انه قانون الإرادة الإنسانية حقا.

لم يكن ماركس وانغلز يفتقران إلى الصبر والجلد في جهودهما التعليمية الرامية إلى تحسين «الاشتراكية الحقة». فقد تغاضى انغلز خلال تعاونه مع هس في «غيشافتشبيغل» عن كثير من الأمور، مع أن ذلك لم يكن ليمر بسهولة، أما في «دويتشه بيرغربش» فقد جعل الأمور صعبة لـ«الاشتراكيين الحقين»: «بعض من الإنسانية، كما بدأوا يسمون الأمر، وقليل من الإدراك لهذه الإنسانية، أو بالأحرى الوحشية، وقليل عن الملكية –بغير الكثير من الاكتراث- وبعض النواح البروليتاري، وتنظيم العمل، وتشكيل جمعيات حقيرة لرفع الطبقات الدنيا، بالإضافة إلى

جهل كامل بالاقتصاد والطبيعة الحقيقية للمجتمع- هذا كل ما في الأمر، وحتى عندئذ يفقد الأمر كل ما فيه من الحياة وكل أثر بقي لديه من الطاقة والحيوية، بفضل الحياد النظري و«وهدوء الفكر المطلق، وبهذه المادة المتعبة، يريدون أن يثوروا ألمانيا، ويحركوا البروليتاريا ويجعلوا الجماهير تفكر وتعمل!». كان التقدير للبروليتاريا والجماهير هو ما حدد موقف ماركس وانغلز من «الاشتراكية الحقة». فهاجما كارل غرون بعنف أكثر مما هاجما ممثلي هذه «الاشتراكية» الآخرين، لا لأنه كان يعطيهما أفضل الفرص لذلك فحسب، بل لأنه كان يعيش في باريس مسببا تشوشا بالغا بين العمال وممارسا أثرا مدمرا على برودون. وعندما فصل ماركس وانغلز نفسيهما بحدة عن «الاشتراكية الحقة» في «البيان الشيوعي»، حتى أنهما أشارا بوضوح إلى صديقهما السابق موسى هس، فإنهما إنما فعلا ذلك لأنهما كانا به يفتحان الطريق أمام التحريض العملي للبروليتاريا العالمية.

ولبرما كان ماركس وانغلز على استعداد لأن يصفحا «للاشتراكية الحقة» «سذاجتها المدرسية»، التي مارست بها «أعمالها البدائية بهذا الجد وذاك الوقار، وأخرجتها إلى العالم بكثير من الضجيج»، ولكنهما بالتأكيد لم يكونا ليصفحا عن استعدادها المدّعي لدعم الحكومة. فقد ادعت أن نضال البرجوازية ضد الحكم المطلق والإقطاع قبل اذار يعطيها «الفرصة المبتغاة» لمهاجمة المعارضة الليبرالية في الظهر. «لقد خدمت الحكومات المطلقة الألمانية، وخدمت أتباعها من الكهنة ومديري المدارس والبيروقراطيين الأجلاف، إذ لعبت دور غراب ناعق ضد الخطر الذي يمثله تقدم البرجوازية. وشكلت السكر الذي حلّى الصوت المر والطلقات التي أخضعت بها تلك الحكومات ذاتها انتفاضة العمال الألمان». كان هذا مبالغة كبيرة في الواقع وإجحافا بحق الأشخاص المعنيين.

فقد أوضح ماركس ذاته في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» أن خصوصية الظروف في ألمانيا جعلت من المستحيل على البرجوازية أن تنتفض ضد الحكومة دون أن تتعرض هي ذاتها إلى الهجوم على مؤخراتها من البروليتاريا، معلنا أن واجب الاشتراكية يصبح لذلك دعم الليبرالية حيث كانت لا تزال ثورية ومعارضتها حيث أصبحت رجعية. غير أن هذا الواجب لم يكن من السهل القيام به بتفاصيله حتى أن ماركس وانغلز نفسهما دافعا أحيانا عن الليبرالية على أنها لا تزال ثورية بينما كانت قد أصبحت في الواقع رجعية، بينما أخطأ «الاشتراكيون الحقون» في الاتجاه المعاكس وشجبوا الليبرالية بكاملها، وكان ذلك بالطبع عملا يتفق مع مصالح الحكومات الألمانية. وكان المخطئ الأكبر في هذا المجال هو كارل غرون، لكن موسى هس لم يكن مصيبا، بينما كان اوتو لوينغ الذي كان يحرر «وستفاليشه دامبغبوت» أقلهم خطأ. وعلى أية حال كانت أخطاؤهم بهذا الخصوص نتيجة الغباء والافتقار إلى الحكم الصائب، ولم تكن ناجمة عن أي رغبة في دعم الحكومات. وفي الثورة التي أصدرت حكم الإعدام على كل أوهامهم، كانوا جميعا وبلا استثناء على يسار البرجوازية، هذا إذا لم نذكر موسى هس الذي قاتل في صفوف الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. ولم ينتقل أي من «الاشتراكيين الحقين» إلى معسكر الأعداء وفي هذا المجال سجلوا أنصع سجل من بين كل الاتجاهات الاشتراكية البرجوازية في تلك الأيام.

بالإضافة إلى ذلك كانوا يكنون عظيم الاحترام لماركس وانغلز ويضعون نشراتهم عن طيب خاطر تحت تصرف الصديقين، حتى عندما هزمت «الاشتراكية الحقة» شر هزيمة. ومن الواضح أنهم لم يخلعوا عنهم جلودهم القديمة نتيجة حقد دفين بل نتيجة افتقار إلى الفهم. لكنهم لسوء الحظ كانوا يؤمنون بأن الأمور يجب أن تسير بهدوء ودونما ضجة، وكانوا يشعرون أن حزبا شابا لا يستطيع أن يعمد إلى الانتقاء وان النقاشات عندما تصبح محتمة يجب أن تجري بكل لياقة وذوق. وشعروا على وجه الخصوص أن أناسا مثل باور وروغه وشتيرنر يجب أن يعاملوا باحترام. ولذا كان من الطبيعي أن يثيروا حفيظة ماركس الذي قال مرة: «أن من السمات المميزة لتلك النسوة العجائز أنهن يقاتلن على الدوام لتزيين وتحسين صورة كل الخلافات الحزبية الحقيقية». غير أن أفكار ماركس الصلبة في هذا الموضوع لاقت تفهما هنا وهناك حتى في صفوف «الاشتراكية الحقة» فمثلا أصبح جوزف وايدماير الذي كان قريبا للونينغ بالمصاهرة والذي ساعده في تحرير صحيفته أحد أخلص أنصار ماركس وانغلز.

كان وايدماير ملازما في سلاح المدفعية البروسي ولكنه ترك العسكرية بسبب معتقداته السياسية. وعمل محررا مساعدا في «تريرشه تزايتونغ» التي كانت واقعة تحت تأثير كارل غرون، فوقع في شراك «الاشتراكيين الحقين». وفي ربيع عام 1846 ذهب إلى بروكسل. ونحن لا نعلم ما إذا كان قد فعل ذلك كي يقابل ماركس وانغلز. ولكنه على أية حال قابلهما وأصبح بسرعة صديقا لهما، ووقف بصلابة في وجه جوقة الاحتجاج الذي نشب في صفوف «الاشتراكيين الحقين» على عدم صدق النقد الذي مارسه ماركس وانغلز، على الرغم من أن عديله لونينغ ساهم في هذا الاحتجاج. ولد وايد ماير في وستفاليا، فكان له بعض من ذلك السلوك الهادئ بل البطيء ولكن المخلص والجريء الذي يعزوه الناس لأبناء بلاده. ولم يصبح أبدا كاتبا ذا موهبة بارزة، وعندما عاد إلى ألمانيا عمل كمساح في بناء سكة حديد كولون-مندن، في القوت الذي كان يساعد فيه على تحرير «وستفاليشه دامبغوت» في أوقات فراغه. وصار وايدماير الآن يسعى بشخصيته العملية لمساعدة ماركس وانغلز في مواجهة صعوبة كانت تزداد صعوبتها باستمرار، تلك هي صعوبة الحصول على ناشر.

كانت «لترااليشي كونتور» في زيوريخ مقفلة الأبواب أمام ماركس وانغلز بسبب الضغينة الذي كان يحملها روغه لهما. وكان هذا الأخير يعرف جيدا أن ماركس لا يكتب شيئا يفتقر إلى الجودة، ولكنه عمليا استخدم التهديد لمنع شريكه فروبل من التعامل مع ماركس. هذا في الوقت الذي كان فيه ويفاند في لايبزيغ، وهو الناشر الرئيسي للهيغليين الشباب، قد رفض نشر نقد لباور وفويرباخ وشتيرنر. ولذا فتح وايدماير مجالا رحبا عندما اقنع شيوعيين غنيين في وستفاليا هما يوليوس ماير ورنبل بالموافقة على رصد الأموال اللازمة لتأسيس دار نشر تبدأ نشاطاتها بثلاثة مشاريع: الإيديولوجية الألمانية وسلسلة من الكتب للكتّاب الاشتراكيين ومجلة فصلية يحررها ماركس وانغلز وهس.

لكن عندما جد الجد تراجع الرأسماليان عن وعدهما على الرغم من أنهما كانا في هذه الأثناء قد أكده لموسى هس، إذ نشأت «صعوبات مالية» في اللحظة المناسبة تماما لشل روح التضحية الذاتية الشيوعية لديهما. كانت النتيجة خيبة أمل مريرة لماركس وانغلز زاد من حدتها أن وايدماير فشل في جهوده لنشر الإيديولوجية الألمانية في أي مكان آخر، فتم التخلي عن هذا الكتاب إلى الأبد ليذهب ضحية لنقد الفئران القارص.

3- ويتلنغ وبرودون

كانت النقاشات التي ثارت الآن بين ماركس والمنظرين البروليتاريين اللامعين، اللذين كان لهما أبلغ الأثر على تطور ماركس المبكر، أكثر تأثيرا بما لا يقارن من وجهة النظر الإنسانية واكبر أهمية بكثير من وجهة النظر السياسية من الانتقادات التي وجهها ماركس إلى فلاسفة ما بعد هيغل وإلى «الاشتراكيين الحقين».

ولد كل من ويتلينغ وبرودون في صفوف البروليتاريا. وكان كلاهما يتمتعان بشخصية قوية صحيحة، كما كانا موهوبين. وبالإضافة إلى ذلك واتتهما الظروف الخارجية بشكل كان يمكنهما من أن يكونا من بين تلك الاستثناءات التي تطري ما يردده الجهلة المدّعون من أن الباب إلى صفوف الطبقات المالكة مفتوح لمن كان يملك موهبة حقيقية من أبناء الطبقة العاملة. ولكن الرجلين رفضا باحتقار أن يسلكا هذا الطريق، واختارا الفقر طواعية وكرسا نفسيهما للنضال من أجل طبقتهما والمضطهَدين من رفاقهما.

كان كل منهما ذا بنية قوية صحيحة مملوءة بالحياة، وكأنهما قد خلقا ليتمتعا بما في الحياة من أشياء جميلة، لكنهما عوضا عن ذلك اختارا معاناة أقسى صنوف الحرمان بسرور كي يتمكنا من متابعة طريقهما. «سرير متواضع، وأحيانا كثيرة ثلاثة أشخاص في الغرفة ذاتها، وقطعة مسطحة من الخشب تستخدم كطاولة للكتابة، وكوب من القهوة السوداء بين الحين والآخر». كانت هذه هي الحياة التي يعيشها ويتلينغ في وقت كان فيه ذكر اسمه كافيا لبث الهلع في نفوس العظماء في الأرض. وكان برودون يعيش في ظروف مشابهة في علّية في باريس «يلبس معطفا من الصوف وقدماه في قبقاب خشبي» في وقت كان فيه يتمتع بشهرة تعم القارة الأوربية.

ساهمت الثقافتان الفرنسية والألمانية في تكوين كل من الرجلين. فقد كان ويتلنغ ابنا لضابط فرنسي، وعندما شب عن الطوق سارع بالذهاب إلى باريس ليدرس الاشتراكية الفرنسية من منبعها. أما برودون فكان من مقاطعة بيرغندي الحرة التي ضمتها فرنسا أيام لويس الرابع عشر. وقد أعلن شركاؤه على الدوام أن لديه رأس ألماني-وأحيانا رأس ألماني قاس. ولكن، وبطريقة أو بأخرى، ما أن استفاق برودون على النشاط الفكري حتى بعد وجد نفسه ينجذب إلى الفلسفة الألمانية، التي لم يكن ويتلينغ يعتبر ممثليها أكثر من «مشوشين»، بينما شجب برودون بقسوة الطوباويين العظام الذين كانوا يعنون الكثير لويتلينغ.

اقتسم الرجلان الشهرة ذاتها والمصير ذاته. فقد كانا أول ابنين من أبناء البروليتاريا الحديثة قدما برهانا تاريخيا على رجاحة فكر البروليتاريا وقوته، وبرهنا على أن البروليتاريا تستطيع أن تحرر نفسها، وكانا أول من حطم الدائرة المفرغة التي وجدت البروليتاريا والاشتراكية نفسيهما يدوران فيها. ولذا، فقد افتتحا، إلى حد ما، حقبة جديدة، وكانت أعمالهما نموذجية مارست تأثيرا مثمرا على تطور الاشتراكية العلمية. ولم يمتدح أحد بدايات ويتلينغ وبرودون بأكرم مما امتدحها ماركس. فقد رأى ما أعطاه إياه التحليل النقدي للفلسفة الهيغيلة وما توصل إليه عبر التفكير التأملي مجسدا في الحياة الحقيقية ببرودون وويتلينغ.

ولكن وعلى الرغم من كل ألمعيتهما وبعد نظرهما، لم يستطع ويتلينغ أن يتخطى الحرفي الألماني، كما لم يستطع برودون أن يتخطى البرجوازية الصغيرة الفرنسية، وهكذا سرعان ما افترقا عن الرجل الذي أتم بصورة رائعة ما بدآه. ولم يكن ذلك نتيجة غرور شخصي أو دغماتية متصلبة من جانب برودون وويتلينغ، على الرغم من أن هذين العاملين لعبا بعض الدور عندما أصبحا يشعران أن دفق التطور التاريخي يدفعهما هنا وهناك. ومناقشاتهما مع ماركس تشهد أنهما بكل بساطة لم يستطيعا تبين ما كان ماركس يحاول الوصول إليه. لقد كانا ضحية الوعي الطبقي المحدود الذي كان له على الرجلين أكبر الأثر، خاصة وأنه أثر عليهما دون وعي منهما.

وصل ويتلينغ إلى بروكسل في بداية عام 1846. فبعد أن وصل التحريض الذي مارسه في سويسرا إلى طريق مسدود، جزئيا بسبب الخلافات الداخلية وجزئيا بسبب القمع الوحشي الذي مارسته السلطات، غادر ويتلينغ إلى لندن، ولكنه هناك أيضا لم يستطع التوافق مع أعضاء «عصبة العادلين». وقد أدت جهوده ليخلص نفسه من مصير قاس باللجوء إلى الغطرسة النبوية إلى زيادة الحال سوءا على سوء بدلا من أن تؤدي به إلى التحسن. وعلى الرغم من أن أمواج التحريض الميثاقي (الشارتي) كانت ترتفع صاخبة في انجلترا في ذلك الحين، إلا أنه لم يندفع إلى خضم حركة الطبقة العاملة الانجليزية، بل عمد بدلا من ذلك إلى تركيز اهتمامه على وضع نظام جديد في الفكر والكلام هادفا إلى تأسيس لغة عالمية. وهكذا اندفع دون تقدير للعواقب إلى محاولة القيام بمهام لم تكن قدراته ومعرفته تؤهله لها، ونتيجة لذلك وقع في عزلة فكرية فصلته أكثر فأكثر عن المصدر الحقيقي لقوته، عن حياة البروليتاريا.

كانت رحلة ويتلينغ إلى بروكسل أفضل ما كان يستطيع أن يأتيه، ذلك أنه إذا كان هناك من يستطيع أن ينقذه فكريا فهو ماركس. وقد استقبل ماركس ويتلينغ بحفاوة، وهذا ما لا يشهد به انغلز وحده بل يشهد به ويتلينغ نفسه أيضا. غير أن أي اتفاق فكري بين الرجلين كان مستحيلا، وفي اجتماع عقده الشيوعيون في بروكسل في 30 آذار 1846 نشب بينهما خلاف عنيف. ولا شك في أن ويتلينغ ضايق ماركس كثيرا، كما تشهد على ذلك رسالة أرسلها ماركس إلى موسى هس. فقد كانت المفاوضات تجري لتأسيس دار نشر جديدة، فما كان من ويتلينغ إلا أن ألمح إلى أن ماركس وأصدقاءه كانوا يحاولون قطع الصلة بينه وبين «المصدر المالي» لكي يستأثروا لأنفسهم «بالترجمات ذات السعر المرتفع»، لكن ماركس، حتى بعد أن وقع ما وقع، فعل كل ما يستطيع لمساعدة ويتلينغ. وقد أعلن موسى هس في رسالة أرسلها لماركس في 6 أيار، بناء على ما قاله له ويتلينغ نفسه: «لقد كان من المتوقع أن لا يبلغ بك أعداؤك نحوه حد إقفال حافظة نقودك في وجهه ما دام فيها شيء». وفي الواقع لم يكن في الحافظة غير القليل.

بعد ذلك ببضعة أيام، دفع ويتلينغ الأمور نحو الشقاق الكامل. فقد كانت الدعاية التي يقوم بها كريغ في أمريكا مخيبة لآمال ماركس وانغلز. إذا أن «فولوكس تريبون» الأسبوعية التي كان يصدرها كريغ في نيويورك عمدت إلى نشر دعاية عاطفية دافقة بطريقة صبيانية ومتعجرفة، ولم تكن هذه الدعاية تمت بصلة إلى المبادئ الشيوعية، وكانت تميل إلى الحط من معنويات الطبقة العاملة. والأسوأ من ذلك أن كريغ بدأ يرسل رسائل غريبة إلى أثرياء أمريكيين يسألهم فيها مد يد المعونة المالية إلى الصحيفة. ولما كان كريغ يقدم نفسه على انه ممثل الشيوعية الألمانية في أمريكا، صار لدى ممثلي هذه الشيوعية الحقيقيين ما يدعوهما إلى الاحتجاج على هذا الارتباط الضار.

وفي 16 أيار قرر ماركس وانغلز وأنصارهما كتابة احتجاج مفصل وإرساله إلى صحيفة كريغ لنشره، وفي الوقت ذاته إرساله إلى كل المتعاطفين معهم. وكان ويتلينغ هو الوحيد الذي رفض أن يشارك في الاحتجاج ، وسعى إلى تبرير موقفه بحجج واهية: «فولكس تريبون» هي في النهاية صحيفة شيوعية وهي مناسبة للظروف الأمريكية، والشيوعيون مجابهون في أوربا بأعداء أقوياء يغنونهم عن البحث عن المتاعب في أمريكا وخاصة مع رفاقهم بالذات الخ. لكن ويتلينغ لم يكتف برفضه فحسب، بل كتب رسالة إلى كريغ يحذره من أولئك الذين وقعوا الاحتجاج ويصفهم بأنهم «متآمرين خبثاء». «ليس للعصبة التي تتمرغ في النقود والتي تتكون من بعضة أشخاص، من عمل سوى مقارعتي، أنا الرجعي. فعلي أن أنقّي أولا ثم ينقى الآخرون ثم أصدقاؤهم، وفي النهاية لن يجدوا ما يفعلون سوى أن يجزوا رقابهم هم أنفسهم... والآن تتدفق النقود لعمل من هذا النوع، في حين أنني لا أجد حتى ناشرا. وأنا وهس وحدنا في هذا الجانب، ولكن هس يعاني أيضا من المقاطعة». وبعد ذلك قاطع هس أيضا الرجل المخدوع.

نشر كريغ احتجاج شيوعيي بروكسل، كما نشره ويدماير في «وستفاليشه دامبغبوت». لكنه نشر أيضا رسالة ويتلينغ أو على الأقل أسوأ أجزائها، ثم اقنع رابطة الإصلاح الاجتماعي، وهي منظمة للعمال الألمان في ويتلينغ اختارت صحيفة كريغ ناطقة باسمها، أن تعين ويتلينغ رئيسا للتحرير وأن ترسل له تكاليف السفر. وافق ويتلينغ واختفى من أوربا.

وفي الشهر ذاته، أيار، اقترب الشقاق بين ماركس وبرودون. فقد كان ماركس وأصدقاؤه يعوضون عن افتقارهم إلى صحيفة ناطقة باسمهم بطباعة وتوزيع عدد من التعاميم، كما في حادثة كريغ، وكانوا في الوقت ذاته يسعون إلى إقامة اتصالات دائمة بالمراسلة بين المدن الكبيرة المختلفة التي يوجد فيها جماعات شيوعية. وكان هناك مكتبان للمراسلة، أحدهما في بروكسل والآخر في لندن، واستقر الرأي على إنشاء مكتب ثالث في باريس، ولذا كتب ماركس إلى برودون يسأله أن يتعاون في ذلك. وفي 17 أيار 1846 أرسل برودون رسالة من ليون يوافق فيها على ذلك، ويوضح في الوقت ذاته أنه لن يستطيع الكتابة كثيرا. وفي الرسالة ذاتها ألقى برودون على ماركس موعظة أخلاقية كشفت لماركس عمق الفجوة التي تفصل بينهما.

تبنى برودون موقفا «معاديا للدغماتية بصورة مطلقة» فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية، ونصح ماركس أن لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه مواطنه لوثر، الذي بادر بعد الإطاحة باللاهوت الكاثوليكي إلى تأسيس لاهوت برتستانتي مصحوبا بعدد ضخم من قرارات الحرمان. «علينا أن لا نشغل الإنسانية من جديد بخلق تشوش جديد. ولنعمد بدلا من ذلك إلى ضرب مثل في التسامح الحكيم بعيد النظر. علينا أن لا نلعب دور حواريي دين جديد حتى ولو كان هذا الدين دين العقل والمنطق». وبكلمات أخرى، كان برودون، مثل «الاشتراكيين الحقين» يريد الإبقاء على التشوش السار الذي اعتبر ماركس أن إلغاءه شرط أولي لأي دعاية شيوعية حقيقية.

كذلك تخلى برودون عن الثورة التي طالما آمن بها: «أفضل أن أحرق الملكية بنار بطيئة عوضا عن إعطائها قوة جديدة بمذبحة للملاك». وأعلن أنه أعطى تفسيرا مفصلا لكيفية حل هذه المسألة في كتاب يجري طبعه ووعد أن يضع هذا الكتاب بسرور في متناول نقد ماركس كي يعطيه فرصة الانتقام. «وبالمناسبة أود أن أبدي ملاحظة هي أن الوضع في رأيي كالتالي: عطش البروليتاريين في فرنسا للمعرفة عظيم، ولا شك في أن استقبالنا من جانبهم سيكون سيئا إذا لم نقدم لهم ما يشربون سوى الدم». ثم ينتقل برودون إلى الدفاع عن كارل غرون الذي كان ماركس قد حذره من هيغليته المشوهة. وقد كان برودون لجهله باللغة الألمانية يعتمد على غرون وايوربك في دراساته لهيغل وفورياخ وماركس وانغلز. وأخبر برودون ماركس أن غرون ينوي ترجمة كتاب برودون الأخير إلى الألمانية، وطلب من ماركس أن يساعد في توزيعه، مضيفا أن ذلك سيكون مشرفا لكل من له علاقة بالأمر.

تكاد نهاية رسالة بردون تبدو هزءا وسخرية على الرغم من أنها ربما لم تكن مقصودة، لكن ماركس على أية حال لم يكن ليجد ما يسره في أن يوصف بأنه متعطش للدماء بالكلام المزدهي الذي وصفه به برودون، وبالتالي أثارت فيه أعمال غرون قدرا أكبر من الشك. كان هذا أحد الأسباب التي دعت انغلز إلى اتخاذ قرار بالذهاب إلى باريس في آب 1846، ذلك أن باريس كانت لا تزال أهم مركز للدعاية الشيوعية. وكان من الضروري أخبار شيوعيي باريس مباشرة بالشقاق مع ويتلينغ وبمهزلة دار النشر في وستفاليا وغير ذلك من المسائل التي أثارت غبار الشك، خاصة وأن ايوربك كان غير موثوق وبيرنز أقل جدارة بالثقة.

كانت التقارير التي أرسلها انغلز من باريس، بعضها إلى مكتب المراسلة في بروكسل وبعضها الآخر إلى ماركس شخصيا، تبدو متفائلة في البداية، ولكنه تدريجيا وصل إلى نتيجة هي أن غرون قد أفسد الوضع كله.

ظهر العمل الذي يذكره برودون في رسالته في خريف السنة ذاتها، وأدى في أن الواقع ببرودون إلى المستنقع، كما كانت تشير إلى ذلك رسالته. فما كان من ماركس إلا أن باشر بشحذ سيف نقده تماما كما دعاه برودون، لكن كل الانتقام الذي تلقاه برودون كان إلى حد ما سبابا مباشرا.

4- المادية التاريخية

وضع برودون عنوانا لكتابه «نظام التناقضات الاقتصادية»، ووضع له عنوانا فرعيا هو «فلسفة البؤس»، ولذا وضع ماركس عنوانا لرده هو «بؤس الفلسفة» وكتبه بالفرنسية ليصيب خصمه إصابة محققة. لكن ماركس في الواقع لم ينجح. ذلك أن تأثير برودون على الطبقة العاملة الفرنسية وعلى بروليتاريي البلدان اللاتينية الجديدة ارتفع بدلا من أن يهبط، فكان على ماركس أن يقوم لعدة عقود قادمة بمناهضة البرودونية.

لكن ذلك لم يقلل بشيء لا من القيمة المباشرة لرد ماركس ولا من أهميته التاريخية. فقد شكل الرد علامة بارزة في حياة مؤلفه وفي تاريخ العلم الاجتماعي. ففي هذا الكتاب، طورت لأول مرة علميا العوامل الحاسمة في المادية التاريخية، ففي كتابات ماركس قبل ذلك نجد هذه الأفكار تلمع هنا وهناك كشهب معزولة، وفي كتاباته بعد ذلك جمع ماركس هذه الأفكار في شكل مكثف موجز، ولكنه في رده على برودون طورها منهجيا بكل الوضوح المقنع الذي يتطلبه السجال المنتصر. لقد كانت أعظم خدمة أداها ماركس هي تطوير المادية التاريخية، فقد كانت هذه بالنسبة للعلوم التاريخية ما كانته نظريات داروين بالنسبة للعلوم الطبيعية.

كانت لانغلز حصة في هذا العمل. وكانت هذه الحصة أكبر مما يسمح له تواضعه أن يعترف به، ولكنه يعزو وضع الفكرة الأساسية في صورتها الكلاسيكية إلى ماركس وماركس وحده، ولربما كان على حق في ذلك. وهو يصف كيف ذهب إلى بروكسل في ربيع 1845، وكيف وضع ماركس حينذاك الفكرة الأساسية للمادية التاريخية أمامه بشكلها النهائي المطور، بالتحديد أن الإنتاج الاقتصادي في كل فترة تاريخية والبنية الاجتماعية التي تنمو عنه بالضرورة هما ما يشكل أساس التاريخ السياسي والفكري لتلك الفترة، ونتيجة لذلك، فإن التاريخ كله إنما كان تاريخ صراعات طبقية، صراعات بين المستغِلين والمستغَلين، بين المحكومين والطبقات الحاكمة في المراحل المختلفة عن التطور الاجتماعي، وأن هذه الصراعات قد وصلت الآن مرحلة لم تعد فيها الطبقة المستغَلة والمضطهدة، وهي البروليتاريا، تستطيع تحرير نفسها من الطبقة المستغِلة والمضطهدة، البرجوازية، إلا بتحرير المجتمع كله في الوقت ذاته من الاستغلال والاضطهاد.

هذه هي الفكرة الأساسية في رد ماركس على برودون، والبؤرة التي تشع منها آلاف من خيوط الضوء. وأسلوب الرد واضح وقاطع بشكل رائع، يناقض بقوة الاستطراد الذي يرهق قارئ المساجلات مع برونو باور وماكس شتيرنر. فهذه المرة، لا يدفع المركب ويجر عبر مستنقع موحل، بل يسير حثيثا في بحر مفتوح والنسمات الفتية تملأ أشرعته.

يقسم الكتاب إلى قسمين. ويقول لاسال أن ماركس يبدو في أولهما ريكاردو وقد تحول إلى اشتراكي، ويبدو في ثانيهما هيغل وقد تحول إلى شيوعي. كان ريكاردو قد أثبت أن تبادل السلع يتم في المجتمع الرأسمالي على أساس وقت العمل الذي استهلك في صناعة هذه السلع. وطالب برودون بأن «تشكل هذه القيمة» بحيث يتم تبادل نتاج منتج آخر يحتوي على الكمية ذاتها من وقت العمل، ويتم إصلاح المجتمع بأن يتحول كل أفراده إلى عمال يتبادلون كميات متماثلة من العمل. وكان الاشتراكيون الانجليز قد استخلصوا هذه النتيجة «المساواتية» من نظرية ريكاردو، وحاولوا وضعها موضع الممارسة، لكن «المصارف التبادلية» التي أقاموها سرعان ما اندثرت.

وهنا أوضح ماركس أن «النظرية الثورية» التي ظن برودون أنه اكتشفها لتحرير البروليتاريا، ليست في الواقع سوى معادلة عبودية الطبقة العاملة الحديثة. ذلك أن ريكاردو طور منطقيا قانونه في الأجور على أساس قانونه في القيمة: أن قيمة قوة العمل في سلعة ما يتحدد بكمية الوقت الضروري للحصول على المنتجات التي يحتاجها العامل ليحيا هو ذاته وليخلد نوعه. إنه لوهم برجوازي أن يتخيل المرء تبادلا فرديا دون تناقضات طبقية، أو أن يفترض في المجتمع البرجوازي إمكانية نشوء حالة من العدالة الأبدية والانسجام لا تمكن أحدا من الأثرياء على حساب الآخرين.

ويصف ماركس التطور الحقيقي للأمور بالكلمات التالية: «مع بداية الحضارة، يبدأ الإنتاج في إقامة نفسه على نقيض الوظيفة والوضع الاجتماعي والطبقة، وفي النهاية على نقيض العمل المتراكم والمباشر. وبدون النقيض لا يمكن أن يكون هناك تقدم، ولقد أدركت الحضارة هذا القانون حتى يومنا هذا. وحتى الآن، طورت قوى الإنتاج على أساس سيطرة التناقضات الطبقية هذه». ظن برودون بنظريته في «القيمة المكوَّنة» أنه يؤمن للعامل النتاج المتزايد للعمل اليومي الناجم عن تقدم العمل الاجتماعي، لكن ماركس أوضح أن تطور قوى الإنتاج، الذي سمح للعمال الانجليز أن ينتجوا في الانجليز 1840 ما يعادل سبعة وعشرين مرة أكثر مما كانوا ينتجون في 1770، اعتمد على ظروف تاريخية قائمة على التناقضات الطبقية: تراكم رأس المال الخاص والتقسيم الحديث للعمل والتنافس الفوضوي ونظام الأجر. ولإنتاج العمل الفائض، لا بد أن تكون هناك طبقة تربح وأخرى تخسر.

وقدم برودون الذهب والفضة كأول مثلين على «القيمة المكونة»، معلنا أنهما أصبحا نقودا نتيجة تكريسهما الحر على أيدي رجال أحرار. فأجاب ماركس، كلا إطلاقا. ليست النقود شيئا بحد ذاتها، بل هي علاقة اجتماعية وهي كالتبادل الفردي تعكس نمطا معينا محددا من الإنتاج. «في الواقع، إنه لا بد من جهل مطبق بالتاريخ كي لا يعرف المرء أن الحكام ذوي السيادة كانوا مجبرين في كل الأوقات على الخضوع للشروط الاقتصادية، وأنهم لم يستطيعوا أبدا إملاء قوانين على هذه الشروط ولا يفعل التشريع المدني والسياسي شيئا غير إدراك وترسيم إرادة الشروط الاقتصادية... إن القانون ليس إلا إدراك الحقيقة». والخاتم الرسمي على النقود يعطيها وزنها، ولا يعطيها قيمتها. والذهب والفضة، بسبب من الدور الذي يلعبانه كعلامة للقيمة، هما الوحيدان من بين كل السلع اللذان لا يتحددان بكلفة إنتاجهما، واللذان أمكن استبدالهما في التبادل بالعملة الورقية، كما أوضح ريكاردو منذ زمن بعيد.

وأشار ماركس إشارة طفيفة إلى الهدف النهائي للشيوعية عندما أوضح أن «التوازن الصحيح بين العرض والطلب» الذي يبحث عنه برودون لم يكن ممكنا إلا في الأوقات التي كانت فيها وسائل الإنتاج محدودة، عندما كان التبادل يحدث ضمن حدود ضيقة، عندما كان الطلب يحكم العرض والاستهلاك يحكم الإنتاج. ومع تطور الصناعة الكبيرة أصبح ذلك مستحيلا، لأن هذه الصناعة مضطرة بحكم أدواتها وحدها على أن تنتج بكميات متزايدة باطراد دون انتظار الطلب، ولذا فإنها لا بد أن تتعرض بالضرورة المحتومة وبتتابع دائم لمراحل من الازدهار والهبوط، الأزمات والركود، ثم الازدهار من جديد وهكذا. «في مجتمع اليوم، في الصناعة القائمة على التبادل الفردي، تشكل الفوضى الإنتاجية، التي هي مصدر الكثير من الشرور، في الوقت ذاته سبب كل تقدم. لذا فإن الاختيارات المتاحة هي: أن يناضل المرء للحصول على النسب الصحيحة التي حصلت في القرون الماضية بوسائل الإنتاج الموجودة في عصرنا، وفي هذه الحالة يكون المرء رجعيا وطوباويا في آن معا، أو أن يناضل المرء من أجل التقدم دون الفوضى، وفي هذه الحالة يتعين عليه أن يتخلى عن التبادل الفردي للحفاظ على القوى الإنتاجية».

يرتدي الفصل الثاني من رد ماركس على برودون أهمية أكبر من الفصل الأول. فهو في الفصل الأول يعالج ريكاردو دون أن يصل إلى حد الموضوعية العلمية الكاملة تجاهه، فهو مثلا لا يزال يقبل قانون ريكاردو في الأجور دون تحفظ. ولكنه في الفصل الثاني يعالج هيغل، وهنا يتخذ موقفا مستقلا تماما. كان برودون قد أساء فهم طريقة هيغل الجدلية تماما. فتمسك بتلك المناحي فيها التي أصبحت رجعية تماما، مثل أن عالم الحقيقة مشتق من عالم الأفكار، بينما رفض المنحى الثوري: النشاط الذاتي للفكرة الذي يكون الموضوعة والنقيض معا لكي يكوّن بالصراع تلك الوحدة الأعلى التي تحافظ على المحتوى الحقيقي لكليهما بحل شكلها المتناقض. وهو يميز بين جانب حسن وجانب سيء في كل مقولة اقتصادية، ثم يسعى إلى تأليف، إلى معادلة علمية تحتوي الجانب الحسن وتدمر الجانب السيئ. ويلاحظ أن الجانب الحسن هو ما يؤكد عليه الاقتصاديون البرجوازيون والجانب السيئ هو ما يشجبه الاشتراكيون. وكان يظن أنه بمعادلاته وتأليفه يرفع نفسه فوق الاقتصاديين البرجوازيين وفوق الاشتراكيين معا.

يجيب ماركس على هذا الادعاء بالكلمات التالية: «يطري السيد برودون نفسه على أساس أنه انتقد علم الاقتصاد والشيوعية معا، ولكنه في الواقع بقي أدنى من كليهما بكثير: أدنى من الاقتصادي لأنه كفيلسوف في جيبه معادلة سحرية يتخيل أنه أغنى نفسه عناء ضرورة الخوض في التفاصيل الاقتصادية، وأدنى من الاشتراكي، لأنه لا يملك لا البصيرة الكافية ولا الشجاعة الكافية ليرفع نفسه، حتى تأمليا، فوق الأفق البرجوازي. إنه يطمح إلى أن يكون التأليف ولكنه في الواقع ليس غير خطأ مركبا. إنه يرغب في الارتفاع فوق البروليتاري والبرجوازي معا كرجل علم، ولكنه في الواقع ليس إلا برجوازيا صغيرا يتقاذف تارة هنا وطورا هناك بين العمل ورأس المال، بين علم الاقتصاد وبين الاشتراكية». غير أن المرء يجب أن لا يخلط هنا بين البرجوازي الصغير وبين الجاهل المدعي، ذلك أن ماركس كان دوما يعتبر برودون رجلا قادرا، لا يستطيع لسوء الحظ أن يتخطى حدود المجتمع البرجوازي الصغير.

لم يكن صعبا على ماركس أن يكتشف عن عيب الطرق التي تبناها برودون: إذا فصل المرء العملية الجدلية إلى جانب حسن وجانب سيء، ووضع المقولة الأولى كضد للثانية، فإن الفكرة تصبح إذ ذاك مفتقرة إلى أية حياة: إنها لا تعود حينئذ قادرة على العمل، لا تعود قادرة على تأليف الموضوعة والنقيض. وكان ماركس كتلميذ لهيغل ثقة واعيا كل الوعي لكون الجانب السيئ الذي كان برودون يتحرق رغبة في القضاء عليه، هو بالتحديد الجانب الذي يصنع التاريخ بإنتاج الصراع. فلو جرب المرء أن يبقى على المناحي الأفضل في الاقطاعية: الحياة الأبوية في البلدان وازدهار الصناعة البيتية الريفية وتطور الحرف اليدوية المدينية، وسعى في الوقت ذاته إلى القضاء على كل ما يلقي على الصورة بظل: القنانة والامتيازات والفوضى، لأدى ذلك إلى محو كل ما من شأنه أن ينتج الصراع، ولاختنقت البرجوازية في مهدها. وبذلك يكون المرء قد اتخذ لنفسه دورا غريبا، ذلك هو دور خصي التاريخ.

وأعطى ماركس الصياغة الصحيحة للمسألة بالكلمات التالية: «إذا أراد المرء أن يقيم الإنتاج الإقطاعي تقييما صحيحا، لوجب عليه أن يعتبره نمطا من أنماط الإنتاج قائما على التناقض. وعليه أن يبين كيف تُنتج الثروات ضمن هذا التناقض، وكيف تطورت قوى الإنتاج مع صراع الطبقات في الوقت ذاته، وكيف أن واحدة من هذه الطبقات، هي الجانب السيئ والشر الاجتماعي، نمت بلا توقف حتى نضجت الشروط المادية لتحررها». ثم أوضح ماركس عملية التطور التاريخية ذاتها فيما يتعلق بالبرجوازية. فقال أن علاقات الإنتاج التي تتحرك البرجوازية ضمنها ليس لها طابع بسيط ومنتظم، بل طابع مزدوج: فالتعاسة تنتج في ظل الظروف ذاتها التي تنتج ضمنها الثروات، وكما تتطور البرجوازية كذلك تتطور البروليتاريا إلى الدرجة ذاتها، ونتيجة لذلك ينشأ الصراع بين الطبقتين. والاقتصاديون هم منظرو البرجوازية، بينما الشيوعيون والاشتراكيون هم منظرو البروليتاريا. وهؤلاء الأخيرون طوباويون، يضعون نظما ويسعون إلى علم شاف يفي بحاجات الطبقات المضطهدة، وذلك طالما تتطور البروليتاريا بما فيه الكفاية لتشكل من نفسها طبقة، وطالما أن قوى الإنتاج في المجتمع البرجوازي لم تتطور بما فيه الكفاية لتكشف الشروط المادية الضرورية لانعتاق البروليتاريا وبناء مجتمع جديد. «ولكن إلى الحد الذي يتقدم به التاريخ، ومعه صراع البروليتاريا، لا يعود من الضروري لهم أن يسعوا إلى العلم في رؤوسهم. فكل ما يحتاجونه هو أن يتبينوا لأنفسهم ما الذي يجري أمام أعينهم، ويجعلوا من أنفسهم أدواته. وما داموا يسعون إلى العلم في رؤوسهم ويضعون نظما، فسيبقون في بداية صراعهم الطبقي فقط، فلا يرون في التعاسة غير التعاسة ويفشلون في إدراك الجانب الثوري للتعاسة، ذلك الجانب الذي سيطيح بالنظام القديم. من هذه اللحظة، يصبح العلم النتاج الواعي للحركة التاريخية، ويكف عن أن يكون عقديا دوغماتيا ويصبح ثوريا».

ويعتبر ماركس أن المقولات الاقتصادية ليست إلا التعبير الاقتصادي عن العلاقات الاجتماعية وتجريدا لها: «إن العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بقوى الإنتاج. فعندما يتوصل الجنس البشري إلى قوى إنتاج جديدة، فإنه يبدل نمط إنتاجه، ومع تبديله للطريقة التي يحصل بها على عيشه، يبدل كل علاقاته الاجتماعية... ولكن الناس ذاتهم الذين يشكلون علاقاتهم الاجتماعية طبقا لنمط إنتاجهم المادي، يشكلون أيضا مبادئهم وأفكارهم ومقولاتهم طبقا لعلاقاتهم الاجتماعية». ويقارن ماركس الاقتصاديين البرجوازيين الذين يتحدثون عن «المؤسسات الأبدية والطبيعية» للمجتمع البرجوازي بأولئك الاورثوذكسيين من علماء اللاهوت الذين يعتبرون دينهم كشفا من الله ويعتبرون كل الأديان الأخرى اختراعات من صنع البشر.

كشف ماركس عطل طرائق برودون على أساس عدد من الأنماط الاقتصادية التي جرب برودون طرائقه عليها: تقسيم العمل والآلات، التنافس والاحتكار، ملكية الأرض والإجارة، الإضرابات ومنظمات العمال، فقال أن تقسيم العمل لم يكن مقولة اقتصادية، كما افترض برودون، بل مقولة تاريخية اتخذت أشكالا مختلفة في فترات مختلفة من التاريخ. والاقتصاد البرجوازي يقول أن المصنع هو شرط وجود تقسيم العمل، لكن المصنع لم ينشأ، كما افترض برودون، نتيجة اتفاق ودي بين العمال، ولم ينشأ في حضن نقابات أصحاب العمل القديمة. فقد أصبح التاجر، وليس رئيس النقابة، رئيسا للمشغل الحديث.

وهكذا فإن التنافس والاحتكار ليسا مقولتين طبيعيتين بل تاريخيتين. والتنافس ليس الحماسة الصناعية بل الحماسة التجارية. وهو لا يهتم بالسلعة بل بالربح، كما انه ليس صفة ضرورية ملازمة للروح الإنسانية، كما افترض برودون، بل هو نتيجة لضرورة تاريخية نشأت في القرن الثامن عشر ويمكن لها أن تختفي في القرن التاسع عشر لأسباب تاريخية.

وفكرة برودون انه ليس للملكية العقارية أصل تاريخي، وأنها تقوم على اعتبارات سيكولوجية وخلقية لا تمت إلى إنتاج الثروة إلا بصلة بعيدة، وان إيجار الأرض يجب أن يربط الإنسان ربطا أوثق بالطبيعة، لا تقل خطأ عن سابقاتها. «لقد تطورت الملكية تطورا مختلفا في كل فترة وفي ظل علاقات اجتماعية مختلفة تماما. ولذا فإن تفسير الملكية البرجوازية لا يعني أكثر من تفسير كل العلاقات الاجتماعية للإنتاج البرجوازي. أما تفسير الملكية كعلاقة مستقلة فليس أكثر من وهم ميتافيزيقي أو حقوقي ». وقد نشأت أجرة الأرض -فائض ثمن الناتج الزراعي عن كلفة الإنتاج، بما في ذلك الوتيرة السائدة للربح على رأس المال وكذلك الفائدة على رأس المال- في ظل علاقات اجتماعية محددة، ولم يكن ممكنا أن تنشأ إلا في ظل هذه العلاقات المحددة. إنها ملكية الأرض في شكلها البرجوازي، إنها الملكية الإقطاعية وقد خضعت لشروط الإنتاج البرجوازي.

وفي النهاية يفسر ماركس الأهمية التاريخية للإضرابات والنقابات، وكلاهما قد رفضه برودون. فقال أنه على الرغم من أن الاقتصاديين والاشتراكيين قد يحذرون العمال، ربما لأسباب متعارضة، من استعمال أسلحة كهذه، إلا أن الإضرابات والنقابات ستتطور بموازاة تطور الصناعة الكبيرة. فمع أن العمال منقسمون في مصالحهم بفعل التنافس، إلا أن لهم مع ذلك مصلحة مشتركة في الحفاظ على أجورهم. وقد أدت بهم فكرة المقاومة التي يشتركون فيها جميعا، إلى إتحادهم في نقابات تحتوي كل عناصر نضال مقبل، تماما كنا بدأت البرجوازية باتحادات قطاعية ضد اللوردات الإقطاعيين، ثم شكلت نفسها فيما بعد كطبقة، وحولت كطبقة مكتملة المجتمع الإقطاعي إلى مجتمع برجوازي.

والتناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا هو صراع طبقة ضد أخرى، صراع يعني، إذا رفع إلى تعبيره الأعلى، ثورة كاملة. والحركة الاجتماعية لا تستثني الحركة السياسة لأنه ليست هناك حركة سياسية ليست هي في الوقت ذاته حركة اجتماعية. ولن يكف التطور الاجتماعي عن كونه ثورة سياسية إلا في مجتمع ليست فيه طبقات، ولكن حتى ذلك الحين، ستكون الكلمة الأخيرة للعلم الاجتماعي عشية كل التحولات الاجتماعية العامة هي: «النصر أو الموت! حرب دامية أو لا شيء! هذا هو الشكل القاسي الذي تطرح المسألة نفسها فيه». وقد استخدم ماركس هذا المقتطف من جورج صاند لينهي به رده على برودون.

في هذا الكتاب، طور ماركس المادية التاريخية من عدة زوايا عظيمة الأهمية. وفي الوقت ذاته سوى حساباته بصورة نهائية مع الفلسفة الألمانية. فقد تخطى فويرباخ بالعودة إلى هيغل. ولا شك في أن المدرسة الهيغلية الرسمية كانت قد أفلست تماما. فقد حطت من قدر الطريقة الديالكتيكية (الجدلية) التي وضعها معلمها لتصبح مجرد معادلة تطبق على كل شيء وعلى كل الناس، وكثيرا ما يكون تطبيقها فظا. حتى أن المرء أصبح يستطيع القول أن هؤلاء الهيغليين لا يعرفون شيئا ويكتبون عن كل شيء، وقد قيل هذا فيهم بالفعل.

وقد حانت ساعة هؤلاء عندما تحدي فويرباخ مفهوم التأمل، فتغلب المحتوى الايجابي للعلم مرة أخرى على جانبه الشكلي. ولكن مادية فويرباخ كانت تفتقر إلى «مبدأ محرك» فظلت علما طبيعيا نقيا واستثنت كل العملية التاريخية. ولم يكن هذا كافيا بالنسبة لماركس. وقد بان كم كان ماركس على حق عندما ظهر دعاة هذه المادية المشائين، بوشنر وفوخت، على المسرح. فقد دفعت طرقهم الضيقة الأفق فويرباخ نفسه إلى الاحتجاج، مع انه ربما كان يوافق على مادية كهذه من خلف ستار، ولكنه لم يكن ليوافق عليها مواجهة. أو لنستعمل مقارنة قام بها انغلز: «إن عربة الحس البرجوازي تتجنب في العادة الهوة التي تفصل الجوهر عن المظهر والسبب عن الأثر، ولكن إذا كان المرء يريد الخروج للصيد في أرض الفكر المجرد الوعرة، فإن عليه أن لا يستعمل عربة تجرها الخيل».

لكن الهيغليين لم يكونوا هيغل. وهم قد يبدون جهلهم، ولكن هيغل كان من أفضل العقول في كل الأوقات. فقد كان لطريقته في التفكير أهمية تاريخية أكبر من الأهمية التي يتمتع بها فكر أي من الفلاسفة الآخرين، وهذه الأهمية هي التي سمحت له بالوصول إلى تصور رائع للتاريخ، على الرغم من أن هذا التصور كان تصورا إيديولوجيا تماما يرى الأشياء في مرآة مقعرة، إذا صح القول، وينظر إلى التاريخ العالمي على أنه ليس أكثر من المثال العملي على تطور الفكر. ولم ينجح فويرباخ في التصدي لهذا المحتوى الحقيقي للفلسفة الهيغلية، أما الهيغليون الاورثودكسيون فقد تخلوا عنه.

أخذ ماركس هذا المحتوى عن جديد، ولكنه قلبه، فلم يعد يبدأ من «الفكرة المحض»، ولكن من حقائق الواقع القاسية. فأعطى بذلك للمادية الطريقة الجدلية التاريخية، كما أعطاها «مبدأ محركا» لم يسع فحسب إلى تفسير المجتمع بل وأيضا إلى تحويله.

5- «دويتشه بروسلر تزايتونغ»

وجد ماركس ناشرين لرده على برودون في بروكسل وفي باريس، ولكن على الرغم من أن الرد لم يكن طويلا، إلا أنه كان على ماركس أن يدفع تكاليف الطباعة. وعندما ظهر الكتاب في منتصف صيف 1847، كان لماركس في «دوتيشه بروسلر تزايتونغ» صحيفة أعطته فرصة وضع آرائه أمام الجمهور.

كان ادالبرت فون بورنشتدت قد بدأ ينشر هذه الصحيفة مرتين في الأسبوع منذ بداية العام. وكان بورنشتدت يحرر سابقا صحيفة «فوروارتز» في باريس، تلك الصحيفة التي كانت تتلقى أموالا من كل من الحكومتين النمساوية والبروسية، وهذه حقيقة أثبتتها بما لا يقبل الدحض وثائق في ملفات برلين وفينا، لكن النقطة الوحيدة التي ليست واضحة هي ما إذا كان بورنشتدت قد استمر في عمله التجسسي في بروكسل. وقد كان هناك قدر معين من الشك فيه، ولكن هذا الشك تبخر عندما شجب السفير البروسي الصحيفة للسلطات البلجيكية. وبالطبع، يمكن أن ألا يكون هذا الشجب أكثر من ذر للرماد في عيون العناصر الثورية التي تجمعت في بروكسل، ومحاولة لإعلاء سمعة برونشتدت في صفوفها، وعلى أية حال. لم يكن حماة العرش والمذبح ليتورعون في أي وقت من الأوقات عن اختيار أي وسيلة للوصول إلى أهدافهم الرفيعة.

على أية حال، لم يعتقد ماركس أن برونشتدت خائن. فقد كان يقول أن «دوتيشه بروسلر تزايتونغ» تقوم رغم كل نقاط ضعفها بعمل جيد، أما أولئك الذين يعتقدون أنها ليست جيدة كفاية، فإن عليهم أن يعملوا لتحسينها، لا أن يختبئوا وراء عذر واه هو أن الشك يحوم حول اسم برونشتدت. ونجد ماركس يكتب إلى هيرويغ في 8 آب قائلا: «أما أن الرجل ليس جيدا، أو ربما هي المرأة، أو الاتجاه أو الأسلوب أو الحجم، أو أن التوزيع يتضمن قدرا من الخطر.. أن في جيوب ألماننا آلافا من الكلمات الحكيمة يستطيعون في كل وقت أن يخرجوها ليبرهنوا على أنه يتعين عليهم مرة أخرى أن يدعوا فرصة تمر دون أن يستثمروها. فالفرصة لعمل شيء لا تعدو كونها بالنسبة لهم مصدر إحراج». ثم يتنهد ماركس من أن مخطوطاته تعاني المصير ذاته الذي تعانيه «دويتشه بروسلر تزايتونغ» وينتهي إلى كيل اللعنات الحادة على الحمير الذين أنبوه لأنه فضل أن يكتب بالفرنسية على أن لا يكتب إطلاقا.

وحتى ولو افترضنا أن ماركس استخف بالشك الذي يحوم حول برونشتدت كي لا «يدع فرصة تمر دون أن يستثمرها»، فإن من الصعب لومه على ذلك، لأن الفرصة كانت مواتية حقا، ولأنه كان من الغباء أن تترك لتمر لمجرد الشبهة. في ربيع 1847، أجبرت حاجات مالية ملحة ملك بروسيا على دعوة المجلس الموحد، وهو تجمع لمجالس المقاطعات، أي هيئة إقطاعية منظمة على أسس مركزية تشاركية كتلك التي دعاها لويس السادس عشر للانعقاد في ربيع 1789 في ظل ظروف قاهرة خارجية مشابهة. ولم تكن المسائل قد تطورت في بروسيا بالسرعة التي كانت قد تطورت بها سابقا في فرنسا، ولكن المجلس الموحد احتفظ بخزائنه مقفلة إقفالا محكما وأبلغ الحكومة بصراحة أنه لن يصوت على أية نقود حتى تتسع سلطاته وعلى الأخص حتى يتصدر ضمان بأنه سيدعي على الانعقاد دوريا. وبهذا بدأت الأمور تتحرك، ذلك أن ضائقة الحكومة المالية كانت ملحة حقا. وكان لا بد أن تبدأ الرقصة من جديد عاجلا أم آجلا، ولذا فكلما بدأت الموسيقى بالعزف في وقت اقرب كلما كان ذلك أفضل.

كانت هذه هي الفكرة التي تخللت مساهمات ماركس وانغلز في «دويتشه بروسلر تزايتونغ». عالجت مقالة نشرت دون توقيع، ولكن أسلوبها يدل على أن انغلز هو كاتبها، مناقشات المجلس الموحد حول التجارة الحرة وتعرفة الحماية. وفي ذلك الحين، كان انغلز مقتنعا تماما الاقتناع أن البرجوازية الألمانية بحاجة إلى تعرفة الحماية لتحمي نفسها ضد منافسة الصناعة الأجنبية، ولتعطي نفسها فرصة توليد قوة كافية للتغلب على الإقطاع والحكم المطلق. ولهذا السبب، وله وحده، أشار انغلز على البروليتاريا أن تعضد التحريض من أجل تعرفة الحماية. وفي رأي انغلز، أن ليست، منظر تعرفة الحماية، أنتج أفضل كتابات اقتصادية ألمانية، على الرغم من انه أعلن أن أفضل كتابات ليست قد كتبه في الحقيقة فيرييه الفرنسي، منظّر النظام القاري للتجارة. كذلك حذر انغلز العمال من أن ينخدعوا بالجمل التي يطلقها دعاة الحماية ودعاة التجارة الحرة حول «رفاه الطبقات العاملة» معلنا أن هذه الجمل ليست إلا ستارا واهيا يستخدمه هؤلاء لتغطية التحريض الذي يهدف إلى حماية مصالحهم، وقال أن أجور العمال ستظل على ما هي، في ظل الحماية وفي ظل التجارة الحرة. ودافع انغلز عن الحماية لأنها ببساطة ووضوح «إجراء برجوازي تقدمي». وكانت هذه أيضا وجهة نظر ماركس.

كانت مساهمة أطول ظهرت في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» عملا مشتركا لماركس وانغلز، وكانت هذه المساهمة ردا على هجوم الاشتراكية الإقطاعية المسيحية. وكان هذا الهجوم قد انطلق من «راينيجز بيوباختر»، وهي صحيفة كانت الحكومة قد أسستها حديثا في كولون لتحريض العمال في الرانيلاند ضد البرجوازية. وعلى صفحات هذه الصحيفة اكتسبت هيرمان واغنر الشاب شهرته، كما شهد هو في ما بعد في مذكراته. وكان ماركس وانغلز يحتفظان بصلات وثيقة مع كومون، ومن الواضح أنهما كانا على علم بنشاطات واغنر، ذلك أن إشارات إلى «مفوضين اكليركيين أنيقين» شكلت نوعا من العبارة اللازمة في ملاحظاتهما، وفي ذلك الوقت كان واغنر مساعدا اكليركيا في ماغدبرغ.

حاولت «راينيخر ببوباختر» أن تستخدم فشل الحكومة في الحصول على ما تريده من المجلس الموحد لتضليل العمال، قائلة أن البرجوازية برفضها التصويت على الأموال الضرورية إنما كشفت أن كل ما يهمها هو الاستيلاء على سلطة الدولة من أجل مصالحها الذاتية. فهي لا تهتم إطلاقا برفاه الشعب، ولكنها تدفع الجماهير لترهب بها الحكومة فحسب. وبذلك فإن الجماهير تستخدم فحسب وقودا للمدافع في هجوم تشنه البرجوازية على الحكومة. أجاب ماركس وانغلز على ذلك بطريقة واضحة لنا تماما اليوم: ليس لدى البروليتاريا اية أوهام حول البرجوازية ولا حول الحكومة، والاعتبارات الوحيدة التي تضعها البروليتاريا في الحسبان هي الاعتبارات التي تخدم مصلحتها هي فقط. والمسألة هي أحكم البرجوازية أم حكم الحكومة. والجواب على ذلك يمكن الحصول عليه بمقارنة بسيطة بين وضع العمال الألمان ووضع العمال الانجليز والفرنسيين.

قالت «راينيخر بيوباختر»: «أيها الشعب السعيد، لقد ربحت معرتك من اجل حقوقك الأساسية، وإذا كنت لا تعرف ما هي هذه الحقوق، فاسأل ممثليك ليشرحوا لك ذلك، ولربما نسيت خلال خطبهم الطويلة جوعك المضني». فأجاب ماركس وانغلز على هذا الكلام الديماغوجي بسخرية لاذعة: من السهل أن يرى المرء كيف أن الصحافة الألمانية حرة حقا لدرجة أن تحريضا كهذا مر دون عقاب. وأعلنا أن البروليتاريا الألمانية فهمت في الواقع الحقوق الأساسية التي يجري الصراع حولها، حتى أنها انبت المجلس الموحد لا لأنه كسب هذه الحقوق بل لأنه في الواقع خسرها. ولو لم يكتف المجلس الموحد بالمطالبة بتوسيع حقوقه، وعمد بدلا من ذلك إلى المطالبة بإقرار المحاكمة بواسطة المحلفين والتساوي أمام القانون وإلغاء العمل الإجباري وحرية الصحافة وحرية الانتظام وعقد هيئة تمثيلية حقيقة، إذا لتلقى من البروليتاريا دعما كاملا.

ودحض ماركس وانغلز همهمات «راينيخر بيوباختر» حول المبادئ الاجتماعية للمسيحية التي تجعل الشيوعية لا ضرورة لها: «لقد منحت المبادئ الاجتماعية للمسيحية ألفا وثمانمائة عام لتتطور خلالها، وهي ليست بحاجة إلى المزيد من التطور على يد المفوضين الاكليركيين البروسيين. لقد بررت المبادئ الاجتماعية للمسيحية العبودية في العالم الكلاسيكي، ثم مجدت القنانة في العصور الوسطى، وإذا كان من الضروري أن تعمد هذه المبادئ إلى الدفاع عن اضطهاد البروليتاريا، فإنها على استعداد تام لذلك حتى ولو أدى بها ذلك إلى الظهور بعض الوقت بمظهر مخجل. وهذه المبادئ ذاتها تبشر بضرورة وجود طبقة حاكمة وأخرى مضطهدة، وكل ما تقدمه المسيحية للمضطهَدين رغبة تقية ورعة في أن يكون الحاكمون محسنين. وهي تنتقل التعويض عن كل صنوف الحيف على مملكة السماء، وبذلك تبرر تكريس هذا الحيف على الأرض. والمبادئ الاجتماعية للمسيحية تعلن أن كل جرائم المضطهَدين ضد المضطهدين إنما هي أما عقاب عادل لخطيئة أصيلة أو غيرها من الخطايا، أو مصائب أراد الله في حكمته البالغة أن يوقعها بالمختارين من رعاياه. إن المبادئ الاجتماعية للمسيحية تبشر بالجبن والاستسلام والخضوع والضعة وتحقير الذات –وباختصار تبشر بكل السمات المميزة «للنعاج»، ولكن البروليتاريا ليست مستعدة لأن تعامل كالنعاج، فهي بحاجة إلى شجاعتها وثقتها بنفسها وكبريائها واستقلالها حتى أكثر من حاجتها إلى خبزها اليومي. والمبادئ الاجتماعية للمسيحية مرائية منافقة بينما البروليتاريا ثورية».

كانت هذه هي البروليتاريا التي قادها ماركس وانغلز في المعركة ضد مشعوذي الإصلاح الملكي. فالشعب المستعد ليشكر حكامه والدموع تملأ عينيه لأنهم يركلونه وفي الوقت ذاته يلقون له بقرش لم يوجد يوما إلا في مخيلة الملوك. أما الشعب الحقيقي، البروليتاريا، فهو كما يقول هوبز، شبيبة قوية خطرة، ويمكن للمرء أن يرى طريقة الشعب في التعامل مع الملوك الذين حاولوا الإساءة إليه في المصير الذي انتهى إليه شارل الأول ملك انجلترا ولويس السادس عشر ملك فرنسا.

حطم هذا الجواب الحصيلة الاشتراكية-الإقطاعية، وكأنه عاصفة من الصقيع، ولكن بعض الحجارة تناثرت أبعد مما يجب. كان ماركس وانغلز على حق في دفاعهما عن قرار المجلس الموحد برفض منح الأموال لحكومة رجعية مهملة، ولكنهما أعطيا للمجلس الموحد شرفا لا يستحقه عندما وقفا إلى جانبه في رفض اقتراح تقدمت به الحكومة لإقرار ضريبة دخل. وقد كان هذا الاقتراح في الحقيقة فخا نصبته الحكومة للبرجوازية. وكان الاقتراح بإلغاء الضرائب الباهظة التي كان يقع عبئها بصورة رئيسية على العمال في المدن الكبيرة على أن يغطي العجز عن طريق ضريبة دخل تفرض على الطبقات المالكة، كان هذا الاقتراح قد جاء من جانب البرجوازية في الراينلاند، وقد دفعتها إليه اعتبارات كتلك التي دفعت البرجوازية الانجليزية في صراعها من اجل نقض «قوانين الذرة». وقد عارضت الحكومة ذاتها هذا الاقتراح بشدة لأنه يصيب ملاك الأرض الكبار، الذين لم يكونوا يتوقعون انخفاضا في أجور العاملين لديهم نتيجة إلغاء الضرائب، لأن هذه الضرائب كانت تفرض في المدن الكبيرة فقط. ولكنها رغم ذلك تقدمت بالمشروع إلى المجلس الموحد، وهي تعرف أن هيئة إقطاعية كالمجلس الموحد لن توافق أبدا على إصلاح ضريبي تستفيد منه الطبقة العاملة ولو مؤقتا على حساب الطبقات الموحدة، وكانت الحكومة تأمل بذلك أن تجعل نفسها شعبية وتجعل المجلس الموحد غير شعبي. وكانت الحكومة على حق في تقديراتها، فما أن وضع المشروع أمام المجلس حتى صوت ضده كل الأمراء وكل اليونكر وكل الرسميين. وبالإضافة إلى ذلك، كان من حسن حظ الحكومة أن قطاعا من البرجوازية غير موقفه بسرعة عندما وصل الأمر إلى الإصلاح الضريبي.

عندئذ استغلت كل الأقلام الحكومية رفض اقتراح ضريبة الدخل استغلالا كاملا بوصفه برهانا ساطعا على اللعبة المرائية المخادعة التي تلعبها البرجوازية، ولعبت «راينيخر بيوباختر» دورا بارزا في ذلك. وقد كان ماركس وانغلز محقين عندما أجابا «المفوض الاكليركي» بأنه «أكثر الناس جهلا بالمسائل الاقتصادية» عندما يدعي أن إدخال ضريبة الدخل سيتغير من التعاسة الاجتماعية ولو قيد شعرة، ولكنهما لم يكونا محقين عندما دافعا عن رفض البرجوازية للاقتراح بوصفه ضربة مبررة ضد الحكومة. إذ لم يكن رفض البرجوازية هذا ضربة ضد الحكومة، بل هو على العكس من ذلك أدى إلى تقوية موقفها المالي، إذ أنها احتفظت بالضرائب الباهظة بدلا من أن تجرب ضرائب دخل جديدة، كان تطبيقها سيواجه بالتأكيد مصاعب جمة، كما يدل على ذلك تاريخ كل الضرائب من هذا النوع. ولذا فإن ماركس وانغلز في هذه الحالة اعتبرا أن البرجوازية لا زالت ثورية، في حين أنها كانت قد أصبحت رجعية.

من جهة أخرى، كثيرا ما اقترف «الاشتراكيون الحقون» الخطأ المقابل. وقد شن ماركس وانغلز هجوما آخر عليهم، في سلسلة من المقالات نشرها ماركس في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» بعنوان «ضد الاشتراكية الألمانية شعرا ونثرا»، وفي مقالة لم تنشر مكتوبة بخط يد انغلز، ولكنها ربما كانت عملا مشتركا. هاجم ماركس وانغلز «الاشتراكية الحقة» هذه المرة من جانبها الجمالي-الأدبي، الذي كان أضعف جانب فيها، أو ربما أقوى جانب لدى بعض الأذواق. ولم يحترم ماركس وانغلز في هجومهما هذا على الشذوذ الفني حقوق الفن والأدب، فمثلا يعامل انغلز في مقالته غير المنشورة رائعة لفريليغارث بقسوة لا تستحقها، بينما عامل ماركس «أغاني الفقراء» لكارل بيك بشراسة في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» على أساس «الأوهام البرجوازية الصغيرة» التي تبثها. لكن ماركس تنبأ في الوقت ذاته بالمصير المؤسف الذي انتهت إليه النزعة الطبيعية المدعية بعد ذلك بخمسين عاما، عندما قال: «يمجد بيك هذه التعاسة البرجوازية الصغيرة الجبانة. فبطله هو «الرجل الفقير» بأشواقه التقية الصغيرة التي لا تنتهي إلى شيء، بدلا من أن يمجد البروليتاري الثوري الفخور». وبعد تعرض غرون سيء الحظ لتأنيب قاس

شامل على أساس كتاب منسي أساء فيه معاملة غوته «من وجهة نظر إنسانية» ورسم له بعناء صورة ادعى أنها صورة «الرجل الحقيقي» جمعت من الصور المملة الحقيرة التي تمثله شاعرا عظيما.

وأهم من هذه المناوشات الصغيرة، كان عمل أطول عالج فيه ماركس بقسوة الكلام الراديكالي المعتاد للبرجوازية وكذلك الكلام الاشتراكي المزيف للحكومة. فقد سعى كارل هاينزين في سجال ضد انغلز إلى تفسير الافتقار إلى العدالة في توزيع الملكية على انه ناجم عن سلطة الدولة، وأعلن أن من يهاجم البرجوازية لمراكمتها الثروة تاركا الملك يراكم السلطة في يديه بسلام إنما هو جبان مجنون. وكان هاينزين ذاته عاديا جدا لا يستحق أي اهتمام خاص، لكن حججه كانت تناسب الجهلة المدعين تماما: الملكية مدينة بوجودها لافتقار الإنسانية على مدى قرون طويلة للحس السليم والكرامة الإنسانية، أما الآن وقد استعادت الإنسانية هاتين الخاصيتين القيمتين، فإن كل المسائل الاجتماعية أصبحت شاحبة أمام المسألة الكبرى: الجمهورية أم الملكية. وكانت هذه الحجة الرائعة تكمل حجة الأمراء من أن الثورات لا يسببها شيء غير شرور الديماغوجيين.

فأوضح ماركس، على أساس التاريخ الألماني بصورة رئيسية، أن التاريخ هو الذي يصنع الأمراء وليس العكس. كما بين بوضوح الأسباب الاقتصادية للحكم المطلق الملكي، مشيرا إلى أن هذا الحكم تطور في المرحلة الانتقالية عندما كانت الطبقات الإقطاعية القديمة تنحدر بينما كانت الطبقة البرجوازية الحديثة لا تزال في طور التكوين. ولم تتطور الملكية المطلقة في ألمانيا في وقت متأخر ولم تدم فيها وقتا أطول إلا لأن تطور البرجوازية الألمانية مشلول ومقعد. هكذا فإن الدور الرجعي الشرس الذي يلعبه الأمراء عائد إلى أسباب اقتصادية. وبينما كانت الملكية المطلقة تشجع سابقا التجارة والصناعة وما يرافقها من صعود للبرجوازية كشروط ضرورة للقوة القومية ولازدهار الملكية ذاتها، فإنها الآن تسعى إلى إعاقة تطور التجارة والصناعة في كل مكان لأن هاتين أصبحتا سلاحا خطرا في يد برجوازية أصبحت أقوى مما يجب. وأصبحت الآن تشيح بنظرها الثقيل عن المدينة، مصدر صعودها إلى السلطة، إلى الريف الذي يمتلئ أديمه بجثث خصومها الإقطاعيين القدماء.

يحتوي هذا العمل على الكثير من الأفكار المثمرة، ولكن « الحس السليم» للجهلة المدعين كان برهانا ضده. فالنظرية التي ناهض بها ماركس، نيابة عن انغلز، هاينزين، كان عليها بعد جيل كامل أن تتصدى لدوهرنغ، على يد انغلز، نيابة عن ماركس.

6-العصبة الشيوعية

نمت الجماعة الشيوعية في بروكسل خلال عام 1847 إلى حدود ضخمة، على الرغم من أنه لم يكن هناك في المجموعة كلها من يرتفع إلى مقام قدرات ماركس أو انغلز. وأحيانا بدا أن موسى هس أو فيلهلم ولف، وكلاهما كان يقدم مساهمات في «دويتشه بروسلر تزايتونغ»، سيلعب دور الثالث في التحالف، ولكن أيهما في النهاية لم يفعل. فلم يستطع هس أن يتخلص من قيوده الفلسفية القديمة، وفي النهاية أدى الهجوم المقذع الذي شنه البيان الشيوعي على كتاباته إلى القطيعة الكاملة بينه وبين ماركس وانغلز.

توطدت صداقة ماركس وانغلز بفيلهلم ولف في وقت لاحق، إذ لم يأت ولف إلى بروكسل إلا في عام 1847، ولكن هذه الصداقة أثبتت قوتها، ولم تنته إلا بموت ولف، الذي توفي لسوء الحظ في وقت مبكر جدا. ولم يكن ولف مفكرا مستقلا، ولكنه كان يملك ككاتب «الأسلوب الشعبي». وقد تحدر من عائلة فلاحية سيليسية، واستطاع في ظل ظروف صعبة جدا أن يشق طريقه إلى الجامعة حيث نمى لدى نفسه كراهية عميقة لاهبة ضد مضطهدي طبقته من خلال شعراء وكتاب العالم الكلاسيكي القديم. وقد نقل ولف كديماغوجي من قلعة في سيليسيا إلى أخرى لبضعة سنوات، وبعد خروجه من السجن صار يتدبر أمره كمعلم خاص ويشن في الوقت ذاته حرب غوار على البيروقراطية والرقابة، على أن أوشكت الحكومة على مقاضاته، ففضل الفرار إلى الخارج على التعفن في سجن بروسي.

كان ولف قد تعرف إلى لاسال خلال إقامته في برسلو، وقد وضع لاسال وماركس وانغلز على قبر ولف اكاليلا من الغار لا تفنى. وكان ولف من تلك الشخصيات النبيلة التي وصفها الشاعر بأنها تشق طريقها في الحياة بما هي عليه. وقد جعله سلوكه الجريء وإخلاصه وضميره اليقظ وإيثاره للغير وتواضعه الدائب مثالا للمقاتل الثوري، وأكسبه ذلك احترام أعدائه وأصدقائه على السواء بغض النظر عما إذا كانوا يؤيدون آراءه السياسية أو لا يؤيدونها.

كذلك كان فرديناندولف، عضوا آخر في الحلقة المحيطة بماركس وانغلز، ولكن لم يكن قريبا جدا منهما. أما أرنست درونكه الذي كتب كتابا ممتازا عن برلين ما قبل آذار والذي حكم عليه بالسجن سنتين في إحدى القلاع بتهمة الطعن في الذات الملكية، فقد انضم إلى الحلقة في اللحظة الأخيرة، بعد أن فر من قلعة ويسيل. كذلك ضمت الحلقة أيضا جورج ويرت الذي كان قد تعرف إلى انغلز منذ الأيام التي قضاها في مانشستر والذي عاش في برادفورد كموظف في شركة ألمانية أخرى. وكان ويرث شاعرا حقيقيا، وبذلك كان خلوا من أي من ادعاءات الشويعر. وقد مات هو أيضا شابا، ولسوء الحظ لم تمتد يد حانية لتجمع القصائد التي غناها بروح البروليتاريا المقاتلة والتي بعثرها بإهمال. وقد تعززت حلقة المثقفين هذه بعدد من الحرفيين القادرين، أمثال كارل والو وستيفان بورن وهما منضدا أحرف «دويتشه بروسلر تزايتونغ».

كانت بروكسيل، بوصفها عاصمة دولة كانت تفتخر بأنها ملكية برجوازية مثالية، أفضل مكان للقيام باتصالات عالمية، ما دامت باريس، التي كانت لا تزال تعتبر مركز الثورة، مقيدة بقوانين أيلول سيئة الذكر. أقام ماركس وانغلز علاقات جيدة بالمشتركين في ثورة 1830 في بلجيكا. وفي ألمانيا، وعلى الأخص في كولون، كان لهما أصدقاء قدماء وجدد، وعلى رأسهم جورج يونغ والطبيبان ديستر ودانيال. وفي باريس أقام انغلز اتصالات مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعلى الأخص مع ممثليه الأدبيين لوي بلانك وفرديناند فلوكون اللذين كانا

يحرران صحيفة الحزب «رفورم». وكانت هناك صلات أوثق مع الجناح الثوري للميثاقيين (الشارتيين)، مع جوليان هارني، محرر «ذي نورثرن» وارنست جونز اللذين تلقيا تعليمهما في ألمانيا. وكان «الإخوة الديمقراطيون» وهم منظمة عالمية كان يمثل عصبة العادلين فيها كل من كارل شابر وجوزيف مول، واقعين تحت التأثير الفكري لهؤلاء القادة الميثاقيين.

وفي كانون الثاني 1847، اتخذت العصبة خطوة هامة جدا. وكان للعصبة بوصفها «لجنة المراسلات الشيوعية» في لندن علاقات مع «لجنة المراسلات» في بروكسل، ولكن هذه العلاقات كانت باردة نوعا ما من الجانبين. فمن جانب كان هناك شك بالمثقفين الذين لا يمكن أن يعرفوا أين يركل الحذاء العامل، ومن الجانب الآخر كان هناك شك بضيق الأفق الحرفي الذي كان لا يزال يمارس تأثيرا قويا على العمال الألمان في ذلك الحين. وكان انغلز منشغلا بإبقاء «الحرفيين» في باريس بعيدين عن تأثير برودون ووتلينغ، ولكنه كان يشعر أن «الحرفيين» في لندن أفضل منهم في باريس، رغم انه وصف بيانا أصدرته رابطة العادلين في خريف عام 1846 حول مسألة سليزويغ-هولشتاين بأنه «هراء محض» معلنا أن «الحرفيين» في انجلترا واقعون ضحية حماقة تجاهل كل الظروف الواقعية والفشل في فهم عملية التطور التاريخي.

وبعد ذلك بعقد من الزمن، وصف ماركس موقفه في ذلك الوقت من رابطة العادلين بالكلمات التالية: «أصدرنا سلسلة من المنشورات، بعضها مطبوع، ننتقد فيها بقسوة خليط الاشتراكية الانجلو-فرنسية أو الشيوعية والفلسفة الألمانية الذي كان يمثل التعاليم السرية للرابطة، مقدمين بدلا من ذلك نظرة علمية إلى البنية الاقتصادية للمجتمع البرجوازي، مفسرين ذلك بصورة مبسطة مبينين أن المهمة الملحة ليست وضع نظام طوباوي بل المشاركة الواعية في عملية التحويل الاجتماعي التاريخية التي تجري أمام أعيننا». وفي كانون الثاني عام 1847 أرسلت الرابطة عضوا من لجنتها المركزية، وهو الساعاتي جوزيف مول، إلى بروكسل ليطلب من ماركس وانغلز الانضمام إلى المنظمة لأنها تعتزم تبني وجهات نظرهما، فعزى ماركس ذلك إلى فعالية النشرات.

لسوء الطالع، لم تحفظ أي من النشرات التي يشير لها ماركس، باستثناء تعميم واحد موجه ضد كريغ الذي يسخف فيه بوصفه، بين أمور أخرى، ممثل «رابطة العادلين». كذلك يتهم التعميم كريغ بأنه يسعى إلى طمس التطور التاريخي الحقيقي للشيوعية على امتداد العالم بأن يعزو أصوله وتقدمه إلى مؤامرات رومانتيكية خيالية مختلفة قامت بها هذه الرابطة التي نشر عن قوتها السرية أسخف الروايات.

أحدث هذا التعميم أثرا بالغا على أعضاء الرابطة، وذلك برهان على أن هؤلاء كانوا أكثر من مجرد «حرفيين» وأنهم تعلموا من التاريخ الانجليزي أكثر مما افترض انغلز. فعلى الرغم من الهجوم الذي يشنه التعميم على الرابطة، إلا أن أعضاءها تلقوا الأمر بهدوء أكبر مما فعل ويتلنغ، الذي لم يذكر في التعميم إطلاقا ولكنه مع ذلك وقف إلى جانب كريغ. والواقع أن رابطة العادلين ظلت أكثر حيوية ونشاطا في الجو الكوسمو بوليتي المنشط للندن أكثر من شقيقاتها في زيوريخ وحتى في باريس. كانت الرابطة قد أنشئت للقيام بأعمال الدعاية بين العمال الألمان، ولكنها اكتسبت طابعا أمميا في لندن. واحتفظت بصلات وثيقة مع اللاجئين السياسيين من كل بقاع الأرض، وحذا قادتها حذو الحركة الميثاقية (الشارتية) التي كانت تنمو وتزداد نشاطا، فوسعوا أفقهم وتقدموا متخطين المفاهيم الحرفية التي بدأوا بها. فعدا عن القادة القدامى شابر وباور ومول، امتاز عدد من الشبان أيضا بينهم كارل فاندر وجورج ايكاريوس بالمقدرة النظرية.

كان التفويض الذي أبرزه مول لماركس في بروكسل وفيما بعد لانغلز في باريس مؤرخا بتاريخ 20 كانون الثاني عام 1847، وكان شابر هو الذي كتبه. صيغ التفويض بلهجة حذرة مخولا حامله إعطاء صورة عن وضع الرابطة وتقديم معلومات مفصلة عن كل النقاط الهامة، ولكن مول كان أقل تحفظا بكثير خلال الحديث. فطلب من ماركس الانضمام إلى الرابطة وأخبره أن مؤتمرا للرابطة سيدعى للانعقاد في لندن بهدف تبني الانتقادات التي عبر عنها ماركس وانغلز وتضمينها بيانا علنيا بوصفها مبادئ الرابطة. وأضاف أن من الضروري أن ينضم ماركس وانغلز إلى الرابطة للمساعدة على التغلب على بعض العناصر العتيقة المحجمة.

سمح ماركس وانغلز لنفسيهما أن يقتنعا بذلك وانضما إلى الرابطة. غير أن مؤتمر الرابطة الذي انعقد في صيف عام 1847 لم يتمخض سوى عن إعادة تنظيم ديمقراطية بما يتناسب وحاجات منظمة دعائية تعمل سرا. فنظمت الرابطة في خلايا وحلقات وحلقات قيادة وسلطة مركزية ومؤتمر. وأعلن أن هدفها هو الإطاحة بالبرجوازية وإقامة حكم البروليتاريا وإلغاء المجتمع القديم الذي يقوم على تناقضات طبقية وبناء مجتمع اشتراكي جديد لا طبقات فيه ولا ملكية فردية.

وطبقا للطابع الديمقراطي للرابطة، التي أصبحت تسمي نفسها العصبة الشيوعية وضعت القوانين الأساسية أمام الخلايا لنقاشها على أن يترك البت في الأمر إلى مؤتمر قادم يعقد قبل نهاية العام ويبحث فيه أيضا البرنامج الجديد. ولم يحضر ماركس هذا المؤتمر، ولكن انغلز حضره ممثلا للشيوعيين في باريس وفيلهلم ولف ممثلا لحلقة بروكسل.

7-الدعاية في بروكسل

بدأت العصبة بتأسيس روابط تثقيفية للعمال الألمان تتيح فرصة القيام بدعاية علنية وتشكل في الوقت ذاته احتياطيا تستطيع العصبة أن تستخدمه لتقوية صفوفها.

وكانت طريقة عمل هذه الروابط هي ذاتها في كل مكان: يوم في الأسبوع يخصص للمناقشات ويوم آخر للنشاط الاجتماعي (الغناء وإلقاء الشعر الخ)، وأسست مكتبات مرتبطة بهذه الروابط، كما افتتحت صفوف، حيث أمكن لتعليم العمال المبادئ الأولية للشيوعية.

كانت هذه هي الخطة التي أسست بموجبها في بروكسيل رابطة العمال الألمان في نهاية آب. وكان رئيسا الرابطة موسى هس ووالو، وكان فيلهلم ولف سكرتيرا لها. وجرت العادة أن يجتمع أعضاء الرابطة، الذين سرعان ما فاق عددهم المئة، مساء كل أربعاء وسبت. ففي مساء الأربعاء تبحث المسائل الهامة المرتبطة بمصالح البروليتاريا، أما في أمسيات السبت، فكان ولف يقدم مراجعة سياسية لأحداث الأسبوع ثم يصبح الاجتماع مناسبة اجتماعية يحضرها الأطفال والنساء كذلك.

وفي 27 أيلول عقدت هذه الرابطة مادية أممية لتعبر عن المشاعر الأخوية التي يكنها عمال كل بلد لعمال كل البلدان الأخرى. وكان من العادة أن تستخدم المآدب إطارا للدعاية السياسية وذلك لتجنب تدخل البوليس الذي لا بد منه في الاجتماعات العامة. غير أنه كان وراء هذه المأدبة هدف خاص. فقد كتب انغلز الذي كان موجودا حينذاك في بروكسل إلى ماركس، الذي كان غائبا، يخبره أن برونشتدت وغيره من العناصر المستاءة في الجماعة الألمانية نظموا هذه المأدبة «كي يدفعوا بنا إلى دور ثانوي بالعلاقة مع الديمقراطيين البلجيكيين، وكي يشكلوا منظمة أشمل وأعظم بكثير من رابطة العمال الصغيرة التعيسة التي نعمل فيها». لكن انغلز نجح في إفشال هذه المؤامرة في الوقت المناسب، وانتخب واحدا من نائبي الرئيس رغم عدم رغبته في ذلك لأنه كان يبدو «صغير السن إلى حد مخيف»، وانتخب الفرنسي أمبرت نائبا آخر للرئيس، بينما انتخب الجنرال ميلينيت رئيسا فخريا والمحامي يوتراند رئيسا عاملا، وكلا الرجلين من مقاتلي الثورة البلجيكية عام 1830.

كان عدد المدعوين الذين حضروا المأدبة مئة وعشرين بينهم بلجيكيون وألمان وسويسريون وفرنسيون وبولنديون وايطاليون وروسي واحد. وبعد عدد من الخطب، استقر الرأي على تأسيس «رابطة أصدقاء الإصلاح في بلجيكا» على غرار «الإخوة الديمقراطيين» وانتخب انغلز عضوا في الهيئة التحضيرية، ولكن سرعان ما اضطر إلى مغادرة بروكسل، فكتب إلى يوتراند موصيا بأن يقبل ماركس بدلا منه، مشيرا إلى انه لو كان ماركس حاضرا في اجتماع 27 ايلول لانتخب بلا شك: «ولذا فالواقع أن ماركس لن يأخذ مكاني في الهيئة، على العكس من ذلك، لقد كنت أنا ممثلا له في الاجتماع». وهكذا، عندما تأسست «الرابطة الديمقراطية لتوحيد كل البلدان» في 7 و15 تشرين الثاني، انتخب ماركس وامبرت نائبين للرئيس، بينما ثبت الجنرال ميلينيت رئيسا فخريا ويوتراند رئيسا عاملا. ووقع البيان التأسيسي للرابطة ستون شخصا من الديمقراطيين البولنديين والفرنسيين والألمان والبلجيكيين. وكان من بين الألمان الذين وقعوا ماركس وهس وجورج ويرث والإخوان ولف وستيفان بورن وبورنشتدت.

انعقد الاجتماع الكبير الأول الذي نظمته الرابطة في 29 نوفمبر للاحتفال بذكرى الثورة البولندية. وتكلم ستيفان بورن نيابة عن الألمان وقوبلت كلمته بالتصفيق الحاد. ولم يكن ماركس حاضرا في الاجتماع، فقد كان يمثل الرابطة الديمقراطية في اجتماع عقده «الديمقراطيون الأخويون» في لندن في اليوم ذاته للغرض نفسه. وكانت الكلمة التي ألقاها ماركس في هذا الاجتماع مليئة بالروح الثورية والبروليتارية: «لقد اختفت بولندا القديمة، ونحن آخر من يتمنى بعثها من جديد. وفي الواقع، لم تختف بولندا القديمة وحدها، بل اختفت معها ألمانيا القديمة وفرنسا القديمة وانجلترا القديمة، وباختصار المجتمع القديم كله. لكن خسارة المجتمع القديم ليست خسارة لأولئك الذين ليس لديهم ما يخسرون، واليوم هذا هو الوضع بالنسبة لغالبية الشعب في كل البلدان». وأوضح ماركس في الخطاب انه يرى أن انتصار البروليتاريا على البرجوازية سيؤدي إلى تحرير كل الأمم المضطهدة، وان انتصار البروليتاريا الانجليزية على البرجوازية الانجليزية سيكون انتصار لكل المضطهَدين على المضطهدين. ولن تتحرر بولندا في بولندا، بل في انجلترا. وإذا ما استطاع الميثاقيون (الشارتيون) هزيمة أعدائهم في الداخل، فإنهم بذلك سيهزمون المجتمع كله.

تبنى «الديمقراطيون الأخويون» اللهجة ذاتها في ردهم على الخطاب الذي سلمه لهم ماركس نيابة عن الرابطة الديمقراطية: «إن مثلكم، صديقنا وأخانا ماركس، سيخبركم بالحماسة التي رافقت ظهوره بيننا وقراءته لخطابكم علينا. لقد لمعت كل الأعين بالفرح، وانطلقت كل الأصوات مرحبة بممثلكم... إننا نقبل بأحر مشاعر الرضى التحالف الذي عرضتموه علينا. لقد تأسست رابطتنا منذ أكثر من عامين وشعارها: كل البشر أخوة. وفي آخر احتفال تذكاري بتأسيس الرابطة أوصينا بتشكيل مجلس ديمقراطي لكل الأمم، ونحن سعداء إذ سمعنا أنكم اقترحتم الشيء ذاته علنا. إن تآمر الملوك يجب أن يقابل بتآمر الشعوب... إننا مقتنعون تمام الاقتناع أنه إذا أردنا الوصول إلى الأخوة العامة الشاملة، فإن علينا أن نخاطب الشعب الحقيقي، نخاطب البروليتاريين الذين ينقطون عرقا وينزفون دما تحت ضغط النظام الاجتماعي القائم... إننا لن نلبث أن نرى حملة الأخوة وفرسان الإنسانية المختارين يتقدمون على الطريق ذاته من الكوخ والمحراث والسندان والمصنع». وبعد ذلك اقترح الديمقراطيون الأخويون عقد مؤتمر ديمقراطي عام في بروكسل في أيلول 1848 كضريبة مضادة لمؤتمر التجارة الحرة الذي عقد في بروكسل في أيلول 1847.

غير أن ماركس ذهب إلى لندن لأسباب أخرى عدا إلقاء خطاب في اجتماع الديمقراطيين الأخويين. فبعد انتهاء هذا الاجتماع مباشرة وفي الغرف ذاتها، التي كانت مقر قيادة العصبة التثقيفية للعمال الشيوعيين التي أسسها في 1840 شابر وباور ومول، انعقد المؤتمر الثاني للعصبة الشيوعية لتبني نظام أساسي جديد وبحث برنامج جديد لها. وكان انغلز حاضرا أيضا في المؤتمر. فقد غادر باريس في 27 تشرين الثاني وقابل ماركس في اوستنده كي يذهبا معا إلى انجلترا. وبعد نقاشات استمرت عشرة أيام، أنيطت بماركس وانغلز مهمة وضع المبادئ الأساسية للشيوعية في بيان عام علني.

وفي منتصف كانون الأول، عاد ماركس إلى بروكسل وعاد انغلز إلى باريس بطريق بروكسل. ويبدو أن أيا منهما لم يكن متعجلا القيام بالمهمة التي ألقيت على عاتقهما. وفي 24 كانون الثاني 1848 أرسلت اللجنة المركزية للعصبة الشيوعية تحذيرا صارما إلى لجنة منطقة بروكسل تهدد فيها المواطن ماركس باتخاذ إجراءات ضده، إذا لم يكن بيان الحزب لشيوعي الذي وافق على وضعه، قد وصل إلى اللجنة المركزية في أول شباط. ومن الصعب اكتشاف سبب هذا التأخير، فهو ربما كان عائدا إلى الطريقة الكاملة الدقيقة التي اعتادها ماركس في قيامه بالأعمال التي يأخذها على عاتقه، وربما كان السبب هو انفصاله عن انغلز، أو ربما كان صبر اللندنيون، قد نفذ عندما سمعوا أن ماركس مستمر بحماس في دعايته في بروكسل.

ففي 9 كانون الثاني 1848 ألقى ماركس خطابا حول التجارة الحرة إلى الرابطة الديمقراطية. وكان في الواقع ينوي أن يلقي هذا الخطاب في مؤتمر التجارة الحرة في بروكسل، ولكنه لم يستطع اخذ الكلمة في المؤتمر. عرى ماركس في هذا الخطاب زيف دعاة التجارة الحرة الذين يتظاهرون بأن «رفاه العمال» هو الدافع الأول لتحريضهم، وأضاف انه على الرغم من أن التجارة الحرة في مصلحة الرأسماليين ضد مصلحة العمال، إلا أنها تتفق مع المبادئ الأساسية للاقتصاد السياسي البرجوازي. وأعلن أن التجارة الحرة هي حرية رأس المال الذي يقوم بتحطيم القيود القومية التي لا تزال تعيقه، وذلك كي يطلق كل قواه. والتجارة الحرة تفسخ الأمم وتزيد من تفاقم التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية، وهي بالتالي تسارع الثورة الاجتماعية. وماركس إلى جانب حرية التجارية بهذا المعنى الثوري.

وفي الوقت ذاته دافع ماركس عن نفسه ضد الشكوك بأنه يحمل ميولا تفضل الحماية الجمركية، ولم يكن وقوف ماركس إلى جانب التجارة الحرة يتناقض مع دعمه لإجراءات الحماية في ألمانيا بوصفها «إجراءات برجوازية تقدمية». فقد كان ماركس، مثلما كان انغلز، ينظر إلى كل مسائل التجارة الحرة مقابل الحماية الجمركية من زاوية ثورية. فقد كانت البرجوازية الألمانية تحتاج تعرفة الحماية كسلاح ضد الإقطاع والحكم المطلق وكوسيلة لتنمية الصناعة الكبيرة، التي ستصبح عاجلا أم آجلا معتمدة على السوق العالمي، أي على التجارة الحرة. قوبلت كلمة ماركس بالتصفيق الحاد من أعضاء الرابطة الديمقراطية، التي قررت أن تطبعها بالفرنسية والفلامية على نفقتها الخاصة.

غير أن المحاضرات التي ألقاها ماركس على رابطة العمال الألمان حول العمل المأجور ورأس المال، كانت أهم بكثير. فقد انطلق في هذه المحاضرات من أن الأجور ليست نصيب العامل في السلعة التي ينتجها هي، ولكنها نصيبه من سلعة موجودة مسبقا اشترى الرأسمالي بها قدرا معينا من قوة العمل المنتجة. وقال أن سعر قوة العمل يتحدد كسعر أي سلعة أخرى بأكلاف الإنتاج. وأكلاف إنتاج قوة العمل البسيطة هي نفقات تزويد العامل بالوسائل التي تمكنه من البقاء حيا وتخليد نوعه. وسعر هذه الأكلاف يتمثل بالأجور، وهذا السعر كأسعار كل السلع الأخرى يكون أحيانا أعلى من أكلاف الإنتاج وأحيانا اخفض منها، وتبعا لتذبذبات المنافسة، ولكن ضمن حدود هذه التذبذبات يقترب السعر من الحد الأدنى للأجر.

ثم تفحص ماركس رأس المال. فأجاب على ما يقوله الاقتصاديون البرجوازيون من أن رأس المال هو عمل متراكم متسائلا: «ما هو العبد الزنجي؟ كائن إنساني من عرق ملون. الزنجي زنجي، ولكنه في ظل ظروف معينة يصبح عبدا. وآلة غزل القطن آلة لغزل القطن، وهي لا تصبح رأسمالا إلا في ظل ظروف معينة. وبدون هذه الظروف لا تكون الآلة رأسمالا أكثر مما يكون الذهب نقدا أو السكر سعرا للسكر». إن رأس المال علاقة إنتاجية اجتماعية، علاقة إنتاجية للمجتمع البرجوازي. ويصبح مجموع السلع، أي مجموع القيم التبادلية، رأسمالا عندما يظهر كقوة اجتماعية مستقلة، أي كقوة لقطاع من المجتمع ، ويزيد رأس المال نفسه بالمبادلة مع قوة العمل الحية المباشرة. «إن وجود طبقة لا تملك شيئا سوى قدرتها على العمل شرط ضروري لوجود رأس المال. وسلطة العمل الماضي المتراكم على قوة العمل الحية المباشرة هي التي تجعل العمل المتراكم رأسمالا. ورأس المال لا يتكون بفعل أن العمل المتراكم يخدم قوة العمل الحية كوسيلة للمزيد من الإنتاج. إنه يتكون بفعل أن قوة العمل الحية تخدم العمل المتراكم كوسيلة للحفاظ على قيمته التبادلية وزيادتها». وبذلك فإن رأس المال وقوة العمل يشترطان بعضهما البعض بصورة متبادلة، وينتج الواحد منهما الآخر بصورة متبادلة كذلك.

وعندما يستنتج الاقتصادي البرجوازي من هذا أن مصالح الرأسماليين ومصالح العمال متماثلة، فإن هذا صحيح بمعنى أن العامل سيقضي جوعا ما لم يوظفه رأس المال وأن رأس المال سيهلك ما لم يستغل العامل. وكلما ازداد رأس المال الإنتاجي بسرعة، أي كلما ازدهرت الصناعة، كلما أصبحت حاجة الرأسمالي إلى العمال أكثر وكلما صار العامل يبيع قوة عمله بثمن أعلى. ولذا فإن الشرط الذي لا غنى عنه لتحقيق وضع للطبقة العاملة يمكن احتماله هو تحقيق أسرع نمو ممكن لرأس المال الإنتاجي.

ويوضح ماركس أن أي زيادة كبيرة في الأجور في هذه الحالة تفترض مسبقا زيادة أسرع في رأس المال الإنتاجي. فعندما ينمو رأس المال، يمكن للأجور أن تزداد كذلك، ولكن أرباح رأس المال تزيد بسرعة أكثر بكثير. وبذلك يتحسن الوضع المادي للعمل، ولكن على حساب وضعه الاجتماعي إذ أن الهوة الاجتماعية بينه وبين الرأسمالي تزداد اتساعا. ولذا فإن القول أن أفضل حالة للعمل المأجور هي أسرع نمو لرأس المال يعني فحسب انه كلما سارعت الطبقة العاملة في تقوية القوة المعادية، أي الثروات المستلبة التي تحكمها، فإن الشروط التي يسمح لها بالعمل من جديد على تقوية رأس المال تصبح أفضل، وتصبح الطبقة العاملة راضية بصنع السلاسل الذهبية التي تجرها في أعقاب البرجوازية.

ويضيف ماركس أن نمو رأس المال وزيادة الأجور ليسا مرتبطين ارتباطا لا فكاك منه كما يزعم الاقتصاديون البرجوازيون. وليس صحيحا القول أنه كلما أصبح رأس المال أسمن كلما تحسنت تغذية عبده. فنمو رأس المال الإنتاجي يتضمن مراكمة وتركيز رأس المال. ويتضمن تركز رأس المال قدرا أكبر من تقسيم العمل وقدرا اكبر من استخدام الآلات. وازدياد تقسيم العمل يؤدي إلى تدمير المهارة الخاصة للعامل، وعندما تستبدل هذه المهارة بشكل من العمل يستطيع أي من العمال القيام به، يزداد التنافس بين العمال.

ويزداد هذا التنافس أكثر كلما أصبح تقسيم العمل يسمح لعامل واحد بالقيام بالعمل الذي كان يؤديه في السابق ثلاثة. والآلات تؤدي إلى هذه النتيجة بدرجة أكبر. ونمو رأس المال الإنتاجي يجبر الرأسماليين الصناعيين على العمل بوسائل تنمو باستمرار، مدمرا بذلك الصناعيين الأصغر ملقيا بهم إلى صفوف البروليتاريا. أكثر من ذلك، عندما ينخفض معدل الفائدة مع تراكم رأس المال، لا يعود باستطاعة الصغار من حملة الأسهم العيش على الفوائد التي يجنونها ويجبرون على الاتجاه صوب الصناعة للعمل، مما يزيد في حجم صفوف البروليتاريا.

وفي النهاية، كلما نما رأس المال الإنتاجي، كلما أصبح مجبرا على العمل لسوق لا يعرف احتياجاته. ويسبق الإنتاج الطلب، ويجهد العرض في إجبار الطلب، وتتضح النتيجة في الأزمة: تلك الهزات الصناعية التي لا يستطيع عالم التجارة الاحتفاظ بحياته فيها إلا بالتضحية بقسم من

ثرواته، بقسم من إنتاجه، وحتى بقسم من القوى الإنتاجية ذاتها، لآلهة العالم السفلي السوداء، وتصبح هذه الأزمات أكثر عنفا وتحدث بوتيرة أسرع. إن رأس المال لا يعيش على العمل فحسب، بل إنه كرئيس قبيلة بربري نبيل يجر جثث عبيده معه إلى القبر، فتنشأ قبور جماعية للعمال الذين يهلكون في أزماته. ثم يلخص ماركس المسألة كما يلي: إذا نما رأس المال بسرعة، ينمو التنافس بين العمال أسرع، أي تنخفض وسائل توظيف ومعيشة العمال أكثر، ولكن النمو السريع لرأس المال هو مع ذلك أكثر الشروط مواتاة للعمل المأجور.

هذه النتف هي، لسوء الحظ، كل ما بقي من المحاضرات التي ألقاها ماركس على العمال الألمان في بروكسل، ولكنها كافية لتبين لنا مدى الجدية والشمول اللذين كان يشن دعايته بهما. وكان لباكونين رأي آخر في ذلك. فقد وصل باكونين إلى بروكسل في حوالي هذا الوقت بعد أن طرد من فرنسا بسبب خطاب ألقاه في ذكرى الثورة البولندية. وفي 28 كانون الأول 1847 نجده يكتب إلى صديق روسي قائلا: «أن ماركس لا يزال يقوم بالنشاطات العتيقة ذاتها التي لا طائل تحتها، مفسدا العمال بتحويلهم إلى مناطقة. إنه التنظير المجنون القديم ذاته». ونجده أكثر شراسة في رسالة كتبها إلى هيرويغ عن انغلز وماركس، فهو يقول: «وباختصار، أكاذيب وغباء، غباء وأكاذيب. من المستحيل أن يتنفس المرء بحرية بصحبتهما. إنني أظل بعيدا عنهما، وقد قلت لهما بصورة قاطعة أنني لن انضم إلى جماعتهم من الحرفيين الشيوعيين ولن تكون لي بها صلة».

إن ملاحظات باكونين هذه جديرة بالاهتمام، لا لأنها تكشف عن انزعاج شخصي، فقد اصدر باكونين حكما مختلفا على ماركس قبل ذلك وبعد ذلك، ولكن لأنها تكشف تناقضا عدائيا أدى فيما بعد إلى صراعات عنيفة بين هذين الثوريين.

8-البيان الشيوعي

أثناء ذلك أرسلت مخطوطة ما أصبح يعرف فيما بعد بالبيان الشيوعي إلى لندن. وقد كان هناك الكثير من العمل التحضيري بعد المؤتمر الأول مباشرة، فقد ترك هذا المؤتمر نقاش البرنامج إلى المؤتمر الثاني. وكان من الطبيعي أن يشغل منظرو الحركة أنفسهم بالمهمة، فوضع ماركس وانغلز وموسى هس مسودات للبرنامج.

غير أن المسودة الوحيدة من هذه المسودات الأولية التي لا تزال موجودة هي تلك التي يشير إليها انغلز في رسالة لماركس بتاريخ 24 تشرين الثاني 1847، أي قبل انعقاد المؤتمر الثاني بقليل: «فكر قليلا مرة ثانية. اعتقد أن من الأفضل أن نتخلى عن الشكل التعليمي لما نكتب ونسميه بيانا شيوعيا. وأنا اعتقد انه ما دام لا بد من إيراد شيء من التاريخ، فإن الشكل الحالي غير مناسب. وسأحضر معي ما عملت هنا. وهو موضوع في شكل قصصي بسيط، ولكنه غير منظم إلى درجة تعيسة وتبدو عليه علائم التسرع». ثم يضيف انغلز انه يعرض مسودته على فروع باريس، ولكنه يأمل أن يحصل على الموافقة عليها، عدا ربما نقطة فرعية أو اثنتين.

كانت هذه المسودة موضوعة في شكل تعليمي تماما، ولربما كان هذا الشكل قد ساعد لو تم الاحتفاظ به على سهولة فهمه أكثر، ولكان مناسبا أكثر لأغراض التحريض المباشر من البيان اللاحق الذي كان يتفق على أية حال في محتواه الإيديولوجي مع محتوى المسودة هذه. ضحى انغلز على الفور بالمسودة التعليمية المكونة من خمسة وعشرين سؤالا وجوابا لمصلحة الطريقة التاريخية في العرض، فقدم بذلك برهانا آخر على يقظة ضميره، ذلك انه أدرك أن بيانا تقدم فيه الشيوعية نفسها للعالم، يجب أن يكون كما قال مؤرخ يوناني عملا له أهمية خالدة لا سجالا يعنى به القارئ العرضي.

وفي الواقع، كان الشكل الكلاسيكي هو الذي كسب للبيان الشيوعي مكانة خالدة في الأدب العالمي، على الرغم من أنني لا اقصد بهذا القول أن أقدم أي تنازل لأولئك الذين يجهدون بانتزاع هذه الفقرة أو تلك من النص في البرهنة على أن كاتبي البيان سرقا كارليل أو غيبون او سيسموندي أو غيرهم. فهذا الادعاء هراء محض، والبيان الشيوعي بلا شك عمل مستقل وأصيل لا يتفوق عليه في أصالته أي كتاب آخر. بيد أن البيان لم يحتو أي فكرة لم يكن ماركس وانغلز قد عالجاها في كتاباتهما السابقة. ولذا لم يكن البيان كشفا جديدا، بل كان عرضا لنظرة مؤلفيه إلى العالم في مرآة زجاجها أوضح ما يكون وإطارها اصغر ما يكون. ونحن بقدر ما يسمح لنا أسلوب البيان بالحكم، نستطيع القول أنه كان لماركس اليد الطولى في وضع الكتاب بشكله النهائي. ولكن المسودة التي وضعها انغلز تبين أنه لم يكن متخلفا عن ماركس في فهم المسائل المثارة في البيان، وانه يقف مع ماركس على قدم المساواة كمؤلف له.

لقد مرّ ثلثا قرن على المرة الأولى التي نشر فيها البيان، وكانت العقود الستة أو السبعة التي مضت مليئة بتغيرات اقتصادية وسياسية كبيرة لم تترك البيان على حاله. فقد تقدم التطور التاريخي في بعض المناحي بصورة مختلفة، وفوق كل شيء تقدم بسرعة اقل بكثير من السرعة التي توقعها مؤلفا البيان. فكلما كان نظرهما يتغلغل في المستقبل البعيد، كلما كانا يريانه أقرب. وعلى أية حال يمكن للمرء القول أنه بدون هذا الظل لم يكن الضوء ممكنا. لقد كانت ظاهرة سيكولوجية تلك التي لاحظها ليسنغ في أولئك البشر «الذين يلقون على المستقبل نظرات صائبة»: «إن ما تطلب الطبيعة لتحقيقه آلافا من السنين، يجب بالنسبة لهم أن يتحقق لحظة وجودهم». ولم يكن ماركس وانغلز بالتأكيد على خطأ يبلغ آلافا من السنين، ولكنهما أخطآ بعشرات السنين. فعندما وضعا البيان الشيوعي كانا يعتبران أن الرأسمالية وصلت مستوى لا تكاد تصله في يومنا هذا. ويقول انغلز في مسودته بوضوح أكبر مما في الصيغة النهائية للبيان أن فروع الإنتاج كلها تقريبا في الأقطار المتمدنة تجري في المصانع وأن الحرف اليدوية والمانيفاكتورة قد انضغطت بفعل الصناعة الكبيرة في كل فروع الإنتاج تقريبا.

تختلف الصورة التي رسمها البيان لبدايات الأحزاب العمالية حينذاك اختلافا بينا عن وصفه لحالة الإنتاج. فهو يقول أن الميثاقية (الشارتية) وهي أهم حركة للطبقة العاملة حينذاك متأثرة بقوة بالعناصر البرجوازية الصغيرة، هذا عدا عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي في فرنسا. أما

الراديكاليون في سويسرا والثوريون البولنديون الذين كانوا يعتبرون تحرير الفلاحين شرطا أوليا للتحرر الوطني فلم يكونوا أكثر من ظلال على الحائط. وفيما بعد أشار مؤلفا البيان ذاتهما غلى ضيق المجال الذي احتلته حركة الطبقة العاملة في ذلك الحين، وأكدا على وجه الخصوص غياب روسيا والولايات المتحدة: «كانت روسيا تمثل في تلك الفترة الاحتياطي الضخم للرجعية الأوربية، وكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة تمتص فائض قوة البروليتاريا الأوربية. وكان البلدان يزودان أوربا بالمواد الخام، وفي الوقت ذاته يشكلان سوقا للإنتاج الصناعي الأوربي. ولذا فقد كان البلدان بصورة أو بأخرى قلعتين للنظام الاجتماعي الأوربي». كم تغير الوضع بعد ذلك بجيل! وكم تغير في يومنا هذا!

وعندما نعترف بأن «الدور الثوري الرفيع» الذي عزاه مؤلفا البيان إلى نمط الإنتاج الرأسمالي قد استغرق ليجعل نفسه محسوسا وقتا أطول بكثير مما توقع المؤلفان، فهل يمكن اعتبار ذلك دحضا للبيان؟ أن الوصف الرائع القوي الذي يحتويه القسم الأول من البيان للصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازي يبقى كما هو أساسا حتى اليوم، على الرغم من أن البيان يعالج مسار صراع الطبقات بإيجاز بالغ. واليوم لا يستطيع المرء أن يطلق تعميما كذاك الذي أطلقه البيان ويقول أن العامل الحديث –بعكس أعضاء الطبقات المضطهدة السابقة، الذين كانوا على الأقل واثقين من الظروف التي يستطيعون في ظلها أن يستمروا في عيشهم الخانع ينحدر أكثر فأكثر تحت ظروف طبقته بدلا من أن يرفع نفسه بتقدم الصناعة. ذلك أنه إذا كان صحيحا أن نمط الإنتاج الرأسمالي يملك قطعا هذا الميل العام، إلا أن قطاعات واسعة من الطبقة العاملة نجحت مع ذلك في الحصول لنفسها، وعلى أساس المجتمع الرأسمالي، على عيش يرفعها حتى فوق مستوى عيش بعض شرائح البرجوازية الصغيرة.

وبالطبع، يجدر بالمرء أن لا يقع في الخطأ الذي يقع فيه النقاد البرجوازيون للبيان الذين يستنتجون من هذا خطأ «نظرية التعاسة المطردة» التي يدعون أن البيان يطرحها. فقد وضعت النظرية، التي تقول أن نمط الإنتاج الرأسمالي يفقر الجماهير أينما حل، قبل أن ينشر البيان الشيوعي بوقت طويل، بل وقبل أن يضع ماركس أو انغلز القلم على الورق. وقد نادى بها مفكرون اشتراكيون وسياسيون راديكاليون، وفي الواقع كان أول من قدمها اقتصاديون برجوازيون. وكانت «مقالة في السكان» التي كتبها مالتوس محاولة لصقل «نظرية التعاسة المطردة» وتحويلها إلى قانون طبيعي خالد. لقد كانت هذه الظاهرة عقبة طالما اصطدم بها التشريع الذي تسنه الطبقات الحاكمة. فسنت قوانين الفقر وأقيمت الباستيلات للمعوزين، واعتبر العوز جريمة اقترفها المعوزون ويستحقون عليها العقاب. هكذا لم يخترع ماركس وانغلز «نظرية التعاسة المطردة» هذه، بل على العكس من ذلك، عارضاها منذ البداية، ليس بمعنى أنهما حاولا أن ينكرا حقيقة تعاسة الجماهير التي لا تنازع، ولكن بمعنى أنهما اثبتا أن هذه الظاهرة ليست قانونا طبيعيا خالدا بل ظاهرة تاريخية يمكن أن تزول، وستزول، بفعل نمط الإنتاج ذاته الذي سببها.

وإذا كان هناك من هجوم يمكن أن يوجه إلى البيان الشيوعي من هذه الزاوية، فهو فقط أن المؤلفين لم يتحررا تماما من تأثير «نظرية التعاسة المطردة» البرجوازية هذه. فقد تبنى البيان نظرية الأجر التي طورها ريكاردو على أساس نظرية مالتوس السكانية، ونتيجة لذلك قلل من أهمية نضالات الأجور والمنظمات النقابية للعمال، التي اعتبرها أساسا مدارس تدريب تعد العمال للصراع الطبقي السياسي. وفي ذلك الحين، لم يعتبر ماركس وانغلز قانون الساعات العشر الانجليزي «انتصارا لمبدأ»، بل اعتبرا انه ضمن الظروف الرأسمالية قيد رجعي يقيد الصناعة الكبيرة. ولم يعترف البيان بقوانين المصانع والمنظمات النقابية كمراحل في النضال البروليتاري من أجل الانعتاق، ذلك النضال الذي يجب أن يحول المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي والذي يجب أن يخاض حتى النهاية إلا إذا أريد للمكتسبات الأولى التي أحرزت بصعوبة أن تخسر مرة أخرى.

لذا نظر البيان إلى ردود فعل البروليتاريا تجاه الإفقار الذي يؤدي إليه نمط الإنتاج الرأسمالي نظرة واحدية الجانب وفي ضوء الثورة السياسة فحسب. وأقام استنتاجاته على أساس الثورتين الفرنسية والانجليزية، وتوقع عقودا عدة من الحروب الأهلية والقومية تصل البروليتاريا في جوها المحموم إلى النضج السياسي. ويمكن للمرء أن يرى بوضوح آراء مؤلفي البيان في تلك الفقرات التي تعالج مهام الحزب الشيوعي في ألمانيا. فهي تحبذ التعاون بين البروليتاريا والبرجوازية عندما تعمل البرجوازية بطريقة ثورية ضد الملكية المطلقة وضد ملكية الأرض الإقطاعية وضد النزعات البرجوازية الصغيرة، ولكنها تؤكد بوضوح أن الشيوعيين يجب أن لا يفشلوا في جعل العمال يفهمون فهما كاملا التناقض العدائي الأساسي بين البرجوازية والبروليتاريا، ثم يعلن: «إن الاهتمام الرئيسي للشيوعيين يتجه نحو ألمانيا، لأن ألمانيا تقف على عشية ثورة برجوازية، ولأنها ستمارس هذه الثورة في ظل ظروف من الحضارة الأوربية أعلى تطورا بكثير، وبوجود بروليتاريا أكثر تطورا بكثير مما في حالة انجلترا في القرن السابع عشر وفرنسا في القرن الثامن عشر، ولذا فإن ثورة برجوازية ألمانية لا يمكن إلا أن تكون فاتحة مباشرة لثورة بروليتارية». وسرعان ما حدثت الثورة البرجوازية التي أشار إليها البيان، ولكن الظروف التي حدثت فيها كان لها أثر معاكس بالضبط: جعلت البرجوازية تصمت مترددة والمهام الملقاة على عاتقها لما تزل نصف مكملة إلى ما بعد بضعة أشهر عندما وقع قتال حزيران في باريس فشفى البرجوازية بشكل عام والبرجوازية الألمانية بشكل خاص من كل الميول الثورية.

هكذا نلاحظ أن مرور الوقت لم يترك البيان، على وضوح معالمه، دون أن يلحق به أذى. ففي عام 1872، وفي مقدمة لطبعة جديدة، أشار المؤلفان نفسيهما إلى أن البيان قد عفا عليه الزمن هنا وهناك، ولكنهما بالصدق ذاته أضافا أن المبادئ التي وضعها قد أثبتت صحتها بشكل عام، ولا شك في أن هذا القول سيظل صحيحا إلى أن ينتهي الصراع التاريخي العلمي الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية. فالقسم الأول من البيان يرسم المبادئ الأساسية لهذا الصراع بوضوح لا مثيل له، بينما يعالج القسم الثاني الأفكار الأساسية للشيوعية العلمية الحديثة. وعلى الرغم من أن القسم الثالث الذي ينتقد الأدب الاشتراكي والشيوعي لا يعالج هذا الأدب إلا إلى عام 1847، إلا أن يقوم بمهمته بشمول بالغ حتى انه ما من اتجاه اشتراكي أو شيوعي نما منذ ذلك الحين إلا وكان هذا القسم من البيان قد انتقدته مسبقا. وحتى النبوءة التي ترد في القسم الرابع والأخير والتي تتعلق بتطور ألمانيا تحققت وإن بشكل آخر غير ذلك الذي قصده المؤلفان: لم تكن الثورة الألمانية، وقد صمتت مترددة والمهام الملقاة على عاتقها لم تكمل بعد، أكثر من فاتحة للتطور القوي للصراع الطبقي البروليتاري.

لقد أصبح البيان الشيوعي، الذي لا يطال صحة حقائقه الأساسية شك والذي يمكن القول أنه بالغ الدلالة حتى في أخطائه، أصبح وثيقة تاريخية لها أهمية عالمية، وصيحة الحرب التي يختتم بها البيان كلماته لا تزال صداها يتردد عبر التاريخ: «يا عمال العالم اتحدوا!».

الفصل السادس

الثورة والثورة المضادة

1-أيام شباط وآذار

في 24 شباط عام 1848 أطاحت ثورة بالملكية البرجوازية في فرنسا. ولم تمر هذه الحركة دون أن تترك أصداء في بروكسل، ولكن الملك ليوبولد، ذلك الثعلب الشيخ، نجح في تخليص نفسه بذكاء أكبر من ذكاء حماه في باريس. فأعلن لوزرائه الليبراليين وللنواب ورؤساء البلديات أنه إذا كانت الأمة تريد تخليه عن العرش فإنه سيفعل ذلك في الحال. فكان أن مست هذه البادرة الكريمة شغاف قلوب الساسة البرجوازيين العاطفيين إلى درجة جعلتهم يعمدون إلى كبت كل مشاعرهم التمردية في الحال.

لكن الملك بعد ذلك جعل جنوده يفرقون كل الاجتماعات الجماهيرية وأطلق شرطته لاصطياد اللاجئين الأجانب. وتلقى ماركس معاملة قاسية على وجه الخصوص. فلم تكتف الشرطة باعتقاله بل اعتقلت كذلك زوجته ووضعتها في السجن إلى جانب عاهرات عاديات. وفيما بعد أقيل موظف الشرطة المسؤول عن هذه الفظاعة من منصبه وسحب أمر القبض. ولكن أمر الإبعاد لم يسحب على الرغم من أنه لم تكن لهذه المغالطة أية ضرورة، فقد كان ماركس على وشك أن يغادر بروكسل إلى باريس على أية حال.

بعد اندلاع الثورة مباشرة، اتخذت السلطات المركزية للعصبة الشيوعية في لندن قرارا بنقل السلطة التنفيذية إلى ممثلي المنطقة في بروكسل، ولكن هذه الأخيرة قررت بالنظر إلى الوضع في بروكسل، التي كانت عمليا تحت الحكم العسكري، أن تسلم هذه السلطة إلى ماركس، وأعطته تعليمات بأن يشكل قيادة مركزية جديدة في باريس، التي كان قد دعى إليها برسالة موقعة من فولوكون نيابة عن الحكومة المؤقتة. وكان هذا الاستدعاء شرفا عظيما لماركس.

وفي 6 آذار سنحت لماركس فرصة أخرى لامتحان فهمه المتفوق للوضع السياسي، عندما عارض بشدة في اجتماع كبير للاجئين الألمان في باريس خطة مغامرة لغزو ألمانيا بالقوة المسلحة لتثوير البلاد. وطان برونشتدت المشبوه قد وضع هذه الخطة، ونجح لسوء الحظ في كسب هيرويغ إلى جانبها. وكذلك كان باكونين يحبذ هذه الخطة، رغم أن أبدى أسفه لذلك فيما بعد. كما أن الحكومة المؤقتة كانت على استعداد لدعم هذه الخطة، ليس يفعل أي حماسة ثورية بل على أساس أنه سيكون من المفيد بالنظر إلى البطالة المرتفعة السائدة التخلص من كثير من العمال الأجانب. فوضعت الحكومة المؤقتة عنابر بتصرف الثوريين وجعلت لكل رجل منهم منحة قدرها خمسون سنتيما في اليوم من أجل الزحف على الحدود. ولم يكن لدى هيرويغ أية أوهام حول الأسباب التي دفعت الحكومة المؤقتة إلى دعم الخطة، فقد أشار هو ذاته إلى «الدافع الأناني» والرغبة «في التخلص من آلاف الحرفيين الأجانب الذين ينافسون الفرنسيون»، ولكن افتقاره على الرؤية السياسية جعله يتابع المغامرة حتى نهايتها المؤسفة قرب نيدر دوسنباخ.

وفي حين كان ماركس يعرض بنشاط هذا الغباء الثوري، الذي فقد كل مبرر له بانتصار الثورة في فيينا في 13 آذار وفي برلين في 18 آذار، كان الوقت ذاته منغمسا في شحذ الأسلحة لدفع الثورة الألمانية بفعالية، وكانت تلك مهمة ركز عليها الشيوعيون انتباههم. قام ماركس بإنشاء قيادة مركزية جديدة في باريس تتألف منه ومن انغلز وولف من بروكسل وباور ومول وشابر من لندن. ثم قامت هذه القيادة الجديدة بإصدار نداء يتضمن سبعة عشر مطلبا «لصالح البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة والفلاحين في ألمانيا»، منها مطلب بأن تعلن ألمانيا جمهورية واحدة موحدة، ومنها تسليح الشعب وتأميم ملكيات الأمراء والإقطاعيين والمناجم ووسائل النقل وتأسيس مشاغل وطنية وتحقيق نظام التعليم الإجباري على نفقة الدولة الخ. وبالطبع، كان يقصد بهذه المطالب أن تضع الخطوط العامة للدعاية الشيوعية، فما من أحد يعلم أفضل من ماركس أن هذه المطالب لا يمكن أن تنفذ بين يوم وآخر، بل نتيجة لعملية طويلة من التطور الثوري.

كانت العصبة الشيوعية أضعف من أن تعمل وحدها على تسريع الحركة الثورية، وسرعان ما تبين أن تنظيمها في القارة لا يزال في مرحلة الطفولة. غير أن ذلك لم يعد هاما، ذلك أن الطبقة العاملة كسبت لنفسها وسائل وإمكانية شن دعايتها علنا ولذا فقد انتفى السبب الرئيسي لوجود العصبة.

وفي ظل هذه الظروف أسس ماركس وانغلز ناديا شيوعيا ألمانيا في باريس، ونصحا أعضاءه بالابتعاد عن مجموعات العصابات التي ينظمها هيرويغ، وأن يتسللوا فرادى إلى ألمانيا لدعم الحركة الثورية هناك. ونجح النادي في إرسال بضع مئات من أعمال الألمان إلى ألمانيا، وبفضل وساطة فلوكون استطاع النادي أن يحصل لهؤلاء العمال على الدعم ذاته الذي منحته الحكومة المؤقتة لهيرويغ ومتطوعيه.

نتيجة لهذه الجهود، نجحت أغلبية أعضاء العصبة الشيوعية في العودة إلى ألمانيا، وبرهنت نشاطاتهم هناك أن العصبة كانت مدرسة تدريب ثوري ممتازة. فحيثما كانت الحركة الثورية في ألمانيا تبدي علائم النمو القوي، كان أعضاء العصبة هم القوة الدافعة وراءها: شابر في ناسو، ولف في برسلو، ستيفان بورن في برلين، وغيرهم من الأعضاء في أماكن أخرى. ولقد أصاب بورن الحقيقة عندما كتب إلى ماركس يقول: «لم تعد العصبة موجودة، ولكنها مع ذلك موجودة في كل مكان». فقد كفت العصبة كمنظمة عن الوجود، ولكن دعايتها كانت ملموسة في كل مكان توجد فيه ظروف الصراع البروليتاري من أجل الحرية، رغم أن ذلك كان يصح على منطقة صغيرة نسبية من ألمانيا.

ذهب ماركس وأقرب أصدقائه إلى الراينلاند، التي كانت أكثر أجزاء ألمانيا تقدما وحيث كان القانون النابليوني يمنح قدرا أكبر من الحرية للحركة أكثر مما يمنح القانون البروسي في برلين. وهناك نجح ماركس وأصدقاؤه في إحراز قصب السبق في الإعدادات التي كان يقوم بها في كولون عدد من العناصر الديمقراطية والشيوعية لتأسيس جريدة. غير أن الأمور لم تكن بهذه البساطة، فقد عانى انغلز على وجه الخصوص من خيبة الأمل عندما اكتشف أن شيوعيته في وبرتال لم تكن حتى حقيقة ولم يكن لها أي قوة، وأنه ما أن بدأت الثورة تبدي بعض أمائر الحياة حتى صارت شيوعية وبرتال ظلا من الماضي. وكتب انغلز إلى ماركس الذي كان في كولون يقول: «لا فائدة البتة في الاعتماد على أية أسهم هنا... أنهم جميعا يتجنبون بعث أي مسائل اجتماعية وكأنها الطاعون، إنهم يسمون ذلك تحريضا... لن نستطيع الحصول على شيء من والدي الشيخ. فهو يعتبر «كولونيخه تزايتونغ»، الكلمة الأخيرة في عالم التحريض، ولعله سيرسل لنا قريبا ألف طلقة لينهينا بدلا من أن يرسل ألف ثالر ليساعدنا». لكن انغلز نجح في تعويم أربعة عشر سهما، وفي الأول من حزيران 1848 ظهر العدد الأول من «نيو راينيخه تزايتونغ»، وعليه توقيع ماركس بوصفه رئيس التحرير، وانغلز وويرث والأخوان ولف كأعضاء في هيئة التحرير.

2-أيام حزيران

وصفت «نيو راينخه تزايتونغ» نفسها بأنها «صحيفة الديمقراطية»، ولكنها لم تكن تعني الديمقراطية البرلمانية اليسارية. فلم تكن تهدهد طموحات كهذه، بل كانت تعتبر أن من الضروري مراقبة الديمقراطية الرسمية مراقبة وثيقة. وأعلنت أن مثلها الأعلى ليس جمهورية سوداء ولا حمراء ولا ذهبية، وأن عملها المعارض الحقيقي سيبدأ فقط بعد تأسيس الجمهورية.

وكانت الصحيفة انسجاما مع روح البيان الشيوعي تسعى إلى تنمية الحركة الثورية على أساس الظروف القائمة. وصارت هذه المهمة أكثر إلحاحا، إذ أن الأرض الثورية التي اكتسبت في آذار خسر نصفها ثانية في حزيران. ففي فيينا، حيث كانت التناقضات الطبقية العدائية غير نامية، سادت فوضى مستحكمة، بينما كانت البرجوازية في برلين تمسك بمقاليد الأمور في يدها، ولكنها كانت تحدوها رغبة جامحة في إعطائها في أول فرصة لقوى ما قبل آذار المقهورة. وفي الولايات ألمانية، كان الوزراء الليبراليون يتيهون خيلاء، ولكنهم لم يميزوا أنفسهم عن سابقيهم من الإقطاعيين باس مسلك رجولي تجاه عروش الملوك، بل بقدر أكبر من الخنوع تجاهها. وتتوجت الأمور بانعقاد جمعية فرانكفورت الوطنية في 18 أيار وكان الاجتماع يهدف إلى تحقيق الوحدة الألمانية، ولكن الجمعية أثبتت أنها ليست أكثر من ناد للكلام.

عالجت «نيو راينيخه تزايتونغ» في عددها الأول هذا الواقع المظلم بحدة جعلت نصف حملة أسهمها القلائل يتراجعون. ولم يكن ذلك لأن الصحيفة تقدمت بمطالب مبالغ فيها اعتمادا على الرؤية السياسية للأبطال البرلمانيين وشجاعتهم. فقد انتقدت الصحيفة النزعة الجمهورية الفيدرالية للجناح اليساري في برلمان فرانكفورت، وأعلنت أن فيدرالية مكونة من الملكيات الدستورية والإمارات الصغيرة والجمهوريات وعلى رأسها حكومة جمهورية لا يمكن قبولها كترتيب نهائي لألمانيا موحدة، ولكنها ما لبثت أن أضافت:

«إننا لا نتقدم بأي مطلب طوباوي لإنشاء جمهورية ألمانية واحدة وموحدة فورا، ولكننا نطلب أن لا يخلط ما يسمى بالحزب الديمقراطي الراديكالي المرحلة الأولى للنضال والحركة الثورية بالهدف النهائي لهما. فالوحدة الألمانية والدستور الألماني لا يمكن انجازهما إلا نتيجة لحركة ستضطر إلى اتخاذ قراراتها نتيجة للنزاعات الداخلية ولحرب ضد الشرق في وقت واحد. ولا يمكن أن يصدر دستور قاطع بقرار، فهو سيكون نتيجة حركة لما نشهدها بعد. ولذا فإن المسألة ليست تحقيق هذه الفكرة السياسية أو تلك أو اعتناق هذا الرأي أو ذاك، بل هي التقاط الوجهة العامة للتطور. وما على الجمعية الوطنية إلا أن تتخذ الخطوات العملية الممكنة مباشرة».

غير أن الجمعية الوطنية عملت ما يمكن اعتباره غير عملي إطلاقا طبقا لكل قوانين المنطق: لقد انتخبت الدوق الأكبر النمساوي يوهان وصيا على الرايخ، واضعة الحركة كلها في أيدي الأمراء.

وكانت الأحداث في برلين أكثر أهمية منها في فرانكفورت. فقد كانت الدولة البروسية اخطر عدو للثورة داخل ألمانيا. وفي 18 آذار أطاحت الثورة بالحكومة البروسية، ولكن ثمار هذا الانتصار كان لا بد لها، في الظرف التاريخي آنذاك، أن تقع في حضن البرجوازية، التي سارعت إلى خيانة الثورة. فقد عمدت وزارة كامفوزن-هانزمان البرجوازية إلى دعوة المجلس الموحد إلى الانعقاد بحجة ضرورة ضمان «استمرار العلاقات القانونية»، وبذلك أنكرت هذه الوزارة أصلها الثوري. وأعطت الوزارة للمجلس الموحد، تلك الهيئة الإقطاعية، مهمة وضع دستور برجوازي. وفي 6 و8 نيسان أقر قانونان بإحقاق الحقوق البرجوازية المختلفة كأساس للدستور الجديد، ونص القانونان على إجراء انتخابات عامة سرية غير مباشرة لانتخاب جمعية جيدة تصنع الدستور بالاتفاق مع العرش.

وبهذا المبدأ الرائع، مبدأ «الاتفاق مع العرش»، ضاع الانتصار الذي أحرزته بروليتاريا برلين في 18 آذار الحرس البروسي، ذلك أنه إذا كانت قرارات الجمعية الجديدة المقترحة تتطلب موافقة العرش، فإن من الواضح أن هذا الأخير قد استعاد مركزه القوي ثانية. وأصبح يستطيع مرة أخرى أن يملي إرادته ما لم تطرحه أرضا ثورة أخرى، وتلك إمكانية كانت وزارة كامفوزن-هانزمان تفعل كل ما في وسعها لمنعها. فقد خادعت الجمعية التي انعقدت في 22 أيار، وجعلت من نفسها «درعا» للعائلة المالكة، وأعطت للثورة المضادة التي لم تكن لتجد لها قائدا هذا القائد باستدعائها لأمير بروسيا من انجلترا، التي كان ولي العهد الرجعي هذا قد فر إليها هربا من غضب الجماهير في 18 آذار.

لم تكن جمعية برلين بالتأكيد هيئة ثورية، ولكنها على الأقل لم تستطع أن تحتفظ برأسها باستمرار في الغيوم كما فعلت مثيلتها في فرانكفورت. فقد استسلمت في مسألة «الاتفاق مع العرش»، ذلك المبدأ الذي امتص النخاع من عظامها هي ذاتها. ولكن بعد أن لفظت جماهير

برلين كلمتها مرة أخرى بالهجوم على زيفهاوس (أحد المباني العسكرية) في 14 حزيران، اشتد عضد جمعية برلين مرة ثانية، واتخذت موقفا حازما نوعا ما تجاه العرش. ونتيجة لذلك استقال كامفاوزن، بينما تمسك هانزمان بمنصبه. وكان الفارق بين الاثنين هو أن كامفاوزن كانت لا تزال تقض مضجعه بقايا من الإيديولوجية البرجوازية التقدمية، بينما كرس هانزمان نفسه بلا خجل ولا وازع لخدمة المصالح البرجوازية المحصن، وكان يعتقد أنه يدعم هذه المصالح أفضل دعم بالارتباط بحماسة بالملك واليونكر وبإفساد الجمعية واضطهاد الجماهير اضطهادا لم يسبق لها أن تعرضت له. وقد سمحت له الثورة المضادة، لأسباب خاصة بها، أن يحتفظ برأسه يف هذه المرحلة.

فعلت «نيو راينيخه تزايتونغ» كل ما بوسعها للوقوف في وجه هذا التطور القاتل. فأوضحت أن كامفاوزن كان يزرع بذور الرجعية لمصلحة البرجوازية، ولكن المحصول سيكون في النهاية لمصلحة الحزب الإقطاعي. وفعلت كل ما تستطيع لتصليب مقاومة جمعية برلين وعلى الأخص جناحها اليساري، وقاتلت ضد الغضب الذي أثاره تدمير عدد من الأعلام والأسلحة القديمة في الهجوم على زيفهاوس معلنة أن الشعب قد أبدى غريزة لا تخطئ لا في مهاجمة مضطهديه فحسب، بل وأيضا في تدمير أوهام ماضيه ذاته. وفوق كل شيء، حذرت الصحيفة الجناح اليساري من أن يقنع بالمظاهر الخداعة للانتصارات البرلمانية، موضحة أن الرجعية على استعداد لأن تقدم للجناح اليساري هذه الظواهر بسرور ما دامت مواقع القوة الحقيقية لا تزال في يد القوى القديمة.

وتنبأت الصحيفة بنهاية تعيسة لوزارة هانزمان، التي كانت تسعى إلى وضع أسس السيطرة البرجوازية بالحلول الوسط مع الدولة الإقطاعية البوليسية القديمة. إن الوزارة «في مهمتها الغامضة المتناقضة، تضع لنفسها هدفا هو تحقيق السيطرة البرجوازية، ولكنها ترى نفسها في كل لحظة وقد خدعتها الرجعية لمصلحة الإقطاع والحكم المطلق، وفي النهاية ستكون الوزارة هي الخاسرة. فالبرجوازية لا تستطيع تحقيق سيطرتها دون أن تكسب الشعب كله حليفا مؤقتا لها ودون أن تتخذ موقفا ديمقراطيا إلى هذا الحد أو ذاك». وصبت الصحيفة نقدا لاذعا على محاولات البرجوازية جعل تحرير الفلاحين، وهو المهمة المشروعة للثورة البرجوازية، ضربا من الشعوذة: «إن برجوازية عام 1848 الألمانية تخون الفلاحين، دونما شرف أو خجل، على الرغم من أن الفلاحين يمثلون حليفها الطبيعي، وعلى الرغم من أنه لا حول لها ولا طول ضد الارستقراطية دون دعم الفلاحين». وأعلنت الصحيفة أن ثورة 1848 الألمانية ليست غير محاكاة تثير السخرية لثورة 1789 الفرنسية.

ولقد كانت محاكاة بمعنى آخر كذلك، ذلك أن الثورة الألمانية لم تحرز النصر نتيجة لقوتها الخاصة بل نتيجة للثورة الفرنسية التي كانت قد أعطت للبروليتاريا حصة في الحكومة. وهذا لا يبرر ولا يعذر خيانة البرجوازية الألمانية للثورة، ولكنه على الأقل يفسرها. وحين بدأت وزارة هانزمان تقدم خدماتها في حفر القبور، كان الشبح الذي تخشاه قد حظر تقريبا. ففي معركة رهيبة في الشوارع استمرت أربعة أيام هزمت بروليتاريا باريس بفضل الخدمات المشتركة التي أداها رأس المال وكل الطبقات والأحزاب البرجوازية.

وفي ألمانيا رفعت «نيو راينيخه تزايتونغ» راية «المقهورين المنتصرين» من بين الركام، فأوضح ماركس في مقالة لاحقة، الجانب الذي يتوجب على الديمقراطية أن تقف معه في الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا: «سيسألوننا عما إذا لم نكن نملك دموع وتنهدات وكلمات أسى وأسف لضحايا الحرس الوطني والحرس المتحرك والحرس الجمهوري الذين سقطوا أمام غضب الشعب. ستعتني الدولة بأراملهم وأيتامهم وستمجدهم بيانات فخمة وستحمل جثثهم إلى القبور جنازات كهيبة. وستعلن الصحافة الرسمية أنهم خالدون، وتغني الرجعية الأوربية من الشرق إلى الغرب قصائد مديح لهم. من جهة أخرى من حق الصحافة الديمقراطية أن تضع أكاليل الغار في أعناق أبناء الشعب الذين تقض مضاجعهم ضربات الجوع المضني وتحتقرهم الصحافة الرسمية ويتخلى عنهم الأطباء ويحقرهم كل المواطنين المحترمين ويصفونهم بأنهم لصوص وأوغاد وعبيد ويلقي بزوجاتهم وأطفالهم في خضم تعاسة ما بعدها تعاسة ويبعد أفضل من تبقى منهم إلى ما وراء البحار».

كلفت هذه المقالة الرائعة التي لا تزال تنفث لهب الحماسة الثورية حتى في يومنا هذا، كلفت «نيو راينيخه تزايتونغ» العدد الأكبر من حملة الأسهم الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بأسهمهم.

3-الحرب ضد روسيا

كانت الحرب ضد روسيا هي المحور الذي تحركت عليه «نيو راينيخه تزايتونغ» في السياسة الخارجية. فقد كانت تعتبر روسيا العدو الخطر للثورة الذي لا بد أن يدخل حلبة الصراع حالما تتخذ الحركة الثورية طابعا أوربيا.

ولقد كانت محقة تماما في هذا المجال، ذلك أن بينما كانت تدعو إلى حرب ثورية ضد روسيا، كان القيصر يعرض على أمير بروسيا استخدام الجيش البروسي لإعادة الحكم الاستبدادي إلى بروسيا بالقوة المسلحة. ولم تكن «نيو راينيخه تزايتونغ» تعرف ذلك، ولكن ما أثبتته الوثائق، وبعد سنة من ذلك أنقذ الدب الروسي الحكم الاستبدادي النمساوي، إذ سحق بقبضته القاسية الثورة الهنغارية. وأعلنت «نيو راينيخه تزايتونغ» أن الثورة الألمانية لن تنتصر في النهاية إلا بتدمير الدوليتين البروسية والنمساوية، وهذا ما سيظل مستحيلا طالما لم تكسر قوة القيصر.

كانت «نيو راينيخه تزايتونغ» تأمل أن تؤدي حرب كهذه ضد روسيا إلى إطلاق القوى الثورية، كما حدث في فرنسا عام 1789 نتيجة الحرب ضد ألمانيا الإقطاعية. وقد قال وير أن الصحيفة كانت تعامل الأمة الألمانية على أساس أنها أمة من «الرعاع»، وكان هذا صحيحا من حيث أنها صبت جام غضبها المرير على الخدمات الذيلية التي أداها الألمان طيلة سبعين عاما ضد حرية واستقلال الأمم الأخرى في أمريكا وفرنسا، في إيطاليا وبولندا، في هولندا واليونان وكذلك في أقطار أخرى «الآن وقد بدأ الألمان يحطمون نير قيودهم، يتوجب عليهم أن يبدلوا

سياستهم تجاه البلدان الأخرى كلها، وإلا فإنهم سيجدون السلاسل التي صنعوها للآخرين تقيد حريتهم الشابة ذاتها. إن ألمانيا ستكسب حريتها بقدر ما تترك الأقطار الأخرى بحرية». وشجبت الصحيفة السياسة الميكافيلية التي تنشر عمدا، رغم اهتزازها من الجذور في ألمانيا ذاتها، كراهية ضيقة الأفق لكل الأشياء الأجنبية، متحدية بذلك الطابع الكوزموبوليتي للألمان، وذلك كي تشل الطاقات الديمقراطية وتحول حمم الثورة عن مجراها وتشحذ سلاحها للقمع الداخلي.

«ورغم الضجيج الوطني الذي كانت تثيره الصحافة الألمانية كلها تقريبا»، وقفت «نيو راينيخه تزايتونغ» منذ البداية إلى جانب البولنديين في بوسن والايطاليين في إيطاليا والهنغاريين في هنغاريا، وسخرت من «التناقض التاريخي» الذي يسعى إلى دفع الألمان في حملة صليبية ضد حرية بولندا وهنغاريا وإيطاليا، في حين أن الألمان ذاتهم يحاربون الحكومات ذاتها التي تسعى إلى قيادتهم في هذه الحملة». إن حربا ضد روسيا هي فقط الحرب الثورية بالنسبة لألمانيا. ففي حرب كهذه تستطيع ألمانيا أن تكفر عن كل آثام الماضي وتبرهن على رجولتها وتهزم طغاتها وتقدم خدمة لقضية المدنية بالتضحية بأبنائها بطريقة تشرف شعبا ألقى عنه قيود عبودية طالما قاساها، وتكسب حرية في الداخل بتحرير نفسها خارجيا».

ونتيجة لهذا الموقف دعمت «نيو راينخه تزايتونغ» قضية الحرية البولندية بحماسة تفوق حماستها لأية أمة مضطهدة أخرى. كانت الحركة في بولندا عام 1848 تقتصر على مقاطعة بوسن البروسية، لأن بولندا الروسية كانت لا تزال منهوكة القوى منذ ثورة 1830 وبولندا النمساوية منهوكة منذ انتفاضة 1846. وكانت هذه الحركة متواضعة في مواقفها فلم تطالب بغير ما وعدت به معاهدات 1815 ولم ينفذ: استبدال جيش الاحتلال بقوات وطنية وملء الوظائف كلها بأهل البلاد. وبفعل أول تشنجات الخوف التي سببتها أحداث 18 آذار وعدت حكومة برلين «بإعادة تنظيم وطنية عامة، مع أنها بالطبع لم تكن تنوي تحقيق ذلك أبدا. وبلغت طيبة البولنديين حدا جعلهم يثقون بنوايا الحكومة، ولكنها حرضت عمدا سكان مقاطعة بوسن من اليهود والألمان وأثارت حربا أهلية تقع مسؤولية فظائعها على البروسيين كلية. وفي وجه هذه الاستفزازات المتعمدة حارب البولنديون بشهامة وشجاعة واستطاعوا أكثر من مرة هزيمة قوات تفوقهم عددا وعدة كما حدث في 30 نيسان قرب ميلوسلاف، ولكن قتال المناجل البولندية ضد الشظايا البروسية كان قتالا خاسرا على المدى الطويل.

وأيضا في المسألة البولندية لعبت البرجوازية الألمانية دورها الخياني الهلع المعهود. فقد كانت البرجوازية قد أدركت قبل ثورة آذار أن قضية بولندا مرتبطة بقضية ألمانيا، وحتى بعد 18 آذار أعلن الناطقون باسم البرجوازية في ما كان يدعى البرلمان الأولي في فرانكفورت أن العمل من أجل إعادة الوحدة القومية في بولندا واجب يقع على عاتق الأمة الألمانية، ولكن ذلك لم يمنع كامفاوزن من أن يلعب دور ذنب اليونكر البروسيين في هذه المسألة أيضا. فنفذ وعد «إعادة التنظيم الوطني» بطريقة مخزية، فانتزع قطعة أثر أخرى من مقاطعة بوسن حتى انتزع ثلثيها، وجعل المجلس الموحد يضمها إلى العصبة الألمانية وكان هذا العمل المخزي آخر عمل قام به هذا المجلس الذي انتهت حياته التعسة وسط احتقار الشعب الألماني. وهنا واجهت الجمعية الوطنية في فرانكفورت مسألة ما إذا كان يتعين عليها أن تعترف بالنواب الذين انتخبوا في أجزاء بوسن المقتطعة أعضاء فيها أم لا. وبعد نقاشات دامت ثلاثة أيام قررت ما كان يتوقع منها أن تقرر، وبارك هذا الابن العاق للثورة العمل المخزي الذي قامت به الثورة المضادة.

وقد علقت «نيو راينيخه تزايتونغ» أهمية بالغة على هذه المسألة، فقد عالجت نقاشات فرانكفورت بالكثير من التفصيل ونشرت ثمانية أو تسعة مقالات بعضها طويل جدا حول الموضوع، في حين أنها كانت تعالج حرب الكلمات البرلمانية التي تجري في هذه الجمعية باختصار يشوبه الاحتقار. وتمثل هذه السلسلة من المقالات أطول المقالات التي نشرت في الصحيفة إطلاقا ويبدو من محتواها وأسلوبها أن ماركس وانغلز قد اشتركا في كتابتها. وعلى أية حال يبدو أن انغلز قد قام بكتابة الجزء الأكبر منها فهي تحمل إمارات أسلوبه وطريقته.

أول ما يلفت النظر في هذه المقالات وما يشرف الصحيفة في القوت ذاته هو الصراحة التي تعري بها اللعبة الحقيرة التي كان يجري لعبها في بولندا. غير أن الغضب الأخلاقي الذي أبداه ماركس وانغلز لا يشبه في شيء العطف الذي أبداه مثلا روبرت بلوم في فرنسا للبولنديين الذين أسيئت معاملتهم، فقد حكم ماركس وانغلز على جهود قائد الجناح اليساري المحترم هذا في هذا المجال بالكلمات التالية: «كلام فارغ، ولكننا مستعدون أن نتعرف بسرور أنه كلام فارغ قيل في قضية حقة» وقد كان حكمها صحيحا ذلك أن بلوم فشل في أن يدرك أن خيانة بولندا كانت في الوقت ذاته خيانة للثورة الألمانية، التي خسرت بذلك سلاحا لا يعوض ضد عدوها الرهيب، القيصرية.

أصدر ماركس وانغلز الحكم السلبي ذاته على مطلب «الإخاء العام بين الشعوب»، ذلك المطمح الغامض إلى الإخاء بغض النظر عن الوضع التاريخي والتطور الاجتماعي للشعوب. فقد كانت كلمات مثل «العدالة والإنسانية والحرية والمساواة والإخاء والاستقلال» بالنسبة لهما لا تعدو كونها كلمات أخلاقية جميلة الوقع، ولكنها لا تلعب أي دور في المسائل السياسية والتاريخية. لقد كان ما أسمياه «الميثولوجيا الحديثة» بغيضا لهما على الدوام، فقد كانا في خضم أيام الثورة المحمومة لا يعترفان بغير محك واحد هو: «مع أو ضد!».

تنفث المقالات البولندية المنشورة في «نيو راينيخه تزايتونغ» روحا ثورية حقيقية ترفعها فوق مستوى الكلام الموالي للبولنديين الذي أطلقه الديمقراطيون العاديون. ولا تزال هذه المقالات تشكل حتى يومنا هذا برهانا ساطعا على البصيرة السياسية الحادة النفاذة لمؤلفيها. لاش ك أنه كان من الأهمية بمكان إيضاح أن النضال من أجل الاستقلال البولندي لا يمكن أن ينجح إلا إذا كان في الوقت ذاته انتصارا للديمقراطية الزراعية ضد الحكم المطلق الأبوي الإقطاعي، لكن ماركس وانغلز كانا على خطأ حين افترضا أن البولنديين أنفسهم أدركوا ذلك منذ دستور عام 1791. كذلك كان خطأ القول أن بولندا الديمقراطية الارستقراطية القديمة قد ماتت ودفنت، ولكنها تركت خلفها فتى يافعا هو بولندا الديمقراطية الفلاحية. وقد اعتبر ماركس وانغلز اليونكر البولنديين الذين قاتلوا بشجاعة لا مثيل لها خلف المتاريس الأوربية الغربية ليحرروا شعبهم من قبضة القوى الشرقية ممثلين للارستقراطية البولندية، بينما كان هؤلاء في الواقع قد طهرتهم نيران النضال ورفعوا أنفسهم فوق

طبقتهم كما رفع هتن وسينغن نفسيهما مرة فوق الطبقة الإقطاعية الألمانية أو كما فعل كلاوزوفيتس وغينسنو في الماضي الأقرب إذ رفعا نفسيهما فوق اليونكرية البروسية.

سرعان ما تخلى ماركس وانغلز عن هذا الخطأ، ولكن انغلز تشبث على الدوام بالحكم المؤسف الذي أصدرته «نيو راينيخه تزايتونغ» على نضال الأمم والجماعات السلافية الجنوبية من أجل التحرر الوطني. فقد كان لا يزال في عام 1882 يحتفظ بالموقف الذي اتخذه عام 1849 في سجاله مع باكونين. ثارت الشكوك حول باكونين في تموز 1848 بأنه عميل للحكومة الروسية، ونشرت «نيو راينيخه تزايتونغ» تقريرا بهذا المعنى من مراسلها في باريس، بينما نشر مكتب هافا تقريا مماثلا في الوقت ذاته. غير أنه تبين في الحال أن هذا الشك لا أساس له، فنشرت «نيو راينيخه تزايتونغ» اعتذارا طويلا. وفي نهاية آب وبداية أيلول سافر ماركس إلى برلين وفيينا، وفي برلين جدد صداقته القديمة مع باكونين، وعندما طرد باكونين من بروسيا في تشرين الأول، نشر ماركس مقالة شجب فيها السلطات بشدة. وعندما نشر انغلز سجاله ضد باكونين حول نداء وجهه هذا الأخير إلى السلافيين، بدأه بالتأكيد على أن باكونين «صديق لنا»، وبعد ذلك مضى ليهاجم ميول باكونين السلافية بقسوة بالغة.

كانت مصالح الثورة في المسألة السلافية أيضا هي ما حدد موقف ماركس وانغلز. فقد وقف السلافيون النمساويون، باستثناء البولنديين، إلى جانب الرجعية في صراع حكومة فينا ضد الألمان الثوريين وضد هنغاريا. وقد استولوا بهجوم عاصف على فيينا الثورية وأسلموها لانتقام السلطات «الملكية والإمبراطورية» الذي لا يرحم. وحين كان انغلز يشن سجاله ضد باكونين، كانوا ثانية يقاتلون هنغاريا المنتفضة، التي غطى انغلز حربها الثورية على صفحات «نيو راينيخه تزايتونغ» بمعرفة خبيرة، ولكن في الوقت ذاته بالتزام حماسي جعله يبالغ في تقدير مستوى التطور التاريخي للمجريين كما كان قد بالغ في تقدير مستوى تطور البولنديين. أجاب انغلز على طلب باكونين بأن يمنح للسلافيين النمساويين استقلالهم قائلا: «كلا وألف كلا! إن جوابنا على الجمل العاطفية حول الإخاء، إلى تقدم لنا نيابة عن أكثر الأمم في أوربا معاداة للثورة هو: لقد كانت كراهية روسيا ولا تزال أول عاطفة ثورية للألمان. ومنذ الثورة تعززت هذه الكراهية لروسيا بالكراهية للتشيكيين والكرواتيين، ونحن لا نستطيع أن نحرز انتصار الثورة، مع البولنديين والمجريين إلا بالإرهاب الناشط ضد هذه الشعوب السلافية. إننا نعرف الآن أين يتركز أعداء الثورة: في روسيا وفي البلدان السلافية النمساوية، ولن يمنعنا أي مقدار مهما كبر من الجمل والنداءات لمستقبل ديمقراطي غامض لهذه البلدان من أن نعامل أعداءنا كأعداء». ولذا فإن انغلز يعلن نضالا قاسيا حتى الموت ضد «السلافية المضادة للثورة».

لم يكن السبب الذي يكمن وراء هذه السطور موجة شرسة من الغضب والحنق على الخدمات الخانعة التي يقدمها السلافيون النمساوين للرجعية الأوربية. وقد أنكر انغلز على الشعوب السلافية عدا البولنديين والروس وربما السلافيين في تركيا أي مستقبل تاريخي «لسبب بسيط هو أن كل السلافيين الآخرين لا يملكون الشروط التاريخية والجغرافية والسياسية والصناعية للاستقلال والحياة القومية». وقد جعلهم نضالهم من أجل الاستقلال القومي أدوات طيعة في يد القيصرية، ولا تستطيع كل خداعات النفس طيبة المقصد التي يمارسها المؤيدون للسلافيين أن تبدل هذه الحقيقة أقل تبديل. والحق التاريخي للشعوب الثقافية العظيمة في متابعة تطورها الثوري أهم بكثير من نضال هذه الأمم والجماعات الصغيرة المقعدة العاجزة من أجل الاستقلال، حتى ولو كان ذلك سيؤدي إلى اقتلاع برعم قومي صغير هنا أو هناك وهو لا يزال يافعا. ونتيجة لهذه النضالات العظيمة، سيكون لهذه الأمم الصغيرة امتياز المشاركة في عملية تطور تاريخي كانت ستظل غريبة عنهم لو تركوا وحدهم. وفي عام 1882 قال انغلز مرة أخرى الشيء ذاته: إذا وقف نضال السلافيين البلقانيين في وجه مصالح البروليتاريا الأوربية الغربية فإن أذناب القيصرية هؤلاء يستطيعون الذهاب إلى الجحيم في رأيه، فالعواطف الشاعرية لا مكان لها في النضال السياسي.

كان انغلز على خطأ حينما أنكر على الأمم السلافية الصغيرة أي مستقبل تاريخي، ولكن الفكرة الأساسية التي حكمت موقفه كانت صحيحة ولا شك، وقد احتفظت «نيو راينيخه تزايتونغ» بهذه الفكرة حتى عندما اتفقت مع «العواطف الشاعرية» التي يهدهدها الجهلة الأدعياء.

4-أيام أيلول

كان هذا الوضع في الحرب التي بدأتها الحكومة البروسية بعد 18 آذار ضد الدنمارك بناء على تعليمات الجامعة الألمانية فيما يتعلق بمسألة سليزويغ-هولشتاين.

كانت هولشتاين مقاطعة ألمانية تنتمي إلى الجامعة الألمانية. أما سليزويغ فلم تكن عضوا في الجامعة، وكان قسمها الشمالي على الأقل دنماركيا في غالبيته. وكانت هاتان الدوقيتان ترتبطان بالدنمارك بعائلة حاكمة مشتركة، على الرغم من أن مبدأ خلافة الرجال كان سائدا في سليزويغ-هولشتاين، في حين كان مسموحا في الدنمارك، التي تكبر الدوقيتين بقليل مساحة وعدد سكان، أن يتولى العرش رجل أو امرأة. كذلك كان لسليزويغ وهولشتاين إدارة مشتركة وكانا معا يتمتعان باستقلالهما كدولة.

كان هذا على الأقل هو الرابط الذي يربط الدنمارك باالدوقيتين طبقا للمعاهدات الدولية. ولكن حتى بداية القرن التاسع عشر، كانت الروح الألمانية تسيطر على كوبنهاغن واللغة الألمانية هي اللغة الرسمية للمملكة، بينما كان نبلاء سليزويغ-هولشتاين يمارسون نفوذا حاسما في الدوائر الدنماركية الحاكمة. بدأت التناقضات العدائية القومية تنمو خلال الحرب النابليونية. فقد كان على الدنمارك أن تدفع في معاهدات فيينا ثمن إخلاصها لولي عهد الثورة الفرنسية الكبرى بخسارة النرويج، واضطرت في صراعها من أجل البقاء إلى اقتطاع سليزويغ-هولشتاين، ذلك أن الانتهاء التدريجي لسلالة الرجال في العائلة المالكة كان يتهدد بانفصال الدوقيتين التام عن الدنمارك لأنهما في ظل هذه الظروف سيقعان في أيدي سلالة عائلية موازية. وبدأت الدنمارك في تحري نفسها قدر الإمكان من النفوذ الألماني، ولكنها كانت أصغر من أن تنمي روحا قومية حقيقية، فبدأت تنمي روحا اسكندنافية مصطنعة، على أمل الاتحاد مع النرويج والسويد في وحدة ثقافية مشتركة.

لاقت محاولات الحكومة الدنماركية السيطرة التامة على الدوقيتين معارضة عنيدة فيهما، وسرعان ما أصبح النزاع مسألة قومية بالنسبة لألمانيا. فقد كانت ألمانيا، خاصة بعد تشكيل الزولفرين (الاتحاد الجمركي)، قد أدركت أهمية برزخ سليزويغ-هولشتاين لتجارتها المزدهرة وعلاقاتها البحرية. فرحبت بالمقاومة التي تلقاها الدعاية الدنماركية في الدوقتيين. وأصبحت أغنية «سليزويغ-هولشتاين بالبحر محاطة» أشبه بنشيد وطني في ألمانيا منذ 1844. ولم تتخط الحركة بالتأكيد النسق النعس الممل لتحريض أيام ما قبل آذار، ولكن الحكومات الألمانية لم تستطع أن تحرر نفسها تماما من تأثيرها. وفي 1847، اتخذ كريستيان الثامن ملك الدنمارك خطوة حاسمة في اللعبة، إذ أصدر رسالة ملكية يعلن فيها دوقية سليزويغ وقسما من دوقية هولشتاين أجزاء لا تتجزأ من مملكة الدنمارك. وعندئذ وجد المجلس الألماني في نفسه قوة كافية لإصدار احتجاج خجول بدلا من أن يعلن أن المسألة ليست من اختصاصه كما كان يفعل في العادة عندما يكون من الضروري الدفاع عن مصالح الشعب الألماني ضد عنف الأمراء.

وبالطبع، لم تشعر «نيو راينيخه تزايتونغ» بأي تعاطف مع حماسات البرجوازية، التي كانت تعتبرها الوجه المقلوب للسكندنافية «حماسة لقومية نوردية عتيقة قرصانية فظة لا تستطيع أن تعتبر عن مطامحها البعيدة الغور بالكلمات، ولكنها تستطيع ذلك بالتأكيد بالأفعال، وبالتحديد في المعاملة القاسية للنساء والسكر المزمن والعاطفية الدامعة والغضب الجامح». تحول الوضع بصورة غريبة جدا، ذلك أن المعارضة البرجوازية في الدنمارك، التي كانت تقاتل تحت راية السكندنافية، هي التي كانت تريد أن تجعل دوقية سيليزويغ دنماركية وأن توسع نشاطات الدنمارك الاقتصادية وتعزز الدولة الدنماركية بإعطائها دستورا حديثا، بينما تحول قتال الدوقيتين من أجل حقوقهما الثابتة شيئا فشيئا إلى نضال من أجل التقاليد الإقطاعية والامتيازات الملوكية.

في كانون الثاني عام 1848، اعتلى فريدريك السابع عرش الدنمارك بوصفه الأخير في سلسلة رجال العائلة المالكة، وشرع فورا طبقا لوصية أبيه على فراش الموت في إعداد دستور ليبرالي للدنمارك وللدوقيتين. وبعد ذلك بشهر، أيقظت ثورة شباط في كوبنهاغن حركة شعبية قوية أتت بحزب ايدر-دان البرجوازي إلى السلطة، وفي الحال بدأ هذا الحزب في تنفيذ برنامجه بنشاط محموم هادفا إلى اقتطاع دوقية سليزويغ حتى نهر ايدر. وعندئذ أعلنت الدوقيتان استقلالها عن العائلة المالكة الدنماركية، وشكلتا حكومة مؤقتة في كييل، وحشدتا جيشا من سبعة آلاف رجل. وكان للارستقراطية اليد العليا في الحكومة المؤقتة، وبدلا من أن تعبأ موارد الدوقيتين التي كانت تكفل للدوقيتين الوقوف في وجه الدنمارك، وجهت الحكومة نداء إلى المجلس الألماني وإلى الحكومة البروسية تطلب فيه المساعدة، ذلك أنها لم تكن تخشى أن تتدخل أي من هاتين في الامتيازات الإقطاعية للارستقراطية.

وجد هذا النداء استجابة من هاتين الهيئتين اللتين اغتنمتا بسرور فرصة «الدفاع عن القضية الألمانية» كوسيلة مناسبة للشفاء من الضربات العنيفة التي وجهتها الثورة. فقد كان ملك بروسيا، بعد الهزيمة الساحقة التي تلقاها حرسه على يد مقاتلي المتاريس في برلين في 18 آذار، يتوق إلى استعادة منزلة هذا الحرس باحتلال عسكري، وبدا أن الدنمارك الضعيفة عسكريا تقدم له الفرصة التي طال انتظاره لها. وكان الملك يكره حزب ايدر-دان على أساس أنه إحدى ثمار الثورة، ولكنه في الوقت ذاته كان يعتبر أهل سليزويغ-هولشتاين متمردين على السلطة التي منحها الله، ولذا فقد أعطى تعليمات لجنرالاته أن «يقدموا خدمتهم للثورة» بأخف طريقة ممكنة. وفي الوقت ذاته أرسل رسولا سريا إلى كوبنهاغن هو الميجر فون فلدنبرخ ليخبر الحكومة الدنماركية أنه يرغب في أن تحتفظ سليزويغ-هولشتاين بحكامها الدوقيين، وأنه يتدخل فحسب كي يقف في وجه العناصر الراديكالية والجمهورية.

غير أن الحيلة لم تنطل على الدنمارك، فوجهت نداء إلى الدول الكبرى تطلب فيه المساعدة. وكان أن برهنت بريطانيا العظمى وروسيا أنهما جد راغبتين في منح مساعدة كهذه. ومكنت هذه المساعدة الدنمارك من أن تلكم ألمانيا الكبيرة وكأنها صبي صغير. ووجه رجال الحرب الدنماركيون ضربات قاصمة إلى تجارة ألمانيا البحرية، ولكن الجيش الفيدرالي الألماني بقيادة الجنرال البروسي فرنغل غزا الدوقيتين، واستطاع رغم قيادته التعيسة أن يدفع القوات الدنماركية الضعيفة إلى الخلف، ليجد أن انتصاراته العسكرية قد أصبحت دون طائل بسبب التدخل الدبلوماسي الذي مارسته الدول الكبرى. ففي نهاية أيار، تلقى فرانغل أوامر من برلين بسحب قواته من يوتلاند. وحينئذ وفي 9 حزيران، أعلنت الجمعية الوطنية أن قضية الدوقيتين هي قضية الأمة الألمانية ولذا فإنها تقع ضمن صلاحيات الجمعية التي تتعهد بالدفاع عن شرف ألمانيا.

كانت الحرب في الواقع تخاض باسم الجامعة الألمانية، وكان يجب أن تكون قيادتها بيد الجمعية الوطنية وأمير هابسبرغ الذي انتخبته وصيا على العرش. لكن الحكومة البروسية تجاهلت هذه الحقائق، وفي 28 آب عقدت تحت ضغط انجلترا وروسيا هدنة مالمو لمدة سبعة أشهر، وفي الوقت ذاته عاملت باحتقار الشروط التي وضعها الوصي على الرايخ وتجاهلت ممثله تماما. كانت شروط الهدنة مذلة لألمانيا: حلت حكومة سليزويغ وهولشتاين المؤقتة، ووضع الحكم الأعلى طيلة مدة الهدنة بيد واحد من أنصار الدنمارك، وألغيت القرارات التي أصدرتها الحكومة المؤقتة وفصلت قوات سليزويغ وهولشتاين عن بعضهما. كذلك كانت المعاهدة لغير صالح ألمانيا عسكريا، فقد كانت تمتد طيلة فصل الشتاء، الذي يكون فيه الأسطول الدنماركي عاجزا عن إغلاق الشواطئ الألمانية بينما تكون القوات الألمانية قادرة بالاستفادة من الجليد على احتلال فاين جاعلة الدنمارك تقتصر على جزيرة زيلندا.

وصلت أنباء توقيع الهدنة في الأيام الأولى من أيلول، وكان لها وقع القنبلة في الجمعية الوطنية في فرانكفورت، التي كان أعضاؤها يناقشون بفصاحة لاهوتيي القرون الوسطى «الحقوق الأساسية» لدستور الرايخ المقبل. وفي الواقع اتخذ أعضاء الجمعية في موجة غضبهم الأولى قرارا بأن يكون الخامس من أيلول موعدا لمنع الهدنة، وأدى ذلك إلى استقالة وزارة الرايخ.

استقبلت «نيو راينخيه تزايتونغ» هذا القرار بترحاب مشوب بالرضى، ولكن دون أية أوهام، فقد طالبت بمتابعة الحرب ضد الدنمارك كنتيجة للتطور التاريخي بمعزل عن أي حقوق تفرضها المعاهدات: «إن الدنماركيين شعب يعتمد بلا قيد ولا شرط على ألمانيا تجاريا وصناعيا وسياسيا وفي الأدب. ومن المعروف جيدا أن هامبورغ هي عاصمة الدنمارك لا كوبنهاغن، وأن الدنمارك تستورد الأدب من ألمانيا كما تستورد منها وارداتها المادية. والأدب الدنماركي، باستثناء وحيد هو هولبرغ، ليس إلا نسخة باهتة عن الأدب الألماني... يجب على ألمانيا أن تأخذ سليزويغ للمبرر ذاته الذي أخذت به فرنسا الفلاندرز والألزاس واللورين، وستأخذ به آجلا أو عاجلا بلجيكا. إنه حق المدنية البربرية، حق التقدم ضد الركود... إن الحرب التي نشنها في سليزويغ-هولشتاين حرب وطنية حقيقية. من الذي وقف إلى جانب الدنمارك منذ البداية؟ القوى الثلاث الأكثر عداء للثورة في أوربا: روسيا وانجلترا والحكومة البروسية. إن الحكومة البروسية لم تشن الحرب إلا بالمظاهر فقط قدر ما تستطيع. فلنتذكر مهمة فون فيلدنبرخ والرضى الذي أخلت به بروسيا بيوتلاند بناء على طلب انجلترا وروسيا، ولنتذكر الآن توقيع الهدنة. إن روسيا وانجلترا وبروسيا هي القوى الثلاث التي تخشى أكثر ما تخشى الثورة الألمانية وثمرتها الأولى، الوحدة الألمانية: بروسيا لأنها بذلك ستكف عن الوجود، وانجلترا لأنها ستخسر استغلالها للسوق الألمانية، وروسيا لأن الديمقراطية لن تتقدم إلى فستولا فحسب، بل وإلى دفينا والدنيبر كذلك. لقد تآمرت بروسيا وروسيا وانجلترا معا ضد سليزويغ-هولشتاين، ضد ألمانيا، وضد الثورة. إن الحرب التي ستتمخض عن قرارات فرانكفورت ستكون حرب ألمانيا وضد بروسيا وانجلترا وروسيا. إن الحركة الثورية الألمانية تحتاج هذه الحرب لتنتشلها من سباتها، حرب ضد قوى الثورة المضادة الثلاث، حرب ستجعل بروسيا في النهاية جزءا لا يتجزأ من ألمانيا، حرب ستجعل تحالف ألمانيا وبولندا ضرورة ملحة لا غنى عنها، وستعطي إيطاليا حريتها، حرب ستشن مباشرة ضد حلفاء ألمانيا المضادين للثورة من 1792 إلى 1815، حرب ستهدد الوطن بالخطر وتنقذه في الوقت ذاته، لأن انتصار ألمانيا سيعتمد على انتصار الديمقراطية».

تعكس هذه المقطوعات الواضحة الحادة من «نيو راينخيه تزايتونغ» ما كانت الجماهير الثورية تشعر به غريزيا. فقد تدفق آلاف الرجال إلى فرانكفورت من منطقة حولها يبلغ طوال نصف قطرها خمسين ميلا، وهم مستعدون وتائقون لنضالات ثورية جديدة، ولكن نضالا كهذا كما أوضحت «نيو راينخيه تزايتونغ» سيؤدي إلى إلغاء الجمعية الوطنية ذاتها، وهذه الجمعية تفضل الموت جبنا على الموت بطولة. ففي 16 أيلول منحت موافقتها على هدنة مالو، بينما رفض ممثلو الجناح اليساري فيها عدا واحد أو اثنين طلبا بأن تجعل الجمعية الوطنية نفسها مجلسا ثوريا. وكان القتال الوحيد الذي حدث قتال متاريس صغير في فرانكفورت ذاتها، حتى أن هذا القتال قد سمح له عمدا الوصي على الرايخ بالنمو ليعطيه ذريعة لاستقدام قوات ضخمة من ثكنة مينس الفيدرالية المجاورة ليخيف بحرابه البرلمان ذا السيادة.

وفي الوقت ذاته لاقت وزارة هانزمان في برلين المصير التاعس الذي تنبأت به «نيو راينخيه تزايتونغ». فقد عضدت «سلطة الدولة» ضد «قوى الفوضى»، فساعدت بذلك العسكريين البروسيين والشرطة والدولة البيروقراطية على الوقوف بعد الضربات التي كانت قد تلقتها في 18 آذار، ولكنها لم تنجح في تعزيز مصالح الربح البرجوازي المحض التي خانت الثورة من أجلها. وفوق كل شيء، وكما تنهد عضو من أعضاء الجمعية الوطنية في برلين قائلا «على الرغم من الانشقاق في أيام آذار، لا يزال النظام العسكري القديم حاضرا بالتمام والكمال». كان هذا صحيحا، ومنذ أيام حزيران في باريس استعاد النظام العسكري صليل سيوفه بصورة أوتوماتيكية. لقد كان سرا يعرفه الجميع أن أحد الأسباب التي دعت حكومة بروسيا إلى الموافقة على الهدنة مع الدنمارك كان رغبتها في استدعاء فرانغل وقواته إلى جوار برلين للإعداد لانقلاب مضاد للثورة. ولذا استجمعت جمعية برلين في 7 أيلول شجاعتها وطلبت من وزير الحرب أن يصدر تحذيرا إلى كل ضباط الجيش من القيام بنشاطات رجعية، وأن يدعو كل الضباط الذين تتعاكس معتقداتهم السياسية مع الوضع الدستوري القائم إلى الاستقالة طبقا للشرف العسكري.

لم يكن لهذا الطلب أهمية كبرى في الواقع خاصة وأن نداءات مماثلة كانت قد صدرت لأفراد البيروقراطية دون أن يكون لها أي أثر. لكن الطلب كان أكثر مما تستطيع العسكرية احتماله من وزارة برجوازية. فسقطت وزارة هانزمان وشكلت وزارة بيروقراطية محضة برئاسة الجنرال فويل الذي قام حينئذ وبكل هدوء بإصدار الأمر المشار إليه إلى الضباط كبرهان للعالم أن العسكرية لم تعد تخشى البرجوازية وأنها أصبحت تستطيع الآن السخرية منها والهزء بها.

وبهذه الطريقة رأت الجمعية «البالغة الذكاء والعاجزة» بعينيها تحقق نبوءة «نيو راينخيه تزايتونغ» بأن الجناح اليساري للجمعية سيستفيق ذات صباح ليجد انتصاره البرلماني وقد توافق مع هزيمته المادية. وأجابت «نيو راينخيه تزايتونغ» على الضجة التي أثارتها الصحافة المضادة للثورة والتي أعلنت أن انتصار الجناح اليساري قد أحرز بفعل ضغط جماهير برلين، فنددت بأفكار الصحف الليبرالية الخجول لذلك، وأعلنت بصراحة: «إن حق جماهير الشعب الديمقراطية في ممارسة تأثير معنوي على أعمال الجمعيات الدستورية حق ثوري قديم، ولم نر أي فترة منذ الثورتين الفرنسية والانجليزية أي نقض لهذا الحق. وإن على التاريخ أن يشكر هذا الحق على كل الخطوات النشيطة التي اتخذتها جمعيات كهذه». لقد كانت هذه الاشارة موجهة بالقدر ذاته إلى «القماءة البرلمانية» لجمعية فرانكفورت في أيام أيلول 1848 وإلى جمعيات برلين.

5-ديمقراطية كولون

كان لأزمات أيلول في برلين وفرانكفورت أصداء قوية في كولون. فقد كانت الراينلاند تمثل القدر الأكبر من القلق تجاه الثورة المضادة، وكانت تغمرها قوات مجندة من المقاطعات الشرقية. وكان قرابة ثلث الجيش البروسي محتشدا في الراينلاند ووستفاليا، وفي ظل هذه الظروف كانت الانتفاضات الصغيرة عقيمة تماما. ولذا فقد كانت الحاجة الماسة تدعو إلى القيام بتنظيم شامل منضبط للديمقراطية انتظارا لليوم الذي تتحول فيه نصف الثورة إلى ثورة كاملة.

انعقد مؤتمر لثمانية وثمانين جمعية ديمقراطية في فرانكفورت في حزيران، واتخذ قرارا بإنشاء منظمة ديمقراطية. غير أن هذه المنظمة لم تتخذ شكلا صلبا وثابتا إلا في كولون، بينما ظلت في بقية ألمانيا فضفاضة مهلهلة. كانت ديمقراطية كولون منظمة في ثلاث جمعيات كبيرة، في كل منها بضعة آلاف من الأعضاء: الجمعية الديمقراطية ويقودها ماركس والمحامي شنايدر، والجمعية العمالية ويقودها مول وشابر، وجمعية الموظفين والموظّفين ويقودها هيرمان بيكر الشاب. وعندما قرر مؤتمر فرانكفورت أن تكون كولون مركز الراينلاند ووستفاليا، شكلت هذه الجمعيات الثلاث لجنة مركزية مشتركة، عقدت فيما بعد مؤتمرا لكل الجمعيات الديمقراطية في الراينلاند ووستفاليا، اجتمع في أواسط آب في كولون. حضر المؤتمر أربعون ممثلا يمثلون 17 جمعية، وقرروا أن تكون اللجنة المركزية المشتركة لجمعيات كولون الديمقراطية لجنة لمنطقة الراينلاند ووستفاليا.

كان ماركس القائد الفكري لهذه المنظمة، كما كان قائد «نيو راينيخه تزايتونغ». فقد كان يملك موهبة القيادة إلى حد بعيد، ولم يكن الديمقراطيون المبتذلون على استعداد للصفح عنه لذلك. رأى كارل شورز، الذي كان حينذاك طالبا له من العمر تسعة عشر عاما، ماركس للمرة الأولى في مؤتمر كولون، ووصفه فيما بعد من الذاكرة قائلا: «كان لماركس إذ ذاك ثلاثون عاما من العمر، وكان قد أصبح القائد المعترف به لمدرسة للفكر الاشتراكي. كان الرجل القوي البنية بجبهته العريضة وعينيه السوداويين اللامعتين وشعره الأسود الفاحم ولحيته الكثة يجتذب الانتباه حالا. وكان شهيرا بأنه رجل علم في مجاله، وفي الواقع كان ما قاله منطقيا واضحا وذا وزن، ولكنني لم أر في حياتي كلها رجلا له من الغطرسة المؤذية التي لا يمكن الصفح عنها ما لماركس». كان شورز الذي أصبح فيما بعد واحدا من أبطال البرجوازية فيذكر على وجه الخصوص التحقير الحاد الجارح واللهجة المزدرية التي كان ماركس يستخدم بها اصطلاح «برجوازي»-كما لو أنه كان يبصق شيئا ذا طعم كريه. كانت هذه هي النغمة ذاتها التي غناها بعد ذلك ببضع سنوات الملازم يتشوف، الذي كتب بعد محادثة مع ماركس يقول: «لقد أحدث ماركس فيّ أثرا لا لتفوقه غير العادي فحسب، ولكن أيضا لشخصيته القوية. لو كان قلب هذا الرجل في كبر عقله وكان حبه في عظم كراهيته لكنت اجتاز النيران من أجله، رغم أن أشار في مناسبات عدة إلى استصغاره لشأني وفي النهاية عبر عن هذا الاستصغار بصراحة تامة. إنه الرجل الوحيد بيننا الذي استطيع أن اعزي إليه صفة القيادة والقدرة على فهم وضع كبير معقد دون الضياع في التفاصيل التي لا شأن لها». وبعد ذلك جاء الكلام المعهود عن الطموح الشخصي الخطر لماركس. في صيف 1848، كان البرت باريسبن، التلميذ الأمريكي لفورييه في كولون مراسلا لجريدة «نيويورك تريبيون، مع ناشرها شارلز دانا، وكان تقييمه لماركس مختلفا: «لقد رأيت كارل ماركس قائد حركة الشعب. لقد كان نجمه حينذاك في أوجه. كان رجلا في الثلاثينات له جسم قوي ووجه جميل وشعر أسود كثيف. وملامحه تدل على طاقة عظيمة، ويستطيع المرء أن يلحظ وراء تواضعه وتحفظه نار الحماسة التي تميز الأرواح الجريئة». كان هذا صحيحا، وفي تلك الأيام كان ماركس يقود ديمقراطية كولون بشجاعة باردة ولكنها مقدامة.

على الرغم من أن أزمات أيلول أحدثت هياجا عظيما في صفوف جمعية فرانكفورت، إلا أنها لم تكن تستطيع استجماع شجاعة كافية لتنظيم ثورة، بينما لم تكن وزارة فويل في الجانب الآخر تستطيع تنظيم ثورة مضادة، وفي ظل هذه الظروف لم يكن لأي انتفاضة محلية حظ في النجاح، ولذا فقد كانت السلطات تتوق إلى استثارة انتفاضة كهذه كي تفرقها بالدم بكل سهولة. فاتخذت إجراءات قانونية وبوليسية ضد أعضاء لجنة المنطقة الديمقراطية وضد محرري «نيو راينيخه تزايتونغ». وكانت الأعذار التي اختلقت لذلك واهية جدا، لدرجة أن السلطات نفسها تخلت عنها بعد حين. رفع ماركس صوته محذرا من خداع السلطات الخؤون: في هذه اللحظة ليس هناك مسألة كبيرة تمارس أثرها على الشعب ككل وتحثه على النضال، ولذا فإن أي محاولة لتنظيم انتفاضة ستفشل. وستكون أي انتفاضة في هذه اللحظة أسوأ من عقيمة، لأن أحداثا عظيمة ستجري في المستقبل القريب، ويجب على الديمقراطيين أن لا يدعوا سلاحهم ينتزع منهم قبل أن يهل يوم المعركة. أما إذا جرؤ العرش على تنظيم ثورة حضارة، فستحين عندئذ ساعة ثورة جديدة يقوم بها الشعب.

غير أن اضطرابات صغيرة حدثت، عندما تقرر إلقاء القبض على بيكر وجول وشابر وفيلهلم ولف في 25 أيلول. وأدت أخبار بأن قوات الجيش تتقدم لفض اجتماع جماهيري بالقوة إلى إقامة المتاريس، ولكن القوات العسكرية لم تجرؤ في الواقع على التحرك، ولم يستجمع القائد العسكري شجاعة كافية لإعلان الحكم العسكري في كولون إلا بعد أن هدأت الأحوال تماما. حظرت «نيو راينيخه تزايتونغ» بموجب القانون العسكري، وفي 27 أيلول توقفت عن الصدور. ولربما كان هذا هو الهدف الوحيد لهذا الانقلاب العسكري السخيف، وبعد ذلك ببضعة أيام رفعت وزارة فويل حالة الحصار. تلقت «نيو راينيخه تزايتونغ» في الحقيقة ضربة قاسية فلم تستطع الظهور ثانية قبل الثاني عشر من تشرين الأول.

تشتت هيئة تحرير الصحيفة لأن معظم أعضائها اضطروا إلى اجتياز الحدود ليتفادوا إلقاء القبض عليهم، فذهب انغلز إلى بلجيكا، وذهب فيلهلم ولف إلى بالاتينيت، ومضى بعض الوقت قبل أن يعودوا. ففي بداية كانون الثاني 1849 كان انغلز لا يزال في برن التي ذهب إليها عبر فرنسا مشيا على الأقدام معظم الوقت. وفوق كل شيء كان تمويل الصحيفة في حالة محزنة. فبعد أن أدار حملة الأسهم ظهورهم لها استطاعت أن تعيش بعض الوقت على تزايد توزيعها، ولكنها لم تكن بعد الضربة الأخيرة تستطيع تفادي الاختفاء النهائي، لولا أن ماركس أخذها «كملكية شخصية له»، أي لولا أنه ضحى من أجلها بالقليل الذي ورثه عن والده، أو بالقليل الذي استطاع أن يحصل عليه مقدما مما سيرثه في المستقبل. لم ينبس ماركس ببنت شفة حول هذا الموضوع، ولكن يبدو من رسائل زوجته وأقوال أصدقائه أنه ضحى بسبعة آلاف ثالر لتعزيز عملية التحريض والإبقاء على الصحيفة حية. وليس مهما بالطبع أن نعرف المقدار الذي أنفقه ماركس، فالمسألة الرئيسية هي أنه ضحى بكل ما يملك ليبقى الراية خفاقة.

كان موقف ماركس حرجا من ناحية أخرى كذلك. فبعد اندلاع الثورة قرر المجلس الفيدرالي في الثلاثين من آذار أن اللاجئين الألمان سيمنحون حق الترشيح والانتخاب في انتخابات الجمعية الوطنية الألمانية، شريطة أن يعودوا إلى ألمانيا ويبدوا رغبتهم في تجديد حقوقهم المدنية السابقة. وقد اعترفت الحكومة البروسية صراحة بهذا القرار. ولذا كان ماركس الذي يفي بكل الشروط التي تهيء له الحصول على الحقوق المدنية مؤهلا للمطالبة باستعادة حقوقه المدنية في بروسيا. وفي الواقع عندما تقدم بطلب في نيسان عام 1848، منح مجلس مدينة

كولون موافقته على الطلب فورا، وعندما أوضح ماركس لرئيس شرطة كولون أنه لا يستطيع إحضار عائلته من تريير ما دامت المسألة غير محسوسة، أجابه رئيس السلطة بأن سلطات المقاطعة، التي يتعين عليها حسب قانون بروسيا القديم أن توافق على قرار مجلس المدينة، ستمنح موافقتها بالتأكيد على استعادته لجنسيته. غير أن «نيو راينيخه تزايتونغ» بدأت بالظهور في تلك الأثناء. وفي 3 آب تسلم ماركس إخطارا رسميا من الشرطة يفيد أن الحكومة الملكية قررت «في الوقت الحاضر» أن لا تستخدم في حالته حقها في منح الجنسية البروسية لأجنبي، وأن عليه لذلك أن يستمر في اعتبار نفسه أجنبيا. وفي 22 آب تقدم ماركس باستئناف ساخط إلى وزير الداخلية، لكن استئنافه رفض.

ولما كان ماركس زوجا مخلصا وأبا عطوفا فقد جلب عائلته أثناء ذلك إلى كولون رغم الشك. وكان عدد أفراد العائلة قد ازداد أثناء ذلك: فقد ولدت الابنة الأولى التي سميت يني باسم والدتها في أيار 1844 ثم تبعتها ابنة ثانية سميت لورا ولدت في أيلول عام 1845، وبعد ذلك بقليل ولد ادغار، وهو الابن الوحيد الذي لا يعرف تاريخ ميلاده بالضبط. وكانت العائلة منذ أيام باريس مصحوبة بهيلين ديموث وهي صديقة وفية وخادمة مخلصة.

لم يكن ماركس واحدا من أولئك الرجال الذين يتخذون من كل جديد من معارفهم صديقا وأخا في الحال، لكن إخلاصه لأصدقائه كان لا يطاله الشك. وفي المؤتمر ذاته الذي يقال أن غطرسته التي لا تحتمل استعدت عليه رجالا كانوا لولا ذلك سيصادقونه بسرور، اكتسب ماركس لنفسه صديقين مدى الحياة هما المحامي شيلي والمدرس ايماندت. وعلى الرغم من أن جدية الغرض الوحيد الذي قاد خطى ماركس خلال حياته كلها جعلته يبدو شريرا لأشباه الثوريين من أمثال شورز وتيشوف، إلا أنها كانت في الوقت ذاته تجذب بما لا يقاوم الثوريين الحقيقيين من أمثال فريليغارث ولاسال إلى مداره الشخصي والفكري.

6-فريليغارث ولاسال

كان فريليغارث يكبر ماركس بثمانية أعوام، وقد رضع شبابه حليب الاورثوذكسية النقي. وفي إحدى المرات، شعر فريليغارت بلسعة «راينيخه تزايتونغ» القديمة لنشره قصيدة ساخرة حول رحلة هيرويغ الفاشلة بعد طرد هذا الأخير من بروسيا. ولكن لم يمض وقت طويل حتى تعرف إلى ماركس أثناء المنفى في بروكسل. وكانت علاقتهما في البداية ودية ولكنها طفيفة. وقد قال في ماركس «أنه رجل جيد، ذو سلوك متواضع مثير للاهتمام». ولم يكن فريليغارث حكما سيئا على الأشخاص، فقد كان متحررا من أي غرور شخصي، وربما كان يملك لهذا السبب بالذات حسا سليما تجاه كل ما يشعر بالغطرسة في الآخرين.

نضجت معرفة الرجلين ببعضهما وتحولت إلى صداقة ثابتة في صيف وخريف 1848، وكان ما جذبهما إلى بعضهما هو الاحترام الذي كان يكنه كل منهما للآخر بسبب شجاعته وصلابته في التمسك بالمبادئ الثورية المشتركة التي كان الاثنان يحملانها في الحركة الراينية. قال ماركس عن فريليغارث في رسالة إلى وايدماير: «إنه ثوري حقيقي رجل مخلص تماما، وهذا مديح لا أمنحه إلا للقلائل». وفي الوقت ذاته نصح ماركس وايدماير أن يطري الشاعر بعض الإطراء، لأن الشعراء بحاجة إلى الإطراء إذا كان لهم أن يعطوا أفضل ما لديهم. ولم يكن ماركس من ذلك النوع من الرجال الذي يحمل قلبه على كفه، ولكنه كتب إلى فريليغارث في إحدى لحظات التوتر يقول: «أقول لك بصراحة أنني لست مستعدا لخسارة أي من الرجال القلائل الذين اعتبرهم أصدقاء لي بأفضل ما تعنيه هذه الكلمة بسبب سوء تفاهم بسيط». لم يكن لماركس، عدا انغلز، صديقا أفضل من فريليغارث في أسوأ أيام الشدائد.

كانت هذه الصداقة على الدوام مصدر ضيق للجهلة الأدعياء، ربما لأنها كانت بسيطة وحقيقة في القوت ذاته. فكانوا أحيانا يدعون أن خيال الشاعر المحموم قاده إلى صحبة سيئة، وفي أحيان أخرى كانوا يقولون أن الديماغوجي الشيطاني نفث سمَّه في الشاعر المسالم فسمم أغانيه. ويف الواقع لا تستحق هذه الادعاءات كلمة واحدة، لولا أن محاولة قد بذلت لتحويل فريليغارث إلى اشتراكي ديمقراطي حديث، وهذا ما يضعه في صورة خاطئة. لقد كان فريليغارث ثوريا بسبب غريزة متحمسة ومشاعر شاعرية لا بسبب أي اعتبارات علمية. وكان يعتبر ماركس رائدا للثورة ويعتبر العصبة الشيوعية الطليعة الثورية، ولكن الحجج التاريخية المتضمنة في البيان الشيوعي ظلت غريبة عنه بهذا القدر أو ذاك. وعلى وجه الخصوص، لم يكن خياله الجامح يستطيع أن يلم بأي من تفاصيل العمل التحريضي اليومي التي كثيرا ما تكون تاعسة.

كان فرديناند لاسال، الذي انضم إلى حلقة ماركس في ذلك الحين، نوعا مختلفا تماما. فقد كان يصغر ماركس بسبع سنوات، وكانت شهرته حتى ذلك الحين قائمة على نضاله الحماسي من أجل الكونته هاتزفيلت التي أساء زوجها معاملتها وخانتها حاشيتها. وفي شباط 1848 القي القبض عليه بتهمة التحريض على سرقة صندوق يحتوي على وثائق ذات علاقة بقضية هاتزفلت، ولكن محلفي كولون أطلقوا سراحه في 11 آب، بعد أن دافع عن نفسه دفاعا رائعا. وبعد ذلك كان باستطاعته أن يكرس نفسه للنضالات الثورية. ولم يكن لاسال «بتعاطفه مع كل قوة حقيقية» ليفشل في التأثر تأثرا عميقا بقائد النضال الثوري ماركس.

كان لاسال كذلك قد اجتاز المدرسة الهيغيلية وأتقن أساليبها، دون أن يعتريه أي شك بصحتها ودون أن يتأثر بانحلال خلفاء هيغل. وخلال زيارة لباريس، تعرف لاسال إلى الاشتراكية الفرنسية وتنبأ له هاينه ببصيرته النبوية بمستقبل عظيم. غير أن التوقعات الكبيرة التي أثارها الشاب اليافع اصطدمت ببعض الغموض في سلوكه، الذي لم يستطع السيطرة عليه خلال نضاله ضد تراث عرق مضطهد لا تزال رواسبه عالقة به. فقد كان الجو المبتذل لليهودية البولندية يسيطر على بيت والديه. ولم يستطع حتى أقل الناس تحيزا أن يصدقوا نواياه في انتصاره للكونته هاتزفلت، الذي كان في نظره نضالا في حالة فردية ضد التعاسة الاجتماعية لمرحلة كاملة تشق الآن طريقها إلى القبر. حتى أن فريليغارث، الذي لم يكن مغرما به إطلاقا، تحدث باحتقار عن «التفاهات المنزلية التعيسة» التي يبدو للاسال أن تاريخ العالم يدور حولها.

وبعد ذلك بسبع سنوات، عبر ماركس عن نفسه بالطريقة ذاتها: إن لاسال يعتبر نفسه قاهرا للعالم، لأنه كان قاسيا في مؤامرة شخصية، كما لو أن رجلا له شخصية حقة مستعد للتضحية بعشر سنين من عمره على أمر تافه كهذا. وبعد ذلك بعدة عقود، أعلن انغلز أن ماركس كان يكن كراهية للاسال منذ البداية، وأن «نيو راينيخه تزايتونغ» نشرت أقل ما يمكن عن قضية هاتزفلت لتتجنب الظهور بمظهر مشاركة لاسال في موقفه من القضية. غير أن ذاكرة انغلز خانته بالنسبة لهذه المسألة، ذلك أن «نيو راينيخه تزايتونغ» كانت حتى يوم حظرها في 27 أيلول تنشر تقارير مفصلة عن محاكمة لاسال بتهمة التحريض على سرقة الصندوق، رغم أنها بالطبع لم تكن تخفي أن للمسألة جوانب أخرى مؤسفة. أكثر من ذلك، ساعد ماركس نفسه، كما كتب لفريليغارث، الكونته هاتزفلت في ضائقتها الماسة من موارده الخاصة المتواضعة. وعندما واجه ماركس صعوبات خطيرة في فترة ما بعد كولون، اختار لاسال مع فريليغارت موضعا لسره في مدينة كان له فيها الكثير من الأصدقاء القدامى.

لكن انغلز كان على حق عندما قال أن ماركس كان يكن كراهية للاسال، وأن انغلز وفريليغارث كانا كذلك. لقد كانت تلك كراهية لا علاقة لها إلا القليل بالعقل، وهناك من الشواهد ما يكفي للدلالة على أن ماركس لم يدعها تعميه عن الأهمية الأعمق لقضية هاتزفلت، هذا إذا طرحنا جانبا الحماسة التي أبداها لاسال لقضية الثورة والمواهب البارزة التي كان يتمتع بها، وفي النهاية الصداقة الصدوق التي كان رفيق السلاح الشاب يكنها لماركس.

إن من الضروري أن نتفحص بدقة تطور العلاقات بين الرجلين منذ البداية، لا من أجل لاسال، ولكن لنحمي ماركس نفسه من سوء الفهم، لأن موقفه من لاسال يمثل أصعب مشكلة سيكولوجية في حياته كلها.

7-أيام تشرين الأول وتشرين الثاني

بدأت «نيو راينيخه تزايتونغ» في 12 تشرين الأول في الظهور ثانية، وأعلنت أن فريليغارث قد انضم إلى هيئة تحريرها. كان من حسن حظ الصحيفة أن تستطيع الترحيب فورا بثورة جديدة، ذلك أن بروليتاريا فيينا استطاعت في 6 تشرين الأول أن تضرب بقبضتها بصلابة وتحبط خطط آل هابسبرغ المضادة للثورة، والتي كانت تنوي بعد انتصارات رادتسكي في إيطاليا أن تستحق أولا الهنغاريين الثائرين ثم الألمان الثائرين وذلك بمساعدة الشعوب السلافية.

كان ماركس نفسه في فيينا من 28 آب إلى 7 أيلول لتوعية الجماهير هناك، غير أنه يبدو من إشارات الصحف المتفرقة أن لم يكن ناجحا في ذلك، وليس في هذا ما يثير العجب، فقد كان عمال فيينا لا يزالون في مرحلة واطئة من التطور، ولذا فقد كانت الغريزة الثورية التي عارضوا بها مغادرة الجيوش إلى هنغاريا لقمع ثورتها تستحق قدرا أكبر من المديح. فلقد جذبوا بعملهم هذا أول نيران الثورة المضادة نحوهم، وكانت تلك تضحية نبيلة أثبتت الارستقراطية الهنغارية أنها لا تستحقها. فقد كانت تتوق إلى شن نضالها من أجل استقلال هنغاريا على أساس حقوقها التاريخية، لكن الجيش الهنغاري لم يقم بغير هجوم يفتقر إلى الحماسة أدى إلى زيادة مصاعب المنتفضين في فيينا بدلا من أن يقلل منها.

ولم يكن موقف الديمقراطية الألمانية أفضل. ولا شك أن هذه الديمقراطية أدركت كم هي ذاتها معتمدة على نجاح انتفاضة فيينا، ذلك أنه إذا أحرزت الثورة المضادة اليد العليا في العاصمة النمساوية فإنها لا بد أن توجه ضربة قاضية للعاصمة البروسية أيضا حيث كانت تنتظر فرصتها المناسبة منذ أمد. غير أن الديمقراطية الألمانية قنعت بنداءات عاطفية وتعبيرات عقيمة عن التعاطف ونداءات فارغة إلى الوصي العاجز على الرايخ. وفي نهاية تشرين الأول اجتمع المؤتمر الديمقراطي ثانية في برلين، وأصدر نيابة عن فيينا المحاصرة بيانا وضعه روغه، ولكن «نيو راينيخه تزايتونغ» أوضحت عن حق أن المؤتمر الديمقراطي حاول أن يعوض عن افتقاره إلى الطاقة الثورية بالعواطف الدافقة والدموع المدرارة ،وأن النداء كله لا يحتوي على أثر للعاطفة الثورية أو للأفكار الثورية. غير أن نداءات ماركس المتقدة حماسا والمكتوبة بالنثر الرصين ونداءات فريليغارث بالشعر الرائع لمنح أهل فيينا المحاصرين المساعدة الوحيدة الفعالة بالإطاحة بالثورة المضادة في الداخل كان لها رجع الدصى في صحاري مقفرة.

هكذا تقرر مصير ثورة فيينا. فقد حارب العمال ببطولة بعد أن خانتهم البرجوازية والفلاحون ولم يدعمهم غير الطلبة وقطاع من البرجوازية الصغيرة. ولكن القوات المحاصرة استطاعت مساء الحادي والثلاثين من تشرين الأول اختراق المدينة، وفي الأول من تشرين الثاني كان علم الثورة المضادة الأصفر والأسود يرفرف من على كاتدرائية سان ستيفان.

لحقت بمأساة فيينا المؤثرة مأساة-ملهاة غريبة في برلين. فقد استقالت وزارة فويل لتفسح الطريق أمام وزارة براندنبرغ، وقامت هذه فورا بإصدار أمر إلى الجمعية الوطنية بالانسحاب إلى بلدة براندنبرغ، جعلت الجنرال فرانغل يحتل برلين ليدعم هذا الأمر بقوة السلاح، كان براندنبرغ، وهو ابن غير شرعي لعائلة هوهنزلرن يقارن نفسه بإعجاب بفيل سيسحق الثورة تحت قدمه. لكن «نيو راينيخه تزايتونغ» أعلنت صادقة أن كلا من براندنبرغ ومعاونه فرانغل «رجلان بلا عقل ولا قلب ولا مبادئ، إنهما ليس أكثر من شاربين كبيرين» ولكنهما لهذا السبب بالذات كانا الخصمين المناسبين لجمعية جبانة.

وفي الواقع كان شاربا فرانغل العسكريين كافيين لإرهاب الجمعية. صحيح أنها رفضت أن تخلي برلين، مقرها الدستوري، ولكن عندما أصبحت الضربة تلي الأخرى وأعمال العنف تتتابع: حل الحرس الوطنين إعلان الحكم العسكري الخ، أعلنت أن الوزراء خونة واشتكتهم إلى النائب العام. وتجاهلت مطالب عمال برلين بأن يجري الدفاع عن حقوق الشعب بقوة السلاح، وأعلنت بدلا من ذلك «المقاومة السلبية»، أي بكلمات أخرى قررت أن تتحمل ضربات العدو دون أن ترد عليها. وبعدئذ أصبحت الجمعية تطرد من قاعة إلى أخرى، وفي انفجار مفاجئ

سببه ظهور حراب فرانغل مرة أخرى، أعلنت الجمعية بوقار أن ليس من حق وزارة براندنبرغ التصرف بأموال الدولة أو جمع الضرائب ما لم يسمح للجمعية بعقد جلساتها في برلين دون إعاقة أو تأخير. ولكن ما أن رفض اجتماع الجمعية، حتى خشي رئيسها على جلده، فاستدعى مكتب الجمعية ليسجل في محضر الجمعية أن القرار ضد الوزارة غير قانوني طبقا لقاعدة قانونية شكلية، على الرغم من أنه سمح بإعلان القرار على الجمهور دون تأخير.

وترك لـ«نيو راينيخه تزايتونغ» أن تعارض انقلاب الحكومة بالطريقة التي يستحقها، فأعلنت أن اللحظة قد أزفت لمعارضة الثورة المضادة بثورة ثانية، ودعت الجماهير أن ترد على عنف الحكومة بكل وسائل العنف المضاد الممكنة. وأعلنت أيضا أن المقاومة السلبية يجب أن يكون لهها أساس من المقاومة الفعالة الايجابية، وإلا كانت مقاومة النعاج للجزار. وفي الوقت ذاته نسفت بقسوة الحجة الكامنة وراء نظرية الاتفاق مع العرش، التي سعى جبن البرجوازية إلى الاختفاء وراءها: «إن العرش البروسي إنما يمارس حقوقه عندما يتصرف تجاه الجمعية تصرف الحكم المطلق، والجمعية مخطئة عندما لا تتعامل مع العرش كجمعية ذات سيادة... إن البيروقراطية القديمة لا ترغب في أن تصبح خادمة للبرجوازية، التي كانت تلعب بالنسبة لها حتى الآن دور مدير المدرسة المستبد. والحزب الإقطاعي ليس راغبا في التضحية بامتيازاته ومصالحه على مذبح البرجوازية. وفي النهاية، يرى العرش قاعدته الاجتماعية الحقيقية في عناصر المجتمع الإقطاعي القديم، الذي يجد في العرش أرفع تعبير عنه، بينما يعتبر العرش البرجوازية قاعدة مصطنعة غريبة عنه ستحمله على شرط واحد هو أن يزول. إن الحكيم «ببركة الله» يصبح بالنسبة للبرجوازية حقا قانونيا، ويصبح حق الدم حق الورق، وتصبح الشمس الملكية قرشا برجوازيا. ولذا رفض العرش أن يقتنع بكلام البرجوازية، وأجاب نصف ثورتها بثورة مضادة كاملة. وقذف بالبرجوازية ثانية إلى أحضان الثورة، إلى أحضان الشعب، عندما صرخ «براندنبرغ في الجمعية، والجمعية في براندنبرغ!».

وبعد أن أصدرت جمعية برلين قرارها بحرمان الحكومة من حق جبي الضرائب، أصدرت لجنة المقاطعة الديمقراطية في برلين نداء في 18 تشرين الثاني، وقعه ماركس وشابر وشنايدر يطالبون فيه الجمعيات الديمقراطية أن تتخذ فورا الإجراءات التالية: يجب مقاومة أي محاولة من السلطات لجبي الضرائب بأي وسيلة ممكنة، يجب تنظيم الحرس الوطني فورا في كل مكان لمقاومة العدو، يزود الفقراء بالأسلحة والذخائر على نفقة البلديات وبواسطة التبرعات الطوعية، إذا رفضت الحكومة الاعتراف بقرارات الجمعية واحترامها فيجب انتخاب لجان السلامة العامة في كل مكان بالاتفاق مع البلديات إن أمكن، أما تلك البلديات التي تعارض الجمعية فيجب انتخابها بالتصويت الشعبي. هكذا فعلت الجمعية الديمقراطية ما كان يتعين على الجمعية فعله لو كانت جادة في قرارها بالامتناع عن دفع الضرائب. لكن أبطال جمعية برلين بدأوا يرتجفون خوفا من شجاعتهم هم، وسارعوا كل إلى منطقته ليمنعوا تنفيذ القرار الذي اتخذوه هم أنفسهم، وبعد ذلك انسلوا إلى براندنبرغ ليواصلوا اجتماعاتهم. وبهذا خسرت الجمعية آخر أثر من آثار كرامتها ونفوذها، وأصبح سهلا على الحكومة في 5 كانون الأول أن تحل الجمعية وتفرض دستورا جديدا وانتخابا جديدا.

شلت خيانة جمعية برلين لجنة مقاطعة الراينلاند، التي كانت مليئة بقوات الجيش. وفي 22 تشرين الثاني ألقي القبض على لاسال، الذي رحب بالنداء الذي أصدرته اللجنة بحماس، أما في كولون فقد رفع المدعي العام قضية ضد موقعي النداء، وإن لم يجرؤ على اعتقالهم. وفي 8 شباط، مثل الموقعون على النداء أمام محكمة محلفين في كولون بتهمة تحريض الشعب على المقاومة المسلحة ضد السلطات وضد قوات العرش العسكرية.

حاول المدعي العام أن يستخدم قوانين 6 و8 نيسان، وهي ذاتها التي وطأت عليها الحكومة بانقلابها، ضد الجمعية وضد المتهمين. لكن ماركس فند هذه المحاولة في خطبة قوية: يمكن لأولئك الذين قاموا بثورة ناجحة أن يشنقوا خصومهم، لا أن يجلسوا قضاة لهم، يمكن لهم أن يتخلصوا من أعدائهم المهزومين، ولكنهم لا يستطيعون أن يحاكموهم كمجرمين. إنه لرياء جبان أن تستخدم قوانين أطاحت بها ثورة أو ثورة مضادة ضد أولئك الذين يعتنقون هذه القوانين. ومسألة ما إذا كانت الجمعية على صواب أو كان العرش على صواب مسألة تاريخية لا يحسمها محلفون، بل يحسمها التاريخ وحده.

لكن ماركس ذهب أبعد من ذلك، فرفض أن يعترف بقوانين 6 و8 نيسان على الإطلاق، معلنا أن المجلس الموحد قد وضعها ليجنب العرش الاعتراف بهزيمته في نضالات آذار. ولا يمكن محاكمة جمعية تمثل المجتمع البرجوازي الحديث طبقا لقوانين سنتها هيئة إقطاعية. وما مبدأ أن المجتمع يقوم على القانون سوى خرافة قانونية. فعلى العكس من ذلك، يقوم القانون في الواقع على المجتمع: «في يدي القانون النابليوني. إنه لم ينتج المجتمع البرجوازي، على العكس لقد أنتجه المجتمع البرجوازي، الذي نشأ في القرن الثامن عشر واستمر في تطوره في القرن التاسع عشر ولم يجد في القانون النابليوني سوى تعبيره القانوني. وفي اللحظة التي يفشل القانون فيها في أن يعكس العلاقات الاجتماعية بصدق، يصبح لا أكثر من قصاصة ورق. إنك لا تستطيع أن تجعل القوانين القديمة أساس المجتمع الجديد أكثر مما صنعت القوانين القديمة المجتمع القديم».

لقد فشلت جمعية برلين في فهم الدور التاريخي الذي ألقته على عاتقها ثورة آذار. أما التهمة التي اتهمها المدعي العام للجمعية بأنها رفضت كل توسط فقد كان بلا أساس، إذ أن المصيبة كلها والخطأ الذي اقترفته الجمعية يكمن بالضبط في أنها حطت من نفسها وتدهورت من مجلس ثوري إلى جمعية من المساومين: «لم يكن ما شهدناه صراعا سياسيا بين جناحين على أساس مجتمع واحد، بل صراعا بين مجتمعين، صراعا اجتماعيا في شكل سياسي. لقد كان صراع المجتمع الإقطاعي البيروقراطي القديم ضد المجتمع البرجوازي الحديث، بين مجتمع ملكية الأرض ومجتمع الصناعة، بين مجتمع الإيمان الأعمى ومجتمع المعرفة». ولا يمكن أن يكون هناك سلام بين هذين المجتمعين، بل صراع لا بد أن يهزم فيه أحدهما. إن الامتناع عن دفع الضرائب لم يهز أسس المجتمع، كما حلا للمدعي العام أن يقول. لقد كان ذلك دفاعا من جانب جزء من المجتمع ضد حكومة تهددت بالخطر أسس المجتمع.

ولم تتصرف الجمعية تصرفا غير قانوني في رفضها دفع الضرائب، ولكنها لم تتصرف قانونيا بإعلانها المقاومة السلبية: «إذ أعلن جمع الضرائب غير شرعي، فإن من واجبي أن أقاوم، وبالقوة إذا دعت الضرورة، أي محاولة للقيام بعمل غير شرعي». وعلى الغرم من أن أولئك الذين أعلنوا رفض دفع الضرائب امتنعوا عن سلوك الطريق الثوري خوفا على جلودهم، إلا أن جماهير الشعب اضطرت مع ذلك إلى سلوك الطريق الثوري عندما نفذت هذا الإعلان. ولم يكن موقف الجمعية حاسما بالنسبة للشعب: «فليس للجمعية حقوق خاصة بها، ذلك أن الشعب أناط بالجمعية مهمة الدفاع عن حقوقه. وعندما تفشل الجمعية في القيام بهذه المهمة، تنتهي حقوقها، وعندئذ يظهر الشعب في الحلبة بنفسه ليعمل من أجل حقوقه. وعندما ينظم العرش ثورة مضادة، يجيب الشعب عن حق بثورة جديدة». وأنهى ماركس خطابه بالقول أن الفصل الأول فحسب من الدراما قد انتهى، أما فصل الختام فسيكون أما انتصارا كاملا للثورة المضادة أو ثورة جديدة ناجحة، رغم أن هذه الأخيرة قد لا تكون ممكنة إلا بعد أن تنجز الثورة المضادة نصرها.

وبعد هذه الخطبة الثورية العصماء، برأ المحلفون كل المتهمين، وشكروا ماركس على إيضاحاته المنيرة.

8-عمل من أعمال الغدر

بانتصار الثورة المضادة في فيينا وبرلين قيلت الكلمة الفصل في ألمانيا. وكان كل ما تبقى من انجازات الثورة جمعية فرانكفورت التي قبل ذلك بوقت طويل قد فقدت كل أهليتها السياسية وصارت تبعثر قواها في مناقشات لا تنتهي حول دستور ورقي. وفي الواقع كانت المسألة الوحيدة البارزة هي ما إذا كانت الجمعية ستحل على رؤوس الحراب البروسية أم الحراب النمساوية.

وفي كانون الأول، وصفت «نيو راينيخه تزايتونغ» تطور الثورة والثورة المضادة البروسية في سلسلة من المقالات الرائعة، ثم ألقت نظرة أمل إلى الطبقة العاملة الفرنسية، التي كانت تتوقع منها حربا عالمية. «إن البلد الذي حول أممأ بكاملها إلى بروليتاريين، والذي يمسك العالم بكامله بشباكه العملاقية، والذي سبق ودفع ثمن الاستعادة الأوربية مرة، والذي نمت في حضنه التناقضات الطبقية في أوضح أشكالها، أن هذا البلد –انجلترا- يبدو أنه الصخرة التي ستتحطم عليها أمواج الثورة. إن انجلترا ستميت المجتمع الجديد جوعا قبل أن يولد. إن انجلترا تسيطر على السوق العالمي، وتحويل العلاقات الاقتصادية في كل بلد من بلدان أوربا في القارة كلها سيكون زوبعة في فنجان بدون انجلترا. إن العلاقات الصناعية والتجارية في كل بلد تتحدد بعلاقتها مع البلدان الأخرى، بعلاقتها مع السوق العالمي. لكن انجلترا تسيطر على السوق العالمي، وانجلترا تسيطر عليها البرجوازية».

وهكذا، فإن أي ثورة اجتماعية في فرنسا ستسحقها البرجوازية الانجليزية، بقوة بريطانيا العظمى الصناعية والتجارية. وسيظل أي إصلاح اجتماعي جزئي في فرنسا أو أي مكان آخر في القارة الأوربية أمنية فارغة. ولا يمكن الإطاحة بانجلترا القديمة إلا بحرب عالمية، يمكن لها وحدها أن تعطي للميثاقيين (الشارتيين)، وهم حزب البروليتاريا الانجليزية المنظم، الشروط الضرورية لانتفاضة ناجحة ضد مضطهديها الأقوياء. وفقط عندما يصبح الميثاقيون على رأس الحكومة الانجليزية، يمكن للثورة الاجتماعية أن تتقدم من عالم اليوتوبيا إلى عالم الحقيقة.

لم تتحقق الشروط الأولية لهذا المستقبل المأمول. فالطبقة الفرنسية، التي كانت لا تزال تنزف من ألف جرح جرحته أيام حزيران، لم تكن قادرة على نهوض آخر. بدأت الثورة المضادة رحلتها في القارة الأوربية في باريس أيام حزيران، منتقلة إلى فرانكفورت وفيينا وبرلين، لتنتهي في هذه المرحلة في 10 كانون الأول بانتخاب بونابرت المزيف رئيسا للجمهورية الفرنسية. ومنذ ذلك الحين، كانت الثورة لا تزال حية في هنغاريا وحدها، وقد وجدت محاميا فصيحا مجربا عنها في انغلز، الذي كان قد عاد في تلك الأثناء إلى كولون. اضطرت «نيو راينيخه تزايتونغ» بقية ما تبقى لها من عمر أن تقصر نشاطها على شن حرب غوار ضد الثورة المضادة المتقدمة، ولكنها شنت نضالها هذا بالشجاعة والتصميم ذاتهما اللذين شنت بها نضالات السنين الماضية، واستقبلت «نيو راينيخه تزايتونغ» حزمة الرقع الصحفية التي أهالتها عليها حكومة الرايخ بوصفها أسوأ صحيفة في صحافة سيئة بملاحظة ساخرة هي أن سلطة الرايخ أكثر السلطات الهزيلة هزالة. وأجابت على الاستعراض الفخور «للبروسية» الذي تبناه يونكر شرقي الألب منذ انقلاب برلين بسخرية يستحقها: «كان من حسن حظنا نحن أبناء الراينلاند أن نربح دوقا أكبر للراينلاند السفلي نتيجة إعادة التنظيم الكبرى في برلين، أن نربح رجلا لم يف بالشروط التي أصبح بموجبها دوقا أكبر. بالنسبة لنا، لا يوجد ملك لبروسيا إلا منذ جمعية برلين، وما دام لا يوجد جمعية لـ«دوق الراينلاند السفلى الأكبر»، فلا يوجد ملك لبروسيا بالنسبة لنا. لقد وقعنا في يدي دوق الراينلاند السفلي الأكبر نتيجة التلاعب بمصير الشعوب، وحالما نصبح في موقف نستطيع معه رفض هذا التلاعب فإننا سنسأل الدوق الأكبر عن مؤهلاته». كتبت هذه الأسطر في وقت كانت الثورة المضادة تقترف فيه أفظع جرائمها.

يلاحظ المرء منذ أول نظرة إلى صفحات «نيو راينيخه تزايتونغ» في تلك الأيام غياب أمر يتوقع المرء أن يجده قبل أي شيء آخر، وذلك هو بالتحديد الوصف التفصلي لنشاطات العمال الألمان في ذلك الحين. لم تكن هذه الحركة قليلة الأهمية إطلاقا، وقد امتدت حتى إلى مقاطعات يونكر شرقي الألب ذاتها وكان لها مجالسها ومنظماتها وصحفها، ووجدت قائدا قديرا لها في ستيفان بورن الذي كان على صلة جيدة بماركس وانغلز منذ فترة باريس وبروكسل والذي كان لا يزال يرسل مقالات إلى «نيو راينيخه تزايتونغ» من برلين وليبزيغ. فهم بورن البيان الشيوعي جيدا، ولكنه كان أقل نجاحا في تطبيق مبادئه على الوعي الطبقي المتخلف لبروليتاريا القسم الأكبر من ألمانيا، وفيما بعد شجب انغلز نشاطات بورن بقسوة ظالمة. ولكن ربما كان صحيحا ما قاله بورن في مذكراته من أن ماركس وانغلز لم ينبسا خلال سنوات الثورة أي كلمة تعبر عن عدم رضاهما على تلك النشاطات، وهذا بالطبع لا يستثنى إمكانية أن يكونا غير راضيين عن هذه المسألة التفصيلية أو تلك. وعلى أية حال، قام ماركس وانغلز في ربيع عام 1849 بخطوتهما الأولى تجاه حركة الطبقة العاملة التي تطورت في تلك الأثناء بمعزل عن تأثيرهما.

إن قلة الاهتمام الذي أبدته «نيو راينيخه تزايتونغ» تجاه هذه الحركة في البداية يمكن تفسيره جزئيا بأن رابطة عمال كولون كان لها صحيفتها الخاصة بها، التي كانت تظهر مرتين في الأسبوع ويحررها مول وشابر، وجزئيا وربما بقدر أكبر بأن «نيو راينيخه تزايتونغ» كانت قبل كل شيء صحيفة للديمقراطية، أي أنها كانت تهدف إلى تمثيل المصالح المشتركة للبرجوازية والبروليتاريا ضد الحكم المطلق والإقطاع. وكان لهذه المهمة أهمية فائقة في ذلك الحين لأنها تساعد على خلق الأسس التي تستطيع البروليتاريا أن تبدأ بها مباحثاتها الخاصة مع البرجوازية. غير أن القطاع البرجوازي من الحركة الديمقراطية فقد معنوياته بسرعة، وانهار انهيارا تعيسا أمام كل اختبار جدي. كان هناك أناس مثل ماين وكريغ (اللذين عادا في تلك الأثناء من أمريكا) في لجنة الخمسة التي انتخبها المؤتمر الديمقراطي الأول في حزيران 1848. وفي ظل قيادة كهذه بدأت المنظمة تنهار بسرعة. وحلت الكارثة عندما عقدت المنظمة مؤتمرها الثاني عشية الانقلاب البروسي. فقد انتخبت لجنة جديدة كان دستر عضوا فيها، وكان هذا صديقا ونصيرا لماركس، ولكن هذا لم يكن أكثر من دين للمستقبل. فشل الجناح اليساري البرلماني في جمعية برلين في أزمة تشرين الثاني وغاص الجناح اليساري لجمعية فرانكفورت أكثر فأكثر في حماة التسويات التعيسة.

وفي ظل هذا الوضع أعلن ماركس وفلهملم ولف وشابر وهرمن بيكر استقالتهم من لجنة المنطقة الديمقراطية في 15 نيسان مبررين هذه الاستقالة كما يلي: «في رأينا أن الشكل الراهن لتنظيم الجمعيات الديمقراطية يحتوي على عناصر متنافرة تجعل من المستحيل القيام بأي نشاط مفيد لتحقيقي غاياته. وفي رأينا أن تنظيما أوثق للمنظمات العمالية سيكون أكثر فائدة لأن هذه المنظمات مكونة من عناصر أكثر تجانسا». وفي الوقت ذاته استقالت جمعية عمال كولون من رابطة المنظمات الديمقراطية الراينية، ودعت كل المنظمات العمالية وغيرها من المنظمات التي تدين بمبادئ الاشتراكية الديمقراطية إلى إرسال ممثلين عنها إلى مؤتمر يعقد في 6 أيار. وقد دعي هذا المؤتمر الأخير ليقرر إنشاء تنظيم لجمعيات العمال في الراينلاند ووستفاليا، وليقرر أيضا ما إذا كان يجب إرسال مندوبين إلى مؤتمر لكل المنظمات العمالية دعته جمعية الإخاء العمالي في ليبزيغ، وهي الجمعية التي يقودها بورن، إلى الانعقاد في حزيران.

وفي 20 آذار، وقبل أن تتخذ هذه الخطوات، كانت «نيو راينيخه تزايتونغ» قد بدأت تنشر مقالات فيلهلم ولف عن مليونيزي سيليسيا، تلك المقالات التي أثارت ثائرة البروليتاريا الريفية. وفي 5 نيسان بدأت تنشر المحاضرات التي كان ماركس قد ألقاها على جمعيات العمال في بروكسل حول رأس المال والعمل المأجور. وبينت الصحيفة على أساس النضالات الجماهيرية الضخمة عام 1848 أن كل انتفاضة ثورية لا بد أن تفشل، مهما بدت أهدافها بعيدة عن الصراع الطبقي، ما لم تنتصر الطبقة العاملة، وبعد ذلك حولت انتباهها إلى مسألة العلاقات التي يقوم على أساسها وجود البرجوازية وعبودية العمال معا.

غير أن هذا التطور الواعد انقطع بفعل الصراعات التي نشبت حول الدستور الورقي الذي نجحت جمعية فرانكفورت أخيرا في تفصيله. ولم يكن هذا الدستور الثمين يستحق بحد ذاته إراقة نقطة واحدة من الدم، وكان التاج الامبريالي المتوارث الذي سعت إلى وضعه على رأس ملك بروسيا أشبه بقبعات المهرجين. غير أن ملك بروسيا لم يرض بذلك، ولكنه لم يرفضه قطعيا. فقد كان يريد التفاوض مع الأمراء الألمان على أمل أن يوافقوا على الهيمنة البروسية مقابل أن تقدم بروسيا خدماتها العسكرية لتدمير ما تبقى من مكاسب الثورة في الولايات الصغيرة والدويلات.

كان ذلك تحديا صارخا ألهب شعلة الثورة ثانية، مسببا عددا من الانتفاضات استمدت اسمها من دستور الرايخ، وإن لم تستمد محتواها منه. فقد كان دستور الرايخ رغم نقاط ضعفه يمثل سيادة الشعب، فسعت السلطات إلى تدمير لتقيم سيادة الأمراء مرة ثانية. فكان أن نشبت انتفاضات لدعم دستور الرايخ في مملكة ساكسونيا ودوقية بادن في بالانتينيت البافارية. وفي كل مكان لعب ملك بروسيا دور الجلاد، رغم أن الحكام الآخرين سلبوه فيما بعد أجر الجلاد. كذلك نشبت انتفاضات معزولة في الراينلاند، ولكنها سحقت جميعا بفعل التفوق العددي الساحق للقوات المعادية، بفضل القوات العسكرية الضخمة التي حشدتها الحكومة في المقاطعة التي تحبها كثيرا.

ثم استجمعت السلطات شجاعة كافية لتكيل ضربية قاضية إلى «نيو راينيخه تزايتونغ». فعندما جعلت علامات صعود ثوري جديد نفسها محسوسة في كل مكان، شبت معها نيران الحماسة الثورية على صفحات الجريدة، وفي الواقع لم تكن الطبعات الخاصة التي أصدرتها الجريدة في نيسان وأيار غير نداءات للشعب كي يستعيد للانتفاضة القادمة. وقد شرفت جريدة «كروغ تزايتونغ» الرجعية صحيفة «نيو راينيخه تزايتونغ» عندما أعلنت أن وقاحتها لا مثيل لها، وأن أعمال صحيفة «مونيتور» عام 1793 تقف شاحبة بالمقارنة مع نشاطات «نيو راينيخه». وكانت الحكومة تتحرق إلى وضع يدها على «نيو راينيخه»، ولكنها لم تجرؤ على ذلك. وبفضل شجاعة محلفي الراينلاند، لم تؤد محاكمتان لماركس إلا إلى وضع أكاليل جديدة من الغار على رأسه، وكذلك تملص قائد ثكنة كولون من اقتراح قدم من برلين يقضي بفرض الحكم العسكري على المدينة، بأن تقدم بدلا من ذلك بطلب إلى الشرطة يقترح فيه إبعاد ماركس بوصفه «شخصا خطرا».

وأصاب هذا الطلب الشرطة بالحرج، فحولته إلى حاكم المقاطعة، الذي حول نصيبه من الإحراج إلى مانتوفل، وزير الداخلية. وفي 10 آذار بعثت حكومة المقاطعة بتقرير إلى برلين قالت فيه أن ماركس لا يزال في كولون، على الرغم من أن الشرطة لم تسمح له بذلك، وأن الصحيفة التي يحررها لا تزال تتابع أهدافها التخريبية وتحريضها ضد الوضع القائم ومطالبتها بإقامة جمهورية اشتراكية، في الوقت الذي تسخر فيه من كل ما تحترمه الإنسانية وتعتبره عزيزا عليها. وكانت الصحيفة تزداد خطرا بالنظر إلى أن حدة المزاج والوقاحة اللتين كانت تكتب بهما الصحيفة أديا إلى زيادة عدد قرائها باستمرار. غير أن الشرطة كانت تخشى الاستجابة إلى الطلب الذي تقدم به قائد الثكنة بإبعاد ماركس، ووجدت حكومة المقاطعة نفسها مضطرة إلى دعم الشرطة لأن إبعاد شخص «بغير سبب محدد غير اتجاه وخطورة الصحيفة التي يحررها» قد يسبب تظاهرات من جانب الحزب الديمقراطي.

اتصل مانتوفل، بعد تسلمه هذا التقرير، بايخمان رئيس مقاطعة الراين يسأله رأيه، وفي 29 آذار أدلى ايخمان برأيه قائلا أن إبعاد ماركس أمر مبرر، ولكن هناك صعوبات بشأنه ما لم يقترف ماركس جنحا أخرى. وعندئذ وفي 7 نيسان أبلغ مانتوفل حكومة المقاطعة أنه ليس لديه

أي اعتراض على إبعاد ماركس، ولكنه يترك تحديد الوقت والظروف لحكومة المقاطعة، وأنه يفضل أن يصدر أمر الإبعاد بسبب جنحة محددة. وفي النهاية، صدر أمر الإبعاد بسبب «الاتجاه الخطر» للصحيفة التي يحررها ماركس فحسب، وليس بسبب أي جنحة محددة. وقد حدث ذلك في 11 أيار، عندما أصبحت الحكومة تشعر أن لديها من القوة ما يمكنها من توجيه ضربة كانت أجبن من أن توجها في 29 آذار أو في 7 نيسان.

إن الأستاذ الجامعي البروسي الذي كشف حديثا عن السجل الوثائقي للمسألة في ملفات الدولة صنع جميلا لرؤيا فريليغارت الشاعرية، فقد كتب هذا الأخير بتأثير الوحي المباشر لحادثة الإبعاد يقول:

ليست تلك ضربة شريفة في قتال شريف
بل هي ضربة حقد وحيلة.

9-وحيلة جبانة أخرى

لم يكن ماركس في كولون عندما وصل أمر الإبعاد. وعلى الرغم من أن توزيع «نيو راينيخه تزايتونغ» كان يزداد باستمرار حتى وصل ستة آلاف مشترك، إلا أن مصاعبها المالية لم تنته. فمع زيادة المبيعات ازدادت المصاريف المباشرة، بينما لم تزد العائدات إلا فيما بعد. ولذلك كان ماركس في هام يفاوض ريمبل، أحد الرأسماليين اللذين أبديا في 1846 استعدادهما لتمويل إنشاء دار نشر شيوعية. غير أن هذا الرجل الكريم أبقى خزائنه مقفلة، وأحال ماركس على ملازم سابق يدعي هنز، وبالفعل أقرض هذا الأخير الصحيفة مبلغ 300 ثالر بكفالة ماركس الشخصية. وعلى الرغم من أن هنز قد كشف أمره فيما بعد وعرف أنه عميل إلا أنه كان في ذلك الوقت يتعرض لاضطهاد الشرطة، وقد اصطحب ماركس عائدا إلى كولون، حيث وجد ماركس أمر الإبعاد في انتظاره.

كانت هذه نهاية «نيو راينيخه تزايتونغ». فقد كان عدد من محرريها في الموقف ذاته الذي كان ماركس فيه، وكان يمكن أن يبعدوا في أي وقت بوصفهم «أجانبا»، بينما كان الآخرون ملاحقين. وفي 19 أيار صدر العدد الأحمر الأخير من الصحيفة يحمل وداع فريليغارت الشهير، وكلمة وداعية تتسم بالتحدي كتبها ماركس مقرعا فيها الحكومة بشدة: «لماذا تتعبون أنفسكم بالأكاذيب الحمقاء والجمل الشكلية؟ إننا قساة أنفسنا ولا نطلب منكم رحمة. وعندما يأتي دورنا فلن نتقدم بأية أعذار لإرهابنا. لكن الإرهابيين الملكيين، إرهابيي حكمة الله وحق القانون، فظون أنذال يستحقون الاحتقار في الممارسة، جبناء مخادعون في النظرية، وبلا شرف في النظرية وفي الممارسة». وحذرت «نيو راينيخه تزايتونغ» العمال من أي انتفاضات لأن الوضع العسكري يجعل نجاح أي محاولات كهذه مستحيلا، وشكر المحررون القراء لتعاطفهم ودعمهم، معلنين أن كلمتهم الأخيرة ستكون دائما وفي كل مكان: «انعتاق الطبقة العاملة!».

وفي الوقت ذاته أدى ماركس كل الواجبات التي تترتب عليه كقبطان لسفينة غارقة. فدفع الثلاثمائة ثالر التي تسلمها من هنز و1500 ثالر دفعها المشتركون ودور النشر الخ وكل ما يملك من موارد سدادا للديون التي كانت على عاتق الصحيفة للمطبعة وتجار الورق والكتبة والمراسلين وهيئة التحرير الخ. ولم يحتفظ ماركس لنفسه ولعائلته إلا بفضة زوجته، التي رهنها في فرانكفورت لقاء بضع مئات من النقود كان عليه أن يعيش عليها مع عائلته.

ومن فرانكفورت ذهب ماركس بصحبة انغلز إلى مسرح الانتفاضة في بادن وبالاتينيت، فزارا كالزروهة أولا ثم كيزر لوثرن، حيث قابلا ديستر الذي كان الروح المحركة لحكومة المقاطعة فيها. وتسلم ماركس من ديستر تفويضا، من اللجنة المركزية الديمقراطية لتمثيل الحزب الثوري الألماني في باريس لدى «أهل الجبل» في الجمعية الوطنية، الذين كانوا يمثلون الاشتراكية الديمقراطية في تلك الأيام ويتكونون من مزيج من العناصر البرجوازية الصغيرة والبروليتارية، وكان هؤلاء يعدون ضربة كبرى لأحزاب «القانون والنظام» ولممثلها بونابرت المزيف. وفي طريق عودتهما، القي القبض عليهما شكا في أنهما اشتركا في الانتفاضة، وأخذا إلى دارمشتادت ومنها إلى فرانكفورت حيث أطلق سراحهما. وبعد ذلك ذهب ماركس إلى باريس، بينما ذهب انغلز إلى كيزرلوترن ليصبح معاونا في قوات للمتطوعين كان ينظمها ضابط بروسي سابق اسمه ويليش.

كتب ماركس في 7 حزيران من باريس يقول أن رجعية ملكية تتنامى قوتها وأن الوضع أسوأ منه أيام غيزوت، ولكن ورغم ذلك لم يكن اندلاع البركان الثوري قريبا في أي وقت اقرب منه الآن. غير أن آمال ماركس ذهبت أدراج الرياح، فقد فشلت الخطة التي كان يعدها «أهل الجبل» وفشلت بطريقة مؤسفة أيضا. وبعد ذلك بشهر، لحق ثأر المنتصرين بماركس أيضا، ففي 19 تموز أبلغت الشرطة ماركس أمرا من وزير الداخلية بأن عليه أن يقيم في منطقة موربيهان. وكانت تلك حيلة جبانة، و«أكثر الأعمال المخزية خزيا»، كما قال فريليغارث في رسالة إلى ماركس، عندما بلغه النبأ. «يقول لي دانيال أن موربيهان هي أسوأ منطقة في فرنسا صحيا، فهي منطقة مستنقعات تعمها الحمى». لكن ماركس لم يستسلم «لمحاولة القتل المستترة» هذه، ونجح في الحصول على إقامة مؤقتة بعد أن استأنفت الأمر الصادر بحقه إلى وزير الداخلية.

وحينذاك، كان ماركس قد أصبح يعاني ضائقة مالية حادة، فناشد لاسال وفريليغارث أن يساعداه. ففعل الرجلان كل ما في وسعهما، لكن فريليغارث اشتكى من أن لاسال لم يكن كتوما في جمعه للنقود، مما جعل المسألة حديث كل الأندية. أحرج ماركس لذلك كثيرا، وقال في رسالة بتاريخ 30 تموز: «أن أعظم الصعوبات المالية أفضل بكثير من الشحاذة علنا، وقد كتبت له أقول ذلك. لقد ضايقتني المسألة كثيرا». غير أن

لاسال نجح في تبديد ضيق ماركس برسالة تفيض بالنوايا الطيبة، رغم أن تأكيداته بأنه سيعالج الأمر مذ ذاك «باحتراس بالغ» ظلت مشكوكا فيها.

وفي 23 آب كتب ماركس إلى انغلز يخبره أنه سيغادر فرنسا، وفي 5 أيلول كتب إلى فريليغارث يقول أن زوجته ستلحق به 15 أيلول، رغم أنه لا يعرف من أين سيتدبر النقود اللازمة لرحلتها ولإقامتها عندما تصل. لقد لازمته العناية السوداء في منفاه الثالث، وظلت له بعد ذاك رفيقا ثابتا.

الفصل السابع

المنفى في لندن

1-«نيو راينيخه رفيو»

أخبر ماركس انغلز في رسالته الأخيرة له من باريس أن هناك احتمالا قويا في إنشاء صحيفة ألمانية في لندن، وأن جزءا من النقود اللازمة لذلك أصبحت متوفرة. وفي الوقت ذاته طلب من انغلز، الذي كان يعيش حينذاك لاجئا سياسيا في سويسرا بعد فشل انتفاضة بادن وبالانتينيت، أن يغادر إلى لندن على الفور. ففعل انغلز ذلك على ظهر سفينة أبحرت من جنوا.

لم يعد من الممكن أن يكتشف المرء من أين استحصلا على النقود الضرورية. ولكن لم يكن بإمكانها على وجه التأكيد أن يحصلا على الكثير، وعلى أية حال لم يكونا يتوقعان للصحيفة حياة طويلة، وكان ماركس يأمل أن تندلع حرب عالمية خلال الأشهر الثلاثة أو الأربعة اللاحقة. تحمل النشرة التمهيدية لنيو راينيخه تزايتونغ، صحيفة اقتصادية-سياسية يحررها كارل ماركس، تاريخ الأول من كانون الثاني 1850 في لندن، كما تحمل توقيع كونراد شرام بوصفه كفيلا. وتعلن الوثيقة أن محرري «نيو راينيخه تزايتونغ» قد قدموا إلى لندن، بعد أن اشتركوا في الحركة الثورية في جنوب ألمانيا وفي باريس خلال الصيف الماضي، وقرروا أن يستمروا في نشر الصحيفة، ولكنها ستصدر نصف شهرية في الشكل ذاته عندما يسمح تمويلها بذلك، وربما ظهرت أسبوعية على غرار الصحف الأمريكية والانجليزية الأسبوعية الكبيرة، وحين تسمح الظروف بالعودة إلى ألمانيا، فإنها ستظهر كصحيفة يومية. وفي النهاية تدعو الصحيفة قراءها إلى شراء الأسهم بقيمة خمسين فرنكا للسهم الواحد.

ليس من المحتمل أن يكون قد تم شراء عدد كبير من الأسهم. طبعت الصحيفة في هامبورغ، حيث تعهدت إحدى شركات بيع الكتب بطباعتها على أساس عمولة قدرها خمسون بالمائة من ثمن المبيع. ولم تول الشركة الصحيفة كبير اهتمام، خاصة وأن جيش الاحتلال البروسي في هامبورغ كان يعيق نشاطاتها، ولكن الحالة لم تكن لتتحسن حتى ولو أبدت الشركة حماسة حقيقية للأمر. لم ينجح لاسال في الحصول على أكثر من خمسين اشتراكا في دوسلدورف، أما وايدماير الذي طلب 100 نسخة لبيعها في فرانكفورت، فلم يستطع الحصول على أكثر من 51 خلدن بعد ستة أشهر من الجهد: «ولقد مارست ضغطا كافيا على الناس، ولكن أحدا ليس متعجلا على الدفع». وقد كتبت له السيدة ماركس بمرارة لها ما يبررها تقول أن المشروع كله قد انتهى إلى الدمار الكامل بفضل إهمال الإدارة، وأن من المستحيل تحديد ما الذي يتحمل القدر الأكبر من المسؤولية، أهو استهانة شركة بيع الكتب أم المدير والأصدقاء في كولون أم موقف الديمقراطية.

على أية حال، يتحمل الافتقار إلى الإعداد الكافي في تحرير العدد الأول قدرا من المسؤولية، وقد كان ماركس وانغلز هما المسؤولين عن ذلك بصورة رئيسية. فقد وصلت مخطوطة عدد كانون الثاني إلى هامبورغ في 6 شباط. ولكن، علينا رغم ذلك أن نشعر بالرضى لأن المشروع قد نفذ، ذلك أن تأخره بضعة أشهر كان سيجعل تنفيذه مستحيلا بفعل الجزر السريع للموجة الثورية. ولقد زودتنا الأعداد الستة التي صدرت بمثال رائع على قدرة ماركس على الارتفاع فوق متاعب الحياة الصغيرة التي كانت تحيط به من كل جانب «بشكل ثوري»، ويوميا بل وكل ساعة»، و«بكل ما أوتي من طاقة وقوة هادئة صافية مركزة» على حد تعبير زوجته.

كان ماركس وانغلز في شبابهما، وعلى الأخص انغلز، يريان الأمور أقرب مما هي في الواقع، وكثيرا ما كانا يأملان في جني الثمرة ناضجة حيث لا يكون قد نما سوى البرعم. وكم هي كثيرة تلك المرات التي كانا يعابان فيها على ذلك ويسميان نبيين مزيفين! ولا شك في أن اعتبار المرء نبيا مزيفا لا يساعد على تعزيز مكانته السياسية. غير أن من الضروري أن نميز بين التنبؤات المزيفة التي تنجم عن فكر صاف وحاد وتلك التي تكون نتيجة التمنيات المغرورة. ففي الحالة الأخيرة، تكون خيبة الأمل تكون مثمرة لان الرجل المفكر يتتبع سبب خطئه ويكتسب بذلك معرفة جديدة.

ربما لم يكن هناك من هو أقسى في نقده للذات من ماركس وانغلز. فقد كانا كلاهما متحررين من تلك الدوغماتية التعيسة التي تسعى إلى خداع نفسها حتى عندما تواجه أمر خيبات الأمل، والتي تعلن أنها كان يمكن أن تكون على صواب لو أن الأمور حدثت بطريقة مختلفة قليلا. وفي الوقت ذاته كان ماركس وانغلز متحررين من الانهزامية الرخيصة والتشاؤم العقيم. لقد كانا يتعلمان من هزائمهما ويكتسبان منها قوة جديدة للإعداد لنصر قادم.

مع هزيمة عمال باريس في 13 حزيران، وفشل حملة دستور الرايخ في ألمانيا وسحق القيصر للثورة في هنغاريا، انتهت مرحلة كبيرة من مراحل الحركة الثورية. وإذا كان هناك من بعث للثورة، فقد كان لا بد أن يحدث في فرنسا وحدها، حيث لم تحسم الأمور رغم كل ما حدث. تمسك ماركس بثبات بالأمل في بعث كهذا، ولكن لم يمنعه من إخضاع كل تطورات الثورة الفرنسية لنقد قاس سخر فيه من كل الأوهام. على العكس من ذلك، دفعه أمله إلى ممارسة هذا النقد، فتفحص تشوش النضالات الثورية، الذي يبدو للسياسي المثالي بالضرورة تشوشا لا حل له، من وجهة نظر التناقضات العدائية الاقتصادية التي اصطدمت ببعضها البعض في هذه النضالات.

نشر هذا النقد في الأعداد الأول من الصحيفة، وفيما ينجح ماركس في الكشف عن أعقد المسائل الراهنة ببضع جمل شديدة الإيجاز. فكم من بحار الحبر أراقها على حق العمل ألمع ممثلي البرجوازية وحتى بعض الاشتراكيين الدغماتيين، وكم هي قليلة الكلمات التي لخص بها ماركس

أهمية ونقائص هذا الشعار! «لقد احتوت المسودة الأولى للدستور التي وضعت قبل أيام حزيران على المطالبة بحق العمل. فكان ذلك أول صياغة سيئة لرغائب البروليتاريا الثورية. وفيما بعد تحول هذا الشعار إلى المطالبة بحق الدعم العام، وأي دولة حديثة لا تدعم عاطليها بهذا الشكل أو ذاك؟ إن حق العمل ليس من وجهة النظر البرجوازية أكثر من هراء وأمنية حقيرة، ولكن خلف حق العمل تقف سلطة السيطرة على رأس المال، وخلف سلطة السيطرة على رأس المال يقف انتزاع وسائل الإنتاج وخضوعها للطبقة العاملة، وبعبارة أخرى يقف إلغاء العمل المأجور ورأس المال وعلاقاتهما المتبادلة». لقد أدرك ماركس أن الصراع الطبقي هو القوة الدافعة للتطور التاريخي على أساس التاريخ الفرنسي، الذي ظهر فيه الصراع الطبقي بشكل كلاسيكي واضح منذ القرون الوسطى، وهذا هو ما يفسر تفضيل ماركس للتاريخ الفرنسي. إن هذه الأطروحة والأطروحة التي تلتها عن الانقلاب البونابرتي والأطروحة الثالثة التي لحقتهما عن عامية (كومونة) باريس، تمثل أروع الجواهر في تاج الكتابات التاريخية الصغيرة التي كتبها ماركس.

كذلك احتوت الأعداد الثلاثة الأولى من الصحيفة على مادة تبعث مقارنتها بما سبق على التسلية، ولكنها لم تكن تخلو من نتائج مأساوية. كانت هذه المادة وصفا عاما لثورة برجوازية صغيرة استمده انغلز من وصفه لحملة دستور الرايخ في ألمانيا. وكانت الشهريات التي اشترك ماركس وانغلز في كتابتها تعالج سير الأحداث الاقتصادية. وفي عدد شباط أشارا إلى اكتشاف الذهب في كاليفورنيا على أنه حقيقة «تكبر أهميتها أهمية ثورة شباط»، وسيكون لها نتائج أعظم وأبعد مدى من اكتشاف أمريكا: «إن شريطا ساحليا عرضه ثلاثون درجة ويشكل واحدة من أخصب وأجمل مناطق العالم ويكاد يخلو من السكان حتى يومنا هذا، يتحول أمام أعيننا إلى بلد متمدن وغني يسكنه بكثافة أناس من كل الأعراق من اليانكيين إلى الصينيين، ومن الزنوج إلى الهنود والملاييين، ومن الخلاسيين والمستينرو إلى الأوربيين. إن ذهب كاليفورنيا يتدفق على أمريكا وعلى السواحل الأسيوية للمحيط الهادي، جارفا الشعوب البربرية دافعا بها إلى مدار التجارة العالمية وإلى مجال المدنية. وللمرة الثانية تتلقى التجارة العالمية دفعا جديدا... وسرعان ما تصبح سواحل المحيط الهادي معادلة في كثافة سكانها ورفعة تصنيعها وانفتاحها على التجارة للساحل الممتد من بوسطن إلى نيو اورليانز، وذلك بفضل ذهب كاليفورنيا والطاقة المتجددة التي يتمتع بها اليانكيون. وحينئذ سيلعب المحيط الهادي الدور الذي يلعبه المحيط الأطلسي الآن والدور الذي لعبه البحر المتوسط في العصور القديمة والوسطى -دور الممر المائي للاتصالات العالمية- وستهبط قيمة المحيط الأطلسي ليصبح مجرد بحيرة كما هو البحر الأبيض اليوم. إن الفرصة الوحيدة التي لا تزال بلدان أوربا المتمدنة تملكها لتجنب الوقوع في التبعية الصناعية والتجارية والسياسية التي وقعت فيها إيطاليا واسبانيا والبرتغال، تكمن في الثورة الاجتماعية في وقت مبكر، تلك الثورة التي ستحول نمط الإنتاج والتبادل طبقا لحاجات الإنتاج الناجمة عن طبيعة القوى الإنتاجية الحديثة، مما يجعل بالإمكان تطوير قوى إنتاجية جديدة تضمن التفوق للصناعة الأوربية وتعادل من تأثير العيوب التي يسببها الوضع الجغرافي لأوربا». كان كل ما تجب إضافته إلى هذا المنظور الرائع، هو القول أن الفرص المباشرة لنشوب أية ثورة قد تعثرت على صخرة اكتشاف مناجم الذهب في كاليفورنيا، ولقد اكتشف ماركس وانغلز ذلك سريعا فيما بعد.

كذلك انتقد ماركس وانغلز عددا من الكتابات التي بذل فيها قادة الفكر في فترة ما قبل آذار جهدهم للكشف عن مشاكل الثورة، ومن بين هذه الكتابات كتب الفيلسوف الألماني دومر والمؤرخ الفرنسي غيزوت والعبقري الانجليزي كارليل. انطلق دومر عن المدرسة الهيغلية، بينما مارس غيزوت تأثيرا كبيرا على ماركس ومارس كارليل تأثيرا على انغلز، ولكن الحكم الذي أصدره ماركس وانغلز عليهم كان: لقد وزنوا في ميزان الثورة، فوجدوا جميعا ناقصين. ولخصا التفاهات التي كان دومر يبشر بها «بدين حقبة عالمية جديدة» في صورة مؤثرة هي: أن الفلسفة الألمانية تبكي وتنوح على موت مولاها، الفلستية الألمانية. أما نقدهما لغيزوت فقد أوضح أن أحداث شباط أوقعت أقدر عقول النظام القديم، حتى أولئك الذين كانوا بينهم يتمتعون بموهبة تاريخية، في تشوش كامل جعلهم يفقدون كل فهم تاريخي حتى لأفعالهم هم. وفي النهاية أعلنا أن كتاب غيزوت برهان على الانحطاط الفكري لقادة البرجوازية الكبار، بينما تبرهن بضعة النشرات التي أصدرها كارليل على تدهور العبقرية الأدبية في وجه النضالات التاريخية الحادة التي سعت إلى ممارسة طموحاتها النبوية المباشرة التي تعاني من سوء الفهم عليها.

وعلى الرغم من أن ماركس وانغلز بيّنا في هذه الانتقادات اللامعة على الآثار المدمرة للنضالات الثورية على نجوم الأدب البرجوازيين في فترة ما قبل آذار، فإنهما كانا أبعد ما يكون عن الاعتقاد بأي قوة صوفية للثورة، على الرغم من أنهما اتهما بذلك في أحيان عدة. إن الثورة لم تخلق الصورة التي صدمت دومر وغيزوت وكارليل، لكن كل ما فعلته هو إزاحة الستار الذي كان يخفي هذه الصورة. كذلك لم يغير التطور التاريخي مساره خلال الثورات، لكنه سارع وتيرة تقدمه فحسب، وبهذا المعنى أطلق ماركس مرة على الثورات اسم «قاطرة التاريخ». وبالطبع لم يكن ماركس وانغلز ليتلفتا يوما إلى ذلك الاعتقاد الذي يهدهده المدعون الجهلة بأن «الإصلاح السلمي المشروع» يتفوق على كل الانفجارات الثورية، فقد كانا ماركس وانغلز يعتبران القوة طاقة اقتصادية، كانا يعتبرانها قابلة كل المجتمعات الجديدة.

2-الانشقاق في العصبة الشيوعية

إن النشاطين الرئيسيين اللذين قام بهما ماركس وانغلز عام 1850، عدا عن إصدار «نيو راينيخه رفيو»، يبينان الأمور التي كانت تجذب الصديقين إلى غيرهما من المهاجرين والأمور التي كانت تميل إلى انفصالهما عنهم. كان هناك من جهة «جمعية مساعدة اللاجئين» التي أسساها مع باور وفاندر وويليش لمساعدة اللاجئين السياسيين الذين كانوا يتدفقون على لندن لأن السلطات السويسرية كانت قد بدأت تعاملهم بالقليل من الاعتبار. ومن جهة أخرى كان هناك إعادة تأسيس العصبة الشيوعية، الذي أصبح مهمة تزداد ضرورتها يوما فيوما كلما استمرت الثورة المضادة المنتصرة في حرمان الطبقة العاملة من قدر متزايد من حرية الصحافة وحرية الاجتماع، وفي الواقع من كل وسائل الدعاية العلنية. ويمكن للمرء أن يلخص الوضع بأن ماركس وانغلز أعلنا أنهما متضامنين مع غيرهما من اللاجئين شخصيا، ولكن ليس سياسيا، وإنهما كانا يقاسيان آلام هؤلاء اللاجئين، ولكن ليس أوهامهم، وإنهما ضحيا بكل ما يملكان لمساعدة هؤلاء، ولكنهما لم يضحيا بذرة من معتقداتهما السياسية.

كانت الهجرة الألمانية، وبقدر أكبر الهجرة العالمية، تمثل مزيجا مختلطا من أكثر العناصر اختلافا. غير أن هذه العناصر جميعا كانت تأمل في انبعاث الثورة التي تمكنها من العودة إلى الوطن، وكانوا جميعا يعملون لهذه الغاية، فبدا أن هناك أساسا للعمل المشترك فيما بينهم، ولكن كل جهودهم فشلت في الممارسة وبلا استثناء. فقد كان أقصى ما يتم التوصل إليه قرارات على الورق، وكلما كان لهذه القرارات ضجيج أكبر كلما كانت لها أهمية أقل. وحالما يبدأ اتخاذ أي إجراء عملي، تبدأ النزاعات والخصومات. ولم يكن سبب هذه الخصومات الأشخاص المشتركين فيها، بل كان الوضع غير المؤاتي هو الذي يزيدها حدة، والصراع الطبقي هو الأساس الحقيقي لها، هذا الصراع الذي حدد مسيرة الثورة والذي استمر في دوائر المهاجرين رغم كل المحاولات الطيبة النية للتخلص منه. ولقد أدرك ماركس وانغلز عقم هذه المحاولات منذ البداية فلم يشاركا فيها، مما أدى بجميع الأجنحة إلى الاتفاق على نقطة واحدة على الأقل هي أن ماركس وانغلز هما مثيرا المتاعب الحقيقيين.

تابع ماركس وانغلز من جهتهما سياسة الصراع الطبقي التي كانا قد بدآها حتى قبل نشوب الثورة. ومنذ صيف 1849، كان الأعضاء القدماء في العصبة الشيوعية قد تجمعوا كلهم تقريبا في لندن، باستثناء مول، الذي سقط صريعا في الاشتباك على المريغ، وفيلهلم ولف الذي لم يصل إلى لندن من سويسرا إلا بعد ذلك بسنة، وشابر الذي لم يصل إلا في صيف 1850. وبالإضافة إلى ذلك، كان قد تم اكتساب أعضاء جدد. وكان منهم اوغست ويليش، وهو ضابط بروسي سابق اكتسبه انغلز وأبدى قدرة قيادة في قيادة قوات المتطوعين خلال الحملة في بادن وبالانتينيت، وكان رجلا نافعا جدا ولكنه واضحا نظريا. كذلك كان هناك رجال أصغر سنا: التاجر كونراد شرام، والمعلم فيلهلم بيبر، وقبل كل هؤلاء فيلهلم ليبكنشت، الذي كان قد درس في عدة جامعات ألمانية ولكنه اجتاز امتحاناته النهائية في انتفاضة بادن وفي المنفى في سويسرا. وفي السنوات اللاحقة، ارتبط هؤلاء جميعا ارتباطا وثيقا بماركس، وعلى الأخص ليبكنتش. ولم يمتدح ماركس الرجلين الآخرين دائما، فقد سببا له بعض المتاعب، ولكن على المرء أن لا يأخذ كل كلمة ضيق وكأنها كلمة نهائية. فقد رثا ماركس كونراد شرام عندما توفي بالسل شابا واصفا إياه بأنه كان «خادما مخلصا» للحزب، وأعلن مرة مشيرا إلى بيبر بأنه كان «ولدا طيبا بشكل عام». وبفضل بيبر أصبح المحامي يوهانس ميكيل يراسل ماركس ثم انضم إلى العصبة فيما بعد، ومن الواضح أن ماركس كان يعتبره رجلا له بعض الذكاء. وقد ظل ميكيل مخلصا بضع سنوات، ولكنه في النهاية ارتد كصاحبه بيبر وأصبح ليبراليا.

وفي آذار 1850، أصدرت اللجنة المركزية للعصبة تعميما وضعه ماركس وانغلز، وحمله إلى ألمانيا هينريخ باور الذي كلف بإعادة التنظيم هناك. كان هذا التعميم مبنيا على الاعتقاد بأن ثورة جديدة تقترب «ربما نتيجة نهوض مستقل للبروليتاريا الفرنسية، أو نتيجة غزو قوات التحالف المقدس لبابل الثورة». وكما أن ثورة آذار حملت البرجوازية إلى النصر، وعندئذ ستبدأ هذه بخيانة البروليتاريا.

ولخص التعميم موقف حزب البروليتاريا الثوري من الديمقراطيين البرجوازيين الصغار كما يلي: «سيتعاون حزب البروليتاريا الثوري مع الديمقراطيين البرجوازيين الصغار ضد الجناح الذي يرغب الطرفان في الإطاحة به، ولكنه سيعارضهم في كل النقاط التي تقتضيها مصلحته». وستستخدم البرجوازية الصغيرة الثورة المنتصرة لإصلاح المجتمع الرأسمالي لجعل الحياة أسهل وأكثر راحة لها وإلى حد ما للعمال. غير أن البروليتاريا لا تستطيع أن تقنع بذلك. ذلك أن البرجوازية الصغيرة الديمقراطية ستسعى بعد أن تتحقق مطالبها المحدودة إلى التخلص من الثورة بأسرع ما يمكن، في حين أن مصالح البروليتاريا تفرض عليها أن تجعل الثورة دائمة «حتى تخرج جميع الطبقات المالكة إلى هذا الحد أو ذاك من الثورة، وتستولي البروليتاريا على سلطة الدولة لنفسها، وإلى أن يتقدم ارتباط العمال، لا في بلد واحد بل في كل البلدان الأكثر أهمية في العالم كله، إلى درجة ينتهي فيها التنافس بينهم وتصبح أهم أدوات الإنتاج على الأقل في أيديهم».

ولذا حذر التعميم العمال من الانخداع بتبشير الديمقراطيين البرجوازيين الصغار بالتسويات، أو الانحطاط إلى لعب دور التابعين للبرجوازية الديمقراطية. فإن عليهم، على العكس من ذلك، أن ينظموا أنفسهم بأكمل وأشمل شكل ممكن، حتى يمكنهم بعد انتصار الثورة، الذي سيتم كالعادة بفضل قوتهم وشجاعتهم، إملاء شروط على البرجوازية الصغيرة تجعل البرجوازية الديمقراطية يحمل في داخله بذور تحلله وتفسخه، مما يسهل استبداله بحكم البروليتاريا فيما بعد.

«وخلال النضال، وبعده مباشرة، يجب على العمال أن يعارضوا فوق كل شيء وبأكبر قدر ممكن كل المحاولات البرجوازية للتهدئة ويجبروا الديمقراطيين على تنفيذ كلامهم الإرهابي... ويجب علينا أن لا نعارض ما يسمى بالفظاعات، مثل انتقام الشعب من الأشخاص المكروهين، أو هجومه على البنايات التي تثير لديه ذكريات كريهة، بل لا يترتب علينا أن نتسامح تجاه هذه الأعمال فحسب، بل أن نأخذ الدور القيادي فيها». وخلال الانتخابات للجمعية الوطنية، يجب على العمال أن يتقدموا بمرشحين لهم في كل مكان، حتى ولو لم يكن لديهم حظ النجاح، وعليهم أن يتجاهلوا كل الجمل الديمقراطية. وبالطبع، لن يستطيع العمال في بداية الحركة أن يتقدموا بأية مقترحات شيوعية محددة، ولكنهم يستطيعون أن يجبروا الديمقراطيين على التدخل إلى أقصى حد ممكن وبكل طريقة ممكنة في بنية النظام الاجتماعي السابق والتدخل في انتظام عمله، وبالتالي إلحاق الضرر بأنفسهم، كما يستطيعون إجبارهم على وضع أكثر ما يمكن من وسائل الإنتاج، كوسائل النقل والمصانع وسكك الحديد الخ في يدي الدولة.

وفوق كل شيء، يجب على العمال عند إلغاء الإقطاعية أن لا يتسامحوا تجاه تفتيت الملكيات الإقطاعية الكبيرة وتوزيع الأرض على الفلاحين كملكية فردية، كما تم بعد الثورة الفرنسية الكبرى، لأن ذلك سيؤدي إلى تكريس وجود البروليتاريا الريفية وخلق طبقة برجوازية صغيرة من ملاك الأرض يعانون من الإفقار والديون التي يعاني منها الفلاح الفرنسي. على العكس من ذلك، ينبغي على العمال أن يطالبوا بأن تظل الملكيات الإقطاعية المصادرة ملكا للدولة وتحويلها إلى جماعيات للفلاحين تديرها بروليتاريا الأرض على أسس الزراعة الكبيرة. وبهذه الطريقة، يتم وضع أساس صلب لمبدأ الملكية الجماعية في مركز علاقات الملكية البرجوازية المتعثرة.

لاقى باور في مهمته إلى ألمانيا، مسلحا بهذا التعميم، نجاحا عظيما. فقد استطاع أن يعيد اتصالات كانت قد قطعت، كما استطاع إقامة اتصالات جديدة، وفوق كل شيء استطاع أن يكسب نفوذا واسعا في صفوف بقايا جمعيات العمال والفلاحين والعمال المياومين التي كانت لا

تزال موجودة رغم إرهاب الثورة المضادة. وكذلك انضم إلى العصبة الشيوعية أكثر أعضاء جمعية الإخاء العمالية التي أسسها ستيفان بورن، فأرسل كارل شورز الذي كان يطوف ألمانيا موفدا من جمعية اللاجئين في سويسرا تقريا إلى زوريخ يقول أن العصبة تكسب «أكثر العناصر فعالية». وفي وثيقة صدرت في حزيران 1850، كان بوسع اللجنة المركزية للعصبة أن تقول أن العصبة غرست جذورا صلبة في عدد من المدن الألمانية، وأن لجانا قيادة أنشئت في هامبورغ لمنطقة سليزويغ-هولشتاين، وفي شفيرن لمنطقة ميكلينبرغ، وفي برسلو لمنطقة سيليسيا، وفي ليبزيغ لمنطقة ساكسونيا وبرلين، وفي نورمبرغ لمنطقة بافاريا، وفي كولون لمنطقة الراينلاند ووستفاليا.

وأعلنت الوثيقة ذاتها أن لندن هي أقوى مركز للعصبة، وأنها تكاد تزود العصبة بكل مواردها المالية، وتوجه عمل العصبة العمالية التثقيفية الألمانية وأهم جماعات المهاجرين، وأن العصبة تحتفظ بعلاقات وثيقة مع الأحزاب الثورية الانجليزية والفرنسية والمجرية. غير أن منطقة لندن كانت من زاوية أخرى أضعف نقطة في العصبة، لأن العصبة أصبحت من خلالها تنغمس أكثر فأكثر في صراعات المهاجرين الشرسة.

خلال صيف 1850، اختفى الأمل بانبعاث الثورة بسرعة. ففي فرنسا دمر الاقتراع العام دون أن ينتج عن ذلك أي مقاومة من جانب العمال، وأصبحت سلطة التقرير مقتسمة بين لوي بونابرت وبين الجمعية الوطنية الملكية الرجعية. وفي ألمانيا انسحبت الديمقراطية البرجوازية الصغيرة من حلبة السياسة بينما شاركت البرجوازية الليبرالية في اقتسام المغانم الذي بدأته بروسيا فورا على حساب الثورة. غير أن الولايات الألمانية الأخرى خدعت بروسيا، فقد كانت ترقص جميعا على أنغام النمسا، بينما كان القيصر يفرقع بالسوط فوق ألمانيا كلها. وكلما أصبح الجزر الثوري أكثر وضوحا، كلما كان المهاجرون يعززون جهودهم لخلق ثورة مصطنعة. فكانوا يتجاهلون عمدا كل إشارات التحذير ويعلقون آمالهم على المعجزات التي ظنوا أن باستطاعتهم تحقيقها بفعل قوة الإرادة والتعميم وحدهما. وفي الوقت ذاته، وبالمقدار ذاته، أصبحوا يشكون في أي نقد ذاتي في صفوفهم، ونتيجة لذلك تعمق الصدام بين ماركس وانغلز، اللذين كانا يدركان الوضع على حقيقته، وبين بقية المهاجرين. وكيف يتسنى لصوت المنطق والعقل أن يسيطر على عاصفة العواطف التي كانت تزداد هياجا في قلوب الرجال كلما أصبحوا أكثر يأسا؟ كان الوضع ميئوسا، وفي الواقع امتدت حمى الهذيان إلى صفوف العصبة ذاتها وأثرت سلبا على معنويات لجنتها المركزية.

وفي جلسة اللجنة المركزية التي انعقدت في 15 أيلول 1850 حصل انشقاق واضح، إذ وقف ستة أعضاء في جانب ووقف الأربعة الآخرون في الجانب الآخر. كان الستة هم ماركس وانغلز وباور وايكاريوس وفاندر من الحرس القديم بالإضافة إلى كونراد شرام من الجيل الجديد. أما الأربعة فكانوا شابر دويليش وفرانكل وليهمان، ولم يكن بينهم من الحرس القديم غير شابر. وكان شابر «الثوري الأصيل»، كما سماه انغلز مرة، انجرف في تيار الغضب الثوري لما رآه من فظاعات الثورة المضادة لمدة أكثر من سنة، وكان قد وصل لتوه إلى انجلترا.

لخص ماركس النزاع الذي نشب في هذه الجلسة الحاسمة كما يلي: «إن الأقلية تستبدل الملاحظة النقدية بالدغماتية، وتستبدل الموقف المادي بموقف مثالي. فهي تعتبر رغائبها الخاصة القوة الدافعة للثورة بدلا من الوقائع الحقيقية للوضع. وبينما نخبر نحن العمال أن عليهم أن يخوضوا غمار خمسة عشر أو عشرين أو حتى خمسين سنة من الحرب والحرب الأهلية، لا لكي يبدلوا الوضع القائم فحسب، بل وأيضا حتى يصبحوا مؤهلين للاستيلاء على السلطة السياسية، تقولون أنتم لهم على العكس من ذلك أن عليهم أن يستولوا على السلطة السياسية الآن فورا وإلا فليفقدوا كل أمل. وبينما نوضح نحن كيف أن البروليتاريا الألمانية لا تزال متخلفة، تقومون أنتم بدغدغة العواطف القومية للحرفي الألماني وتحيزاته بأتفه الوسائل، وهذا بالطبع نهج أكثر شعبية. وكما أن الديمقراطيين جعلوا من كلمة شعب شيئا مقدسا، تحاولون انتم أن تفعلوا الشيء ذاته بكلمة بروليتاريا». نشبت نقاشات عنيفة، حتى أن شرام تحدى ويليش للمبارزة، رغم أن ماركس شجب هذا التصرف. وبالفعل حدثت المبارزة قرب انتغيرب وجرح فيها شارم جرحا طفيفا. وفي نهاية الأمر تبين أن من المستحيل التوفيق ما بين الطرفين.

حاولت الأغلبية أن تنقذ العصبة بنقل قيادتها المركزية إلى كولون. على أن تنتخب منطقة كولون لجنة مركزية جديدة، وتقسم منطقة لندن إلى منطقتين منفصلتين مستقلتين عن بعضهما البعض وكل منهما ترتبط باللجنة المركزية في كولون. وافقت منطقة كولون على هذا الاقتراح وانتخبت لجنة مركزية جديدة، لكن الأقلية رفضت فيما بعد الاعتراف بها. وكان للأقلية النفوذ الأقوى في منطقة لندن، وعلى الأخص في عصبة العمال الألمان التثقيفية، فما كان من ماركس ورفاقه الأقربين إلا أن استقالوا منها. وهنا مضى شابر وويليش إلى إنشاء منظمة خاصة بهما، ولكنها سرعان ما انحطت إلى سلوك سبيل المغامرة التامة.

شرح ماركس وانغلز وجهة نظرهما في الرقمين الخامس والسادس من «نيو راينيخه رفيو»، اللذين ظهرا كعدد مزدوج في تشرين الثاني 1850، وكانا آخر عدد يصدر من الصحيفة. وفي هذا الشرح أورد ماركس وانغلز موقفهما بالتفصيل أكثر مما فعلا في الجلسة التي حصل فيها الانشقاق. كذلك احتوى العدد المزدوج على مقالة طويلة لانغلز حول الحرب الفلاحية عام 1825 من وجهة النظر المادية التاريخية، ومقالة أخرى كتبها ايكاريوس حول الخياطة في لندن. وقد استقبل ماركس هذه المقالة الأخيرة بحرارة معلنا: «قبل أن تقاتل البروليايا معاركها خلف المتاريس، فإنها تعلن قدوم حكمها بسلسلة من الانتصارات الفكرية».

كان ايكاريوس نفسه يعمل في أحد مشاغل الخياطة، فأدرك أن استبدال المشاغل الحرفية بالصناعة الكبيرة خطوة تاريخية إلى الأمام، وفي الوقت ذاته لاحظ أن نتائج انجازات الصناعة الكبيرة تخلق شروط ثورة البروليتاريا وتجددها يوميا. فتبني موقفا ماديا تماما، وعارض المجتمع البرجوازي وكل قواه دون أن يصاب بالعاطفية المعتادة. ولهذا السبب امتدح ماركس مقالته بوصفها خطوة عظيمة إلى الأمام تتخطى النقد العاطفي والأخلاقي والسيكولوجي للأوضاع القائمة كنا يمارسه ويتلينغ وغيره من كتّاب الطبقة العاملة. كذلك مثلت المقالة واحدة من ثمرات العمل التثقيفي الذي كان ماركس يمارسه، وكانت ثمرة جيدة حقا.

غير أن أهم مساهمة في هذا العدد الأخير كانت مراجعة سياسية اقتصادية للفترة ما بين أيار وتشرين الأول. وفيها عالج ماركس وانغلز الأسباب الاقتصادية للثورة السياسية وللثورة المضادة بتحليل واف وشامل، مبينين أن الأولى نجمت عن الأزمة الاقتصادية، بينما تجد الثانية

جذورها في تقدم جديد للإنتاج. وكانت النتيجة التي انتهيا إليها هي: «بالنظر إلى الازدهار العام الذي يسود الآن والذي يسمح لقوى الإنتاج في المجتمع البرجوازي بالتطور بأسرع ما يمكن ضمن إطار المجتمع البرجوازي، فإنه لن يكون هناك أي مجال لنشوب أية ثورة حقيقية. فثورة كهذه ممكنة فحسب في فترة يرتطم فيها عاملان: عندما تصطدم قوى الإنتاج الحديثة بنمط الإنتاج البرجوازي. أما المنازعات المختلفة التي ينغمس فيها الآن مختلف ممثلو أجنحة النظام القاري فلن تؤدي إلى أي ثورة جديدة. بل على العكس من ذلك، إن هذه المنازعات ليست ممكنة إلا أن أساس العلاقات السائدة متين وبرجوازي كذلك، وهذه النقطة الأخيرة تجهلها الرجعية. ولذا فإن كل محاولات الرجعية للحيلولة دون التطور البرجوازي ستتحطم كما سيتحطم كل الغضب الأخلاقي الذي يحدو بالديمقراطيين إلى إطلاق البيانات الحماسية. ولن تكون الثورة الجديدة ممكنة إلا نتيجة لأزمة جديدة، ولكنها مؤكدة القدوم تماما كما أن قدوم الأزمة مؤكد».

قورن هذا الوصف الواضح المقنع للوضع القائم بنداء أصدرته لجنة مركزية أوربية ووقعه ماتزيني وليدرو-رولان وداراز وروغه، فقد كان هذا النداء يمثل في أوجز صورة كل أوهام اللاجئين السياسيين ويفسر فشل الثورة كنتيجة للحسد الطامح للقادة الأفراد والتعاليم المتناقضة لمختلف ممثلي الشعب، وينتهي النداء بإبداء الإيمان بالحرية والمساواة والإخاء والعائلة والمجتمع والدولة والوطن، وباختصار بإبداء الإيمان بنظام اجتماعي يقف الله وقوانينه الخالدة على رأسه والشعب في قاعدته.

يحمل العدد الأخير من «نيو راينيخه رفيو» تاريخ الأول من تشرين الثاني 1850، وبه توقف التعاون المباشر بين كتَّابه مدة عقدين، ذلك أن انغلز ذهب إلى مانشستر ليعمل مرة أخرى في مصانع ايرمين وانغلز بينما بقي ماركس في لندن ليكرس كل طاقاته للدراسة العلمية.

3-الحياة في المنفى

اقترب ماركس في تشرين الثاني 1850 من منتصف عمره، وأيام تشرين الثاني هذا تمثل نقطة تحول هامة في العمل الذي استغرق حياته. وقد كان ماركس على وعي لذلك، ولربما كان انغلز أشد وعيا له.

كتب إلى ماركس في شباط 1851: «يستطيع المرء أن يعي أكثر فأكثر أن المنفى مؤسسة لا بد أن يصبح المرء فيها أحمق وحمارا ووغدا حقيرا إلا إذا انسحب منها كلية وقنع بأن يكون مستقلا لا يتعب رأسه حتى بما يدعي الحزب الثوري». فأجاب ماركس: «إنني أحب كثيرا الانعزال الذي نجد نحن الاثنين نفسينا فيه. فهو يتفق تمام الاتفاق مع موقفنا ومبادئنا. لقد انتهت ممارسة التنازلات المتبادلة والحلول الوسطى التي يجري التسامح تجاهها من أجل المظاهر، وانتهت ضرورة المشاركة في المسؤولية أمام الرأي العام مع كل أولئك الحمير». وكتب انغلز ثانية: «لدينا الآن فرصة أخرى، لم تسنح منذ وقت طويل، لنبين أننا لسنا بحاجة إلى الشعبية ولا إلى الدعم من أي حزب في أي بلد، وأن موقفنا مستقل تماما عن هذه التفاهات. من الآن فصاعدا، نحن مسؤولون عن أنفسنا فحسب... وبالمناسبة، لا يمكننا أن نشكو لأن صغار الرجال يتجنبوننا. فقلد تصرفنا سنوات عدة كما لو أن فلانا وعلانا ينتمون إلى حزبنا، رغم أنه لم يكن لنا حزب، وكان الناس الذين نعتبرهم من حزبنا، على الأقل رسميا، لا يفهمون حتى المبادئ الأولية لقضيتنا».

من الخطأ أن نأخذ تعابير «حمقى» و«حمير» و«أوغاد» على حرفيتها، إذ أنها يمكن أن تطرح من هذه الملاحظات الغاضبة، ولكن ما يتبقى حينئذ يبين لنا أن ماركس وانغلز كانا يعتبران عن حق أن في قرارهما بالابتعاد عن منازعات المنفيين العقيمة خلاصا لهما. فقد رضيا بقدر من العزلة، على حد تعبير انغلز، كي يكملا دراساتهما العلمية حتى يحين الوقت الذي يفهم فيه الناس قضيتهما بشكل أفضل.

غير أن انقطاعهما لم يكن كاملا وسريعا وعميقا كما يبدو. فنحن نجد أن الصراعات الداخلية بين المنفيين تلعب دورا كبيرا في الرسائل التي تبادلاها في السنوات اللاحقة، ويعود هذا إلى الاحتكاك الدائم الذي كان يحصل بين الجناحين اللذين انشقت إليهما العصبة الشيوعية، إن لم يكن لأي سبب آخر. أكثر من ذلك، على الرغم من أن ماركس وانغلز قررا أن لا يشاركا في النزاعات الصاخبة خلال فترة هجرتهما، إلا أن ذلك لم يكن بالتأكيد يعني أنهما تخليا عن لعب أي دور في النضال السياسي. فقد استمرا في المساهمة في الصحف الميثاقية (الشارتية)، ولم يعتبرا توقف «نيو راينيخه رفيو» نهائيا.

عرض ناشر في بازل أن يتعهد بإعادة إصدار الصحيفة، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث في النهاية، وعندئذ بدأ ماركس يتفاوض مع هيرمان بيكر، الذي نجح في الحفاظ على مركزه في كومون كمحرر لـ«وست دويتشه تزايتونغ» لبعض الوقت، وعندما حظرت هذه الصحيفة في النهاية استطاع أن يصبح مديرا لإحدى دور النشر. وكان ماركس يريد أن تنشر أعماله الكاملة في نسخة واحدة، وأن يصدر مجلة فصلية من لييج. لكن هذه الخطة فشلت بإلقاء القبض على بيكر في أيار 1851، رغم أن كتيبا واحدا من الأعمال الكاملة ظهر فعلا. وكان المقرر أن يصدر مجلدان، في كل منهما 400 صفحة، على أن يتسلم من غامروا بالاشتراك المجلدين في عشرة كتيبات. وقد بيع الكتيب الأول سريعا، ولكن قول وايدماير أن قد بيع منه 15 ألف نسخة ربما كان خطأ، فقد كان عشر هذا الرقم يمثل نجاحا جيدا في تلك الأيام.

عندما كان ماركس يضع هذه الخطط، كان في حاجة ماسة إلى كسب عيشه. فقد كان يعيش وعائلته في فقر مدقع. وفي تشرين الثاني 1849 ولد له ولد رابع سماه غيدو، وكتبت والدة الصبي تقول: «لقد رضع الملاك الصغير البائس كثيرا من الهموم والمخاوف حتى أصبح مريضا على الدوام يعاني أوجاعا مريرة ليلا ونهارا. ومنذ أن أتى إلى العالم، لم ينم ليلة واحدة نوما هانئا أو أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات في المرة الواحدة». وقد مات هذا الصبي بعد سنة واحدة من مولده.

وطردت العائلة من مسكنها الأول في شيلسي بطريقة فظة وقاسية، رغم أن الإيجار كان قد دفع للمؤجر، ولكن هذا لم يدفعه للمالك. وبعد عدد هائل من المصاعب، نجحت العائلة في الحصول على مأوى مؤقت في فندق ألماني في شارع ليستر القريب من ساحة ليستر، وبعد ذلك بقليل انتقلت إلى شارع دين في ساحة سوهو. وأصبح البيت ذو الغرفتين مسكنا دائما للعائلة طيلة السنوات الست اللاحقة. غير أن ذلك لم يخلصها من متاعبها المالية التي كانت تزداد باطراد. وقد كتب ماركس إلى وايدماير في حوالي نهاية تشرين الأول 1850 يسأله أن يأخذ فضة العائلة من المرتهن ويبيعه بأفضل ثمن ممكن، وأن لا يبقى سوى على علبة صغيرة من المعالق تخص بيني الصغيرة. «وضعي الآن هو أنه يجب أن أحصل على نقود مهما كان من أمر لأستطيع الاستمرار في العمل». وفي ذلك الحين غادر انغلز إلى مانشستر ليكرس نفسه «للتجارة الملعونة» وكي يعين صديقه ماليا».

ثبت لماركس أن الصديق نادر عند الضيق، عدا انغلز بالطبع، ففي عام 1850 كتبت السيدة ماركس إلى وايدماير تقول: «إن أكثر ما يقلقني ويجعل قلبي ينزف دما هو أن زوجي يقلقه عدد كبير من المتاعب الصغيرة. وهو ليس الآن دون مساعدة. أرجو أيها السيد وايدماير أن لا تظن أننا نطلب شيئا من أي كان، ولكن على الأقل يستطيع زوجي أن يطلب عن حق من أولئك الذين كانوا يلجأون إليه ليأخذوا منه الكثير من الأفكار ويتلقوا الكثير من الدعم أن يبدوا اهتماما تجاريا بصحيفته. اعتقد أنهم مدينون له بهذا القليل، وأنا لا أخجل من أن أقول ذلك –وعلى كل حال لم يخدع أحد في المسألة. إن هذا الأمر يؤلمني، ولكن زوجي يفكر بطريقة مختلفة. إنه لم يفقد قط ثقته بالمستقبل، حتى في أسوأ اللحظات، وهو يحتفظ على الدوام بمعنويات مرتفعة وييسر كثيرا إذا ما رآني في مزاج حسن، والأولاد يثيرون الضجة من حولي». وكما اعتنت زوجة ماركس به عندما كان الأصدقاء صامتين، كذلك اعتني هو بها عندما اشتدت هجمات الأعداء.

في آب 1851، كتب ماركس إلى وايد ماير يقول: «اعتقد أنك تستطيع تصور وضعي البائس. إن زوجتي ستنهار إذا استمر الحال على هذا المنوال فالمتاعب المستمرة والصراعات اليومية الصغيرة تستهلكها. وفوق كل ذلك هناك حقارة خصومي، الذين لا يحاولون مهاجمتي موضوعيا بل ينتقمون لعجزهم بإلقاء الشكوك حولي ونشر أفظع الأقاويل عني... ولو كان الأمر يتعلق بي وحدي لقهقهت ضاحكا من الأمر كله، وأنا لا أدعه يتدخل في عملي بأية صورة كانت، ولكنك تستطيع أن ترى أن ذلك لا يجلب الراحة لزوجتي المريضة التي تعاني من تعب جهازها العصبي والتي يتعين عليها أن تصارع القفر من الصباح حتى المساء. إن افتقار بعض الناس إلى اللياقة في هذا المجال كثيرا ما يكون هائلا».

قبل ذلك ببضعة أشهر (في آذار) كانت السيدة ماركس قد وضعت طفلة سموها فرانسيسكا، وعلى الرغم من أن الحمل كان سهلا إلا أن السيدة ماركس مرضت مرضا شديدا «لأسباب سيكولوجية أكثر منها أسبابا جسدية» لم يكن هناك قرش واحد في البيت «وفي الوقت ذاته كنا نستغل العمال ونعمل من أجل الديكتاتورية». هكذا كتب ماركس لانغلز بمرارة.

كانت دراسات ماركس العلمية مصدر عزاء دائم له. فقد كان يجلس في المتحف البريطاني من التاسعة صباحا حتى التاسعة مساء. وقد قال مرة مشيرا إلى غرور البعض: «بالطبع لا يحتاج السذج الديمقراطيون الذين يأتيهم الإلهام من فوق لأن يفعلوا أي شيء من هذا القبيل. ولماذا يتعب الأبرياء رؤوسهم بالاقتصاد والتاريخ؟ فكل شيء بسيط جدا. كل شيء بسيط جدا، كما كان ويليش المبجل يقول لي. ربما كان الأمر كذلك في عقولهم المشوشة، فهم في الحقيقة سذج إلى درجة كبيرة». وفي الوقت ذاته كان ماركس يأمل أن ينتهي من كتابة «نقد الاقتصاد السياسي» خلال بضعة أسابيع. فبدأ يبحث عن ناشر، لكن هذا البحث سبب له خيبة أمل أثر أخرى.

وفي أيار 1851 قدم إلى لندن صديق مخلص يستطيع ماركس أن يعتمد عليه اعتمادا مطلقا، ذلك هو فرديناند فريليغارث. وخلال بضع السنوات المقبلة ظل الصديقان على اتصال وثيق، ولكن الأنباء السيئة سرعان ما جاءت في أعقابه. ففي 10 أيار القي القبض على الخياط نوثيونغ في ليبزيغ بينما كان يقوم برحلة تحريض ممثلا للعصبة الشيوعية. وكشفت الأوراق التي كان يحملها وجود العصبة للشرطة، وبعد ذلك بقليل القي القبض على أعضاء اللجنة المركزية في كولون. أما فريليغارث فقد نجا بشق الأنفس رغم أنه لم يكن يعلم الخطر الذي يتهدده. وعندما وصل إلى لندن بدأت الأجنحة المختلفة بين المنفيين الألمان تتنازع ادعاء ارتباط الشاعر العظيم بها، ولكنه وضع حدا لذلك عندما أخبر الجميع أنه يقف مع ماركس وحلقته ورفض أن يحضر اجتماعا وقع في 14 تموز عام 1851 للقيام بمحاولة أخرى لتسوية الخلافات بين المنفيين. فشلت المحاولة كما فشلت كل المحاولات التي سبقتها، ولم يكن لها من نتيجة غير خلق خلافات جديدة. ففي 20 تموز أنشئ «نادي التحريض» بقيادة روغه الفكرية وتبع ذلك في 27 تموز تشكيل نادي المهاجرين بقيادة كنكل الفكرية، وسرعان ما أخذت الجمعيتان برقاب بعضهما، على الأخص على صفحات الصحافة الأمريكية-الألمانية.

بالطبع لم يكن ماركس يحمل لهذه «الحرب الحقيرة بين الضفادع والفئران» غير الاحتقار، وكانت المواقف الفكرية لقادتها بغيضة بالنسبة له بهذا القدر أو ذاك. كان ماركس قد عالج في «نيو راينيخه تزايتونغ» محاولات روغه لاستخلاص منطق أحداث 1848 ولكنه الآن شدد هجومه على «روغه المفكر البوماري» الذي تشكل كتاباته «المجرور الذي تجري فيه كل قمامة الديمقراطية الألمانية وتناقضاتها». غير أن روغه كان برغم كل تشوشه السياسي من مستوى يفوق مستوى كنكل الذي كان يشغل نفسه بمحاولات لا تنتهي للعب دور الأسد الاجتماعي في لندن منذ هربه من السجن في سباندو «طورا في البار وتارة في النادي»، كما قال فريليغارث ساخرا. وبالإضافة إلى ذلك، كان ماركس أكثر اهتماما بكنكل في ذلك الوقت لأن وليش أصبح حليفه في تنظيم عملية احتيالية كبيرة هي القيام بنوع من الثورة على أساس احتمالات محدودة. ففي 14 أيلول 1851 حط كنكل في نيويورك للقيام بكسب بعض اللاجئين المحترمين ليلعبوا دور كفلاء قرض وطني ألماني «يبلغ مليوني دولار لتمويل الثورة الجمهورية القادمة» ولجمع مبلغ أولي قدره 20 ألف ثالر. وكان كوست قد أوردته أولا فكرة الإبحار حاملا صندوق جمع التبرعات، ولكن كنكل نفذ المشروع على نطاق أضيق وإن يكن بالقدر ذاته من الحماسة والمخاطرة. وكان المعلم والتلميذ يبشران خلال نشاطهما ضد العبودية في الولايات الشمالية ولمصلحتها في الولايات الجنوبية.

وبينما كانت هذه المهزلة مستمرة ،أقام ماركس علاقات جدية مع العالم الجديد. فقد كتب انغلز في 31 تموز بينما كانت ضائقته المالية تزداد حدة يقول: «من المستحيل تقريبا أن تظل الأمور سائرة على هذا النحو واقترح إصدار مراسلات مطبوعة وإرسالها إلى الصحف الأمريكية، وبعد ذلك ببضعة أيام تلقى عرضا من «ذي نيويورك تريبيون»، وهي أوسع الجرائد انتشارا في الولايات الشمالية، عرضنا بأن يصبح كاتبا منتظما فيها. وكان العرض قد جاء من دانا ناشر الصحيفة الذي كان ماركس قد عرفه خلال إقامته في كولون. في ذلك الوقت لم يكن ماركس يملك الطلاقة الضرورية والسيطرة الكاملة على اللغة الانكليزية، ولذا فوض انغلز نيابة عنه، فكتب انغلز سلسلة من المقالات عن الثورة المضادة في ألمانيا. وبعد ذلك بقليل استطاع ماركس أن يؤمن نشر أحد كتبه في الولايات المتحدة بالألمانية.

4-الثامن عشر من برومير

كان جوزيف وايدماير صديق ماركس القديم يقاتل بشجاعة خلال السنوات الثورية كمحرر لصحيفة ديمقراطية في فرانكفورت. وعندما أصبحت الثورة المضادة أكثر وقاحة حظرت هذه الصحيفة أيضا، وسرعان ما أصبح جواسيس البوليس يتعقبون وايد ماير بعد اكتشاف العصبة الشيوعية التي كان عضوا نشيطا فيها.

لجأ وايد ماير في البداية إلى «فندق هادئ صغير في ساخسن هاوزن، آملا أن تنجلي العاصفة، شاغلا نفسه أثناء ذلك بكتابة كتاب شعبي في الاقتصاد السياسي. غير أن الجو أصبح خانقا أكثر فأكثر، حتى انفجر وايد ماير قائلا: «ليذهب هذا الاختفاء الذي لا ينتهي إلى الجحيم». كان وايد ماير متزوجا وأبا لطفلين صغيرين، ولما لم ير إمكانية لكسب عيشه في سويسرا أو لندن قرر أن يهاجر إلى أمريكا.

كان ماركس وانغلز غير راغبين على الإطلاق في خسارة صديق مخلص كهذا، وحاول ماركس عبثا أن يجد طريقة للعثور على وظيفة له كمهندس أو مساح في سكة الحديد أو أي شيء من هذا القبيل. «عندما تصل هناك، ما الذي يضمن أن لا تخسر نفسك في مكان ما في الغرب البعيد؟ إننا لا نملك سوى القليل من الرجال الجيدين حقا، ويجب علينا أن نقتصد في قوانا». ولكن عندما أصبح واضحا أنه ليس هناك بد من مغادرة وايد ماير وجد ماركس وانغلز أنهما بذلك يستطيعان أن يؤمنا ممثلا قادرا للعصبة الشيوعية في نيويورك. فقال انغلز: «إننا نحتاج إلى رجل موثوق مثل وايد ماير في نيويورك، فنيويورك ليست خارج العالم على أية حال، ونحن نعلم أننا نستطيع الوثوق من وايد ماير إذا كنا بحاجة له». وفي النهاية منحاه مباركتهما، فأبحر من هافر في 29 أيلول ووصل نيويورك سالما بعد رحلة عاصفة استمرت أربعين يوما.

وفي 31 تشرين الأول أرسل له ماركس رسالة ينصحه فيها بأن يتدبر أمره ويعمل كبائع للكتب وناشر في نيويورك. وأن يأخذ أفضل الأشياء من «نيو راينيخه تزايتونغ» و«نيو راينيخه ريفيو» ويصدرها منفصلة. ولذا سر ماركس عندما تسلم رسالة من وايد ماير يسفه فيها عقلية أصحاب الدكاكين التي تبدو أكثر عريا وإثارة للتقزز في العالم الجديد منها في أي مكان آخر، ولكنه في الوقت ذاته قال أنه يأمل في إصدار مجلة أسبوعية بعنوان الثورة في بداية كانون الثاني، وطلب أن ترسل المساهمات للمجلة بأسرع ما يمكن. عبأ ماركس بحماسة وفي الحال كل الأقلام الشيوعية وعلى رأسها قلم انغلز كما ضمن مساهمة فريليغاث الذي كان وايد ماير يريد قصيدة منه، وايكاريوس وويرث والأخوين وولف. وشكا ماركس في جوابه على وايد ماير من أنه حذف اسم فيلهلم وولف عندما أعلن عمن يساهمون في الصحيفة وقال: «لا يملك أحد منا سلوكا في شعبية سلوكه، ولكنه متواضع جدا ولذا فإن علينا واجبا أكبر في أن نتجنب الظهور بمظهر من يعتبر تعاونه زائدا عن الحاجة» وأعلن ماركس أنه سيساهم بمقالة طويلة تبحث أحد كتب برودون الجديدة وأنه ينوي الكتابة في الثامن عشر من برومير لوي بونابرت أو الانقلاب البونابرتي في 2 أيلول الذي كان أهم حدث في السياسة الأوربية في ذلك الحين وأثار الكثير من النقاشات.

اشتهر كتابان في الموضوع كتبهما آخران وتلقى مؤلفاهما الكثير من الثناء. وفي وقت لاحق وصف ماركس الفرق بين كتابه وهذين الكتابين بما يلي: «إن كتاب فكتور هيجو، نابليون الصغير، يقتصر على قدح وذم المؤلف المذكور للانقلاب بصورة رائعة ومريرة. أما الانقلاب ذاته فيبدو أنه قد سقط من السماء وأنه ليس إلا نتيجة عنف فردي، ولكنه يفشل في أن يرى أنه بذلك إنما يرفع من قدر هذا الفرد بدلا من أن يحط منه بأن يعزو له قدرة شخصية على المبادرة لا مثيل لها في تاريخ العالم. أما من جهة أخرى فإن كتاب برودون «الانقلاب» يحاول أن يظهر الانقلاب على أنه نتيجة لسلسة من التطورات السياسية السابقة، ولكن البنية التاريخية للانقلاب تتحول على يديه إلى محاولة لإيجاد عذر تاريخي لبطل الانقلاب. وهو بذلك يقع في خطأ من يسمون بالمؤرخين الموضوعيين. أما في معالجتي للموضوع، فإنني أبين كيف أن الصراع الطبقي في فرنسا خلق ظروفا وشروطا مكنت رجلا عاديا من لعب دور البطل». بدأ كتاب ماركس صغيرا بجانب الكتابين المحظوظين، ولكن بينما أصبح هذان الكتابان منسيين منذ أمد بعيد لا يزال كتاب ماركس يشع يومنا هذا بعبقرية لامعة خالدة.

نجح ماركس في كتابه الذي يشع ذكاء وفكاهة في أن يحلل حدثا تاريخيا معاصرا حتى النخاع، وذلك بفضل المفهوم المادي للتاريخ. ولا شك في أن شكل الكتاب عظيم كمحتواه. فمن المقارنة الحاذقة في الفصل الأول: «إن الثروات البرجوازية، كثورات القرن الثامن عشر، تندفع من نصر إلى نصر، لتسبق آثارها بعضها بعضا، فيبدو الناس والأشياء وكأنهم يحترقون في لهب لألاء، وتكون النشوة الروح المخيمة. لكن قصيرة هي هذه الثورات، فهي تصل أوجها سريعا، ليرتد المجتمع إلى نوبة رد فعل عصبية قبل أن يتعلم كيف يقطف ثمار فترة الهياج المحموم. إما الثروات البروليتارية، كثورات القرن التاسع عشر، فهي على العكس من ذلك تمارس نقد نفسها باستمرار، وباستمرار تتوقف خلال سيرها، تعود إلى ما كان يبدو منجزا لتبدأ من جديد، تهزأ بشمول قاس من كل نقاط ضعف محاولتها الأولى وحقارتها وإجراءاتها المجزؤة فتبدو وكأنها ما تطرح خصمها إلا ليستمد من الأرض عزما جديدا فينهض ثانية ضدها وقد اتخذ قواما عملاقيا، تتردد باستمرار فزعا من الحجم الهائل غير المحدد لأهدافها ذاتها –إلى أن يخلق في النهاية وضع يجعل كل تراجع مستحيلا، وترفع الظروف ذاتها عقيرتها بالصياح: «هنا الوردة، وهنا علينا أن نرقص!» إلى الكلمات الواثقة في النتيجة النبوية: «إذا انتهت العباءة الإمبراطورية إلى كتفي لوي بونابرت فإن تمثال نابليون البرونزي سيسقط من عمود الفاندوم ويتحطم».

وأية ظروف تلك التي كتب الكتاب الرائع في ظلها! أقل هذه الظروف أهمية هو أن وايد ماير اضطر بعد العدد الأول من مجلته الأسبوعية إلى إيقاف صدورها بسبب الافتقار إلى الأموال: «إن البطالة التي لا مثيل لها والتي سادت هنا منذ بداية الخريف تجعل من الصعب جدا البدء بأي مشروع جديد. ثم إن العمال استغلوا حديثا بطرق مختلفة، فكان هناك أولا كنكل ثم أتى كوست. ولسوء الحظ تفضل أغلبية العمال التبرع بدولار بدعاية مضادة لهم بدلا من التبرع بسنت دفاعا عن مصالحهم. إن للأوضاع في أمريكا تأثيرا مفسدا بصورة غير عادية وفي الوقت ذاته تعطي هذه الأوضاع الفكرة المتغطرسة بأن الأمريكيين يعيشون أفضل من رفاقهم في العالم الحديث». غير أن وايد ماير لم يفقد الأمل في بعث صحيفته إلى الحياة مجددا، ولكن كمجلة شهرية هذه المرة، ولم يكن يحتاج لذلك إلى أكثر من مبلغ حقير لا يتجاوز 200 دولار.

أهم من ذلك كان المرض الذي وقع ماركس ضحيته في كانون الثاني مما جعله لا يستطيع العمل إلا بصعوبة كبيرة. وعلى رأس كل شيء، كان ماركس ينزعج باستمرار بسبب الحاجة إلى «الدراهم القذرة» التي لم تكن تترك له سلاما. وفي 27 شباط كتب يقول: «لقد وصلت بي الحال حدا لم أستطع معه أن أغادر البيت لأن ثيابي جميعها مرتهنة ولم أعد أستطيع أن آكل اللحم لأن نقودي قد نفذت جميعا». ولكنه في النهاية استطاع في 25 آذار أن يرسل الجزء الأخير من المخطوطة إلى وايد ماير مع تهانيه بميلاد ثوري صغير آخر كان وايد ماير قد أخبره عنه: «إن المستحيل أن يختار المرء وقتا أفضل من هذا للقدوم إلى العالم. وعندما يحين الوقت الذي يصبح فيه من الممكن الذهاب من لندن إلى كلكوته في سبعة أيام، سيكون رأسانا قد قطعا أو أتت عليهما الشيخوخة. استراليا وكاليفورنيا والمحيط الهادي! إن مواطني العالم الجديد لن يكون باستطاعتهم أن يدركوا كم كان عالمنا صغيرا». لم يكن ماركس حتى في خضم أسوأ متاعبه الشخصية يفقد الأمل في الآفاق الواسعة للتقدم الإنساني، ولكن الأيام الحزينة كانت ستأتي بعد ذلك مباشرة.

لا بد أن وايد ماير سلب ماركس كل أمل في أن يرى كتابه مطبوعا في رسالة أرسلها له في 30 آذار. وعلى الرغم من أن الرسالة لم تحفظ إلا أن صداها يتردد قويا في رسالة عنيفة كتبها فيلهلم وولف في 16 نيسان، أي في اليوم الذي دفن فيه أحد أطفال ماركس: «إن كل أصدقائنا تقريبا متأثرون للمصيبة العامة، ويكادون ينهارون بفعل الضغوط التي يواجهونها». والرسالة مليئة بنقد مرير لوايد ماير، الذي لم تكن حياته على أية حال مزدانة بالورود والذي كان على الدوام يفعل ما بوسعه.

كان ذلك فصحا رهيبا لماركس وعائلته. فقد توفيت طفلتها الصغرى التي ولدت قبل ذلك بسنة. ووصفت السيدة ماركس الحدث في مذكراتها وصفا مؤثرا: «في فصح 1852 وقعت طفلتنا الصغيرة المسكينة فرانسيسكا مريضة بالنزلة الصدرية، وظلت ثلاثة أيام تصارع الموت وتعاني الكثير. ثم استراح جسمها الصغير بلا حياة في غرفتنا الخلفية الصغيرة بينما ذهبنا جميعا إلى الغرفة الأمامية وعندما حل الليل وضعنا فراشنا على الأرض. استلقى الأطفال الثلاثة الباقون معنا على الأرض وانتحبنا جميعا من أجل الملاك الصغير المسكين الذي كان يستلقي باردا بلا حراك في الغرفة التالية. وقد حدثت وفاة الطفلة المسكينة في فترة كنا نعاني فيها الفقر المضني. ذهبت إلى لاجئ فرنسي يعيش قربنا وكان قد زارنا قبل ذلك بوقت قصير. فاستقبلني بترحاب وتعاطف وأعطاني جنيهين اشترينا بهما النعش كي نسجي فيه الطفلة بسلام. لم يكن للمسكينة مهد عندما ماتت، وعندما توفيت حرمت فرصة الاستلقاء في نعش طويل كفاية. لقد كانت لحظة رهيبة لنا جميعا تلك التي خرجوا فيها بالنعش إلى مثواه الأخير». وفي ذلك اليوم الأسود وصلت رسالة وايد ماير بأنبائها السيئة إلى ماركس. وقد تأثر ماركس لزوجته التي شاهدت كل ما وضع يديه عليه خلال السنتين السابقتين يهوي ويتحطم.

لكن رسالة جديدة كانت في طريقها إلى ماركس خلال تلك الساعات الحزينة. وكانت هذه الرسالة مؤرخة في 9 نيسان وتقول: في النهاية ذللت مساعدة غير متوقعة كل الصعوبات التي كانت تحول دون نشر الكتيب. فبعد أن أرسلت لك رسالتي الأخيرة قابلت واحدا من عمالنا في فرانكفورت وهو خياط أتى إلى هنا في الصيف، وعلى الفور وضع 40 دولارا هي كل ما يملك تحت تصرفي». ولولا ذلك العامل لما كان الثامن عشر من برومير قد نشر، ومع ذلك لا يذكر وايد ماير اسمه! ولكن ماذا يهم؟ إن القوة التي حركته كانت الوعي الطبقي للبروليتاريا التي لا تكف أبدا عن تقديم تضحيات نبيلة من أجل انعتاقها.

كان الثامن عشر من برومير العدد الأول من الصحيفة الشهرية «الثورة» التي بدأ وايد ماير إصدارها. أما العدد الثاني والأخير فقد احتوى على قصيدتين لفريليغارث على شكل رسائل لوايد ماير ينتقد فيها بقسوة وبذكاء لامع وفكاهة جميلة تسولات كنكل في أمريكا. كانت تلك نهاية المشروع، وكان أن فقدت مقالات أرسلها انغلز في الطريق.

طبع وايد ماير ألف نسخة في الثامن عشر من برومير، ذهب ثلثها إلى أوربا، ولكن ليس عن طريق بائعي الكتب. إذ أنها وزعت من جانب الأصدقاء في انجلترا والراينلاند، ذلك أن باعة الكتب حتى الراديكاليين منهم لم يكونوا على استعداد لتوزيع كتاب «جاء في غير وقته كهذا». كما أن ترجمة انجليزية وضعها بيير وحسنها انغلز لم تستطع أن تجد طريقها إلى النشر.

وإذا كان هناك ما يمكن أن يزيد من المصاعب التي كان يلقاها ماركس في العثور على ناشر، فإن ذلك كان أن الانقلاب البونابارتي في فرنسا تبعته محاكمة الشيوعيين في كولون.

5-محاكمة الشيوعيين كولون

منذ أن وقعت الاعتقالات في أيار 1851، تابع ماركس باهتمام التحقيقات الأولية ولكن لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله، ذلك أن التحقيقات كانت تتوقف باستمرار نتيجة الافتقار إلى «أي أساس موضوعي للإدانة»، وذلك ما اضطر إلى الاعتراف به المدعي العام نفسه. فقد كان كل ما يمكن إثباته ضد المعتقلين هو أنهم كانوا أعضاء في منظمة سرية دعاوية، وذلك أمر لا يورد القانون الجنائي له عقابا.

غير أن الملك أصر على أن يعطي مرشحه شتايبر فرصة إبداء ذكائه وإعطاء الجمهور البروسي فرصة التحقق من اكتشاف مؤامرة ومعاقبة متآمرين، وكان شتايبر وطنيا مخلصا إلى درجة لا يستطيع معها إلا أن ينفذ رغبة مليكه، فبدأ مهمته بطريقة مناسبة بالتحريض على عمل من أعمال اللصوصية. فقد اقتحم أحد عملائه مكتب رجل يدعي اوزوالد دايدز كان يحفظ كحاضر منظمة ويليش. وكان شتايبر لذكائه يدرك أن قلة احتراز هذه المنظمة تعطيه فرصا أكبر لنجاح مهمته الرفيعة لا يمكن أن يعطيها له «حزب ماركس».

وبمساعدة الوثائق المسروقة وبالعون الذي قدمته السلطات الفرنسية عشية الانقلاب البونابارتي إلى شتايبر، استطاع هذا أن يختلق ما يدعي «المؤامرة الفرنسية الألمانية» في باريس، وأدى ذلك في شباط 1852 إلى الحكم على عدد من العمال الألمان سيئي الحظ في محاكم باريس بالسجن مددا مختلفة. غير أن ما فشل شتايبر في فعله هوة إثبات أي صلة بين مؤامرة باريس التي اخترعها وبين المتهمين في كولون. إذ لم تستطع «المؤامرة الفرنسية الألمانية» أن تعطيه رغم كل خبثه ظلا من دليل يمكن أن يستخدم في كولون.

في هذه الأثناء ازدادت حدة الخلافات بين حزب ماركس وحزب ويليش-شابر. فقد كان ويليش ما يزال متحالفا مع كنكل، وأدت عودة هذا الأخير إلى اندلاع كل النزاعات بين المنفيين من جديد إلى درجة أصبح التوتر بين المنظمتين معها بالغا في صيف 1852. لم يستطع كنكل أن يحصل على المئتي ألف ثالر التي كان يراد لها أن تصبح عصب القرض الوطني الثوري، ولكنه استطاع الحصول على نحو نصفه. وأصبحت مسألة الغرض الذي ستخصص له النقود مسألة لم تجهد المنفيين فحسب، بل أدت بهم إلى البدء في تكسير رؤوسهم بعضهم البعض. وفي النهاية أودع 1000 جنيه إسترليني في البنك كعربون لأول حكومة مؤقتة، بينما صرف ما تبقى على الرحلة وعلى مصاريف الإدارة. لم يخدم المبلغ المودع الغرض الذي أودع من أجله أبدا، ولكنه بعد ذلك بخمسة عشر عاما استخدم في مساعدة الصحافة الاشتراكية الديمقراطية على التغلب على مصاعبها الأولية.

وبينما كان الصراخ يتضاعف والضجة تتعالى، عمد ماركس وانغلز إلى رسم صور لأبطال المعركة، ولكن المخطوطات لم تحفظ لسوء الحظ. وكان قد أقنعهم بذلك ضابط مجري يدعى بانيا، قدم لهما نفسه مع توصية من كوست يعينه فيها رئيسا لشرطة المهاجرين المجريين، على الرغم من أن الرجل لم يكن في الواقع غير جاسوس عادي يضع نفسه دائما في خدمة من يدفع أكثر. لكن ماركس وانغلز اكتشفا ذلك، لأنه بدلا من أن يعطي المخطوطات لناشر في برلين أعطاها للبوليس البروسي. وفي الحال حدد ماركس موقفه من نذالة هذا الوغد في بيان موقع نشر في صحيفة «كريمينال تزايتونغ» في نيويورك، ولكنه لم يستطع أن يستعيد مخطوطته التي لم تظهر منذ ذلك الحين. ولا شك أن الحكومة البروسية أصيبت بخيبة أمل بالغة، إذا كانت قد تأملت أن تستخدم هذه المواد في محاكمات كولون.

عمدت الحكومة ليأسها تجاه الافتقار إلى أدلة ضد المتهمين إلى تأجيل المحاكمة العلنية مرة إثر أخرى، فزادت بذلك توق الجمهور حتى وصل درجة عالية، فما كان عليها في تشرين الأول 1852 إلا أن ترفع الستار وتدع المسرحية تبدأ. ولكن كل التلفيقات التي ابتدعها عملاء للبوليس لم تكن لتكفي لإثبات أي علاقة بين المتهمين وبين «المؤامرة الفرنسية الألمانية»، تلك المؤامرة التي اختلقها البوليس بينما كان المتهمون في السجن وعزاها إلى منظمة لم يكونوا أعضاء فيها بل كانوا خصوما لها. وفي النهاية أبرز شتايبر في خضم يأسه «محضر الجلسات الأصلي لحزب ماركس» محتويا على سلسلة زمنية من المحاضر تصف اجتماعاته ادعى أن ماركس ورفاقه بحثوا فيها خططهم الشائنة لإشعال الثورة العالمية. كان هذا المحضر تزويرا نذلا قام به عميلان للشرطة هما شارل لوري وفلهلم هيرش بتوجيه من ضابط شرطة يدعى غريف. وكانت الوثيقة الثمينة تحمل كل علامات التزوير وكانت محتوياتها ببساطة غبية، ولكن شتايبر كان يعتمد على خبل المحلفين البرجوازيين الذين انتقوا بعناية، وفي الوقت ذاته راقب البريد مراقبة دقيقة ليمنع وصول أية تفسيرات إلى هؤلاء المحلفين من لندن.

غير أن خطة شتايبر التعيسة فشلت بسبب العزم والتصميم اللذين واجههما ماركس بهما، على الرغم من أنه لم يكن مستعدا لصراع طويل ومضن. ففي 8 أيلول كتب إلى انغلز يقول: «زوجتي مريضة. ويني الصغيرة مريضة أيضا. أما لنشن فيعاني من نوع من الحمى العصبية ولا أستطيع أن استدعي الطبيب لأنني لا أملك نقودا ادفعها له. لقد عشنا ثمانية أو عشرة أيام تقريبا على الخبز والبطاطا وحدهما، أما الآن فقد لا نستطيع أن نحصل حتى على ذلك... لم اكتب شيئا لدانا لأنني لا أملك نقودا أشتري بها صحفا. وأفضل ما يمكن أن يحدث الآن هو أن تلقي بنا صاحبة البيت خارجا لأنني حينذاك سأتخلص من عبء عشرين جنيها من الأجرة المستحقة عليّ، ولكنني أشك في أنها تتمتع بهذه الدرجة من اللياقة. ثم إننا مدينون للخباز ولبائع الحليب وللبقال ولبائع الخضار وللحام. فكيف بحق الأرض أستطيع أن أسوي هذا المأزق الشيطاني! وخلال الأسبوع الماضي اقترضت بضعة شلنات حتى فلسات من العمال. كان ذلك رهيبا ولكنه كان ضروريا جدا وإلا كنا متنا جوعا». كان هذا هو الوضع اليائس الذي اضطر ماركس فيه أن يدخل صراعا مع أعداء أقوياء، ولكنه وزوجته استطاعا في خضم هذا الصراع أن ينسيا متاعبهما الصغيرة.

كان النصر لا يزال في الميزان عندما كتبت السيدة ماركس إلى صديق أمريكي تقول: «كان يتوجب الحصول على كل الأدلة على التزوير منهنا، وكان على زوجي أن يعمل طول النهار وحتى إلى وقت متأخر من الليل، وكان علينا بعد ذلك أن ننسخ كل شيء ست أو سبع مرات ونرسله إلى ألمانيا بطرق متعددة عبر فرانكفورت وباريس الخ، لأن كل الرسائل التي تأتي إلى زوجي وكل الرسائل التي يرسلها إلى ألمانيا تفتح وتصادر. لقد انتهت المسألة كلها إلى صراع بين البوليس من جهة وبين زوجي من جهة أخرى، وقد أصبح زوجي مسؤولا عن كل شيء، حتى عن سير المحكمة. أرجو أن تعذر تشوشي، ولكن كان لي أنا أيضا نصيب من الأمر، فقد نسخت ونسخت حتى صارت أصابعي تؤلمني. وقد وصل للتو قوائم كاملة من العناوين التجارية والرسائل التجارية المزيفة من ويرث وانغلز كستار لإرسال الوثائق بأمان. لقد استحال بيتنا

مكتبا. فهناك اثنان أو ثلاثة يكتبون، وغيرهم ينقلون الرسائل، وما تبقى يجمعون ما يستطيعون من قروش لكي نستطيع جميعا أن نستمر في العيش ونقدم البرهان على أكثر الفضائح التي اقترفها العالم الرسمي خزيا وعارا. وكل ذلك وأولادي الثلاثة يغنون ويصرفون ويتلقون صيحة غضب بين الفينة والأخرى من والدهم. إنها لحياة هذه؟».

أحرز ماركس النصر وافتضح تزوير شتايبر حتى قبل أن تبدأ المحاكمة فاضطر المدعي العام إلى التخلي عن «الكتاب البائس». غير أن هذا النصر قرر مصير المتهمين. فخلال الأسابيع الخمسة التي استغرقتها المحاكمة افتضح الكثير من المخازي التي ارتكبتها أعلى السلطات في الدولة البروسية لدرجة أن تبرئة المتهمين كانت ستعني إدانة الدولة في نظر العالم أجمع. لكن المحلفين كانوا مستعدين لتلطيخ شرفهم وإثقال ضمائرهم في سبيل تجنيب الدولة هذه المذلة، ولذا فقد وجدوا سبعة من المتهمين الأحد عشر مذنبين بتهمة محاولة الخيانة العظمى. فحكم على صانع السجاير روزر والمؤلف بيرغرز والخياط نوثيونغ بالسجن ست سنوات في إحدى القلاع لكل منهم، حكم على العامل ريث والكيماوي اوتو والمحامي السابق بيكر بالسجن خمس سنوات في إحدى القلاع لكل منهم، بينما حكم على الخياط ليسنر بالسجن ثلاث سنوات. أما الكاتب ايرهارت والأطباء الثلاثة دانيال وجاكوبي وكلاين فقد برئوا. غير أن دانيال مات بعد ذلك ببضع سنوات بالسل الذي التقطه خلال سجنه ثمانية عشر شهرا بانتظار المحاكمة. وعند موته أرسل إلى زوجته رسالة مؤثرة يقدم آخر تحياته إلى ماركس الذي حزن لموته حزنا عميقا.

عاش ضحايا هذه المحاكمة المشينة بعد دانيال بعدة سنوات حتى أن بعضهم استطاع أن يشق طريقه ثانية إلى العالم البرجوازي مثل بيرغر الذي انتخب نائبا في الرايشتاغ وبيكر الذي أصبح فيما بعد رئيسا لبلدية كولون وعضوا في مجلس الشيوخ البروسي، والذي أكسبته مواقفه الوطنية في كل المناسبات عطف الحكومة والبلاط. أما المحكومون الآخرون فقد ظلوا مخلصين للراية البروليتارية ومن بينهم نوثيونغ وروزر الذين لعب كلاهما دورا نشيطا في بدايات تجدد حركة الطبقة العاملة، ولسنر الذي عاش بعد ماركس وانغلز وكان واحدا من أكثر رفاقهما في المنفى تكرسا.

حلت العصبة الشيوعية بعد محاكمة كولون وسرعان ما اقتفت منظمة ويليش آثارها. وهاجر ويليش نفسه إلى أمريكا واكتسبت شهرة استحقها كجنرال في الجيش الشمالي، بينما عاد شابر تائبا إلى رفاقه القدامى. غير أن ماركس لم يكن راغبا في السماح للحكومة البروسية في التمتع بثمرات نصرها التعيس التي أحرزته في محاكمات كولون، وعزم على التشهير بها أمام العالم كله. ولذلك فقد أعد ما كشفت عنه المحاكمة للنشر في سويسرا، وإن أمكن ففي أمريكا أيضا. وفي 7 كانون الأول كتب إلى أصدقائه في أمريكا يقول: «اعتقد أنكم ستقدرون خفة الروح التي يتحلى بها الكتيب عندما أقول لكم أن كاتبه سجين عمليا لافتقاره إلى ما يغطي به قدميه وقفاه، وأن عائلته بالإضافة إلى ذلك كانت ولا تزال مهددة بتعاسة فظيعة حقا. وهذا أيضا يعود جزئيا إلى المحاكمات لأنني اضطرت إلى تكريس كل طاقاتي مدة خمسة أسابيع للدفاع عن الحزب ضد مكائد الحكومة، بدلا من أن أصرفها على كسب عيشي. وليس ذلك فحسب بل أن المحاكمة جعلت بائعي الكتب الألمان ينقلبون عليّ تماما، وكنت قد أملت في الوصول إلى اتفاق معهم لنشر كتابي في الاقتصاد السياسي».

غير أن ابن شابيلتز، الذي كان قد تسلم أعمال والده في ذلك الحين، كتب إلى ماركس في 11 كانون الأول من بازل يخبره أنه قد انتهى من طباعة الفصول الأولى. «إنني على قناعة من أن الكتاب سيحدث آثارا عظيمة لأنه رائعة». اقترح شابيلتز أن يطبع ألفي نسخة وأن يضع للنسخة الواحدة ثمنا مرتفعا نسبيا لأنه يقدر أن جزءا من الطبعة على الأقل سيصادر. لسوء الحظ صودرت الطبعة كلها عندما كانت في طريقها إلى عبور الحدود الداخلية من قرية صغيرة في بادن كانت قد ظلت فيها مخزونة حوالي ستة أسابيع.

وفي 10 آذار وصل النبأ السيئ إلى انغلز مصحوبا بالكلمات المرة التالية: «إن هذه المصائب تتهدد المرء بسلبه كل ما يشجعه على الكتابة مرة أخرى. إننا نعمل دائما من أجل ملك بروسيا!» كان من المستحيل الاكتشاف كيف تسربت الأنباء، وثبت أن الشك الذي راود ماركس بالناشر كان بلا أساس. حتى أن شابيليتز عرض أن يوزع النسخ الخمسمائة التي ظلت لديه في سويسرا. كان لهذه المسألة نتائجها المريرة بالنسبة لماركس بعد ذلك بثلاثة أشهر، عندما طلب امبيرغر شريك شابيليتز تعويضا على تكاليف الطباعة بمبلغ أربعمائة وأربعة وعشرين فرنكا.

ولحسن الحظ عوض الفشل في سويسرا بنجاح جزئي في أمريكا، مع أن تأثير الكتيب الذي يكشف ما دار في محاكمات كولون لم يكن ليزعج الحكومة البروسية إذ ينشر في أمريكا قدر ما كان سيزعجها لو نشر في أوربا. طبعت «نيو انجلند تزايتونغ» التي كانت تصدر في بوسطن الكتيب كما طبع انغلز 440 نسخة خاصة على نفقته. وحاول انغلز أن يوزع هذه النسخ في مقاطعة الراين بمساعدة لاسال. فراسلت السيدة ماركس لاسال حول هذه النقطة، وأبدى هذا حماسة كافية لذلك، ولكن المراسلات لا تبين لسوء الحظ ما إذا كانت الخطة قد نفذت بنجاح أم لا.

أحدث الكتيب أصداء واسعة في الصحافة الألمانية-الأمريكية وتقدم ويليش على وجه الخصوص ليعارضه، مما أدى بماركس إلى كتابة رد قصير بعنوان «فارس الضمير الرفيع»، ولكن الأمر لا يستحق أن ترفع عنه اليوم ستارة النسيان التي أسدلت عليه منذ زمن. فكما هي الحال في مثل هذه المنازعات، يقترف الجانبان أخطاء وخطايا، ولكن ماركس كمنتصر امتنع عن تأكيد انتصاره على المغلوب. بعد ذلك بعدة سنوات قال ماركس مشيرا إلى السنوات الأولى لفترة الهجرة قائلا أن أفضل تبرير لها هو مقارنة تاريخها بالتاريخ الموازي للحكومات البرجوازية والمجتمع البرجوازي، ذلك أن أسوأ ما يمكن أن يهتم به المنفيون عدا استثناءات قليلة منهم، هو أنهم كانوا يتمسكون بأوهام لها في الحقيقة ما يبررها في الظروف التي كانوا يعيشونها حينذاك، وأنهم اقترفوا حماقات نجمت بالضرورة عن الظروف غير العادية التي وجدوا أنفسهم فجأة فيها.

عندما أعد ماركس طبعة ثانية من الكتيب للنشر في عام 1875، تردد في البداية في ترك الفقرات التي تتصدى لجناح ويليش-شابر، ولكنه في النهاية أبقي عليها لشعوره بأن أي تحويل في النص قد يبدو تحريفا لوثيقة تاريخية، ولكنه أيضا: «تترك أحداث الثورة العنيفة رواسب مزعجة في عقول من اشتركوا فيها، وعلى الأخص عقول أولئك الذين طوردوا إلى المنفى بعيدا عن وطنهم. ويؤثر هذا التشوش العقلي حتى على أقدر الرجال فترة تطول أو تقصر، ويجعلهم إذا صح التعبير غير شاعرين بالمسؤولية. فيفشلوا في أن يروا معنى الأحداث ويرفضوا أن يروا أن شكل الحركة قد تغير. وتكون النتيجة أن ينغمسوا في مؤامرات ورومانتيكية ثورية تضر بهم وبالقضية التي يحملونها في قلوبهم. وهذا هو تفسير أخطاء شابر وويليش. لقد اثبت ويليش في الحرب الأهلية الأمريكية أنه أكثر من رجل ينسج مشاريع خيالية، بينما أدرك شابر الذي كان رائدا من رواد حركة الطبقة العاملة أخطاءه المؤقتة واعترف بها بعد محاكمات كولون. وبعد ذلك بعدة سنوات وفي اليوم الذي سبق موته أشار شابر بسخرية لاذعة إلى حماقة أيام الهجرة الأولى. ومن الناحية الأخرى، تفسر الظروف التي كتب فيها الكتيب وأصدر المرارة التي يهاجم بها من ساعدوا العدو المشترك دون وعي منهم لذلك. ذلك أن فقدان المرء لعقله لحظة الأزمة جريمة ضد الحزب تتطلب تكفيرا علنيا. كانت تلك كلمات حكمة في وقت كان الناس فيه لا يزالون يعتقدون أن الاحتفاظ بلهجة جيدة أفضل من إيضاح المسائل المبدئية.

وعندما كانت المعركة تخاض ويحرز النصر، كان ماركس آخر من يحمل ضغينة. ففي عام 1850 أجاب على ملاحظات قاسية أبداها فريليغارث حول «العناصر المشكوك فيها والمنحطة» التي وجدت طريقها إلى العصبة، فاعترف بأكثر مما كان يتوجب عليه أن يفعل إذ قال: «إن العواصف تثير دائما قدرا من الغبار، والفترة الثورية ليست مضمخة بعبير الزهور. ومن الواضح أن المرء يتلوث أحيانا بكل أنواع الوحل. ومن المستحيل أن يكون المرء متشددا في الانتقاء في لحظة كهذه» ولكنه كان محقا عندما أضاف: «غير أنه إذا أخذ المرء بالاعتبار الجهود الهائلة التي كان يوجهها العالم الرسمي ضدنا، والتدقيق الذي كان يخضعنا له القانون الجنائي والافتراءات التي كانت توجهها لنا ديمقراطية الغباء (التي لم تغفر لنا أبدا أننا برهنا عن ذكاء أكبر من ذكائها وقوة شخصية أصلب من قوة شخصيتها) وتاريخ الأحزاب الأخرى، فإن المرء لا بد أن يصل إلى نتيجة هي أن حزبنا يتميز قبل كل شيء بنظافته».

عندما انتهت عصبة الشيوعيين انقطعت آخر الخيوط التي كانت تصل ماركس بالحياة العامة في ألمانيا. ومنذ ذلك الحين أصبح المنفى «وطن الناس الجيدين» وطنا له أيضا.

الفصل الثامن

ماركس وانغلز

1-العبقري والمجتمع

وجد ماركس في انجلترا وطنا ثانيا له، ولكننا يجب أن لا نحمل هذا الكلام أكثر مما يحمل. لم يتدخل أحد بأمور ماركس في انجلترا بسبب تحريضه الثوري على الرغم من أن هذا التحريض كان بالطبع موجها في الحساب الأخير ضد الدولة الانجليزية أيضا. فقد بدأت حكومة «أصحاب الحوانيت الجشعين الغيورين» قدرا من احترام الذات والكبرياء أكبر من ذلك الذي أبدته حكومات القارة الأوربية التي كان ضميرها المتعب يدفعها إلى اصطياد أعدائها بكل وسائل القمع البوليسي، حتى ولو لم يكونوا قد فعلوا شيئا غير الدعاية وإثارة النقاش.

لكن ماركس بمعنى آخر أعمق لم يكن ليجد له وطنا أبدا بعد أن نفذت عين بصيرته الحادة إلى مخازي المجتمع البرجوازي. إننا نستطيع أن نكتب فصلا كاملا عن مصير العبقري في المجتمع البرجوازي. فقد أدلي بآراء مختلفة حول هذا الموضوع، من الثقة الساذجة التي يتنبأ بها المتحذلقون بأن النصر النهائي سيكون ولا بد من نصيب كل عبقري، إلى كلمات فاوست الحزينة: «إن أولئك القلائل الذين رأوا وفهموا، ثم فتحوا قلوبهم واسعة، وأظهروا مشاعرهم أمام الرعاع، ماتوا جميعا بلا استثناء، إما على الصليب أو في المحرقة».

إن الطريق التاريخية التي طورها ماركس تسمح لنا بصدد هذه المسألة أيضا أن نرى علاقات الأشياء بشكل أعمق. إن المتحذلق، لكونه كذلك، يتنبأ بالنصر النهائي لكل رجل ذي عبقرية، ولكن الواقع أنه إذا ما نجا عبقري من الصليب أو المحرقة، فما ذلك في التحليل الأخير إلا أنه كان لديه من التواضع ما مكنه من أن يظل متحذلقا. ولم يكن المجتمع البرجوازي ليعترف بعبقرية غوته أو هيكل لو أنهما لم يرضخا إلى المجتمع ويتزيا بزيه.

قد يكون للمجتمع البرجوازي، الذي لا يعدو في هذا المجال كونه أكثر المجتمعات الطبقية وضوحا وتحديدان ما تشاء من المزايا، ولكنه لم يكن أبدا مضيافا للعباقرة. وفي الواقع لا يمكن أن يكون مجتمع كهذا مضيافا لهم، ذلك أن جوهر العبقرية يتضمن على الدوام إطلاق كل الحوافز الخلاقة في الطبيعة الإنسانية في وجه كل العقبات التقليدية، وهز الحواجز التي لا يستطيع المجتمع الطبقي بدونها أن يستمر في البقاء. توجد على مدخل مقبرة نائية في جزيرة سلد لافتة حجرية تآكلت تحت وطأة موج البحر، تقول: «هنا صليب الجلجثة، وطن من لا وطن له». إن هذه اللافتة تلخص دون وعي منها مصير العبقري في المجتمع الطبقي تلخيصا ناجزا. فالعبقري الذي يجد نفسه في المجتمع الطبقي بلا وطن، لا يعثر على مكان يرتاح فيه غير صليب الجلجثة.

هذا إلا وافق العبقري على التسامح تجاه المجتمع الطبقي. فعندما وضعت العبقرية نفسها في خدمة المجتمع البرجوازي للإطاحة بالمجتمع الإقطاعي، بدا أنها قد أحرزت قوة عظيمة، ولكن ما أن حاولت التصرف بمفردها حتى ذهبت هذه السلطة، وسمح للعبقرية أن تنهي أيامها على صخور سان هيلانه. أو من جهة أخرى، ارتضت العبقرية أن ترتدي ثياب الحذلقة وعند ذلك سمح لها بأن ترتفع إلى مرتبة عالية، أن تصبح وزير دولة لدوق فيمار الأكبر أو أستاذا ملكيا بروسيا في برلين. لكن المصائب تحل بالعبقرية التي لا تفسد، والتي ترتفع بنفسها بكبرياء محرزة استقلالها عن المجتمع البرجوازي، وتتنبأ بالنهاية القادمة لهذا المجتمع من المعلومات التي توفرها آليته الداخلية، والتي في النهاية تشحذ الأسلحة لتوجه إلى المجتمع البرجوازي الضربة القاضية. فالمجتمع البرجوازي لا يملك أن يقدم لعبقرية كهذه غير عذابات وآلام تفوق في قسوتها عقوبات المجتمع القديم أو محرقة مجتمع القرون الوسطى، رغم أنها قد تبدو من الخارج أقل وحشية.

لم يعان أحد بين عباقرة القرن التاسع عشر أكثر مما عانى أعظمهم عبقرية، كارل ماركس. فقد اضطر إلى مقارعة الفقر حتى في العقد الأول من نشاطاته العامة، وعندما هاجر إلى لندن كان عليه أن يتحمل كل أعباء النفي غير أن المعاناة التي جعلت مصيره بروميثيوسيا جاءت في أوج رجولته، عندما كان عليه في خضم جهوده المضنية لدفع قضية الإنسانية إلى الأمام أن يصارع في القوت ذاته متاعب الحياة التافهة التعيسة يوما بعد يوم، وأن يناضل في سبيل الحصول على وسائل العيش المجرد له ولعائلته ضمن نطاق المجتمع البرجوازي، وبالإضافة إلى ذلك لم تكن الحياة التي عاشها ماركس تشبه في شيء الحياة التي يعتبرها المتحذلق العادي في جهله المعتاد حياة عبقرية. فقد كانت قدراته الهائلة في عظمة جلده، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أيام وليالي العمل القاسي تحدث أثرها على بنية جسمه التي كانت في الأساس وكأنها قدت من حديد. ولقد كان جادا كل الجد عندما قال أن عدم القدرة على العمل حكم بالإعدام على أي كائن إنساني. وفي مرة عندما وقع صريع المريض أسابيع عدة كتب إلى انغلز يقول: «على الرغم من أنني لم أكن استطيع العمل، فقد قرأت كتابا في علم وظائف الأعضاء لكاربنتر وكتابا في تشريح المخ والجهاز العصبي لشلايدن». ولم ينس ماركس أبدا في خضم عطشه البالغ إلى المعرفة العلمية الكلمات التي قالها مرة عندما كان شابا: على الكاتب بالتأكيد أن يستحصل على نقود كي يستطيع العيش والكتابة ولكنه يجب أن لا يعيش ويكتب كي يكسب نقودا، كما كان على الدوام يدرك «الضرورة الملكة لكسب العيش».

غير أن كل جهوده في هذا المضمار كانت تفشل بلا استثناء في وجه الشك أو الكراهية، أو في أحسن الأحوال الخوف من عالم معاد. فحتى أولئك الناشرون الألمان الذين كانوا يتفاخرون باستقلالهم، كانت فرائضهم ترتعد عند سماع اسم الديماغوجي السيئ الصيت. فقد كانت كل الأحزاب في ألمانيا تفتري عليه بالتساوي، وحيث كان قوامه العملاقي يبدو واضحا عبر السحب المختلفة حوله، كان الصمت الخبيث الحقود

والمتعمد يفعل فعله المخزي. لم تطرد أمة في التاريخ أعظم مفكريها خارج حياتها الوطنية بهذا القدر وطيلة هذه المدة كما فعلت ألمانيا بماركس.

كانت المرة الوحيدة التي نجح فيها في الحصول على عيش نصف آمن، عندما عمل لحساب «نيويورك تريبيون» مدة عقد من الزمن بدأ عام 1851. كانت «نيويورك تريبيون» أقوى الجرائد وأكثرها شعبية في الولايات المتحدة الأمريكية وكان لها من القراء 200 ألف، وقد استطاعت بالتحريض الذي كانت تقوم به داعية لنوع من الفورييه أن ترفع نفسها على الأقل فوق مستوى المشاريع الرأسمالية التي تقصر همها على ابتزاز المال. لم تكن الشروط التي كان ماركس يعمل بموجبها في هذه الصحيفة غير مواتية. فقد كان عليه أن يكتب مقالتين في الأسبوع ليتلقى جنيهين عن كل منهما. وكان هذا يعني أنه كان يستطيع الحصول على 200 جنيه إسترليني في السنة وكان ذلك يمكنه من أن يبقى رأسه فوق الماء. إذ لم تكن نشاطات فريليغارث التجارية تربح أكثر من ذلك على الأقل في البداية، مع أن فريليغارث كان يتفاخر دائما بأنه لم يكن يفتقد اللحم يوما.

بالطبع ليست المسألة ما إذا كان المبلغ الذي كانت تدفعه الصحيفة الأمريكية إلى ماركس يتفق مع القيمة الأدبية والعلمية لمقالاته، ذلك أن الجرائد الرأسمالية تحدد تعاملها على أساس أسعار السوق، وعملها هذا مبرر في المجتمع البرجوازي. ولم يكن ماركس يطلب أبدا أي معاملة أفضل من هذه، ولكنه كان مؤهلا حتى في مجتمع برجوازي للمطالبة باحترام الاتفاقيات وربما بأن يقيم عمله بحد ذاته أيضا. غير أن ناشري نيويورك تريبيون لم يفعلوا لا هذا ولا ذلك. فقد كان دانا فورييا نظريا ولكنه كان في الممارسة رجل أعمال أمريكي حقيقي. وقد أعلن انغلز في فورة من فورات الغضب أن اشتراكية دانا ليست في الواقع غير أحط أنواع الخداع البرجوازي الصغير، وعلى الرغم من أن دانا كان مدركا تمام الإدراك لقيمة ماركس ككاتب، وعلى الرغم من أنه لم يفشل في إعلان تلك القيمة لقرائه، إلا أنه أبدى تجاه ماركس كل أشكال القسوة التي يشعر المستغل الرأسمالي أن من حقه إبداءها تجاه العمل المبذول المستغل المعتمد عليه في عيشه. لكن أسوأ عمل اقترفه دانا كان بلا شك أنه كثيرا ما سرق المقالات التي كان يرسلها ماركس ونشرها في شكل محرف كمقالات بقلم التحرير، فكان لا بد لهذا العمل من أن يسبب للمؤلف الحقيقي ضيقا بالغا.

أكثر من ذلك، لم يكتف دانا بإنقاص ما يتلقاه ماركس بمقدار النصف حالما ظهرت أول علامات هبوط المبيعات، ولكنه أيضا لم يكن يدفع له أجرا إلا لقاء المقالات التي كانت تطبع فعلا باسم ماركس. وفي الواقع لم يكن يتردد في تمزيق مقالات كاملة بكل ما فيها لمجرد أن خطها العام لا يتفق مع أغراضه. وفي بعض الأحيان كانت المقالات التي يرسلها ماركس تجد طريقها إلى سلة المهملات طوال ثلاثة أسابيع وحتى ستة أسابيع. وفي الوقت ذاته لم تبد الصحف الألمانية التي كان باستطاعة ماركس أن يتقدم منها بمقالاته مثل «داي بروس» في فيينا قدرا أكبر من الشرف. لقد كان ماركس محقا عندما قال بمرارة أن العمل الصحفي ليس أفضل من الاستجداء.

وفي 1853 نجد ماركس يتوق إلى بضعة أشهر من الهدوء يستكمل بها دراساته العلمية: «من الواضح أنني لن أحصل عليها. إن هذا المخاض الدائم من أجل إرسال مواد إلى الصحيفة يصيبني بالملل. ففيه تستطيع أن تكون مستقلا كما تشاء، ولكنك في نهاية المطاف ملتزم بالجريدة وقرائها خاصة عندما تتلقى أجرك نقدا كما أفعل، أما العمل العلمي المحض فمختلف تماما». نجد أن لهجة ماركس تصبح أكثر مرارة بعد أن عمل بضع سنوات تحت رحمة طغيان دانا: «إنه لأمر مثير للتقزز تماما أن يتعين على المرء الشعور بالامتنان عندما تتعطف صحيفة كهذه وتأخذ المرء تحت جناحها. إن العمل السياسي لصحيفة كهذه ليس في النهاية غير طحن عظام وصنع حساء من طحينها، ومع ذلك فإن عليّ أن أفعل ذلك بالتمام والكمال». لقد شارك ماركس البروليتاريا الحديثة مصيرها لا في شحة وسائل العيش فحسب، ولكن أيضا في افتقارها التام إلى الطمأنينة.

كان العالم على الدوام يملك فكرة عامة عن ماركس، ولكننا نجد في رسائله إلى انغلز تفاصيل رهيبة ومؤثرة: مرة اضطر أن يبقى في البيت لأنه لم يكن يملك معطفا ولا حذاء، وفي مرة أخرى لم يكن يملك من النقود ما يكفيه لشراء صحف أو ورق للكتابة، وفي مرة ثالثة نجده يتنقل بين معارفه ليقترض نقودا يدفع بها أجرة إرسال إحدى المخطوطات إلى الناشر بالبريد. ثم كان هناك المشادات المستمرة مع البقال وأصحاب الحوانيت لأنه لم يكن يستطيع أن يسدد في الميعاد ثمن حتى ضرورات الحياة، هذا عدا عن المتاعب المستمرة مع صاحب المنزل الذي كان يتهدده على الدوام بوضع يده على موجودات البيت، كل ذلك بالإضافة إلى الزيارات الدائمة للمسترهن الذي كان رباه يبتلع حتى النقود القليلة التي كان يمكن لها بصعوبة أن تبقي شبح الجوع خارج البيت.

كثيرا ما كان هذا الشبح يدخل البيت ويقبع فيه. وكانت زوجة ماركس التي اعتادت على الحياة الهانئة في طفولتها كثيرا ما تنهار تحت وطأة ضربات الحظ التاعس حقا، فكانت عندئذ تتمنى أن تموت وأطفالها. وإننا لنجد إشارات إلى المنازعات العائلية في بعض رسائل ماركس، وفي إحدى المرات نجده يقول أن أولئك الذين يخدمون الأهداف العامة للإنسانية لا يمكن أن يرتكبوا حماقة أكبر من الزواج لأنهم بذلك يسلمون أنفسهم للمشاغل الحقيرة التي تكتنف الحياة الخاصة. ولكن رغم أن شكاوي زوجته تؤدي به أحيانا إلى نفاذ الصبر إلا أنه كان على الدوام يجد لها المعاذير ويجد لشكاواها ما يبررها، قائلا أن عليها أن تقاسي أكثر منه بكثير من الاذلالات والمشاغل والهموم التي يتعين على من هم في وضعها أن يعانوا منها، ولا شك في أن حالتها كانت أسوأ من حالته بكثير لأنها لم تكن تستطيع أن تجد لها ملجأ وملاذا في رحاب العلم الذي كان يخلصه المرة تلو الأخرى. وكان قلب الأبوين معا ينخلع حزنا إذ يريا ملذات الطفولة البريئة تنحسر عن أطفالهما بقسوة.

كان مصير عبقرية ماركس حزينا حقا ولكنه ارتفع إلى أعال مأساوية لأنه اختار طواعية أن يتحمل عبء هذه الآلام والشدائد عقودا طويلة، ورفض بإصرار كل الإغراءات التي كانت تدفع به نحو الاستقرار في وظيفة برجوازية، رغم أنه كان يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يمس شرفه وكرامته. وهو يفسر موقفه بنفسه دون أي تعال وبكلمات بسيطة: «على أن أتابع السير نحو هدفي مهما كانت الصعاب، ولن أسمح للمجتمع البرجوازي أن يحولني إلى آلة لصنع النقود». لم تكن قيود الآلهة هي التي تقيد بروميثيوس ولكن إرادته الصلبة هي التي جعلت

مسيرته تتجه بلا تردد نحو أعظم هدف للإنسانية. لقد كان سلوكه كالفولاذ الصلب المرن. فهو في الوقت ذاته في الرسالة ذاتها يبدو مسحوقا تحت وطأة التعاسات الصغيرة لنجده وقد تحول فجأة إلى بحث أعقد المسائل بهدوء العالم الذي لا يتأثر البتة لهموم الحياة المادية.

غير أن ماركس كان يتألم ويتألم بعمق للضربات التي يكيلها له المجتمع البرجوازي. ولا شك أن من الغباء أن يتساءل المرء: ماذا تهم هموم كهذه عبقريا يتطلع في أية حال إلى حكم الأجيال القادمة؟ لا شك في أن الطموح الأدبي المغرور الذي يجعل صاحبه يتمنى أن يرى اسمه في الصحف كل يوم غبي جدا، لكن القوى الخلاقة يجب رغم ذلك أن تجد لنفسها متنفسا تتطور فيه، فهي تكتسب قوة جديدة من الصدى الذي تثيره أعمالها. لم يكن ماركس ثرثارا متكلفا وفاضلا كأولئك الذين نصادفهم في الروايات والمسرحيات السيئة، ولكنه كان مثل ليسنغ رجلا يجب أن يتمتع بالحياة والعالم، ولم يكن ماركس يجهل المزاج الذي كتب به ليسنغ وهو على فراش الموت إلى أحد أصدقائه يقول: «إنني واثق من أنك لا تعتبرني رجلا متعطشا للمديح، لكن البرود الذي اعتاد العالم أن يشير به إلى أناس معينين، مصرا على أن كل ما يفعلون ليس صحيحا، يسبب الشلل إن لم يكن قاتلا». فهو المزاج ذاته الذي كتب به ماركس عشية عيد ميلاده الخمسين يقول: «نصف قرن على ظهري ولا أزال عالة!». وفي إحدى المرات تمنى أن يغرق مئة قدم في البحر بدلا من أن يستمر في العيش كالنباتات، وفي مرة ثانية انفجر يائسا فقال أنه لا يتمنى لأعدى أعدائه أن يصادف ما يصادفه، إذ ظل ثمانية أسابيع وقلبه يتمزق غيظا لأن ذكاءه وقدراته تتفتتان تحت وطأة التفاهات.

مع ذلك كله لم يصبح ماركس أبدا «كلبا حزينا ملعونا» كما وصف نفسه بهزء ذات مرة، وبهذا المعنى كان انغلز على حق عندما قال أن صديقه لم ييأس يوما. كثيرا ما وصف ماركس بأنه ذو شخصية صلبة، لكن الضربات التي تلقاها على مذبح سوء الحظ جعلته أصلب وأصلب. فقد أصبحت السماء الزرقاء التي كانت تظل شبابه الباكر ملبدة شيئا فشيئا بغيوم داكنة كانت أفكاره تتخللها كما يلمع البرق. ونمى تقييمه لأعدائه، وفي أحيان كثيرة لأصدقائه، لذعة حادة جرحت حتى أولئك الذين لم يكونوا حساسين كثيرا. إن أولئك الذين يشتمونه ويصفونه بأنه ديماغوجي بارد كالثلج لا يقلون ولا يزيدون خطأ عن أولئك الذين لا يرون في المقاتل العظيم والإنسان الرائع أكثر من دمية في استعراض.

2-تحالف لا مثيل له

لا يعود انتصار حياة ماركس إلى قدراته البالغة فقط. فقد كان لا بد أن ينهار في نضاله لشكل أو بآخر، لولا الصديق الذي وجده في انغلز، ذلك الصديق الذي بدأنا نفهم إخلاصه وتضحيته بعد أن نشرت مراسلات الصديقين.

لم يكن لصداقتهما مثيل في التاريخ، الذي سجل حالات كثيرة من الصداقة الشهيرة، تلك الصداقات التي جمعت بين أناس ارتبطتهم أعمالهم الحياتية ارتباطا وثيقا، والتاريخ الألماني هو الآخر يضم حالات كهذه. ولكن كان يظل في هذه الحالات بعض آثار الأثرة أو العناد، أو حتى معارضة خفية للتخلي تماما عن الشخصية الفردية التي تمثل «أسمى هدية أعطتها الأرض لأبنائها»، على حد تعبير أحد الشعراء. فقد كان لوثر في نهاية الأمر يعتبر ميلانكثون أكاديميا ضعيف القلب، بينما كان ميلانكثون يعتبر لوثر فلاحا خاما، ولا شك أنه تعين على المرء أن يكون راغبا في الوقوع ضحية البلادة إن لم يلاحظ في مراسلات غوته وشيللر الاختلاف المستتر بين وزير الدولة والمستشار الصغير. أما صداقة ماركس وانغلز فلم تكن تعرف شيئا من آثار الحقارة الإنسانية هذه. فكلما كان فكرهما وتطورهما يصبح واحدا، كلما ظل كل منهما هوية منفصلة وإنسانا مستقلا.

كان مظهرهما من الخارج مختلفا جدا. فقد كان انغلز الألماني الأشقر الطويل القامة، وكان سلوكه، أخبرنا أحد المراقبين، انجليزيا، وكذلك كان يعتني بملابسه ويحافظ على استقامة قامته نتيجة النظام في الخدمة العسكرية وفي عمله المكتبي. ولقد أعلن مرة أنه يستطيع أن ينظم بستة كتبة فقط إدارة أبسط وأكثر فعالية من إدارة تنتظم ستين مستشارا، لا يستطيعون حتى أن يكتبوا بشكل مقروء، وينظمون الدفاتر بشكل لا يستطيع معه أحد من بعدهم أن يعرف لها رأسا من ذيل. لقد كان عضوا محترما في بورصة مانشستر، ولامعا في التجارة وفي مسرات البرجوازية الانجليزية من صيد الثعالب إلى حفلات عيد الميلاد. ولكن كان للقائد المفكر والمقاتل كنزه في بيت صغير بعيد في الجانب الآخر من المدينة، ولم يكن ذلك الكنز غير فتاة ايرلندية كان يستعيد في أحضانها قواه الروحية عندما كان يتعب من العيش الذي اضطر أن يحياه في وسط البرجوازية.

أما ماركس فقد كان قوي البنية ذا عينين سوداويين مشعتين وشعر كثيف أسود يتدلى على ظاهر عنقه ويشير إلى أصله السامي. ولم يكن يهتم بمظهره كأي رب عائلة ليس لها من نشاطات المدينة التجارية نصيب، ولكنه كان يستنفذ قواه في العمل الفكري الذي كاد لا يترك له وقتا لابتلاعه وجباته والذي كان يستمر إلى وقت متأخر من الليل، فيحدث أثرا سلبيا على صحته. لقد كان مفكرا لا يكل ولا يمل، يشكل التفكير بالنسبة له أسمى الملذات، كما كان خليفة حقا لكانط وفيخته وعلى الأخص لهيغل الذي كان يردد بسرور كلماته: «حتى تفكير الأوغاد الإجرامي أسمى وأرفع من كل تأملات السماء»، هذا عدا عن أن فكر ماركس كان يناضل دائما للتحقق في الممارسة. لقد كان ماركس غير عملي في المسائل الصغيرة، ولكنه كان أكثر من عملي في المسائل الكبيرة. فلم يكن يستطيع إدارة أمور بيت صغير، ولكنه كان لا يجاري في قدرته العبقرية على حشد جيش وقيادته إلى الأمام ليغير به وجه الأرض.

يقال أن الأسلوب ينبئ عن صاحبه، وفي هذا المجال أيضا كان ماركس وانغلز مختلفين فقد كان كل منهما متمكنا من اللغة بطريقته الخاصة، كما كان كل منهما لغويا لامعا متمكنا من كثير من اللغات وحتى اللهجات. وقد استطاع انغلز أن ينجز في هذا الحقل أكثر من ماركس، ولكنه عندما كان يستعمل لغته الأصلية، حتى في رسائله عدا عن كتبه، كان يمسك بالقياد بصلابة فلا يسمح بالتعثر لا يسارا ولا يمينا ولا بالوقوع في فجوات غريبة، بينما كان يتجنب في الوقت نفسه الوقوع في تزمت مصلحي اللغة. فقد كان يكتب ببساطة وبلمسات خفيفة، فكان نثره واضحا في كل حين أن القارئ يستطيع أن يرى عبر سيل كلماته الجاري الأمور حتى القاع.

أما ماركس فقد كان يكتب بقدر أقل من الاحتراز بصعوبة اكبر. إذ يشعر المرء في رسائله الأولى، مثل تلك التي أرسلها لهاينه، أنه يصارع من أجل الوصول إلى الكمال، وفي رسائله الأخيرة، خاصة تلك التي كتبها بعد ذهابه إلى انجلترا، نجد أنه يستعمل خليطا رهيبا من التعابير الألمانية والفرنسية والانجليزية. كذلك تحتوي كتاباته على عدد من الكلمات الأجنبية أكثر مما هو ضروري، حتى أن كتابته بالألمانية تتخللها تعابير ذات جرس انجليزي أو فرنسي. ولكنه مع ذلك كان متمكنا من اللغة الألمانية إلى درجة أن ما كتبه بها لا يمكن أن يترجم دون أن يفقد الكثير. ولقد قال انغلز بعد أن قرأ مرة ترجمة فرنسية لأحد كتب ماركس، كان ماركس نفسه قد نقحها بعناية بالغة، أن قوة وحيوية وسلاسة النص الأصلي قد ذهب هباء منثورا. كتب غوته مرة إلى السيدة فون شتاين: «إنني في التشابيه أخوض سباقا مع أقوال سانشوبانزا المأثورة»، وبالمثل كان ماركس في تعبيرية لغته يستطيع أن يخوض سباقا مع أعظم أسياد اللغة مثل لسينغ أو غوته أو هيغل. فقد تمكن من المبدأ الذي وضعه لسينغ مع أن الشكل والمحتوى يجب أن يتفقا اتفاق حبيبين في زيجة سعيدة، ولهذا السبب فقد تعرض للنقد من جانب كهنة الجامعات ابتداء من الأستاذ القديم فيلهلم روشر على أصغر محاضر جامعي على اعتبار أنه لا ينجح في جعل نفسه مفهوما إلا بصعوبة و«بنسيج من التشابيه». لقد كان ماركس على الدوام يعالج المسائل التي يكتب فيها بطريقة تترك للقارئ مجالا للتفكير، وكانت لغته تشبه لعب الأمواج في أعماق المحيط الأرجوانية.

أدرك انغلز دوما تفوق ماركس العبقري، ولم يطمح أبدا إلى لعب أي دور غير دور الشريك الثاني. غير أنه لم يكن إطلاقا مجرد مفسِّر لماركس ومساعد له، بل كان دائما معاونا مستقلا، وقدرة فكرية مختلفة عن قدرة ماركس ولكنها تشكل قدرة مكملة لها. وفي بداية صداقة الرجلين، كان انغلز يعطي أكثر مما يتلقى في أحد حقول نشاطهما الهامة جدا، وبعد ذلك بعشرين سنة، كتب ماركس له يقول: «أتعلم أنني أولا وقبل كل شيء أتوصل إلى الأشياء ببطء، وإنني ثانيا أتبع خطاك على الدوام». لقد كان انغلز يحمل أسلحة أخف، ويستطيع الحركة بسرعة أكبر. وكانت بصيرته حادة لدرجة تتيح له رؤية النقطة الحاسمة في أي مسألة أو وضع فورا، ولكنه لم يكن ينفذ إلى عمق يكفي لرؤية كل جوانب المسألة فورا. ولا شك أن هذه المقدرة ميزة عظيمة جدا لرجل عمل، ومن هنا لم يكن ماركس يتخذ أي قرار سياسي دون أن يستشير انغلز، الذي كان يستطيع على الدوام أن يصيب كبد المسألة.

ولذا، وطبقا للعلاقة التي قائمة بين الرجلين، لم تكن النصيحة التي كان ماركس يسعى إليها ويلقاها عند انغلز مثمرة في المسائل النظرية قدر ما كانت تثمر في المسائل السياسية، ذلك أن ماركس كان يتفوق على صديقه في المسائل الأولى. ولكن كانت هناك نصيحة واحدة لم يكن ماركس يعير لها أذنا صاغية، تلك هي النصيحة التي كان انغلز يخص بها ماركس على إنهاء بحثه العلمي بسرعة: «لا تثقل ضميرك كثيرا بعملك، فهو سيكون جيدا جدا بالنسبة للجمهور على أية حال. المهم في الأمر أن تنهيه وتنشره. أما النقاط الضعيفة التي تستطيع أن تراها فلن يكتشفها الحمير مهما حدث». كانت هذه النصيحة نموذجا لسلوك انغلز، تماما مثلما كان رفضها نموذجا لسلوك ماركس.

من هذا كله، نستطيع أن نرى أن انغلز كان أقدر على العمل الدعاوي اليومي من ماركس، الذي وصف صديقه مرة بأنه «موسوعة حية، مستعد للعمل في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، مليء بصفاء الذهن، سريع في الكتابة، ونشيط نشاط شيطان». يبدو أن الصديقين عزما على مشروع جديد مشترك بعد أن توقفت «نيو راينيخه رفيو» عن الصدور في خريف 1850. فعلى الأقل كتب ماركس لانغلز في كانون الأول 1853: «لو أننا بدأنا مشروع المراسلات الانجليزية التجارية في لندن في الوقت المناسب، لما كنت أنت في مانشستر تثقلك هموم التجارة، ولما كنت أنا هنا في لندن تثقلني الديون». ولربما كان انغلز قد فضل أن يتولى عملا في شركة والده بدلا من الاعتماد على «مشروع المراسلات التجارية» بسبب الحالة المزرية التي وجد ماركس نفسه فيها في ذلك الحين، وليس بسبب أي نية في تكريس نفسه بشكل دائم «للتجارة الملعونة». ففي ربيع 1854، فكر انغلز مرة أخرى في ترك التجارة والعودة إلى لندن للعمل في الكتابة، ولكن هذه كانت المرة الأخيرة التي فكر فيها بذلك، ولا بد أنه في ذلك الوقت قرر الرزوح تحت النير الملعون بصورة دائمة كي يساعد صديقه وفي الوقت ذاته يحفظ للحزب أعظم قدرة فكرية لديه. ولم يكن انغلز ليقوم بهذه التضحية، ولم يكن ماركس ليقبلها إلا في ظل ظروف كهذه. ولا شك في أن العرض وقبوله يصدران عن درجة عالية من إنكار الذات الرفيع.

استطاع انغلز أن يصبح في ما بعد شريكا في الشركة التي كان يعمل فيها، ولكن وضعه المالي لم يكن حتى ذاك وكموظف بسيط في الشركة زاهرا، ولكنه مع ذلك ساعد ماركس بأفضل ما يستطيع منذ الأيام الأولى لإقامته في مانشستر، ولم يتعب أبدا من مساعدته. فقد كانت أوراق الخمسة جنيهات وأوراق العشرة، وحتى أوراق المائة فيما بعد، تجد طريقها باستمرار من مانشستر إلى لندن. ولم ينفد صبر انغلز إطلاقا. حتى عندما كان صبره يتعرض لضغط هائل من ماركس وزوجته اللذين يبدو أن آراءهما في كيفية إدارة المنزل العائلي لم تكن متواضعة. وحتى عندما نسي ماركس مرة أنه مدين بكمبيالة وأصيب بالدهشة والانزعاج عندما حان وقتها، لم يبد انغلز أي يأس تجاه الطبيعة غير العملية لصديقه. أو عندما رتب في مرة أخرى تمويل العائلة على أساس جديد، فأخفت عنه السيدة ماركس ديون العائلة أملا في أن تستطيع دفعها بنفسها مما يتوفر من النقود التي رتب انغلز أمر دفعها، فكانت النتيجة أن بدأت المصاعب وأصناف الحرمان بالتتابع من جديد. فما كان من انغلز إلا أن ترك لصديقه أمر الاستمتاع بالرضى المرائي نوعا ما الذي استمده من الشكوى من «حماقة النساء»، وقنع لنفسه بتوجيه نصيحة خفيفة الوقع: «فلتتأكدي من أن ذلك لن يحدث ثانية».

لم يكدح انغلز من أجل صديقه في المكتب والبورصة خلال النهار فحسب، بل كان كذلك يضحي بالجزء الأكبر من وقت فراغه، إذ يعمل في المساء، وفي أحيان كثيرة حتى وقت متأخر من الليل. فكان في البداية يفعل ذلك كي يترجم رسائل ماركس إلى «نيويورك تريبيون» لأن ماركس لم يكن حينذاك متمكنا من اللغة الانجليزية كفاية، وعندما بطل هذا السبب، استمر انغلز مع ذلك في تعاونه الصامت.

لكن كل هذه التضحيات تتضاءل إذا قورنت بتضحيته الكبرى: تخليه الطوعي عن كل أمل في الوصول إلى قدر من الانجاز العلمي كان بإمكانه أن يحصله بالنظر إلى قدرته العظيمة على العمل ومواهبه الغنية. وفي هذه الحالة أيضا، تعطينا المراسلات بين الرجلين فكرة حقيقية

عن الوضع، حتى ولو أخذنا بالاعتبار فقط الدراسات العسكرية واللغوية التي كان انغلز يتابعها، جزئيا «لميله» إليها، وجزئيا بسبب الضرورات العملية لنضال البروليتاريا من اجل الانعتاق. وعلى الرغم من أنه كان يكره «الوعظ لذاتي» -كتب مرة باحتقار أنه هراء دائما- وعلى الرغم من أنه كان طريقته في العمل العلمي كانت شاملة، إلا أنه لم يكن أبدا من علماء الصالونات، مثله في ذلك مثل ماركس، وكان يعتبر أن أية معلومات لها قيمة مضاعفة إذا كان يمكن وضعها فورا في خدمة النضال من أجل تحطيم قيود البروليتاريا.

ولهذا السبب بدأ بدراسة اللغات السلافية، معلنا أنه عندما يحين الوقت للعمل السياسي ثانية «فعلى الأقل واحد منا» يجب أن يكون عالما بشيء عن لغة وتاريخ وأدب تلك الأمم التي سندخل في صراع معها فورا. وبالطريقة ذاتها دفعته الاشتباكات في الشرق الأقصى إلى دراسة اللغات الشرقية. فأفزعته اللغة العربية بجذورها الأربعة آلاف ولم يتعلمها، ولكنه وجد الفارسية «مجرد ألهية لطفل» وعبر عن أمله في أن يتعلمها ويتمكن منها في ثلاثة أسابيع. ثم حول انتباهه إلى اللغات الجرمانية: «إنني الآن غاطس حتى قمة راسي في اولفلاس[11]. وكان يتوجب عليّ حقا أن أنهي هذا القوطي الملعون منذ وقت طويل ولكني متقطع في دراساتي. لقد دهشت إذ اكتشفت أنني أعرف أكثر مما ظننت بكثير. يجب عليّ أن أنتهي منه بمساعدة قاموس جيد خلال حوالي أسبوعين، ثم انتقل إلى اللغتين النوردية القديمة والسكسونية القديمة اللتين ألفتهما بصورة عابرة منذ حين. إنني أعمل حتى هذه اللحظة دون قاموس، مستخدما النص وغريم فحسب، ولا شك أن هذا الرجل العتيق رائع حقا. وعندما أصبحت مسألة سليزويغ-هولشتاين حادة في الستينات وجه انغلز اهتمامه إلى «القليل من فقه اللغة وعلم الآثار الفرنسي-الانكليزي-القوطي-السكندنافي» وعندما اندلعت المسألة الايرلندية ثانية التفت إلى «القليل من الايرلندية السلتية» وهكذا. وفيما بعد أكسبته سيطرته الرائعة على العديد من اللغات مكانة جيدة في المجالس العامة للأممية. فقال أحدهم مرة: «إن انغلز يتأتى بعشرين لغة» ذلك أن انغلز كان يميل إلى التأتأة ميلا خفيفا عندما يهتاج.

واكتسبت انغلز لقب «الجنرال» بسبب دراسته الأكثر حماسة في العلم العسكري. وفي هذه الحالة أيضا شجعت الضرورات العملية للسياسة الثورية «ميلا قديما» لديه. فقد كان يعي «الأهمية العظمى التي ستكون للحزب العسكري في الحركة القادمة. كما أن أولئك الضباط الذين انحازوا إلى الشعب خلال الثورة لم يبرهنوا عن أنفسهم بشكل مرض. فقد قال انغلز في إحدى المناسبات «أن هذا الجمع من العسكريين يملك روحا عسكرية مثيرة للتقزز بشكل فظيع فهم يكرهون بعضهم بعضا ويحسدون بعضهم لأدنى امتياز، ولكنهم يقفون كرجل واحد ضد (المدنيين)». وكان هدفه أن يتمكن من العلم العسكري بقدر يسمح له أن يقول كلمة أو كلمتين في المسائل العسكرية النظرية دون أن يجعل من نفسه أضحوكة.

ولم يكد انغلز يستقر في مانشستر حتى بدأ يبتلع المسائل العسكرية بادئا «بأكثر المسائل عادية كتلك التي تطلب في الامتحانات من مرشحي الضباط وصف الضباط». فدرس التنظيم العسكري بكل تفاصيله التقنية: التكتيك الأولي، نظام التحصينات من فوبان إلى أحدث نظام للقلاع المكتفية بذاتها، بناء الجسور وحفر الخنادق، استخدام الأسلحة، مختلف أنواع حاملات المدافع، نظام التموين، نظام العناية الطبية، وغير ذلك كثير من التفاصيل، وفي النهاية ركز اهتمامه على التاريخ العسكري العام فدرس بحماسة الانجليزي نابيير والفرنسي جوميني والألماني كلاد زوفتر.

لم يضع انغلز يوما وقت قرائه محاولا أن يبين لهم لا عقلانية الحرب أخلاقيا، بل سعى بدلا من ذلك إلى الكشف عن الأسباب التاريخية للحرب، وكثيرا ما جعلت هذه الجهود غضب الديماغوجيين الديمقراطيين يحل على رأسه. صب بايرون تحقيره اللاذع مرة على قادة الجيشين اللذين تحاربا في ووترلو بوصفهما حاملي لواء أوربا الإقطاعية، كما وجه ضربة قاضية إلى وريث الثورة الفرنسية، ولا شك في أنها مناسبة سعيدة تلك التي دفعت انغلز إلى رسم صورة تاريخية لولنغتون وبلوخر في واحدة من رسائله إلى ماركس. وعلى الرغم من أن إطار هذه الصورة محدود إلا أنها واضحة ودقيقة إلى درجة كبيرة، حتى أننا لا نكاد نحتاج إلى تغيير سطر واحد منها اليوم رغم التقدم العظيم الذي أحرزه التقدم العسكري.

كذلك عمل انغلز بسرور وحماسة في حقل ثالث، وهو حقل العلوم الطبيعة. ولكن هنا أيضا لم يستطع أن يضع على استقصاءاته اللمسات الأخيرة خلال العقود الطويلة التي عمل فيها ليمهد الطريق أمام الجهود الفكرية لرجل يفوقه عظمة.

كان هذا مصيرا مأساويا لكن انغلز لم يحزن لذلك إطلاقا، ذلك أن العاطفة كانت بعيدة عنه بعدها عن صديقه ماركس. فقد كان يعتبر دائما أن من حسن حظه أنه استطاع أن يقف مع ماركس كتفا إلى كتف طيلة أربعين عاما، حتى ولو كان ذلك على حساب بقائه في ظل القامة التي تفوقه عظمة. وعندما لعب انغلز طيلة عقد وأكثر بعد موت صديقه الدور القيادي في الحركة العالمية للطبقة العاملة، وعندما كانت سلطته لا تنازع، لم يبد له ذلك أبدا على أنه أمر مرض جاء متأخرا. بل على العكس من ذلك كان يقول دائما أنه يمنح هالة أكثر مما يستحق.

لقد أعطى الرجلين نفسيهما تماما للقضية المشتركة ،وقام كل منهما بتضحية مختلفة ولكنها تساوي الأخرى عظمة، لمصلحة هذه القضية دون أن يبدو عليهما أثر لهمهمة مستاءة أو تفاخر مزهو. ولهذه الأسباب كانت صداقتهما تحالفا لا مثيل له، تحالفا لا يستطيع التاريخ أن يقدم له صنوا ولا نظيرا.

[11] مطران قوطي ترجم التوراة والقوطيون هم شعب جرماني قديم.

الفصل التاسع

حرب القرم والأزمة

1-السياسة الأوروبية

في نهاية عام 1853 وعندما أنهى ماركس مع «أوهام المهاجرين الديمقراطيين وهوايتهم الثورية» بسجاله ضد ويليش، ابتدأت فترة جديدة في السياسة الأوروبية باندلاع حرب القرم، وقد كانت هذه الفترة موضع اهتمامه الرئيسي في السنوات القليلة اللاحقة.

أعطى ماركس وجهات نظره في الموضوع في مقالاته في «نيويورك تريبيون» بصورة رئيسية. وعلى الرغم من أن محرري الصحيفة فعلوا كل ما بوسعهم ليجبروه على النزول إلى مستوى المراسل الصحفي العادي، فقد كان بإمكانه أن يقول بكل صدق أنهم لم ينجحوا «إلا في حالات استثنائية». فقد ظل مخلصا لمبادئه، حتى أن العمل الذي اضطر إلى القيام به لكسب عيشه اكتسب قيمة خالدة لكونه مبنيا على دراسات مستفيضة.

لا يزال الكثير من هذه الكنوز التي خطها قلمه مدفونا، ولا شك أن الكشف عنها يتطلب قدرا معينا من المشقة. ذلك أن «نيويورك تريبيون» كانت تعامل مقالاته كمادة خام إلى هذا الحد أو ذاك، فتلقى ببعضها إلى سلة المهملات وتنشر البعض الآخر باسمها، وكثيرا ما كانت تنشر موادا لا قيمة لها باسمه كما اشتكى مرارا، ولذا فلن يكون من الممكن أبدا اكتشاف كل أعماله للصحيفة، كما أن من الضروري القيام بتفحص دقيق جدا لتعيين حدود هذه الأعمال بأي درجة من الدقة.

لقد قدم نشر مراسلات ماركس-انغلز حديثا مساعدة لا غنى عنها في هذا المجال. فهي تبين مثلا أن سلسلة من المقالات حول الثورة والثورة المضادة في ألمانيا ارتبطت سنوات عدة باسم ماركس، كانت في الواقع بقلم انغلز، وأن انغلز لم يكتب فحسب المقالات التي تتعلق بالمسائل العسكرية، وهذا ما عرف منذ أمد بعيد، ولكنه أيضا ساعد بصورة واسعة في مقالات ماركس للصحيفة في حقول أخرى. وبالاضافة إلى سلسلة المقالات عن الثورة والثورة المضادة في ألمانيا، جمعت أيضا المقالات التي تبحث المسألة الشرقية والتي ظهرت في نيويورك تريبيون، مع أن الشك يحوم حول صحة ما تحتويه هذه المجموعة الأخيرة وما لا تحتويه، أكثر مما يحوم حول المجموعة الأولى التي لم يصبها أي ضير غير نسبتها إلى مؤلف غير مؤلفها.

ولكن هذا التفحص النقدي لأعمال ماركس في نيويورك تريبيون لن يمثل سوى جزء ضئيل من الجهد الضروري، ذلك أنه على الرغم من أن ماركس نجح بالتأكيد في رفع مستوى العمل الصحفي كثيرا، إلا أنه لم يكن يستطيع رفعه تماما فوق الظروف التي كان يتوجب عليه أن يكتب فيها. إن أعظم العقول في العالم لا يستطيع أن يقوم باكتشافات جديدة أو أن يخلق أفكارا جديدة مرتين في الأسبوع وفي الوقت المناسب للحاق بالسفينة المبحرة إلى نيويورك كل يوم ثلاثاء وجمعة. فمن المستحيل في ظل هذه الظروف، كما أوضح انغلز تجنب «الارتجال المحض من وحي اللحظة والاعتماد على الذاكرة فقط» تجنبا تاما. أكثر من ذلك، يعتمد العمل اليومي على الأنباء اليومية والمزاج اليومي، ولذا فإنه لا يستطيع أن يحرر نفسه منها دون أن يصبح جافا ومملا. فمثلا، ما قيمة مراسلات ماركس وانغلز، التي تبلغ أربعة مجلدات كبيرة، دون التناقضات الكثيرة التي نما من خلالها الخط العام العظيم لأفكارهما ونضالاتهما؟

ولكن حتى بدون الكمية الضخمة من المواد التي لا تزال تنتظر بعثها ملقاة على صفحات «نيويورك تيربيون»، فإن الخطوط الرئيسية للسياسة الأوروبية التي بدأ ماركس وانغلز بتبنيها مع حرب القرم واضحة تماما. ويمكن القول أن تبنيها لهذه السياسة مثل إلى حد ما نقطة تحول في نشاطاتهما. فقد ركز مؤلفا البيان الشيوعي ومحررا «نيو راينيخه تزايتونغ» اهتمامهما على ألمانيا. ودعمت «نيو راينيخه تزايتونغ» بحماسة نضال البولنديين من أجل الاستقلال القومي، ثم دعمت نضال الايطاليين والمجريين، وفي النهاية طالبت بشن الحرب ضد روسيا بوصفها قلعة الثورة المضادة في أوربا. ولكن هذا الطلب تطور فيما بعد شيئا فشيئا إلى المطالبة بحرب عالمية ضد انجلترا، لأنه لا يمكن للثورة الاجتماعية أن تنتقل من عالم الخيال إلى عالم الحقيقية إلا بعد تحطيم سلطة انجلترا العالمية.

كانت «العبودية الانكليزية الروسية» هي الأساس الذي وضع ماركس عليه سياسته الأوروبية وقت حرب القرم. فقد رحب بالحرب لأنها كانت تعد بتحطيم التفوق الأوروبي الذي أحرزته القيصرية نتيجة لانتصار الثورة المضادة في أوربا، ولكنه لم يكن بالتأكيد موافقا على الطريقة التي شنت بها الدول الأوروبية الغربية الحرب. وقد اتخذ انغلز الموقف ذاته، وأعلن أن حرب القرم كلها كانت كوميديا ضخمة من الأخطاء لدرجة أصبح مستحيلا معها أن يحدد المرء من لحظة إلى أخرى من هو الخادع ومن هو المخدوع. وقد اعتبر ماركس وانغلز هذه الحرب حربا مزيفة بقدر ما يتعلق الأمر بفرنسا وعلى الأخص بقدر ما يتعلق بانجلترا، وذلك على الرغم من الأرواح المليون وملايين الجنيهات التي كلفتها.

لقد كان بالتأكيد على حق في ذلك، إذ لم يكن لا بونابرت المزيف ولا اللورد بالمرستون وزير الخارجية الانكليزي يرغبان إطلاقا في جرح الدب الروسي في أي منطقة حساسة من جسمه فما أن شعرا أن النمسا تستطيع أن توقف زحف الجيش الروسي على الحدود الغربية، حتى قاما بنقل مسرح القتال إلى القرم، وبدآ يناطحان قلعة سيباستوبول، فلم ينجحا في الاستيلاء على نصفها بعد حملة طويلة مضنية. وفي النهاية كانا عليهما أن يقنعا بهذا النصر الهزيل، ويرجوا «روسيا المهزومة» بالسماح لهما بإخلاء قواتهما دون تدخلها.

كان من السهل أن يرى المرء لماذا كان بونابرت المزيف غير راغب في دخول صراع حياة أو موت مع القيصر، ولكن دوافع بالمرستون كانت أقل وضوحا. فقد كانت حكومات القارة الأوروبية تخشاه بوصفه ثوريا بينما كان الليبراليون معجبين به كمثال نموذجي للوزير الليبرالي-الدستوري. فجاء ماركس ليحل الأحجية بدراسة عميقة للوثائق الرسمية والتقارير المتعلقة بالنصف الأول من القرن ولعدد من التقارير الدبلوماسية كان قد وضع في المتحف البريطاني. وتتوجت جهوده بالبرهنة على أن هناك تعاونا سريا بين مجلسي الوزراء في لندن وسانت بطرسبرغ منذ أيام بطرس الكبير، وأن بالمرستون على وجه الخصوص كان أداة طيعة بيد السياسة القيصرية. ولم تمض تأكيدات ماركس دون أن تواجه التحدي، وهي لا تزال تواجه حتى يومنا هذا على الأخص فيما يتعلق بدور بالمرستون. ليس هناك من شك في أن ماركس قيم سياسة بالمرستون، التي لا يقيدها وازع من ضمير بإجراءاتها المجزوءة وتناقضاتها، تقييما أوضح من ذلك الذي قيمها به الليبراليون الأوروبيون أو الحكومات الأوروبية، ولكن لا ينجم عن ذلك بالضرورة أن روسيا كانت قد اشترت بالمرستون. وليس من الهم كثيرا أن يبحث المرء مسألة ما إذا كان ماركس قد ذهب بعيدا في تأكيداته أم لا، فالمهم أن ماركس اكتشف منذ ذلك الحين أن من أهم المهام التي لا غنى عنها للطبقة العاملة مهمة تمحيص غوامض الدبلوماسية الدولية للوقوف في وجه المكائد الدبلوماسية التي تحيكها الحكومات، أو تعريتها وشجبها إذا كان ذلك مستحيلا.

وفوق ل شيء كان ماركس مهتما بشن نضال صارم ودائب ضد القوة البربرية التي تقبع في سانت بطرسبرغ وتمد لنفسها يدا في كل وزارة أوروبية. فهو لم يكن يعتبر القيصرية أقوى قلعة للرجعية الأوروبية يشكل مجرد وجودها السلبي تهديدا وخطرا دائمين فحسب، بل كان يعتبرها كذلك العدو الرئيسي الذي يؤدي تدخله المستمر في شؤون أوربا الداخلية إلى إعاقة وتحريف المسار الطبيعي للتطور، كما كان يعتبر أنها تهدف إلى كسب موقع جغرافي يعطيها السيطرة على أوربا، مما يجعل تحرر البروليتاريا الأوروبية مستحيلا. ولقد أحدث هذا التأكيد الذي وضعه على هذه المسألة أثرا كبيرا على سياسته منذ حرب القرم أكثر مما كان يفعل حتى خلال سنوات الثورة.

وبهذا فإن ماركس يطور فكرة عبر عنها أولا في «نيو راينيخه تزايتونغ»، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت نضالات تلك الأمم التي دافعت عنها الصحيفة بحماسة بالغة تتراجع بالنسبة له ولانغلز إلى الخلف. لم يكن الأمر أن أيا منهما كف أبدا عن المطالبة باستقلال بولندا والمجر وايطاليا كحق لهذه البلدان ولمصلحة ألمانيا وأوربا بشكل عام، لكن انغلز أعطى هذه الأمم المفضلة لديه أمرا بالتقدم إلى الأمام في وقت مبكر يعود إلى عام 1851: «يجب أن يقال بوضوح للايطاليين والبولنديين والمجريين أن عليهم أن يصمتوا عندما تبحث المسائل الحديثة». وبعد ذلك ببضعة أشهر قال للبولنديين أنهم انتهوا كأمة، وأنه لم تعد لهم فائدة إلا كوسيلة لغاية حتى تجتذب روسيا نفسها إلى دوامة الثورة. فالبولنديون لم يفعلوا شيئا عبر التاريخ غير التصرف بغباء شهم مشاكس. حتى أنهم لم يفعلوا ضد روسيا أي شيء ذي قيمة تاريخية، بينما كانت روسيا على الأقل تقدمية تجاه الشرق. وكانت السيطرة الروسية برغم كل حقارتها وقذارتها السلاتية عاملا على التمدن بالنسبة للبلاد الواقعة حول البحر الأسود وبحر قزوين وآسيا الوسطى وبلاد البشكير وبلاد التتر، كما أن روسيا تمثلت قدرا من الحضارة وعلى الأخص العناصر الصناعية أكبر من ذاك الذي تمثلته بولندا ذات الطبيعة الكسولة الفروسية أساسا. لا شك في أن هذه الملاحظات تلونت بالهوى الذي كان يطبع الصراعات في صفوف المنفيين في ذلك الحين، ففي السنوات التي تلت كان حكم انغلز على بولندا ألطف بكثير، بينما أعلن في السنوات الأخيرة من حياته أن بولندا أنقذت الحضارة الأوروبية مرتين على الأقل: بانتفاضة 1792-1793 وبثورة 1830-1831.

أما ماركس فقد أعلن مشيرا إلى بطل الثورة الايطالية الشهير: «لا يعرف ماتزيني غير المدن بارستقراطيتها الليبرالية ومواطنيها المتنورين. أما الحاجات المادية للسكان الايطاليين الريفيين بوصفهم مضطهدين ومخصيين باستمرار ومجبرين على الغباء مثل الايرلنديين-فهي بالطبع أحط من أن تهتم بها بياناته الإيديولوجية الكوزموبوليتية الكاثوليكية-الجديدة. غير أن المرء بحاجة إلى الشجاعة كي يقول للبرجوازية وللارستقراطية أن الخطوة الأولى نحو استقلال إيطاليا هي التحرير الكامل للفلاحين وتحويل نظام شبه الإجارة لديهم إلى ملكية برجوازية حرة». وفي رسالة مفتوحة إلى صديقه ارنست جونز، القائد الميثاقي (الشارتي)، أخبر ماركس كوست، الذي كان يلعب دور الأسد في لندن، أن الثورات الأوروبية حملات صليبية يقوم بها العمل ضد رأس المال، وأنها لا يمكن أن تحط إلى المستوى الاجتماعي والفكري لشعب غامض ونصف بربري كالمجريين، الذين لا يزالون ملتصقين بشبه حضارة القرن السادس عشر، ولكنهم مع ذلك يتخيلون أنهم يستطيعون التمكن من استنارة ألمانيا وفرنسا وتملق إعجاب سذاجة انجلترا.

غير أن ماركس افترق أبعد من ذلك عن تقاليد «نيو راينيخه تزايتونغ»، لا لأنه لم يعد يركز اهتمامه الرئيسي على ألمانيا فحسب، بل لأنه في الواقع وضعها خارج اهتماماته السياسية تماما تقريبا. صحيح أن ألمانيا لعبت في ذلك الحين دورا مؤسفا جدا في السياسة الأوروبية، حتى أنه كان يمكن اعتبارها مجرد مقاطعة بروسية. ولكن على الرغم من أن ذلك يفسر إلى هذا الحد أو ذاك موقف ماركس، إلا أن ماركس وانغلز معه كان عليهما مع ذلك أن يدفعا الثمن غاليا فيما بعد لأنهما فقدا الصلة مع التطورات في ألمانيا سنوات عدة. لسوء الحظ تكثف الاحتقار الذي كان كلاهما يشعر به، كاثنين من أبناء الراينلاند وابنين لمقاطعة مقتطعة، تجاه الدولة البروسية أيام مانتوفل-وستفالن إلى درجة لم تعد تتناسب مع إحاطتهما الشاملة المعتادة بالأوضاع السياسية.

ولا شك في أن الاستثناء الوحيد الذي لفت انتباه ماركس في تلك الأيام إلى بروسيا يقدم برهانا ناصعا على ذلك.

كان ذلك في نهاية 1856 عندما اصطدمت بروسيا بسويسرا حول «مسألة نيوفشاتل». فأدى ذلك الحادث بماركس، كما كتب لانغلز في 2 كانون الأول 1856، إلى إكمال «معرفته الفقيرة جدا بالتاريخ البروسي» ولخص نتائج دراساته بأن أعلن أن التاريخ العالمي لم ينتج يوما شيئا أكثر سوءا. ولا شك أن الفقرات التي تتبع ذلك والمقالة التي ظهرت بعد ذلك بعدة أيام في «ذي بيبولز بيير»، صحيفة الميثاقيين، معالجة المسألة نفسها بتفصيل أكبر، تكشف أنه كان بعيدا جدا عن المستوى الرفيع الذي كان في العادة يعالج به المسائل التاريخية فهو في الحقيقة

يغوص بشكل خطر يقترب من المستوى المخفض للسباب الديمقراطي البرجوازي الصغير، على الرغم من أن رفعه لمستوى الكتابة التاريخية فوق هذا المستوى كان واحدا من أهم خدماته الجليلة.

لا شك في أن الدولة البروسية مثلت طبقا يصعب على أي إنسان أن يبتلعه، ولكن وبرغم ذلك لم يكن بالإمكان جعل هذا الطبق شهيا بواسطة السخرية اللاذعة من «آل الهوهنزلرن بمشيئة الله»، و«الأقنعة الشخصية» للتاريخ البروسي التي ظهرت ثلاث مرات: التقى الورع وضابط الصف والمهرج، بوصفها «تاريخ عائلي غير ممتع» بالمقارنة مع «الملحمة الشريرة» للتاريخ النمسوي، وغير ذلك من الملاحظات الشبيهة التي تفسر في أحسن الأحوال ما حدث، ولكنها تترك مسألة لماذا حدث ما حدث غامضة تماما.

2-ديفيد اوركوهارت وهارني وارنست جونز

بينما كان ماركس يساهم في «نيويورك تريبيون»، ساهم كذلك بالطريقة ذاتها في صحف اوركوهارت والصحف الشارتيه.

كان ديفيد اوركوهارت دبلوماسيا انكليزيا، أدى خدمات جليلة بفضل معرفته المفصلة بالخطط الروسية للسيطرة على العالم ونضاله المستمر الدائب ضدها. لكنه قلص هذه الخدمات بكراهيته المتعصبة لروسيا وحماسته المتعصبة بقدر مساو لكل ما هو تركي. كثيرا ما اتهم ماركس بأنه اوركوهارتي، ولكن هذا لم يكن مبررا على الإطلاق، فالواقع أنه كان كانغلز يشعر بالضيق الشديد لمبالغات اوركوهارت الحمقاء إلى حد يحول دونه وتقدير خدمات الرجل الحقيقية حق قدرها. يرد ذكر اوركوهارت في مراسلات ماركس-انغلز في رسالة كتبها انغلز في آذار 1853، «إنني أقرأ الآن كتاب اوركوهارت. وهو يؤكد أن بالمرستون عميل لروسيا. وتفسير ذلك بسيط جدا فالرجل اسكتلندي سلتي تلقى تدريبا اسكتلنديا-انكليزيا، ميال إلى الرومانسية، مثقف ثقافة من يؤمنون بالتجارة الحرة. ذهب إلى اليونان كمحب للهلنستية، وبعد اشتباكات صغيرة مع الأتراك استمرت ثلاث سنوات ذهب إلى تركيا وهناك أخذته الحماسة للأتراك على الفور. وهو مليء بالحماسة للإسلام، ويعلن أنه لو لم يكن كلفانيا لكان مسلما فقط». لقد وجد انغلز أن كتاب اوركوهارت كان بشكل عام مشوشا جدا.

كانت نقطة اللقاء بين ماركس واركوهارت هي نضالهما المشترك ضد بالمرستون. فقد أعيد طبع إحدى المقالات التي كتبها ماركس ضد بالمرستون لنيويورك تريبيون في إحدى صحف غلاسكو، حيث لفتت انتباه اوركوهارت. وفي شباط 1854 تقابل الرجلان فتلقى اوركوهارت ماركس بتحية قال أنه كان يمكن لتركي أن يكتب المقال لكن اوركوهارت أصيب بخيبة الأمل عندما اخبره ماركس أنه ثوري، فقد كانت إحدى نزوات اوركوهارت هي اعتقاده بأن كل الثوريين الأوروبيين هم أدوات واعية أو غير واعية تستخدمها القيصرية لمضايقة الحكومات الأوروبية. فكتب ماركس إلى انغلز بعد هذا الاجتماع يقول: «الرجل مصاب بمس حب الذات» مضيفا أن لم يتفق معه في شيء غير ما يتعلق بالمرستون وحتى في تلك المسألة لم يكن الرجل ذا فائدة له.

بالطبع يجب أن لا تحمل هذه الملاحظات على محمل الكثير من الجد. فقد اعترف ماركس علنا وعلى استمرار بخدمات اوركوهارت برغم كل تحفظاته النقدية تجاهه، ولم يخف أبدا أنه على الرغم من عدم اقتناعه باوركوهارت إلا أنه أوحى له بالكثير. ولهذا السبب بالذات لم يكن يتردد في المساهمة في صحف اوركوهارت وعلى الأخص صحيفة «ذي فري برس» في لندن، كما أنه سمح لاوركوهارت أن يطبع ويوزع عددا من مقالاته في «نيويورك تريبيون» على شكل كتيب. كانت كتيبات بالمرستون هذه توزع يف طبعات كبيرة جدا، يبلغ عدد كل منها خمسة عشر ألف نسخة إلى ثلاثين ألف نسخة، وقد أحدثت أصداء واسعة، ولكن ماركس لم يكسب أي مكسب مادي من اوركوهارت الاسكتلندي يكبر ذاك الذي كان يكسبه من دانا الأمريكي.

وفي الواقع كان أي ارتباط وثيق بين الرجلين مستحيلا، لأن ماركس كان يدعم الشارتية، في حين كان اوركوهارت يكره هذه الحركة بصورة مضاعفة كمدافع عن التجارة الحرة وكعدو لروسيا إذا كان يظن أنه يستطيع أن يلمح الروبل في جيب كل حركة ثورية. ولم تشف الشارتية أبدا من الهزيمة القاسية التي أصابتها في 10 نيسان 1848، ولكن ماركس وانغلز ظلا يدعمانها طيلة الوقت الذي ظلت فيه بقاياها تصارع من أجل الحياة، وقد فعلا ذلك بصورة رئيسية بمساهماتها بمقالات لم يتلقيا عنها أجرا في الصحف التي كان يصدرها جورج جولين مارني وارنست جونز في الخمسينات. فقد أصدر هارني «ذي رد ريبليكان» و«ذي فريند اوف ذي بيبول» و«ذي ديمقراطيك رفيو» بتتابع سريع، بينما أصدر جونز «ذي نوتس تو ذي بيبول» و«ذي بيبولز بيبر». وقد عاشت «ذي بيبولز بيبر» مدة أطول من أخواتها وظلت تصدر بانتظام حتى العام 1858.

كان هارني وجونز ينتميان إلى الجناح الثوري من الحركة الشارتية ولربما كانا أقل أعضاء هذه المجموعات تعصبا. كما كانا يعتبران الشخصيتين القياديتين في الرابطة الأممية للديمقراطيين الأخويين. كان هارني ابن بحار نما وترعرع في محيط بروليتاري. وحصل على معارفه الثورية بنفسه من الأدب الثوري الفرنسي، وكان مارا مثله الأعلى. وكان يكبر ماركس بسنة واحدة، وبينما كان هذا الأخير يحرر «راينيخه تزايتونغ» كان هذا عضوا في هيئة تحرير «ذي نورثرن ستار»، وهي الصحيفة الرئيسية للشارتية. وقد زاره انغلز في 1848، فوصفه هارني بأنه «شاب نحيل، يتدفق حيوية وشبابا حتى أنه يكاد يبدو صبيا، ولكنه حتى في ذلك الحين كان يتكلم الانكليزية بشكل صحيح غير معتاد» وفي 1847 تعرف هارني بماركس وانضم إلى حلقته بحماسة.

نشر هارني ترجمة انجليزية للبيان الشيوعي في صحيفة «رد ريبلكان» مع هامش يقول أنها أعظم وثيقة ثورية ظهرت على الإطلاق، كما نشر في صحيفة «ديمقراتيك ريفيو» ترجمات انجليزية للمقالات التي ظهرت في «نيو راينيخه تزايتونغ» حول الثورة الفرنسية، معلنا أنها تمثل «النقد الحقيقي» للمسائل الفرنسية. ولكنه في خضم صراعات المهاجرين عاد على حبه القديم واصطدم بعنف مع ارنست جونز، وبشكل

لا يقل عنفا مع ماركس وانغلز، وبعد ذلك بقليل ذهب ليعيش في جزيرة جيرسي فأقام هناك بعض الوقت ثم ذهب إلى الولايات المتحدة، حيث زار انغلز في 1888. وبعد هذه الزيارة بقليل عاد هارني إلى انجلترا، حيث توفي بعد أن بلغ به العمر عتيا، ولربما كان حين وفاته آخر مشاهد لفترة تاريخية عظيمة.

وكان ارنست جونز من أصل نورماندي، ولكنه ولد في ألمانيا، حيث كان والده مستشارا عسكريا لدوق كمبرلاند، الذي في ما بعد الملك ارنست اوغست، ملك هانوفر. وكان هذا الخليع المغالي في الرجعية عراب ارنست جونز، ولكن ذلك بالإضافة إلى روابط والدي جونز الصبي بالبلاط لم يترك عليه أي اثر. فقد أبدى حتى عندما كان حديث السن التزاما صارما بقضية الحرية، وعندما أصبح رجلا نجح في مقاومة كل الإغراءات التي وضعت في طريقه وكل المحاولات التي جرت لتقييد روحه الطليقة بسلاس من ذهب. وعندما عادت عائلته إلى انجلترا، كان قد بلغ قرابة عشرين عاما من العمر، وحينئذ بدأ يدرس المحاماة التي نجح في نيل إجازتها فيما بعد. وقد ضحى جونز بكل آفاق المستقبل اللامعة التي كانت تؤمنها له مواهبه الرفيعة والاتصالات الارستقراطية لعائلته، وذلك كي يكرس نفسه تماما للقضية الشارتية، التي ذاد عنها بحماس ملتهب أدى إلى الحكم عليه عام 1848 بالسجن مدة سنتين. وقد عومل في السجن معاملة قاسية لخيانته لطبقته، ولكنه خرج من السجن في 1850 ثوريا لا يهاب، ومنذ صيف ذلك العام احتفظ بعلاقات وثيقة مع ماركس وانغلز طوال مدة تقرب من عشرين عاما (كان جونز يقف عمرا بين ماركس وانغلز تقريبا).

ولا شك في أن هذه الصداقة لم تخل تماما من الغيوم. فقد تخللتها متاعب كتلك التي حدثت بين ماركس وانغلز من جهة وفريليغارت، الذي كان جونز يشترك معه في الميول الشعرية، من جهة أخرى، وكتلك التي حدثت بينهما وبين لاسال، الذي كان حكم ماركس عليه شبيها بحكمه على جونز وإن يكن أقسى بكثير. وقد أشار ماركس إلى جونز في رسالة كتبها عام 1855 بقوله: «إنه رغم كل الطاقة والإصرار والنشاط التي يجب أن يعترف المرء له بها، يفسد كل شيء ببحثه الذي يفتقر إلى الحذق عن أعذار يستخدمها في التحريض الذي يقوم به، ونفاذ صبره الدائم ورغبته في أن يسبق الأحداث». وفيما بعد حدثت خلافات أكثر أهمية بينهما، خاصة عندما بدأ التحريض الشارتي يبلي أكثر فأكثر وعندما بدأ جونز يغازل الراديكالية البرجوازية.

غير أن صداقتهما ظلت في الأساس متينة ووثيقة. وقد عاش ارنست جونز سنواته الأخيرة في مانشستر، إلى أن توفي فجأة في 1869 بينما كان لا يزال في ربيع العمر. فأرسل انغلز النبأ بسرعة إلى لندن: «واحد آخر من الحرس القديم يمضي!» فأجاب ماركس: «لقد سبب النبأ بالطبع صدمة عميقة لنا جميعا، ذلك أنه كان واحدا من أصدقائنا القلائل». وبعد ببضعة أيام أرسل انغلز يقول أن جنازة ضخمة تبعث جونز إلى المقبرة، حيث يجثو واحد آخر من الحرس القديم هو فيلهلم ولف. وقال انغلز أنه لخسارة حقا، فكلامه البرجوازي لم يكن في نهاية الأمر غير رياء، وكان الانجليزي المثقف الوحيد بين السياسيين الذي وقف في الحقيقة إلى جانب ماركس وانغلز.

3-العائلة والأصدقاء

ظل ماركس خلال هذه السنوات مترفعا عن كل الدوائر السياسية، ولم يخض عمليا غمار أي حياة اجتماعية. فقد عزل نفسه تماما في غرفته، التي لم يكن يخرج منها إلا مع عائلته، التي كبرت في عام 1855 بولادة ابنة خامسة هي اليانور.

كان ماركس، مثل انغلز، يحب الأطفال حبا جما. وعندما كان يترك غرفته ساعة أو اثنتين، كان يفعل ذلك كي يلعب مع أولاده، الذين كانوا يعبدونه رغم أنه لم يحاول أبدا أن يمارس عليهم سلطة أبوية، أو ربما كانوا يعبدونه لهذا السبب بالذات. وكانوا يعاملونه كرفيق في اللعب، ويطلقون عليه لقب «المراكشي» بسبب شعره الأسود وبشرته الداكنة اللون. وكان من عادته أن يقول «يجب أن يربي الأطفال آباءهم»، ولا شك في أن أطفاله كانوا يفعلون، فقد حظروا عليه القيام بأي عمل أيام الآحاد، التي كانوا يستأثرون به فيها تماما. وكانت النزهات التي تقوم بها العائلة في الريف وتتوقف خلالها في الفنادق الجانبية كي تشرب البيرة وتأكل الخبز والجبن، شعاع الشمس الباهر الذي يخترق السحب التي كانت متلبدة فوق العائلة على الدوام.

كانت النزهات المفضلة لدى العائلة هي تلك التي تخرج فيها إلى هامبستيد هيث، وقد أورد لنا ليبكنشت وصفا ساحرا لهذه النزهات. تختلف هامبستيد هيث اليوم قليلا عما كانت عليه ذلك الحين، ولكن المرء يستطيع اليوم أن يرى من قلعة جاك سترو، التي كثيرا ما كان ماركس يؤمها، منظرا رائعا خلف هيث بمناظر تلالها الخلابة ووديانها والناس السعداء الذين يذرعونها أيام الآحاد. وإلى الجنوب تقبع المدينة العملاقة، لندن، بغابة بيوتها المتراصة وعلاماتها المميزة من قبة سان بول إلى أبراج وستمنستر. أما إلى الشمال فالريف مغطى اليوم بالبيوت، وإلى الغرب تقع تلة هاي غيت، التي وجد ماركس فيها مثواه الأخير.

وفجأة أصابت المأساة سعادة العائلة وكأنها قدر صاعق محتوم. ففي يوم الجمعة العظيمة عام 1855، مات ادغار، لبن ماركس الوحيد الذي بلغ من العمر تسعة أعوام. وكان الصبي الذي أبدى منذ صغره موهبة عظيمة الطفل المفضل للعائلة. وقد كتب فريليغارث في رسالة إلى ألمانيا يقول: «إنها لخسارة رهيبة، حتى أنني لا أكاد استطيع وصف الأثر العميق الذي أحدثته علي».

أما الرسائل التي يصف فيها ماركس لانغلز مرض الصبي ووفاته فتفطر القلب حزنا. فقد كتب إليه في 30 آذار يقول: «زوجتي مريضة منذ أسبوع بسبب القلق وحده، وهي في حالة أسوأ بكثير من أية مرة سابقة. إنني أشعر ببؤس شديد، فقلبي مثقل ورأسي يدور في دوامة، ولكن يجب علي بالطبع أن أتظاهر بالشجاعة. أما الصبي فلا يزال حتى في حمى المرض يتمتع بالشخصية المستقلة الطيبة ذاتها». وفي 6 نيسان كتب ثانية يقول: «لقد ذهب العزيز الصغير. فقد نام بين يدي بين الساعة الخامسة والسادسة. لن أنسى ما حييت صداقتك التي خفت من مصيبتنا

في تلك الأيام الرهيبة. ولا بد أنك تدرك مقدار حزني لوفاة ولدي». وفي 12 نيسان كتب يقول: «يبدو البيت فارغا ومهجورا منذ أن مات الصبي. لقد كان حياة البيت وروحه. من المستحيل أن أصف كيف نفتقده في كل حين. لقد عانيت كل أنواع المصائب، ولكنني الآن أعرف كيف تكون المصائب الحقيقية... ولم يبقني على قيد الحياة عبر العذاب والقلق الرهيبين اللذين عانيتهما غير التفكير بك وبصداقتك، والأمل في أننا لا نزال نستطيع أن نفعل شيئا له قيمته في هذا العالم».

مضى وقت طويل قبل أن يلتئم الجرح. فقد أجاب ماركس في 28 تموز على رسالة عزاء من لاسال يقول: «يقول باكو أن الرجال العظماء حقا يملكون اهتمامات كثيرة بالطبيعة والعالم وتحتل تفكيرهم مسائل كثيرة لدرجة أن أية خسارة مهما كبرت لا تعني لهم شيئا. أخشى أنني لست من أولئك الرجال العظام. فقد هزني موت ولدي بعمق، ولا أزال أشعر بالخسارة بحدة كما لو أنها حدثت البارحة، كما أن زوجتي المسكينة انهارت تماما تحت وطأة الضربة». وفي 6 تشرين الأول نجد فريليغارث يكتب إلى ماركس: «إنني آسف أشد الأسف لأن خسارتك الكبيرة لا تزال تسبب لك كل هذا الألم الممض. ولسوء الحظ ليس هناك ما يستطيع الصديق أن يفعله أو يشير به. إنني أفهم واحترم حزنك، ولكن يجب أن تحاول السيطرة عليه لئلا يسيطر عليك. ولن يكون هذا خيانة منك لذكرى ولدك العزيز».

كان موت ادغار، ابن ماركس، تتويجا لسلسلة من الأمراض حلت بالعائلة خلال لسنوات القليلة الماضية.

كان موت ادغار، ابن ماركس، تتويجا لسلسة من الأمراض حلت بالعائلة خلال السنوات القليلة الماضية. ففي الربيع السابق، وقع ماركس نفسه مريضا، وفي الواقع لم يشف ثانية أبدا. وكان يشكو بصورة رئيسية من كبده، الذي كان يظن أنه ورث آلامه عن والده، ولكن ليس هناك من شك في أن المرض تفاقم بسبب الظروف السكنية السيئة والحي غير الصحي الذي كان يعيش فيه ماركس. وفي صيف 1845 اندلع وباء الكوليرا في المنطقة، وقيل أن ذلك كان نتيجة مرور المجاري التي حفرت حديثا على قبور ضحايا الطاعون في 1665. وقد حضه طبيبه على مغادرة سوهو التي كان قد تنفس هواءها دون انقطاع طيلة سنوات. وقد جعل موت أحد أفراد العائلة ذلك أمرا ممكنا. وفي صيف 1855، ذهبت السيدة ماركس مع بناتها الثلاث إلى تريير لتزور والدتها التي كانت تعاني مرضا خطيرا، فوصلت في الوقت المناسب لتغمض عينيها بعد مرض لم يدم أكثر من أحد عشر يوما.

لم تترك السيدة العجوز الكثير وراءها، ولكن بضع مئة ثالر كانت من نصيب السيدة ماركس، ويبدو أنها في حوالي ذلك الوقت ورثت أيضا مبلغا صغيرا من أقاربها السكوتلنديين. وعلى أية حال كانت النقود تكفي العائلة للانتقال في خريف 1856 إلى بيت صغير في هافرساول هيل قرب هامبستيدهيث التي يعشقها ماركس. كان أجرة هذا البيت ستة وثلاثين جنيها في السنة. وقد كتبت السيدة ماركس إلى أحد الأصدقاء «بالمقارنة مع الجحور التي كان علينا أن نسكنها في السابق، يمكن القول أن هذا البيت بيت أمراء حقا. وعلى الرغم من أن كل ما نملك لا تزيد قيمته عن أربعين جنيها إلا قليلا، فقد شعرت بالعظمة في غرفة جلوسنا الجديدة في البداية. وقد استطعت تخليص كل الكتان وكل ما يذكرنا بالعظمة السابقة من بين أيدي، العم، ومرة أخرى استطعت أن أعد مناديل الحرير السكوتلندي العتيقة التي أملكها بسرور. لكن الهناءة لم تدم طويلا، ذلك أن هذه القطع سرعان ما وجدت طريقها واحدة اثر أخرى إلى دكان المسترهن. ولكننا مع ذلك لا نزال مسرورين في بيتنا الدافئ المريح البرجوازي». ولكن لسوء الحظ، لم يدم هذا المتنفس طويلا.

كذلك حصد الموت بعض أصدقاء العائلة. فمات دانيال في خريف 1855، ووريث في كانون الثاني 1856 في هايتي، وكونراد شرام في بداية 1858 في جزيرة جيرسي. وقد فعل ماركس وانغلز كل ما بوسعهما لنشر حتى نبأ صغير عن وفاة كل من هؤلاء في الصحف ولكنهما لم ينجحا. وكثيرا ما كانا يشكوان من أن صفوف الحرس القديم تتضاءل وأن الدم الجديد شحيح. كانت عزلتهما محببة لهما في البداية، وكانت قناعتهما بالنصر النهائي ثابتة لا تهتز تدفعهما إلى النضال المستتر، ذلك النضال الذي شناه بثقة كما لو أنهما كانا يمثلان دولة أوروبية كبرى، ولكنهما رغم ذلك كانا مسيسين إلى درجة لم يكن ممكنا معها أن لا يشعرا على المدى الطويل بافتقارهما إلى حزب. ذلك أن أنصارها لم يكونوا يمثلون حزبا، كما اعترف ماركس نفسه، كما أن أيا منهم لم يرتفع في آراءه إلى ما يقرب من مستوى آرائهما، باستثناء واحد هو الرجل الذي لم يستطع أبدا أن يتغلب على شكهما به.

كان ليبكنشت يزور بيت ماركس في لندن يوميا، على الأقل، حين كان البيت لا يزال في شارع دين. ولكن كان على ليبكنشت في غرفته الصغيرة أن يصارع مصاعب الحياة المادية، وهذا ينطبق على كل رفاق ماركس وانغلز أيام العصبة الشيوعية، على لسنر ولوخنر وايكاريوس «والمذنب التائب» شابر. أما الآخرون فكانوا مبعثرين: كان درونكي رجل أعمال في ليفربول وفيما بعد في جلاسكو، وكان ايماندت استاذا في دندي وشيلي محميا في باريس، بينما كان راينهاردت، سكرتير هاينه في السنوات الأخيرة في حياته، واحدا من الحلقة المقربة.

غير أن النشاط السياسي بدأ بالأفول حتى في صفوف المخلصين. فلم يكن فلهلم وولف، الذي كان يعيش في مانشستر، يستطيع أن يبقي رأسه فوق الماء إلا بإعطاء دروس خصوصية وظل، كما كتبت السيدة ماركس، «هو هو، الشهم القدير ذا الطبيعة الخشنة»، ولكن بمرور الوقت بدأت تظهر عليه نزوات العازب العجوز، وأصبحت «نضالاته الرئيسية» ضد صاحبة البيت الذي كان نزيلا فيه حول مسائل كالشاي والسكر والفحم، وكف عن أن يعني الكثير فكريا لأصدقائه في المنفى. كذلك ظل فريليغارث صديقا وفيا، وبعد أن أصبح مديرا لفرع بنك سويسري في لندن في صيف 1856، أصبح باستطاعته أن يقدم لماركس مساعدة أكبر من ذي قبل، على الأخص استطاع أن يمنع أي تأخير في صرف النقود التي كانت ترسلها نيويورك تريبيون، التي كانت تضيف إلى نقائصها الأخرى التخلف عن الدفع في الوقت المحدد في كثير من الأحيان. كذلك ظل فريليغارث مخلصا لمعتقداته الثورية، ولكنه ابتعد أكثر فأكثر عن نضالات الحزب. وعلى الرغم من أنه أعلن عن قناعته أنه ليس هناك ما يشرف الثوري أكثر من أن يدفن في المنفى، إلا أنه لم يكن سعيدا في منفاه. وأدى حنين زوجته التي كان يحبها كثيرا، ومنظر أبنائه

يشعلون شموع عيد الميلاد مرة إثر أخرى على أرض أجنبية، إلى نضوب شعره. فتألم لذلك أشد الألم، ولكنه تعزي أيما عزاء أصبح وطنه يتذكر بالتدريج شاعره المشهور مرة أخرى.

وكانت هناك أيضا قائمة طويلة من «الأموات الأحياء». فقد كان ماركس يقابل أحيانا عددا من رفاق أيامه الفلسفية الأولى: ادوارد ماين، الذي أثبت أنه لا يزال التافه السام ذاته، وفوشر الذي أصبح سكرتير كبدن والذي ظن أنه قدّر، «كي يصنع التاريخ» في حركة التجارة الحرة، وادغار باور الذي كان يلعب دور المحرض الشيوعي، والذي كان ماركس يصفه على الدوام بأنه «مهرج». كذلك قابل ماركس صديقه القديم برونو باور في مناسبات عدة عندما جاء هذا إلى لندن، ولكن لم يكن هناك أي أساس للقاء بينهما، فقد كان برونو باور ممتلئا حماسة «لقوة روسيا البدائية»، ويعتبر أن البروليتاريا ليست إلا «رعاعا» يجب أن يسيطر عليهم جزئيا بالعنف وجزئيا بالخداع وجزئيا بإلقاء بضعة دراهم لهم عندما لا يمكن تجنب ذلك. وجد ماركس أن باور يبدو عليه الكبر وأن جبهته قد أصبحت أعرض وأنه اكتسب سلوك الأستاذ الجامعي المتحذلق، ولكنه نقل أحاديثه مع «العجوز المرح» إلى انغلز بالتفصيل.

غير أن قائمة «الأموات الأحياء» كانت أكبر من ذلك بكثير، كما كانت تكبر سنة إثر أخرى. فمثلا كان هناك الأصدقاء القدماء في الراينلاند: جورج يونغ وهينريخ بيرغر وهيرمن بيكر وغيرهما. وقد حاول بعض هؤلاء، مثل بيكر وفيما بعد ميكل، أن يبرروا موقفهم «علميا»، معلنين أن البرجوازية يجب أن تنتصر تماما على اليونكر الإقطاعي، حتى قبل أن تفكر البروليتاريا بالنصر. فقال بيكر: «ستشق المصالح المادية للرعاع طريقها ببطء عبر بنية اليونكرية المتفسخة التي تتحول إلى غبار، حتى أن التاريخ سيزيح ببساطة هذه البنية جانبا ويتقدم رابط الجأش إلى البند التالي على جدول الأعمال». لقد كانت تلك نظرية جميلة، ولا شك في أنها لا تزال تقدم خدمة جليلة لكثير من المراوغين الحاذقين اليوم. ولكن عندما أصبح بيكر رئيسا لبلدية كولدن وميكل وزيرا لمالية بروسيا، وجدا أنهما مرتبطين «بالمصالح المادية للرعاع» إلى درجة حاربا معها بكل قواهما ضد كل المحاولات «للتقدم برباطة جأش نحو البند التالي لجدول الأعمال» وفي ربيع 1856 جاء رجل أعمال يدعى غوستاف ليفي من دوسلدورف إلى لندن وقدم لماركس هدية كاملة جاهزة إن صح التعبير، هي انتفاضة يقوم بها عمال المصانع في ايزلون وسولنفن ومكان آخر أو اثنين. شجب ماركس المشروع الأحمق الخطر بشدة وقال لليفي أن عليه أن يخبر العمال الذين يمثلهم، أو الذين يتظاهر بتمثيلهم، أنهم ينبغي أن يظلوا على اتصال به وأن لا يفعلوا شيئا دون أن يحصلوا على موافقته. لكن ماركس لسوء الحظ لم يتخذ الموقف ذاته من مهمة ثانية ادعى ليفي أن عمال دوسلدورف قد أوكلوها له، وهي بالتحديد تحذير ماركس ضد لاسال بوصفه شخصا غير موثوق يعيش بعد نجاح قضية هاتسفيلد تحت ربقة الكونتسة، وأنه ينوي الذهاب إلى برلين معها لتأسيس ناد للمثقفين، وأنه ألقى بالعمال جانبا وكأنهم قفاز قذر كي ينحاز إلى البرجوازية، والكثير من الكلام الذي يندرج تحت هذا النوع. يحق للمرء أن يشك في أن عمال الراينلاند أرسلوا رسالة كهذه لماركس، ذلك أن هؤلاء العمال ذاتهم استقبلوا لاسال بعد بضعة سنوات بخطاب مشرف أعلنوا فيه أن بيته كان في الخمسينات خلال الحكم الإرهابي البيض «قلعة ثابتة شجاعة لمساعدة الحزب» والأمر الأكثر احتمالا هو أن ليفي اختلق هذه الرسالة كما يشبع حقده على لاسال لأن هذا رفض أن يمنحه قرضا قيمته 2000 ثالر، إذ لم يكن مستعدا لتقديم أكثر من خمسمائة.

لو عرف ماركس ذلك لكان قد عامل ليفي بالتأكيد بقدر كبير من التحفظ، ولكن النبأ الذي نقله ليفي كان مصاغا بحد ذاته كي يثير في ماركس شكا قويا بلاسال. وكان ماركس يراسل لاسال وإن لم تكن رسائلهما كثيرة، كما كان يجد فيه دائما صديقا موثوقا، من ناحية شخصية وسياسية معا، ورفيقا حزبيا مخلصا. حتى أن ماركس وقف في وجه الشك الذي ثار حول لاسال أيام العصبة الشيوعية القديمة بين عمال الراينلاند بسبب اشتراكه بقضية هاتسفيلد، وقبل مجيء النبأ الذي أتى به ليفي بسنة تقريبا، رد ماركس على رسالة كتبها له لاسال من باريس بلهجة ودية جدا: «أنا مندهش بالطبع إذ أسمع أنك بهذا القرب من لندن ومع ذلك لا تفكر بالمجيء إلى هنا حتى لبضعة أيام. وأنني آمل أن تعيد بحث المسألة لترى كم هي قصيرة ورخيصة الرحلة من باريس إلى لندن. ولسوء الحظ فإن فرنسا مغلقة في وجهي وإلا لأتيت بالتأكيد وفاجأتك في باريس».

ولذا من الصعب أن يفهم المرء لماذا قبل ماركس كلام ليفي على علاته، ونقله إلى انغلز في الحال في رسالة بتاريخ 5 آذار 1856 مضيفا: «إن هذا يعطيك فحسب تفاصيل المسألة بخطوطها العامة. ولقد أحدث الأمر أثرا قاطعا على فريليغارث وعليّ بقدر ما أحب لاسال وبقدر ما أكره تقولات العمال قال ماركس لليفي أن من المستحيل الوصول إلى نتيجة قاطعة على أساس نبأ من طرف واحد فقط، ولكن الشك مفيد على أية حال. ولذا فإن لاسال يجب أن يراقب، ولكن يجب أن تتجنب أي فضيحة علنية في هذه المرحلة. وافق انغلز على ذلك وأضاف عددا من الملاحظات لا تثير قدرا كبيرا من الدهشة لأنه لم يكن على معرفة وثيقة بلاسال كما كان ماركس. وقال انغلز أن الأمر مما يؤسف له لأن لاسال يتمتع بلا شك بموهبة عظيمة. وأضاف أنه كان يجب أن يراقب على الدوام كما يراقب الشيطان، لأنه كيهودي حقيقي من الحدود السلافية مستعد باستمرار لاغتنام أي فرصة لاستغلال أي كان لأغراضه الخاصة مستخدما الحزب كوسيلة إلى ذلك. توقف ماركس عندئذ عن مراسلة الرجل الذي كتب له بعد ذلك ببضعة سنوات قائلا وعن حق: «أنا الصديق الوحيد الذي تملكه في ألمانيا».

4-أزمة 1857

عندما انعزل ماركس وانغلز عن النزاعات العلنية للمنفيين في خريف 1850 أعلنا: «أن ثورة جديدة ليست ممكنة إلا نتيجة لأزمة جديدة، ولكن من المؤكد أن الثورة ستأتي قدر ما هو مؤكد أن الأزمة ستأتي» ومنذ ذلك الحين لبثا يراقبان الأمور بحرص كي يلمحا أية إشارة لازمة جديدة، وبمرور السنين أصبح صبرهما ينفذ شيئا فشيئا. يخبرنا ليبكنشت في ذكرياته أن ماركس تنبأ خطأ بقدوم الثورة مرة أو مرتين، ليصبح ذلك مثارا لمزاح أصدقائه، وعندما أتت الأزمة في النهاية عام 1857 قال ماركس لفلهلم وولف عبر انغلز أنه سيثبت أن الأزمة كان يجب أن تأتي قبل ذلك بسنتين لو أن الأمور سارت سيرا طبيعيا.

بدأت الأزمة في الولايات المتحدة، وأعلنت عن نفسها شخصيا لماركس عبر «نيويورك تريبيون» التي أنقصت راتبه بمقدار النصف فورا. كانت هذه الضربة ذات وقع شديد عليه ذلك أن صنوف الحرمان القديمة ظهرت مرة أخرى في البيت الجديد، بل أنها ظهرت هذه المرة بشكل أكثر حدة. ولم يعد ماركس في جرافتون تراس يستطيع العيش «عيش الكفاف كما كان يفعل في شارع دين». إذ تبخرت كل آماله، وكان إنفاق عائلته يزداد باستمرار. وفي 20 كانون الثاني 1857 كتب لانغلز : «إنني لا أعلم ماذا يتعين عليّ أن أفعل بعد، فوضعي في الحقيقة أسوأ مما كان عليه قبل خمس سنوات».

حلت هذه الرسالة على انغلز كصاعقة من السماء فسارع إلى مساعدة صديقه ولكنه شكا من أنه لم يعرف الوضع على حقيقته في وقت مبكر. ويبدو أن انغلز كان قد اشترى لنفسه حصانا بنقود منحها له والده كهدية في عيد الميلاد: «إنني أجد أن من المسيء أن أحتفظ بحصان بينما تعاني أنت وعائلتك من متاعب كهذه في لندن. وبعد ذلك ببضعة أشهر اغتبط انغلز عندما اقترح دانا على ماركس أن يساهم في إعداد موسوعة. وكان دانا يريد على وجه الخصوص مساهمة في المواضيع العسكرية، فسّر انغلز سرورا بالغا، لأن ذلك سيخلص ماركس من متاعبه الأبدية. ورأى أنه يجب على ماركس أن يتعهد بكتابة كل المقالات التي يمكن أن يعطوها له، ثم ينظم بالتدريج مكتبا خاصا به.

لم ينجم شيء عن اقتراح إنشاء مكتب، ويعود ذلك بصورة رئيسية إلى أن ماركس وجد أن من المستحيل العثور على عدد كاف من الأشخاص المناسبين للتعاون معه، عدا ذلك لم تكن الأمور كما توقع انغلز، لأن معدل الدفع لم يكد يصل إلى بنس واحد للسطر الواحد، وعلى الرغم من أن الجزء الأكبر من العمل لم يكن أكثر من حشو إلا أن انغلز لم يكن لرفاهة ضميره على استعداده لكتابته بسرعة. ولا شك في أن التقيم الذي أصدره انغلز على المقالات التي كتب هو بعضها وكتب ماركس البعض الآخر كان، كما تبين من مراسلاتهما، حكما جائرا وغير مبرر بالمرة: «مجرد تكسُّب، لا يهم إذا لم تقرأ ثانية». وبالتدريج انتهى هذا العمل أيضا، ويبدو أن تعاون الصديقين في إعداد الموسوعة لم يتخط حرف ج.

منذ البداية وقفت في طريق عملهما بعض المصاعب، ففي صيف 1857 أصيب انغلز بمرض في الغدد، وكان عليه أن يعيش وقتا طويلا على شاطئ البحر، أما حالة ماركس فلم تكن بأفضل، فقد عادت إليه آلام الكبد عنيفة فلم يكن يستطيع القيام بأكثر من الحد الأدنى من العمل الضروري، وكان يفعل ذلك بصعوبة كبيرة. وفي تموز وضعت زوجة ماركس طفلا جهيضا في ظروف تركت انطباع رهيبا على ماركس وجعلت ذكرى الحادثة مؤلمة له جدا. كتب انغلز بفزع ردا على إحدى رسائل ماركس: «لا بد أن الضربة كانت قاسية حتى تكتب بالشكل الذي كتبت به»، ولكن ماركس أجاب أن من الأفضل تأجيل بحث الموضوع إلى أن يلتقيا، لأنه لا يستطيع أن يكتب في أمور كهذه.

غير أن كل المتاعب نسيت عندما امتدت الأزمة إلى انجلترا في الخريف وانتشرت بسرعة إلى القارة كلها. فقد كتب ماركس إلى انغلز في 13 تشرين الثاني يقول: «على الرغم من أنني أعاني متاعب مادية جدية، إلا أنني لم أشعر بسعادة كهذه في وجه هذا الهيجان منذ 1849». وفي رده في اليوم التالي، قال انغلز أنه لا يخشى إلا أن تتطور الأمور بسرعة أكبر مما يجب: «اعتقد أن من الأفضل أن يحدث (التحسن) في الأزمة المزمنة قبل أن تتبع ضربة ثانية حاسمة. فالضغط المزمن ضروري لبعض الوقت حتى يستشار الشعب. وحينئذ تستطيع البروليتاريا أن تقاتل بشكل أفضل وبانسجام أكبر، تماما كما أن هجوم سلاح الفرسان يكون أكثر حماسة واندفاعا إذ خبّت الجياد مسافة خمسمائة خطوة قبل أن تلتحم مع العدو. لا أود أن يحدث أي شيء في وقت قريب جدا، قبل أن تصبح أوربا كلها معنية بالأمر تماما، ذلك أن النضال إذ ذاك سيكون أكثر حدة وأكثر صعوبة وأكثر تذبذبا. إن أيار أو حزيران مبكران جدا. إذ لا بد أن الجماهير أصبحت متبلدة بعد هذه الفترة الطويلة من الازدهار... بالمناسبة أنني أشعر تماما كما تشعر. فما أن أنهار الغش والخداع في نيويورك حتى أصبحت لا أشعر بأي سلام في جيرسي، وأنا الآن أشعر أنني في هيئة رائعة في خضم هذا الانهيار العام. فمهما كان من أمر، التصق بي إلى حد ما الوحل البرجوازي الذي لامسته في السنوات القليلة الماضية، ولكن هذا الوحل سيغسل الآن وسأشعر بأنني إنسان جديد. وستفيد الأزمة صحتي قدر ما تفيدها عطلتنا على شاطئ البحر، وأنا أشعر بذلك منذ الآن. لقد ظننا في 1848 أن وقتنا قد حان، وهو بمعنى من المعاني قد فعل، ولكنه قد حان حقا هذه المرة وصار كل شيء في الميزان».

كان انغلز مخطئا بالطبع ،إذ لم يكن كل شيء في الميزان على الإطلاق. لقد كان للأزمة فعلا آثارها الثورية، ولكنها لم تكن تلك الآثار التي توقعها الصديقان، على الرغم من أنهما لم يصرفا وقتهما في هدهدة أحلام طوباوية متفائلة بل في دراسة جادة لمسا الأزمة يوما بيوم. ففي 18 كانون الأول كتب ماركس: «إنني أقوم بقدر هائل من العمل، حتى الرابعة صباحا في بعض الأحيان. وعملي مزدوج: (1) وضع المبادئ الأساسية للاقتصاد السياسي (فمن الضروري ضرورة مطلقة أن يعرف الجمهور أعماق المسألة، وعليّ أن أزيح الكابوس الجاثم على صدري) و(2) الأزمة الراهنة. وفي هذا المجال الأخير لا أفعل بالإضافة إلى مقالاتي إلى التربيون أكثر من تسجيل الأحداث، ولكن ذلك يستنفذ قدرا كبيرا من وقتي. وأنني أعتقد أنني سأقوم وإياك في وقت ما في الربيع المقبل بكتابة كتيب عن المسألة كنوع من التذكير للجمهور الألماني بأننا ما زلنا حيين وأننا لا نزال عما نحن عليه» لم يتمخض هذا الاقتراح عن شيء، لأن الأزمة لم تحرك الجماهير في الواقع، ولكن هذا على الأقل أعطى ماركس وقت فراغ كاف لإنهاء الجانب النظري من خطته.

كانت السيدة ماركس قد كتبت قبل ذلك بعشرة أيام إلى كونراد شرام المحتضر في جيرسي تقول: «على الرغم من أننا نشعر بوطأة الأزمة الأمريكية على جيوبنا، لأن كارل يكتب مقالة واحدة للتربيون يف الأسبوع بدلا من اثنتين، بعد أن استغنت التربيون عن كل مراسليها الأوروبيين عدا بايارد وتايلور وكارل، إلا أنك تستطيع أن تتخيل كم أصبح المراكشي مغتبطا. فقد عادت إليه قدرته على العمل جنبا إلى جنب مع سرور لم يعرفه من سنوات عدة منذ أن حل بنا الحزن الأكبر عندما فقدنا طفلنا الصغير الذي ستظل خسارته تثقل قلبي إلى آخر الزمن. إن كارل يعمل خلال النهار لكسب عيشنا، وفي الليل يعمل كي ينهي كتابه في الاقتصاد السياسي. ولا شك في أنه سيجد له ناشرا تعيسا بعد أن أصبح كتاب كهذا ضرورة ملحة». ولقد عثر على الناشر بفضل جهود لاسال. ففي نيسان 1857، كتب لاسال بطريقته الودودة المعتادة، معبرا عن الدهشة لأنه لم يسمع من ماركس مدة طويلة من الزمن، مع أنه بالطبع لم يكن يعرف السبب. ورغم أن انغلز نصح ماركس بأن يجيب على

الرسالة، إلا أنه لم يفعل. وفي كانون الأول من السنة ذاتها كتب لاسال مرة أخرى، بهدف محدد هذه المرة. فقد اقترح عليه ابن عمه ماكس فريدلاندر أن يتصل بماركس ويقنعه بالكتابة إلى صحيفة «داي برس» في فيينا التي كان فريدلاندر رئيس تحريرها. أجاب ماركس هذه المرة، رافضا عرض فريدلاندر قائلا أنه وإن يكن «ضد الفرنسيين» فإنه لا يقل «عداء للانكليز» وهو لذلك غير راغب على الإطلاق في الكتابة من أجل بالمرستون. ثم شكا لاسال من أنه قد تأثر بأن ماركس لم يجب على رسالته في نيسان، رغم أن العاطفية لم تكن واحدة من رذائله. فأجاب ماركس «بإيجاز وبرود» أنه لم يفعل ذلك لأسباب يصعب وصفها على الورق. وعلى الرغم من أن الرسالة كانت قصيرة ،إلا أن ماركس أخبر لاسال فيها أنه ينوي أن ينشر كتابا في الاقتصاد السياسي. وفي كانون الثاني 1858 وصلت إلى لندن نسخة من كتاب لاسال «هرقليط» مصحوبة ببضعة ملاحظات عن الاستقبال الحار الذي لاقاه في الدوائر المثقفة في برلين. وكان لاسال قد ذكر في رسالته التي أرسلها في كانون الأول نيته في إرسال الكتاب. كان لا بد لثمن البريد وقدره شلنان من أن «يضمن للكتاب استقبالا سيئا» من جانب ماركس، ولكن تقيم ماركس لمحتويات الكتاب كان سلبيا أيضا. فلم يعجبه «العرض المتعمد» لقدرة الكاتب الأكاديمية، ولاحظ أن من السهل على المرء أن يراكم استشهادا فوق آخر إذا كان لديه من الوقت والمال ما يكفي كي يرسل في طلب كل الكتب الضرورية من مكتبة جامعة بون. وقال أن لاسال يتبختر في ثوب فلسفي مبهرج كمن يلبس بذلة أنيقة للمرة الأولى. كان تقييم ماركس مجحفا بحق لاسال، لكنه كره الكتاب للسبب ذاته الذي أحبه له نجوم حلقات الأساتذة الجامعيين، وهذا السبب بالتحديد هو إبداء قدر كبير جدا من الحكمة العتيقة البالية من جانب شاب معروف بأنه ثوري كبير. على أية حال كان الجزء الأكبر من الكتاب قد كتب قبل أكثر من عشر سنوات من نشره.

لم يدرك لاسال أن هناك أمرا جديا يقف خلف رسالة ماركس «الموجزة الباردة»، ويبدو أن أساء –بنية طيبة مع أن ماركس شك في أن ذلك أمر متعمد- إشارة ماركس إلى أن من الضروري أن يجري نقاش شخصي بينهما، وافترض أن لدى ماركس أمرا أو اثنين لا أهمية ملحة لهما يريد ماركس أن يبحثهما معه عندما تحين الفرصة. فكتب ثانية في شباط 1858 دون أن يبدي أي أثر للضيق واصفا النشوة الغامرة التي أصابت البرجوازية في برلين لزواج ولي عهد بروسيا بأميرة انكليزية. وفي الوقت ذاته عرض على ماركس أن يحاول إيجاد ناشر لكتابه في الاقتصاد السياسي. قبل ماركس هذا العرض، ولم ينته آذار حتى كان لاسال قد عقد اتفاقا مع ناشره فرانز دنكر وضمن لماركس شروطا أفضل من تلك التي طلبها. فقد كان ماركس يريد أن يظهر الكتاب في أجزاء وكان راغبا في تأجيل مسألة الدفع إلى ما بعد ظهور الأجزاء الأولى، ولكن لاسال ضمن له مكافأة تفوق ما يتلقاه أساتذة الجامعات بمقدار النصف. غير أن الناشر احتفظ لنفسه بحق التوقف عن نشر الكتاب إذا لم تبع الأجزاء الأولى بشكل مرض.

مضت تسعة أشهر كاملة قبل أن يستطيع ماركس إنهاء الحزمة الأولى من المخطوطة بسبب عودة آلام الكبد إليه وبسبب هموم منزلية أخرى. ففي عيد ميلاد عام 1858 بدت الأمور في بيت ماركس «أحلك وأكثر إثارة لليأس من أي وقت مضى». وفي 21 كانون الثاني 1859 انتهت «المخطوطة التعيسة» ولكن لم يكن ماركس يملك أي نقود على الإطلاق كي يستطيع إرسالها بالبريد ويدفع رسوم تسجيلها. فكتب ماركس إلى انغلز طالبا منه أن يرسل إليه نقودا تكفي إرسالها بالبريد، وقال «لا أعتقد أن أحدا سبق أن كتب عن النقود وعانى إلى هذا الحد من الافتقار إليها. فمعظم من كتبوا في الموضوع كانوا يحتفظون معه بأطيب العلاقات».

5-نقد الاقتصاد السياسي

إن خطة كتابة كتاب شامل في الاقتصاد السياسي يكشف عن المبادئ الأساسية لنمط الإنتاج الرأسمالي كان لها من العمر قرابة خمسة عشر عاما عندما بدأ ماركس يضعها موضع التنفيذ. فقد راودته الفكرة حتى قبل ثورة آذار، وكان رده على برودون كدفعة على الحساب. وعندما انقضت نضالات السنوات الثورية، خطرت له الفكرة ثانية على الفور، فكتب إلى انغلز في 2 نيسان 1851 يقول: «لقد وصلت إلى حد أنهيت فيه كدحي في حقل الاقتصاد. وبعد ذلك سأعمل على كتابي في البيت وأنقب في علم آخر في المتحف. لقد بدأ الملل يصيبني من الاقتصاد. فعلم الاقتصاد السياسي لم يحرز تقدما أساسيا منذ أيام آدم سميث وديفيد ريكاردو على الرغم من أن البحث الفردي قد أنجز الكثير». سر انغلز لذلك وأجاب: «إنني مسرور لأنك انتهيت من اقتصادك السياسي. فقد دام الأمر طويلا حقا» ولكنه كرجل ذي خبرة أضاف: «ما دام أمامك كتاب تعتبره هاما ولم تقرأه، فإنك لن تضع القلم على الورق». كان انغلز ميالا دائما إلى الاعتقاد بأنه عدا كل الصعوبات الأخرى، فإن «السبب الرئيسي في التأخير» يعود باستمرار إلى «حيرة وتردد» صديقي.

لم تكن هذه الحيرة بالتأكيد مصطنعة أبدا، ولم يشر انغلز إطلاقا إلى أنها كذلك. وبدلا من أن ينهي ماركس عمله في 1851، بدأ بإعادته من جديد، وهو في مقدمته للجزء الأول يفسر لماذا: «الكمية الهائلة من المواد المخزونة في المتحف البريطاني والمناسب لتاريخ الاقتصاد السياسي، والموقع المشرف الذي تمنحه لندن على وجه الخصوص لدراسة المجتمع البرجوازي، وفي النهاية مرحلة جيدة من تطور المجتمع البرجوازي التي بدأ أنها قد افتتحت باكتشاف حقول الذهب في اوستراليا وكاليفورنيا». . وهو كذلك يشير إلى أن عمله الذي استغرق ثمانية أعوام لنيويورك تريبيون سبب انقطاعات مستمرة في دراسته، وكان كذلك يستطيع أن يضيف أن هذا العمل أدى به إلى العودة بعض الشيء إلى النضال السياسي، الذي كانت له على الدوام أهمية قصوى بالنسبة له. وفي النهاية كانت الآمال بانبعاث حركة الطبقة العاملة الثورية هي التي جعلته يجلس إلى مكتبه ليضع في خطوط عريضة الأمور التي شغلت تفكيره باستمرار سنوات عدة.

وتقدم مراسلاته مع انغلز برهانا ساطعا على هذا، ذلك أن بحث المشاغل الاقتصادية لا يتوقف إطلاقا، وأحيانا يصبح هذا البحث مقالات منتظمة. إن بعض المقاطع تبين لنا تبادل الأفكار الذي كان يحدث بين الصديقين. وفي أحد المرات يكتب انغلز عن كسله الشهير في حقل النظرية، ذلك الكسل الذي تثور نفسه عليه، ولكن ليس بشكل حاد يجعله يغوص في أعماق الأشياء. وفي مرة أخرى يتنهد ماركس: «آه لو عرف الناس كم هو قليل ما أعرف عن هذه المسائل!» وكانت هذه الملاحظة الأخيرة قد جاءت نتيجة قول أحد الصناعيين أنه لا بد أن ماركس كان صناعيا، هو ذاته، في وقت آخر.

فإذا ما وضع المرء المبالغة الفكهة جانبا فإن ما يبقى يدل على أن انغلز كان على معرفة أفضل بالآلية الداخلية للمجتمع الرأسمالي مما كان ماركس، بينما كان ماركس بقدراته الحادة على الاستنتاج أقدر على تتبع قوانين تطوره. وعندما أرسل ماركس إلى انغلز خطة الجزء الأول من كتابه أجاب انغلز: «أن خطتك مجردة كثيرا، وأعتقد أن هذا كان أمرا لا بد منه بالنظر إلى إيجازها. فقد صادفت قدرا كبيرا من الصعوبة في العثور على الانتقالات الجدلية، ذلك أنني أصبحت غير معتاد على الفكر المجرد كله». من جهة أخرى، كثيرا ما كان ماركس يصادف صعوبة في فهم الأجوبة التي كان انغلز يقدمها على أسئلته حول الطريقة التي يحسب بها الصناعيون والتجار ذلك الجزء من الدخل الذي يستعملونه لأنفسهم، وحول اهتلاك الآلات، أو طريقة حساب رأس المال المتداول. كذلك شكا ماركس من أن المسائل ذات الأهمية العملية تفترق كثيرا في علم الاقتصاد السياسي عن المسائل ذات الضرورة النظرية.

بدأ ماركس فعلا في إعطاء كتابه شكله الأخير في سنتي 1857-1858، وهذا واضح من تغير خطة الكتاب بين يديه. ففي نيسان 1858 كان لا يزال ينوي أن يعالج «رأس المال بشكل عام» في الجزء الأول، ولكن على الرغم من كان هذا الجزء نما ليصبح ضعفي أو ثلاثة أضعاف الحجم الذي أراده له، إلا أنه لم يحتو شيئا عن رأس المال، بل احتوى فصلين عن السلع والنقود. وقد ظن ماركس أن ميزة ذلك ستكون أن النقد لن يكون قادرا على الاقتصار على مجرد السباب، ولكنه غفل عن أنه بذلك أعطى للنقد سلاحا فعالا هو سلاح الصمت التام.

يلخص ماركس في المقدمة مسار تطوره العلمي، وتستحق الفقرة التي يلخص بها نظرية المادية التاريخية أن تثبت هنا: «لقد أدى بي تفحصي (لفلسفة الحق لدى هيغل) إلى نتيجة هي أنه لا يمكن فهم العلاقات القانونية أو أشكال الدولة بحد ذاتها، أو مما يسمي التطور العام للفكر الإنساني. وأن هذه جميعا تجد جذورها في شروط الحياة المادية التي لخص هيغل كليتها، على غرار الأكاديميين الانجليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر، بمصطلح المجتمع البرجوازي، وأن تشريح المجتمع البرجوازي يجب أن يسعى إليه في الاقتصاد السياسي... ويمكن تلخيص النتائج العامة التي توصلت إليها، والتي ما أن توصلت إليها حتى شكلت الخط الذي قاد دراساتي اللاحقة، كما يلي: يدخل البشر بالإنتاج الاجتماعي في علاقات محددة وضرورية مع بعضهم البعض باستقلال تام عن إرادتهم، علاقات إنتاجية تتفق مع مرحلة محددة من تطور قوى الإنتاج المادية، وتشكل كلية هذه العلاقات الإنتاجية البنية الاقتصادية للمجتمع والأساس المادي الذي تقوم عليه البنى الفوقية السياسية والقانونية، والذي تتفق معه الأشكال المحددة للوعي الاجتماعي. إن نمط إنتاج الحياة المادية هو الذي يقرر العملية الإجتماعية والسياسية للحياة بشكل عام. ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس من ذلك يحدد وجودهم الاجتماعي وعيهم. وفي مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الإنتاج المادية للمجتمع، تتناقض هذه القوى مع العلاقات الإنتاجية القائمة أو مع علاقات الملكية القائمة، التي ليست غير تعبير قانوني عن الشيء ذاته، التي كانت تتحرك ضمنها سابقا. وعندئذ تتحول هذه العلاقات من أشكال لتطور القوى الإنتاجية إلى قيود على هذه القوى، فتبدأ حقبة من الثورة الاجتماعية. ومع هذا التغير في الأساس الاقتصادي للمجتمع تتغير البنية الفوقية الهائلة كلها بسرعة كبيرة إلى هذا الحد أو ذاك. ويتوجب على المرء عند متابعة هذه التغيرات أن يميز بين التغيرات المادية في الشروط الاقتصادية للإنتاج، التي يجب أن تسجل بدقة علمية، وبين الأشكال القانونية والسياسية والدينية والفلسفية، وبالاختصار الأشكال الإيديولوجية التي يصبح البشر بها مدركين للصراع ويناضلون لحله. وكما أن المرء لا يستطيع أن يقيم فردا حسبما يظن هذا الفرد ذاته، كذلك لا يستطيع المرء أن يقيم حقبة تحول كهذه من وعيها لذاتها، بل على المرء بدلا من ذلك أن يفسر هذا الوعي من التناقضات في الحياة المادية، من الصدام القائم بين القوى الإنتاجية الاجتماعية وبين شروط الإنتاج. ليس هناك شكل من أشكال المجتمع يأفل قبل أن يطور كل قوى الإنتاج التي تتفق مع مرحلة تطوره، والعلاقات الإنتاجية الجديدة الأرفع لا تحل أبدا محل العلاقات القديمة قبل أن تتطور الشروط المادية لوجودها داخل رحم المجتمع القديم ذاته. ولذا فإن الإنسانية لا تضع أبدا لنفسها مهما غير تلك التي تستطيع أن تقوم بها، ذلك أنه إذا درس المرء المسألة بشكل أكثر دقة، فإنه سيجد في كل الحالات أن مهمة ما لا تقدم نفسها أبدا كي يقام بها إلا إذا كانت الشروط المادية للقيام بها قد تطورت أو هي على الأقل في طريقها إلى التطور. ويمكن القول بشكل عام أن أنماط الإنتاج الآسيوي والكلاسيكي والإقطاعي والبرجوازي الحديث تمثل حقبات تقدمية من الأشكال الاقتصادية الاجتماعية. وعلاقات الإنتاج البرجوازية تمثل الشكل المتناقض الأخير من عملية الإنتاج الاجتماعي، وهي ليست متناقضة بمعنى التناقض العدائي الفردي، بل بمعنى تناقض عدائي يتطور من الشروط الاجتماعية لحياة الأفراد. غير أن القوى الإنتاجية التي تتطور ضمن إطار المجتمع البرجوازي تخلق في الوقت ذاته الشروط المادية لتصفية هذا التناقض العدائي. ولذا فإن التاريخ الأولي للمجتمع الإنساني ينتهي بهذا الشكل من أشكال المجتمع».

خطأ ماركس في هذا الكتاب، الذي وضع له عنوان «نقد الاقتصاد السياسي»، خطوة حاسمة تتخطى حدود الاقتصاد السياسي البرجوازي كما طوره على وجه الخصوص آدم سميث ودافيد ريكاردو. فقد تتوج الاقتصاد السياسي البرجوازي بتعرف قيمة سلعة بأنها مقدار وقت العمل الضروري لإنتاجها، ولكن بما أن هذا الاقتصاد السياسي اعتبر نمط الإنتاج البرجوازي الشكل الطبيعي والخالد للإنتاج الاجتماعي، فقد افترض أن خلق القيمة سمة طبيعة من سمات قوة العمل الإنساني كما هي معطاة في الفرد وفي قوة العمل العيانية للفرد، وعلى أساس هذا الافتراض دخل الاقتصاد السياسي في سلسلة من التناقضات لم يستطع حلها. أما ماركس فلم يعتبر نمط الإنتاج البرجوازي الشكل الخالد الطبيعي للإنتاج الاجتماعي، بل اعتبره شكلا تاريخيا محددا من أشكال الإنتاج الاجتماعي يخلف سلسلة كاملة من الأشكال السابقة. ومن جهة النظر هذه، أخضع سمة قوة العمل المنتجة للقيمة لتفحص شامل. فبحث في أي نوع من قوة العمل ينتج القيمة ولماذا وكيف، كما بحث لماذا لا تكون القيمة شيئا غير قوة العمل المتضمنة.

وبهذه الطريقة، توصل ماركس إلى «نقطة حيوية» يعتمد عليها فهم الاقتصاد السياسي، وهي: الطابع المزدوج لقوة العمل في المجتمع البرجوازي. فقوة العمل العيانية المفردة تنتج القيمة الاستعمالية، بينما تنتج قوة العمل الاجتماعية قيمة تبادلية. وقوة العمل توجد في كل الأشكال الاجتماعية بقدر ما تخلق القيمة الاستعمالية. واستخدام قوة العمل كنشاط مفيد لاستثمار الموارد الطبيعية بشكل أو بآخر شرط طبيعي للوجود الإنساني، شرط للتداخل الحيوي القائم بين الإنسان والطبيعة باستقلال تام عن كل الأشكال الاجتماعية. وقوة العمل تتطلب مادة تعمل عليها،

وذلك كشرط أولي للعمل، ولذا فإنها ليست المصدر الوحيد لذلك الذي تنتجه، أي للثروة المادية. ومهما كانت العلاقة بين قوة العمل ومادته الخام في القيمة الاستعمالية المختلفة المنتجة، فإن القيمة الاستعمالية تحتوي دائما قواما طبيعيا.

أما القيمة التبادلية فمختلفة. إذا أنها لا تحتوي أي عنصر طبيعي، وقوة العمل هي مصدرها الوحيد، ولذا فهي المصدر الوحيد لكل ثورة تتشكل من قيم تبادلية. وأي قيمة استعمالية تساوي أي قيمة استعمالية أخرى إذا اعتبرت قيمة تبادلية، شرط أن تكون موجودة بنسبة صحيحة. «يمكن التعبير عن القيمة التبادلية لقصر ما بعدد معين من صفائح الدهان. ومن الجهة الأخرى، عبَّر صانع الدهان عن القيمة التبادلية لصفائح دهان مضاعفة بقصور». ولأن السلع تتبادل ببعضها البعض بغض النظر عن الشروط الطبيعية لوجودها ذاتها، وبصرف النظر عن الحاجات التي قصد لها أن تشبعها، فإنها تمثل الوحدة ذاتها، وهي رغم أشكال ظهورها المختلفة تمثل نتائج قوة عمل منتظمة، «ولا يهم قوة العمل هذه أن تظهر بشكل ذهب أو حديد أو قمح أو حرير أو أكسجين، أو أن تكون موجودة في صدأ الحديد أو الجو أو عصير العنب أو دم الإنسان».

وينجم تنوع القيم الاستعمالية عن تنوع قوى العمل التي تنتجها، ولكن قوة العمل التي تنتج قيما تبادلية لا علاقة لها بالمادة المحددة للقيمة الاستعمالية، ولا علاقة لها بالشكل المحدد لقوة العمل ذاتها. فهي عمل عام مجرد منتظم، وهي لم تعد تختلف في النوع، ولكن في الكمية فحسب، أي فحسب في الكميات المختلفة التي تتضمنها في قيم تبادلية بحجوم مختلفة. ولا تجد الكميات المختلفة من العمل العام المجرد ما تقاس به إلا الوقت، الذي يقاس هو ذاته بالطريقة التقليدية: بالدقائق والساعات والأيام والشهور الخ. ومن هنا فإن وقت العمل هو الوجود الحي للعمل بصرف النظر عن شكله ومحتواه وفرديته. وليست السلع جميعا بوصفها قيما تبادلية غير كميات محددة من وقت العمل المتضمن. ولذا فإن وقت العمل المتضمن في القيم الاستعمالية هو المادة التي تجعلها قيما تبادلية وسلعا، وفي الوقت ذاته مقياس الحجم المحدد للقيمة الموجودة فيها.

إن هذا الطابع المزدوج شكل اجتماعي للعمل غريب عن إنتاج السلع. ففي ظل الشيوعية البدائية، وهي شكل اجتماعي يوجد على عتبة تاريخ كل الشعوب الحديثة، كان العمل الفردي متضمنا مباشرة في النسيج الاجتماعي. أما في القنانة والتبادل الذي كان سائدا في العصور الوسطى، فقد كانت خصوصية العمل وليس عموميته هي التي تشكل الرابط الاجتماعي. وفي العائلة الريفية الأبوية التي كانت النساء فيها تغزل والرجال ينسجون ليستخدم النتاج من جانب العائلة وحدها، كانت المنسوجات منتجات اجتماعية، وكان الغزل والنسيج يمثلان عملا اجتماعيا ضمن حدود العائلة. كذلك أعطت الرابطة العائلية وما لازمها من تقسيم طبيعي للعمل لنتاج قوة العمل طابعه الخاص. ولم يكن النسيج يتبادل كتعبير منتظم عن وقت العمل العام ذاته. ولا يصبح العمل الفردي عملا اجتماعيا، من حيث أنه يأخذ شكل نقيضه المباشر، أي شكل العمومية المجردة، إلا في ظل الإنتاج السلعي.

إن السلعة هي الاتحاد المباشر بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، وهي في الوقت ذاته ليست سلعة إلا بالعلاقة مع السلع الأخرى. وتكمن العلاقة الحقيقية بين السلع ببعضها البعض في عملية التبادل. ففي هذه العملية، التي يدخل فيها أفراد مستقلون عن بعضهم البعض، تمثل السلعة في الوقت ذاته قيمة استعمالية وقيمة تبادلية معا، أي أنها تمثل عملا مخصوصا يفي بحاجات مخصوصة وعملا عاما تمكن مبادلته بأي حجم آخر مساو من العمل العام. ويجب على عملية تبادل السلع أن تكشف وتصفي التناقض الناجم عن أن قوة العمل الفردية المتضمنة في سلعة معينة يجب أن يكون لها طابع عام مباشر.

وتصبح كل سلعة منفصلة بوصفها قيمة تبادلية مقياسا لقيمة كل السلع الأخرى، ومن جهة أخرى، تصبح كل سلعة مفردة، تقاس بالنسبة إليها كل السلع الأخرى، وجودا كافيا للقيمة التبادلية، وهكذا تصبح القيمة التبادلية سلعة خاصة محددة تتضمن مباشرة وقت العمل العام وذلك بتحويل كل السلع الأخرى إليها. وبذلك، يحل في كل سلعة مفردة التناقض الذي تحتويه كل سلعة بذاتها: قيمة استعمالية محددة، ولكن لها مساو عام كذلك، ولذا قيمة استعمالية بشكل عام، قيمة استعمالية عامة. وهذه السلعة هي النقود.

تبلور القيمة التبادلية للسلع نفسها في النقود بوصفها سلعة مخصوصة. وهذا التبلور النقدي نتاج ضروري لعملية التبادل، التي تصبح فيها المنتجات المتنوعة لقوة العمل منتظمة بعلاقتها مع بعضها، ولذا فإنها تتحول فعلا إلى سلع. وقد تطور ذلك بالغريزة وعلى خطوط تاريخية. فقد مثل التبادل البسيط، وهو الشكل البدائي لعملية التبادل، بداية تطور القيم الاستعمالية إلى سلع وليس تطور السلع إلى نقود. وكلما تطورت القيمة التبادلية، كلما تطورت القيمة الاستعمالية إلى سلع، أي أنه كلما طورت القيمة التبادلية شكلا مستقلا عن القيمة الاستعمالية المخصوصة لا يعود مرتبطا بها، كلما أصبح تطوير النقود أكثر ضرورة. ففي البداية تلعب سلعة محددة دور النقود، أو ربما لعب ذلك الدور عدد من السلع ذات القيمة الاستعمالية العامة مثل الأغنام أو القمح أو العبيد. وقد لعبت دور النقود من حين لآخر سلع مناسبة بهذا القدر أو ذاك. وفي النهاية أصبحت المعادن الثمينة تلعب هذا الدور، لأن هذه المعادن تملك الصفات المادية الضرورية للسلعة المحددة التي يجب أن تبلور الطبيعة النقدية لكل السلع نفسها فيها، وذلك بقدر ما تنجم هذه الصفات مباشرة عن طبيعة القيمة التبادلية ذاتها، أي بالتحديد متانة قيمتها الاستعمالية، وإمكانية تقسيمها بلا حدود، والطبيعة المنتظمة لكل أجزائها وانتظام كل صنوف سلة كهذه.

ثم أصبح الذهب، من بين المعادن الثمينة، السلعة-النقدية. فهو يقوم بدور مقياس القيم ومقياس الأسعار، ووسيلة تبادل لكل السلع الأخرى. وبفضل هذا التحول المصيري للسلعة إلى ذهب، يحتفظ بقوة العمل المحددة المتضمنة في السلعة كعام مجرد، كعمل اجتماعي. وإذا ما فشلت السلعة في تحقيق هذا التحول إلى نقد، فإنها عندئذ لا تحقق هدف وجودها، لا كسلعة فحسب بل كناتج أيضا، ذلك أنها سلعة لأنه ليست لها قيمة استعمالية لمالكها.

هكذا بيَّن ماركس كيف ولماذا يجب بالضرورة على السلعة، بسبب طبيعة قيمتها الداخلية ذاتها، وعلى تبادل السلع أن ينتجا نقيض السلعة والنقود. فتعرف في النقود، التي تقدم نفسها على أنها شيء طبيعي له سمات خاصة، على علاقة إنتاجية اجتماعية، وشرح التفسيرات المشوشة

للنقود التي يقدمها علماء الاقتصاد البرجوازيون بأن أوضح أن ما ظنوا أنهم تعرفوا عليه كشيء، بدا فجأة كعلاقة اجتماعية، وما ظنوا أنه علاقة اجتماعية بدا شيئا.

في البداية، أغشى فيض الضوء الذي أحدثه هذا الكتاب أصدقاء الكاتب نفسه بدلا من أن يساعدهم على الرؤية. فأعلن ليبكنشت أن أمله لم يخب يوما في كتاب كما خاب في هذا الكتاب، أما ميكيل فلم «يجد فيه شيئا جديدا غير القليل القليل». أما لاسال فقد امتدح الشكل الذي وضع به الكتاب، وأعطى له دون حسد قيمة تفوق قيمة كتابه هو نفسه (هرقليط). ولكن ماركس شعر أن ما قاله لاسال يثير شكا في أنه لا يفهم إلا القليل عن المسائل الاقتصادية، وقد كان على حق في ذلك، إذ لم يمض وقت طويل حتى بيَّن لاسال أنه أخطأ «النقطة الحيوية» في الكتاب، حين لم يفهم الفرق بين قوة العمل التي تنتج قيما استعمالية وقوة العمل التي تنتج قيما تبادلية.

وإذا كان هذا هو الاستقبال الذي لاقاه كتاب ماركس من أولئك الذين كان يتوقع أن يفهموه، فماذا كان يتوقع من الآخرين؟ في 1885 قال انغلز أن ماركس وضع أول نظرية للنقود وأنه قد تم تبني نظريته بصمت، ولكن بعد ذلك بسبع سنوات ظهرت «موسوعة الاقتصاد السياسي» لتنشر على خمسين عمودا أطروحة عن النقود تحيي فيها النظريات القديمة عن النقود، ولا تذكر ماركس أبدا، بل تعلن أن النقود لغز غير قابل للحل. ولكن كيف يمكن لعالم اعتبر النقود إلها له أن يطمح إلى فهم إلهه؟

الفصل العاشر

تغيرات في السلالات الحاكمة

1-الحرب الايطالية

لم تتمخض أزمة 1857 عن ثورة بروليتارية، كما كان ماركس وانغلز يأملان. ولكنها بالتأكيد لم تكن لتمر دون آثار ثورية، حتى لو لم تتخذ هذه الآثار غير شكل تغييرات في السلالات المالكة. فقد ظهرت مملكة ايطاليا المتحدة، وبعد ذلك بقليل ظهرت الإمبراطورية الألمانية المتحدة، بينما اختفت الإمبراطورية الفرنسية القديمة.

اتخذت الأحداث هذا الخط لسبب مزدوج هو أن البرجوازية لا تحارب معاركها الثورية بنفسها إطلاقا، كما أنها منذ ثورة 1848 لم تعد راغبة في أن تسمح للبروليتاريا بخوض هذه المعارك عنها. وكانت المشكلة أن البروليتاريا في هذه الثورة وفي نضالات حزيران في باريس على وجه الخصوص تخلت عن عادتها القديمة في السماح للبرجوازية باستخدامها وقودا للمدافع، وصارت تطالب بنصيب من نتائج الانتصارات التي أحرزت بدمها وشجاعتها.

ونتيجة لذلك، وحتى في السنوات الثورية، راودت البرجوازية فكرة إقناع قوة أخرى غير البروليتاريا، التي تزداد إثارة للشك وتصبح غير موثوقة أكثر فأكثر، بأن تقوم عن البرجوازية بالمهمة الشاقة. وكان هذا هو الحال على وجه الخصوص في ألمانيا وايطاليا، أي في تلك البلدان التي كانت فيها المهمة التي يطرحها التطور التاريخي هي خلق الدولة القومية التي تتطلبها قوى الإنتاج كي تستطيع التطور إلى أقصى مدى. كان الحل الواضح للمشكلة هو أن تقدم لأحد الأمراء الهيمنة الكاملة على البلاد لقاء وعد منه بمنح البرجوازية الفسحة التي تحتاجها لتطوير الاستغلال الرأسمالي تطويرا كاملا. غير أن هذه الخطة اضطرت البرجوازية إلى التخلي عن مثلها السياسية الخاصة بها لتقنع بالأرباح المالية فحسب، ذلك أنها إذ طلبت عون الأمراء، إنما أخضعت نفسها للسيطرة الأميرية.

ولذا وحتى في السنوات الثورية بدأت البرجوازية تغازل أمراء الولايات بل أنها غازلت أكثر هذه الولايات رجعية. فغازلت في ايطاليا مملكة سردينيا، تلك الدويلة «العسكرية-اليسوعية» التي قال الشاعر الألماني بمرارة «أن القساوسة والمرتزقة يمصون دم الشعب فيها حتى يجف»، وفي ألمانيا غازلت مملكة بروسيا التي كانت تحت رحمة يونكر شرقي الألب الرجعيين الذين يريدون إعادة التاريخ إلى الوراء. نجحت البرجوازية في البداية في ايطاليا وألمانيا معا، فوافق الملك البرت ملك سردينيا على أن يجعل نفسه «سيف ايطاليا»، ولكن الجيش النمساوي هزمه في ساحة المعركة فمات لاجئا على أرض أجنبية. أما في بروسيا فقد رفض ملكها فريدريك ويليام الرابع التاج القيصري الألماني الذي عرضته عليه البرجوازية الألمانية، ذلك أنه اعتبره شرفا وهميا محضا، تاجا مصنوعا من الطين والوحل. وفضل بدلا من ذلك أن ينتزع بعض المكاسب الصغيرة على حساب الثورة، مع أنه فشل في ذلك فشلا ذريعا، وكان ذلك بسبب السوط النمساوي في اولمتز أكثر منه بسبب السيف النمساوي.

غير أن الازدهار الصناعي الذي أوهن قوة الثورة في عام 1848 أصبح رافعة قوية تدفع بالمصالح البرجوازية في ايطاليا وألمانيا إلى الأمام، كما أنه جعل الوحدة القومية في كلا البلدين أكثر إلحاحا وضرورة من أي وقت مضى.

وفي 1857، نشبت الأزمة لتذكر البرجوازية بأن كل عظمة رأسمالية ليست إلا عظمة سريعة التلاشي والانحلال، لكن الأمور بدأت تتحرك في النهاية، في ايطاليا أولا. ولا عين ذلك أن التطور الرأسمالي تقدم في ايطاليا أكثر منه في ألمانيا. على العكس من ذلك لم تكن الصناعة الكبيرة موجودة في ايطاليا أبدا، ولذا لم يكن التناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا قد نمى إلى حد يوقظ الشك المتبادل بين الطرفين. ولا يقل عن ذلك أهمية أن تفتت ايطاليا كان نتيجة السيطرة الأجنبية، وأن الإطاحة بهذه السيطرة كان هدفا مشتركا لكل طبقات المجتمع. فقد كانت النمسا تحكم لمبارديا ومقاطعة البندقية، كما كانت تحكم بصورة غير مباشرة ايطاليا الوسطى، التي كانت إماراتها الصغيرة تتلقى أوامرها من فينا. وكان النضال ضد النير الأجنبي مستمرا بلا انقطاع طيلة عشرين سنة، مما أدى من جهة إلى إجراءات قمع وحشية، وإلى أعمال انتقامية يائسة من الجهة الأخرى: لقد كان الخنجر الايطالي هو الجواب الحتمي على السيف النمساوي.

غير أن الإرهاب كله وكل الانتفاضات والمؤامرات أثبتت عقمها تجاه سلطة آل هابسبرغ المتفوقة، ففشلت الانتفاضات الايطالية جميعا حتى في السنوات الثورية. وثبت أن الأمل في أن تحرز ايطاليا استقلالها بذاتها ليس غير وهم. فقد كانت ايطاليا تحتاج إلى مساعدة خارجية كي تستطيع التخلص من ربقة السيطرة النمساوية، ولذا استدارت نحو شقيقتها فرنسا. كان الحفاظ على التفتت القومي في ايطاليا وألمانيا مبدأ تقليديا من مبادئ السياسة الخارجية الفرنسية. لكن المغامر الذي كان يتربع على عرش فرنسا أبدى استعداده للمساومة حول المسألة. فقد كانت الإمبراطورية الثانية مجرد مهزلة ما دامت محصورة ضمن الحدود التي رسمتها لفرنسا الدول الأوروبية الكبرى بعد الإطاحة بالإمبراطورية الأولى. ولذا فقد كانت فرنسا بحاجة إلى مكاسب إقليمية، ولكن بونابرت المزيف لم يكن يستطيع إحراز هذه المكاسب كما فعل بونابرت الحقيقي. ولذا فقد كان على بونابرت المزيف أن يقنع باقتراض ما يدعى «مبدأ القومية» من عمه المزعوم، ويصور نفسه مسيح الأمم المضطَهَدة، بشرط واحد هو بالطبع أن يجازي على خدماته الودية بالأرض والسكان.

في الوقت ذاته لم يكن وضعه يسمح له بالمخاطرة كثيرا. إذ لم يكن في وضع يمكنه من شن حرب أوروبية، عدا عن حرب ثورية، وكان كل ما يستطيع فعله هو ضرب كبش فداء أوروبا بموافقة متواطئة من الدول الأخرى. كان كبش الفداء في بداية الخمسينات هو روسيا ولكنه أصبح في نهايتها النمسا، فقد أصبح نظام الحكم الذي أقامه الممثلون النمساويون في ايطاليا فضيحة أوروبية، وفي الوقت ذاته تشاجر آل هابسبرغ مع شركائهم القدماء في التحالف المقدس، مع روسيا بسبب اولمتز ومع روسيا بسبب حرب القرم. ولذا كان بونابرت متأكدا تماما من أنه سيتلقى مساعدة روسيا إذا هاجم النمسا.

كان الوضع الداخلي في فرنسا يتطلب بإلحاح عملا سياسيا خارجيا ليرفع من منزلة النظام البونابرتي. إذ كانت الأزمة التجارية 1857 قد شلت الصناعة الفرنسية، وبفضل المناورات التي حاولت بها الحكومة منع اندلاع الأزمة أصبح الشر مزمنا ومستحكما، وقبعت التجارة الفرنسية راكدة سنوات عدة. ونتيجة لذلك بدأت البرجوازية والبروليتاريا معا تبديان تمردها، حتى أن الفلاحين، وهم الدعامة الأساسية لنظام الانقلاب بدأوا يتململون. فقد جعل الهبوط الكبير في أسعار الحبوب الذي حدث من عام 1857-1859 الفلاحين يعلنون أن زراعة الأرض تصبح مستحيلة باضطراد بسبب الأسعار المنخفضة التي يتلقونها لقاء إنتاجهم والأعباء الثقيلة الموضوعة على عاتق الزراعة.

في ظل هذا الوضع، غازل كافور، كبير وزراء مملكة سردينيا، بونابرت بحماسة. وكان كافور قد اتبع تقليد الملك البيرت، ولكنه اختط سياسته بقدر أكبر بكثير من المهارة، ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يحرز الكثير من التقدم بالوسائل الدبلوماسية العقيمة التي في متناول يده، ذلك أن شخصية بونابرت المتذبذبة والمترددة جعلت من الصعب عليه أن يتخذ قرارا سريعا. غير أن حزب العمل الايطالي أدلى بدلوه في اللعبة، ونتيجة لذلك اضطر بطل الحرية إلى الرسو على قرار بسرعة. وفي 14 كانون الثاني 1858 قام اورزيني والمتواطئون معه بإلقاء قنابلهم على العربة الإمبراطورية، فأصيبت بما لا يقل عن ستة وسبعين شظية. لم يصب راكبو العربة بأذى، ولكن كما هي العادة في حالات من هذا القبيل، أجاب بونابرت على المحاولة بإقامة حكم الإرهاب. غير أن الاهتياج الذي فعل به ذلك أشار إلى أن نظامه، الذي كان قد استمر طيلة سبعة أعوام حتى ذلك الحين، كان في الواقع قائما على أساس واه، بينما سببت له رسالة تلقاها من اورزيني خلال سجنه المزيد من الرعب. فقد قال اورزيني: «تذكر أن سلام أوربا وهدوءك وسكينتك ستظل جميعا وهمية محضة ما دامت ايطاليا لم تحرز استقلالها». ويقال أن اورزيني تكلم حتى بقدر أكبر من الصراحة في رسالة ثانية. وكان بونابرت خلال تسكعه أيام حياته المغامرة قد وقع في شبكة متآمرين ايطاليين، فكان يعرف جيدا أن نقمتهم ليست أمرا يؤخذ ببساطة. ولذا دعا بونابرت كافور لمقابلته في صيف عام 1858 في بلوبيير، وهناك رتبا معا حربا صغيرة ضد النمسا. واتفقا أن تأخذ ساردينيا لنفسها لومبارديا ومقاطعة البندقية وتشكل مملكة ايطاليا العليا، وبالمقابل تمنح سافوي ونيس لفرنسا. كانت تلك الصفقة دبلوماسية ليس لها غير القليل من العلاقة باستقلال ايطاليا وحريتها، ولم تذكر ايطاليا الجنوبية والوسطى، رغم أنه كان للطرفين بلا شك أفكارهما حول الموضوع. فقد كان بونابرت غير راغب في التخلي تماما عن السياسة الخارجية الفرنسية التقليدية والعمل على توحيد ايطاليا. على العكس من ذلك، كان يرغب في الحفاظ على السلطة الزمنية للبابوية وخلق رابطة للسلالات المالكة الايطالية بحيث يمكن لعب الواحدة منها ضد الأخرى، مما يؤمن الهيمنة الفرنسية، وبالإضافة إلى ذلك، كانت تراوده فكرة تكوين مملكة لايطاليا الوسطى، ينصب عليها ابن عمه جيروم. أما كافور، فكان من جهة أخرى يعتمد على نمو حركة قومية قوية في ايطاليا تسمح له بالسيطرة على كل النزاعات الإقليمية الملكية حالما تصبح ايطاليا العليا دولة قوية.

وفي يوم رأس السنة عام 1859، استقبل بونابرت السفير النمساوي، وأخبره بالنوايا الفرنسية، بينما أعلن ملك ساردينيا بعد ذلك ببضعة أيام أنه ليس أصما تجاه نداءات الشعب الايطالي التي تفطر القلب. لاقت هذه التهديدات فهما كاملا في فينا. واقترب اندلاع النزاع المسلح بسرعة، وكانت الحكومة النمساوية بليدة إلى درجة أنها سمحت بأن تُدفع إلى لعب دور المهاجم. فوضعت نفسها في موقف صعب، خاصة وأنها كانت نصف مفلسة، تهاجمها فرنسا وتهددها روسيا، ولم تكن صداقتها الفاترة مع المحافظين الانجليز ذات عون كبير، ولذا سعت إلى كسب دعم الجامعة الألمانية. ولم تكن الجامعة ملزمة بأي اتفاق للدفاع عن الممتلكات غير الألمانية لأي من أعضائها، ولكن الحكومة النمساوية كانت تأمل في أن تدفعها إلى فعل ذلك بشعار سياسي-عسكري هو أن نهر الراين يجب أن يدافع عنه على نهر البو، أي أنها، بكلمات أخرى، حاولت أن تقنع الجامعة أن الحفاظ على ممتلكات النمسا أمر ذو أهمية حيوية قومية لألمانيا.

كانت حركة قومية قد تطورت في ألمانيا أيضا منذ أزمة 1857، ولكنها كانت مختلفة عن الحركة القومية في ايطاليا، ولم يكن هذا الاختلاف ميزة لها. لم تكن الحركة القومية الألمانية مدفوعة بالضيق من السيطرة الأجنبية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت البرجوازية الألمانية، منذ 1848، فزعة من البروليتاريا، على الرغم من أن البروليتاريا لم تكن قد أثبتت أنها خطرة إلى هذا الحد على الإطلاق. ولكن أيام حزيران في باريس، كانت تمثل مع ذلك تحذيرا رهيبا. فقد كانت فرنسا حتى عام 1848 المثل الأعلى للبرجوازية الألمانية، ولكنها بعد ذلك استدارت نحو انجلترا لتتخذ منها مثلا، انجلترا التي كان يبدو أن برجوازيتها والطبقة البروليتارية فيها قادرتان على تسوية خلافاتهما سلميا. وقد أحدثت زيجة ولي العهد البروسي من أميرة انجليزية نشوة غامرة لكل البرجوازيين الألمان. وعندما تخلى ملك بروسيا المصاب في عقله عن مقاليد الحكم لشقيقه في خريف 1858، فقام هذا بتنصيب حكومة ليبرالية مطواعة، لأسباب يمكن أن تكون أي شيء ولكنها لا يمكن أن تكون أسبابا ليبرالية، «اندلعت احتفالات تتويج بليدة»، كما عبر لاسال عن ذلك بمرارة. ولكي لا تزعج البرجوازية النبيلة الوصي على العرش، شجبت إبطالها عام 1848، وبدلا من أن تحتج عندما تركت الحكومة الجديدة الأمور على حالها عمليا، تبنت الشعار الشهير «لنفعل ذلك بلطف!» خوفا من إثارة استياء الحاكم الجديد، الذي يمكن حينئذ أن يطيح «بالحقبة الجديدة» التي كانت تحت رحمة نزواته وكأنها مجرد ظل على حائط.

أخذت الموجة القومية ترتفع في ألمانيا، كلما ازداد تلبد غيوم الحرب. فقد كانت الطريقة التي كان كافور يعمل بها من أجل الوحدة الايطالية مغرية جدا للبرجوازية الألمانية، التي كانت قد اختارت قبل ذلك بزمن طويل بروسيا لتلعب في ألمانيا دور ساردينيا في ايطاليا. ولكن هجوم فرنسا، عدو ألمانيا التقليدي، على النمسا، حليفة ألمانيا، أثار المخاوف في قلب البرجوازية الألمانية وأيقظ فيها ذكريات غير سارة. ربما كان بونابرت المزيف ينوي أن يبعث تقاليد بونابرت الحقيقي؟ ربما تعود أيام اوسترلتز وبينا لتقعقع قيود السيطرة الأجنبية ثانية في ألمانيا؟ جهد الكتبة الذين يتلقون رشوات من الحكومة النمساوية في إقناع البرجوازية الألمانية بأن مخاوفها حقيقية، وفي الوقت ذاته رسموا صورة زاهية

«لدولة وسط أوروبية كبرى» بقيادة النمسا وتضم الجامعة الألمانية وهنغاريا وأراضي الدانوب الرومانية والسلافية والالزاس واللورين وهولندا ويعلم الله ماذا أيضا. من جهة أخرى أطلق بونابرت المزيف بالطبع العنان لكتبته أيضا، فراحوا يحلفون بكل الآلهة أن سيدهم لا تراوده أية فكرة خبيثة كالرغبة في الاستيلاء على ضفاف الراين، وأن هجومه على النمسا لا سبب له إلا اعتبارات رفيعة هي مصالح الحضارة الأوروبية.

وبالطبع، وجد الفلستيون الألمان أن من الصعب عليهم تكوين رأي محدد في خضم فوضى الدعاية المتناقضة، ولكنهم بدأوا يعيرون أذنا صاغية بالتدريج لصوت الساحر الهابسبرغي، مما ألحق الأذى بمنافسه البونابرتي. لقد كانت حجج آل هابسبرغ تدغدغ وطنية الفلستيين الألمان، ويف الوقت ذاته كان كثيرا أن يطلب من أي كان أن يؤمن بالرسالة الحضارية لبونابرت المزيف. غير أن الوضع، بسبب ذلك كله، كان معقدا إلى درجة كبيرة، حتى أن رجالا معتادين على معالجة دقائق الأمور السياسية، وبينهم الثوريون، رجالا كانوا متفقين تماما على كل المسائل الأساسية، لم يستطيعوا الاتفاق على السياسة العملية التي يجب لألمانيا أن تتبعها تجاه الحرب الايطالية.

2-النزاع مع لاسال

دخل انغلز الحلبة أولا، بالاتفاق مع ماركس، بكتيبة «البو والراين»، ورتب لاسال أمر نشره عبر فرانز دانكر. كان هدف انغلز هو دحض حجة آل هابسبرغ بأن الراين يجب أن يدافع عنه على البو. فأوضح أن ألمانيا لا تحتاج إلى بوصة من التراب الايطالي للدفاع عن نفسها، وقال أنه إذا كانت الاعتبارات العسكرية هي العامل المقرر فإن لفرنسا حق في ضفاف الراين أكبر من حق ألمانيا في البو. وأضاف أن السيطرة النمساوية على ايطاليا العليا يمكن من وجهة النظر العسكرية المحضة أن تكون ضرورية لألمانيا، ولكنها من الناحية السياسية مؤذية جدا، لأن القمع الشيطاني الذي يمارسه المضطهدون النمساويون على الوطنيين الايطاليين يتسبب في إثارة كراهية وعداء متعصب ضد ألمانيا على امتداد ايطاليا كلها.

وقال أنه مهما يكن من أمر فإن مسألة ملكية لمبارديا أمر يخص ألمانيا وايطاليا، وليس لوي بونابرت والنمسا. أما فيما يتعلق بطرف ثالث مثل بونابرت، الذي كان يتدخل لمصالحه الخاصة وضد مصلحة ألمانيا، فإن الموقف الوحيد الذي تستطيع ألمانيا اتخاذه هو أن تحتفظ بالمقاطعة ولا تستسلم إلا رغما عنها، وأن تحتفظ بمواقعها العسكرية ولا تخليها إلا إذا أصبح ذلك متعذرا. ولذا فإن شعار آل هابسبرغ مبرر تماما فيما يتعلق ببونابرت، ذلك أنه إذا كان لوي بونابرت قد جعل من البو عذرا له، فإن الراين هو هدفه الحقيقي بالتأكيد. فالاستيلاء على ضفاف الراين هو وحده الذي يمكن أن يضع أساسا لتعزيز نظام الانقلاب في فرنسا. لقد كان ذلك مثلا كلاسيكيا على وضع القول المأثور القديم موضع التطبيق العملي: هاجم بونابرت البرذعة ولكنه كان يريد الحمار. ويمكن أن تغري ايطاليا بلعب دور البرذعة ولكن هذا ليس سببا يدفع ألمانيا إلى لعب دور الحمار على الإطلاق. وإذا كانت المسألة في نهاية الأمر هي مسألة من يجب أن يملك الضفة اليسرى للراين، فإن ألمانيا لا تستطيع أن تحلم بالتخلي عن البو، أي التخلي دون قتال عن واحد من أقوى مواقعها، إن لم يكن أقواها على الإطلاق. ففي عشية الحرب كما في الحرب ذاتها، يحتل المرء كل موقع يمكن أن يشكل منه خطرا على عدوه أو أن يحمي به نفسه، دون أن يسبق ذك تفكير أخلاقي عما إذا كان عمل كهذا يتفق مع العدالة الأبدية ومبادئ القومية. فعندما يكون المرء محشورا في زاوية ضيقة، فإنه يدافع عن نفسه بكل الأسلحة التي يستطيع وضع يده عليها.

كان ماركس متفقا تماما مع وجهة النظر هذه، فقد كتب إلى انغلز بعد أن قرأ مخطوطة الكتيب يقول: «قدرة غير عادية: وكذلك الجانب السياسي الذي كان صعبا للغاية. سيحرز الكتيب نجاحا باهرا». أما لاسال فقد أعلن أنه لا يستطيع أن يفهم موقف انغلز إطلاقا، وبعد ذلك بقليل، أصدر من جانبه كتيبا من وضعه بعنوان «الحرب الايطالية ومهمة بروسيا»، وقد نشره دنكر كذلك. انطلق لاسال من افتراضات مختلفة تماما، فتوصل بالتالي إلى نتائج مختلفة تماما، وصفها ماركس بأنها «خاطئة خطأ مريعا».

أعلن لاسال أن الحركة القومية التي قامت في ألمانيا بتأثير خطر الحرب كانت «كراهية محضة لفرنسا ولا شيء غير ذلك (استخدام نابليون كذريعة، ولكن السبب الحقيقي هو كراهية التطور الفرنسي الثوري)». وقال أن الحرب الفرنسية-الألمانية، التي سيتصارع فيها أعظم شعبين أوروبيين بسبب أوهام قومية لا غير، ستكون حربا شعبية حقا لا تسببها أي مصلحة قومية حيوية، بل تغذيها قومية حساسة مرضية ووطنية متأججة وعداء طفولي للفرنسيين. ولذا فإنها ستتشكل خطرا على الحضارة الأوروبية وكل المصالح الوطنية والثورية حقا، كما أنها ستمثل أبشع وأخطر نصر يحرزه المبدأ الرجعي منذ أيار 1848. ولذلك فهو يرى أن على الديمقراطية أن تعارض حربا كهذه بكل السبل الممكنة.

وأوضح لاسال بالتفصيل أن الحرب الايطالية لا تشكل تهديدا جديا لألمانيا، التي من صالحها أن يتوج النضال الايطالي من أجل الوحدة القومية بالنجاح. فالقضية الحقة لا تصبح باطلة إذا ما دافع عنها رجل سيء. وقد يأمل بونابرت في كسب القليل من الشعبية من خلال الحرب الايطالية، ولكن من واجب الديمقراطية في هذه الحالة أن تعمل على إفشال ذلك، وبذلك تجعل ما قام به لمصلحته الخاصة غير ذي نفع في تنمية هذه المصلحة ذاتها. كيف يمكن للمرء أن يعارض الآن بسبب نابليون فحسب ما كان يرغب فيه في السابق؟ فمن جانب كان هناك قضية حقة ورجل سيء، وفي الجانب الآخر هناك قضية سيئة وهناك «الرجل؟». ثم ذكر لاسال قراءه باغتيال بلوم وباولمتز وهولشتاين وبرونزل وبكل الجرائم التي لم يقترفها ضد ألمانيا بونابرت بل اقترفها الطغيان الهابسبرغي. وقال أن الشعب الألماني ليس مهتما على الإطلاق بالحفاظ على قوة النمسا، بل على العكس من ذلك، أن تحطيم النمسا هو الشرط الأولي لتحقيق الوحدة الألمانية. ففي اليوم الذي تحرز فيه إيطاليا وهنغاريا استقلالهما سيعود الاثني عشر مليون ألماني-نمساوي إلى الشعب الألماني، وعندئذ فقط يمكن لهم أن يشعروا أنهم ألمان وتصبح الوحدة الألمانية ممكنة.

وحلل لاسال موقف بونابرت وبيَّن أن هذا الرجل الضعيف، الذي يقدر بأكبر مما يستحق، ليس في موقف يستطيع معه أن يفكر جديا بمكاسب أجنبية حتى في ايطاليا، فكيف بألمانيا. وحتى لو افترضنا أن المجنون يهدهد أحلام غزو خيالية، فهل هذا سبب يدعو ألمانيا إلى إبداء هذا الخوف المشين؟ وسخر من الوطنيين الرعاديد الذين يعتبرون بينا المقياس الطبيعي لقوة ألمانيا القومية، فيدفعهم إلى اليأس خوفهم ذاته. ثم أنب الشجعان الذين يخشون هجوما غير متوقع من فرنسا فيطالبون بأن تقوم ألمانيا بالهجوم، وأوضح أن من الواضح تماما أنه إذا كانت ألمانيا ستصد غزواً فرنسيا، فإنها ستكون قادرة على حشد قوة أكبر بكثير مما لو قامت هي بالهجوم على فرنسا، وبالإضافة إلى أن هجوما كهذا سيجعل الفرنسيين يلتفون حول بونابرت مما يقوي موقفه.

ولا يجب أن تشن الحرب ضد فرنسا إلا إذا حاول بونابرت أن يحتفظ بمكاسب الحرب مع النمسا لنفسه، أو حتى إذا لم يفعل شيئا غير محاولة خلق مملكة ايطالية وسطى لابن عمه جيروم. وإذا لم يحدث أي من هذين الاحتمالين، وأبدت الحكومة البروسية مع ذلك ميلا إلى تحريض الشعب للحرب ضد فرنسا، فإن الديمقراطية يجب أن تفعل كل ما يمكن لمعاكسة تحريض كهذا. غير أن الحياد ليس كافيا، فالمهمة التاريخية لبروسيا لمصلحة الأمة الألمانية هي إرسال جيشها لمقاتلة الدنمارك معلنة «إذا كان بونابرت يصر على تغيير خارطة أوربا في الجنوب باسم مبدأ القومية، فإننا سنفعل الشيء ذاته في الشمال. وإذا كان بونابرت سيحرر ايطاليا فإننا سنحرر سليزويغ-هولشتاين». أما إذا استمرت بروسيا صامتة فإنها بذلك تبرهن أن الملكية الألمانية لم تعد قادرة على القيام بعمل قومي عظيم.

نتيجة لهذا البرنامج، مُجِّد لاسال بوصفه نبيا قوميا تنبأ بسياسة بسمارك فيما بعد، ولكن الواقع أن حروب الغزو الملكية التي شنها بسمارك في 1864 لضم سليزويغ-هولشتاين لا تشبه في شيء الحرب الثورية التي حث عليها لاسال في 1859 لتحرير سليزويغ-هولشتاين. كان لاسال مدركا تماما أن الوصي على العرش لن يقوم بالمهمة التي حددها له، وهذا وحده هو الذي أعطاه الحق في تقديم اقتراح كان يتفق مع مصالح ألمانيا القومية، حتى ولو تحول هذا الاقتراح في الحال إلى تأنيب للحكومة. لقد كان لاسال محقا في اجتذاب الجماهير المهتاجة بعيدا عن السبيل الخاطئ بتبيان السبيل القويم لها.

غير أن لاسال بغض النظر عن الحجج التي أوردها في كتيبه كان مدفوعا «بدوافع سامية»، كما شرح ذلك لماركس وانغلز في رسائله. فقد كان يعرف أن الوصي على العرش على وشك أن يدخل الحرب الايطالية إلى جانب النمسا، ولم يكن منزعجا كثيرا لذلك، لأنه افترض أن الحرب ستخاض بصورة سيئة، وأنها ستمكن الحركة الثورية من الاستفادة من الأوضاع المتغيرة التي لا بد أن تنجم عنها، ولكن بشرط واحد هو أن تقنع الحركة القومية منذ البداية بأن حرب الوصي على العرش مسألة تخص العائلة المالكة وليس لها أي مبرر قومي. وكان لاسال يرى أن حربا غير شعبية ضد فرنسا ستكون «ضربة حظ» إلى جانب الثورة، بينما قد تؤدي حرب شعبية بقيادة الملكية إلى كل النتائج المضادة للثورة التي وصفها في كتيبه وصفا فصيحا.

ولذا كان التكتيك الذي اقترحه انغلز في كتيبه غير مفهوم إلى هذا القدر أو ذاك من وجهة نظره. فقد أثبت انغلز بشكل واضح أن ألمانيا، من وجهة النظر العسكرية، لا تحتاج البو للدفاع عن نفسها، ولكنه مع ذلك أكد أن البو يجب أن يحافظ عليه في حال نشوب الحرب، أي أن الأمة الألمانية ملزمة بواجب الدفاع عن النمسا ضد هجوم فرنسي. فبدا ذلك للاسال قابلا للنقاش إلى حد بعيد، ذلك أنه كان من الواضح تماما أن أية هزيمة لهجوم بونابرت من جانب النمسا لا يمكن إلا أن تكون لها نتائج مضادة للثورة. وإذا نجحت النمسا، تدعمها في ذلك الجامعة الألمانية، فإن من الواضح أنه ليس هناك ما يمنعها من الاحتفاظ بسيطرتها على ايطاليا العليا، وهذا ما شجبه انغلز بعنف. وبالإضافة إلى ذلك ستقوى هيمنة آل هابسبرغ في ألمانيا وستحقن سياسات الجامعة الألمانية بدم جديد. وحتى ولو افترضنا أن النمسا المنتصرة ستطيح بالمغتصب الفرنسي، فإنها لن تفعل ذلك إلا لتستبدله بنظام حكم البوربون القديم، وهذا أمر لا يخدم لا المصالح الألمانية ولا المصالح الفرنسية، هذا إذا ضربنا صفحا عن مصالح الثورة.

لكي يفهم المرء وجهة النظر التي قدمها ماركس وانغلز فإن عليه أن يدرك أن دوافعهما لم تكن تقل سمواً عن دوافع لاسال. وقد اتخذ كلاهما هذا الموقف للسبب ذاته، وهو كما أشار انغلز في رسالة إلى ماركس: «أن من المستحيل أن يدافع المرء في ألمانيا نفسها عن مصالح حزبنا سواء سياسيا أم سجاليا». غير أن «الدوافع السامية» للصديقين في لندن ليست واضحة وضوح دوافع لاسال، ذلك أنه على الرغم من رسائله إليهما لا تزال موجودة، فإن رسائلهما إليه ليست كذلك، ولكن مع ذلك يمكن التعرف على دوافعهما بخطوطها العامة من خلال نشاطاتهما الدعاوية العامة في ذلك الحين. ففي نشرة ثانية بعنوان «سافوي ونيس والراين» أصدرها انغلز بعد ذلك بسنة ضد اقتطاع بونابرت لساوفي ونيس، نجده يصف بوضوح الموقف الذي كتب منه كتيبه الأول.

أولا وقبل كل سيء كان كل من ماركس وانغلز يعتقد أن الحركة القومية في ألمانيا حركة أصيلة حقا. وكانا يعتقدان أنها تطورت «بصورة طبيعية وغريزية ومباشرة» وأنها كانت تعد بجرف الحكومات غير الراغبة معها. وأن السيطرة النمساوية على ايطاليا العليا والحركة الايطالية الاستقلالية ليسا معا مسألة تهم هذه الحركة القومية في الوقت الراهن. فما يهم هو أن غريزة الشعب طالبت بالحرب ضد لوي بونابرت بوصفه ممثل تقاليد الإمبراطورية الفرنسية الأولى، وكانت هذه الغريزة على حق.

ثانيا افترض ماركس وانغلز أن ألمانيا مهددة حقا بالتحالف الفرنسي-الروسي. وقد بيَّن ماركس في «نيويورك تريبيون» أن الوضع السياسي الداخلي في الإمبراطورية الثانية قد وصل مرحلة حرجة، وأنه لا يمكن إلا لحرب أجنبية أن تطيل حياة الانقلاب في فرنسا وفي الوقت ذاته حياة الثورة المضادة في أوربا. وكان ماركس يخشى أن يكون التحرير البونابرتي لايطاليا مجرد ذريعة لإبقاء فرنسا نفسها رازحة في الأغلال، ولإخضاع ايطاليا لنظام الانقلاب ونقل «الحدود الطبيعية» لفرنسا إلى داخل ألمانيا وتحويل النمسا إلى أداة في يد روسيا ودفع شعوب أوروبا إلى حرب نيابة عن الثورة المضادة المشروعة وغير المشروعة. وكان يعتبر، كما يبيِّن انغلز في كتيبه الثاني، أن حمل الجامعة

الألمانية للسلاح نيابة عن النمسا سيكون اللحظة الحاسمة لروسيا كي تظهر على المسرح فتكسب ضفة الراين اليسرى لفرنسا مقابل إطلاق يدها في تركيا.

وفي النهاية، افترض ماركس ونغلز أن الحكومات الألمانية، وعلى الأخص مغروري برلين، التي رحبت بفرح بصلح بازل الذي أعطى الضفة اليسرى للراين إلى فرنسا، والتي سرت سرا عندما هزم النمساويون في أولم واوسترليتز، ستترك النمسا في موقف حرج. وكانا يريان أن الحكومات الألمانية بحاجة إلى أن تدفع من جانب الحركة القومية، وقد وصف انغلز في مقطع من رسالة بعثها إلى لاسال، وأوردها هذا كاملة في رده، ما الذي توقعاه بعد ذلك: «لتعش حرب نهاجم فيها من الفرنسيين والروس في وقت واحد، ذلك أن وضعا يائسا كهذا تلوح فيه الكارثة في الأفق سيدفع كل الأحزاب إلى استنفاذ نفسها، وعندئذ ستلتف الأمة في النهاية إلى أكثر الأحزاب نشاطا كي يخلصها». أجاب لاسال أنه يوافق على ذلك تماما، وأنه يبذل كل قواه في برلين كي يبرهن أنه إذا أعلنت الحكومة البروسية الحرب، فإنها بذلك تخدم الثورة، ولكن بشرط واحد هو أن يعتبر الشعب الحرب منذ البداية خطة مضادة للثورة وضعها «التحالف المقدس». وإذا انتهت الأمور كما توقع انغلز فإن نظام الجامعة الألمانية والسيطرة النمساوية على ايطاليا العليا ونظام الانقلاب الفرنسي ستدمر جميعا. لقد وجد لاسال أنه لا يمكن فهم تكتيك انغلز إلا من وجهة النظر هذه.

يبين كل هذا بوضوح أنه لم تكن هناك خلافات أساسية في الرأي بين المتنازعين، بل فقط «تقييمات متعاكسة لأوضاع معطاة»، كما قال ماركس بعد ذلك بسنة. لم يكن هناك خلاف في الرأي بينهم لا في وجهات النظر الثورية ولا القومية. ذلك أن الهدف النهائي لهم جميعا كان انعتاق البروليتاريا، والشرط الضروري بصورة مطلقة لتحقيق هذا الهدف هو تشكيل دول قومية كبيرة. وهم كألمان كانوا جميعا مهتمين بتحقيق الوحدة القومية الألمانية، وكان الشرط الضروري بصورة مطلقة لذلك هو إلغاء نظام السلالات المالكة المتعددة في ألمانيا. ولأنهم جميعا كانت لهم مصالح قومية، لم يدعم أي منهم الحكومات الألمانية وكانوا جميعا يتمنون هزيمتها. ولم يخطر ببال أي منهم أن على الطبقة العاملة في حالة نشوب حرب بين الحكومات أن تتخلى عن سياستها المستقلة الخاصة بها وتسلم مصيرها للطبقات الحاكمة، فقد كانت روحهم القومية حقيقية ومتجذرة بعمق، ولذا فلم يكونوا ليخدعوا بالشعارات الملكية.

غير أن الوضع كان معقدا، فقد بدأ تراث السنوات الثورية يصفي نفسه عبر التغيرات الملكية، وأصبحت مسألة التواصل إلى موقف صحيح في خضم هذا الخليط من الأهداف الرجعية والثورية مسألة حقائق أكثر منها مسألة مبادئ أساسية. لم توضع أي من وجهتي النظر موضع الاختبار، ولكن التطور ذاته الذي منع ذلك يبين بوضوح كاف أن لاسال استطاع تقييم «الظروف المعطاة» بشكل أدق مما فعل ماركس وانغلز. كان على الصديقان أن يدفعا ثمن فقدانهما للصلة بالأوضاع في ألمانيا طوال هذه المدة الكبيرة. لقد أعطيا تقديرا مبالغا فيه إن لم يكن لشهوة القيصرية إلى الغزو فعلى الأقل للإمكانات العملية التي تستطيع بها إشباع هذه الشهوة. وقد يكون لاسال مبالغا حين قال أن الحركة القومية في ألمانيا لم تكن تعود لشيء غير الكراهية التقليدية لفرنسا، ولكن على أية حال لم تكن الحركة ثورية بالتأكيد، كما أثبت ذلك النتاج المزري لأعمالها-الجهيض المعروف باسم الجمعية الوطنية الألمانية.

ولربما كان لاسال قد قلل من أهمية الخطر الروسي، فهو يعامله في كتيبه كمسألة ذات أهمية ثانوية. ولكن على أية حال لم يكن هذا الخطر ماثلا، كما بان عندما عمد الوصي على عرش بروسيا، تماما كما تنبأ لاسال، إلى إعلان التعبئة في الجيش البروسي ودعا الجامعة الألمانية إلى تعبئة قوات الدول الأصغر أيضا. فقد أثبتت هذه التظاهرة العسكرية أنها كافية لأن تجعل بونابرت المزيف والقيصر يأخذان موقفا يقوم على التهدئة. وفي الحال ظهر جنرال روسي في مقر قيادة الجيش الألماني، وشجع بونابرت على عرض السلام على إمبراطورية النمسا المهزومة، ففعل بونابرت ذلك وتخلى عن نصف برنامجه الرسمي، موافقا على أن يقنع لنفسه بلمبارديا، بينما ظلت مقاطعة البندقية تحت السيطرة النمساوية. لم يكن بونابرت في موقف يستطيع معه شن حرب أوروبية وحده، ووقفت في وجه روسيا المتاعب في بولندا والصعوبات التي كانت تعاني منها في مسألة تحرير الأقنان والضربات التي كانت قد تلقتها في حرب القرم، تلك الضربات التي لم تكن قد شفيت من آثارها بعد.

وفي الوقت ذاته سوى صلح «فيلا فرانكا» النزاع حول التكتيك الثوري تجاه الحرب الايطالية، ولكن لاسال ظل يعود المرة تلو الأخرى إلى المسألة في رسائله إلى ماركس وانغلز، ويصر على أنه كان محقا وعلى أن سير الأحداث أثبت صحة وجهات نظره. وبما أننا لا نملك ردود ماركس وانغلز عليه، وأيضا بما أنهما لم يضعا وجهات نظرهما في بيان كما كانا ينويان، فإن من المستحيل أن يزن المرء الحجج والحجج المعاكسة. غير أن لاسال كان يستطيع أن يشير عن حق إلى الخط الذي سارت به الأحداث في الواقع، إلى التطور الواقعي لحركة الوحدة الايطالية، وإلغاء السلالات المالكة في ايطاليا الوسطى بفعل ثورة «رعاياها» الذين أسيئت معاملتهم، وغزو غريبالدي ومتطوعين لصقليا ونابلولي، والعصا الكبيرة التي وضعها كل ذلك في عجلة بونابرت، مما حطم كل خططه. ولكن كانت السلالة المالكة في سافوي هي التي جنت في نهاية الأمر الثمر.

تفاقم النزاع لسوء الحظ بسبب عدم قدرة ماركس على التغلب على شكه بلاسال، على الرغم من أنه كان يتوق يصدق إلى كسبه تماما، معلنا أنه «رجل نشيط» لا يمكن أن يساير الحزب البرجوازي. وعلى الرغم من أن كتابه «هيرقليط» كان خاما قليلا، إلا أنه كان أفضل من أي شيء يتفاخر به الديمقراطيون. ولكن على الرغم من أن لاسال كان باستمرار يتقدم إلى ماركس بقلب مفتوح ويد ممدودة، إلا أن ماركس كان يشعر دوما أن الدبلوماسية ضرورية في تعامله معه. وقد قال أن «الإدارة الذكية» ضرورية لإبقاء لاسال وفق ما يرام، وكان اقل حادث كافيا لبعث الشكوك القديمة في نفس ماركس من جديد.

فمثلا جدد فريدلاندر عرضه بان يكتب ماركس على «داي برس» في فيينا. ومرة أخرى جاء العرض عبر لاسال، وبدون شروط هذه المرة. لكن فريدلاندر صرف النظر عن ذلك في النهاية، فما كان من ماركس إلا أن شك فورا في أن لاسال تعمد إفساد الأمر. وأيضا عندما تأخر طبع كتاب ماركس في الاقتصاد السياسي من بداية شباط إلى نهاية أيار، كان ماركس متأكدا أن هذه واحدة أخرى من «الأعيب» لاسال

ووعد أنه لن ينسى ذلك أبدا. وفي الواقع كان السبب الوحيد للتأخير هو الناشر البطيء، الذي كان له عذر جيد في ذلك، إذ أشار أنه قد أجل الطبع كي يصدر كتيبي انغلز ولاسال اللذين كانا أكثر إلحاحا لأنهما يعالجان مسائل راهنة.

3-صراعات جديدة في المنفى

جدد الطابع الغامض للحرب الايطالية العداوات القديمة في صفوف المنفيين وسبب تشوشا جديدا بينهم.

فبينما كان اللاجئون الفرنسيون والايطاليون يعارضون خلط الحركة الايطالية الاستقلالية بنظام الانقلاب في فرنسا، كان كثيرون من اللاجئين الألمان تواقين إلى تكرار الحماقة التي كانت قد كلفتهم عشر سنوات من الإبعاد. غير أنهم كانوا بعيدين جدا عن وجهة نظر لاسال، بل أنهم كانوا يقفون بإصرار إلى جانب «الحقبة الجديدة» التي كانوا يعتقدون أن أفضال الوصي على العرش قد افتتحتها في ألمانيا، والتي كانوا يأملون في أن يكون لهم منها نصيب. لقد كانوا كما قال فريليغارث باحتقار يتحرقون رغبة في العفو عنهم ويتوقون إلى القيام بأي عمل وطني لو أن «صاحب السمو الملكي» يحقق نبوءة كنكل ويستل السيف ليقيم به الوحدة الألمانية.

قفز كنكل هذا إلى حلبة الصراع وجعل من نفسه الناطق باسم هذه النزعة. وفي الأول من كانون الثاني 1859، بدأ إصدار مجلة أسبوعية هي «هيرمان» (المحارب) التي كان اسمها العتيق يكشف فورا عن الأفكار التي تبشر بها. وعلى حد تعبير فريليغارث ثانية، أصبحت المجلة في الحال المجلة المفضلة لكل أولئك «الأبطال المرضى بالحنين إلى الوطن» الذين كانوا يرتعدون بنفاذ صبر وينتظرون تلقى السماح لهم بالاندفاع إلى «ليبرالية العنابر العسكرية» التي كانت تسود ألمانيا في ذلك الحين. ولكنها لهذا السبب بالذات أصبحت مجلة شعبية جدا، لدرجة أنها قتلت «داي نيو زايت» وهي صحيفة عمالية صغيرة كان يصدرها ادغار باور نيابة عن رابطة العمال التثقيفية. فقد كانت «داي نيو زايت» تعيش بصورة رئيسية على الديون التي يمنحها لها صاحب المطبعة التي تطبع فيها، فكان من الطبيعي أن يذهب ذلك عندما عرض كنكل على صاحب المطبعة عرضا مربحا أكثر وموثوقا أكثر هو أن يطبع «در هيرمان». غير أن حيلة كنكل القذرة لم تلق قبولا اجماعيا حتى بين اللاجئين البرجوازيين، حتى أن فوشر داعية التجارة الحرة شكل لجنة تمويلية لإنقاذ «داي نيو زايت». ونجحت هذه الجهود، فاستمرت «داي نيو زايت» في العيش تحت اسم جديد هو «داس فولك»، ورئيس تحريرها ايلارد بسكامب، الذي كان لاجئا من هس، وكان قد ساهم في داي نيو زايت من المقاطعات، ولكنه الآن تخلى عن وظيفته كمعلم ليكرس وقته كله للصحيفة.

بعد ذلك بقليل، اصطحبت ليبكنشت ايلارد لزيارة ماركس في محاولة لإقناعه بالمساهمة في الصحيفة. وكان ماركس قد قطع علاقاته مع رابطة العمال التثقيفية منذ نزاع عام 1850، حتى أنه عبر عن استيلائه عندما أعاد ليبكنشت علاقاته مع الرابطة، مع أن حجة ليبكنشت في أن حزب عمال دون عمال أمر متناقض في حد ذاته كان فيها الكثير من الصحة. غير أنه ليس من الصعب أن يفهم المرء أن ماركس لم ينجح في التغلب على ذكرياته غير السارة فورا، و«أذهل وفدا من الرابطة عندما قال لهم أنه وانغلز لم يتسلما تفويضا بتمثيل الحزب البروليتاري من أحد غير نفسيهما، وأن ما أكدته الكراهية العامة الشاملة التي خصتها بها أحزاب العالم القديمة».

لم يكن ماركس في البداية متعاطفا مع الطلب كثيرا، ولكنه أدرك أنه لا يمكن السماح لكنكل بأن يرتب الأمور على هواه، ولذا فقد وافق على أن يساعد ليبكنشت بسكامب في تحرير الصحيفة، على الرغم من أنه رفض أن يساهم في صحيفة صغيرة بنفسه، أو في الواقع في أي صحيفة حزبية لا يحررها هو وانغلز. غير أنه وعد مع ذلك بالمساعدة على توزيع الصحيفة، كما وعد بأن يضع المقالات المطبوعة في «نيويورك تريبيون» تحت تصرفها وأن يساعد محرريها بالاقتراحات والملاحظات الشفوية والمكتوبة. وكتب ماركس إلى انغلز يقول أنه يعتبر داس فولك «صحيفة حائط» مثل صحيفة «فوروارتس» في باريس ومثل «دويتشه بروسللر تزايتونغ»، ولكن قد يأتي الوقت الذي يصبح من المفيد فيه أن يجدا تحت تصرفهما صحيفة في لندن، كما أن بسكامب يستحق الدعم، لأنه في نهاية الأمر يعمل بدون مقابل.

وعندما بدأت «صحيفة الحائط» تضايق كنكل، كانت روح ماركس القتالية أكبر من أن تبقيه بعيدا عن الصراع، فرمى بثقله إلى جانبها بكل اندفاع. وصرف الكثير من الوقت والجهد كي ينقذها من الغرق، ولم يفعل ذلك بمساهماته التي لم تكن تتعدى حسب روايته بضع ملاحظات قصيرة، بل بجهوده لتزويد الصحيفة التي كانت تصدر في أربع صفحات من القطع الكبير، بوسائل عيش الكفاف على الأقل. فعبأ أعضاء حزبه وأنصاره الذين يستطيعون أن يوفروا بعض النقود، وخاصة انغلز الذي كان بالإضافة إلى ذلك يدعم الصحيفة بقلمه، إذ كتب فيها مقالات عسكرية فنية حول الحرب الايطالية ونقدا قيما لكتاب صديقه العلمي الذي صدر حديثا، على الرغم من أن المقالتين الثالثة والرابعة من هذه المراجعة لم تنشرا أبدا لأن الصحيفة لم تعد تستطيع الصدور في نهاية آب. وكان من إحدى النتائج العملية لجهود ماركس في الإبقاء على الصحيفة حية هي أن صاحب المطبعة التي كانت تطبعها اعتبره مسؤولا عن المبلغ الذي كانت مدينة له به. كان ذلك مجحفا بالطبع، ولكن «بالنظر إلى أن عصابة كينكل كلها تنتظر فرصة لإثارة فضيحة عامة، ولأن الكثيرين من المرتبطين بالمسألة لا يستطيعون مواجهة المحكمة» سوّى ماركس الدين بدفع مبلغ خمسة جنيهات.

وكان هناك أمر آخر أورثته إياه «داس فولك» وسبب له قدرا أكبر من التضحيات والمتاعب. ففي 1 نيسان 1859، أرسل كارل فوخت، الذي كان يعيش في جنيف، برنامجا للاشتراكية الديمقراطية الألمانية تجاه الحرب الايطالية إلى عدد من اللاجئين الألمان في لندن، ومن بينهم فريليغارث، طالبا في الوقت ذاته أن يتعاونوا معه على إصدار مجلة أسبوعية في سويسرا تتبنى روح البرنامج. كان فوخت ابن أخ الأخوين فولن، اللذين لعبا دورا بارزا في حركة «بورشن شافتن»، كما كان، مع روبرت بلوم، واحدا من قادة الجناح اليساري في جمعية فرانكفورت، وفي الواقع كان من آخر القرارات التي أصدرها البرلمان المحتضر تعيين فوخت واحدا من الأوصياء الخمسة على الرايخ. وعندما أرسل برنامجه السياسي، كان قد أصبح أستاذا للجيولوجيا، وكان يمثل جنيف في البرلمان السويسري إلى جانب فازي الذي قائد الراديكاليين في

جنيف. حافظ فوخت على ذكراه حية في ألمانيا بتحريضه النشيط لصالح مادية تقوم على العلم الطبيعي، ذلك الشكل المحدود من المادية الذي يقع في أفدح الأخطاء لحظة أن يغامر بالدخول إلى الحقل التاريخي. وكان ينشر آراءه بطريقة وصفها روغه عن حق بأنها «خام كطريقة طلاب المدارس»، كما كان يسعى إلى الاستيلاء على مخيلة الفلسطينيين بجمل ساخرة، ومن أشهر هذه الجمل قوله «علاقة الأفكار بالعقل هي ذاتها علاقة الصفراء بالكبد والبول بالكلية». لكن هذه الجمل كانت أكبر من أن يبتلعها حتى أصلب أنصار فوخت، لودفيغ بوخنر، فكف عن هذا النوع من «العمل التثقيفي».

اتصل فريليغارث بماركس للحصول على تقييمه للبرنامج، فتلقى الجواب اللاذع: «كلام فارغ»، ولكن ماركس عالج البرنامج بقدر أكبر من التفصيل في رسالة بعث بها إلى انغلز: «تتخلى ألمانيا عن ممتلكاتها غير الألمانية، لا تدعم ألمانيا النمسا. الطغيان الفرنسي مؤقت، أما الطغيان النمساوي فدائم. يسمح للطاغيتين أن يتقاتلا حتى يفنيا بعضهما (وبذلك تبدو نزعة إلى جانب بونابرت إلى حد ما). الحياد المسلح لألمانيا. لا يمكن التفكير بحركة ثورية في ألمانيا فورا، ويبدأ تطور ليبرالي-قومي معتدل في الوطن تحت رعاية الوصي على العرش، حتى أن فوخت يمكن أن يصبح مستشار البلاط». أصبح الشك الذي تبديه هذه الرسالة بأن فوخت يتعاطف مع بونابرت حقيقة مؤكدة، عندما كتب فوخت، رغم أنه لم يصدر مجلته الأسبوعية، عددا من الدراسات حول الوضع الأوربي تكشف بوضوح علاقته الفكرية بالشعارات البونابرتية. أرسل فوخت برنامجه كذلك إلى كارل بلايند، وهو لاجئ من بادن كان على علاقة ودية مع ماركس منذ السنوات الثورية ونشر مقالة في «نيو راينخه رفيو»، ولكنه لم يكن يوما من حلقة الأصدقاء والأنصار السياسيين المقربين إلى ماركس. وفي الواقع كان بلايند واحدا من أولئك الوطنيين المحليين المنتفخين زهواً والجمهوريين الذين يعتبرون بلدتهم الصغيرة بادن مركز الكون، والذين كثيرا ما كان موضع هزء وسخرية انغلز، الذي كان يجد أن آراء هؤلاء «السياسيين» تتمخض رغم كل عظمتها ورفعتها عن مجرد إعجاب بالغ بذواتهم. اتصل بلايند بماركس واخبره أن فوخت يتلقى الأموال من بونابرت وأنه يستطيع أن يقدم البراهين على هذه النشاطات الخؤون. وأضاف أن فوخت حاول رشوة صاحب مطبعة ألماني جنوبي كما قام بمحاولات رشوة في لندن. وأضاف أن مؤتمرا عقد في صيف عام 1858 في جنيف بين فازي وأصدقائه والأمير جيروم بونابرت لبحث الحرب الايطالية، وان المؤتمر قرر أنه يجب أن ينصَّب الدوق الأكبر الروسي قسطنطين ملكا على المجر.

ذكر ماركس هذه الأقوال لبسكامب عندما زاره هذا ليبحث أمر «داس فولك» مضيفا أن إحدى نقاط ضعف الألمان الجنوبيين هي أنهم يميلون إلى المبالغة. وبدون أن يحصل على إذن من ماركس، استخدم بسكامب بعض هذه المعلومات في مقالة ساخرة في «داس فولك» شجب فيها «الوصي على الرايخ» واصفا إياه بأنه «خائن للرايخ» وأرسل نسخة من الصحيفة التي ظهرت فيها المقالة إلى فوخت. فما كان من هذا الأخير إلا أن أجاب على الهجوم في صحيفة بايلر هاندلسكورير «محذرا» العمال من «زمرة من اللاجئين» عرفوا فيما مضى في المنفى السويسري بأوصاف مقذعة منها «المتشردون»، وقال أن هذه الزمرة تجمعت في لندن بقيادة رئيسها ماركس لتحيك المؤامرات بين العمال الألمان، تلك المؤامرات التي يعرف عنها البوليس الأوروبي منذ البداية والتي توقع العمال في المصيدة. لم يسمح ماركس لهذا «الهجوم القذر» بأن ينغض عليه كثيرا وقنع بأن يبدي احتقاره له في «داس فولك».

وفي بداية حزيران ذهب ماركس إلى مانشستر ليجمع نقودا من أصدقائه المتعاطفين معه لدعم «داس فولك». وخلال غيابه اكتشف ليبكنشت مسودة كتب يهاجم فوخت ويحتوي على المعلومات التي أدلى بها بلايند. وعلم أن بلايند نفسه هو الذي أودع مخطوطة الكتيب في المطبعة، وأنه صحح النسخة الطباعية الأولى بخط يده، وبعد ذلك ببضعة أيام تسلم ليبكنشت نسخة من الكتيب مطبوعة، فأرسلها إلى «الغماينه تزايتونغ» في اوغسبرغ، التي كان مراسلها منذ عدة سنوات. وأرسل مع الكتيب رسالة يخبر رئيس التحرير فيها أن الكتيب من موضع لاجئ ألماني شهير وأن الاتهامات الواردة فيه يمكن البرهنة عليها.

نشرت «الغماينه تزايتونغ» المواد، فما كان فوخت إلا أن قاضاها بتهمة القذف والتشهير، وعند ذلك طلبت الصحيفة من ليبكنشت أن يزودها بالبراهين الموعودة. فاتصل ليبكنشت بدوره ببلاند، ولكن هذا أعلن أن لا علاقة له بمتاعب «الغماينه تزايتونغ»، حتى أنه أنكر أن يكون مؤلف الكتيب، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأنه أدلى لماركس بالمعلومات الواردة فيه، وأنه هو نفسه سبق أن نشر بعضها في صحيفة «ذي فري برس». بالطبع لم يكن ماركس يتحمل أية مسؤولية تجاه الأمر، واعتقد ليبكنشت أن ماركس سيتنصل من كل علاقة بالموضوع، لكن ماركس رأى أن من واجبه أن يفعل كل شيء ممكن لتعرية فوخت خاصة وأن فوخت ورطه في المسألة دون أي مبرر. ولكن جهوده للحصول على اعتراف من بلايند بأنه مؤلف الكتاب لم تنجح بسبب عناد بلايند، فكان عليه أن يقنع ببيان مكتوب من صاحب المطبعة يفيد بأن المخطوطة الأصلية كانت بخط يد بلايند الذي يألفه تماما وأن الكتيب قد طبع في مطابعه. لكن هذا بالطبع لم يكن ليبرهن شيئا ضد فوخت.

وقبل أن تعرض القضية على المحكمة في اوغسبرغ، بدأت الاستعدادات لاحتفالات شيلر، التي كانت ستجري في 10 تشرين الثاني 1859 بمناسبة العيد المئوي للشاعر الكبير، فأدت إلى نزاع جديد في صفوف المنفيين في لندن. كان الألمان جميعا، على حد قول لاسال، يحتفلون بهذا اليوم في الوطن والخارج كدليل على «الوحدة الثقافية» للشعب الألماني «وكوعد مأمول بالبعث القومي». أعدت الاحتفالات في لندن أيضا وتقرر أن يعقد اجتماع كبير في كريستال بالاس تخصص عائداته لتأسيس المعهد التذكاري لشيلر بالإضافة إلى مكتبه ودورة من المحاضرات تبدأ سنويا في عيد ميلاد الشاعر. غير أن جناح كنكل نجح لسوء الحظ في السيطرة على الاستعدادات واستغلها بأبشع وأحقر طريقة لمصالحه الخاصة الضيقة فقام بدعوة أحد رسميي السفارة البروسية بلندن ليشرف الاحتفالات بحضوره، على الرغم من أن الرجل كان قد أحرز شهرة لا يحسد عليها أيام محاكمة الشيوعيين في كولون، وفي الوقت ذاته فعل هذا الجناح ما وسعه من جهد كي يبعد العناصر البروليتارية عن الاجتماع. وقام رجل يدعى بدزيش، كان يكتب باسم فيينا، ويلعب دور الوجه الأدبي لجماعة كنكل فأطنب لهذا الأخير قصائد المديح المثيرة للتقزز على صفحات «داي غارتنلوب»، شاتما في الوقت ذاته أعضاء رابطة العمال التثقيفية الذين كانوا ينوون الاشتراك في الاحتفالات.

في ظل هذه الظروف فوجئ ماركس وانغلز عندما وافق فريليغارث على حضور الاحتفالات وإلقاء قصيدة بعد أن يلقي كنكل افتتاح الخطاب الرئيسي. حذر ماركس صديقه من أن يشارك بأي شكل فيما وصفه بـ«تظاهرة كنكل»، فاعترف فريليغارث أن له شكوكه حول الأمر وأن الاحتفالات ربما كانت تستغل لدغدغة غرور كنكل الشخصي، ولكنه مع ذلك يعتقد أنه لا يستطيع كشاعر ألماني أن يتغيب عن الاحتفالات، وأنه حتى ولو كانت جماعة كنكل تحاول إساءة استخدام المسألة لأغراضها الخاصة، فإن ذلك ليس هدف الاجتماع. غير أن عددا من «الحوادث الغريبة» حدث خلال التحضيرات الأولية، مما جعل فريليغارث (رغم ميله الشديد لرؤية أفضل ما في الناس والأشياء من أفضل الزوايا الممكنة) يشعر أن ماركس يمكن أن يكون على حق، ومع ذلك صمم على الاستمرار لأنه اعتقد أنه يستطيع بحضوره أن يقف ضد «بعض النوايا» أكثر مما يستطيع ذلك بغيابه.

لم يوافق ماركس على ذلك، وذهب انغلز في معارضته له أبعد من ماركس، فعبر عن مشاعره بكلمات غاضبة حول «غرور فرليغارث الشعري وطريقته في إبراز نفسه، مقترنة بتملقه»، على الرغم من أن هذا القول كان فيه الكثير من التجني. وعندما حدثت احتفال شيلر في النهاية ثبت أن فيه أكثر من الاحتفالات المصطنعة التي اعتاد الجهلة الأدعياء الألمان إقامتها في ذكرى المفكرين والشعراء العظام، ووجد الاحتفال صدى له حتى في صفوف الجناح اليساري الأكثر تطرفا.

وعندما شكا ماركس فريليغارث للاسال، رد لاسال: «ربما كان من الأفضل له لو لم يحضر الاجتماع، ولكن على أية حال كانت القصيدة التي نظمها جيدة. بل أنها كانت أفضل ما ظهر في هذه الاحتفالات». وفي زيوريخ نظم هيرويغ قصيدة خاصة بالمناسبة، أما في باريس فقد ألقى شيلي الكلمة الرئيسية. وفي لندن شاركت رابطة العمال التثقيفية في اجتماع كريستال بالاس بعد أن أراحت ضميرها بإقامة احتفال تذكاري خاص لروبرت بلوم في اليوم السابق تحدث فيه ليبكنشت. وفي مانشستر نظم الاحتفالات شاعر شاب يدعى سيبل وهو يمت بصلة قرابة بعيدة إلى انغلز، ولم ير انغلز ما يثير معارضته في نشاطات هذا الرجل. كتب انغلز لماركس معلنا أن لا علاقة له بالمسألة وأن سيبل ينوي أن يلقي خطاب الافتتاح «النوع المعتاد من الخطابات بالطبع ولكنه مشرف تماما. كما أنه ينظم عرضا لمسرحية معسكر فالنشتاين. وقد شاهدت اثنين من التمارين، وأعتقد أنها ستنجح إذا استطاعوا استجماع قدر كاف من الجهد» وفيما بعد أصبح انغلز رئيسا لمعهد شيلر التذكاري الذي أنشئ في مانشستر خلال الاحتفالات هناك، وخصه فلهلم وولف بمبلغ لا بأس به من المال في وصيته.

بينما كان ذلك كله يجري ويتنامى قدر معين من التوتر بين ماركس وفريليغارث، انعقدت محكمة اوغسبرغ لتنظر في دعوى فوخت ضد «الغماينه تزايتونغ». فرفضت المحكمة الدعوى وحملت نفقاتها للمدعي، لكن الهزيمة المدعي القانونية كانت نصرا أخلاقيا له. إذ لم يستطع محررو وناشرو «الغماينه تزايتونغ» المدعى عليهم أن يقدموا أي دليل يدعم اتهامهم ضد فوخت، فقنعوا بدفاع وصفه ماركس وصفا ملطفا بأنه «رياء بغيض سياسيا». وفي الواقع، كان موقفهم يستحق أقسى الشجب، لا سياسيا فحسب بل وأخلاقيا كذلك، إذ كانت حجته الأساسية هي أن الشرف الشخصي لمنفي أمر غير ذي بال. فقد تساءل الدفاع: كيف يمكن لقضاة بافاريين أن يصدروا حكما لمصلحة رجل هاجم الحكومة البافارية بعنف واضطر إلى العيش في الخارج بسبب نشاطاته السياسية؟ وإذا أصدرت المحكمة حكما ضد المدعي عليهم، فإن كل العناصر الاشتراكية الديمقراطية ستهتز فرحا، تلك التي سعت في البداية إلى تحقيق أحلامها بالحرية قبل ذلك بأحد عشر عاما بقتل الجنرالات لاتور وغاغرن واورزوالد والأمير لشنوسفكي. وإذا ربح فوخت قضية فليس هناك ما يمنع من أن يظهر كلابكا وكسوث وويلسكي وماتزيني أمام المحكمة ليطالبوا بإصدار حكم ضد خصومهم السياسيين.

تأثر القضاة بهذا الدفاع، على الرغم من خبثه وحقارته، أو ربما بسبب هذا الخبث وتلك الحقارة. غير أن ضمائر القضاة لم تكن مطاطة بما فيه الكفاية لتسمح لهم أن يصدروا حكما لصالح متهمين فشلوا تماما في إثبات اتهاماتهم، ولكن هذه الضمائر لم تكن كذلك قوية كفاية كي تجعلهم يعدلون تجاه رجل تكرهه الحكومة البافارية والشعب البافاري. فما كان من المدعي العام إلا أن وجد حلا للمشكلة أمسك به القضاة بشوق، وحولوا القضية إلى محلفين منتحلين لذلك أعذارا شكلية. كان ذلك يعني الهزيمة المؤكدة الكاملة لفوخت لأن محاكمة كهذه لا تطلب أية أدلة لإثبات حقيقة الاتهامات ضده، ولأن المحلفين لا يطلب منهم تقديم أي أسباب لقرارهم.

لم يتابع فوخت التحدي اليائس، وهو لا يلام على ذلك. ولكن على أية حال لم يكن وضعه سيئا، ذلك أنه أصبح الآن يستطيع إدعاء شهادة مزدوجة: اتهم ظلما ولم يستطع متهموه إثبات اتهاماتهم ضده، وليس ذلك فحسب بل أن المحاكم رفضت أن تمنحه العدل. كما أن حادثة أو اثنتين رافقتا المحكمة جعلت انتصاره أعظم، فمثلا دهش الرأي العام عندما قُرئت في المحكمة رسالة بسكامب إلى «الغماينه تزايتونغ». فقد كان بسكامب المتهم الرئيسي لفوخت، ولكنه اعترف في رسالته بأنه لا يملك براهين على اتهاماته، وعمد بدلا من ذلك إلى تقديم عدة افتراضات غامضة، ثم انتهى إلى الطلب من «الغماينه تزايتونغ» أن تنظر في أمر تعيينه مراسلا لها في لندن بالإضافة إلى ليبكنشت، بالنظر إلى أن داس فولك ستتوقف عن الصدور. استمرت «الغماينه تزايتونغ»، حتى بعد المحاكمة في تهجماتها الغامضة على فوخت معلنة أن جماعته ذاتهم، ماركس وفريليغارث، قد شجبوه، والكل يعلم أن ماركس مفكر أعمق وألمع من فوخت كما أن فريلغارث يتوق عليه فيما يتعلق بالأخلاقية السياسية.

كان الدفاع قد تقدم من المحكمة بشهادة مكتوبة أدلى بها المحرر الصحفي كولب وأعلن فيها أن فريليغارث يساهم في «داس فولك» وأنه واحد ممن يتهمون فوخت. وكانت هذه الشهادة مبنية في الواقع عن سوء تفاهم نجم عن إحدى رسائل ليبكنشت التي لم يوضح نفسه فيها. وعندما وصل تقرير «الغماينه تزايتونغ» حول المحاكمة إلى لندن، أرسل فريليغارث فورا بيانا قصيرا يقول فيه أنه لم يكن ممن ساهموا في «داس فولك» أبدا وأن اسمه قد استخدم ضد فوخت دون علم أو إذن منه. ولما كان فوخت وفازي صديقين حميمين وكان عمل فريليغارث في البنك السويسري يعتمد على فازي، فسر هذا العمل من جانب فريليغارث تفسيرات مسيئة. لم تكن هذه التفسيرات بالطبع مبررة إلا إذا كان من واجب فريليغارث لأن يهاجم فوخت علنا، ولكن الأمر لم يكن كذلك. إذ لم يكن لفريليغارث أية علاقة بالمسألة، وكان من حقه أن يحتج ضد استخدام كولب لاسمه ملجأ له عندما بدأت الأمور تسوء. غير أن الصيغة الحادة اللاذعة التي صاغ بها فريليغارث بيانه فتحت الباب أمام

احتمال تفسيره بأن تنكر لماركس أيضا، ووجد ماركس أن من الغريب أن لا يحتوي البيان على أدنى إشارة يمكن أن تصحح الانطباع بأنه قصد بالبيان أن يكون انشقاقا شخصيا عن ماركس وتنصلا علنيا من الحزب. ولربما كانت صياغة بيان فريليغارث تعود إلى ضيق شعر به لأن ماركس أراد أن يمنعه باسم الحزب من نشر قصيدة لا ضرر فيها تمتدح شيلر، بينما كان يتوقع منه هو أن يقف إلى جانب ماركس عندما يبدأ هذا الأخير شجارا لا ضرورة له.

ساءت الأمور أكثر عندما نشر بلايند تصريحا في «الغماينه تزايتونغ» يشجب فيه سياسة فوخت بلا تحفظ، ويعلن في الوقت ذاته أن الادعاء بأنه هو الذي كتب الكتيب ضد فوخت كذبة متعمدة.

تفاقمت الخلافات بين ماركس وفريليغارث نتيجة حادث مشؤوم، فقد نشر بيتا، داعية كنكل الأدبي، مقالة في «داي غارتنلو» يمتدح فيها الشاعر فريليغارث ويرفعه إلى السماء ينتهي بهجوم مقذع على ماركس، إذ وصفه بأنه حقود ينشر الكراهية السامة، وأنه سلب فريليغارث قدرته الغنائية وحريته وشخصيته، ومنذ أن وقع الشاعر في شبكة ماركس لم يغن إلا قليلا.

غير أن الأمور بدت وكأنها سويت بين ماركس وفريليغارث بعد رسالة أو اثنتين حادتين متبادلتين. كما بدا أنها دفنت مع عام 1859 إلى أن انسحبت على العام الجديد بسبب فوخت الذي فعل كل ما بوسعه ليثبت صحة المثل القائل: عندما يشعر الحمار بالاستقرار، فإنه يغامر بالمشي على جليد زلق.

4-فصول إضافية

في رأس سنة عام 1860 نشر فوخت كتابا بعنوان «قضيتي ضد الغماينه تزايتونغ». احتوى الكتاب تقريرا عن محاضر جلسات المحكمة ونسخا عن كل الشهادات المكتوبة والوثائق التي تتعلق بالقضية، وقد أوردت هذه الوثائق كاملة وبدقة تامة.

عدا ذلك احتوى الكتاب على تكرار مفصل للهراء القديم عن «المتشردين»، الذي كان فوخت قد نشره سابقا في «بايلرهاندلسكورييير». فوصف ماركس بأنه قائد عصابة ممن يمارسون الابتزاز، ويعيشون على «تهديد أناس في الوطن» مضطرين لشراء سكوت العصابة. وقال «لقد أرسلت مئات الرسائل إلى أناس في الوطن تهددهم بشجب اشتراكهم في هذا النشاط الثوري أو ذاك، إلا إذا أرسل مبلغ معين من المال إلى عنوان محدد بتاريخ محدد». كانت هذه أسوأ فرية افتراها كتاب فوخت على ماركس، ولكنها لم تكن الوحيدة، على الرغم من أن رواية فوخت كانت مزورة تماما، إلا أنها كانت ممزوجة بأنواع مختلفة من أنصاف الحقائق المتعلقة بالحياة في المنفى، لدرجة أن إدراك كذبها فورا كان يتطلب معرفة دقيقة بالتفاصيل. وبالطبع كان الجهلة الأدعياء الألمان آخر من يمكن أن يملك معرفة مفصلة كهذه.

لذلك أثار الكتاب أصداء واسعة في ألمانيا ورحبت به الصحافة الليبرالية بحماس، فقامت «ناشونال تزايتونغ» بنشر مقالتين رئيسيتين طويلتين على أساس أقوال فوخت. وعندما وصلت نسخة من الصحيفة إلى لندن نحو نهاية كانون الثاني، أحدثت هياجا بالغا في بيت ماركس، وتأثرت السيدة ماركس على وجه الخصوص تأثرا عميقا، وحين لم يستطع ماركس الحصول على نسخة من الكتاب في لندن، سارع إلى سؤال فريليغارث عما إذا كان قد تلقى نسخة منه من «صديقه» فوخت. شعر فريليغارث بالاهانة البالغة لذلك وأجاب أن فوخت ليس صديقه وأنه لم يتسلم نسخة من الكتاب.

وعلى الغرم من أن ماركس كان على الدوام لا يعير كبير اهتمام للإجابة على التهجمات البذيئة مهما بلغت بها الخسة، إلا أنه أدرك هذه المرة أن الرد ضروري بصورة مطلقة، فقرر حتى قبل أن يصل كتاب فوخت إلى لندن أن يقاضي ناشونال تزايتونغ بتهمة القدح والتشهير. فقد اتهمته الصحيفة بعدد من الأعمال الإجرامية المشينة أمام جمهور يجعله تحامله السياسي ميالا إلى تصديق أي شيء ضده مهما بدا بشعا، مع أن هذا الجمهور لا يملك أية حقائق يمكن أن يقيم بها سلوكه الشخصي، وذلك بسبب غيابه عن ألمانيا طيلة أحد عشر عاما. شعر ماركس أن عليه بغض النظر عن الاعتبارات السياسية أن يقاضي «ناشونال تزايتونغ» من أجل زوجته وأولاده، ولكنه احتفظ لنفسه بمتعة إعداد رد أدبي على فوخت. مضى ماركس، بادئ ذي بدء إلى تسوية الأمر مع بلايند، مفترضا أنه يملك أدلة ضد فوخت ولكنه غير راغب في إبرازها، بسبب الاعتبارات الشخصية التي يدين بها ديمقراطي مبتذل لآخر. يبدو أن ماركس كان على خطأ، ولربما اقترب انغلز من الحقيقة أكثر عندما قال أن بلايند اختلق تفاصيل محاولات الرشوة التي اتهم بها فوخت كي يجعل من نفسه شخصا مهما، ولكنه عندما تعقدت المسألة قرر أن ينكر كل شيء على الإطلاق، مما أوقعه في التناقض أكثر فأكثر. وفي 4 شباط نشر ماركس بيانا بالانجليزية في «ذي فري برس» قال فيه أن كارل بلايند كاذب حين أنكر نسبة الكتيب إليه، مضيفا أنه إذا كان يشعر أن في هذا البيان إلحاق للضرر به، فإن عليه أن يتقدم بالأمر إلى المحاكم الانجليزية. ولكن بلايند لم يكن أحمق فيقبل هذا التحدي، وبدلا من ذلك حاول أن يدافع عن نفسه بنشر بيان طويل في «الغماينه تزايتونغ» يشجب فيه فوخت بعنف ويعزو إليه الرشوة مرة ثانية، وينكر في الوقت نفسه أنه قد كتب الكتيب موضع البحث.

لم يقنع ماركس بهذا، بل نجح في الحصول أمام قاض، على شهادة من أحد عمال المطبعة بأنه قد أعد أحرف الكتيب لإعادة طبعها في «داس فولك» وأنه تعرف على خط يد بلايند في التصحيحات التي كانت واضحة على النسخة التجريبية. وكان هذا العامل قد تقدم بشهادة في محكمة اوغسبرغ يبرأ فيها بلايند من كتابة الكتيب، ولكنه في شهادته هذه أقر بأن شهادته الأولى إلى محكمة اوغسبرغ كانت ملفقة، وأن بلايند وصاحب المطبعة قد حرضاه عليها، إذ وعده بلايند بأن يقدم له خدمات في المستقبل ووعده صاحب المطبعة أن يعطيه نقودا. بهذه الشهادة أصبح بلايند يقع تحت طائلة القانون الجنائي الانجليزي، فعرض ارنست جونز أن يعمل على إلقاء القبض عليه على أساس هذه الشهادة، ولكنه

أوضح أنه ما أن تقدم هذه المعلومات إلى القضاء فإن من المستحيل العودة عن القضية، وأنه إذا جرت بعد ذلك أية محاولة لتسوية المسألة فإنه هو (جونز) كمحام سيرتكب بذلك جنحة يعاقب عليها.

لم يكن ماركس يريد أن تصل المسألة إلى هذا الحد حرصا على عائلة بلايند، فأرسل نسخة من الشهادة إلى لوي بلانك الذي كان صديق بلايند، وأرسل معها رسالة يشرح فيها أنه سيأسف جدا من أجل عائلة بلايند لوضع هذه المعلومات أما القضاء، مع أن بلايند يستحق ذلك. فعلت الرسالة فعلها، ففي 15 شباط نشرت «الديلي تلغراف»، التي كانت أثناء ذلك قد كررت افتراءات «ناشونال تزايتونغ» الخسيسة، ملاحظة تقول أن شايبل، وهو أحد أصدقاء عائلة بلايند، وليس بلايند نفسه هو الذي كتب الكتيب. كانت المناورة واضحة بما فيه الكفاية، ولكن ماركس فضل أن يدعها تمر لأنه وصل إلى ما يريد وتخلص من كل مسؤولية تجاه الكتيب.

قبل أن يشن ماركس هجومه المعاكس ضد فوخت، حاول أن يتصالح مع فرليغارث الذي كان قد أرسل له نسخة من بيانه ضد بلايند ونسخة من شهادة عامل المطبعة، ولكنه لم يتلق منه ردا. ورغم هذا الصدود قام ماركس بمحاولة أخرى لإقناع فريليغارث بأهمية قضية فوخت من أجل تبرئة الحزب تاريخيا ومن أجل موقفه فيما بعد في ألمانيا. وحاول كل ما في وسعه لإزالة كل جفاء يمكن أن يكون فريليغارث قد حمله له معلنا «إذا كنت قد أسأت إليك بأي شكل فإنني سأكون مسرورا لإصلاحه، فما من شيء إنساني غريب عليّ» وقال أنه يستطيع أن يفهم أن المسألة كلها لا بد أنها كانت مزعجة جدا لفريليغارث في وضعه الراهن، ولكنه يأمل أن يدرك فريليغارث على الأقل أنه لم يكن بالإمكان الإبقاء على اسمه خارج المسألة تماما. «إننا نحن الاثنين معا ندرك جيدا أن كلا منا بطريقته الخاصة وبدوافع غير أنانية على الإطلاق أخضع كل مصالحه الخاصة ورفع راية طبقة العمال والبائسين عاليا فوق رؤوس الجهلة الأدعياء. ولا شك أننا سنرتكب جريمة ضد التاريخ إذا ما افترقنا بسبب مسائل تافهة لم يكن سببها في أي حال غير سوء تفاهم». واختتم ماركس الرسالة بالتعبير عن أجر مشاعر الود تجاه فريليغارث.

صافح فريليغارث يد الصداقة التي امتدت إليه ولكن ليس بالحرارة التي مدها بها ماركس «الذي لا قلب له»، فقد أعلن أنه سيظل في المستقبل كما في الماضي مخلصا لطبقة العمال والتعساء وأنه سيحتفظ بسرور بعلاقاته القديمة مع ماركس كصديق ورفيق، ولكنه أضاف «لم تكن لي علاقة بالحزب منذ سبع سنوات (منذ حل العصبة الشيوعية). فلم أحضر اجتماعاته، واتخذت قراراته وإجراءاته دون مشاركتي. ولذا فإن ارتباطاتي بالحزب انقطعت منذ أمد بعيد. لم يكن لدى أي منا شك في ذلك أبدا فقد كان بمثابة اتفاق صامت بيننا. وأنا لا أستطيع إلا أن أقول أنني لا أزال أشعر أنني على حق، فطبيعتي كطبيعة أي شاعر تحتاج إلى الحرية. والحزب قفص أيضا، فمن الأسهل أن يغني المرء خارج الحزب، حتى من أجل الحزب. لقد كنت شاعرا للبروليتاريا والثورة قبل أن أصبح عضوا في العصبة الشيوعية وفي هيئة تحرير «نيو راينيخه تزايتونغ». وأنا أريد في المستقبل أن أظل مستقلا وأن أنتمي لنفسي وحدها وأن أقوم بأعمالي كما أرى مناسبا». عبّر فرليغارث في هذه الرسالة عن امتعاضه القديم من روتين التحريض السياسي مرة أخرى، حتى أن هذا الامتعاض جعله يرى أشياء لم يكن لها وجود في الواقع. فالاجتماعات الحزبية التي لم يحضرها أبدا، والقرارات والإجراءات الحزبية التي اتخذت دون مشاركته لم تحدث على الإطلاق.

أوضح ماركس ذلك في رده، وبعد ذلك، فعل ما في وسعه ثانية للقضاء على كل سوء تفاهم، وأشار إلى قول شهير لفريليغارث: «أن يكون الجهلة الأدعياء أعداء لنا أفضل على الدوام من أن يكونوا في صفوفنا. لقد شرحت موقفي بكل صراحة، وأنني آمل أن تكون متفقا معه بشكل عام. كذلك حاولت أن أزيل سوء الفهم لإشارتي إلى الحزب، فأنا عندما أشير إليه لا أعني منظمة ماتت منذ ثماني سنوات ولا هيئة تحرير تبعثرت قبل اثني عشر عاما، عندما أشير إلى الحزب، فإنني أفعل ذلك بمعنى تاريخي». كانت كلمات ماركس مهدئة ودقيقة في وقت واحد، ذلك أن الرجلين كانا بمعنى تاريخي ينتميان لبعضهما رغم كل خلافاتهما. ولقد كان موقف ماركس مشرفا له، فقد كان من حقه، بالنظر إلى التهجمات القذرة التي شنها عليه فوخت، أن يطلب من فريليغارث أن يقضي علانية على كل ما قد يبدو وكأنه تضامن مع المفتري. غير أن فريليغارث اكتفى بتجديد علاقاتهما الودية واتخذ موقفا متحفظا سهَّله له ماركس بتجنبه أي ذكر لفريلغارث في المسألة.

انتهى نقاش ماركس مع لاسال بصدد قضية فوخت نهاية مختلفة. كان ماركس قد كتب إلى لاسال في تشرين الثاني من السنة المنصرمة حول خلافهما حول المسألة الايطالية، مستخدما في رسالته لهجة «فظة، على حد تعبيره هو. لم يجب لاسال على الرسالة، وافترض ماركس أنها جرحت مشاعره. ولكنه عندما هاجمته «ناشيونال تزايتونغ» شعر بالحاجة إلى إقامة اتصالات مع برلين، فطلب من انغلز أن يسوي الأمر مع لاسال، الذي كان على أية حال «رجلا من الدرجة الأولى» بالمقارنة مع الآخرين. وكانت هذه إشارة غير مباشرة إلى محام بروسي يدعى فيشل قدم نفسه لماركس على أنه من أتباع اوركوهارت، وعرض خدماته فيما يتعلق بالصحافة الألمانية. فأرسل ماركس معه تحياته إلى لاسال، لكن لاسال رفض أن يتعامل إطلاقا مع «الرجل التافه الجاهل»، الذي ينتمي بغض النظر عن الطريقة التي تعرف بها في لندن إلى الجوقة الأدبية المحيطة بالدوق كوبرغ في ألمانيا، ذلك الرجل الذي يستحق بالفعل سمعته السيئة.

وقبل أن يمتثل انغلز لرغبة ماركس، كتب لاسال نفسه شارحا أن صمته الطويل كان لضيق الوقت، ومطالبا بشدة أن يفعل شيء ما بخصوص «مسألة فوخت المؤسفة»، التي وصفها بأنها أحدثت أصداء واسعة في ألمانيا. وقال أن أولئك الذين يعرفون ماركس لم تخدعهم رواية فوخت بالطبع، لكن أولئك الذين لا يعرفونه يمكن أن يتأثروا بهذه الرواية لأنها مدعمة بأنصاف حقائق يمكن لمن لا علاقة حميمة له بالأمر أن يظنها حقائق كاملة. وأضاف أنه ليس على استعداد لتبرئة ماركس من كل مسؤولية تجاه المسألة، لأنه قبل اتهامات خطيرة ضد فوخت دون أي برهان غير كلام كاذب تعيس مثل بلايند. وإذا كان ماركس لا يملك براهين ثابتة على الاتهامات لفوخت بأنه يتعاطى الرشوة، فإن عليه أن يبدأ دفاعه عن نفسه بسحب هذه الاتهامات. ولاسال يعرف بالطبع أن إحقاق الحق تجاه رجل اقتراف افتراءات بشعة لا أساس لهان مثلما فعل فوخت، أمر يحتاج إلى الكثير من الانضباط الذاتي، ولكن يتوجب على ماركس مع ذلك أن يعطي برهانا على صدق نواياه، إلا إذا أراد لدفاعه عن نفسه أن يكون ضعيفا منذ البداية. وبعد ذلك عبر لاسال عن استيائه بشدة من نشاطات ليبكنشت لحساب صحيفة رجعية مثل «الغماينه تزايتونغ» لأنها تسبب الدهشة في صفوف الرأي العام والغضب تجاه الحزب.

عندما تسلم ماركس الرسالة، لم يكن قد اطلع بعد على كتاب فوخت، فلم يكن بالتالي قادرا على إدراك الوضع بكافة أبعاده. ولكن ليس من الصعب أن يدرك المرء أن اقتراح لاسال بأن عليه أن يبدأ دفاعه عن نفسه بتبرئة فوخت لم يرضه، خاصة وأنه كان يملك براهين على دسائس فوخت البونابرتية أكثر ثقة من كلام بلايند. كذلك لم يستطع ماركس أن يوافق على استياء لاسال من علاقة ليبكنشت مع «الغماينه تزايتونغ». ولم يكن ماركس بالطبع صديقا لهذه الصحيفة، كما أنه هاجمها بشدة أيام كان يحرر «راينيخه تزايتونغ»، ولكنه كان يعتقد أنها برغم كونها مضادة للثورة في كثير من المجالات، إلا أنها على الأقل تفتح صفحاتها لوجهات نظر مختلفة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وهي لذلك تتمتع في هذا المجال بمنزلة رفيعة متميزة في الصحافة الألمانية.

ولذا أجاب ماركس بسخرية نوعا من أن «الغماينه تزايتونغ» في جودة «فولكس تزايتونغ». وأنه سيقاضي «ناشيونال تزايتونغ» بتهمة القدح والتشهير وسيكتب ردا على فوخت، ولكنه سيوضح في المقدمة أنه لا يعير للرأي العام الألماني، أي اهتمام. فما كان من لاسال إلا أن حمل بدوره كلمات ماركس الغاضبة أكثر مما تحتمل، واحتج على ذكر صحيفة ديمقراطية مثل «فولكس تزايتونغ» على قدم المساواة مع أكثر صحف ألمانيا سوء سمعة وقلة حياء». وحذر ماركس من أن يبدأ برفع قضيته ضد «ناشيونال تزايتونغ»، أو على الأقل أن لا يبدأها قبل أن ينشر رده على فوخت. وختم لاسال رسالته معبرا عن أمله في أن لا يشعر ماركس بالضيق لرسالته ومؤكدا له «صداقته الخالصة».

كان أمل لاسال في غير محله. ففي رسالة إلى انغلز، استخدم ماركس أقسى التعابير ضد رسالة لاسال، حتى أنه استعاد «التهم الرسمية» التي حملها ليفي إلى لندن، مع أنه لم يفعل ذلك إلا ليبين أنه لا يكن للاسال أي شك به، وأنه رغم هذه «الاتهامات الرسمية» لم يغير رأيه في لاسال. غير أن لاسال لم يستطع بالنظر إلى ضخامة هذه الاتهامات أن يرى لماركس أي فضل في تجاهلها، وانتقم لنفسه بكتابة وصف جميل ومقنع للتضحيات التي قدمها لعمال الراينلاند والخدمات التي أداها لهم في أسوأ أيام الرجعية.

لم يعامل ماركس لاسال كما عامل فريليغارث، وكان رد لاسال مختلفا. فقد قد لماركس أفضل نصيحة يستطيع تقديمها، ولم يسمح لرغبته في مساعدة ماركس بأن تتأثر بتجاهل ماركس لنصيحته.

5-أمور شخصية وعائلية

لم يمض زمن طويل حتى ثبتت صحة تحذير لاسال من اللجوء إلى المحاكم البروسية. فقد أناط ماركس بأحد المحامين مهمة رفع دعوى على فوخت بتهمة القدح والذم، ولكنه صادف من النجاح أقل مما صادف فوخت الذي نجح على الأقل في حمل المحكمة على سماع دعواه. إذ رفضت المحكمة، في حالة ماركس، سماع الدعوى على أساس أن الأقوال الموصوفة بأنها قدح وذم لم تصدر عن «ناشيونال تزايتونغ» التي لم تفعل شيئا سوى «نقل أقوال أشخاص آخرين». لكن محكمة الاستئناف رفضت هذا الهراء لتتقدم بقدر أكبر من الهراء هو أن وصف ماركس بأنه «الرأس المفكر» لعصابة من مبتزي الأموال لا يشكل إهانة له.

كان كل ما بقي أمام ماركس بعد ذلك هو أن يكتب رده على فوخت واستغرق ذلك منه قرابة السنة. فقد كان عليه، كي يستطيع دحض افتراءات فوخت، أن يقوم باتصالات مضنية على امتداد بقاع الأرض. وفي النهاية انتهى الرد في 17 تشرين الثاني عام 1860، ووضع ماركس له عنوانا بسيطا هو «السيد فوخت». فكان هذا الرد هو الكتاب الوحيد من بين كتب ماركس الذي لم يعد طبعه، فهو طويل يبلغ 192 صفحة مطبوعة بكثافة، وهو ثانيا يحتاج إلى تعليقات كثيرة كي يصبح مفهوما للقارئ المعاصر. هذا بالإضافة إلى أنه لا يستأهل إعادة طباعته، لأن معظم المادة معظم المادة التي يعالجها ماركس فيه فرضت عليه فرضا وهي تتعلق بأمور أتي عليها النسيان منذ ذاك. ولاشك أن المرء يشعر بالامتعاض حين يقرأ الكتاب فيجد ماركس يدافع عن نفسه ضد اتهامات مشينة لم تمسه بسوء ولا حتى من بعيد. ولكن من جهة أخرى يشكل الكتاب مادة شهية لمتذوق الأدب.

كانت السيدة ماركس متعلقة بزوجها قلبا وروحا، وقد تأثرت «بالغيظ الرهيب الذي سببه هجوم فوخت المشين» أكثر مما تأثر ماركس. فأرقها ذلك ليالي طويلة، وعلى الرغم من أنها احتفظت بشجاعتها وكتبت المخطوطة الضخمة بخط يدها لتصبح جاهزة للطبع، إلا أنها لم تكد تنهي ذلك حتى انهارت. استدعى الطبيب وشخص المرض بأنه جدري وأمر بنقل الأطفال من البيت حالا.

تبعت ذلك أيام رهيبة. فاعتنى ليبكنشت بالأطفال، بينما اعتنى ماركس وخادمة العائلة المخلصة لينشن ديموث بالسيدة ماركس، التي كانت تعاني من ألم ممض وارق وقلق على زوجها، الذي لم يفارقها لحظة، كما عانت من افتقاد يكاد يكون كاملا لقواها الجسدية، رغم أنها ظلت محتفظة بوعيها طيلة الوقت. وبعد ذلك بأسبوع شفيت من مرضها، بفضل كونها قد تلقت طعما ضد الجدري مرتين من قبل.

لم تكد السيدة ماركس تشفى حتى وقع ماركس مريضا بفعل القلق المتراكم والهموم التي عانى منها طويلا. فقد اتخذت آلام الكبد المزمنة التي كان يشكو منها شكلا حادا، وأعلن الطبيب أن السبب يعود إلى التوتر المستمر المضني الذي عاناه. ولم يكن كتاب «السيد فوخت» قد عاد بقرش واحد، وفي الوقت ذاته انقصت «نيويورك تريبيون» راتبه بمقدار النصف، فعاد الدائنون ليحاصروا البيت. فقرر أن يعمد بعد شفائه إلى «الذهاب إلى هولندا، أرض أجداده، وأرض التبغ والجبنة» ليرى ما إذا كان يستطيع إقناع عمه بإعطائه بعض المال، كما قالت السيدة ماركس في رسالة بعثت بها إلى السيدة وايدماير.

كانت هذه الرسالة تحمل تاريخ 11 آذار 1861، وتبرهن روح الفكاهة التي تتخللها برهانا ناصعا على «الحيوية الطبيعية» التي كانت تتمتع بها السيدة ماركس بطريقتها الخاصة وبقدر لا يقل عن زوجها. بعد سنوات طويلة من الصمت كتبت عائلة وايدماير، التي كانت قد لاقت في

المنفى الأمريكي نصيبها من متاعب هذا العالم، مرة ثانية. فردت السيدة ماركس فورا، فاتحة قلبها «للرفيق الشجاع المخلص، والمقاتل المقاسي»، وقالت أن ما يمنحها شجاعة الصمود والاستمرار رغم كل التعاسة والبؤس هو حبها وزوجها لأطفالهما الذين يمثلون «النقطة المضيئة الوحيدة في وجودنا ونور حياتنا». فالصغيرة بيني التي تبلغ من العمر سبع سنوات تشبه والدها «بشعرها الأسود الكث اللامع وعينيها اللامعتين الرقيقتين السوداوين وبشرتها الداكنة». أما لورا البالغة من العمر خمسة عشر عاما فهي تشبه والدتها أكثر «بشعرها المجعد المتماوج العسلي اللون وعينيها الخضراوين المتأججتين. وهما تملكان بشرة جميلة حقا، كما أنهما في الوقت ذاته ليستا مغرورتين، مما يبعث في الدهشة سرا، خاصة وأن هذا لم يكن حال والدتهما عندما كان لها من العمر ما لهما وكانت لا تزال تلبس السراويل والتنانير القصيرة».

ومع الفتاتين الكبيرتين كانت مبعث سرور عظيم لوالديهما، إلا أن الابنة الصغرى اليانور كانت «معبودة البيت كله». «ولدت الطفلة عندما توفي ولدنا الصغير المسكين إدغار، فانتقل كل الحب والحنان الذي كنا نكنه له إلى شقيقته الصغرى، فصارت الأختان الكبيرتان ترعيانها باهتمام يكاد يكون أموميا. وعلى كل حال من الصعب أن يجد المرء طفلا أحلى، فهي جميلة جمال صورة ولها مزاج رائق رائع. إنها على الأخص تهذر بشكل رائع. وقد تعلمت ذلك من الإخوة غريم، الذين لا تفارقهم ليلا نهارا. إننا جميعا نقرأ لها قصص الساحرات حتى تخور قوانا، والويل لنا أن قفزنا عن سطر واحد أو اثنين. وبفضل هذه القصص تعلمت الألمانية، وهي تتكلمها بدقة وبشكل صحيح، وبالطبع تعلمت الانجليزية كذلك. إنها المفضلة لدى كارل، وضحكها وحديثها المرح يذهبان بالكثير من همومه». ثم تنتقل السيدة ماركس إلى امتداح خادمة العائلة وصديقتها الوفية لينشن: «اسألي زوجك عنها، فسيقول لك أي كنز هي. لقد عاشت معنا منذ ستة عشر عاما، وتحملت بشجاعة كل عواصف حياتنا». وتنتهي الرسالة الساحرة بوصف أصدقاء كارل، وتعلن السيدة ماركس بطريقتها الأنثوية أولئك الأصدقاء الذين ثبت ضعف إخلاصهم إلى حد ما كان ليحتمله حتى ماركس نفسه. فهي تقول «أنني أكره الإجراءات المجزوءة»، مفسرة بذلك لماذا قطعت كل علاقاتها بعائلة فريليغارث.

أثناء ذلك، صادفت رحلة ماركس القصيرة إلى هولندا نجحا لا بأس به، وبعد أن زار عمه فيليبس ذهب إلى برلين ليرى ما إذا كان بالإمكان إنشاء صحيفة للحزب هناك، وكان ذلك اقتراحا كرره لاسال باستمرار. كان الافتقار إلى صحيفة كهذه قد جعل نفسه محسوسا خاصة خلال الأزمة. وبفضل العفو الذي أعلنه الملك ويليام في كانون الثاني 1861 عند اعتلائه العرش، أصبح من الممكن تعويض هذا النقص. لقد كان العفو تعيسا بالفعل ومليئا بالمصائد والتحفظات، ولكنه على أية حال سمح لمن كانوا يوما محرري «نيو راينيخه تزايتونغ» بالعودة إلى ألمانيا.

استقبل لاسال ماركس في برلين استقبالا وديا خالصا، ولكن «المدينة» ظلت غير «متعاطفة معه». إذ لم يكن فيها أي نشاط سياسي على الإطلاق، بل مجرد مشادات مع الشرطة ونزاع بين العسكريين والمدنيين: «الجو في برلين متغطرس وتافه. ومجالس النواب تعامل باحتقار بالغ». لقد وجد ماركس أن مجلس النواب البروسي، حتى ولو قورن بمجالس 1848 التي لم يكن التسوويون فيها جبابرة على أية حال، لا يعدو كونه «مزيجا من البيروقراطية وصفوف التلاميذ». والأشخاص الوحيدون الذين يمكن اعتبارهم نصف شرفاء في جمع الأقزام هذا هم فالديك من جهة وفاغنر والدون كيشوت فون بلاكنبرغ من جهة أخرى. غير أنه لمس ميلا نحو الاستنارة، وضيقا واضحا تجاه الصحافة البرجوازية لدى قطاع واسع من الجمهور، والناس من جميع الطبقات يعتبرون أن الكارثة أمر لا بد منه. أما في الانتخابات القادمة التي ستجري في الخريف، فمن المؤكد أن ينتخب التسوويون السابقون الذين يعتبرهم الملك جمهوريين حمراً، وحينئذ يمكن أن يثور الشقاق حول الموازنة العسكرية. ولذا اعتبر ماركس رغبة لاسال في إنشاء صحيفة أمرا يستحق البحث، على الأقل من حيث المبدأ.

غير أنه لم يكن على اتفاق مع لاسال حول التفاصيل. فقد اقترح لاسال أن يتولى تحرير الصحيفة ثلاثي مكون من ماركس وانغلز ومنه، بشرط أن يكون لماركس وانغلز صوت واحد حول المسائل السياسية، وإلا فإنه سيجد نفسه في الأقلية كل مرة. كان لا بد لهذا الاقتراح من أن يعني إثارة المتاعب منذ البداية، ولربما كان لاسال قد أشار إليه عفواً خلال حديثه. ولكن ذلك لم يكن أمرا هاما إذ لم يكن ماركس ميالا على أية حال إلى إعطاء لاسال أي قول فيما يتعلق بالصحيفة على الإطلاق. فقد كتب إلى انغلز يقول أن لاسال قد أصابه الغرور بسبب الشهرة التي أحرزها في بعض الأوساط المتعلمة بفضل كتابه «هرقليط»، وفي بعض الأوساط الطفيلية بفضل مائدته المضيافة ونبيذه الجيد، ولذا فإنه لا يدرك أن سمعته ليست جيدة في أوساط الرأي العام: «ثم هناك إصراره الدوغماتي على أنه محق دائما، وارتباطه الذي لا ينفك، بالمفهوم التأملي، (حتى أن يحلم بنظام هيغلي جديد مرفوع إلى الدرجة الثانية وسيكتب عن ذلك بنفسه)، والعدوى التي أصابته بالليبرالية الفرنسية القديمة، وأسلوبه المتفاخر في الكتابة، وفرضه لذاته وافتقاره إلى التصرف السليم الخ. إنه يستطيع أن يكون مفيدا كواحد من المحررين، ولكن فقط في ظل انضباط حازم، أما فيما عدا ذلك فيسبب الكثير من الضرر». كان هذا هو التقرير الذي أرسله ماركس إلى انغلز عن مفاوضاته مع لاسال، وأضاف أنه تجنب جرح مشاعر مضيفه، فأجل اتخاذ قرار إلى أن يبحث المسألة مع انغلز وفيلهلم وولف. كانت الشكوك ذاتها تساور انغلز، فعارض هو أيضا مقترحات لاسال.

على أية حال، انتهى المشروع قصرا في الهواء، كما تنبأ لاسال. فقد كان من خبث العفو البروسي، انه سمح للمنفيين منذ السنوات الثورية بالعودة إلى بيوتهم في ظل ظروف نصف محتملة، ولكنه لم يعد إليهم حقوقهم المدنية وجنسيتهم، التي كانوا قد خسروها حسب القانون البروسي الذي يقضي بأن كل من يقضي في الخارج مدة تزيد على عشر سنوات يفقد جنسيته. ومن هنا كان الذين عادوا في ظل ظروف كهذه معرضين لإلقاء القبض عليهم في أية لحظة تسول فيها للبوليس نفسه أن يفعل. وكانت حالة ماركس أسوأ من ذلك، لأنه كان قد تحلى قبل الثورة بسنوات عن جنسيته البروسية طواعية واختيارا. صحيح أنه فعل ذلك تحت ضغط دسائس البوليس، ولكن هذا لم يكن ليغير من الأمر شيئا. لعب لاسال دور ممثل ماركس في هذه القضية، وشق عنان السماء مطالبا بإعادة الجنسية إلى ماركس. فراجع باستمرار ونشاط رئيس شرطة برلين ووزير الداخلية الذي كان واحدا من أبرز دعاة «العهد الجديد»، ولكن عبثا. فقد أعلن رئيس الشرطة أن الاعتراض الوحيد على إعادة الجنسية إلى ماركس هو «معتقداته الجمهورية أو على الأقل غير الملكية». أما وزير الداخلية فقد حضّه لاسال أن لا ينغمس في «التفتيش عن الضمائر واضطهاد الناس بسبب معتقداتهم»، وهي أمور كان قد شجبها بشدة في سلفيه مانتوفيل ووستفالين، فما كان منه إلا أن أجاب: «لا

بدو، هذه اللحظة على الأقل، أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى إعادة الجنسية إلى الشخص المعني». لم تكن دولة كبروسيا تستطيع تحمل شخص كماركس، وقد كان وزير الداخلية كسلفيه مانتوفل ووستفالين محقا في ذلك.

ذهب ماركس بعد مغادرته برلين إلى كولون لزيارة أصدقائه، وعلى الأخص ليرى والدته التي كانت في آخر أيامها. وفي بداية أيار، كان قد عاد إلى لندن آملا أن يستطيع التخلص من الحياة الشاقة التي كان يحياها، وأن يجد من الوقت والهدوء ما يسمح له بإنهاء كتابه. وكان قد نجح عندما كان في برلين في عقد اتفاق مع صحيفة «داي برس» في فيينا، رغم فشله في ذلك سابقا. ووعدته الصحيفة أن تدفع له جنيها واحدا مقابل كل مقال وعشرة شلنات مقابل كل تقرير. وفي الوقت ذاته، أبدت علاقاته مع «نيويورك تريبيون» دلائل تحسن، فصارت تنشر له مقالاته باستمرار وتعبر عن إعجابها بها. وقد كتب ماركس يقول: «إن هؤلاء اليانكيين معتادون عادة غريبة هي إعطاء شهادات لصالح مراسليهم». كذلك صارت «داي برس» تنشر الكثير من مقالاته، ولكنه مع ذلك لم يستطع تسديد كافة ديونه القديمة لأنه لم يكسب شيئا من المال خلال مرضه، مضافا إلى ذلك نفقات رحلته إلى ألمانيا. وفي رسالته إلى انغلز بمناسبة رأس السنة الجديدة، قال أن بوسع هذه السنة أن تذهب إلى الشيطان إن لم تكن أفضل من سابقتها.

لم تكن سنة 1862 في سوء السنة التي سبقتها، بل كانت أسوأ بالفعل. فعلى الرغم من أن «داي برس» كانت تحتفي بمقالاته وتطبل لها وتزمر، إلا أنها لم تعامله بأفضل مما كانت تعامله الصحيفة الأمريكية. فكتب إلى انغلز في آذار يقول: «ليس ما يهمني أنهم لا ينشرون أفضل مقالاتي (مع أنني أكتبها بطريقة تسمح لهم بنشرها)، فالأمر في غاية السوء من الناحية المالية عندما لا ينشرون إلا واحدة من كل أربع أو خمس مقالات أرسلها ثم لا يدفعون إلا لقاء هذه الواحدة». وخلال السنة انقطعت كل علاقة لماركس مع «نيويورك تريبيون»، ولكن يبدو أن ذلك كان بسبب الحرب الأهلية الأمريكية بصورة رئيسية.

ولكن على الرغم من أن هذه الحرب جلبت لماركس المصائب على الصعيد الشخصي، إلا أنه رحب بها بتعاطف كبير. فقد كتب بعد ذلك بعدة سنوات في مقدمة رائعته العلمية يقول: «لا يخطئن أحد. فكما أن حرب الاستقلال الأمريكية دقت ناقوس الخطر للطبقة الوسطى الأوروبية في القرن الثامن عشر، كذلك دقت الحرب الأهلية الأمريكية للطبقة العاملة في القرن التاسع عشر». وتدل رسائله لانغلز على أنه تتبع الحرب باهتمام حاد بالغ. وكان ماركس يعتبر نفسه عاميا في المسائل العسكرية، فكان يصغي بسرور إلى ما يقوله انغلز في الموضوع، ولا تزال ملاحظات انغلز بهذا الخصوص تحتفظ بقيمتها حتى يومنا هذا، لا من الناحية العسكرية فحسب، بل ومن الناحية السياسية أيضا. فمثلا أصاب كبد المسألة العسكرية ومسألة المليشيا عندما قال: «إن مجتمعا يقوم على الشيوعية ويربى على أساسها، هو وحده الذي يستطيع أن يقترب اقترابا وثيقا من مسألة الميليشيا، ولكن حتى مجتمع كهذا لن يستطيع تحقيقها تماما». إن كلمات الشاعر غوته «اليد الحازقة تبدي مهارتها أوضح ما تبديها في ظل الظروف المعيقة»، تنطبق هنا وإن يكن بمعنى غير ذاك الذي قصده الشاعر.

جعل تمكن انغلز من المسائل العسكرية أفقه العام محدودا، فجعلته القيادة العسكرية التعيسة التي كانت على رأس القوات الشمالية يشك في أن تستطيع هذه القوات إحراز النصر النهائي. فكتب في أيام 1862 يقول: «إن ما يجعلني أشك بانتصار اليانكيين ليس الوضع العسكري بحد ذاته، فهو فحسب نتيجة التراخي واللامبالاة اللذين يسمان الشمال، ولكن أين هي الطاقة الثورية بين الشعب؟ أنهم يدعون أنفسهم يتلقون الركلات، وهم في الواقع فخورون بها. أين يمكن للمرء أن يجد في الشمال كله إشارة واحدة إلى أنهم يحملون الأمر على محمل الجد؟ لم أر قط شيئا كهذا، ولا حتى في ألمانيا في أسوأ أوقاتها. يبدو أن اليانكيين يجدون لذة في قدرتهم على غش دائنيهم». وفي تموز خشي انغلز أن يكون الشمال قد فقد كل أمل، وفي أيلول أعلن أن الجنوبيين، الذين يعرفون على الأقل ما يريدون، يبدون له إبطالا بالمقارنة مع تراخي الشماليين.

غير أن ماركس كان يثق مطلقة بانتصار الولايات الشمالية في النهاية، فأجاب على انغلز في أيلول: «فيما يتعلق باليانكيين، لا زالت مقتنعا تماما بأنهم سيحرزون النصر في النهاية... والطريقة التي يخوضون بها الحرب أمر طبيعي بالنسبة لجمهورية بورجوازية حكمت مدة طويلة بالخداع. أما الولايات الجنوبية فتحكمها اوليغاركية، والاوليغاركية مؤهلة بشكل أفضل لشن الحرب، خاصة إذا كانت اوليغاركية من النوع الذي يحكم الولايات الجنوبية، حيث يقوم الزنوج بكل العمل الإنتاجي ويقوم البيض الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين بدور قطاع الطرق المحترفين، ولكنني مع ذلك مستعد للمراهنة بحياتي على أن هؤلاء سيلاقون أسوأ مصير في النهاية...». لقد كان ماركس على حق، وثبتت صحة ما ذهب إليه من أن الحرب تتقرر في نهاية الأمر بالشروط الاقتصادية التي يعيش في ظلها المتحاربون.

لا شك في أن هذا الوضوح الرائع الذي يتحدث به ماركس مثير للإعجاب، خاصة وأن الرسالة ذاتها تكشف الضائقة المالية الحادة التي كان يعانيها ماركس حينذاك. فقد بلغ به الضيق حدا جعله يقرر أمرا ما كان قد فعله من قبل ولم يفعله من بعد. فقد أخبر انغلز أنه يسعى جهده للحصول على وظيفة، وأن هناك احتمالا في أن يعمل في مكاتب إحدى شركات السكك الحديدية الانجليزية. ولكنه في النهاية فشل لأن حظه لم يكن جيدا، ولم يستطع وقتذاك أن يقرر ما إذا كان فشله سوء حظ أو حسن حظ. ازداد فقر ماركس وعائلته أكثر فأكثر، وساء الأمر لأنه كان يقع صريع المرض المرة تلو الأخرى. فقد بدأ بالإضافة إلى متاعب الكبد يعاني من الانتفاخات والدمامل، وقد لازمه هذا المرض بشكل متقطع سنوات عدة. كذلك أصبح سوء الحالة يتهدد ربة البيت بانهيار آخر في صحتها. ولم يكن الأطفال يملكون ملابس مناسبة ولا حتى أحذية للذهاب إلى المدرسة. فعانت الابنة الكبرى التي كان لها من العمر ما يجعلها تدرك الوضع، معاناة رهيبة، فحاولت دون علم والديها أن تدرب نفسها على العمل المسرحي.

استمر الحال يزداد سوءا، وفي النهاية عزم ماركس على خطوة كان قد فكر فيها كثيرا، ولكنه كان دائما يتخلى عنها من أجل أبنائه. قرر أن يترك أثاثه لمالك البيت، الذي كان قد جلب المسترهنين بالفعل، ويخبر كل دائنيه بأنه مفلس، ويحصل لابنتيه الكبيرتين على عمل كمربيتين بواسطة أصدقاء العائلة من الانجليز، ويجد للخادمة عملا آخر، ثم ينتقل مع زوجته وابنته الصغرى إلى تلك البنايات التي بنيت لمواجهة احتياجات الطبقات الأكثر فقرا.

في النهاية، لم تنفذ بادرة اليأس هذه بفضل انغلز. كان والد انغلز قد توفي في ربيع عام 1860، وعندئذ منح انغلز وظيفة أفضل في شركة ايرمن وانغلز، على أمل أن يصبح شريكا فيما بعد، مع أن هذا التحسن كان يعني أن على انغلز أن يعيش في مستوى أرفع من ذي قبل. وبالإضافة إلى ذلك كانت الأزمة الأمريكية قد أصابت عالم التجارة والأعمال بضرر بالغ، وأدى ذلك إلى تناقص دخل انغلز إلى حد كبير. وفي بداية عام 1863 حلت بانغلز مصيبة شخصية كبيرة. فقد توفيت ماري بيرنز، الفتاة الايرلندية التي عاش معها عشر سنوات دون مباركة المجتمع، فكان ذلك ضربة موجعة رهيبة له. وكتب إلى ماركس يقول: «إنني ببساطة لا أستطيع أن أصف مشاعري. لقد كانت الفتاة المسكينة تحبني بكل قلبها». لكن ماركس أجاب بقدر من التعاطف أقل مما كان يتوقع انغلز، وهذا يدل أكثر من أي شيء آخر على الحالة المزرية التي كان هو يعاني منها. فقد أشار ببضع كلمات باردة نوعا ما على الخسارة الكبيرة التي لحقت بانغلز، ثم انتقل إلى وصف وضعه البائس قائلا أنه إذا لم يتلق مبلغا كافيا من المال فإنه لن يستطيع أن يتدبر أمره أكثر من أسبوعين. صحيح أنه يجد أن «من الأنانية المثيرة للتقزز» أن يجعل صديقه يعاني من متاعب الآخرين في لحظة كهذه، «ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنني لا أجد في لندن كلها من أستطيع أن أتحدث إليه بصراحة، أما في البيت فيجب عليّ أن العب دور الحكيم الصامت كي أتجنب حدوث انفجار في الجانب الآخر».

غير أن انغلز تألم «للاستقبال البارد» الذي تلقته مصيبته من ماركس، ولم يحاول في رسالته التي أخرها بضعة أيام أن يخفي مشاعره. ولكنه في القوت ذاته تقدم بعدد من الاقتراحات لمساعدة ماركس على الخروج من ورطته، معلنا أنه ليس اللحظة في موضع يستطيع معه توفير مبلغ كبير من المال. كذلك أخر ماركس رده، ولكنه لم يفعل ذلك إلا ليعطي انغلز فرصة تهدأ فيها ثائرته، وليس إصرارا منه على الخطأ الذي وقع فيه بإبداء عدم تعاطفه. أنكر ماركس أن يكون «بلا قلب»، ولكنه اعترف بصراحة أنه لم يعبر عن التعاطف الواجب. ووصف في هذه الرسالة وفي رسالة ثانية الوضع الذي جعل رأسه يدور في دوامة. واللهجة التي يستخدمها حاذقة ولطيفة، ولأن من المحتمل أن تكون مشاعر انغلز قد جرحت لأن السيدة ماركس لم ترسل له حتى كلمة تعزية بوفاة محبوبته، قال ماركس: «النساء مخلوقات طريفة، حتى أكثرهن ذكاء. ففي الصباح انتحبت زوجتي لوفاة ماري والخسارة التي عانيتها بفقدها حتى نسيت تماما مصيبتنا نحن، التي وصلت أوجها في ذلك اليوم بالذات، ولكنها في المساء شعرت أن أحدا في العالم لا يستطيع أن يعرف معنى العذاب إلا إذا كان الدائنون يقفون بباب بيته، في حين لا يستطيع فيه أن يطعم أطفاله».

هدأت كلمات الأسى الأولى ثائرة انغلز فورا، فكتب يقول: «لا يستطيع المرء أن يعيش مع امرأة سنوات عدة ولا يشعر بعذاب رهيب لموتها. لقد شعرت أن شبابي ووري التراب معها. عندما تسلمت رسالتك، لم تكن قد دفنت بعد. وبصراحة ظلت رسالتك تطن في رأسي طيلة أسبوع كامل ولم استطع أن أنساها. ولكن لا بأس، لقد سويت رسالتك الأمر، وأنا أشعر بالسرور البالغ لأنني لم أخسر مع ماري أقدم وأفضل صديق لديّ». كانت هذه أول وآخر إشارة توتر بدت بين الرجلين.

نجح انغلز «بفضل انقلاب جريء جدا» في تأمين مبلغ مئة جنيه، وبهذا المبلغ استطاع ماركس أن يتدبر أمره دون أن ينتقل إلى مسكن أرخص، وظل يتدبر الأمر طيلة عام 1863، وفي نهاية العام توفيت والدته. ومن المستبعد أن يكون قد ورث عنها الكثير، وفي الواقع لم يستطع ماركس أن يتنفس الصعداء إلا بعد أن تلقى ثمانمائة أو تسعمائة جنيه بوصفه الوريث الرئيسي الذي أوصى له فيلهلم ولف بثروته.

توفي فيلهلم ولف في 1864، فبكاه ماركس وانغلز بكاء مرا. ولم يكن له من العمر حين توفي غير خمسين عاما، ولكنه لم يكن يأبه في حياته العاصفة المغامرة لنفسه، حتى أن انغلز شكا من أن تكرسه العنيد لواجباته كمدرس عجل في وفاته. وكان ولف قد استطاع، بفضل شعبيته في صفوف اللاجئين الألمان في مانشستر، أن يؤمن لنفسه عيشا مريحا، رغم أن سنواته الأولى في المنفى كانت شاقة بما فيه الكفاية. ويبدو أن والده ترك له قبل وفاته بقليل ميراثا صغيرا. وفيما بعد أهدى ماركس المجلد الأول من كتابه الخالد إلى «صديقه الذي لا ينسى، ذلك الرائد الشجاع المخلص النبيل من رواد البروليتاريا»، ولا شك في أن بادرة الصداقة الأخيرة التي أبداها ولف فعلت الكثير لتأمين الهدوء والسكينة اللتين كان يحتاجهما ماركس للعمل في كتابه.

لم تنته هموم ومتاعب حياة ماركس إلى الأبد، ولكنها لم تعد أبدا بالحدة التي كانت عليها في السنوات السابقة. ففي أيلول 1864 وقع انغلز عقدا مع ايرمن أصبح بموجبه شريكا له في الشركة، ومنذ ذلك الحين أصبح يستطيع الاستمرار في مساعدته الدائمة لماركس وبقدر أكبر من الكرم.

6-تحريض لاسال

في تموز 1862، وفي وقت كانت عائلة ماركس تعاني فيه أقسى ضائقة عرفتها، قام لاسال بزيارة لندن.

كتب ماركس لانغلز يقول: «لكي تحافظ زوجتي على بعض المظاهر الخارجية تجاه لاسال، قامت بالتصرف بكل ما لم يكن مسترهنا». ولم يكن لاسال يعرف حقيقة الوضع، فقبل المظاهر التي أبداها تجاه ماركس وعائلته كما تبدو، فكان أن لينشن، خادمة البيت، لم تنس أبدا شهيته الجامحة. وهكذا نشأ «وضع رهيب»، وفي الواقع لا يمكن لوم ماركس على أنه لم يستطع أن يتغلب على مشاعره تجاه لاسال، خاصة وأن هذا لم يكن متواضعا يوما، تلك المشاعر التي تشبه مشاعر شيلر تجاه غوته، حينما قال: «كم يحصل هذا الرجل على الأشياء بسهولة، وكم يتعين على أن أصارع حتى أحصل على أي شيء!»

لم يدرك لاسال الوضع إلا حين مغادرته بعد إقامة استمرت عدة أسابيع. وحينذاك عرض مساعدته، معلنا أنه يستطيع توفير 15 جنيها في نهاية السنة وأن ماركس يستطيع أن يسحب عليه حوالات بأي مبلغ شرط أن يكفلها انغلز أو شخص آخر. عندئذ حاول ماركس بمساعدة بورخايم الحصول على 400 ثالر بهذه الطريقة، ولكن لاسال كتب رسالة جعل فيها موافقته معتمدة على تعهد خطي يقدمه انغلز بأن يوافيه بالمبلغ الضروري قبل أن يحين موعد الحوالة بثمانية أيام على الأقل «احتياطا لحدوث ظروف غير متوقعة». لكن انغلز حث ماركس على أن لا يغضب بسبب «هذه الحماقة» وأعطى التعهد المطلوب على الفور.

ليس التطور اللاحق لهذا الاتفاق المالي واضحا. ففي 29 تشرين الأول، كتب ماركس إلى انغلز أن لاسال «غاضب جدا» عليه وأنه طلب أن يرسل مبلغ التغطية إلى عنوانه الخاص. وفي 4 تشرين الثاني كتب ماركس أن فريليغارث مستعد لإرسال مبلغ الـ 400 ثالر إلى لاسال، وفي اليوم التالي أجاب انغلز أنه سيرسل مبلغ 60 جنيها إلى لاسال «غدا»، ولكن كلا منهما أشار في الوقت نفسه إلى «تأجيل» الحوالة. ولا بد أن خطأ ما قد حصل، ففي 24 نيسان 1864 قال لاسال لطرف ثالث أنه لم يكتب لماركس طيلة سنتين، لأن علاقاتهما متوترة «لأسباب مالية». وكان في الواقع قد كتب آخر مرة على ماركس في نهاية 1862، مرسلا له نسخة من كتيبه «ماذا الآن؟». وليست هذه الرسالة موجودة الآن، ولكن ماركس يذكر في رسالة بعث بها إلى انغلز في 2 كانون الثاني 1863 حزيران أنها تطلب منه إعادة احد الكتب. وفي رسالة أخرى إلى انغلز في 2 كانون الثاني 1863 أنها تطلب منه إعادة أحد الكتب. وفي رسالة أخرى ‘لى انغلز بتاريخ 12 حزيران، ينتقد ماركس تحريض لاسال في ألمانيا ويقول: «ومنذ بداية السنة لم أستطع أن أجبر نفسي على الكتابة إليه». وإذاً، تدل هذه الرسالة أن ماركس قطع علاقاته مع لاسال لأسباب سياسية.

وعلى أية حال ليس هناك أي تناقض بين الروايتين، فلربما حصل الأمران في وقت واحد. ويمكن أن تكون الظروف السيئة التي تقابل الرجلان فيها آخر مرة قد أدت إلى تفاقم خلافاتهما السياسية التي لم تضق شقتها بأي شكل منذ زيارة ماركس لبرلين.

وفي خريف 1861، زار لاسال سويسرا وإيطاليا. فتعرف إلى روستوف في زوريخ وعلى غاريبالدي في جزيرة كابريرا، بينما كان قد زار ماتزيني وهو في لندن. ويبدو أنه أبدى بعض الاهتمام بخطة خيالية نوعا ما وضعها حزب العمل الايطالي وتقضي بأن ينزل غاريبالدي ومتطوعيه في دالماتيا، ومن هناك يتقدمون لرفع راية الثورة في المجر. لكن هذه الخطة لم تنفذ، ولا يشير لاسال إليها إشارة مكتوبة في أي مكان. ولربما كانت تلك مجرد فكرة عابرة، ذلك أن رأس لاسال كان مشغولا بقضايا أخرى، فحتى قبل أن يزور لندن، كان قد بدأ وضع خطط خاصة به موضع التنفيذ.

كان كسب ماركس إلى صف لاسال، يعني لهذا الأخير أكثر مما تعنيه المفاهيم الايطالية جميعا، ولكن ماركس أبدى أنه أقل ميلا إليه مما كان في السنة الماضية. كانت فكرة تأسيس صحيفة لا تزال تراود لاسال، ولكن ماركس أعلن أنه، مع استعداده لأن يكون مراسلها في انجلترا لقاء مبلغ محترم من المال، لا يريد أن يشارك في تحمل أي قسط من المسؤولية السياسية أو غير السياسية تجاهها، لأنه يختلف مع لاسال حول كل شيء عدا بعض أهداف نهائية بعيدة. وكذلك أبدى معارضته للخطط التي عرضها عليه لاسال للتحريض بين العمال، وقال أن لاسال يتأثر أكثر مما يجب بالأوضاع الراهنة المباشرة، ولذا فهو يريد أن يجعل معارضة قزم مثل شولز محور تحريض: مساعدة الدولة ضد المساعدة الذاتية، وبهذا لا يفعل شيئا غير إحياء الشعار الذي استخدمه الاشتراكي الكاثوليكي بوشيز ضد حركة الطبقة العاملة الحقيقية في فرنسا في الأربعينات. وعندما يتبنى المطلب الشارتي، مطلب الاقتراع العام فإنه يتغاضى بذلك عن الفوارق ما بين أوضاع الطبقة العاملة الألمانية وأوضاع الطبقة العاملة الانجليزية، وينسى الدرس الهام الذي قدمته الإمبراطورية الثانية للعامل فيما يتعلق بمسألة الاقتراع. كما أنه بتنكره لكل الروابط الطبيعية مع الحركة السابقة في ألمانيا، إنما يقع في خطأ العصبوية، خطأ برودون، وبدلا من أن يبحث عن الأساس الحقيقي للحركة في العناصر الحقيقية ضمن الحركة الطبقية، يسعى إلى وضع خطوط تطور هذه الحركة طبقا لوصفة دغماتية معينة.

غير أن همة لاسال لم تثبط بفعل هذه الانتقادات، واستمر في تحريضه على أساس حركة محضة للطبقة العاملة منذ ربيع 1863. وكان لا يزال يأمل في إقناع ماركس بقيمة عمله، وظل حتى بعد أن كف ماركس عن مراسلته يرسل له بانتظام المواد التحريضية التي كان يعدها، مع أنه كان يأمل في أكثر من مجرد أن يتسلم ماركس هذه المواد. لكن ماركس يشجب في رسائله إلى انغلز نشاطات لاسال بقسوة تصل أحيانا إلى حد الظلم المرير. وليس من الضروري هنا أن نعود إلى التفاصيل المؤسفة هنا وهناك، إذ يمكن العثور عليها في مراسلات ماركس وانغلز. ولكن يكفي القول أن الكتابات التي أعادت الأمل لمئات الألوف من أعمال الألمان وبعثت فيهم حياة جديدة، كانت تلقى الاحتقار على يد ماركس بوصفها سرقات أدبية يقوم بها تلميذ صغير، أو تهمل على أساس أنها لا تستحق القراءة حتى لمجرد قتل الوقت.

ليس هناك عير المنافقين الضحلين من سيحاول إخفاء هذه الحقائق بالقول أنه كان يحق لماركس، بوصفه أستاذ لاسال، لأن يعامله على هذا النحو. ذلك أن ماركس لم يكن فوق إنساني ولم يحاول أبدا أن يتظاهر بأنه أكثر من إنسان، معلنا أنه ليس هناك من شيء إنساني غريب عنه. كما ترديد آراء الآخرين دون تفكير كان أحد الأمور التي تبعث فيه ضيقا شديدا. ولاشك أن من العدل له أن يصحح الظلم الذي أوقعه بالآخرين كما يصحح الظلم الذي ألحقه الآخرون به. وفي الواقع يكسب شخص ماركس إذا أخضعت علاقاته مع لاسال لنقد غير منحاز أكثر مما لو اقتفينا أثر أتباعه الاورثوذكسيين وسرنا على الطريق الذي شقه دون أن نلتفت لا يمنة ولا يسرى.

كان ماركس بالتأكيد أستاذا للاسال بمعنى من المعاني، ولكنه لم يكن كذلك بمعنى آخر. فقد كان يمكن لماركس أن يقول في لاسال ما قاله هيغل وهو على فراش الموت في تلامذته: لم يفهمني منهم غير واحد، ولكنه هو أيضا أساء فهمي. لقد كان لاسال المع الأتباع الذين كسبهما ماركس وانغلز خلال حياتهما، ولكنه لم يستطع أبدا أن يفهم نظرتهما الجديدة للعالم، المادية التاريخية، من الألف حتى الياء. ولا شك في أن ماركس كان على حق عندما قال أن لاسال لم يكن قادرا على التحرر من «المفهوم التأملي» للفلسفة الهيغيلية، فعلى الرغم من أنه تفهم بشكل

كامل الأهمية التاريخية للصراع الطبقي البروليتاري، إلا أنه لم يفهم إلا بأشكال التفكير المثالية التي تخص فوق كل شيء الحقبة البرجوازية، أشكال التفكير الفلسفية والقانونية.

ونتيجة لذلك لم يقترب لاسال كاقتصادي من حجم ماركس، فكان لا يدرك الأهمية الكاملة لتعاليم ماركس الاقتصادية، أو أنه أساء فهمها كلية. وفي بعض الأحيان كان ماركس يصدر عليه حكما رقيقا في هذا المجال، مع أن تأنيبه له كان في أحيان أكثر قاسيا بشدة. فقد لاحظ ماركس بلطف مشيرا إلى تفسير لاسال لنظرية القيمة الماركسية أنه وقع ضحية «سوء فهم كبير»، بينما كان أقرب للحقيقية أن يقال أنه فشل في فهمها فشلا كاملا. ذلك أن لاسال لم يتبن سوى جانب واحد من نظرية ماركس في القيمة، ذلك الجانب الذي يناسب طريقته الفلسفية والقانونية في التفكير: البرهان على أن وقت العمل الاجتماعي العام، الذي يحدد القيمة، يجعل الإنتاج الاجتماعي العام ضروريا كي يضمن للعامل النتاج الكامل لكدحه. غير أن نظرية القيمة كانت، بالنسبة لماركس، تمثل حلا لكل غوامض نمط الإنتاج الرأسمالي، فقد كانت مفتاح فهم تكون القيمة وفضل القيمة كعملية تاريخية لا بد أن تغير نظام المجتمع الرأسمالي إلى نظام اشتراكي. كذلك غفل لاسال عن الفارق بين قوة العمل التي تنتج قيمة استعمالية وقوة العمل التي تنتج قيمة تبادلية، أي غفل عن الطبيعة المزدوجة للعمل المضمن في السلع، وكانت تلك بالنسبة لماركس «نقطة حيوية» يعتمد عليها فهم الاقتصاد السياسي. ولا شك في أن الفارق الحقيقي بين لاسال وماركس يتكشف عند هذه النقطة الحاسمة، إنه الفارق بين النظرة الفلسفية-القانونية والنظرة الاقتصادية المادية.

كذلك أصدر ماركس حكما قاسيا على نقاط ضعف لاسال في المسائل الاقتصادية الأخرى، وعلى الأخص العمودين الاقتصاديين الأساسيين للتحريض الذي كان يقوم به لاسال: «القانون الحديدي للأجور»، كما أسماه لاسال، والجمعيات الإنتاجية التي تعمل بقروض من الدولة. فقد أعلن ماركس أن لاسال سرق الأولى من الاقتصاديين الانجليزيين مالتوس وريكاردو، وسرق الثانية من الاشتراكي الكاثوليكي الفرنسي بوشيه، على الرغم من أن لاسال أخذهما في الواقع عن البيان الشيوعي.

تقول نظرية مالتوس أن عدد السكان يزداد باستمرار بأسرع مما يزداد إنتاج المواد الغذائية، وعلى أساس هذه النظرية طور ريكاردو قانونه الذي يقول أن معدل الأجر يجب أن يقصر نفسه على المقدار الضروري بشكل عام لمجرد العيش في البلد المعني مقترنا بإمكانية التناسل. لكن لاسال لم يقبل أبدا هذا التبرير لقانون الأجور بجعله قانونا طبيعيا، وعارض نظرية مالتوس السكانية بالشدة التي عارضها بها ماركس وانغلز. ولم يصر على الطابع «الحديدي» لقانون الأجور إلا فيما يتعلق بالمجتمع الرأسمالي «في ظل الظروف القائمة، وتحت حكم العرض والطلب»، وبهذا لم يكن يفعل شيئا غير اقتفاء خطوات البيان الشيوعي.

توفي لاسال قبل أن يثبت ماركس الطابع المرن لقانون الأجور كما يعبر عن نفسه في قمة المجتمع الرأسمالي، إذ يجد حده الأعلى في ضرورة استخدام رأس المال وحدّه الأدنى في أعماق الفقر الذي يستطيع العامل أن يتحمله دون التعرض لخطر الموت جوعا. وضمن هذين الحدين، لا تتحدد حركة الأجور بالتقلبات الطبيعية في عدد السكان، بل بدرجة المقاومة التي يبديها العمال تجاه الميل المستمر لرأس المال إلى اعتصار أكبر قدر ممكن من العمل بلا مقابل من قوة عملهم. وبعد هذا، أصبح لتنظيم الطبقة العاملة في نقابات أهمية أكبر بكثير من تلك التي كان لاسال على استعداد ليمنحها.

ولذا، لم يكن يعيب لاسال في هذا المجال غير تخلفه عن ماركس في المسائل الاقتصادية. ولكنه وقع في خطأ جسيم بالنسبة لجمعياته الإنتاجية. غير أن لاسال لم يسرق فكرة هذه الجمعيات عن بوشيه، كما أنه لم يعتبرها حلال لكل الشرور الاجتماعية، بل اعتبرها مجرد خطوة نحو تشريك الإنتاج. وفي هذا المجال، يذكر البيان الشيوعي نفسه تركيز التسليف في يد الدولة وتأسيس مصانع تملكها الدولة، بالإضافة إلى عدد من الإجراءات الأخرى، ولكنه في الوقت ذاته يعلن أن هذه الإجراءات «تبدو غير كافية ومتعذرة اقتصاديا، ولكنها تتخطى نفسها خلال الحركة، كما أنها لا غنى عنها كوسيلة لتثوير نمط الإنتاج تثويرا كاملا». من جهة أخرى، اعتبر لاسال أن الجمعيات الإنتاجية «بذور عضوية تدفع حتما كل تطور أبعد». ولا شك في أنه أبدى دلائل «عدوى بالاشتراكية الفرنسية» عندما افترض أن قوانين الإنتاج السلعي يمكن أن تصفي على أساس الإنتاج السلعي ذاته.

كان لا بد لنقاط ضعف لاسال في المجال الاقتصادي، التي لا تمكن الإشارة لها هنا إلا بخطوطها العامة، أن تثير حنق ماركس الذي كان يراقبه وهو يشوش ثانية ما كان ماركس نفسه قد حله بعد طويل عناء. ولو قنع ماركس بالاحتجاج النشيط وحتى الغاضب على لاسال، فإن موقفه مفهوم تماما، ولكنه فشل في حمية ضيقه المبرر أن يرى أن سياسة لاسال هي في الأساس سياسته هو رغم أخطاء لاسال النظرية. لقد كان ماركس ذاته يقف دائما إلى جانب الإمساك بالطرف الأقصى لحركة قائمة واستخدامه كرافعة لإجبارها على المزيد من التقدم، وهذا هو ما فعله في عام 1848. ومن هنا لم يكن لاسال «متأثرا بالظروف المباشرة» أكثر مما كان ماركس في السنوات الثورية. وكذلك يتهم ماركس لاسال بالعصبوية وبالتنكر لكل الروابط الطبيعية مع الحركة السابقة في ألمانيا، غير أن هذا ليس صحيحا إلا بمعنى أن لاسال لم يذكر لا العصبة الشيوعية ولا بيانها في تحريض، ولكن صحيح أيضا أن بضع مئات الأعداد من «نيو راينيخه تزايتونغ» لم تشر إلى أي منهما.

وبعد موت ماركس ولاسال، برر انغلز تاكتيكات لاسال، بطريقة غير مباشرة وإن يكن بوضوح كامل. ففي عامي 1866-1867، نمت في الولايات المتحدة حركة جماهيرية بروليتارية ببرنامج مشوش جدا، فكتب انغلز إلى صديقه سورج: «إن الخطوة العظيمة الأولى التي يجب أن تتخذ في أي بلد يدخل الحركة حديثا هي تنظيم العمال في حزب سياسي مستقل، ولا يهم كيف، المهم أن يكون حزبا عماليا بصورة قاطعة». ومضى ليقول أنه إذا كان البرنامج الذي يتبناه حزب كهذا مشوشا وناقصا جدا، فإن ذلك شر لا بد منه ولكنه شر مؤقت. وكتب باللهجة ذاتها إلى أصدقاء آخرين في أمريكا، معلنا أن النظرية الماركسية لا تدعي الكمال كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية، وأنها ليست عقيدة جامدة، بل عرض لعملية تطور وكشف عنها. ويجب على المرء أن لا يزيد في تشوش الفصائل العمالية الأولى بإجبار العمال على ابتلاع أفكار لا يستطيعون هضمها في هذه اللحظة، ولكنهم سيكونون راغبين في قبولها فيما بعد.

وأشار انغلز، كي يدعم حجته، إلى الموقف الذي اتخذه وماركس في السنوات الثورية في ألمانيا: «عندما عدنا إلى ألمانيا في ربيع 1848 انضممنا إلى الحزب الديمقراطي، لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها جعل الطبقة العاملة تصغي لنا. لقد كنا أكثر أجنحة الحزب تقدما، ولكننا كنا مع ذلك جزءا منه». وكما أن «نيو راينيخه تزايتونغ» تجنبت كل ذكر للبيان الشيوعي، كذلك حذر انغلز الأمريكيين من جعله عقيدتهم الفورية المباشرة، موضحا أنه ككل كتابات ماركس الصغيرة الأخرى أصعب من أن يستوعبه العمال الأمريكيون في اللحظة الراهنة. فهم قد دخلوا الحركة للمرة الأولى ولا يزالون متخلفين كثيرا في المسائل النظيرة: «علينا أن نستخدم الحركة العملية اليومية كرافعة، ونحن نحتاج إلى أدبيات جديدة كل الجدة لهذا الغرض. وعندما يبدأ العمال الأمريكيون بالسير على الطريق الصحيح بهذا القدر أو ذاك، فإن البيان لن يفشل في إحداث أثره، ولكنه في المرحلة الراهنة لن يؤثر إلا في عدد قليل من العمال». وعندما اعترض سورج قائلا أن البيان أحدث فيه أثرا عظيما عندما قرأه للمرة الأولى، على الرغم من أنه لم يكن غير صبي في تلك الأيام، رد انغلز: «لقد كنتم ألمانا قبل أربعين سنة وكانت لديكم المقدرة النظرية الألمانية، ولذا أحدث البيان أثره فيكم، ولكنه لم يحدث أي أثر على الإطلاق في الشعوب الأخرى رغم أنه ترجم إلى الانجليزية والفرنسية والفلامية والدنماركية الخ».

عندما حل عام 1863، لم تكن سنوات القمع الحديدي الطويلة قد تركت من هذه المقدرة النظرية لدى العمال الألمان غير القليل، فكان من الضروري انقضاء سنوات من التثقيف قبل أن يعودوا ثانية إلى فهم البيان. لقد كان تحريض لاسال، إذن، أمرا لا يرقى إليه اللوم، بالمقارنة مع ما وصفه انغلز بأنه «الخطوة العظيمة الأولى». ولا شك في أن لاسال كان متخلفا جدا عن ماركس كاقتصادي، ولكنه كان نداً له كثوري، إلا إذا أراد المرء أن يلومه على أساس أن رغبته الحارة في العمل الثوري طغت على صبر الباحث العلمي. فقد كان يكتب كل كتاباته، عدا «هرقليط». بقصد إحداث أثر عملي مباشر وفوري.

أقام لاسال تحريضه على الأساس الصلب والعريض للصراع الطبقي وجعل استيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية هدفا لهذا التحريض لا يحيد عنه. أما اتهام ماركس له بأنه كان يسعى إلى وضع خطوط تطور الصراع الطبقي طبقا لوصفة دغماتية معينة فاتهام ظالم، ذلك أن لاسال انطلق في الواقع وبالضبط من تلك «العناصر الحقيقية» التي أنتجت بالطبع حركة بين العمال الألمان: مطلب الاقتراع العام ومسألة الجمعيات الإنتاجية. فقد كان تقديره للاقتراع العام كرافعة للصراع الطبقي البروليتاري أكثر صحة من تقدير ماركس وانغلز، على الأقل فيما يتعلق بالظرف الذي كان يجابهه. ومهما قيل في جمعياته الإنتاجية، المعتمدة على تسليف من الدولة، فإنها مع ذلك كانت قائمة على الفكرة الأساسية الصحيحة، التي عبر عنها ماركس نفسه بعد ذلك ببضعة أعوام بقوله: «لكي يتم إنقاذ العاملين، يجب أن ينمو العمل التعاوني إلى حدود قومية، ولذا فإنه يجب منطقيا أن يدعم بوسائل الدولة». ولربما كان لاسال قد بدأ على السطح «عصبويا»، ولكن ذلك لم يكن إلا نتيجة الإعجاب العظيم الزائد الذي كان أتباعه يبدونه نحوه أيضا. والمسؤولية في ذلك لا تقع على عاتقه إطلاقا، فقد تجشم الكثير من العناء ليتجنب «اتخاذ الحركة طابع عرض يقوم به رجل واحد بسبب الأغبياء». ولم يحاول لاسال أن يكسب ماركس وانغلز فحسب إلى صفه، بل حاول ذلك أيضا مع بوشيه ورودبيرتس، ولكنه لم يجد نداً له يشاركه العمل. ولذا فقد كان من الطبيعي أن يأخذ عرفان العمال لجميله شكل عبادة شخصية له. من جهة أخرى، صحيح أيضا أنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يخفي تألقه الشخصي، ولم يكن يملك فضيلة نكران الذات التي جعلت ماركس يضع نفسه خلف القضية دائما.

تبقى نقطة هامة أخرى تستحق الالتفات، هي بالتحديد صراع البرجوازية الليبرالية العنيف ظاهرا ضد الحكومة البروسية، فقد نما التحريض الذي قام به لاسال من هذا الصراع. كان ماركس وانغلز منذ 1859 قد عادا مرة أخرى إلى تركيز اهتمامهما على الشؤون الألمانية، ولكنهما لم يتمكنا حتى العام 1866 من تكوين صورة صحيحة عن الوضع، كما يتبين بوضوح من رسائلهما. فعلى الرغم من تجربتهما خلال السنوات الثورية، كانا لا يزالان يعتقدان بإمكانية نشوب ثورة برجوازية وحتى ثورة عسكرية، وكما أنهما بالغا في تقدير البرجوازية الألمانية، كذلك قللا من أهمية سياسة «بروسيا الكبرى». ولم ينجحا أبدا في التغلب على انطباعاتهما أيام الشباب، عندما كان وطنهما الراينلاند، المدرك بفخار لحضارته الحديثة، ينظر باحتقار إلى المقاطعات البروسية القديمة. وكلما كانا يركزان انتباههما على الخطط القيصرية للسيطرة على العالم، كلما كانا يميلان أكثر إلى اعتبار الدولة البروسية مجرد مقاطعة روسية. حتى أنهما كانا يميلان إلى اعتبار بسمارك مجرد أداة في يد أداة روسيا، ألعوبة في يد «الرجل الغامض في قصر توليري» الذي كانا قد أعلنا حتى في 1859 أنه لا يرقص إلا على أنغام الدبلوماسية الروسية. ولم يخطر ببالهما أن السياسة البروسية، مع كل سماتها البغيضة، تؤدي إلى نتائج غير سارة بالنسبة لباريس كما بالنسبة لبطرسبرغ بالتساوي. وظلا يعتبران أن من الممكن قيام ثورة برجوازية في ألمانيا، ولذا اعتبرا أن تحريض لاسال لا يتفق إطلاقا مع التطور.

غير أن لاسال كان يرى الأمور عن كثب، وكان تقييمه لها اسلم. فقد أقام سياسته على افتراض أن حركة البرجوازية التقدمية لن تؤدي إلى شيء «حتى ولو انتظرنا قرونا بل وحقبا جيولوجية»، وكان على حق. وحالما استثنى إمكانية نشوب ثورة برجوازية، أدرك محقا أن توحيد ألمانيا، إذا كان ممكنا على الإطلاق، لا يمكن أن يتم إلا عبر تغييرات في السلالات المالكة، ورأى أن حزب العمال الجديد يجب أن يلعب دور القوة الدافعة لذلك. ولذا تفاوض مع بسمارك محاولا دفعه إلى اقتحام المخاطر بسياسة بروسيا الكبرى التي كان يتبناها. ولكن لاسال غامر بنفسه بعيدا، وعلى الرغم من أنه لم يخرق مبادئه إلا أنه خرق بالتأكيد اعتبارات الفطنة السياسية، مما جعل ماركس وانغلز يعترضان على ذلك بشدة وعن حق.

يمكن القول في التحليل الأخير، أن ما جعل ماركس وانغلز يفترقان عن لاسال في عامي 1863-1864 لم يكن سوى «تقييمات متعارضة لأوضاع معطاة»، وهكذا يجب أن يستثنى ما يبدو وكأنه ضغينة شخصية تتخلل الأحكام القاسية التي أصدرها ماركس على لاسال خلال تلك السنوات. غير أن ماركس لم يستطع أبدا أن يتغلب على تحيزه ضد الرجل الذي لن ينساه تاريخ الاشتراكية الديمقراطية الألمانية وسيظل يذكره معه ومع انغلز جنبا إلى جنب، حتى أن قوة الموت المهدئة لم يكن لها أثر دائم.

تلقى ماركس نبأ وفاة لاسال من فريليغارث، فابرق بالنبأ إلى انغلز في 3 أيلول 1864، وفي اليوم التالي رد انغلز قائلا: «تستطيع أن تتخيل كم فاجأني النبأ. فمهما كان لاسال شخصيا ومن وجهة نظر علمية وأدبية، إلا أنه كان سياسيا من أفضل العقول في ألمانيا بالتأكيد. لقد كان بالنسبة لنا صديقا غير موثوق أبدا، وكان سيصبح عدوا أكيدا لنا في المستقبل، ولكن المرء يتأثر مع ذلك إذ يرى كيف تدمر ألمانيا رجال الحزب المتطرف القديرين إلى هذا الحد أو ذاك. كم سيغتبط الصناعيون والخنازير التقدميون- لقد كان لاسال الرجل الوحيد الذي يخشونه في ألمانيا».

تأخر ماركس بضعة أيام، وفي 7 أيلول رد قائلا: «لقد أقلقتني مصيبة لاسال قلقا مضنيا خلال الأيام القليلة الماضية. فقد كان على أية حال واحدا من الحرس القديم وعدوا لأعدائنا... ولكن مع ذلك كله، أشعر بالأسف لأن علاقاتنا كانت متلبدة إلى هذا الحد خلال السنوات الماضية، رغم أن ذلك كان خطأه. ومن جهة أخرى، أشعر بالسرور البالغ لأنني قاومت تحريض دوائر مختلفة وامتنعت عن مهاجمته خلال سنة يوبيلة. يا للعنة، المجموعة تصغر وليس هناك من إمدادات». وقال في رسالة تعزية بعث بها إلى الكونتيسة هاتزفيلدت: «لقد مات شابا، في المعركة، مثل أخيل». وعندما حاول بلايند بعد ذلك بقليل أن يجعل نفسه مهما على حساب لاسال، سحقه ماركس بكلمات ملؤها الاحتقار: «ليست لدي أية نية في أن أحاول شرح شخصية رجل كلاسال والأهمية الحقيقية للتحريض الذي قام به لمهرج غريب لا يخلف وراءه غر ظله. ولكنني على أية حال أشعر أن السيد كارل بلايند لا يفعل غير إطاعة ما تمليه عليه طبيعته ذاتها عندما ينخر الأسد الميت». وبعد ذلك ببضعة أعوام، امتدح ماركس في رسالة إلى شفايتزر «خدمة لاسال الخالدة» التي أداها، رغم «الأخطار الكبيرة التي وقع فيها في تحريضه»، عندما بعث الحياة في حركة الطبقة العاملة بعد سبات دام خمسة عشر عاما.

ولكن لسوء الحظ، جاءت أيام حكم فيها ماركس على لاسال الميت بقدر أكبر من المرارة والإجحاف يفوق ما كان قد أبداه نحوه خلال حياته. وهكذا تتبقى رواسب مؤسفة لا تجد حلال لها إلا بالفكرة الملهمة، فكرة أن حركة الطبقة العاملة الحديثة أكبر بكثير من أن يستوعبها بكليتها أي عقل فرد، حتى أقوى العقول.

الفصل الحادي عشر

السنوات الأولى للأممية

1-تأسيس الأممية

تأسست الرابطة الأممية للرجال العاملين في اجتماع كبير عقد في قاعة سان مارتن بلندن في 28 أيلول 1864، أي بعد وفاة لاسال ببضعة أسابيع.

لم تكن الأممية عملا من صنع رجل واحد، ولا كانت «جسما صغيرا برأس كبير». وفوق كل شيء لم تكن ظلا لا أهمية له ولا كانت تهديدا رهيبا، كما وصفها خيال الكتاب الرأسماليين، مجافاة منهم للواقع. لقد كانت الأممية الأولى مرحلة انتقالية في النضال البروليتاري من أجل الانعتاق، وكانت مرحلية بقدر ما كانت ضرورية.

إن الإنتاج الرأسمالي، وهو تناقض متضمن بحد ذاته، ينتج الدول الحديثة ويدمرها معا. فهو يزيد حدة كل التناقضات العدائية القومية إلى أبعد الحدود وفي الوقت ذاته يخلق كل الأمم على صورته ومثاله. وما دام نمط الإنتاج الرأسمالي قائما، فلن تجد هذه التناقضات حلا لها، ولذا فقد هزمت مرة تلو الأخرى أخوة الإنسان، تلك الأخوة التي غنت لها كل الثورات البرجوازية أحلى الأغاني وأرقها. ففي الوقت الذي بشرت فيه الصناعة الكبيرة بحرية الأمم وسيادة السلام بينها جميعا، حولت العالم كله إلى معسكر مسلح كما لم يحدث في التاريخ من قبل.

غير أن تناقضات نمط الإنتاج الرأسمالي سوف تختفي باختفائه. صحيح أن النضال البروليتاري من أجل الانعتاق يجب أن ينمو ويتطور على أساس قومي لأن عملية الإنتاج الرأسمالي تنمو وتتطور ضمن الحدود القومية، ولا تجد البروليتاريا في كل بلد نفسها وجها لوجه مع برجوازية هذا البلد. ولكن البروليتاريا رغم ذلك يجب أن لا تخضع للمنافسة القاسية التي حطمت كل أحلام البرجوازية بالسلام العالمي والحرية. وحالما يدرك العمال ذلك، يتعين عليهم أن يتخلصوا من التنافس بين صفوفهم إذا أرادوا أن يقاوموا قوة رأس المال المتفوقة مقاومة فعالة –وهذا الإدراك يتطابق مع أول يقظة لوعيهم الطبقي- وعندئذ يصبح ذلك مجرد خطوة نحو الإدراك الأعمق بأن التنافس بين الطبقات العاملة في مختلف البلدان يجب أن يتوقف كذلك، وأكثر من ذلك يجب أن تتعاون الطبقات العاملة في مختلف البلدان تعاونا أمميا إذا كان لها أن تطيح بالسيطرة العالمية للبرجوازية.

لذا، جعلت النزعة الأممية نفسها محسوسة في وقت مبكر من تاريخ حركة الطبقة العاملة الحديثة. إن ما تعتبره البرجوازية، بفعل ضيق الأفق الذي ينجم عن مصالحها، غير وطني وجهلا وافتقارا إلى الفهم، ليس في الواقع غير شرط حيوي لوجود النضال البروليتاري من أجل الانعتاق بحد ذاته. وعلى الرغم من أن هذا النضال يستطيع حل التناقض العدائي بين القومية والأممية، بينما يحكم على البرجوازية أن تظل تتلوى تحت وطأته ما دامت تعيش، إلا أن العمال لا يملكون حلا سحريا في هذا المجال كما في أي مجال آخر، فهم لا يستطيعون أن يحولوا الطريق الصاعد الشاق إلى طريق سهل سوي. إذ يتعين على الطبقة العاملة الحديثة أن تخوض معاركها في ظل شروط خلقها التطور التاريخ، وهي لا تستطيع أن تتغلب على هذه الشروط بهجوم صاعق سريع، بل فحسب بفهم هذه الشروط، بالمعنى الهيغلي: الفهم هو الانتصار.

كان هذا الفهم صعبا جدا لأن بدايات حركة الطبقة العاملة وبدايات الأممية فيها، جاءت في وقت واحد متداخلة ومتقاطعة مع بديات عدد من الدول القومية الكبيرة، التي كانت تؤسس نتيجة لنمط الإنتاج الرأسمالي. أعلن البيان الشيوعي أن العمل الموحد من جانب البروليتاريا في كل البلدان شرط ضروري للانعتاق، وجاءت ثورة 1848 بعد هذا البيان ببضعة أسابيع. ووضعت هذه الثورة البروليتاريا والبرجوازية في انجلترا وفرنسا مقابل بعضهما، ولكنها في ألمانيا وايطاليا أطلقت النضال في سبيل الاستقلال القومي. غير أن البروليتاريا أدركت، بقدر ما ظهرت على المسرح كقوة مستقلة، وعن حق أن هذه النضالات من اجل الاستقلال القومي لا تستطيع أن تحقق غايتها النهائية، ولكنها مع ذلك مرحلة على الطريق نحو تحقيقها. فأمدت البروليتاريا الحركتين القوميتين في ألمانيا وايطاليا بأشجع مقاتليهما، ولم تجد هاتان الحركتان نصيحة تقدم لهما أفضل من تلك التي كانت تقدمها «نيو راينيخه تزايتونغ» التي كان يصدرها مؤلفا البيان الشيوعي. غير أن الصراعات القومية دفعت فكرة الأممية إلى لخلف، خاصة عندما بدأت برجوازية ألمانيا وايطاليا تحتمي بالحراب الرجعية. شكل العمال في ايطاليا أنفسهم في جمعيات تحت راية ماتزيني الذي لم يكن اشتراكيا ولكنه كان على الأقل جمهوريا. أما في ألمانيا، التي كانت أكثر تطورا من إيطاليا والتي أدرك عمالها المضامين الأممية لقضيتهم حتى في أيام ويتلينغ، فقد نشبت حرب أهلية استمرت عشر سنين حول هذه المسألة القومية بالذات.

كان الوضع في انجلترا وفرنسا مختلفا تماما عندما بدأت الحركة البروليتارية الحديثة، فقد تحققت الوحدة القومية في هذين البلدين قبل ذلك بوقت طويل، وكانت فكرة الأممية فيهما حية حتى قبل أيام ثورة آذار. وكانت باريس تعتبر عاصمة الثورة الأوروبية ولندن عاصمة السوق العالمي، ولكن فكرة الأممية عانت انحسارا، حتى في انجلترا وفرنسا، وبعد الهزائم التي لحقت بالبروليتاريا.

أنهك نزيف الدم في أيام حزيران الطبقة العاملة الفرنسية، وأعاقت يد الاستبداد البونابرتي الحديدية التنظيم السياسي والتنظيم النقابي على حد سواء. ونتيجة لذلك عادت حركة الطبقة العاملة في فرنسا لتقع في فئوية فترة ما قبل الأيام الثورية. ومن تشوش الحركة وتخبطها، بدأت نزعتان رئيسيتان تتطوران لتفصلا ما بين العناصر الثورية والعناصر الاشتراكية. تبلورت إحدى هاتين النزعتين حول بلانكي، الذي لم يكن يملك برنامجا اشتراكيا حقيقيا والذي كان يهدف إلى الاستيلاء على السلطة السياسية بانقلاب جريء تقوم به الأقلية المصممة الحازمة. أما

النزعة الأخرى، وكانت أقوى بما لا يقارن بالأولى، فقد كانت تحت التأثير الفكري لبرودون الذي سعى إلى إبعاد العمال عن النضال السياسي بمخططاته لإنشاء بنوك التبادل من أجل إدخال التسليف الحر وغير ذلك من التجارب العقدية الشبيهة. وكان ماركس قد أوضح من قبل في «الثامن عشر من برومير» أن هذه الحركة تخلت عن كل محاولة لتحويل العالم القديم بالوسائل الكثيرة التي يقدمها هذا العالم ذاته لهذا الغرض، بينما تسعى إلى الخلاص بطرق خلفية وبوسائل خاصة وضمن شروط وجودها المحدودة.

وبعد انهيار الحركة الشارتية، بدأت عملية تطور شبيهة في كثير من الوجوه في انجلترا أيضا. كان الطوباوي الكبير بروبرت أوين لا يزال حيا، مع انه كان قد شاخ كثيرا، وانحطت مدرسته إلى نوع من الجمعية الدينية ذات التفكير المتحرر. وإلى جانب مدرسة أوين، كانت هناك اشتراكية كينغسلي وموريس المسيحية، وعلى الرغم من أن هذه الاشتراكية يجب أن لا تقارن بالاشتراكيات التي لم تكن غير كاريكاتور لها في القارة الأوربية، إلا أنها مثلها سعت إلى أهداف تثقيفية وتعاونية ورفضت أن تكون لها أية علاقة بالنضال السياسي. حتى النقابات، التي كانت انجلترا تتفوق بها على فرنسا، ظلت لا مبالية سياسيا تقصر نشاطها على تحقيق المصالح المباشرة الفورية، وتلك سياسية سهلتها النشاطات الصناعية المحمومة في الخمسينات في انجلترا، كما سهلها موقع انجلترا المسيطر في السوق العالمي.

ورغم ذلك كله، لم تغط حركة الطبقة العاملة العالمية على الأرض الانجليزية في السبات إلا ببطء شديد، ويمكن تتبع آثارها حتى نهاية الخمسينات. فقد استمر الديمقراطيون الأخويون يجرجرون أنفسهم في أيام حرب القرم، حتى أنهم عندما اختفوا في النهاية شكلوا لجنة أممية وبعد ذلك رابطة أممية، بفضل الجهود التي بذلها أرنست جونز. لم يكن لهاتين المنظمتين أهمية كبيرة، ولكنهما على الأقل بينتا أن فكرة الأممية لم تمت تماما وأن نيرانها لم تخب وأنها يمكن أن تندلع ثانية بفعل ريح قوية.

هبت هذه الريح على شكل الأزمة التجارية في 1857 والحرب في 1859 وعلى الأخص الحرب الأهلية التي اندلعت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية في أمريكا عام 1860. كانت الأزمة التجارية عام 1857 الضربة القوية الأولى التي توجه للحكم البونابرتي في فرنسا، ولم تصادف محاولة التغلب على آثارها بالقيام بمغامرة سياسية أجنبية أي نجاح. فقد خرجت اللعبة التي بدأها بونابرت المزيف من بين يديه. إذ نمت حركة الوحدة الايطالية وصارت أقوى من أن يستطيع ضبطها بينما لم تجد البرجوازية الفرنسية سوى القليل من الميل إلى السماح بخداعها وإرضائها بأكاليل غار ماجنتا وسولفرينو القليلة نوعا ما. وفي ظل هذه الظروف، أصبحت فكرة لجم البرجوازية الوقحة بإعطاء الطبقة العاملة قدرا من حرية الحركة فكرة واضحة، وفي الواقع اعتمد وجود الإمبراطورية الثانية ذاته على نجاح بونابرت في حل المشكلة بجعل البرجوازية والبروليتاريا تتقارعان بينما يبقى هو على أعنة القياد في يديه.

وبالطبع، كان بونابرت ينوي أن يمنح البروليتاريا تنازلات نقابية فحسب وليس تنازلات سياسية. وكان برودون، الذي مارس تأثيرا كبيرا على حركة الطبقة العاملة، يعارض الإمبراطورية الثانية، رغم أن بعض أقواله المتناقضة يمكن أن تعطي انطباعا معاكسا، ولكنه كان كذلك يعارض الإضرابات. غير أن هذه كانت هي المسألة التي بدأ العمال الفرنسيون ينفلتون فيها، فرغم تحذيرات برودون ورغم القوانين التي تحظر الانتظام النقابي، حكم على ما لا يقل عن 3909 عمال بين عامي 1853 و1866 لمخالفتهم هذه القوانين، وكان عدد النقابات التي جرت محاولة تشكيلها لا يقل عن 749. وعندئذ بدأ بوناربت المزيف يصدر العفو عن المحكومين، كما أنه دعم إرسال العمال الفرنسيين إلى المعرض الكبير في لندن عام 1862، وينبغي الاعتراف بأنه فعل ذلك بشكل أكمل وأفعل مما فعلت الجمعية الوطنية الألمانية، التي طبقت الفكرة الساذجة ذاتها. انتخب المندوبون من جانب رفاقهم العمال في كل صناعة على حدة، فأقيم مئة وخمسون صندوقا انتخابيا في باريس وانتخب مئتا مندوب أرسلوا إلى لندن. وتأمنت مصاريف الرحلة عن طريق الاستكتاب الطوعي وعن طريق معونة دفعتها الخزينة الإمبراطورية والخزينة البلدية، اللتان قدمت كل منهما 20 ألف فرنك. وعندما عاد المندوبون سمح لهم أن ينشروا تقارير مفصلة، وكانت هذه التقارير بشكل عام تعالج أمورا تتخطى حدود الشؤون النقابية. كان هذا العمل في ظل الظروف السائدة في فرنسا حينذاك يمثل عملا من الطراز الأول من جانب الدولة، وجعل ذلك رئيس شرطة باريس يتنهد ويقول أنه كان على الإمبراطور أن يلغي القوانين التي تحظر الانتظام النقابي جميعا قبل أن يبدأ بإجراء تجارب من هذا القبيل.

والواقع أن العمال الفرنسيين جازوا الإمبراطور الذي حاول أن ينصب نفسه وصيا عليهم بالطريقة التي كان يستحقها لا بالطريقة التي كان يتوقعها.. فخلال انتخابات 1863 لم يحصل مرشحو الحكومة في باريس إلا على 82 ألف صوت مقابل 153 ألف صوت حصلت عليها المعارضة، بينما كان مرشحو الحكومة قد حصلوا في انتخابات عام 1857 على 111 ألف صوت، ولم يحصل مرشحو المعارضة إلا على 96 ألف صوت. وقد افترض بشكل عام أن ذلك يعود بدرجة بسيطة إلى تغيير موقف البرجوازية، وبشكل رئيسي إلى تغيير موقف الطبقة العاملة، التي أعلنت استقلالها في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها بونابرت المزيف يغازل العمال، مع أنها كانت لا تزال تسير تحت راية الراديكاليين البرجوازية. تأكد هذا الافتراض بالانتخابات الفرعية في باريس عام 1864 عندما رشح ستون من العمال نحاتا يدعى تولين وأصدروا بيانا يعلنون فيه ولادة الاشتراكية. أعلن البيان أن الاشتراكيين تعلموا من التجربة الماضية، ففي 1848 لم يكن العمال يملكون برنامجا واضحا وتبنوا هذه النظرية الاجتماعية أو تلك بدافع من غريزتهم وليس بدافع من تفكيرهم، أما اليوم فإنهم يرفضون كل المبالغات الطوباوية ويسعون إلى الخلاص عبر الإصلاحات الاجتماعية مثل حرية الصحافة وحق التنظيم ونقض القوانين التي تحظر الانتظام النقابي والتعليم العام المجاني وإلغاء الموازنة الدينية.

غير أن تولين لم يحوز في الانتخابات غير بضع مئات من الأصوات. وكان برودون متفقا مع محتويات البيان ولكنه عارض الاشتراك في الانتخابات معتبرا أن وضع أوراق بيضاء في صناديق الاقتراع يشكل احتجاجا أكثر فعالية ضد نظام الإمبراطورية الثانية. أما البلانكيون فقد وجدوا أن البيان معتدل جدا بالنسبة لهم، بينما هاجمت البرجوازية بكل ظلالها الليبرالية والراديكالية، عدا استثناء واحد أو اثنين، تولين هجوما ساخرا لاذعا، مع أنه لم يكن في برنامج تولين ما يسبب لهم في الواقع قلقا. وكانت تلك ظاهرة تشبه ما كان يحدث في ألمانيا في الوقت ذاته. شجع ذلك بوناربت على القيام بخطوة أخرى، فأصدر في أيار 1863 قانونا جديدا. وعلى الرغم من أن هذا القانون لم يلغ الخطر المفروض

على النقابات (حدث ذلك بعد أربع سنوات)، إلا أنه على الأقل نقض فقرات قانون العقوبات التي تنص على معاقبة العمال الذين يتثبت مشاركتهم في هيئات تهدف إلى تحسين ظروف عملهم.

أما في انجلترا فقد ألغيت القوانين التي تحظر الانتظام النقابي في 1825، ولكن وجود النقابات كان ما يزال غير آمن سواء قانونيا أو واقعيا، بينما لم تكن جماهير أعضائها تملك حق الاقتراع الذي يمكن أن يسمح لها بإلغاء العوائق القانونية التي تقف في وجه نضالها من أجل ظروف عمل أفضل. وكان تطور الرأسمالية القارية قد دمر عدة نقابات وخلق للعمال الانجليز منافسة خطرة، ففي كل مرة حاول العمال فيها الحصول على أجور أعلى، كان الرأسماليون الانجليز يهددون باستيراد عمل أجنبي أرخص من فرنسا وبلجيكا وألمانيا وبلدان أخرى. وفي ظل هذا الوضع، أثارت الحرب الأهلية الأمريكية العمال وسببت أزمة قطن نجم عنها انتشار تعاسة رهيبة بين عمال النسيج.

بهذه الطريقة، استيقظت النقابات الانكليزية من سباتها المريح ونمت «النقابية الجديدة» التي تمثلت بعدد من القادة المجربين للنقابات القديمة: آلاف من المهندسين وابليارت من النجارين ولوكروفت من عمال اللحام وكريمر من البنائين وأودغر من عمال الأحذية وغيرهم. أدرك هؤلاء الرجال ضرورة النضال السياسي من أجل النقابات وحولوا انتباههم إلى مسألة إصلاح الاقتراع. وكان هؤلاء هم الذين حركوا اجتماعا ضخما حدث في قاعة سانت جيمس برئاسة القائد الراديكالي جون رايت وسجل احتجاجا شديد اللهجة ضد نية بالمرستون التدخل في الحرب الأهلية الأمريكية إلى جانب الولايات الجنوبية، وعندما زار غاريبالدي لندن في ربيع 1864، نظموا له استقبالا ضخما حافلا.

كذلك بعث الاستيقاظ السياسي للطبقتين العاملتين الفرنسية والانكليزية فكرة الأممية. فقد عقد «احتفال مؤاخاة» في عام 1862 في المعرض الكبير في لندن بين العمال الانكليز والمندوبين الفرنسيين. وتقوت هذه الرابطة أكثر بفعل الانتفاضة البولندية عام 1863. كانت القضية البولندية تلاقي دائما شعبية بين العناصر الثورية في بلدان أوربا الغربية. فقد جعل اضطهاد بولندا وتجزئتها من الدول الأوروبية الشرقية الثلاث كتلة رجعية واحدة، وكان لا بد لعودة بولندا إلى الاستقلال من أن يشكل ضربة قاصمة ضد الهيمنة الروسية في أوروبا. وكان الديمقراطيون الأخويون يحتفلون دائما بذكرى الثورة البولندية عام 1830، ولم تكن هذه الاحتفالات غير تظاهرات حماسية تطالب ببولندا مستقلة موحدة، وكان يقف خلفها دائما فكرة أساسية هي أن بولندا ديمقراطية حرة شرط ضروري للنضال البروليتاري من أجل الانعتاق. كان هذا هو الحال أيضا في عام 1863. فبرزت اللهجة الاشتراكية بوضوح تام في الاحتفالات التي جرت في لندن بحضور ممثلي العمال الفرنسيين. كذلك كانت المسألة الاجتماعية أساس خطاب أرسلته لجنة من العمال الانجليز برئاسة اودغر إلى العمال الفرنسيين لتشكرهم لإرسال مندوبين إلى احتفالات لندن. وأوضحت الرسالة على وجه الخصوص أن رأس المال الانجليزي يكبح جماح العمال الانجليز باستيراد العمل الأجنبي الرخيص ،وأن ذلك لم يكن ممكنا لولا أن الطبقات العاملة في البلدان المختلفة لم تنشئ بعد علاقات وثيقة أخوية بين بعضها البعض.

ترجم هذا الخطاب إلى الفرنسية البروفيسور بيسلي، وهو أستاذ للتاريخ بجامعة لندن كان قد أسدى للعمال خدمات كثيرة، ولاقى الخطاب صدى قويا في مصانع باريس حيث قرر العمال إرسال ردهم إلى لندن مع وفد خاص. وفي 28 أيلول 1864 عقد اجتماع في قاعة سانت مارتن برئاسة البروفيسور بيسلي للترحيب بهذا الوفد الفرنسي. ازدحمت القاعة حتى أبوابها وسمع العمال الانجليز تولين يقرأ رد العمال الفرنسيين، الذي أشار إلى الانتفاضة البولندية بالكلمات التالية: «مرة أخرى تغرق بولندا بدماء أبنائها ونحن نشهد ذلك بلا حول» ومضى ليطالب بأن يكون صوت الشعب مسموعا في كل المسائل السياسية والاجتماعية الهامة وقال أن سلطة رأس المال الاستبدادية يجب أن تحطم. فقد تحول العامل بسبب تقسيم العمل إلى أداة ميكانيكية ولا بد أن تتحول التجارة الحرة في غياب التضامن البروليتاري الأممي إلى شكل من القنانة الصناعية أقسى وأرهب من القنانة التي حطمتها الثورة الفرنسية الكبرى. إن على عمال العمال أن يتحدوا كي يواجهوا نظاما رهيبا كهذا بمقاومة حازمة.

وبعد مناقشة نشيطة تحدث فيها ايكاريوس نيابة عن العمال الألمان تبنى الاجتماع اقتراحا تقدم به النقابي ويلر لانتخاب لجنة لها صلاحية إضافة أعضاء جدد لها، وتكليفها بوضع نظام داخلي لرابطة أممية للعمال يستخدم حتى ينعقد مؤتمر أممي في بلجيكا لإقراره نهائيا. انتخبت اللجنة من عدد من النقابيين وممثلي العمال الأجانب ومن بينهم ممثل عن العمال الألمان هو كارل ماركس، الذي ذكرت تقارير الصحف اسمه في ذيل القائمة.

2-خطاب الافتتاح

لم يكن ماركس قد لعب دورا فعالا في الحركة حتى هذا الاجتماع، ولكنه دعي إليه ليمثل العمال الألمان وليسمي خطيبا يتحدث باسمهم. فسمي ايكاريوس بينما ظل هو مراقبا صامتا. كان ماركس يقدر أهمية عمله العلمي حق قدرها فلم يكن ليفضل عليه أية مجهودات تنظيمية طائشة أو لا رجاء فيها، ولكنه كان يضع هذا العمل جانبا عندما يبدر عمل مفيد حقا لقضية البروليتاريا، وقد أدرك هذه المرة أن «أمورا لها أهميتها» تجري، فكتب باللهجة ذاتها إلى وايد ماير وغيره من الأصدقاء يقول: «ليست اللجنة الأممية للعمال غير هامة. فأعضاؤها الانجليز يتألفون بصورة رئيسية من رؤساء النقابات أي من حماة العمل الحقيقيين في لندن، أولئك الرجال الذين نظموا الاستقبال الهائل لغاريبالدي وذلك الاجتماع الضخم في قاعة سانت جيمس (برئاسة برايت) الذي منع بالمرستون من إعلان الحرب على الولايات الشمالية كما ينوي. أما فيما يتعلق بالفرنسيين من أعضاء اللجنة فإنهم ليسوا على قدر كبير من الأهمية ولكنهم الممثلون المباشرون للعمال في باريس. كذلك أقيمت اتصالات مع الجمعية الايطالية التي عقدت مؤتمرها في نابولي مؤخرا وعلى الرغم من أنني رفضت باستمرار سنوات عدة الاشتراك في أية منظمة إلا أنني قبلت هذه المرة لأن هناك إمكانية عمل جيد حقا». وكتب إلى انغلز يقول: «من الواضح أن هناك انبعاثا للطبقات العاملة» واعتبر أن واجبه الأساسي قيادة هذا الانبعاث على خطوط صحيحة.

لحسن الحظ أعطته الظروف القيادة الفكرية أوتوماتيكيا. أضافت اللجنة إلى نفسها أعضاء جددا حتى بلغ عدد الأعضاء قرابة الخمسين، نصفهم من الانجليز بينما كانت أكبر مجموعة بعد الانجليز هي المجموعة الألمانية وضمت ماركس وايكاريوس ولسنر ولوخنر وفاندر وكلهم قد كان عضوا في العصبة الشيوعية. أما فرنسا فقد كان كان لها تسعة ممثلين وايطاليا ستة وكل من بولندا وسويسرا اثنان. وبعد أن شكلت اللجنة نفسها، عينت لجنة فرعية لوضع البرنامج والنظام الداخلي.

انتخب ماركس أيضا لهذه اللجنة الفرعية ولكنه لم يستطع أن يحضر الكثير من اجتماعاتها بسبب مرضه ولأن الدعوات كانت تصل متأخرة أحيانا. وفي تلك الأثناء حاول الميجور وولف، السكرتير الشخصي لماتزيني، والانكليزي وستون والفرنسي لوبيه عبثا أداء المهمة التي شكلت من أجلها اللجنة الفرعية. فعلى الرغم من أن ماتزيني كان يتمتع بشعبية كبيرة بين العمال الانجليز في ذلك الوقت إلا أن معرفته بحركة الطبقة العاملة الحديثة كانت أقل بكثير من أن تجعل قادة اللجنة الفرعية من النقابيين المجربين يقتنعون بالمسودة التي وضعها. إنه ببساطة لم يفهم النضال الطبقي البروليتاري ولذا فقد كرهه. وكان برنامجه يحتوي على بضعة جمل اشتراكية ولكن من النوع الذي كانت البروليتاريا في الستينات قد تخلت عنه. وكذلك كان النظام الداخلي الذي تقدم به موضوعا بروح حقبة قد مضت وانقضت إذ كان ينص على درجة عالية من المركزية كتلك التي تفرضها متطلبات المؤامرات السياسية. ونتيجة لذلك لم تكن محاولة ماتزيني غريبه تماما عن الظروف النقابية بشكل عام فحسب، بل وغريبة أيضا عن أهداف الرابطة الأممية للعمال بشكل خاص. إذ لم يكن هدف الرابطة خلق حركة جديدة، بل فحسب ربط حركات الطبقات العاملة التي كانت موجودة في البلدان المختلفة. كذلك لم تكن المسودات التي تقدم بها لوبيه ووستون تمثل أكثر من حشد لجمل عامة.

لذا ظل الوضع ميئوسا منه حتى تقدم ماركس واخذ الأمر بيده. كان ماركس مصمما على إلقاء كل الجهود السابقة جانبا عن أمكن، ولكي يحرر نفسه منها تماما وضع خطابا موجها إلى الطبقة العاملة ـوتلك فكرة لم تكن قد خطرت لاجتماع سانت مارتن- يشكل نوعا من المراجعة لتاريخ حركة الطبقة العاملة منذ عام 1848 ليكون مقدمه للنظام الداخلي للمنظمة الجديدة، الذي يمكن حينئذ أن يكون أكثر اختصارا ووضوحا. وافقت اللجنة الفرعية على اقتراحات ماركس وكان كل ما طلبته إضافة بضع جمل عن «الحق والواجب والحقيقية والأخلاق والعدالة»، ولكن ماركس نجح، كما قال في رسالة إلى انغلز، في وضعها بطريقة لا تجعلها مضرة. وبعد ذلك تبنت اللجنة بالإجماع وبحماسة «الخطاب الافتتاحي والقواعد المؤقتة».

قال البروفسور بيسلي فيما بعد مشيرا إلى هذه الوثيقة أنها ربما كانت أشمل وأقوى عرض لقضية الطبقة العاملة ضد الطبقة الوسطى وضع في حجم لا يزيد كثيرا عن عشر صفحات. تبدأ الوثيقة بتسجيل حقيقة مؤثرة هي أن تعاسة الطبقة العاملة لم تنقص في السنوات ما بين 1848 و1864، رغم أن هذه الفترة كانت فترة تطور صناعي وتجاري لم يعرف لها التاريخ مثيلا، وتثبت الوثيقة ذلك بمقارنة الإحصائيات المرعبة المنشورة في المصادر الرسمية عن تعاسة البروليتاريا الانجليزية، وبأرقام رسمية أخرى استخدمها وزير الخزانة، جلادستون، في خطاب موازمة أراد أن يبين فيه «الازدياد المذهل للثروة والقوة» الذي حصل في الفترة ذاتها والذي «اقتصر كليا على الطبقات المالكة». وقد عرى الخطاب هذا التناقض الصارخ على أساس الأحوال في انجلترا، لأن انجلترا كانت أقوى بلد في أوربا صناعيا وتجاريا، ولكنه أوضح أن ظروفا شبيهة تقوم على نطاق أصغر نوعا ما، بسبب الاختلافات المحلية، في كل الأقطار الأوروبية حيث بدأت الصناعة الكبيرة تنمو وتتطور.

كان هذا «الازدياد المذهل في الثروة والقوة» مقتصرا في العالم كله «على الطبقات المالكة» باستثناء واحد وحيد هو أن قطاعا صغيرا من العمال، كما في انجلترا، يمكن أن يتلقى أجورا أعلى نوعا ما، مع أن هذا التحسن يلغيه الارتفاع العام في الأسعار. «وفي كل مكان، غاصت جماهير الطبقات العاملة إلى أعماق البؤس على الأقل بالقدر الذي ارتفعت به الطبقات العليا على السلم الاجتماعي. إن هناك في أقطار أوروبا جميعا حقيقة دامغة لا يستطيع إنكارها أي باحث متجرد ولا ينكرها إلا أولئك الذين يجدون أن مصلحتهم إيقاظ آمال خداعة في الآخرين، هذه الحقيقة هي أنه لا وصول الصناعة إلى حد الكمال ولا تطبيق العلم على الصناعة والزراعة، لا وسائل الموصلات والاتصالات ولا المستعمرات الجديدة والهجرة، لا غزو أسواق جديدة ولا التجارة، ولا هذه الأمور مجتمعة نجحت في محو بؤس الجماهير العاملة. بل على العكس منذ ذلك، يؤدي كل تطور جديد في قوة العمل الخلاقة على الأسس الزائفة للأوضاع الراهنة إلى زيادة حدة التناقضات العدائية الاجتماعية ومفاقمة الصدام الاجتماعي. فخلال فترة التقدم الاقتصادي المذهل، ارتفعت المجاعة حتى كادت تصبح مؤسسة اجتماعية في عاصمة الإمبراطورية البريطانية. إن هذه الفترة تتسم في سجلات التاريخ بالعودة المتسارعة والمدى المتسع والآثار القاتلة للوباء الاجتماعي المسمى الأزمة الصناعية والتجارية».

ثم ألقى الخطاب نظرة على هزيمة حركة الطبقة العاملة في الخمسينات، وتوصل إلى نتيجة هي أن هذه الفترة كان لها سماتها الحسنة. وأكد على وجه الخصوص حقيقتين: أولهما القرار القانوني ليوم العمل من عشر ساعات بنتائجه الطيبة على البروليتاريا الانجليزية. فقد كان النضال من أجل التحديد القانوني ليوم العمل تدخلا مباشرا في الصدام الكبير بين القوى العمياء لقانون العرض والطلب، الذي يتلخص به الاقتصاد السياسي للبرجوازية، وبين الإنتاج المحكوم بالرفاه الاجتماعي كما تمثله الطبقة العاملة. «ولذا فقد كان قانون الساعات العشر نصرا سياسيا عظيما، وليس ذلك فحسب بل أيضا انتصارا لمبدأ، فللمرة الأولى ينتصر الاقتصاد السياسي للطبقة العاملة على الاقتصاد السياسي للبرجوازية».

كذلك أحرز الاقتصاد السياسي للبروليتاريا انتصارا أعظم عبر الحركة التعاونية وإنشاء مصانع تقوم على مبدأ التعاون عبر العمل الجاد الذي قام به بضعة أشخاص دون مساعدة خارجية. غير أنه لا يمكن عزو أهمية أكثر مما يجب لهذه التجارب الاجتماعية العظيمة. يمكن القول أنها «أثبتت بالممارسة بدلا من المنطق أن الإنتاج على نطاق واسع وطبقا لقوانين العلم الحديث ممكن دون وجود طبقة من الموظفين توظف طبقة من العمال، كما أثبتت أنه يمكن إنتاج الثروة دون احتكار أدوات العمل كوسائل للسيطرة الاستغلالية على العمال، وكذلك أثبتت أن العمل

المأجور، كالعبودية والقنانة، ليس إلا مشكلا مؤقتا لا بد أن يختفي أمام العمل التعاوني، الذي يقوم بالمهمة الصعبة برضى وروح مرحة وقلب مفعم بالسعادة». غير أن العمل التعاوني لن يستطيع كسر احتكار رأس المال إذا ما اقتصر على محاولات متفرقة «وربما كان هذا بالذات هو السبب في أن الارستقراطيين، الذين يبدون رفيعي التفكير، وخطباء البرجوازية المحسنين وحتى الاقتصاديين العنيدين بدأوا فجأة يطرون نظام العمل التعاوني إطراء مثيرا للتقزز، ذلك النظام الذي حاولوا خنقه في المهد وسخروا منه بوصفه أحلاما طوباوية وشجبوه بوصفه جنونا اشتراكيا». ولا يمكن أن ينقذ الطبقة العاملة غير نمو العمل التعاوني إلى حدود قومية، ولكن ملاك الأرض ورأس المال سيعبئون دائما امتيازاتهم السياسية لتكريس احتكارهم الاقتصادي إلى ما لا نهاية، ولذا فإن الواجب العظيم الملقى على عاتق الطبقة العاملة هو الاستيلاء على السلطة السياسية.

ويبدو أن العمال أدركوا ضرورة هذا، كما ثبت بعودة حركة الطبقة العاملة إلى الحياة في انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا في وقت واحد، وكذلك بالجهود التي تمت في وقت واحد لإعادة تنظيم العمال سياسيا. «وهم يملكون عنصرا واحدا من عناصر النجاح هو العدد، ولكن العدد لا يصبح ثقلا في الميزان إلا إذا توحدوا في منظمة وساروا نحو هدف واع». لقد أثبتت التجربة السابقة أن تجاهل الأخوة التي يجب أن توجد بين عمال كل البلدان وتحثهم على الوقوف جنبا إلى جنب في كل نضالاتهم من أجل الانعتاق، يؤدي دائما إلى فشل الجهود المتناثرة فشلا عاما. وهذا هو الاعتبار الذي دفع اجتماع قاعة سان مارتن إلى تأسيس الرابطة الأممية للرجال العاملين.

كما أن هناك قناعة أخرى دفعت الاجتماع هي أن انعتاق العمال يتطلب علاقات أخوية بين عمال كل البلدان، ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الهدف الرفيع في وجه السياسة الخارجية التي تتبعها مختلف الحكومات، سياسة السعي وراء غايات إجرامية واستغلال التحيزات القومية وسفك دم الشعوب في حروب ضارية؟ إن الشجاعة البطولية التي قاومت بها البروليتاريا الحماقات الإجرامية، وليس حكمة الطبقات الحاكمة، هي التي أنقذت بلدان أوروبا الغربية من شن حملة عنيفة مشينة لتكريس العبودية على الجانب الآخر من الأطلنطي. كما أن التصفيف المخزي والتعاطف النفاقي أو اللامبالاة الغبية التي واجهت بها الطبقات الحاكمة غزو روسيا القيصرية لجبال القفقاس الشاسعة وذبح الشعب البولندي البطل جعلت الطبقة العاملة تدرك أن واجبها يحتم عليها أن تستكشف أسرار السياسة الدولية وتراقب الحيل الدبلوماسية التي تقوم بها الحكومات مراقبة وثيقة، كي تعارضها بكل وسيلة ممكنة، حتى إذا ثبت أن من المستحيل الوقوف في وجهها نظمت الطبقة العاملة تظاهرات ضخمة لتطالب بأن تسود العلاقات بين الأمم قوانين الأخلاق والعدالة البسيطة التي تحكم علاقات الأفراد. لقد كان النضال من أجل سياسة خارجية كهذه جزءا لا يتجزأ من نضال الطبقة العاملة العام من أجل الانعتاق. ثم اختتم الخطاب كما اختتم البيان الشيوعي من قبل بكلمات: «يا عمال العالم اتحدوا!».

أما القواعد المؤقتة فقد بدأت بخواطر يمكن تلخيصها كما يلي: ينبغي أن يكون انعتاق الطبقة العاملة مهمة العمال أنفسهم. إن نضال الطبقة العاملة من أجل الانعتاق ليس نضالا لإقامة امتيازات طبقية جديدة، بل لإلغاء الحكم الطبقي كله. إن خضوع العمال اقتصاديا لمن استولوا على أدوات العمل، أي على منبع الحياة، يؤدي إلى العبودية بكل أشكالها: البؤس الاجتماعي والضمور الثقافي والفكري وانعدام الاستقلال السياسي. ولذا فإن الانعتاق الاقتصادي للطبقة العاملة هو الهدف العظيم الذي يجب أن تستخدم كل الحركات السياسية وسيلة له. لم تنجح كل المحاولات لتحقيق هذا الهدف حتى الآن بسبب الافتقار إلى الوحدة بين جماعات الطبقة العاملة المختلفة في كل بلد وبين الطبقات العاملة في مختلف البلدان. إن تحرير العمال ليس مهمة محلية ولا مهمة قومية، إنه مهمة اجتماعية. إنه مهمة تشمل كل البلدان التي يوجد فيها مجتمع حديث، ولا يمكن تحقيقها إلا بالتعاون المستمر المنهجي بين كل هذه البلدان. وبعد ذلك، انتقل ماركس إلى الملاحظات الأخلاقية المبتذلة عن العدالة والحقيقة والحقوق والواجبات، فضمنها للنص دون رغبة في ذلك وألصقها بالفقرات الواضحة العميقة السابقة.

نصت القواعد على أن يرئس الرابطة الجديدة مجلس عام يتكون من عمال من البلدان المختلفة الممثلة فيها، وتقوم اللجنة التي أنتجها اجتماع قاعة سان مارتن بمهام المجلس العام إلى حين انعقاد المؤتمر الأول. والمهمات الملقاة على عاتق المجلس إخبار عمال كل بلد بانتظام بنشاطات العمال في البلدان الأخرى، جمع إحصائيات عن وضع الطبقات العاملة في البلدان المختلفة، بحث المسائل التي تهم كل منظمات الطبقة العاملة، ضمان قيام كل المنظمات المرتبطة بالأممية بعمل متناسق في حالة نشوب خلافات دولية، نشر تقارير منتظمة عن عمل الرابطة، وغير ذلك من الهمام المشابهة.

وينتخب المجلس العام من جانب المؤتمر الذي يعقد مرة كل سنة ويحدد مقر المجلس وموعد ومكان المؤتمر القادم. ويحق للمجلس العام أن يضيف أعضاء جددا له، وأن يبدل مكان المؤتمر إذا كان ذلك ضروريا، ولكن لا يحق له تأجيله. وتحتفظ المنظمات العمالية المرتبطة بالأممية باستقلالها التنظيمي التام ويمكن لأي منظمة محلية مستقلة أن تقيم علاقات مباشرة مع المجلس العام، برغم أن من المرغوب فيه أن تتوحد المنظمات المختلفة في البلد الواحد إلى أقصى حد ممكن على أساس قومي وبقيادة هيئات مركزية، وذلك حرصا على الفعالية.

على الرغم من أن من الخطأ وصف الأممية بأنها من صنع «عقل واحد عظيم»، إلا أنه يصح القول أنها وجدت تحت تصرفها عندما نشأت عقلا عظيما وفرً عليها احتمال التيه في مسالك وعرة خاطئة إذ أشار إلى الطريق الصحيح منذ البداية. إن ماركس لم يفعل أكثر من هذا، لوم يكن ينوي أبدا أن يفعل. أما الروعة التي لا مثيل لها التي يبديها الخطاب الافتتاحي فسببها أنه يقوم على أساس الوضع المعطى، وأنه كما أوضح ليبكنشت عن حق، يحتوي على المضامين النهائية للشيوعية بقدر لا يقل عما احتواه البيان الشيوعي.

غير أن الخطاب الافتتاحي والقواعد المؤقتة لم تختلف عن البيان الشيوعي في الشكل فحسب كتب ماركس لانغلز يقول: «من الضروري أن يمر وقت قبل أن تسمح الحركة المنبعثة من جديد لنفسها باستخدام اللغة القديمة الجريئة. إن الحاجة الراهنة تدعو إلى: جرأة في المضمون واعتدال في الشكل»- بل كان لها هدف مختلف جدا كذلك. لقد كان هدف الأممية توحيد كل بروليتاريا أوروبا والولايات المتحدة في جيش واحد عظيم، وإعطاها برنامجا يترك الباب مفتوحا –على حد تعبير انغلز- لدخول النقابات الانجليزية والبرودونيين الفرنسيين والبلجيكيين

والايطاليين والاسبان واللاساليين الألمان. ولقد اعتمد ماركس اعتمادا كليا على تطور الطبقة العاملة فكريا نتيجة عملها الموحد لضمان النهائي للاشتراكية العلمية كما أوردها البيان الشيوعي.

ولكن لم يمض وقت حتى واجهت آماله امتحانا قاسيا، فما كادت الأممية تبدأ عملها الدعاوي حتى وجدت نفسها في صدام حاد مع ذلك القطاع من الطبقة العاملة الأوروبية الذي يفهم مبادئ الأممية أفضل من كل من عداه.

3-الخلاف مع شفايتزر

إنها لأسطورة تلك التي تقول أن اللاساليين الألمان رفضوا الارتباط بالأممية واتخذوا منها موقفا عدائيا منذ البداية. ولكن هذه الأسطورة ليست صحيحة ولا مستساغة.

في المقام الأول، من المستحيل أن يجد المرء أي سبب ربما كان قد دعاهم إلى اتخاذ هذا الموقف. صحيح أنهم كانوا يعلقون أهمية كبرى على الانضباط الصارم في صفوفهم، ولكن القواعد المؤقتة للأممية لم تكن تعني أي تدخل في شؤونهم، وفوق ذلك كانوا يستطيعون تبني خطاب الافتتاح من بدايته حتى نهايته، وعلى الأخص ذلك القسم الذي يعلن أنه ليس هناك ما ينقذ الطبقة العاملة غير نمو التعاونيات إلى حدود قومية ومساعدتها بوسائل الدولة.

الحقيقة أن اللاساليين في ألمانيا اتخذوا من الأممية موقفا ودودا منذ البداية، رغم أنهم كانوا وقت تأسيسها منغمسين في متاعبهم الذاتية. فبعد موت لاسال، انتخب برنهارد بيكر، طبقا لما أوصي به لاسال على فراش الموت، رئيسا لـ«الغماينه دويتشر اربايترفيرن»، ولكنه سرعان ما أثبت ضعفه مما أدى إلى فوضى رهيبة، فلم يعد يربط المنظمة ببعضها شيئا غير صحيفتها «سوسيال ديمقراط»، التي كانت قد بدأت تظهر في نهاية 1864 بقيادة فون شفايتزر، وهو رجل قدير ونشيط فعل كل ما في وسعه لتامين تعاون ماركس وانغلز. فجعل ليبكنشت عضوا في هيئة التحرير ونشر خطاب الافتتاح في العددين الثاني والثالث من الصحيفة، دون أن يتعرض إلى أي ضغط يجبره على ذلك.

شكك موسى هس، مراسل الصحيفة في باريس، بتولين قائلا أنه صديق للقصر الملكي حيث كان جيروم بونابرت يلعب دور الديماغوجي الأحمر، ولكن شفايتزر لم ينشر رسالة هس إلا بعد أن حصل على موافقة ليبكنشت. وعندما اشتكى ماركس من ذلك، فعل كل ما وسعه من جهد لتسوية المسألة وديا وأمر أن ينظر ليبكنشت أولا في كل ما تنشره الصحيفة من أمور تتعلق بالأممية. وفي 15 شباط كتب شفايتزر رسالة إلى ماركس يخبره فيها أنه ينوي التقدم باقتراح يقضي بأن تعلن منظمته موافقتها الكاملة على مبادئ الأممية وترسل مندوبين إلى مؤتمراتها. غير أن المنظمة لن ترتبط رسميا بالأممية بسبب وحيد هو أن القوانين الفيدرالية الألمانية تحظر إقامة أية صلات بين منظمات الطبقة العاملة. لكن شفايتزر لم يتلق أي رد على رسالته هذه، وبدلا من ذلك عمد ماركس وانغلز إلى نشر بيان يعلن فصم كل علاقاتهما مع «سوسيال ديمقراط».

تبين هذه الحقائق أن الشقاق المؤسف لم تكن له علاقة على الإطلاق بأي خلافات لها علاقة بالأممية، ويوضح البيان الذي أصدره ماركس وانغلز الأسباب الحقيقة بصراحة تامة. فقد أعلنا أنهما لم يفشلا يوما في أخذ الوضع الصعب الذي تواجهه «سوسيال ديمقراط» بعين الاعتبار، وأنهما لم يتقدما أبدا منها بمطالب لا تتفق مع الأوضاع في برلين، ولكنهما طالباها باستمرار أن تتخذ موقفا تجاه الحكومة والحزب الإقطاعي لا يقل جرأة عن موقفها تجاه «التقدميين». ولذا فإن التاكتيكات التي تتبعها الصحيفة جعلت من المستحيل عليهما الاستمرار في المساهمة فيها. فهما لا يزالان يتمسكان حرفيا بما كتباه مرة في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» حول الاشتراكية الحكومية البروسية الإمبراطورية والوقف الذي يجب أن يتخذه حزب الطبقة العاملة تجاه خداع حقير كهذا، وذلك عندما ردا على «راينيخه بيوباختر» التي اقترحت «تحالف البروليتاريا مع الحكومة ضد البرجوازية الليبرالية».

في الواقع، لم يكن للتاكتيكات التي اتبعتها «سوسيال ديمقراط» أي علاقة بتحالف كهذا أو بأي «اشتراكية حكومية بروسية إمبراطورية». فعندما خاب أمل لاسال الأول في أن يستطيع استشارة الطبقة العاملة الألمانية لتشكل حركة واحدة قوية، وجدت «الغماينه دويتشر اربايترفيرن»، بقرائها الذين يبلغ عددهم بضعة آلاف، نفسها محشورة بين خصمين، كل منهما يملك من القوة ما يكفي لسحقها. فلم يكن حزب العمال الشاب يتوقع من البرجوازية غير الكراهية الغبية، ومن الدبلوماسي الخبيث بسمارك غير أن لا يستطيع تنفيذ سياسته في إقامة بروسيا الكبرى دون القيام بتنازلات معينة لجماهير الشعب. ولم يكن لدى شفايتزر أية أوهام حول قيمة أو هدف تنازلات كهذه، ولكن في وقت كانت الطبقة العاملة الألمانية محرومة من حق التنظيم ولا تتمتع بحق الاقتراع العام، وقت كانت فيه حرية الصحافة والانتظام والاجتماع تحت رحمة التدابير البيروقراطية الاعتباطية، في وقت كهذا لم تكن الاشتراكية الديمقراطية تستطيع إحراز تقدم بمهاجمة خصميها معا في وقت واحد وبالقوة ذاتها، ولكن فقط بلعب أحد الخصمين ضد الآخر. على الرغم من أن هناك شرطا ضروريا ضرورة مطلقة لنجاح سياسة كهذه هو بالطبع استقالا حزب العمال الشاب تجاه الجانبين ووعي صارم لهذا الاستقلال بين الجماهير العاملة.

اتبع شفايتزر هذه السياسة بنشاط ونجاح ومن المستحيل أن يجد المرء أي شيء على صفحات «سوسيال ديموقراط» يشتم منه وجود «تحالف» مع الحكومة ضد التقدميين. ولا شك في أن دراسة لنشاطاته على الخلفية السياسية العامة لتلك الأيام تكشف عن بعض الأخطار – التي اعترف بها هو نفسه- لكن سياسته كانت بشكل عام سياسة منطقية متماسكة لا يهديها غير مصالح الطبقة العاملة، ولم تكن بالتأكيد سياسة أملاها بسمارك أو أي رجعي آخر.

وعلى الرغم من أن شفايتزر لم يكن نِداً لماركس وانغلز في كثير من المجالات، إلا أنه كان يملك ميزة واحدة عليهما ألا وهي المعرفة الشاملة للأوضاع في بروسيا. إذ لم يكونا على معرفة مباشرة بالوضع بينما لم يقم ليبكنشت، الذي وقعت على عاتقه بالطبع مهمة سد هذا النقص. بهذه المهمة على شكل مرض. عاد ليبكنشت إلى ألمانيا عام 1868 ليؤسس مع الجمهوري الألماني براس صحيفة «نورد دويتشه الغماينه تزايتونغ»، ولكنه ما كاد يبدأ العمل على تحريرها حتى اكتشف أن براس باع الصحيفة من بسمارك. فانفصل عن الصحيفة في الحال، ولكن تجربته الأولى هذه على الأرض الألمانية لم تكن مؤسفة بمعنى أنها تركته مرة أخرى في وضع مالي حرج يذكّر بأيامه في المنفى فحسب، مع أن هذا لم يكن ليثير فيه قدرا زائدا من القلق لأنه اعتاد على وضع القضية فوق مصالحه الشخصية، ولكن أيضا لأنها منعته من التوصل إلى فكرة غير متحيزة عن الظروف الجديدة التي وجدها في ألمانيا.

عندما عاد ليبكنشت كان لا يزال مشبعا بروح عام 1848 القديمة، روح «نيو راينيخه تزايتونغ»، التي كانت تعلق على النظرية الاشتراكية وحتى على الصراع الطبقي أهمية أقل مما علقت على النضال الثوري للأمة ضد حكم الطبقات الرجعية. وعلى الرغم من أنه كان متمكنا من الأفكار الأساسية للنظرية الاشتراكية إلا أنه لم يكن أبدا منظرا اشتراكيا عميقا. وكان الأمر الرئيسي الذي تعلمه من ماركس خلال سنوات المنفى هو ميل هذا الأخير إلى تمحيص الحقول الواسعة للسياسة الدولية بحثا عن أي إشارات لوجود تطورات ثورية. كان ماركس وانغلز، كاثنين من أبناء الراينلاند يميلان إلى احتقار كل ما يمت بصلة إلى شرقي الألب ولذا فقد قللا من أهمية الدولة البروسية. أما ليبكنشت فقد كان أسوأ، ذلك أنه ولد في ألمانيا الجنوبية، وقضى السنوات الأولى للحركة أما في بادن أو في سويسرا وكل منهما قلعة من قلاع الإقليمية. فاعتبر أن بروسيا لا تزال ذلك التابع لروسيا كما في أيام ما قبل آذار، اعتبرها دولة رجعية تكافح التقدم التاريخي بسلاح الفساد الحقير، دولة يجب أن تهزم قبل أن يصبح ممكنا التفكير بأي صراع طبقي حديث في ألمانيا. وفشل في أن يدرك أن التطورات الاقتصادية في الخمسينات غيَّرت الدولة البروسية إلى حد كبير وخلقت ظروفا جعلت انفصال الطبقة العاملة عن الديمقراطية البرجوازية ضرورة تاريخية.

وبالتالي كان أي تفاهم دائم بين ليبكنشت وشفايتزر مستحيلا. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير في نظر ليبكنشت عندما نشر شفايتزر سلسلة من خمس مقالات حول وزارة بسمارك، مقارنا بصورة رائعة بين سياسة بروسيا الكبرى وبين السياسة البروليتارية الثورية بصدد مسألة الوحدة الألمانية، ولكنه اقترف «خطأ» هو وصف الطاقة الخطرة لسياسة بسمارك بفصاحة بالغة كادت تبدو تعظيما له. من جهة أخرى اقترف ماركس في رسالة بعث بها إلى شفايتزر في 13 شباط «خطأ» هو قوله أن الحكومة البروسية على الرغم من أنها تتبنى مختلف أشكال التجارب الطائشة لفكرة التعاونيات الإنتاجية ،إلا أنها لن تنقض القوانين التي تحظر الانتظام النقابي ولن تحد من البيروقراطية والاعتباط البوليسي. غير أن ماركس كان بذلك ميالا إلى الغفلة عما هاجم هو برودون لأجله، وذلك بالتحديد أن الحكومات لا تستطيع السيطرة على الظروف الاقتصادية بل الظروف الاقتصادية هي التي تسيطر على الحكومات، وبعد ذلك ببضعة سنوات اضطرت وزارة بسمارك إلى إلغاء القوانين التي تحظر الانتظام النقابي. كتب شفايتزر رده في 15 شباط، ووعد في هذا الرد أن يعمل في صحيفة «الغماينه دويتشر اربايترفيرن» من أجل الأممية وأخبر ماركس ثانية أن ليبكنشت كُلِّف بتحرير كل المسائل المتعلقة بالأممية. وأعلن شفايتزر أنه سيصغي بسرور إلى أي نصيحة نظرية يمكن أن يقدمها له ماركس، أما بالنسبة لتقرير المسائل العملية فإن على المرء أن يكون في مركز الحركة نفسها وأن يملك معرفة كاملة بالظروف القائمة. عندئذ اختلف ماركس وانغلز معه.

لا يمكن فهم سوء التفاهم هذا والتعقيدات التي رافقته إلا بالعلاقة مع النشاطات المؤسفة التي قامت بها الكونسته هاتزفيلد، التي ارتكبت خطيئة بحق الرجل الذي أنقذ اسمها مرة من العار، فقد سعت إلى تحويل ما فعله لاسال إلى شيعة أرثوذوكسية تعتبر كلمة المعلم قانونا أعلى لها، بل أن القانون الأعلى لم يكن كلمة المعلم قدر ما كان التفسير الذي أعطته الكونتسه لها. ويمكن رؤية الإساءة التي ارتكبتها من رسالة بعثها انغلز إلى وايدماير في 10 آذار، وفيها يقول بعد بضعة كلمات عن تأسيس «سوسيال ديمقراط»: «لقد نمت في الصحيفة عبادة لاسال الشخصية إلى حد لا يمكن التغاضي عنه، وفي هذه الأثناء علمنا بشكل قاطع (أخبرت الكونتسه العجوز هاتزفيلد ليبكنشت بذلك وطلبت إليه أن يتصرف بالروح ذاتها) أن لاسال كان على علاقة ببسمارك أوثق مما ظننا فقد كان هناك تحالف رسمي بين الرجلين ووصل الحد إلى أمر الاتفاق بينهما إلى أن يذهب لاسال إلى سليزويغ-هولشتاين ليدعم اقتطاع الدوقتين بينما أعطى بسمارك بالمقابل وعدا غامضا بتحقيق نوع من الاقتراع العام كما أعطى وعدا أكثر تحديدا بقليل بمنح حق التنظيم والقيام بتنازلات اجتماعية ومنح دعم الدولة لمنظمات العمال...الخ. ولم يكن لدى لاسال الأحمق أية ضمانات بأن بسمارك سيلتزم بجانبه من الاتفاقية. ولا بد أن بسمارك كان سيتلخص منه حالما يشعر بأي إزعاج من جانبه. إن محرري «سوسيال ديمقراط» يعرفون ذلك جيدا، ومع ذلك فهم يحافظون على نزعة عبادة لاسال بقوة أكثر من أي وقت مضى وبالإضافة إلى ذلك يدعون فاغنر (صاحب صحيفة كروز تزايتونغ) يرهبهم فيقدمون فروض الولاء لبسمارك ويغازلون أفكاره. لقد أصدرنا بيانا قطعنا فيه كل علاقاتنا معهم وفعل ليبكنشت الأمر ذاته». كان من الطبيعي بعد ذلك أن يقطع ماركس وانغلز كل علاقاتهما مع الحركة التي أنشأها لاسال. غير أن عملهما لم تكن له آثار عملية على الحركة حتى أن أعضاء قدامى في العصبة الشيوعية مثل روزر، الذي كان قد دافع عن مبادئ البيان الشيوعي دفاعا رائعا أمام محكمة كولون، أعلنوا أنهم يقفون إلى جانب تكتيكات شفايتزر.

4-المؤتمر الأول في لندن

هكذا أقصي اللاساليون الألمان عن الأممية منذ البداية، وكانت الدعاية بين النقابيين الانجليز والبرودونيين الفرنسيين تحرز في البداية تقدما بطيئا جدا.

على أية حال لم يكن قد أدرك ضرورة النضال السياسي غير دائرة صغيرة من القادة النقابيين، وحتى هؤلاء أنفسهم كانوا يعتبرون الأممية وسيلة لتحقيق غايات نقابية أكثر منها أي شيء آخر. لكنهم كانوا على الأقل يملكون قدرا كبيرا من التجربة العملية في المسائل التنظيمية بينما

لم يكن البرودونيون الفرنسيون يملكون لا هذا ولا أية معرفة بالطابع التاريخي للحركة العاملة. لقد وضعت المنظمة الجديدة لنفسها في الواقع مهمة عظيمة، فكانت تحتاج طاقة عظيمة وجلدا عظيما للقيام بها.

وعلى الرغم من أن ماركس كان يقع المرة تلو الأخرى صريع المرض المؤلم. وأيضا على الرغم من أنه كان يتوق إلى إنهاء عمله العلمي، فإنه لم يوفر طاقة ولا جلدا في سبيل قضية الأممية. وقد تنهد ذات مرة قائلا: «أسوا ما في تحريض كهذا هو أنه يزعج عمل المرء». وفي مرة أخرى أعلن أن الأممية وكل ما يتصل بها يثقل عليه «ككابوس» وأنه سيكون مسرورا لو انزاح عن صدره. غير أنه أدرك أنه ما أن وضع يده على المحراث حتى لم يعد يستطيع سحبها، وفي الواقع لم يكن ماركس ليشعر لو تخلى عن العبء بالسعادة التي أشعره بها حمله له.

سرعان ما أصبح واضحا أن ماركس هو «الرأس» الفعلي للحركة. لا لأنه دفع بنفسه إلى المقدمة بأي شكل، فقد كان يكن احتقارا بالغا للشعبية الرخيصة. وكان على عكس أولئك الديمقراطيين، الذين جعلوا أنفسهم يظهرون بمظهر هام علنا بينما هم في الواقع لا يفعلون شيئا، يقوم بقدر هائل من العمل خلف الأستار بينما هو يبقى نفسه بعيدا عن نظر الجماهير غير أنه لم يكن في المنظمة رجل آخر يملك الصفات غير العادية الضرورية لمهماتها العظيمة: البصيرة الواضحة النفاذة في قوانين التطور التاريخي، القدرة على متابعة ما يلزم بلا تردد، الصبر الذي يحمل القناعة ضمن حدود ما يمكن، تحمل الأخطاء غير المقصودة والقسوة تجاه الجهل العنيد. لقد أصبح ماركس الآن في موقع يستطيع معه أن يمارس موهبته التي لا تجاري في السيطرة على الرجال بقيادتهم وتعليمهم.

لقد كلفته النزاعات والشجارات الشخصية التي لا بد أن تشكل جزءا لا يتجزأ من بدايات حركة كهذه «الكثير من الوقت»، كما سبب له الأعضاء الايطاليون وعلى الأخص الفرنسيون مصاعب لا ضرورة لها. فقد كان يوجد في باريس منذ السنوات الثورية كراهية عميقة بين «العمال اليدويين والعمال العقليين». فقد كان البروليتاريون يجدون من الصعب عليهم أن ينسوا خيانة المثقفين المتكررة، وكان المثقفون يشجبون كل حركات الطبقة العاملة التي لا تريد إقامة علاقات معهم. هذا في قوت أصبحت الخديعة البونابرتية منتشرة فيه حتى في صفوف الطبقة العاملة في ظل ظروف الاستبداد العسكري البونابرتي. وقد كان من نتائج هذه المسألة الفرنسية أن قضى المجلس العام الأممية الكثير من الأمسيات القيمة وتبنى الكثير من القرارات الطويلة المعقدة.

كانت نشاطات ماركس بالعلاقة مع الفرع الانجليزي للأممية أكثر مواتاة وأكثر فائدة. وكان العمال الانجليز قد عارضوا بصلابة نية حكومتهم التدخل في الحرب الأهلية الأمريكية إلى جانب الولايات الجنوبية المتمردة، وعندما أعيد انتخاب أبراهام لينكولن رئيسا أرسلوا له رسالة تحية وتهنئة. وضع ماركس هذه الرسالة إلى «ابن الطبقة العاملة» الذي وقعت على عاتقه مهمة قيادة بلده في النضال من أجل تحرير العرق المستعبد. وطالما فشل عمال أمريكا البيض في إدراك أن وجود العبودية الإنسانية خزي للجمهورية وعار عليها، وما داموا يتفاخرون أمام الزنجي، الذي باع دون موافقته المسبقة، بامتيازهم الذي لا يقارن بقدرتهم على بيع أنفسهم واختيار سيدهم، فإنهم لا يستطيعون أن يحرزوا الحرية الحقيقية ولا أن يدعموا نضال أشقائهم الأوروبيين من أجل الحرية. غير أن بحر الدم خلال الحرب الأهلية أطاح بهذا الحاجز.

كان ماركس، مثل ليسنغ، معتادا على التحدث عن أعماله سلبا، ولكن من الواضح أنه وضع في هذه الرسالة جماع قلبه، على الرغم من أنه كتب لانغلز يقول أنه أعطي مهمة منح الرسالة شكلها، وتلك مهمة أصعب بكثير مما لو كان مسؤولا عن المضمون كذلك، وقال أنه ما فعل ذلك إلا لكي يجعل الجمل المعهودة في وثائق كهذه تختلف على الأقل عن الكلام الديمقراطي المبتذل. لم يفشل لينكولن في أن يلاحظ الفارق، وأدهش صحف لندن عندما أجاب على الرسالة بلهجة ودية دافئة، فقد كان من عادة «الرجل العجوز» الرد على كل التهاني التي يتلقاها من الأوساط البرجوازية الديمقراطية ببضعة جمل رسمية.

كان لخطاب ألقاه ماركس في المجلس العام للأممية في 26 حزيران 1865 أهمية اكبر بكثير من حيث المحتوى. وكان بعنوان «القيمة والسعر والربح»، وهدف إلى دحض ما قاله عدد من أعضاء المجلس من أن الارتفاع العام في الأجور لا يعود بفائدة حقيقية على العمال ولذا فإن النقابات مضرة. وكان هذا القول يقوم على افتراض خاطئ هو أن الأجور تحدد قيمة السلع وأنه إذا دفع الرأسمالي خمسة شلنات من الأجور بدلا من أربعة فإنه سيبيع سلعته غدا بخمسة شلنات بدلا من أربعة نتيجة ازدياد الطلب. أعلن ماركس انه على الرغم من أظن هذا تفكير ضحل جدا لا يأخذ بالاعتبار غير المظاهر السطحية للأمور، إلا أن من الصعب تفسير كل المسائل الاقتصادية المتعلقة بالموضع للجهلة. إذ أن من المستحيل تكثيف الاقتصاد السياسي كله في ساعة واحدة. لكنه في الواقع نجح في ذلك بشكل يثير الإعجاب فشكرته النقابات على الخدمة القيمة التي أداها لها.

كانت الحركة المتنامية من أجل إصلاح الاقتراع العام هي التي حققت للأممية أول نجاحاتها، وفي الأول من أيار عام 1865 كتب ماركس إلى انغلز قائلا: «إن عصبة الإصلاح من صنعنا. ففي اللجنة الداخلية المكونة من اثني عشر شخصا (ستة يمثلون الطبقة الوسطى وستة يمثلون الطبقة العالمة) ينتمي كل ممثلي العمال إلى المجلس العام ومن بينهم ايكاريوس. لقد أحبطنا كل محاولات الطبقة الوسطى لخداع العمال... وإذا نجحت هذه المحاولة لبعث الحركة السياسية للطبقة العاملة في انجلترا، فإن رابطتنا تكون قد صنعت للطبقة العاملة الأوروبية أكثر مما يمكن أن تصنع بأي طريقة أخرى، ودون أن تحدث ضجيجا حول الأمر. وهناك احتمالات كبيرة للنجاح». وفي 3 أيار رد انغلز: «لقد كسبت الرابطة الأممية الكثير حقا في وقت قصير جدا وبإمكانيات ضئيلة فعلا. إنه لأمر حسن أن تكون الرابطة مشغولة الآن في انجلترا بدلا من أن تتعب رأسها بالعصبوية الفرنسية. إنك على الأقل تلقي ما يعوض عن وقتك المفقود». غير أن وقتا طويلا لم يمض حتى تبين أن لهذا النجاح جانبه السيء أيضا.

كان ماركس يعتبر أن الوضع السياسي ناضجا بشكل عام لعقد المؤتمر العام الأول الذي كان مقررا عقده في بروكسيل عام 1865، فقد خشي لأسباب مبررة أن ينحط المؤتمر إلى مجرد معركة كلامية، فاستطاع بصعوبة كبيرة، أثارتها على وجه الخصوص معارضة فرنسية

ناشطة، أن يحصل على اتفاق يقضي بعقد اجتماع داخلي في لندن، بدلا من المؤتمر العام العلني في بروكسيل، يحضره فقط ممثلو اللجان القيادية ويكون مجرد تمهيد للمؤتمر القادم. وبيَّن ماركس الأسباب التي تدعم موقفه: ضرورة الاتفاق والنقاش المسبق، حركة الإصلاح في انجلترا، موجة الإضرابات في فرنسا، وفي النهاية التشريع الذي اقر في بلجيكا ضد الأجانب والذي يجعل عقد المؤتمر مستحيلا.

انعقد الاجتماع في لندن من 25 إلى 29 أيلول 1865. ومثل المجلس العام فيه رئيسه اودغر وسكرتيره العام كريمر، وعدد من الأعضاء الانجليز وماركس ومساعداه الرئيسيان في شؤون الأممية ايكاريوس ويونغ، وهو ساعاتي سويسري كان يعيش في لندن ويتكلم الانجليزية والفرنسية والألمانية جيدا. ومثل فرنسا تولين وفرايبورغ وليموزين وكلهم تركوا الأممية فيما بعد، وشيلي صديق ماركس القديم منذ 1848، وفارلان الذي أصبح فيما بعد واحدا من أبطال وشهداء كومونة باريس. وأرسلت سويسرا مندوبين هما دوبليكس عن العمال السويسريين الفرنسيين-الايطاليين، ويوهان فيليب بيكر، وهو صانع فراش سابق ومحرض ثوري دؤوب، عن العمال السويسريين الألمان. أما بلجيكا فقد مثلها سيزار دو بيب الذي بدا دراسة الطب وهو منضد حروف في مطبعة ونجح في أن يصبح طبيبا.

بحث الاجتماع أولا في مسائل تمويل الرابطة، فتبين أن الدخل الكلي للسنة الأولي كان قرابة 33 جنيها. ولم يتم التوصل على اتفاق حول إقرار اشتراكات منتظمة للعضوية، ولكن اتفق على جمع مبلغ 150 جنيها لأغراض الدعاية وتغطية نفقات المؤتمر القادم: ثمانين جنيها تجمع في انجلترا، وأربعين جنيها في فرنسا وعشرة جنيهات في كل من بلجيكا وسويسرا. لم تكن ميزانية الأممية يوما واحدا من ملامحها البارزة ولا مثلت النقود أبدا مصدر قوتها. وبعد ذلك بسنوات قال ماركس بفكاهة مريرة أن أموال الأممية كانت تنمو سلبا باطراد، وبعد حين قال انغلز أن «ملايين الأممية» الشهيرة كانت بصورة رئيسية ديونا، وأنه ربما لم يحدث من قبل أن تحقق شيء كبير كهذا بهذا القدر القليل من النقود.

ثم ألقى السكرتير العام كريمر تقريرا عن الوضع في انجلترا، فأعلن أنه على الرغم من أن الناس في القارة الأوروبية يعتقدون عموما أن النقابات الانجليزية غنية جدا وتستطيع أن تدعم قضية تشعر أنها قضيتها، إلا أنها في الواقع خاضعة لأنظمة داخلية حقيرة تبقي إنفاقها ضمن حدود ضيقة جدا. وأضاف أن النقابات الانجليزية، باستثناءات قليلة، لا تعرف شيئا عن السياسة ومن الصعب تنويرها. ومع ذلك، فقد تم بعض التقدم. فقبل بضعة سنوات ما كان بمقدور ممثلي الأممية أن يجدوا من يصغي إليهم، بينما يقابلون اليوم بالترحاب وتلقى مبادئهم الموافقة. وهذه هي المرة الأولى التي تنجح فيها منظمة لها علاقة بالسياسة في إقامة علاقات كهذه مع النقابات.

وأبلغ فرايبورغ وتولين المؤتمر أن الأممية تلاقي استقبالا حسنا في فرنسا. فقد تم كسب أعضاء في روين ونانت والبيوف وكاين وغيرها، هذا عدا باريس، وبيع عدد ضخم من بطاقات العضوية بسعر 1,25 فرنك للاشتراك السنوي. لكن العائدات استهلكت لسوء الحظ لإقامة مكتب في باريس وتأمين نفقات المندوبين إلى الاجتماع. غير أن المندوبين الفرنسيين عزوا الاجتماع عن ذلك ووعدوا ببيع البطاقات الأربعمائة المتبقية. ثم انتقلوا إلى القول أن تأجيل المؤتمر كان عائقا ضخما في وجه تطور الحركة. فالعمال الفرنسيون يرهبون النظام البوليسي البونابرتي ويقولون باستمرار: دعونا نرى ما تستطيعون أولا، ثم ننضم إليكم.

أما التقارير التي تقدم بها دوبليكس وبيكر من سويسرا فكانت مؤاتية جدا، رغم أن التحريض هناك لم يبدأ إلا قبل ذلك بستة أشهر. فقد كان في جنيف أربعمائة عضو ومئة وخمسون عضوا في كل من لوزان وفيفي. كما حدد الاشتراك الشهري بمبلغ خمسين بنسا، ولكن الأعضاء سيدفعون بسرور ضعف هذا المبلغ لأنهم مقتنعون بضرورة دعم المجلس العام ماليا أيضا. ومع ذلك لم يأت المندوبون السويسريون هم أيضا بأية نقود، ولكنهم قدموا بعض العزاء للاجتماع بالقول أن مبلغا محترما من المال كان سيتوفر لو لم يكن على المندوبين أن يدفعا نفقات رحلتهما من سويسرا إلى لندن.

أما التحريف في بلجيكا فقد بدأ قبل شهر واحد فقط، ولكن دوبيب أبلغ الاجتماع أنه تم كسب ستين عضوا وأنه تم الاتفاق على اشتراك سنوي قدره ثلاثة فرنكات، يذهب ثلثها إلى المجلس العام.

اقترح ماركس باسم المجلس العام أن يعقد المؤتمر في جنيف في أيلول أو تشرين الأول 1866. فووفق على مكان المؤتمر بالإجماع، ولكن موعده قدم بناء على إلحاح المندوبين والفرنسيين إلى الأسبوع الأخير من أيار. كذلك طالب المندوبون الفرنسيون بأن يعطى كل من يحمل بطاقة عضوية في الأممية مقعدا وصوتا في المؤتمر قائلين أن تلك مسألة مبدأ وهي المعنى الحقيقي للاقتراع العام. ولم يتم التوصل إلى قرار يقضي بأن يقتصر المؤتمر على المندوبين، كما اقترح كريمر وايكاريوس، إلا بعد مناقشة حامية.

أعد المجلس العام جدول أعمال ضخم للمؤتمر: العمل التعاوني، تقليص يوم العمل، عمل النساء والأطفال، ماضي ومستقبل النقابات، تأثير الجيش على مصالح الطبقات العاملة الخ، ولكن لم يكن هناك سوى مسألتين حولهما خلاف على الآراء، وواحدة منهما لم يطرحها المجلس العام بل طرحها المندوبون الفرنسيون. فقد طالبوا بأن تجعل «الأفكار الدينية وتأثيرها على الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية» نقطة خاصة في جدول الأعمال. أما كيف اتفق أن تقدم المندوبون الفرنسيون بهذا الاقتراح وما هو الموقف الذي اتخذه ماركس حياله فيمكن فهمه من بضعة جمل وردت في مقالة رثاء كتبها ماركس لبرودون بعد ذلك ببضعة أشهر ونشرت في صحيفة شفايتزر «سوسيال ديمقراط»، فكانت بالمناسبة مساهمته الوحيدة في هذه الصحيفة. قال ماركس: «أدى هجوم برودون على الدين والكنائس الخ خدمة جليلة محلية في وقت وجد فيه الاشتراكيون الفرنسيون أن من الضروري أن يثبتوا تفوقهم على الفولتيرية البرجوازية التي تعود إلى القرن الثامن عشر والإلحاد الألماني في القرن التاسع عشر بتدينهم. لقد هزم بطرس الأكبر البربرية الروسية ببربرية، وفعل برودون كل ما في وسعه كي يهزم الكلام الفرنسي بالكلمة». حذر المندوبون الانجليز هم أيضا من إثارة هذه المسألة التي تبعث على الشقاق، لكن المندوبين الفرنسيين أصروا، فتم تبني اقتراحهم بأغلبية 18 صوتا مقابل 13.

أما النقطة الأخرى على جدول الأعمال التي أثارت خلافا فقد تقدم بها المجلس العام. عالجت هذه النقطة مسألة من مسائل السياسية الأوروبية كان ماركس يعتبرها ذات أهمية خاصة، وهي بالتحديد «ضرورة مجابهة تأثير روسيا المتنامي في الشؤون الأوروبية وذلك بإعادة الاستقلال لبولندا على أسس اشتراكية وديمقراطية طبقا لمبدأ حق تقرير المصير لكل القوميات». كان المندوبون الفرنسيون خاصة معارضين لذلك: لماذا نخلط المسائل السياسية بالمسائل الاجتماعية؟ لماذا نذهب بعيدا إذا كان هناك الكثير من القهر الذي يتوجب علينا أن نصارعه في الداخل؟ لماذا نهتم بهذا القدر بتأثير الحكومة الروسية بينما تأثير الحكومات البروسية والنمساوية والانجليزية والفرنسية لا يقل شرا؟ وكان المندوب البلجيكي دوبيب على وجه الخصوص نشيطا في معارضته قائلا أن إعادة الاستقلال إلى بولندا سيفيد طبقات ثلاث فقط: الارستقراطية العليا والارستقراطية الدنيا ورجال الدين.

هنا جعل تأثير برودون نفسه محسوسا بوضوح. فقد عارض برودون باستمرار إعادة الاستقلال لبولندا، وكانت آخر مرة فعل فيها ذلك في وقت الانتفاضة البولندية عام 1863، عندما انغمس، كما أوضح ماركس في مقالته التي رثاه فيها، في شكّية غبية لم يستفد منها سوى القيصر وفي الوقت ذاته أيقظت الانتفاضة العواطف القديمة التي ظل ماركس وانغلز يكنانها للقضية البولندية منذ السنوات الثورية، فعزما على إصدار بيان مشترك حول الانتفاضة، ولكن هذا البيان لم يصدر في النهاية.

لم يكن تعاطف ماركس وانغلز مع بولندا تعاطفا غير نقدي. ففي 21 نيسان 1863 كتب انغلز إلى ماركس: «أجد لزاما علي أن أقول أن استجماع حماسة كافية لبولاق عام 1772 يقتضي أن يتصرف المرء كالنعامة. فقد هوت الارستقراطية حينذاك في الجزء الأكبر من أوروبا بشرف وحتى بذكاء، على الرغم من أن حكمتها العامة كانت أن المادية تمثل ما يأكله المرء وما يرقد عليه وما يحصل عليه على موائد الميسر، ولكن لم تكن هناك ارستقراطية في غباء الارستقراطية البولندية حين باعت نفسها للقيصر». ولكن ما ادم احتمال قيام ثورة في روسيا نفسها غير قائم، فإن إعادة الاستقلال لبولندا تمثل الإمكانية الوحيدة للوقوف في وجه النفوذ الروسي في أوروبا، ولذا اعتبر ماركس أن القمع الوحشي للانتفاضة البولندية وغزو روسيا للقفقاس يشكلان أهم حدثين في أوروبا منذ 1815. فوضع أكبر قدر من التأكيد في الجزء الذي يبحث السياسة الخارجية للبروليتاريا على المسألة البولندية، وجعلته المقاومة التي أبداها تولين وفرايبورغ وغيرهم لهذه النقطة بالذات يشير إلى هذه المعارضة بمرارة طوال فترة طويلة من الزمن بعد ذلك. غير أنه نجح بمساعدة المندوبين الانجليز في التغلب على هذه المعارضة وظلت المسألة مدرجة في جدول الأعمال.

كان الاجتماع يعقد جلسات مغلقة في الصباح برئاسة يونغ، وجلسات شبه علنية في المساء بقيادة اودغر. فتطرح في الجلسات المسائية أمام جمهور أكبر يتألف بصورة رئيسية من العمال تلك المسائل التي بحثت وتم الاتفاق حولها في جلسات الصباح. وعندما عاد المندوبون الفرنسيون إلى باريس، نشروا تقريا عن الاجتماع وعن جدول الأعمال الذي أعد للمؤتمر، فلاقى ذلك أصداء واسعة في الصحافة الفرنسية. ولاحظ ماركس برضى واضح «أن باريسيينا دهشوا بعض الشيء إذ وجدوا أن الفقرات المتعلقة بروسيا وبولندا التي أرادوا شطبها هي التي أحدثت أكبر الأثر». وظل بعد ذلك بسنوات عديدة يذكر برضى بالغ «الملاحظات الحماسية» التي أبداها المؤرخ الفرنسي هنري مارتن على تلك الفقرات بشكل خاص وعلى جدول أعمال المؤتمر بشكل عام.

5-الحرب النمساوية-البروسية

أدى الوقت والطاقة اللذين كرسهما ماركس لقضية الأممية إلى نتيجة مزعجة هي توقف جهوده لكسب العيش، فعادت متاعبه المالية إلى الظهور مرة أخرى.

في 31 تموز اضطر ثانية إلى الكتابة إلى انغلز ليخبره أن العائلة تعيش طيلة الشهرين الأخيرين على رهن أشيائها: «أؤكد لك أنني أفضل أن أقطع أصبعي على أن اكتب هذه الرسالة. فمن المؤسف حقا أن يعيش المرء نصف حياته معتمدا على الآخرين. لكن عزائي الوحيد هو أنني وإياك شريكين وان مهمتي هي أن أعطي وقتي للمسائل النظرية والحزبية. أخشى أن يكون هذا البيت الذي نعيش فيه أفضل مما تسمح به مواردنا، وأن نكون قد عشنا هذه السنة أفضل من العادة، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة لإعطاء الأولاد فرصة إقامة علاقات قد تمنحهم بعض الأمان في المستقبل، هذا إذا لم نقل أنه كان في ذلك بعض التعويض عن كل ما عانوه. أعتقد أنك توافق معي أنه حتى من وجهة النظر العملية المحضة ليس العيش في بيت بروليتاري تماما أمرا مناسبا، رغم أن ذلك لا يضيرنا أنا وزوجتي ومن الممكن أن يكون مناسبا لو كانت الفتيات صبيانا». مد انغلز يد العون إلى صديقه فورا، لكن متاعب وهموم تحصيل مجرد العيش بدأت تقلق ماركس وعائلته وظلت تقلقهم طوال عدد من السنوات.

بعد ذلك ببضعة أشهر، وفي 5 تشرين الأول 1865، أتاحت رسالة من لوثار بوشيه لماركس فرصة غير متوقعة لكسب المال وبطريقة غريبة جدا. كان بوشيه يعيش مهاجرا في لندن، ولكن لم تقم بينه وبين ماركس علاقات ودية أو حتى مجرد علاقات. وحتى عندما بدا بوشيه يتخذ موقفا مستقلا من نزاعات المهاجرين وانضم إلى اوركوهارت نصيرا متحمسا، ظل موقف ماركس منه موقفا انتقاديا، ولكن بوشيه امتدح أمام بوركاهايم رد ماركس على فوخت وأراد أن يقوم بعرضه في «الغماينه تزايتونغ». غير أن عرضا كهذا لم يظهر، ولا يستطيع المرء أن يقرر ما إذا كان ذلك لأن بوشيه لم يكتبه أو لأن «الغماينه تزايتونغ» رفضت أن تنشره. عاد بوشيه إلى برلين بعد صدور العفو البروسي وهناك صادق لاسال، وحضر معه إلى لندن ليزور المعرض الكبير، فتعرف من خلاله على ماركس الذي وصفه بأنه «شاب جيد ولكنه مشوش إلى حد ما» وقال أنه لا يظن أنه متفق مع لاسال في «سياسته الخارجية». وبعد موت لاسال، انخرط بوشيه في خدمة الحكومة البروسية، فانهال ماركس عليه وعلى رودبرتس بالسباب في إحدى رسائله لانغلز: «مجموعة تعيسة، كل أولئك الرعاع من برلين وبراندنبرغ وبوميرانيا».

والآن كتب بوشيه يقول: «إلى العمل أولا: تريد صحيفة ستاتسنزيغر» تقريرا شهريا عن حركة السوق النقدي (وكذلك بالطبع سوق السلع بقدر ما لا يمكن فصل السوقين)، وقد سئلت ما إذا كان باستطاعتي أن أزكي أحدا. فأجبت أنني لا أعرف من هو أفضل منك لهذه المهمة. ولذا فقد طلب إلي الاتصال بك. لن تكون مقيدا بأية حدود فيما يتعلق بطول مقالاتك، وكلما كانت أشمل كلما كان ذلك أفضل. أما بالنسبة إلى المحتوى فإن لك بالطبع الحق في إتباع ما تمليه عليك معتقداتك العلمية. غير أن أخذ القراء وليس هيئة التحرير بعين الاعتبار يجعل من الأفضل ترك الجوهر الداخلي للمسألة باديا للخبراء فقط وتجنب الدخول في مساجلات». ثم اتبع بوشيه ذلك ببضعة ملاحظات عن العمل وإشارة إلى نزهة مشتركة قام بها مع ماركس ولاسال، الذي ستظل نهايته «لغزا سيكولوجيا» لكاتب الرسالة، ثم أبدى ملاحظة هي أن ماركس يعرف بلا شك أن الكاتب قد عاد إلى حبه الأول، الملفات. «لم أشارك لاسال أبدا في آرائه، وقد كنت اعتقد دائما أنه يرى الأمور تتطور بأسرع مما هي في الواقع. إن التقدم سينزع جلده عدة مرات قبل أن يموت، ولذا فإن على كل من يريد العمل داخل الدولة خلال حياته أن يدعم الحكومة». وبعد بضعة تمنيات للسيدة ماركس وتحيات للسيدات الصغيرات وعلى الأخص الصغرى منهن، تختتم الرسالة بالجملة التقليدية «خادمكم المطيع».

رفض ماركس العرض، ولكن ليست هناك معلومات مفصلة عما كتبه في رده وعما انتهى إليه تفكيره بشأن رسالة بوشيه. ذهب ماركس إلى مانشستر فور أن تسلم الرسالة ولا شك في أنه بحث المسألة مع انغلز، ولكن ليس هناك أي ذكر للأمر في رسائلهما المتبادلة. وبعد ذلك بأربعة عشر عاما، وعندما تسببت محاولات هودل ونوبيلينغ الإرهابية في انطلاق حملة عنيفة ضد الاشتراكيين، نشر ماركس رسالة بوشيه فأحدثت دويا بالغا في معسكر أعداء الاشتراكية. فقد كان بوشيه وقت نشر رسالته سكرتيرا لمؤتمر برلين، ويقول واضع سيرته شبه الرسمية أنه هو الذي وضع القانون الأول المعادي للاشتراكية الذي تم التقدم به بعد أعمال هودل ونوبيلنغ إلى الرايشتاغ، الذي قابله بالرفض.

منذ ذلك الحين دار الكثير من النقاش حول رسالة بوشيه وما إذا كانت محاولة من بسمارك لشراء ماركس. إن من المؤكد على الأقل أن بسمارك أصبح في خريف 1865، وبعد أن وقعت معاهدة غاستين فسوت من دون فعالية الشقاق المحتمل مع النمسا، ميالا إلى «إطلاق كل كلب يريد أن ينبح»، على حد تعبيره الساخر. لقد كان بسمارك نفسه يونكراً متأصلا لدرجة لا يستطيع معها أن يغازل الطبقة العاملة بالطريقة التي فعل بها دزرائيلي وحتى لوي بونابرت ذلك، والأفكار المضحكة التي كونها عن لاسال بعد أن التقاه شخصيا عددا من المرات معروفة تماما. ولكنه كان على الأقل يملك في حاشيته المباشرة رجلين مؤهلين لمعالجة هذه المسألة الحساسة وهما لوثار بوشيه وهيرمان فاغنر. والواقع أن فاغنر كان في ذلك الحين يبذل كل ما في وسعه من جهد للإيقاع بحركة الطبقة العاملة الألمانية، وقد نجح في ذلك بقدر ما كان للكونتيسة هاتزافيلدت من علاقة بالمسألة. ولا شك في أن هيرمان بوصفه القائد الفكري لليونكر وصديقا قديما لبسمارك منذ أيام ما قبل آذار كان يتمتع بموقع أقوى من موقع بوشيه بكثير. فقد كان بوشيه يعتمد إلى حد بعيد على نوايا بسمارك الطيبة تجاهه، ذلك أن البيروقراطية كانت تنظر إليه بعين الشك وتعتبره دخيلا، بينما كان الملك يرفض أن يقيم معه أية علاقة بسبب أحداث 1848. وعلى أية حال، كان بوشيه ضعيفا، «سمكة بلا عظام»، كما وصفه صديقه رودبرتس.
إذا كانت رسالة بوشيه حقا محاولة لشراء ماركس، فإنها ما كانت لترسل دون معرفة بسمارك، ولكن من المشكوك فيه أن تكون كذلك فعلا. إن الطريقة التي استخدم بها ماركس الرسالة في 1878 خلال الحملة المعادية الاشتراكية لا يطالها النقد، فقد كانت بالفعل خطوة ذكية، ولكنها لا تثبت أن ماركس نفسه اعتقد أن الرسالة محاولة لشرائه، كما لا تثبت أنها كانت كذلك بالفعل. لقد كان بوشيه يعي أن اللاساليين الألمان لا ينظرون إلى ماركس بعين الاحترام بعد أن قطع علاقاته مع شفايتزر. أكثر من ذلك لا يمكن أن يكون تقرير شهري عن حركة سوق النقد في أكثر الصحف الألمانية إثارة للملل وسيلة فعالة لتهدئة الاستياء العام الذي تواجهه سياسة بسمارك، فكيف بكسب دعم العمال لهذه السياسة. وفي ظل ظروف كهذه، لا يجد المرء شيئا ليضيفه إلى ما قاله بوشيه من أنه أوصى بصديقه القديم في المنفى إلى القيم على صحيفة «ستاتسنزيغر» دون أي دافع سياسي بعيد، إلا ربما حقيقة واحدة هي أن هذا القيم كان قد رفض قبول أحد ممثلي مدرسة مانشستر. وبعد أن تلقى بوشيه ردا سلبيا من ماركس، اتصل بدوهرنغ، الذي وافق على العمل ولكنه سرعان ما تخلى عنه عندما اتضح أن القيم على «ستاتسنزيغر» لا يكن أي احترام «للمعتقدات العلمية».

وكان هناك ما هو أسوأ من المصاعب المالية المتزايدة التي كان على ماركس أن يجابهها نتيجة عمله الفعال في الأممية ونتيجة بحثه العلمي، فقد بدأت صحته تتدهور أكثر فأكثر. ففي 10 شباط 1866 كتب له انغلز يقول: «يجب عليك فعلا أن تقوم بشيء للتخلص من الدمامل... توقف عن العمل في الليل ونظم حياتك أكثر». وفي 13 شباط أجاب ماركس: «أمس استلقيت على ظهري ثانية بسبب دمل خبيث ظهر في فخذي الأيمن. لو كنت أملك من النقود ما يكفي عائلتي وكان كتابي قد انتهى لما اهتممت أدنى اهتمام بما إذا كنت أذهب إلى القبر اليوم أم غدا، ولكن ما دامت الأحوال على ما هي عليه، فإنني أشعر بالاهتمام». وبعد ذلك بأسبوع تلقى انغلز الأخبار المفزعة: «لقد كانت المسألة قاسية هذه المرة. لم تعرف العائلة كم كان الأمر خطرا. إذا أصابني المرض مرتين أو ثلاث مرات أخرى بهذا الشكل فسأموت. إنني أشعر بالضعف البالغ، لا في راسي بل في رجلاي واليتي. والأطباء محقون بالطبع عندما يقولون أن العمل الطويل في الليل هو السبب في انتكاستي، ولكنني لا استطيع أن اخبرهم بما يجبرني على الإسراف في العمل، ولو استطعت لما كان في ذلك أي نفع». غير أن انغلز أصر هذه المرة أن يرتاح صديقه بضعة أسابيع، فذهب ماركس إلى مارغريت.

سرعان ما استعاد ماركس نشاطه ومعنوياته في مارغيت، فكتب رسالة مرحة إلى ابنته لورا، يقول فيها: «إنني سعيد حقا لأنني حللت في بيت خاص وليس في فندق، حيث كان لا بد أن تزعجني السياسة المحلية والفضائح العائلية والتقولات، ولكنني مع ذلك لا أستطيع القول أنني لا أهتم بأحد ولا أحد يهتم بي. فهناك صاحبة البيت، وهي صماء كالحجر، وابنتها التي تعاني من بحة مزمنة في الصوت. غير أنهم أناس طيبون، يعتنون بي ولا يتدخلون في شؤوني... إنني أقضي الجزء الأكبر من النهار في الهواء الطلق، وآوي إلى الفراش في العاشرة مساء. كما أنني لا أقرأ شيئا ولا أكتب إلا القليل، وأدخل بالتدريج حالة النيرفانا التي يعتبرها البوذيون غاية البركة الإنسانية». وفي نهاية الرسالة ترد ملاحظة

قصد بها ماركس إغاظة ابنته، ولا شك أنها كانت تنبئ بأحداث قادمة: «إن ذلك الشيطان الصغير لافارغ لا يزال يغيظني ببرودونيته. وأعتقد أنني لن أصيب راحة إلا إذا أدخلت بعض التفكير السليم إلى جمجمته».

وبينما كان ماركس لا يزال في مارغريت، شقت البروق الأولى سحب الحرب التي كانت قد تلبدت في سماء ألمانيا. ففي 8 نيسان عقد بسمارك حلفا هجوميا مع ايطاليا ضد النمسا، وفي اليوم التالي طلب من المجلس الألماني عقد برلمان ألماني على أساس الاقتراع العام لبحث إصلاح الجامعة الألمانية وتقديم نتائج البحث إلى الحكومات الألمانية. ولا شك أن الموقف الذي اتخذه ماركس وانغلز حيال هذه الأحداث يبين مقدار عزلتهما عن الوضع الألماني، إذ كان تقييمهما للأمور متذبذبا. فقد كتب انغلز في 10 نيسان مشيرا إلى اقتراح بسمارك بعقد برلمان ألماني يقول: «كم هو حمار ذلك الرجل! إنه يظن أن ذلك سيساعده. إذا بلغت الأمور مداها حقا، فإن تطورات المستقبل ستعتمد لأول مرة في التاريخ على الموقف في برلين. وإذا استطاع البرلينيون توجيه ضربتهم في اللحظة المناسبة فإن الأمور قد تسير سيرا حسنا –ولكن من ذا الذي يستطيع الاعتماد عليهم؟»

وبعد ذلك بثلاثة أيام، كتب ثانية ولكن هذه المرة ببصيرة نفذة واضحة: «يبدو أن البرجوازية الألمانية ستوافق على الاقتراح (الاقتراع العام) بعد قليل من المقاومة، ذلك أن البونابرتية هي بعد كل شيء دين البرجوازية الحقيقي. لقد بدأت أدرك أكثر فأكثر أن البرجوازية ليس من طبيعتها أن تحكم مباشرة. ولذا فإن شبه –ديكتاتورية بونابرتية هي الشكل الطبيعي من الحكم البرجوازي في البلدان التي لا توجد فيها اوليغاركية (كما في انجلترا) مستعدة للحكم طبقا لمصالح البرجوازية مقابل مكافآت طائلة. فهذا الشكل البونابرتي من الحكم يحقق المصالح المادية الكبرى للبرجوازية حتى ضد البرجوازية ذاتها، ولكنه يرفض أن يعطي للبرجوازية أي نصيب في الحكومة. من جهة أخرى تجد هذه الديكتاتورية نفسها مجبرة ضد رغباتها على تعزيز المصالح المادية للبرجوازية، ولذا فإننا نرى السيد بسمارك يتبنى برنامج الجمعية الوطنية. غير أن تنفيذ هذا البرنامج مسألة أخرى بالطبع، ولكن ليس من المحتمل أن يتجشم بسمارك العناء بسبب البرجوازية الألمانية». وظن انغلز أن بسمارك سيفشل بسبب الجيش النمساوي. فبينديك على أية حال جنرال أفضل من الأمير فريدريك كارل. والنمسا قوية بما فيه الكفاية كي تجبر بروسيا على التماس السلام، ولكن بروسيا ليست قوية بما يكفي لإجبار النمسا على ذلك، ولذا فإن كل نجاح بروسي سيكون دعوة تغري بونابرت بالتدخل.

ووصف ماركس الوضع بالكلمات ذاتها تقريبا في رسالة بعث بها إلى صديقه الجديد الطبيب كوغلمان في هانوفر. كان كوغلمان هذا من أنصار ماركس وانغلز منذ أن كان صبيا في عام 1848، ولكنه لم يتعرف إلى ماركس إلا في عام 1862 وبفضل توسط فريليغارث، ولكنه بعد أن تعرف عليه سرعان ما أصبح واحدا من المقربين إليه. لقد كان ماركس يخضع نفسه تماما لكل أحكام انغلز بصدد المسائل العسكرية دون أن يتخذ من الأمر موقفه النقدي المعتاد.

لكن الفكرة التي كان يحملها انغلز عن الجيش البروسي تبعث على الدهشة أكثر من مبالغته في تقدير قوة الجيش النمساوي. ذلك أنه كان قد عالج مسألة إصلاح الجيش، التي كانت السبب في نشوب النزاع الدستوري البروسي، وأبدى في هذه المعالجة بصيرة أكبر وأكثر نفاذا بكثير مما أبداه المهرجون الديمقراطيون البرجوازيون. ففي 25 أيار كتب انغلز: «إذا أبدى النمساويون ذكاء كافيا ولم يهاجموا، فإن المتاعب ستبدأ في الجيش البروسي دون شك. إذ لم يبد الرجال من قبل أي تمرد شبيه بما أبدوه خلال التعبئة الحالية. إن ما نسمعه عن الوضع قليل لسوء الحظ، ولكن حتى هذا القليل يكفي ليبين لنا أن شن حرب هجومية بجيش كهذا أمر مستحيل». وفي 11 حزيران كتب يقول: «ستشكل قوات الاحتياط (اللاندفهر) خطرا على بروسيا في هذه الحرب كما كان البولنديون في حرب 1806 عندما كانوا يشكلون ثلث الجيش وأوقعوا الفوضى في كل شيء. ولكن هناك فارقا واحدا هو أن قوات الاحتياط لن تنحل بعد الهزيمة بل ستثور». لقد كتب هذا قبل أسابيع ثلاثة من وقوع معركة كونيغراتز الفاصلة.

قضت معركة كونيغراتز على كل الأوهام في الحال، وبعد المعركة بيوم واحد كتب انغلز: «ما ذا تقول في البروسيين؟ لقد أحرزوا النصر بقوة عظيمة. معركة كهذه تنتهي في ثماني ساعات أمر لم يسبق له مثيل. لقد كان يمكن لها في ظروف أخرى أن تستمر يومين، لكن بندقية الكبسولة سلاح رهيب، وكذلك حارب الجنود بشجاعة نادرا ما نراها فيهم أيام السلام». كان يمكن لماركس وانغلز أن يخطئا، ولقد أخطآ مرارا بالفعل ولكنهما لم يفشلا أبدا في إدراك الحقيقة عندما تفرضها الأحداث. لقد كان النصر البروسي شرابا مرا بالنسبة لهما، ولكنهما لم يحاولا تجنبه. وفي 25 تموز كتب انغلز، الذي كان لا يزال يلعب الدور القيادي في هذه المسألة، ملخصا الوضع بقوله: «يبدو لي الوضع في ألمانيا الآن بسيطا جدا. فمنذ اللحظة التي نفذ فيها بسمارك خطته بشأن الجيش البروسي وصادف فيها نجاحا عظيما، اتخذ التطور في ألمانيا وجهة محددة هي وجهة بسمارك، وعلينا كما على غيرنا الاعتراف بالحقائق الثابتة سواء أحببناها أم كرهناها... إن هناك على الأقل جانب واحد جيد في المسألة هو أنها ستبسط الوضع وتجعل الثورة أسهل بقضائها على منازعات رأس المال الصغير، وهي على أية حال ستسارع التطور. فالبرلمان الألماني يختلف في نهاية الأمر عن المجلس البروسي، وستجر كل إقليمية الدويلات الصغرى إلى الحركة، ويدمر النفوذ المحلي وتصبح الأحزاب حقا أحزابا قومية بدلا من أن تظل محلية». وبعد يومين أجاب ماركس برباطة جأش: «أوافقك تماما على أننا يجب أن نقبل الوضع المشوش كما هو. ومع ذلك فإن البقاء بعيدا خلال الفترة الأولى لهذا الحب الجديد أمر سار».

وفي الوقت ذاته كتب انغلز يقول: «إن الأخ ليبكنشت يجهد نفسه منتصرا للنمسا بتعصب» ولم يكن يعني بذلك امتداح ليبكنشت. وكان من الواضح أن ليبكنشت مسؤول عن «فورة غضب» ظهرت في «فرانكفورت تزايتونغ». فقد نشرت هذه الصحيفة أشرعتها إلى حد تأنيب بروسيا على معاملتها المشينة «لاميرهس النبيل» وكان قلبها ينبض شفقة على غويلف الأعمى المسكين. وفي الوقت ذاته كان شفايتزر يتخذ في برلين الموقف ذاته الذي اتخذه ماركس وانغلز، وبالكلمات ذاتها تقريبا. ولهذا بالذات لا يزال الرجل السيء الحظ موضع الغضب الأخلاقي بسبب هذه «السياسة الانتهازية» من جانب أولئك «السياسيين» الثقيلي الظل الذين يقسمون بماركس وانغلز ولا يفهمون منهما شيئا.

6-مؤتمر جنيف

لم يعقد المؤتمر الأول للأممية حسب الخطة الأصلية، عندما قررت معركة كونيغراتز مصير ألمانيا. فقد أصبح من الضروري تأجيل المؤتمر إلى أيلول، رغم أن الأممية أحرزت في سنتها الثانية تقدما أسرع بكثير مما أحرزته في سنتها الأولى.

بدأت جنيف تصبح أهم مركز للحركة في القارة الأوروبية، وانشأ كل من فرعي الأممية السويسري-الألماني والسويسري الفرنسي-الايطالي صحيفة ناطقة باسمه. فأصدر الفرع السويسري-الألماني صحيفة «در فوربوت»، وهي صحيفة شهرية أصدرها وكان يحررها الثوري القديم بيكر، ولا تزال صفحاتها حتى يومنا هذا من أهم مصادر المعلومات فيما يتعلق بالأممية الأولى. وقد ظهرت هذه الصحيفة أولا في كانون الثاني 1866 ووصفت نفسها بأنها «الصحيفة المركزية للمجموعة الناطقة بالألمانية»، ذلك أن الأعضاء الألمان في الأممية كانوا هم أيضا يعتبرون جنيف مركزا لهم، لأن القوانين في ألمانيا كانت تحول دون تأسيس فرع ألماني للأممية، وللسبب ذاته كذلك امتد تأثير الفرع السويسري الفرنسي-الايطالي إلى فرنسا أيضا.

كذلك أصدرت الحركة في بلجيكا صحيفة خاصة بها بعنوان «لو تريبيون دو بيبول»، وقد اعترف ماركس بها صحيفة رسمية للأممية على قدم المساواة مع صحيفتي جنيف، ولكن كانت هناك في باريس صحيفة أو اثنتان تمثلان قضية العمال بطريقتهما الخاصة، ولكنه لم يكن يعترف بهما ناطقتين رسميتين باسم الأممية. كذلك أحرزت قضية الأممية تقدما جيدا في فرنسا، ولكنها كانت كنار تجتاح هشيما أكثر منها شعلة ثابتة. وقد كان من الصعب تأسيس أية مراكز حقيقية للحركة بسبب الافتقار الكامل لحرية الصحافة أو حق الاجتماع، كما أن التسامح الغامض الذي كان يبديه البوليس البونابرتي أدى إلى خبو طاقة العمال بدلا من تشجيعها. أكثر من ذلك، كان النفوذ الحاسم الذي تتمتع به البرودونية غير موَات لأي تطوير في القوة التنظيمية للطبقة العاملة.

وكان أعضاء «فرنسا الفتاة»، كما كان اللاجئون الفرنسيون في بروكسيل ولندن يسمون أنفسهم، يثيرون الكثير من المتاعب والضجيج. ففي شباط 1866 عارض فرع فرنسي للأممية، كان قد أنشئ في لندن، المجلس العام بعنف لأنه وضع مسألة بولندا على جدول أعمال المؤتمر. فقد تساءل ممثلو هذا الرفع، بتاثير من البرودونية، كيف يمكن للمرء أن يفكر بمعارضة نفوذ روسيا بإعادة توحيد بولندا في وقت تحرر فيه روسيا الأقنان وترفض الارستقراطية البولندية ورجال الدين البولنديون بعناد ان يفعلوا ذلك. وعند اندلاع الحرب البروسية-النمساوية، سبب الأعضاء الفرنسيون في الأممية متاعب جمة للمجلس العام بما اسماه ماركس «شتيرنزيتهم المشوبة بالبرودونية». فقد العنوا أن الأمة قد عفى عليها الزمن كفكرة. ولذا فإن الأمم جميعا يجب أن تنحل إلى «جماعات» صغيرة تشكل بعد ذلك «رابطة» بدل الدولة. «وسيتقدم هذا التفتيت للإنسانية وما يلازمه من تبادلية، بينما يتوقف التاريخ في كل البلدان توقفا تاما وينتظر العالم كله حتى ينضج الأفراد ويقوموا بالثورة الاجتماعية. وعندئذ يقومون بالتجربة، فيشده العالم بقوة المثال الذي ضربوه ويتقدم ليفعل الشيء ذاته». كانت سخرية ماركس اللاذعة هذه موجهة إلى «صديقين عزيزين» عليه هما لافارغ ولونغيت، اللذين تزوجا ابنتيه فيما بعدن ولكنهما كانا حتى ذلك الحين لا يزالان يثيران المتاعب بوصفهما من «حواريي برودون».

كانت قوة الأممية الرئيسية تتركز في النقابات الانجليزية، مما بعث الرضى في نفس ماركس، فكتب رسالة إلى كوغلمان في 15 كانون الثاني 1866 يعبر فيها عن سروره لنجاح الأممية في اجتذاب هذه النقابات التي تمثل المنظمات العمالية الوحيدة الكبيرة حقا. وقد سر على وجه الخصوص لاجتماع ضخم عقد بقيادة الأممية قبل ذلك ببضعة أسابيع في قاعة سان مارتن لمساندة إصلاح الاقتراع. ففي آذار 1866 تقدمت وزارة غلادستون بقانون للإصلاح الانتخابي، ولكن هذا القانون كان جذريا إلى درجة لم يقبلها قطاع من حزب غلادستون نفسه، فانحاز إلى المحافظين مما أدى إلى سقوط الحكومة واستبدالها بحكومة من المحافظين وعلى رأسها دزرائيلي. وعندما حاول دزرائيلي تأجيل مسألة الإصلاح الانتخابي إلى أجل غير مسمى تنامت الحركة المساندة للإصلاح أكثر فأكثر. وقد كتب ماركس إلى انغلز في 7 تموز معلنا: «إن تظاهرات العمال في لندن، الرائعة بالمقارنة مع أي شيء رأيناه في انجلترا منذ عام 1849، هي من صنع الأممية. فمثلا، لوكرافت، الذي قاد مظاهرة ساحة الطرف الأغر، عضوا في مجلسنا». وكان لوكرافت قد خطب في اجتماع ضم عشرين ألفا في ساحة الطرف الأغر، فاقترح القيام بتظاهرة في حدائق وايتهول (مقر الحكومة) «حيث أطحنا مرة برأس ملك»، وبعد ذلك بقليل كانت تظاهرة من ستين ألف شخص تصبح انتفاضة حقيقية.

أدركت النقابات الخدمات التي أسدتها الأممية لدفع الحركة التي كانت تجتاح البلاد، وتبني مؤتمر شفيلد حضره مندوبون عن النقابات الكبيرة جميعا القرار التالي: «إن هذا المؤتمر يعترف اعترافا كاملا بالخدمات التي أدتها الرابطة الأممية للرجال العاملين في تعزيز التضامن الأخوي بين العمال في كل البلدان، وهو يوصي بإلحاح كل الهيئات التي تمثلت في مناقشاته بالانضمام إلى هذه الرابطة، قناعة من المؤتمر أن هذا الارتباط له أهمية كبرى لتقدم ورفاه الطبقة العاملة كلها». ونتيجة لهذا القرار ارتبط الكثير من النقابات بالأممية، ولكن رغم أن ذلك كان نصرا سياسيا وأدبيا عظيما إلا أنه لم يؤد إلى نتائج مادية متناسبة معه. فقد ترك للنقابات أن تقرر الاشتراك الذي تراه مناسبا أو لا تدفع اشتراكا على الإطلاق. وعندما قررت أن تدفع، كانت مساهماتها متواضعة للغاية. فمثلا تعهدت نقابة عمال الأحذية التي يبلغ عدد أعضائها خمسة آلاف بدفع خمسة جنيهات سنويا، وتعهدت نقابة النجارين التي يبلغ عدد أعضائها تسعة آلاف بدفع جنيهين سنويا، اما البناؤون وعددهم يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف فقد تعهدوا بدفع جنيه واحد.

غير أن ماركس سرعان ما اضطر إلى الاعتراف بأن «الطابع التقليدي الملعون للحركات الانجليزية» كان يجعل نفسه محسوسا في حركة الإصلاح أيضا. فقد اتصلت النقابات قبل تأسيس الأممية بالراديكاليين البرجوازيين بصدد حركة الإصلاح، وكلما وعد هؤلاء بتقديم مساعدات ملموسة كلما توثق التقارب. وأصبحت «الدفعات على الحساب» التي كانت من قبل ترفض وتقابل بالسخط تعتبر انجازات مقبولة. فافتقد

ماركس الروح المتقدة التي كان يتسم بها الشارتيون القدامى وشعر بالأسف العميق لأن الانجليز لا يستطيعون أن يفعلوا أمرين في وقت واحد مشيرا إلى أنه كلما كانت حركة الإصلاح تتقدم كلما أصبح قادة النقابات أكثر برودا تجاه «حركتنا الخاصة بنا» وأن «حركة الإصلاح في انجلترا التي خلقناها نحن كادت تقتلنا». ولا شك في أن القلعة الصامدة التي كانت تقف في وجه نزعة كهذه أزيحت من الطريق عندما مرض ماركس وقضى طور نقاهته في مارغريت فلم يستطع التدخل في سير الأمور شخصيا.

وسببت صحيفة «ذي وركمانز ادفوكيت» قدرا كبيرا من المتاعب والقلق لماركس. وكانت هذه الصحيفة الأسبوعية قد اعتبرت صحيفة رسمية للأممية في الاجتماع الذي عقد عام 1865، ثم غيرت اسمها إلى «ذي كومونويلث» في شباط 1866. كان ماركس عضوا في إدارة الصحيفة التي كان عليها أن تناضل باستمرار ضد الصعوبات المالية مما جعلها تعتمد على مساعدة دعاة الإصلاح الانتخابي من البرجوازيين. فكان على ماركس أن يفعل كل ما في وسعه للوقوف في وجه هذا النفوذ البرجوازي، وفي الوقت ذاته تسوية الخلافات الحسود التي نشبت بصدد مسائل التحرير. وقد كان ايكاريوس رئيسا لتحريرها بعض الوقت ونشر فيها سجاله الشهير ضد جون ستيوارت ميلز (عامل يدحض جون ستيوارت ميلز) الذي ساعده ماركس كثيرا في كتابته. غير أن ماركس لم يستطع في النهاية الحيلولة دون انحطاط الصحيفة إلى «صحيفة تنطق باسم الإصلاح... وذلك جزئيا لأسباب اقتصادية وجزئيا لأسباب سياسية» كما كتب لكوغلمان.

يفسر هذا الوضع العام لماذا ساورت ماركس الشكوك بصدد المؤتمر القادم للأممية ولماذا خشي أن «يعرضنا لسخرية أوروبا». لكن الأعضاء الفرنسيين أصروا على التمسك بقرار المجلس العام عقد المؤتمر في أيار، وأراد ماركس أن يسافر إلى باريس لإقناعهم باستحالة عقده في ذلك الموعد، لكن انغلز أصر على أن المسألة كلها لا تستأهل المخاطرة، لأن ماركس بذهابه إلى باريس يعرض نفسه لإلقاء القبض عليه من جانب البوليس البونابرتي. وليس من المهم أن يتوصل المؤتمر إلى قرارات قيمة، فالمهم أن يتم تجنب حدوث فضيحة علنية، وهذا أمر ممكن بشكل أو بآخر. وبالطبع ستنتهي أية تظاهرة كهذه إلى الفشل، ولكنها لن تكون بالضرورة تظاهرة تجر عليهم سخرية أوروبا.

وفي النهاية، حسمت منظمة جنيف المسألة، إذ أنها لم تكن قد أتمت استعداداتها لحضور المؤتمر، فقررت تأجيله حتى أيلول، ووافق الجميع على ذلك باستثناء منظمات باريس. ولم يكن ماركس ينوي حضور المؤتمر، لأن عمله العلمي لم يعد يسمح بأي انقطاع، وكان يشعر أن ما يفعله للطبقة العاملة بهذا العمل أهم مما يمكن أن يعمله في المؤتمر، ومع ذلك فقد كرس الكثير من وقته ليضمن للمؤتمر أفضل نجاح ممكن. فوضع لمندوبي لندن مذكرة جعلها تقتصر عمدا على النقاط التي يمكن أن «تسمح بتعاون مباشر وتفاهم بين العمال وتخدم الحاجات الملحة للصراع الطبقي وتنظيم العمال كطبقة». ولا شك في أنه يمكن للمرء أن يمتدح هذه المذكرة بما امتدح به البروفسور بيسلي خطاب الافتتاح: إنها تلخص في بضع صفحات المطالب المباشرة للبروليتاريا العالمية بشكل أشمل وأوضح من كل ما سبقها.

ذهب رئيس المجلس العام، اودغر، وسكرتيره العام كريمر إلى جنيف كممثلين للمجلس ومعهما ايكاريوس ويونغ اللذين كان ماركس يعتمد عليهما بصورة رئيسية.

انعقد المؤتمر في 3-8 أيلول برئاسة يونغ وبحضور ستين مندوبا. ووجد ماركس أن المؤتمر كان «أفضل مما توقعت» ولكنه عبر عن مرارته تجاه «السادة القادمين من باريس». فرؤوسهم «مليئة بالجمل البرودونية الفارغة. إنهم يثرثرون عن العلم، لكنهم جاهلون تماما. وهو يحتقرون كل عمل ثوري، أي كل عمل ينبثق من الصراع الطبقي، كما يحتقرون كل الانجازات الاجتماعية المركزة، تلك الانجازات التي يمكن تحقيقها بوسائل سياسية (مثلا، التحديد القانوني ليوم العمل). إن هؤلاء السادة الذين تحملوا طيلة ستة عشر عاما، ولا يزالون يتحملون بخنوع، دكتاتورية عمياء يعمدون تحت ستار الحرية الحكومية والتسلط الفردي إلى التبشير بنظام اقتصادي برجوازي مبتذل تشوبه مسحة من البرودونية المثالية». وهكذا يمضي ماركس في الحديث عن هؤلاء حتى بكلمات أقسى.

لقد كان حكم ماركس قاسيا، ولكن بعد ذلك بعدة سنوات تحدث جوهان فيليب بيكر، الذي كان أحد المندوبين إلى المؤتمر، عن الفوضى التي كانت تطبع جلساته: «كم من التأدب كان علينا أن ننفق على هؤلاء السادة الطيبين كي نتجنب بشرف خطر أن يدمروا المؤتمر بحماستهم البالغة». أما التقارير التي نشرتها في ذلك الحين صحيفة «در فوربوت» عن مباحثات المؤتمر فهي مكتوبة بلهجة مختلفة تماما، ولذا فإن على المرء أن يقرأها محتفظا بكل ملكاته النقدية.

كان الفرنسيون أقوياء نسبيا في المؤتمر، إذ كانوا يسيطرون على قرابة ثلث الأصوات ولكنهم، في نهاية المطاف لم يحرزوا الكثير، رغم أنهم لم يتركوا فنا من فنون الفصاحة إلا وجربوه. فقد سقط اقتراح تقدموا به بأن تقتصر عضوية الأممية على العمال اليدويين، كما سقط اقتراح آخر بأن يعالج الأممية مسألة الدين. ومن جهة أخرى فاز اقتراح تقدموا به يقضي بدراسة مالية الأممية، وكان هدفهم من هذا ضمان تأسيس بنك مركزي للأممية على أسس برودونية فيما بعد. كذلك تم تبني مشروع قرار مسيء تقدم به تولين وفرايبورغ ويقضي باعتبار عمل النساء «مبدأ منحطا» وأن مكان المرأة الطبيعي هو المنزل. غير أن مشروع القرار هذا واجه معارضة شديدة حتى من المندوبين الفرنسيين الآخرين مثل فارلان، وفي النهاية تم تبنيه مع مشروع قرار آخر ينقضه عمليا تقدم به المجلس حول عمل النساء والأطفال. وفيما عدا ذلك نجح المندوبون الفرنسيون في تمرير القليل من البرودونية في القرارات هنا وهناك، ولكن على الرغم من أن ماركس شعر بالضيق لهذه الشوائب التي شوهت نتاج عمله الطويل الدؤوب، إلا أنه لم يفشل في أن يدرك أن نتائج المؤتمر كانت مرضية بشكل عام.

غير أنه تلقى بصدد مسألة واحدة ضربة يمكن اعتبارها موجعة، ولعلها كانت كذلك بالفعل، تلك هي المسألة البولندية. وكان ماركس قد عمد بعد تجربته في اجتماع لندن إلى صياغة هذه النقطة بحرص بالغ في مذكرته التي وضعها لمندوبي لندن. فأعلن أنه يتعين على الطبقة العاملة أن تثير المسألة لأن الطبقات الحاكمة تعمد إلى إخمادها (رغم حماستها لكل نوع آخر من القومية) وذلك لأن الارستقراطية والبرجوازية تعتبر القوة الأسيوية التي تلوح بالخطر (روسيا) القلعة النهائية التي تقف في وجه زحف الطبقة العاملة. ولا يمكن كبح هذه القوة إلا بإعادة الوحدة

البولندية على أسس ديمقراطية. كذلك فإن بقاء ألمانيا مركزا أماميا للتحالف المقدس أو تحولها إلى حليف لفرنسا الجمهورية يعتمد على حل هذه المسألة. وما دامت هذه المسألة الأوروبية الكبرى دون حل، فإن حركة الطبقة العاملة ستظل مقيدة باستمرار كما سيظل تطورها متقطعا.

دعم المندوبون الانجليز الاقتراح بقوة، ولكنه جوبه بمعارضة لا تقل قوة من المندوبين الفرنسيين وعدد من المندوبين السويسريين الفرنسيين-الايطاليين. وفي النهاية عمد بيكر، الذي دعم مشروع القرار ولكنه كان حريصا على عدم انشقاق المؤتمر، إلى تقديم مشروع قرار يشكل حلا وسطا ويعلن أن الأممية تعارض كل أشكال الحكم بالقوة، وأنها لذلك ستناضل من أجل إلغاء النفوذ الروسي الامبريالي في أوروبا ومن أجل إعادة استقلال بولندا على أسس ديمقراطية، فتم تبني هذا الاقتراح المراوغ. وفيما عدا ذلك، نجحت المذكرة الانجليزية على طول الخط. وتم تبني القواعد المؤقتة بعد أن أدخل عليها تعديلات طفيفان، أما خطاب الافتتاح فلم تجر مناقشة حوله وصارت قرارات وبيانات الأممية منذ ذاك تشير إليه بوصفه وثيقة رسمية أساسية.

ثم أعيد انتخاب المجلس وأقرت لندن مقرا له. وعهد إليه بجمع إحصائيات عن وضع الطبقات العاملة في العالم كله وإصدار تقارير بصدد كل المسائل التي تهم الأممية بقدر ما تسمح له وسائله بذلك. ولكي يتم تزويد المجلس العام بالأموال اللازمة له، قرر المؤتمر أن يدفع كل عضو في الأممية ثلاثين سنتيما للسنة القادمة، وأوصى بأن يدفع جميع الأعضاء اشتراكا سنويا منتظما قدره بنس واحد أو نصف بنس بالإضافة إلى رسوم بطاقة العضوية.

وكانت أهم بيانات المؤتمر البرنامجية تلك المتعلقة بتشريع حماية العمل والنقابات. فقد قبل المؤتمر مبدأ النضال من أجل تشريع حماية العمل وأوضح أن «الطبقة العاملة بفرضها تبني قوانين كهذه لن تعزز وتقوي السلطات الحاكمة، بل أنها على العكس من ذلك ستحول هذه السلطات التي تستخدم ضدها الآن إلى أداة في يدها». إذ أنها ستتمكن بالتشريع العام من الحصول على ما لا يمكن الحصول عليه بالجهود الفردية المفتتة. وأوصى المؤتمر بتقصير يوم العمل على أساس أن ذلك شرط ضروري لا بد أن تفشل بدونه كل الجهود التي تبذلها البروليتاريا من أجل الانعتاق. فهو ضروري لكي يستعيد العمال صحتهم وطاقتهم الجسدية وكي تصبح لديهم فرصة النمو العقلي والتفاعل الاجتماعي والقيام بنشاطات سياسية واجتماعية. واقترح المؤتمر أن يكون أقصى حد شرعي ليوم العمل هو ثماني ساعات على أن يتم ترتيب وقت العمل بحيث يتكون من ساعات العمل الفعلية فقط بالإضافة إلى فترات استراحة معقولة للأكل. ويجب أن يطبق يوم العمل الأقصى المكون من ثماني ساعات على كل العمال البالغين من العمر ثمانية عشر عاما أو أكثر، رجالا ونساء. وشجب المؤتمر العمل الليلي بصورة مبدئية لأنه يشكل خطرا على صحة العمال، على أن يحدد القانون الاستثناءات التي لا يمكن الاستغناء عنها. ويجب أن تستثنى النساء العاملات من العمل الليلي ومن كل أشكال العمل الأخرى التي تضر بالتركيب الأنثوي أو التي لا تناسب الإناث أخلاقيا.

واعتبر المؤتمر ميل الصناعة الحديثة إلى اجتذاب الأطفال وصغار السن من الجنسين إلى عملية الإنتاج الاجتماعي تقدما مشروعا يستحق التحية، على الرغم من أنه شجب الطريقة التي يحدث بها ذلك في المجتمع الرأسمالي واعتبرها مثيرة للتقزز. وقال المؤتمر في قراراته أن كل طفل في أي نظام اجتماعي معقول يصبح عاملا منتجا منذ بلوغه التاسعة من العمر، وفي الوقت ذاته لا يستثني أي شخص بالغ من القانون الطبيعي الذي يقضي أن على كل إنسان أن يعمل كي يأكل، وعدا ذلك يجب على الجميع أن يعملوا لا بعقولهم فحسب، بل وبأيديهم أيضا. أما في النظام الاجتماعي السائد، فمن المرغوب فيه أن يقسم الأطفال إلى ثلاث فئات ويعاملوا طبقا لذلك. وهذه الفئات الثلاث هي الأطفال من 9 على 13 عاما، والأطفال من 13 إلى 15 عاما، والأطفال من 15 إلى 17 عاما. ويجب أن لا تزيد ساعات العمل للفئة الأولى عن ساعتين في اليوم، سواء أكان ذلك في البيت أو في المشغل، أما في الفئة الثانية فيجب أن لا تزيد ساعات عملها عن أربع ساعات في اليوم، وكذلك يجب أن لا تزيد ساعات عمل الفئة الثالثة عن ست ساعات في اليوم، كما يجب أن تكون هناك للجميع فترة استراحة مدتها ساعة واحدة لتناول الطعام. غير أن العمل الإنتاجي من جانب الأطفال يجب أن لا يسمح به إلا إذا كان مقترنا بالتدريب التربوي، بما فيه التدريب العقلي والجسدي والتقني الذي يجعلهم يتلقون المبادئ العلمية العامة لكل عمليات الإنتاج وفي الوقت ذاته يعرفهم على الاستخدام العملي للأدوات البسيطة.

أما بالنسبة للنقابات، فقد قرر المؤتمر أن نشاطاتها ليست مشروعة فحسب، بل وضرورية أيضا. فالنقابات وسيلة لاستخدام القوة الاجتماعية الوحيدة التي تمتلكها البروليتاريا، وهي بالتحديد أعدادها الكبيرة، ضد سلطة الرأسمالية المتمركزة، وطالما ظل نمط الإنتاج الرأسمالي قائما فإن من المستحيل الاستغناء عن النقابات. على العكس من ذلك، يجب على النقابات أن تعمم نشاطاتها بإقامة صلات أممية فيما بينها. ولا شك في أن النقابات ستصبح عبر معارضتها الواعية للفظاعات المستمرة التي ترتكبها الرأسمالية المركز التنظيمي للطبقة العاملة كما أصبحت العاميات في القرون الوسطى مركزا تنظيميا للبرجوازية الصاعدة. وعندما تشن النقابات حرب عصابات دؤوب في الصراع اليومي بين العمل ورأس المال، فإنها تصبح أكثر أهمية إذ تصير رافعة تعمل في سبيل القضاء على العمل المأجور. ولقد ركزت النقابات في الماضي كل نشاطاتها على النضال المباشر ضد رأس المال، أما في المستقبل فإن عليها أن لا تترفع عن الحركة السياسية والاجتماعية العامة لطبقتها. وعندئذ سينمو نفوذها ويشتد فتدرك جماهير العمال الغفيرة أن هدفها ليس ضيقا ولا أنانيا، بل هو ضمان انعتاق الملايين البائسة.

وبعد المؤتمر بفترة قصيرة، وعلى ضوء روح القرار السابق، اتخذ ماركس خطوة كان يأمل أن تؤدي إلى نتائج عظيمة. فكتب إلى كوغلمان في 13 تشرين الأول 1866 يقول: «إن مجلس نقابات لندن (سكرتيره هو رئيسنا اودغر) يبحث الآن اقتراحا بأن يعلن نفسه الفرع الانجليزي للأممية. فإذا تم تبني هذا الاقتراح، أصبح قياد الطبقة العاملة في أيدينا بمعنى ما، وعندئذ يصبح بإمكاننا أن ندفع الحركة بفعالية أكبر». غير أن المجلس لم يتبن الاقتراح، وقرر الاحتفاظ باستقلاله التنظيمي رغم موقفه الودي من الأممية. وإذا كان ما يقوله مؤرخو الحركة النقابة صحيحا، فإن المجلس رفض حتى أن يسمح لممثل من الأممية بحضور جلساته كي يطلع المجلس بأسرع ما يمكن على كل الإضرابات في القارة الأوروبية وعلى كل المشاكل العمالية.

كان قادة الأممية قادرين، حتى في السنوات الأولى لوجودها، على رؤية الانتصارات العظيمة تلوح في الأفق، ولكنهم أدركوا أيضا أن لهذه الانتصارات حدودها. غير أنه كان يحق للحركة في ذلك الوقت أن تهنئ نفسها على الانتصارات التي أحرزتها، ويلاحظ ماركس برضى بالغ في كتابه الذي كان قد أوشك على الانتهاء منه أن مؤتمرا عقده العمال الأمريكيون في بالتيمور، في الوقت ذاته الذي انعقد فيه مؤتمر جنيف، أعلن أيضا أن يوم العمل من ثماني ساعات هو المطلب الأول الذي يجب تحقيقه على طريق انعتاق العمل من كل قيود الرأسمالية انعتاقا تاما.

وقال ماركس أن العمل الأبيض لن يستطيع تحرير نفسه أبدا ما دام العمل الأسود موصوما بالعار، لكن الثمرة الأولى للحرب الأهلية الأمريكية التي اندلعت من أجل القضاء على العبودية كانت التحريض في سبيل يوم العمل من ثماني ساعات، تلك الحركة التي شبت من الأطلنطي إلى الهادي ومن نيو انجلند إلى كاليفورنيا.

الفصل الثاني عشر

رأس المال

1-المخاض

عندما رفض ماركس حضور مؤتمر جنيف على اعتبار أن إتمام عمله الرئيسي -الذي كان يظن أنه لم يقم منه إلا بأجزاء صغيرة حتى ذلك الحين- يبدو أهم لقضية العمال من أي شيء يمكن أن يفعله في المؤتمر، كان مشغولا بوضع اللمسات الأخيرة على المجلد الأول. في البداية، انطلق هذا العمل، الذي بدأه في 1 كانون الثاني 1866، بسرعة كبيرة، ذلك «أن الانتهاء منه بعد كل هذا المخاض أمر أشعرني بالطبع بسعادة بالغة».

استغرق هذا المخاض من السنوات ما يبلغ قرابة ضعف الأشهر التي تحتاجها الطبيعة لإنتاج كائن إنساني، ولربما كان ماركس على حق عندما قال أنه لم يسبق أن كتب عمل من هذا النوع في ظل ظروف بهذه الصعوبة. فقد كان المرة تلو الأخرى يضع لنفسه مهلة زمنية لإتمامه. ففي 1851، كانت هذه المدة «خمسة أسابيع» وفي 1859 كانت «ستة أسابيع» ولكنه كان في كل مرة يتجاهل المهلة الزمنية بسبب النقد الذاتي القاسي الذي كان يضع نفسه تحت رحمته وبسبب الدقة التي كانت تدفعه باستمرار إلى بدء أبحاث جديدة، ولم تكن الاحتجاجات النافذة الصبر التي كان أفضل أصدقائه، انغلز، يواجهه بها باستمرار لتزحزحه عن هذا النقد الذاتي وتلك الدقة.

وفي نهاية 1885 انتهى العمل، ولكن على شكل مخطوطة ضخمة لا يمكن لأحد غيره، حتى انغلز، أن يعدها للنشر. ومن كانون الثاني 1866 إلى آذار 1867 وضع ماركس المجلد الأول من «رأس المال» في الشكل الكلاسيكي الذي نجده به اليوم، مستخلصا من الكمية الضخمة من المواد التي كتبها «عملا فنيا متكاملا». ولقد كان ذلك انجازا يشهد بقدرته الضخمة على العمل، ذلك أن السنة وربع السنة اللتين أتم بهما ذلك تخللهما سوء الصحة بل والمرض الخطير، كذلك الذي أصابه في شباط 1866، كما تخللها تراكم الديون التي كادت تغرقه، وهذا كله بالإضافة إلى الاستعدادات المنهكة لمؤتمر الأممية في جنيف.

وفي تشرين الثاني 1866، أرسلت الحزمة الأولى من المخطوطة إلى أوتوميسز في هامبورغ، وكان هذا ناشرا للأدبيات الديمقراطية سبق أن نشر كتابا صغيرا لانغلز حول المسألة البروسية العسكرية. وفي نيسان 1867 أخذ ماركس ما تبقى من المخطوطة إلى هامبورغ بنفسه ليجد أن ميسنر «رجل شريف». فقد سويت كل الترتيبات بعد مفاوضات قصيرة. وكان ماركس مهتما جدا بالبقاء في هامبورغ إلى أن تصل طبعات التصحيح الأولى من ليبزيغ، حيث كان الكتاب يطبع. وفي هذه الأثناء زار صديقه كوغلمان في هانوفر حيث قوبل بترحاب حار، وقضى عددا من الأسابيع مع كوغلمان وعائلته، وأشار فيما بعد إلى هذه الفترة على أنها «واحدة من أسعد الواحات في صحراء الحياة».

ولا شك في أن معنوياته ارتفعت نتيجة الاحترام والتعاطف اللذين لقيهما في الأوساط المثقفة في هانوفر، خاصة وأنه لم يعتد على مثل تلك المعاملة من مثل هذه الأوساط. فكتب في 24 نيسان إلى انغلز قائلا: «هل تعلم أننا نتمتع بسمعة في أوساط البرجوازية المثقفة أفضل بكثير مما ظننت». وفي 27 نيسان أجاب انغلز يقول: «لقد شعرت دائما أن الكتاب الملعون الذي عملت عليه هذه المدة الطويلة هو سبب كل مصائبك، وأنك لن تستطيع أبدا التغلب عليها ما لم تلقه عن كاهلك. لقد جرّك عدم إتمامه إلى الحضيض جسديا ونفسيا وماليا، وأنني أستطيع القول أن لا بد أنك تشعر الآن بأنك شخص آخر تماما بعد أن تخلصت منه، خاصة وأنك ستكشف بعد أن تعود إلى العالم أنه ليس بالسوء الذي كان به». أما بالنسبة له شخصيا، فقد عبر انغلز عن أمله في أن يستطيع التحرر من «هذه التجارة الملعونة» قريبا، ذلك أنه طالما ظل غارقا فيها حتى أذنيه فإنه لن يستطيع أن يفعل أي شيء ذي قيمة، خاصة وأن الحالة قد ازدادت سوءا بعد أن أصبح شريكا في العمل بسبب ازدياد مسؤولياته.

وفي 7 أيار كتب ماركس يقول: «إنني لعلى أمل وثقة جازمة من أنني سأكون في نهاية العام رجلا صنع نفسه بنفسه، على الأقل بمعنى أنني سأستطيع إصلاح وضعي المالي وأقف على قدمي في النهاية. لا شك في أنني لم أكن لا أستطيع إنهاء كتابي أبدا لولاك، وأنني لأؤكد لك أن ضميري كان مثقلا على الدوام لأنه كان يتعين عليك أن تضيع قدراتك الرائعة على المسائل التجارية وتتركها لتصدأ بسببي. وفوق ذلك كله، كان عليك أن تعاني معي من همومي التعيسة». وفي الواقع، لم يصبح ماركس «رجلا يصنع نفسه بنفسه» لا في نهاية العام ولا في أي وقت آخر، وكان على انغلز أن يبقى منغمسا في الأعمال التجارية بضع سنوات أخرى، ولكن الأفق بدأ مع ذلك ينجلي قليلا.

وبينما كان ماركس في هانوفر، وفي بدين أجله طويلا، فأرسل رسالة إلى أحد أنصاره، وهو مهندس تعدين اسمه سيغفريد ماير كان يعيش في برلين ولكنه كان على وشك أن يهاجر إلى أمريكا. ولا شك أن الطريقة التي وفى بها ماركس دينه تضرب مثلا رائعا آخر على «كونه بلا قلب»: «لا بد أنك تظن بي سوءا، خاصة عندما أخبرك أن رسائلك لم تبعث السرور في قلبي فحسب، بل كانت عزاء كبيرا لي في الأيام القاسية التي تلقيتها فيها. فلقد عوضتني معرفتي بأن حزبنا قد كسب فيك رجلا قادرا ذا مبادئ رفيعة عن الكثير. وبالإضافة إلى ذلك كانت رسائلك على الدوام موضوعة بلهجة ملؤها الود والدفء تجاهي شخصيا، ولا شك في أنك تدرك أن رجلا مثلي يخوض صراعا مريرا مستمرا مع العالم (العالم الرسمي) لا يقلل من أهمية شيء كهذا. حسن، إذا، أنك تسأل لماذا لم أجبك ما دام الأمر كذلك؟ لأنني كنت أشعر أنني على حافة القبر وأن عليّ أن أستخدم كل دقيقة من الوقت الذي أصلح فيه للعمل لإنهاء كتابي، الذي ضحيت لأجله بصحتي وسعادتي وعائلتي. وأنني آمل أن لا يكون هذا التفسير بحاجة إلى زيادة. إن عليّ أن أضحك على أولئك الذين يسمون «عمليين» وعلى حكمتهم. فلو كان للمرء

مكان يختبئ فيه كالثور، لاستطاع أن يدير ظهره لآلام الإنسانية ويهتم بأموره الشخصية، ولكن ما دامت الأمور على ما هي عليه، فإنني كنت سأشعر أنني لست عمليا البتة لو مت دون أن أتم كتاب على الأقل في شكل مخطوطة».

وفي خضم هذه المعنويات المرتفعة التي لازمت ماركس طيلة إقامته في هانوفر، جاء محام اسمه وارنبولد، لم يكن ماركس يعرفه من قبل، ليزعم أن بسمارك يرغب في كسب ماركس ومواهبه العظيمة لخدمة الشعب الألماني، فأخذ ماركس الأمر بجدية بالغة. ولم يكن ذلك لأن الاقتراح أغراه بأي شكل، إذ كان متفقا تماما مع انغلز الذي كتب يقول: «إنه لأمر طبيعي بالنسبة لرجل له مثل هذا الأفق الفكري وهذه الطريقة في التفكير أن يحكم على الآخرين من خلال حكمه على نفسه». لكن ماركس لم يكن ليصدق رسالة وارنبولد لو كان يتمتع بمزاحه اليقظ المعتاد، ذلك أن الجامعة الألمانية الشمالية كانت قد تحققت لتوها، كما كانت الحرب مع فرنسا بسبب مسألة اللوكسمبورغ قد تم تجنبها بصعوبة بالغة، ولذا لم يكن ممكنا أن يخاطر بسمارك ويستعدي البرجوازية باستخدام مؤلف «البيان الشيوعي»، خاصة وأن البرجوازية كانت قد انحازت لتوها إلى جانبه وكانت تنظر بضيق إلى معاوني بسمارك من أمثال بوشيه وفاغنر.

وفي طريقه إلى لندن، خاض ماركس مغامرة، ليس مع بسمارك، ولكن مع قريب له، وقص الأمر على كوغلمان ببعض الرضى. ففي القارب، كانت فتاة ألمانية سبق أن لاحظها ماركس بسبب مشيتها المستقيمة شبه العسكرية، وقد سألته الفتاة عن مواعيد القطار في لندن، فتبين أن عليها أن تنتظر بضع ساعات في لندن قبل أن تستطيع ركوب القطار. فساعدها ماركس بشهامة على تمضية الوقت وأخذها للنزهة في هايدبارك: «بدا أن اسمها اليزابيت فون بوتكامر وأنها ابنة أخ بسمارك وأنها قضت معه بضعة أسابيع في برلين. وكانت تعرف الجيش كله، لأن عائلتها تزود جيشنا بسخاء برجال كلهم شرف ويتمتعون بأجسام لائقة. كانت فتاة مرحة حسنة الثقافة، ولكنها ارستقراطية وبروسية حتى العظم. وكانت دهشتها بالغة عندما علمت أنها وقعت في أياد حمراء». غير أن الفتاة لم تفقد روحها الفكهة لهذا السبب، وكتبت إلى ماركس رسالة صغيرة أنيقة تعبر فيها عن «احترامها الأنثوي» و«شكرها القلبي» لفارسها بسبب كل العناء الذي تجشمه مع «مخلوق لا تجربة لديه» مثلها. وكذلك أرسل له والداها رسالة يخبرونه فيها كم شعروا بالسعادة عندما علموا أن المرء لا يزال يستطيع أن يقابل أناسا طيبين في رحلاته.

وعندما وصل ماركس إلى لندن صحح المسودات الطباعية لكتابه، ولكن ليس دون أن يصب جام غضبه أحيانا على إهمال الطابعين، وفي الساعة الثانية من صباح 16 آب 1867 كتب رسالة إلى انغلز يخبره فيها أنه فرغ لتوه من تصحيح الصفحة الأخيرة: «وهكذا انتهى هذا المجلد. وينبغي على أن أشكرك أنت وحدك لأنك جعلته ممكنا. فبدون تضحياتك لأجلي لم أكن أستطيع القيام بالكمية الضخمة من العمل التي احتاجتها المجلدات الثلاثة. إنني احتضنك بشكر من كل قلبي. وتحياتي لك يا صديقي العزيز الحبيب».

2-المجلد الأول

لخص ماركس في المجلد الأول من كتابه ما كان قد كتبه عام 1859 في كتابه «نقد الاقتصاد السياسي» بصدد طبيعة السلع والنقود. ولم يفعل ماركس ذلك من أجل الدقة والكمال فحسب، ولكن أيضا لأن القراء الأذكياء كانوا يفشلون في فهم أفكاره بشكل كامل، حتى ظن أنه لا بد أن يكون هناك خطأ في عرضه لها وعلى الأخص في تحليله لطبيعة السلعة.

ولا شك في أن الأساتذة الجامعيين اللامعين لا يمكن أن يحسبوا من بين قرائه الأذكياء. فقد عبروا عن متعتهم للفصل الأول على وجه الخصوص بسبب «صوفيته المضمنة». «تبدو السلعة أول وهلة شيئا تافها يمكن فهمه بسهولة. غير أن تحليلها يبين أنها شيء غريب، مليء بالخبايا الميتافيزيقية والحيل الثيولوجية. فطالما ظلت السلعة قيمة استعمالية، لا يبدو أن فيها ما هو غامض.. فشكل الخشب يتغير عندما نصنع منه مائدة. ومع ذلك تظل المائدة خشبا، تظل شيئا عاديا منظورا. ولكنها طالما تصبح سلعة، فإنها تتحول إلى شيء علوي ومنظور كذلك. فهي لا تقف على الأرض بثبات على أرجلها الأربعة فحسب، ولكنها أيضا تقف مقلوبة تجاه السلع الأخرى ويتمخض رأسها الخشبي عن نزوات أغرب بكثير مما لو صارت ترقص دون أن يتدخل في ذلك بشر». أخطأ فهم هذه الحجة أولئك الأغبياء الذين يستطيعون أن ينتجوا خبايا ميتافيزيقية وأحاجي ثيولوجية بسهولة بالغة، ولكنهم لا يستطيعون أن ينتجوا أي شيء مادي وعادي كمائدة خشبية.

إن الفصل الأول من رأس المال يبدو إذا ما نظر إليه من زاوية أدبية محضة واحدا من أفضل ما كتب ماركس. فبعد أن يعالج ماركس السلع، ينتقل ليبين كيف تتحول النقود إلى رأس مال. فإذا كان يجري تبادل قيم متساوية بقيم متساوية في تداول السلع، فكيف يمكن للمتمول أن يشتري السلع بقيمتها ويبيعها بقيمتها ويستطيع مع ذلك الحصول على قيمة اكبر من تلك التي دفعها؟ إنه يستطيع ذلك لأنه في ظل العلاقات الاجتماعية السائدة يجد في سوق السلع غريبة استهلاكها يؤدي إلى إنتاج قيمة جديدة. وهذه السلعة هي قوة العمل.

إنها توجد على شكل عامل حي يحتاج إلى كمية معينة من الطعام للإبقاء على حياته وحياة عائلته، وحياة عائلته هي التي تضمن تخليد قوة العمل الحية بعد وفاته. ووقت العمل الضروري لإنتاج هذه الكمية من الطعام الخ يمثل قيمة قوة العمل. غير أن هذه القيمة التي تدفع على شكل أجور أقل بكثير من القيمة التي يستطيع مشتري قوة العمل استخراجها منها (أي من قوة العمل). والعمل الفائض الذي يقوم به العامل فوق وقت العمل الضروري للحلول مكان القيمة التي تمثلها أجوره هو مصدر فضل القيمة، مصدر التراكم المستمر في رأس المال. وهذا العمل الذي يقوم به العامل ولا يتلقى لقاءه أجرا يوزع على كل الأعضاء غير العاملين في المجتمع، وعليه يقوم كل النظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله.

ولا شك في أن العمل الذي لا يقابله أجر ليس خاصية مميزة تقتصر على المجتمع البرجوازي الحديث. فطيلة الوقت الذي كانت فيه طبقات مالكة وأخرى لا تملك، كان على الطبقات التي لا تملك أن تقوم دائما بعمل لا تتلقى عليه أجرا. وطالما كان هناك قطاع من المجتمع يحتكر

وسائل الإنتاج، فإنه يتعين على العامل سواء كان حرا أم مستبعدا أن يعمل وقتا أطول من الوقت الضروري للحفاظ على وجوده وذلك كي ينتج الأطعمة وما عداها لمالكي وسائل الإنتاج. من هنا فإن العمل المأجور ليس إلا شكلا تاريخيا محددا من أشكال نظام العمل الذي لا يتلقى أجرا، ويجب أن يدرس بوصفه كذلك إذا كان سيفهم فهما صحيحا.

ولكي يستطيع الممتول تحويل النقود إلى رأسمال، يتعين عليه أن يجد عمالا أحرارا في سوق العمل، أحرارا بمعنى مزدوج: أولا أحرار في التصرف بقوة عملهم كسلعة ولا يملكون أية سلعة أخرى يتصرفون بها، وأحرار بمعنى أنهم لا يملكون أية وسيلة من الوسائل الضرورية لاستخدام قوة عملهم بشكل مستقل. وهذه علاقة لا تجد أساسا لها في قوانين الطبيعة، فالطبيعة لا تنتج من جهة أناسا يملكون السلع والنقود، ومن جهة أخرى أناسا لا يملكون سوى قوة عملهم. كما أن هذه العلاقة ليست علاقة اجتماعية تشترك فيها كل حقب التاريخ، بل هي نتيجة فترة طويلة من التطور التاريخي، ونتاج كثير من التحولات الاقتصادية وأفول واختفاء سلسلة كاملة من أشكال الإنتاج الاجتماعي السابقة.

إن إنتاج السلع هو نقطة بداية رأس المال. فإنتاج السلع وتداول السلع وتداول السلع المتطور، أي التجارة، تشكل الظروف التاريخية التي نما بموجبها رأس المال. وتاريخ رأس المال الحديث يعود إلى خلق التجارة العالمية الحديثة والسوق العالمي الحديث في القرن السادس عشر. أما الوهم الذي ينشره الاقتصاديون المبتذلون إذ يقولون أنه كان هناك في وقت من الأوقات نخبة من الناس الكدودين جمعوا الثروات، ومجموعة من الناس الكسالى الذين لا يصلحون لشيء وجدوا في النهاية أنهم لا يملكون شيئا يبيعونه سوى جلودهم ليس إلا هراء. ولا تقل عن ذلك سخافة الطريقة نصف المستنيرة التي يصف بها المؤرخون البرجوازيون تحلل نمط الإنتاج الإقطاعي على أنه انعتاق للعامل، وليس على أنه في الوقت ذاته تطور نمط الإنتاج الإقطاعي إلى نمط إنتاج رأسمالي. فقد كف العامل عن أن ينتمي إلى فئة وسائل الإنتاج كما كان العبد أو القن، ولكنه أيضا كف أن يملك وسائل الإنتاج مثل الفلاح أو الحرفي الذي يعمل لحسابه الخاص.

لقد حرمت جمهرة الشعب من الأرض والطعام ووسائل الإنتاج بواسطة سلسلة من الإجراءات العنيفة الوحشية التي يصفها ماركس بالتفصيل على أساس التاريخ الانجليزي، وذلك في الفصل المتعلق بالتراكم الأولي. وبهذه الطريقة خلق العامل الحر الذي يحتاجه نمط الإنتاج الرأسمالي. وجاء رأس المال إلى العالم ينقط دما وقذارة من كل مسام من مساماته، وحالما استطاع الوقوف على قدميه، لم يكتف بالحفاظ على انفصال العامل عن الوسائل الضرورية لاستخدام قوة عمله، بل عمد أيضا إلى خلق هذا الانفصال على نطاق يتسع باستمرار.

ويختلف العمل المأجور عن الأشكال السابقة للعمل الذي لا تدفع لقاءه أجور بسبب حقيقة واحدة هي أن حركة رأس المال لا حدود لها وشهيته العارمة إلى فضل القيمة لا يمكن إشباعها. أما في المجتمعات التي ترتدي فيها القيمة الاستعمالية للسلعة أهمية أكبر من تلك التي ترتديها قيمتها التبادلية، فيقتصر فضل القيمة على دائرة واسعة إلى هذا القدر أو ذاك من الاحتياجات، ولكن طبيعة هذا الشكل من أشكال الإنتاج لا ينجم عنها طلب غير محدود على فضل القيمة. ولكن الحال يختلف حيث تكون للقيمة التبادلية للسلعة أهمية أكبر من أهمية قيمتها الاستعمالية. فرأس المال كمنتج يمتلك قوة عمل مستلبة، كمصاص للعمل الفائض ومستغل لقوة العمل، يتفوق في القدرة والمخاطرة والفعالية على كل أنماط الإنتاج السابقة التي تقوم على العمل المجبر المباشر. والأمر المهم له هو بالنسبة لرأس المال ليس عملية الإنتاج، ليس إنتاج القيم الاستعمالية، بل أن المهم له هو عملية الاستثمار، أي إنتاج القيم التبادلية التي يستطيع أن ينتزع منها قيمة أكبر من تلك التي يضعها فيها. والطلب على فضل القيمة لا يعرف شبعا. وإنتاج القيم التبادلية لا يعرف حدودا كتلك التي يضعها على إنتاج القيم الاستعمالية إشباع الحاجات المباشرة.

وكما أن السلعة تركيب للقيم الاستعمالية والقيم التبادلية، كذلك فإن عملية إنتاج السلع تركيب لعملية العمل وعملية خلق القيمة. وتتوقف عملية إنتاج القيمة عند النقطة التي تستبدل فيها قيمة قوة العمل المدفوعة على شكل أجور بقدر مساو من القيمة، وبعد هذه النقطة تتحول هذه العملية إلى عملية إنتاج لفضل القيمة، إلى عملية استثمار. وعندئذ تصبح بوصفها تركيبا لعمليتي العمل والاستثمار عملية إنتاج رأسمالي، أي أنها تصبح الشكل الرأسمالي للإنتاج السلعي. وفي عملية العمل تعمل قوة العمل ووسائل الإنتاج معا. أما في عملية الاستثمار فإن مكونات رأس المال ذاتها تبدو رأسمالا ثابتا ومتغيرا. فيتحول رأس المال الثابت عبر عملية الإنتاج إلى وسائل إنتاج ومواد خام ومواد مساعدة وأدوات إنتاج، ولا يغير قيمته. أما رأس المال المتغير فيتحول عبر عملية الإنتاج إلى قوة عمل وتتغير قيمته: إنه ينتج قيمته وينتج فائضا يزيد عن قيمته، ينتج فضل قيمة يتغير حجما ويصغر أو يكبر طبقا للظروف. وهكذا يمهد ماركس الطريق لتفحص فضل القيمة الذي يبدو في شكلين، أحدهما هو فضل القيمة النسبي والثاني فضل القيمة المطلق، وكلاهما لعب دورا مختلفا ولكنه حاسم في تاريخ نمط الإنتاج الرأسمالي.

ينتج فضل القيمة المطلق عندما يجعل الرأسمالي يعمل أكثر من الوقت الضروري لإعادة إنتاج قوة عمله. ولو كان الأمر في يد الرأسمالي تماما لجعل العامل يعمل أربعا وعشرين ساعة في اليوم الواحد، فكلما كان يوم العمل أطول كلما كان فضل القيمة الناتج أكبر. ومن جهة أخرى يشعر العامل عن حق أن كل ساعة من وقت العمل يضطر إلى العمل فيها فوق ما هو ضروري لإنتاج أجوره إنما تنتزع منه انتزاعا ويتعين عليه أن يدفع ثمنها بصحته. ولقد بدأ الصراع بين الرأسمالي والعامل بشأن طول يوم العمل مع أول ظهور للعمال الأحرار في السوق، واستمر هذا الصراع حتى يومنا هذا. فالرأسمالي يصارع من أجل الربح، وسواء كان هو شخصيا رجلا طيبا أو شريرا فإن منافسة غيره من الرأسماليين له تجعله يعمل كل ما في وسعه لتطويل يوم العمل فوق ما تحمله طاقة البشر. أما العامل فهو يصارع من الجهة الأخرى من أجل الحفاظ على صحته والحصول على بضعة ساعات من الفراغ يستطيع أن يمارس فيها أشكالا من النشاط الإنساني غير العمل والأكل والنوم. ويصف ماركس بقوة الحرب الأهلية التي استمرت خمسين سنة بين الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية في انجلترا منذ ولادة الصناعة الكبيرة التي دفعت الرأسماليين إلى كسر كل الحواجز التي تفرضها على استغلال العمال الطبيعة والعادة والعمر والجنس والليل والنهار، حتى أقر يوم العمل من عشر ساعات، الذي أحرزته الطبقة العاملة بنضالها ضد رأس المال، فكسبت به عائقا اجتماعيا قويا يحول دون العمال ودون العمال ودون بيع أنفسهم وأبناء جلدتهم إلى الموت والعبودية بواسطة تعاقد حر مع رأس المال.

أما فضل القيمة النسبي فينتج عندما يتم تقصير وقت العمل الضروري لإعادة إنتاج قوة العمل لصالح فضل القيمة. ويتم تخفيض قيمة قوة العمل بزيادة إنتاجية قوة العمل في تلك الصناعات التي تحدد منتجاتها قيمة قوة العمل، ولكي يتم ذلك يصبح من الضروري تثوير نمط الإنتاج والشروط التقنية والاجتماعية لعملية العمل باستمرار. وبعد ذلك، يدلي ماركس بملاحظات تاريخية واقتصادية وتقنية وسيكولوجية-اجتماعية في سلسلة من الفصول تعالج التعاون وتقسيم العمل والمانيفاكتورة والآلات والصناعة الكبيرة، وقد اعترف الجميع، وحتى ممثلو البرجوازية، بأن هذه الملاحظات تشكل ثروة من الحقائق العلمية.

ولم يبين ماركس أن الآلات والصناعة الواسعة النطاق خلقت تعاسة أكبر من أي تعاسة خلقها أي نمط إنتاجي آخر عرفه التاريخ فحسب، بل أوضح كذلك أنهما بتثويرهما المستمر للمجتمع الرأسمالي تمهد السبيل أمام شكل اجتماعي أرقى. وقال أن التشريع الصناعي هو أول رد فعل واع ومنهجي يقوم به المجتمع تجاه الشكل غير الطبيعي لعملية الإنتاج ذاتها في هذا المجتمع. وعندما ينظم المجتمع العمل في المصانع والورش فإن ذلك يبدو مؤقتا فحسب تدخلا في حقوق الاستغلال التي يمتلكها رأس المال.

غير أن الظروف ذاتها سرعان ما تجبر المجتمع على تنظيم العمل المنزلي والتدخل حيال السلطة الأبوية، وبهذا يدرك المجتمع أن الصناعة الكبيرة إنما تصفي العلاقات العائلية القديمة جنبا إلى جنب مع الأساس الاقتصادي لنظام العائلة القديم والعمل العائلي الذي يتفق ويتطابق معه. «مهما بدا تحلل النظام العائلي القديم داخل المجتمع الرأسمالي رهيبا مثيرا للتقزز، إلا أن الصناعة الكبيرة مع ذلك تمنح النساء والشباب والأبناء دورا حاسما في عملية الإنتاج الاجتماعي، فتخلق بذلك أساس اقتصاديا جديدا لشكل عائلي أرقى ولعلاقات أرفع بين الجنسين. إنه لأمر سخيف بالطبع أن يفترض المرء أن الشكل المسيحي الجرماني للعائلة شكل مطلق سخف الافتراض بأن الشكل الروماني الكلاسيكي أو الإغريقي الكلاسيكي أو الشرقي للعائلة مطلق هو الآخر، فهي جميعا أشكال تمثل سلسلة من التطور التاريخي. ومن الواضح أن تكوين القوة العاملة من أفراد الجنسين ومن الأعمار المختلفة لا بد أن يتغير ليصبح مصدرا للتقدم الإنساني في ظل ظروف مناسبة، على الرغم من أنه في شكله الرأسمالي الفظ (الذي يوجد فيه العمال من أجل العملية الإنتاجية وليس العملية الإنتاجية من أجل العمال) مصدر للفساد والعبودية» فالآلة التي تحط العامل ليصبح مجرد ملحق بها تخلق في الوقت ذاته إمكانية زيادة قوى المجتمع الإنتاجية إلى حد يستطيع معه كل أفراد المجتمع أن يتمتعوا بلا استثناء بفرص متساوية للتقدم اللائق بالبشر، وهذا يعني بلا شك بلوغ حد من الكمال كانت كل المجتمعات السابقة أفقر من أن تبلغه.

ويمضي ماركس بعد أن يتفحص إنتاج فضل القيمة المطلق والنسبي إلى تطوير أول نظرية عقلانية للأجور عرفها تاريخ الاقتصاد السياسي. فيبين أن سعر السلعة هو قيمتها معبرا عنها بالنقود، وأن الأجور تمثل سعر قوة العمل. والعمل لا يظهر بحد ذاته في سوق السلع، فالذي يظهر في هذا السوق هو العامل الحي الذي يعرض قوة عمله للبيع، وبالتالي فإن العمل لا يظهر إلا في استهلاك السلعة التي هي قوة العمل. إن العمل هو جوهر كل القيم ومقياسها الأصيل، ولكنه لا قيمة له بحد ذاته. غير أنه يبدو أن العمل يدفع لقاءه بالأجور، لأن العامل لا يتلقى أجوره إلا بعد أن يقوم بعمله. والشكل الذي تدفع به الأجور ينجح في إخفاء أي أثر لتقسيم يوم العمل إلى وقت عمل يدفع مقابله ووقت عمل لا يدفع مقابله شيء. وقد كانت الحالة على النقيض تماما بالنسبة للعبيد، فالعبد يبدو وكأنه يعمل لسيده كل الوقت حتى عندما يعمل لإنتاج قيمة مواده الغذائية ذاتها، ويبدو عمله كله عملا لا لقاء له. أما بالنسبة للعمل المأجور، فإن العمل كله، حتى ذلك الجزء منه الذي لا يدفع مقابله شيء، يبدو مدفوع الأجر. ففي الحالة الأولى تخفي علاقات الملكية حقيقة أن العبد يعمل جزءا من الوقت لقاء لا شيء. ويضيف ماركس أننا بالتالي يمكن أن ندرك الأهمية الحاسمة لتحويل قيمة وثمن قوة العمل إلى أجور، أي على شكل تبدو فيه وكأنها قيمة وثمن العمل ذاته. فكل المفاهيم القانونية للرأسماليين والعمال معا، وكل تعميمات نمط الإنتاج الرأسمالي، كل أوهام الحرية التي يقدمها، كل مخاتلة الاقتصاد السياسي المبتذل، كل هذه تقوم على هذا المظهر الذي يخفي واقع الأمور ويبدي عكسها تماما.

ثم يبين أن الشكلين الرئيسين للأجور هما الأجور بالوقت والأجور بالقطعة ويبين على أساس القوانين التي تحكم الأجور بالوقت فراغ الادعاءات القائلة أن تقصير يوم العمل لا بد أن يؤدي إلى انخفاض في الأجور، ويبين أن العكس هو الصحيح. إن تقصيرا مؤقتا ليوم العمل يخفض الأجور، أما تقصيره الدائم فيرفع الأجور. وكلما كان يوم العمل أطول كلما كانت الأجور أخفض.

أما الأجور بالقطعة فهي ليست غير شكل آخر للأجور بالوقت، وهي إلى ذلك الشكل الذي يناسب نمط الإنتاج الرأسمالي أكثر. فقد انتشر هذا الشكل من الأجور انتشارا واسعا خلال فترة المانيفاكتورة، وأدى خلال الفترة الصعبة لنهوض الصناعة الكبيرة في انجلترا إلى تطويل يوم العمل وتخفيض الأجور. والأجور بالقطعة مفيدة جدا للرأسمالي لأنها تجعل الرقابة على العمال تكاد تكون غير ضرورية وفي الوقت ذاته تقدم للرأسمالي فرصا كثيرة للقيام بحسومات مختلفة على الأجور وممارسة أشكال أخرى متنوعة من الخداع. ومن جهة أخرى، يملك هذا الشكل من الأجور مساوئ كثيرة بالغة بالنسبة للعامل: الإنهاك الجسدي نتيجة الجهود المفرطة لرفع مستوى الأجور، تلك الجهود التي تميل في الحقيقة إلى خفض مستوى الأجور، ازدياد التنافس بين العمال وما ينجم عن ذلك من ضعف تضامنهم، ظهور عناصر طفيلية من الوسطاء بين العمال والرأسمالي تقتطع لنفسها جزءا كبيرا من أجور العمال، وما شابه ذلك من الظواهر الضارة.

بالإضافة إلى ذلك، تجعل علاقة فضل القيمة بالأجور نمط الإنتاج الرأسمالي يعيد إنتاج لا رأس مال الرأسمالي فحسب، بل وفقر العامل أيضا. فهناك من جهة الطبقة الرأسمالية التي تملك كل المواد الغذائية وكل المواد الخام وكل وسائل الإنتاج، وهناك من جهة أخرى الطبقة العاملة، ذلك الجحفل العظيم من البشر المجبرين على بيع قوة عملهم من الرأسماليين مقابل تلك الكمية من المواد الغذائية التي لا تكفي في أحسن الأحوال إلا للإبقاء عليهم قادرين على العمل وتسمح لهم بإنجاب جيل جديد من البروليتاريين العاملين. ولكن رأس المال لا يعيد إنتاج نفسه فحسب، بل يزيد من حجمه باستمرار، ويخصص ماركس الجزء الأخير من المجلد الأول لبحث «عملية التراكم» هذه.

لا ينجم فضل القيمة عن رأس المال فحسب، بل كذلك ينجم رأس المال عن فضل القيمة. ذلك أن جزءا من فضل القيمة الذي ينتج سنويا ويوزع على أفراد الطبقة المالكة يستهلكه هؤلاء كدخل، ولكن جزءا آخر يتراكم كرأسمال. وهكذا يستخدم العمل الذي لم يدفع لقاءه أجر، والذي انتزع من العمال، لانتزاع قدر أكبر من العمل دون أجر منهم. وفي خلال عملية الإنتاج يصبح رأس المال الذي ابتدئ به ضئيلا إلى أبعد الحدود بالمقارنة مع رأس المال المتراكم مباشرة، أي بالمقارنة مع فضل القيمة أو فضل الناتج الذي تحول إلى رأسمال، سواء كان لا يزال في يدي ذلك الذي راكمه أساسا أم أصبح في أيدي آخرين. وإذن، يقوم قانون الملكية الخاصة على الإنتاج السلعي، وتبادل السلع يحول نفسه إلى نقيضه المباشر بفضل جدله (ديالكتيكه) الداخلي المحتم. وقوانين الإنتاج السلعي تبدو وكأنها تبرر حق ملكية العمل الفردي، فمالكي السلع يواجهون بعضهم بعضا بحقوق متساوية، والوسيلة الوحيدة للحصول على سلعة الآخر هي بيع الفرد لسلعته هو، وهذه السلعة الأخيرة لا يمكن أن تنتج إلا بالعمل. لكن الواقع أن الملكية تظهر، في جانب الرأسمالي، على أنها الحق في امتلاك عمل الآخرين دون دفع لقاء ذلك، أو امتلاك نتاج هذا العمل، بينما تظهر في جانب العامل على أنها استحالة امتلاكه لما ينتجه هو.

وعندما بدأت البروليتاريا تدرك معنى هذا، عندما قرعت بروليتاريا ليون ناقوس الخطر، وأشعلت البروليتاريا الريفية الانجليزية النار في بيوت مضطهديها، سارع علماء الاقتصاد السياسي المبتذلون إلى اختراع «نظرية التقشف» التي تقول أن رأس المال إنما يتراكم نتيجة «التقشف الطوعي» من جانب الرأسماليين. وهنا يدحض ماركس هذه النظرية بقسوة، قائلا أن «التقشف» الذي يساهم فعلا في تراكم رأس المال هو «التقشف» الإجباري المفروض على العمال، هو التخفيض القاسي للأجور تحت مستوى قيمة العمل كي تتحول الأموال الضرورية لاستهلاك العمال، إلى أموال يراكمها الرأسماليون، على الأقل جزئيا. هذا هو الأساس الحقيقي لكل النحيب حول الحياة «المرفهة» التي يعيشها العمال، وللفيض الدافق الذي لا ينتهي من الأكاذيب حول الآلات الموسيقية الفخمة التي يزعم أن بعض العمال قد اشتروها في وقت أو آخر، ولكل الوصفات الرخيصة التي يروجها المصلحون الاجتماعيون المسيحيون، وكذلك لكل الحيل والألاعيب الأخرى الشبيهة التي يستخدمها حاملو لواء الرأسمالية.

إن القانون العام للتراكم الرأسمالي هو التالي: نمو رأس المال يتضمن نمو الجزء المتغير منه، أي ذلك الجزء الذي يتحول إلى قوة عمل. وإذا ظل تركيب رأس المال دون أن يتغير، إذا كانت كمية معينة من وسائل الإنتاج تتطلب دائما القدر ذاته من قوة العمل لتشغيلها، فإن من الواضح أن الطلب على قوة العمل سوف ينمو بالتناسب مع نمو رأس المال، كما ستنمو الأموال اللازمة لإعالة العمال، وكلما نمى رأس المال أسرع، كلما نمت هذه الأموال أسرع. وكما أن التكاثر البسيط يعيد باستمرار خلق العلاقة الرأسمالية ذاتها، كذلك يعيد التراكم خلق العلاقة الرأسمالية على نطاق أوسع: عدد أكبر من الرأسماليين أو رأسماليون أكبر من جهة، وعدد أكبر من العمال المأجورين من جهة أخرى. ولذا فإن تراكم رأس المال هو كذلك زيادة البروليتاريا، وفي الحالة لتي نحن بصددها تحدث هذه الزيادة في أكثر الظروف مواتاة للعمال. إذ أن جزءا أكبر من فضل القيمة المتزايد الذي ينتجونه، والذي يتحول بازدياد إلى رأس مال، يعود إليهم على شكل أجور، مما يمكنهم من زيادة استهلاكهم وتزويد أنفسهم بالثياب والأثاث الخ بسخاء أكبر. غير أن علاقة تبعيتهم للرأسمالي لا تتغير بأي شكل من الأشكال، كما أن العبد لا يكف عن كونه عبدا لمجرد أنه يطعم جيدا ويلبس جيدا. ذلك أنه يترتب عليهم دائما أن يزودوا الرأسمالي بقدر من العمل لا يدفع لقاءه، وعلى الرغم من أن هذا القدر قد يتناقص إلا أنه لا يمكن أن يتناقص إلى الحد الذي يتهدد معه بالخطر الطابع الرأسمالي لعملية الإنتاج. ذلك أنه إذا ارتفعت الأجور فوق هذا الحد، فإن حافز الربح يتناقص، فيتراخى من ثم تراكم رأس المال حتى تهبط الأجور ثانية إلى مستوى يتفق مع الحاجة إلى استخدام العمل المأجور.

يبد أن القيود الذهبية التي يصيغها العامل نفسه لا تخف وطأتها إلا عندما يحدث تراكم رأس المال دون أن يصاحب ذلك أي تغير في العلاقة بين أجزائه الثابتة والمتغيرة. لكن عملية التراكم تكون مصحوبة في الواقع بثورة عظيمة في ما أسماه ماركس التركيب العضوي لرأس المال. إذ ينمو رأس المال الثابت على حساب رأس المال المتغير، فإنتاجية العمل المتنامية تجعل وسائل الإنتاج تزيد بسرعة أكبر من سرعة زيادة قوة العمل المتضمنة فيها. وهكذا فإن الطلب على قوة العمل لا يرتفع بالتناسب مع تراكم رأس المال، بل يهبط نسبيا. ويحدث الأثر ذاته بشكل آخر بفعل تمركز رأس المال الذي يحصل، دون علاقة بتراكم رأس المال، لأن قوانين التنافس الرأسمالي تؤدي إلى ابتلاع الرأسماليين الكبار للرأسماليين الصغار. وهكذا بينما يتطلب رأس المال المكمل، الذي تكون خلال عملية التراكم، عددا أقل فأقل من العمل بالنسبة إلى حجمه، يتخلص رأس المال القديم، الذي يعاد إنتاجه بتركيب جديد، من عدد أكبر فأكبر من العمال الذين كان يوظفهم سابقا. وبهذه الطريقة يتشكل فائض نسبي من العمال، نسبي بالعلاقة مع احتياجات استثمار رأس لمال، يتشكل جيش احتياطي صناعي يتلقى أجرا أقل من قيمة قوة عمله في الفترات المالية السيئة أو المتوسطة، جيش يوظف بصورة غير منتظمة ويعتمد في أحيان أخرى على المعونة العامة، ولكنه في كل الأحيان يؤدي إلى انخفاض مقاومة العمال العاملين كما يؤدي إلى انحطاط مستويات أجورهم.

إن الجيش الاحتياطي الصناعي هذا نتاج لا مفر منه لعملية التراكم، أو لتطور الثروة على أساس رأسمالي، ولكنه في القوت ذاته يشكل عتلة تدفع بنمط الإنتاج الرأسمالي إلى الأمام. ذلك أن تراكم رأس المال، وما يصاحبه من تطور في إنتاجية العمل، يؤديان إلى ازدياد مفاجئ في قدرة رأس المال على التوسع، ويتطلب ذلك أعدادا ضخمة من العمال الذين يمكن أن يكونوا رهن الإشارة لاستخدامهم في أسواق جديدة أو في فروع إنتاج جيدة دون أن يؤدي ذلك إلى إعاقة العمل الإنتاجي في حقول أخرى. بالإضافة إلى ذلك فإن المسار المميز للصناعة الحديثة، الذي يتخذ شكل دورة عشرية (لا تخرقها سوى تغيرات بسيطة) مكونة من فترات من النشاط الوسطي تعقبها فترات من الإنتاج المرتفع ثم الأزمة والركود، يقوم على التشكل المستمر والاستيعاب إلى هذا الحد أو ذاك لجيش الاحتياط الصناعي. فكلما ازدادت الثروة الاجتماعية وتنامى حجم رأس المال العامل واتسع مدى نموه، وبالتالي ازداد الحجم المطلق للسكان العاملين وإنتاجية عملهم، كلما ازداد حجم الفائض النسبي للسكان أو جيش الاحتياط الصناعي. هكذا فإن الحجم النسبي لهذا الجيش يزيد بزيادة الثروة. وكلما كان حجمه أكبر بالعلاقة مع الجيش الصناعي العامل، كلما ازداد حجم تلك القطاعات من العمال التي يتناسب فقرها عكسيا مع قسوة العمل الذي تقوم به. وفي النهاية، كلما تعاظم حجم القطاعات المفقرة ممن الطبقة العاملة وتعاظم جيش الاحتياط الصناعي، كلما أصبح عدد أولئك المعتبرين رسميا عالة أكبر. هذا هو القانون العام المطلق للتراكم الرأسمالي.

إن الميل التاريخي للتراكم الرأسمالي ينجم عن هذا القانون. وإلى جانب تراكم وتمركز رأس المال يتطور الشكل التعاوني للعمل على نطاق يتسع باطراد، كما يتطور التطبيق التقني الواعي للعلم على الإنتاج والزراعة المشتركة المنظمة للأرض والاقتصاد في وسائل الإنتاج باستخدامها كوسائل مشتركة لإنتاج العمل الاجتماعي. ومع التناقض المطرد في عدد أولئك الرأسماليين الكبار الذين يغتصبون ويحتكرون كل منافع عملية التحول هذه، يزداد حجم التعاسة والاضطهاد والعبودية والاستغلال، ولكن في الوقت ذاته يزداد سخط الطبقة العاملة التي تنمو باستمرار في الحجم وتزداد دربتها ووحدتها وتنظيمها بفعل ميكانيكية عملية الإنتاج الرأسمالي ذاتها. ثم يصبح احتكار رأس المال قيدا على نمط الإنتاج الذي نما معه وفي ظله. ويصل تمركز وسائل الإنتاج وتشريك العمل حدا لا يمكن معه التوفيق بينهما في ظل القشرة الرأسمالية. وعندئذ يحين أجل الملكية الخاصة، وتنتزع أملاك من انتزعوا الملكية.

عندئذ تعاد الملكية الفردية القائمة على العمل الفردي، ولكن على أساس انجازات الحقبة الرأسمالية، وعلى شكل تعاون العمال الأحرار وكملكية مشتركة للأرض ولوسائل الإنتاج التي ينتجها العمل. وبالطبع، ليس تحويل الملكية الرأسمالية، التي تقوم عمليا على أساس نمط اجتماعي من الإنتاج، إلى ملكية اجتماعية عملا صعبا بقدر ما كانت صعوبة تحويل الملكية المبعثرة القائمة على العمل الفردي إلى ملكية رأسمالية. ففي الحالة الثانية، كان الأمر انتزاع الملكية من يدي جماهير الشعب واحتكارها من جانب حفنة من المغتصبين، أما في الحالة الأولى فسيكون الأمر نزع جماهير الشعب لملكية حفنة من المغتصبين.

3-المجلدان الثاني والثالث

كان مصير المجلدين الثاني والثالث من رأس المال شبيها بمصير المجلد الأول. فقد كان ماركس يأمل أن يستطيع نشرهما بعيد صدور المجلد الأول. ولكن في الواقع مرت سنوات عديدة، وفي النهاية لم ينجح في إعدادهما للطبع.

فقد حالت دونه ودون إتمام العمل كله دراسات تتجدد وتتعمق باستمرار ومرض لازمه وفي النهاية كانت الوفاة، فقام انغلز بإعداد المجلدين الثاني والثالث من الأوراق غير المنتهية التي خلفها صديقه. وكانت ثروة المواد التي خلفها ماركس تتألف من مسودات وملاحظات وهوامش مختصرة قام بكتابتها طالب علم ليقرأها هو وحده لا غيره، وبالإضافة إلى مقاطع طويلة متكاملة متناثرة هنا وهناك. وكانت هذه بمجموعها تمثل نتاج فكري دؤوب استمر من عام 1861 على عام 1878 وتخللته فترات انقطاع طويلة أحيانا.

وفي ظل هذه الظروف، يتعين علينا أن لا ننتظر من المجلدين الأخيرين من رأس المال أن يزودانا بالجواب النهائي الكامل لكل المسائل الاقتصادية. ففي بعض الحالات لا يتعدى ما نجده في المجلدين صياغة بعض المسائل، بالإضافة إلى إشارات إلى الطريق التي ينبغي على المرء سلوكها ليصل الحل. وإن رأس المال يتفق تماما مع الموقف العام لماركس، فهو ليس كتابا منزلا يضم بين دفتيه حقائق نهائية لا تقبل النقض ولا التغيير، بل هو مصدر لا ينضب للحوافز الباعثة على دراسات أبعد واستقصاء علمي أكثر كمالا ونضالات من أجل الحقيقة أكثر نضجا.

وهذه الظروف ذاتها هي التي تفسر السبب في أن المجلدين الثاني والثالث ليسا مكتملين شكلا كما المجلد الأول، كما تفسر السبب في أنهما لا يشعان الذكاء اللماع ذاته. غير أنهما يطيعان بعض القراء قدرا أكبر من المتعة لكونهما يعرضان مسائل فكرية بحتة دون كبير اكتراث بالشكل. وتمثل محتويات المجلدين تكملة وتطويرا للمجلد الأول، ومن هنا فلا غنى عنهما لفهم الماركسية ككل. ولكنهما لسوء الطالع لم يتلقيا حتى اللحظة اهتماما بتفسيرهما وتبسيطهما في طبعات شعبية، وهما لذلك لا يزالان مجهولين للجماهير العريضة، بل وحتى للعمال المتنورين.

يعالج ماركس في المجلد الأول المسألة الأساسية في الاقتصاد السياسي: ما هو أصل الثروة؟ ما هو مصدر الربح؟ كان الجواب على ذلك يتخذ قبل ماركس شكلين اثنين.

فقد فسر المدافعون «العلميون» عن العالم الذي نعيش فيه الثروة الرأسمالية بسلسلة من التحايلات والتبرئات التي تفتقر إلى الصدق إلى هذا الحد أو ذلك: الثروة الرأسمالية نتيجة للزيادة في أسعار السلع «لتعويض» صاحب رأس المال عن كرمه إذ «يعطي» رأسماله لأغراض إنتاجية، إنها تعويض عن «المخاطرة» التي يجابهها كل من يوظف رأسماله، إنها المكافأة التي يتلقاها الرأسمالي لقاء «إدارته» للعمل، وغير ذلك من التفسيرات الشبيهة، التي تشترك في هدف واحد هو تصوير الغنى من جهة والفقر من جهة أخرى على أنهما أمر «عادل» وبالتالي لا يمكن تغييره.

ومن جهة أخرى، كان نقاد المجتمع البرجوازي، أي أصحاب جميع المدارس الاشتراكية قبل ماركس، يعلنون أن الثروة الرأسمالية هي ببساطة نتيجة الاحتيال وسرقة العمال بتوسط رأس المال وعيوب تنظيم العملية الإنتاجية. وانطلاقا من هذا الموقف، وضع هؤلاء الاشتراكيون خططا طوباوية مختلفة للقضاء على استغلال بإلغاء النقود، و«تنظيم العمل»، غير ذلك من الخطط الشبيهة.

كان المجلد الأول من رأس المال هو الذي كشف عن المصدر الحقيقي للثروة للمرة الأولى، إذ لم يضع وقتا في البحث عن تبريرات للرأسماليين ولا في إدانتهم بسبب حيفهم وظلمهم، بل بين كيف ينشأ الربح وكيف يتدفق إلى جيب الرأسمالي. وقد فعل ذلك على أساس حقيقتين اقتصاديتين حاسمتين: أولاهما أن جمهرة العمال تتألف من بروليتاريين مجبرين على بيع قوة عملهم كسلعة كي يستطيعوا البقاء، وثانيتهما أن هذه السلعة تملك قدرة إنتاجية مرتفعة تجعلها قادرة على أن تنتج في وقت معين ما هو أكثر بكثير من القدر اللازم للإبقاء عليها خلال ذلك

الوقت. وهاتان الحقيقتان الاقتصاديتان الناجمتان عن التطور التاريخي الموضوعي تجعلان نتاج قوة عمل البروليتاري يقع أوتوماتيكيا في يد الرأسمالي ويتراكم مع استمرار نظام الأجور ليصبح كميات تتنامى باستمرار من رأس المال.

هكذا تفسر الثروة الرأسمالية لا على أنها تعويض عن تضحيات وهمية يقوم بها الرأسمالي أو منافع خيالية يمنحها، ولا على أنها نتيجة الغش أو السرقة بمعناهما المتعارف عليه، بل على أنها تبادل بين الرأسمالي والعامل، صفقة يتساوى فيها الجانبان طبقا للقوانين التي تحكم بيع وشراء جميع السلع الأخرى. ولكي يستطيع ماركس تفسير هذه الصفقة التي تمنح الرأسمالي ثمار العمل الذهبية، كان عليه أن يطور قانون القيمة الذي اكتشفه الاقتصاديان الكلاسيكيان الانجليزيان العظيمان آدم سميت ودافيد ريكاردو في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أي كان عليه أن يطور تفسير القوانين الداخلية للتبادل السلعي إلى حدوده المنطقية ويطبقه على سلعة قوة العمل. ويعالج المجلد الأول بصورة رئيسية قانون القيمة وما ينجم عنه من أجور وفضل قيمة، أي يعالج تفسير كيفية انقسام نتاج العمل المأجور بصورة طبيعية ودون عنف أو غش إلى فقر للعامل وثروة سهلة للرأسمالي. وهنا تكمن الأهمية التاريخية العظمى للمجلد الأول من رأس المال. فقد بين أن الاستغلال لا يمكن القضاء عليه إلا بإلغاء بيع قوة العمل، أي بإلغاء نظام الأجور.

إننا نتوقف في المجلد الأول عند الإنتاج، في مصنع، في منجم، أو في مشروع زراعي حديث، وما يقال عن واحد من هذه يقال عن أي مشروع لرأسمالي. ويقدم لنا المجلد الأول أمثلة فردية على نمط الإنتاج الرأسمالي كله. وعندما نغلق دفتيه نكون قد تعرفنا تماما على الإنتاج اليومي للربح وعلى آلية الاستغلال الرأسمالي بجميع دقائقها. فتتكوم أما ناظرينا أهرام من السلع من كل نوع وصنف خرجت من المصانع وهي لا تزال مبتلة بعرق العمال، وفيها جميعا نستطيع أن نستشف ذلك الجزء من القيمة الذي ينجم عن عمل لم يدفع لقاءه أجر. عندئذ تتبدى لنا جذور الاستغلال الرأسمالي عارية تماما.

غير أن الرأسمالي، عند هذه النقطة، لا يكون قد جنى حصاده بعد تماما. فثمرات الاستغلال موجودة، ولكنها لا تزال على شكل غير مناسب للامتلاك. فما دامت ثمار الاستغلال على شكل سلع متراكمة، فإن الرأسمالي لا يستفيد منها الكثير. فهو ليس مالكا للعبيد في العالم الإغريقي-الروماني الكلاسيكي القديم، وهو ليس إقطاعي القرون الوسطى، إنه ليس من أولئك الذين كانوا يمتصون دم الشعب العامل ليشبعوا نهمهم إلى الترف ويعيلوا حاشية ضخمة من الأتباع. إن عليه كي يعيل نفسه وعائلته «في مستوى يليق بموقعه الاجتماعي»، أن يحول ثروته إلى نقد سائل، وهذا أمر ضروري كذلك إذا كان له أن يزيد رأس ماله باستمرار. ولذا يتعين عليه أن يبيع السلع التي أنتجها العمال المأجورين مع فضل القيمة المتضمن فيها. يجب أن تغادر السلع المصنع والمخزن وتطرح في السوق.

وهكذا يتبع الرأسمالي سلعته من مخزنه ومكتبه إلى سوق الأوراق المالية (البورصة) وإلى المتاجر، ونحن نتتبعه في المجلد الثاني من «رأس المال».

يقضي الرأسمالي المرحلة الثانية من حياته في مجال تبادل السلع، وهنا يواجه عددا من المصاعب. ففي المصنع، يلعب الرأسمالي دور السيد بلا منازع ويسود النظام والانضباط، أما في سوق السلع فتسود فوضى كاملة باسم التنافس الحر. فلا أحد يهتم بجاره ولا أحد يهتم بالجميع، ومع ذلك فهنا بالضبط يشعر الرأسمالي باعتماده على الآخرين وعلى المجتمع ككل.

يجب على الرأسمالي أن يسبق منافسيه على الدوام. ذلك أنه إذا استغرق من الوقت في بيع سلعه أكثر مما هو ضروري بالضبط، إذا فشل في الحصول على ما يكفي من النقود لشراء المواد الخام والأشياء الأخرى التي يحتاجها في اللحظة المناسبة ليحول دون مصنعه والتوقف بسبب نقص التجهيزات، إذا فشل في استثمار النقود التي يحصل عليها لقاء بيع سلعه، فإنه لا بد أن يتخلف بشكل أو بآخر. ومن هنا فإن الرأسمالي الذي يفشل في إدارة تجارته بين المصنع وسوق السلع بالفعالية ذاتها التي يدير بها المصنع، يفشل في الحصول على وتيرة الربح المعتادة مهما بلغت حماسته في استغلال عماله. إذ أن جزءا من ربحه «الذي بذل في سبيله الكثير» سيضع في هذه المرحلة أو تلك ولن يجد طريقه إلى جيبه أبدا.

غير أن هذا وحده ليس بكاف. إذ أن الرأسمالي لا يستطيع أن يراكم ثروة إلا إذا أنتج سلعا، أكثر من ذلك، يتعين عليه أن ينتج بالضبط تلك الأنواع والأصناف من السلع التي يحتاجها المجتمع، ويجب عليه أن ينتجها بالكميات المطلوبة بالضبط، وإلا ظلت سلعة دون أن تباع فيخسر فضل القيمة المتضمن فيها. فكيف يمكن للرأسمالي الفرد أن يتحكم بكل هذه العوامل؟ ليس هناك من يستطيع أن يقول له ما هي السلع التي يحتاجها المجتمع وكم يحتاج منها، لسبب بسيط هو أن أحدا لا يعرف ذلك. فنحن نعيش في مجتمع فوضوي غير مخطط، والرأسمالي الفرد يعيش في هذا المجتمع ذاته. ومع ذلك، لا بد أن ينبثق عن هذه الفوضى كلها، عن هذا التخبط كله، ما يسمح لتجارة الرأسمالي الفرد بالازدهار وفي الوقت ذاته ما يشبع حاجات المجتمع ويسمح باستمرار وجوده ككائن اجتماعي.

وبكلمات أدق، يجب أن تنجم عن التخبط الفوضوي لسوق السلع إمكانية الحركة الدورية المستمرة لرأس المال، إمكانية الإنتاج والبيع وشراء مواد خام الخ والإنتاج ثانية، بحيث يتحول رأس المال باستمرار من شكله النقدي إلى شكله السلعي ليعود فيتحول إلى شكله النقدي وهكذا. ويجب أن تتعاقب هذه المراحل بدقة: يجب أن يكون هناك احتياط من النقد لاستثمار أفضل الفرص التي يقدمها السوق لشراء المواد الخام الخ. وللوفاء بنفقات الإنتاج، ويجب أن تعطي للنقود التي تتدفق عائدة نتيجة بيع السلع فرصة الاستثمار الفوري ثانية. وهكذا يؤلف الرأسماليون الذين يبدو كل منهم وكأنه مستقل عن الآخر، رابطة وثيقة، وبفضل نظام التسليف والبنوك يقدمون لبعضهم البعض الأموال التي يحتاجونها ويأخذون الأموال المتوفرة، وهكذا يضمن التطور المستمر لعملية الإنتاج ويضمن البيع المستمر للسلع لمصلحة الرأسمالي الفرد ووفاء باحتياجات المجتمع ككل.

لم يستطع الاقتصاديون البرجوازيون أن يجدوا لنظام التسليف تفسيرا أفضل من تسميته مؤسسة عبقرية «لتسهيل تبادل السلع» أما ماركس فيبين في المجلد الثاني من «رأس المال» عرضا أن نظام التسليف جزء ضروري من الحياة الرأسمالية، فهو حلقة الوصل بين مرحلتين من مراحل رأس المال، بين مرحلة الإنتاج ومرحلة سوق السلع، وبين تحركات رأس المال الفردي التي تبدو اعتباطية.

ثم أن التبادل المستمر للإنتاج والاستهلاك في المجتمع يجب أن يظل في حركة دائمة في خضم تخبط رؤوس الأموال الفردية، ويجب أن يتم ذلك بطريقة تتحقق معها الشروط الضرورية للإنتاج الرأسمالي: إنتاج وسائل الإنتاج، إعالة الطبقة العاملة والإثراء المتزايد للطبقة الرأسمالية، أي التراكم والنشاط المتزايد لكل رأس المال في المجتمع. ويستقصي المجلد الثاني من «رأس المال» كيف ينجم كل منظم عن التحركات المتخبطة لرأس المال الفردي، وكيف تتأرجح حركة هذا الكل بين فائض سنوات الازدهار وانهيار سنوات الأزمة، لتعود المرة تلو الأخرى إلى وضع متناسب لتغادر هذا الوضع في الحال، وكيف تنجم عن هذا كله بحجوم تتضخم باستمرار وسيلة المجتمع القائم، أي بقاؤه وازدهاره الاقتصادي، غاية هذا المجتمع، أي التراكم المتنامي لرأس المال. ولا يقدم ماركس لنا حلا نهائيا، ولكنه للمرة الأولى منذ مئة سنة، منذ آدم سميث، يقدم لنا الكل الاجتماعي على أساس قوانين ثابتة.

ولكن حتى مع ذلك، لم يقطع الرأسمالي الطريق الشائك المفتوح أمامه، فعلى الرغم من أن الربح قد تحول ويتحول باستمرار وتزايد إلى نقود، إلا أن المشكلة الكبرى التي تبرز الآن هي كيفية توزيع الغنيمة. فالجماعات المختلفة من الرأسماليين تتقدم بمطالبها، فعدا عن المستخدِم، هناك التاجر وهناك الرأسمالي المقرض وهناك مالك الأرض، وكل من هؤلاء أدى قسطا مما هو ضروري لاستغلال العامل المأجور وبيع السلع التي ينتجها، وكل منهم يطالب الآن بحصته من الربح. إن توزيع الربح هذا مسألة أعقد بكثير مما يبدو على السطح، ذلك أنه توجد فروقات في الأرباح حتى بين الرأسماليين المستخدمين أنفسهم، طبقا لنوع المشروع.

في بعض فروع الإنتاج، تنتج السلع وتباع بسرعة، فيعود رأس المال بالإضافة إلى العوائد إلى المشروع في وقت قصير. أما في فروع إنتاجية أخرى فيظل رأس المال مفيدا ضمن العملية الإنتاجية مدة طويلة ولا ينتج ربحا إلا بعد سنوات. وفي بعض الفروع يتحتم على الرأسمالي أن يستثمر الجزء الأكبر من رأس ماله في وسائل إنتاج لا حياة فيها، في الأبنية والآلات المكلفة وغيرها، أي في أشياء لا تنتج ربحا بحد ذاتها مهما كانت ضرورية لصنع الربح. أما في فروع أخرى من الإنتاج فلا يحتاج المستخدم إلا إلى استثمار جزء ضئيل من رأس ماله في أمور كهذه ويستطيع استخدام الجزء الأكبر من رأس المال في استخدام العمال، الذي يمثل كل منهم الدجاجة الصناعية التي تبيض للرأسمالي ذهبا.

هكذا تنمو عبر عملية صنع الربح فروقات ضخمة بين الرأسماليين الأفراد، وتمثل هذه الفروقات في نظر المجتمع البرجوازي «ظلما» أكثر إلحاحا بكثير من «التبادل» الغريب الذي يحصل بين الرأسمالي والعامل. والمشكلة هي الوصول إلى تدبير معين يضمن توزيعا «عادلا» للغنائم، بحيث يحصل كل رأسمالي على «نصيبه»، أكثر من ذلك يجب أن تحل هذه المشكلة دون أية خطة جدية منهجية، ذلك أن التوزيع في المجتمع القائم فوضوي مثلما هو الإنتاج. وليس هناك في الواقع «توزيع» بمعنى أن يكون التوزيع ثمرة إجراء اجتماعي، فكل ما يحدث هو تبادل، حركة دورانية للسلع، شراء وبيع. فكيف إذا يسمح تبادل السلع غير المنظم لكل مستغل فرد ولكل فئة من المستغلين بالحصول على نصيب من الثروة التي تنتجها قوة عمل البروليتاريا، والتي يعتبرها كل رأسمالي فرد وكل فئة من الرأسماليين «حقا» له أو لها؟

يعطي ماركس جوابا على هذا السؤال في المجلد الثالث من «رأس المال». فهو في المجلد الأول يعالج إنتاج رأس المال ويكشف عن سر الربح. وهو في المجلد الثاني يصف حركة رأس المال بين المصنع والسوق، وبين الإنتاج واستهلاك المجتمع. أما في المجلد الثالث فهو يعالج توزيع الربح بين الطبقة الرأسمالية ككل. وهو يقيم بحثه باستمرار على أساس المبادئ الأساسية الثلاث للمجتمع الرأسمالي: أولا، أن كل ما يحصل في المجتمع الرأسمالي ليس نتيجة قوى اعتباطية، بل هو ناجم عن قوانين محددة تعمل بانتظام، على الرغم من أن هذه القوانين لا يعرفها الرأسماليون أنفسهم. ثانيا، أن العلاقات الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي لا تقوم على العنف والسطو والغش. وثالثا، أنه ليس هناك من عقل اجتماعي يعمل على تنظيم تحركات المجتمع ككل. ويحلل ماركس ويعري كل ظواهر النظام الاقتصادي الرأسمالي وكل علاقاته الواحدة تلو الأخرى على أساس آلية التبادل في المجتمع الرأسمالي، أي على أساس قانون القيمة وقانون فضل القيمة الناجم عنه.

ويمكننا القول، إذا أخذنا بنظر الاعتبار «رأس المال» ككل، أن المجلد الأول الذي يشرح قانون القيمة والأجور وفضل القيمة يكشف عن أسس المجتمع القائم، بينما يصور لنا المجلدان الثاني والثالث البيت الذي يقوم على هذه الأسس. أو يمكننا القول، إذا استخدمنا تشبيها آخر، أن المجلد الأول يبين لنا قلب الكائن الاجتماعي، الذي ينتج نسغ الحياة، بينما يبين لنا المجلدان الثاني والثالث دورة الدم والغذاء من القلب إلى مختلف الخلايا.

يأخذنا المجلدان الثاني والثالث إلى مستوى مختلف. فنحن، في المجلد الأول، في المصنع، في أعماق العمل حيث نتمكن من متابعة أساس الثروة الرأسمالية، أما في المجلدين الثاني والثالث فنحن على السطح، في المرحلة الرسمية للمجتمع، حيث تبرز في الواجهة المتاجر الكبرى والبنوك وأسواق العملة والأسهم والتمويل ومتاعب الزراعي «المحتاج». وليس للعامل دور في هذه المرحلة، وهو في الواقع لا يبدي سوى القليل من الاهتمام بما يجري وراء ظهره بعد أن سلخ جلده. فنحن لا نرى العمال في وسط جمهرة أصحاب العمل إلا عندما يستيقظون في الصباح الباكر ليذهبوا إلى المصانع، أو عندما يعودون في المساء المتأخر إلى بيوتهم بعد أن تقذف بهم المصانع خارجها.

ولذا قد لا يكون واضحا أول وهلة لماذا يتعين على العمال أن يشغلوا أنفسهم بمتاعب الرأسماليين أو بالمنازعات بين هؤلاء حول تقسيم الغنائم. غير أن المجلدين الثاني والثالث ضروريان لفهم الآلية الاقتصادية للمجتمع ضرورة المجلد الأول. صحيح أنهما لا يلعبان دورا تاريخيا أساسيا بالنسبة لحركة الطبقة العاملة الحديثة مثلما يلعب المجلد الأول، ولكنهما مع ذلك يقدمان لنا ثروة من المعلومات تبصرنا بدقائق الطريقة

التي تعمل بها الرأسمالية، وذلك أمر لا غنى عنه في تزويد البروليتاريا بسلاحها الفكري في الصراع العملي من اجل انعتاقها. ويكفي لإثبات ذلك مثلان.

عندما يبحث ماركس، في المجلد الثاني، العملية التي تنجم عبرها إعالة المجتمع عن الحركة الفوضوية لرأس المال الفردي، فإنه بالطبع يتطرق لمسألة الأزمات. ويجب أن لا يتوقع المرء أطروحة كاملة حول هذه الظاهرة. فليس هناك في الواقع سوى بضعة ملاحظات عابرة، ولكن استخدام هذه الملاحظات له أكبر الأثر في تنوير وتثقيف العمال: فمثلا، يستخدم الاشتراكيون الديمقراطيون، وعلى الأخص القادة النقابيون، حجة رئيسية هي أن الأزمات تحدث بصورة رئيسية نتيجة قصر نظر الرأسماليين، الذين لا يستطيعون أن يفهموا أن جماهير العمال هي أفضل زبائنهم، وأن كل ما يتوجب عليهم فعله، هو زيادة أجور هؤلاء العمال لضمان وجود قوة شرائية لبضائعهم، وبذلك يتجنبون أخطار الأزمات.

إن هذه الحجة رائجة جدا، ولكنها خاطئة تماما. ويدحضها ماركس بالكلمات التالية: «إنه لمحض حشو فارغ أن يقال أن الأزمات تنجم عن قلة المشترين والمستهلكين. إن المجتمع الرأسمالي لا يتعرف إلا على المستهلكين الذين يدفعون لقاء ما يستهلكون، عدا أولئك الذين يتلقون مساعدة من المجتمع أو ما يسمون «عالة». ولذا إذا كانت السلع لا تباع، فإن ذلك يجب أن لا يعني أكثر من أنه ليس هناك مستهلكين أو مشترين لهذه السلع. وإذا كان بعض الناس يميل إلى إعطاء هذا الحشو الفارغ مظهر ما له عميق المعنى بالقول أن الطبقة العاملة لا تحصل على ما يكفي مما تنتجه، وأن النشر سيزول حالما تحصل على نصيب أكبر، أي حالما ترتفع الأجور، فإن كل ما يستطيع المرء قوله هو أن الأزمات تسبقها باستمرار فترات ترتفع فيها الأجور بصورة عامة وتحصل فيها الطبقة العاملة على نصيب أكبر من الناتج السنوي المخصص للاستهلاك. ولذا فإن فترات كهذه يجب، طبقا لوجهة نظر هؤلاء المدافعين عن «الحس السليم»، أن تحول دون نشوب الأزمات. ومن هنا، يبدو أن الإنتاج الرأسمالي يتضمن ظروفا تتمتع باستقلال كامل عن النوايا الحسنة أو النوايا السيئة، ولا تسمح لفترات ازدهار الطبقة العاملة بالاستمرار إلا مؤقتا وكنذير للازمات القادمة».

إن الأبحاث التي يقوم بها ماركس في المجلدين الثاني والثالث من «رأس المال» تقدمان لنا فهما كاملا لطبيعة الأزمات، فهو يبين أنها النتيجة الحتمية لحركة رأس المال، الذي يندفع بسرعة، بفعل نهمه وتوقه إلى التراكم والنمو، مخترقا حدود الاستهلاك، مهما اتسعت هذه الحدود نتيجة زيادة القوة الشرائية لقطاع من قطاعات المجتمع أو نتيجة فتح أسواق جديدة. هكذا يدحض ماركس فكرة توافق المصالح بين رأس المال والعمل، تلك الفكرة التي تقف خلف التحريض الذي تقوم به النقابات، والذي يزعم أن ما يحول دون هذا التوافق هو فحسب قصر نظر الرأسماليين. وهكذا أيضا نتبين أنه يجب التخلي عن الأمل في الوصول إلى إجراءات من شأنها ترقيع الفوضى الرأسمالية. إن لنضال من أجل تحسين الشروط المادية لحياة البروليتاريا يجد ألف حجة ناصعة من بين الأسلحة الفكرية التي تتسلح بها الطبقة العاملة الحديثة، وهو لذلك لا يحتاج إطلاقا إلى حجة خاطئة نظريا وغامضة عمليا كهذه التي عالجناها فيما سبق.

أما المثال الثاني فهو أن ماركس يقدم في المجلد الثالث، وللمرة الأولى، تفسيرا علميا لظاهرة حار في فهمها علم الاقتصاد البرجوازي منذ نشأته. وهي بالتحديد: كيف يتسنى لرأس المال في كل فروع الإنتاج، ورغم أنه يستثمر في ظروف مختلفة، أن ينتج كقاعدة عامة ما يسمى «الوتيرة المعتادة للربح»؟ بدو للوهلة الأولى أن هذه الظاهرة تناقض ما يقوله ماركس نفسه من أن الثروة الرأسمالية تنتج عن عمل العمال الذي لا يدفع لقاءه أجر. كيف يمكن للرأسمالي المجبر على استثمار نسب كبيرة من رأس ماله في وسائل إنتاج لا حياة فيها أن يحصل على الربح ذاته الذي يحصل عليه زميل له لا يحتاج إلا إلى استثمار القليل من رأس ماله في أشياء كهذه، ويستطيع لذلك أن يستخدم نسبة كبيرة منه في تشغيل كميات أكبر من قوة العمل الحية؟

يحل ماركس هذه الأحجية ببساطة، وذلك بأن يبين أن بيع نوع من السلع بسعر يفوق قيمته وبيع أنواع أخرى من السلع بسعر يقل عن قيمتها يؤدي إلى تسوية الفروقات في الربح، وينتج عن ذلك «معدل للربح» في كل فروع الإنتاج. إن الرأسماليين، بلا وعي منهم وبلا اتفاق بينهم، يتبادلون السلع بشكل يساهم فيه كل رأسمالي فرد بفضل القيمة الذي انتزعه من العمال الذين يستخدمهم في رصيد عام، ومن ثم يقتسم نتاج استغلال الرأسماليين المشترك للعمال فيما بينهم بصورة أخوية، فيتلقى كل منهم نصيبا يتناسب مع حجم رأس ماله. وهكذا فإن الرأسمالي الفرد لا يحصل مباشرة على الربح الذي ينتزعه من عماله، بل يحصل فقط على نصيبه من الربح الكلي الذي انتزعه هو وزملاؤه معا من العمال. «بقدر ما يتعلق الأمر بالربح، يلعب الرأسماليون الأفراد دور حملة الأسهم في شركة مساهمة توزع أرباحها بنسب مئوية متساوية بحيث يتفاوت نصيب كل رأسمالي فرد بحسب حجم رأس المال الذي يستثمره في المشروع المشترك، أي طبقا لنسبة مشاركة كل مهم في المشروع برمته».

كم هو عظيم الفهم الذي يقدم لنا هذا القانون الذي يبدو جافا «قانون معدل الربح»! إنه يقدم لنا فهما كاملا للأسس الحقيقية المادية التي يقوم عليها التضامن الطبقي بين الرأسماليين. إننا هنا نلحظ انه على الرغم من أن الرأسماليين إخوة متعادون في نشاطاتهم اليومية، إلا أنهم بقدر ما يتعلق الأمر بالطبقة العاملة يمثلون نوعا من الرابطة الماسونية المهتمة بحدة وبصورة شخصية بالناتج الكلي للاستغلال الذي يمارسه جميع أعضائها. وعلى الرغم من أن الرأسماليين لا يعرفون شيئا بالطبع عن هذه القوانين الموضوعية، إلا أن غريزتهم كأفراد طبقة حاكمة تبدي نفسها في تفهمهم لمصالحهم الطبقية وعدائهم للبروليتاريا. ولسوء الطالع، استمر التضامن الطبقي بين الرأسماليين عبر عواصف التاريخ بثبات أكثر من الوعي الطبقي للعمال، ذلك الوعي الذي يكشف ماركس وانغلز في كتاباتهما عن أساسه العلمي.

لا شك في أن هذين المثالين القصيرين اللذين اختيرا اعتباطا يكتفيان لإعطاء القارئ فكرة عن الكنوز التي لم تستخرج ولم تعرض في صورة شعبية بعد من المجلدين الثاني والثالث من «رأس المال»، وعن الثروة الفكرية العميقة التي يقدمانها للعمال المتنورين. وهما برغم

كونهما غير كاملين، أو ربما بسبب ذلك، قدمان ما لا تستطيع أية حقيقية نهائية أن تقدم: حافزا على التفكير، وعلى النقد والنقد الذاتي، وهذا هو جوهر الدرس الذي علّمه ماركس للطبقة العاملة.

4-استقبال «رأس المال»

كان انغلز قد عبر عن الأمل في أن يشعر ماركس أنه «إنسان آخر» حالما ينتهي من المجلد الأول ويتخلص من «الكابوس»، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلا جزئيا.

ذلك أن التحسن في صحة ماركس لكم يكن دائما لسوء الحظ، بينما ظلت حالته المالية غير مستقرة. حتى أنه فكر في الانتقال إلى جنيف، حيث يستطيع العيش بنفقات أقل، ولكن الظروف ربطته بلندن وبكنوز المتحف البريطاني. كذلك كان يأمل في أن يجد ناشرا لترجمة انجليزية لكتابه، كما أنه لم يكن راغبا في تسليم قياد الأممية لغيره قبل أن تبدأ بالخطو على الطريق الصحيح.

كان زواج ابنته الثانية لورا من بول لافراغ حدثا بيتيا سعيدا. فقد ارتبط الشابان برباط الخطبة في آب 1866، ولكن اتفق على أن يكمل لافارغ دراسة الطب قبل أن يقترنا. وكان اسمه قد شطب من سجلات جامعة باريس مدة سنتين بسبب اشتراكه في مؤتمر طلابي في ليبج، فذهب بعد ذلك إلى لندن لأمر يتعلق بالأممية. كان لافراغ في البداية من أتباع برودون، ولم تكن له علاقة بماركس أبعد من زيارة قام بها له تأدبا وليسلمه رسالة من تولين. ولكن القدر لعب دوره المعتاد، ولم يلبث ماركس أن كتب إلى انغلز بعد ذلك بقليل يقول: «في البداية ارتبط الشاب بي، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد أن الابنة أكثر جاذبية من الأب. إنه الابن الوحيد لعائلة كانت سابقا من المزارعين، ووضعه المالي لا بأس به». وقد كان لافراغ، طبقا لوصف ماركس له، حسن الطلعة، ذكيا نشيطا وذا جسم نام وقلب طيب، ولكنه مدلل قليلا، ومع ذلك غير مصقول تماما.

كان هم ماركس الأساسي خلال هذه الفترة هو قلقه على مصير كتابه. فقد كتب في 2 تشرين الثاني 1867 إلى انغلز قائلا: «إن مصير كتابي يجعلني قلقا. فأنا لا أسمع ولا أرى شيئا. إن الرفاق الألمان ممتازون! فإنجازاتهم في هذا المجال، كأتباع للانجليز والفرنسيين وحتى للايطاليين يعطيهم الحق في تجاهل كتابي. وفي أثناء ذلك، يجب على المرء أن يتبع السياسة الروسية وينتظر. فالصبر هو سر الدبلوماسية الروسية ونجاحها، ولكننا نحن المخلوقات التعسة نعيش مرة واحدة ». إن نفاذ الصبر الذي تبديه هذه السطور مفهموم، ولكنه غير مبرر تماما.

لم يكن قد مر على صدور الكتاب أكثر من شهرين، وكان من المستحيل كتابة مراجعة جدية له في هذه الفترة القصيرة، ولكن انغلز وكوغلمان فعلا كل ما في وسعهما «لإحداث ضجيج حول الكتاب»، وحتى ماركس نفسه كان يظن أن هذا أمر ضروري أملا في أن يحدث ذلك بعض الأثر في انجلترا أيضا. ولا يمكن القول أن انغلز وكوغلمان كانا مفرطي الحرص في جهودهما، ولكنهما على أية حال أحرزا بعض النجاح. فقد نجحا في نشر ملحوظات مسبقة عن الكتاب في عدد من الصحف، بينها بعض المطبوعات البرجوازية، حتى أنهما نجحا في نشر المقدمة. كما أنهما بالإضافة إلى ذلك أعدا إعلانا عن الكتاب، كان ملفتا للنظر في تلك الأيام، هو مقالة عن حياة الكاتب، ماركس، وذلك لنشره في «داي غارتنلوب»، ولكن ماركس طلب منهما أن يكفا عن هذا «الهراء»: «إنني اعتقد أن أمرا كهذا فيه من الضرر أكثر مما فيه من النفع، وهو على أية حال لا يليق بكرامة رجل علم. فمثلا طلبت «انسيكلوبيديا» ماير مني ملحوظات عن سيرتي لنشرها منذ أمد طويل، ولكنني لم أعطهم المعلومات التي أرادوا، بل لم أجب على رسالتهم. إن لكل امرئ ذوقا.

في النهاية نشرت المقالة التي أعدها انغلز لـ«داي غارتنلوب» في «داي زوكونفت» صحيفة جوهان جاكوبي التاي كان غيدو فايس ينشرها في برلين منذ 1867. ثم أعاد ليبكنشت نشر المقالة في «ديمقراتيشه فوشنبلات»، ولكنه اختصر منها الكثير، مما أدى بانغلز أن يلاحظ ممتعضا «لقد وصل فيلهلم مرحلة لم يعد معها يجرؤ حتى على القول أن لاسال قد نقل عنك وفعل ذلك بصورة سيئة. لقد خصى المقالة تماما، ولا اعتقد أن أحدا سواه يعلم لماذا ظن بعد ذلك أنها صالحة للنشر». كان ليبكنشت في الواقع يتفق تماما الاتفاق مع المقاطع التي حذفها، ولكنه فعل ذلك كي يتجنب إغضاب عدد من اللاساليين كانوا قد انفصلوا لتوهم عن شفايتزر وبدأوا يساعدون في تأسيس جناح ايزناخ.

فيما بعد، لاقى كتاب ماركس بعض النقد الممتاز، فمثلا كتب انغلز مراجعة له في «ديمقراتشيه فوشنبلات»، وكتب شفايتزر مراجعة أخرى في «سوسيال ديمقراط» وكتب جوزيف دايتزغين مراجعة ثالثة في الصحيفة الأولى. وعدا عن مراجعة انغلز، التي أبدت بالطبع فهما كاملا للنقاط المطروحة، اضطر ماركس إلى الاعتراف بأن شفايتزر رغم عدد من أخطائه درس الكتاب بالتأكيد وتفهم أهميته. وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمع فيها ماركس بدايتزغين، فرحب به كعقل فلسفي قادر، ولكنه لم يكوّن عنه فكرة كثيرا.

كذلك نزل أول «خبير» إلى الحلبة في عام 1867. وكان هذا هو يوجين دوهرنغ الذي راجع الكتاب في أحد ملاحق «انسيكلوبيديا» ماير. وعلى الرغم من أن ماركس شعر أن دوهرنغ لم يستوعب النقاط الجديدة أساسا في كتابه، إلا انه لم يستأ للمراجعة وأعلن أنها «جيدة» رغم أنه كان يشك في أن الموقف الذي اتخذه دوهرنغ كان ناجما عن كراهيته لروشر وغيره من الأساتذة الجامعيين أكثر منه عن اهتمام وفهم كاملين للنقاط المطروحة. غير أن انغلز كوّن رأيا عن المراجعة أقل تحبيذا، وكان حكمه في الواقع هو الأصوب، ذلك أنه لم يمض وقت طويل حتى استدار دوهرنغ على عقبيه وحاول أن يمزق الكتاب نتفا.

ولم يلق ماركس حظا أفضل على أيدي «الخبراء» الآخرين، فبعد ذلك بثماني سنوات أخبر أحد هؤلاء المحترمين، الذي أخفى اسمه بحرص، العالم بفصاحة أن ماركس غفل عن جيل كامل من التقدم العلمي. وكانت المرارة التي أبداها ماركس تجاه «الخبراء»، بعد ذلك وبعد

غيره من الانجازات الشبيهة، أمرا مبررا تماما. على الرغم من أنه عزى لحقدهم عليه كثيرا مما كان يجب أن يعزي إلى جهلهم، ذلك أنهم كانوا غير قادرين إطلاقا على فهم طريقته الجدلية. وكان هذا هو الحال أيضا بالنسبة لأناس لم يكونوا يفتقرون لا إلى النية الحسنة ولا إلى المعرفة الاقتصادية، ولكنهم مع ذلك وجدوا أن من الصعب عليهم فهم الكتاب، بينما كان هناك من الجهة الأخرى أناس امتدحوا الكتاب بحماسة، رغم أنه لا تتوفر لهم المعرفة بالأمور الاقتصادية ويعادون الشيوعية إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنهم عبروا مدرسة الفكر الهيغلي.

كان ماركس، على سبيل المثال، قاسيا جدا في حكمه على الطبعة الثانية من كتاب لانغ حول المسألة العمالية، وفيها يعالج لانغ بالتفصيل المجلد الأول من «رأس المال» فقد أعلن ماركس «أن السيد لانغ يرفع عقيرته ممتدحا الكتاب، ولكنه يفعل ذلك كي يجعل نفسه مهما فحسب». لم يكن هذا صحيحا أبدا، ذلك أن اهتمام لانغ بالمسألة العمالية لا يرقى إليه الشك، على الرغم من أن ماركس كان على حق عندما لاحظ أن لانغ لا يعرف شيئا عن الطريقة الهيغيلية ولا يعرف شيئا البتة عن المنهج النقدي الذي اتبعه ماركس في استخدامها. ففي الواقع، قلب لانغ الحقيقة رأسا على عقب عندما أعلن أن لاسال أكثر تحررا من هيغل واستقلالا عنه من ماركس الذي يتمسك بنموذجه الفلسفي والذي وجد في بعض أجزاء الكتاب صعوبة في التمكن من المسائل التي يعالجها، كما بالنسبة لنظرية القيمة التي لا يعزو لها لانغ أية أهمية ثابتة.

وكان حكم فريليغارث على المجلد الأول، الذي أهداه ماركس نسخة منه، أكثر غرابة. استمرت علاقات الود بين فرليغارث وماركس منذ سنة 1859، على الرغم من أنها كانت تتعكر أحيانا بفعل أخطاء يرتكبها آخرون. وكان فريليغارث على وشك العودة إلى ألمانيا، حيث جمع له بعضهم قدرا من المال يضمن له شيخوخة لا تشوبها الهموم، بعد أن أغلق المصرف الذي كان يعمل فيه فرعه في لندن، وأصبح محروما من مصدر رزقه وهو على أبواب الستين من العمر. وكانت الرسالة الأخيرة التي أرسلها فريليغارث إلى ماركس تتضمن تهاني حارة لزواج ابنة ماركس لورا من لافارغ الشاب، وشكرا صادقا على نسخة المجلد الأول من «رأس المال» التي أرسلها ماركس له. وتمضي الرسالة إلى القول أن دراسة الكتاب كانت مبعث متعة لفريليغارث وأنها يسرت له فهم كثير من الأمور. وأضاف أن الكتاب ربما لن ينجح نجاحا سريعا وصاخبا، ولكن أثره سيكون عميقا وأكثر واستمرارا. إلى هذا الحد وكل شيء على ما يرام، إلا أنه يضيف: «إنني أعرف أن بعض التجار والصناعيين الشباب في الراينلاند متحمسون للكتاب أبلغ حماسة، ولا شك أن الكتاب سيبلغ مراميه الحقيقية في أوساط كهذه، وبالإضافة إلى ذلك سيكون الكتاب مرجعا لا غنى عنه للدارسين». صحيح أن فريليغارث لم يدّع أنه أكثر من «اقتصادي بالفطرة»، ولكنه مع ذلك عاش قرابة عقدين من الزمن في خضم الحياة النابضة في العاصمة الانجليزية، ولذا كان غريبا أن يعتبر المجلد الأول من «رأس المال» دليلا للتجار والصناعيين الشباب، وبالإضافة إلى ذلك مرجعا للدارسين.

أما حكم روغه، فقد كان من جهة أخرى مختلفا. فعلى الرغم من أنه كان يكره الشيوعية كراهية سامة، ولم يثقل كاهله بأية معرفة بالاقتصاد، إلا أنه ناضل مرة بشجاعة كهيغلي شاب. ولقد قال: «إنه لكتاب يصنع حقبة. وهو يلقي ضوءا ساطعا، بل ضوءا يغشى الأبصار في بعض الأحيان، على ولادة وتطور وانحلال الحقب الاجتماعية. إن المقاطع المتعلقة بإنتاج فضل القيمة من العمل الذي لا يدفع لقاءه أجر، وانتزاع ملكية العمال الذين يعملون لأنفسهم، واقتراب مرحلة انتزاع ملكية من انتزعوا الملكية، أن هذه مقاطع كلاسيكية. إن معرفة ماركس واسعة، وهو يملك موهبة جدلية رائعة. والكتاب بلا شك، فوق المستوى الفكري للكثير من الناس والكثير من كتَّاب الصحف، ولكنه بالتأكيد سيشق طريقه رغم اتساع أفقه، أو أنه ربما أحدث أثرا بالغا لهذا السبب بالذات». وأصدر لودفيغ فويرباخ حكما مشابها، بفارق واحد، يتفق مع تطوره، هو أنه لم يكن مهتما بجدل الكاتب قدر اهتمامه بكون الكتاب «غني بالحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها، الحقائق الممتعة ولكن الرهيبة في الوقت ذاته». تلك الحقائق، التي أظن أنها تثبت صحة فلسفته الأخلاقية من أن الالتزام الخلقي يغيب حيثما تغيب ضرورات الحياة.

ظهرت الترجمة الأولى للمجلد الأول من «رأس المال» في روسيا. ففي 12 تشرين الأول 1868 أخبر ماركس كوغلمان أن ناشرا في سان بطرسبرغ فاجأه بأن أخبره أن ترجمة لرأس المال هي قيد الطبع وطلب منه صورة توضع على غلاف الكتاب. ولم يكن ماركس راغبا في حرمان «أصدقائه الطيبين» الروس هذه المكرمة الصغيرة، وكان يجد أن من سخريات القدر أن يكون الروس، الذين حاربهم طيلة خمس وعشرين سنة بالألمانية والانجليزية والفرنسية، هم من «يتبناه». فرده على برودون وكتابه «نقد الاقتصاد السياسي» لم يبيعا في مكان قدر ما باعا في روسيا. ومع ذلك، لم يكن مستعدا لأن يمنح شرفا كبيرا بسبب ذلك، بل قال أن السبب هو أبيقورية محضة، رغبة نهمة في ازدراد أكثر منتجات العالم الغربي تطرفا.

غير أن ذلك لم يكن صحيحا. فلم تظهر الترجمة إلا عام 1872، ولكنها أثبتت أنها عمل علمي جاد ونجحت نجاحا باهرا، وأعلن ماركس نفسه أنها «رائعة». كان المترجم هو دانيلسون، المعروف باسم نيكولايون الذي كان يكتب به، وساعده في ترجمة عدد من الفصول الأكثر أهمية لأبوتين، وهو ثوري شاب جريء، وصفه ماركس عام 1870 بعد أن تعرف عليه بأنه «عقل نقاد ومتحفز، وشخص مرح رزين رزانة فلاح روسي، يقبل كل شيء كما هو».

أعطت الرقابة الروسية موافقتها على نشر الترجمة قائلة: «على الرغم من أن معتقدات الكاتب اشتراكية تماما، وعلى الرغم من أن الكتاب كان ذو طابع اشتراكي واضح تماما، إلا أن طريقة العرض التي يتبعها لا تجعله متاحا للجميع، بالإضافة إلى أنه مكتوب بطريقة علمية، تجعل اللجنة ترى أنه يجب أن لا يحظر». نشرت الترجمة في 27 آذار، وعندما حل 25 آب، كانت ألفا نسخة، أي ما يعادل ثلث الطبعة، قد بيعت.

وفي الوقت ذاته بدأت بالظهور ترجمة فرنسية،وكذلك طبعة ألمانية ثانية، وكل منهما في جزئين. وقد قام بالترجمة الفرنسية ج.روي بمساعدة ماركس نفسه، الذي لاقى في ذلك عناء بالغ، واشتكى أحيانا من أن الأمر يأخذ من وقته أكثر بكثير مما لو قام هو بالترجمة كلها. وقد لاقى المجلد الأول من «رأس المال» في انجلترا نجاحا أقل بكثير من النجاح الذي لاقاه في روسيا وفرنسا وألمانيا. ويبدو أن مراجعة وحيدة له ظهرت (في «ساتريدي ريفيو»)، ولكن هذه المراجعة أعلنت أن لماركس موهبة إضفاء نوع من الجاذبية حتى على أكثر المسائل الاقتصادية جفافا. كذلك كتب انغلز مراجعة أطول لنشرها في «فورتنايتلي ريفيو» ولكنها رفضت بحجة أنها جافة أكثر مما يجب، على الرغم من أن

البروفيسور بيسلي الذي كان على علاقة بالصحيفة فعل كل ما في وسعه لنشرها. وكان ماركس بالغ الأمل في أن تظهر ترجمة انجليزية لكتابه، ولكن ترجمة كهذه لم تظهر خلال حياته.

الفصل الثالث عشر

الأممية في أوجها

1-انجلترا وفرنسا وبلجيكا

انعقد المؤتمر الثاني للأممية في لوزان من الثاني من أيلول 1867 إلى الثامن منه، وذلك بعيد ظهور المجلد من «رأس المال». ولم يكن مستواه مرتفعا كمستوى المؤتمر الأول في جنيف.

حتى أن النداء الذي أصدره المجلس العام في تموز داعيا إلى إرسال وفود قوية إلى المؤتمر كان أقل إثارة للاهتمام في مسحه للسنة الثالثة من حياة الأممية ونشاطها. فلم يستطع أحد غير سويسرا وبلجيكا، حيث أدت مجزرة للعمال المضربين في مارشين إلى إثارة مشاعر البروليتاريا، أن يحرز تقدما مطردا، أما في ما تبقى فتتذمر الوثيقة من العقبات التي تواجهها الدعاية في الأقطار المختلفة بفعل عوامل مختلفة. فقبل عام 1848 أبدت ألمانيا اهتماما عميقا بالمسائل الاجتماعية، ولكنها أصبحت الآن مشغولة تماما بمسألة الوحدة القومية. وعلى الرغم من الدعم النشيط الذي قدمته الأممية لإضرابات العمال الفرنسيين، إلا أنها لم تحرز التقدم المتوقع في فرنسا بسبب الافتقار السائد إلى الحرية. وتشير الوثيقة بذلك إلى الإضراب الكبير الذي قام به عمال البرونز في باريس في ربيع عام 1867، والذي تحول إلى نضال من أجل حق الانتظام، وانتهى بانتصار العمال.

كذلك تلقت انجلترا توبيخا لطيفا، فقد أشار النداء إلى أن الحركة من أجل إصلاح الاقتراع العام قد استغرقت كل اهتمامها، فلم تعد ترى أيا من المسائل الاقتصادية. غير أن دزرائيلي اضطر تحت ضغط الجماهير إلى منح حق أوسع للاقتراع مما كان غلادستون ينوي في البداية، فأصبح من حق كل مستأجر في أي بيت من بيوت المدن أن يصوت بغضّ النظر عن الأجرة التي يدفعها سنويا، ثم أعرب المجلس العام عن أمله في أن تكون اللحظة قد حانت كي يدرك العمال الانجليز أهمية الأممية. وفي الختام، أشار النداء إلى الولايات المتحدة حيث استطاع العمال الحصول على يوم عمل من ثماني ساعات في بعض الولايات.

كان كل فرع من فروع الأممية مخولا بغض النظر عن حجمه بإرسال ممثل إلى المؤتمر. أما الفروع الأكبر فقد كان من حقها أن ترسل مندوبا عن الأعضاء الخمسمائة الأوائل، ومندوبا عن كل خمسمائة عضو تال. أما المهام الموضوعة أمام المؤتمر فقد حددت بما يلي:

1-ما هي الخطوات العملية التي يجب أن تتخذها الأممية لخلق مركز مشترك للطبقة العاملة في نضالها من أجل الانعتاق؟

2-كيف يمكن استخدام الثقة التي تمنحها الطبقة العاملة للبرجوازية والحكومة لمصلحة النضال البروليتاري من أجل الانعتاق؟

كان هذا البرنامج عاما أكثر مما يجب، ومما زاد الأمر سوءا أنه لم يكن مصحوبا بمذكرة تبين أسسه التفصيلية. ذهب ايكاريوس ودوبون إلى لوزان كممثلين للمجلس العام. وكان دوبون سكرتير المراسلة مع فرنسا ورجلا قادرا جدا. وقد احتل في غياب يونغ مقعد الرئاسة في المؤتمر الذي كان يتألف من 71 عضوا. وكان من بين المندوبين الألمان كوغلمان ولانغ ولودفيغ بوشنز ولادندروف، وهذا الأخير ديمقراطي برجوازي ولكنه خصم عنيف للشيوعية. وقد فاقت المجموعة الفرنسية الايطالية المجموعات الأخرى عددا وكانت تتألف، عدا عن بضعة ايطاليين وبلجيكيين، من الفرنسيين والسويسريين-الفرنسيين بصورة رئيسية.

اعد البرودونيون أنفسهم هذه المرة أكمل وأسرع مما أعد المجلس العام نفسه، فقبل أن يصدر المجلس العام نداءه بثلاثة أشهر، كان البرودونيون قد وضعوا جدول أعمال للمؤتمر يتضمن نقاطا مثل: التعويض المتساوي للخدمات الاجتماعية المقدمة، التسليف وبنوك الشعب، جمعيات التأمين المتبادل، وضع الرجل والمرأة في المجتمع، المصالح الجماعية والفردية، الدولة كحام للعدالة، حق العقاب، وعددا من المواضيع الشبيهة. كانت النتيجة فوضى عارمة، ولكن ليس من الضروري هنا الخوض في التفاصيل، لأن ماركس لم تكن له علاقة بالأمر، ولأن القرارات، التي تبناها المؤتمر، كان الكثير منها يتعارض مع بضعه البعض، كما أنها كانت جميعا حبرا على ورق.

كانت النتائج العملية التي تمخضت عن المؤتمر أهم بكثير من مناقشاته النظرية. فقد ثبت المؤتمر المجلس العام وأقر لندن مقرا له، وقرر أن تدفع فروع الأممية اشتراكا سنويا يبلغ عشرة سنتيمات عن كل عضو من أعضائها، مشترطا أن يكون دفع هذا الاشتراك أساسا لإرسال المندوبين إلى المؤتمرات السنوية. وكذلك قرر المؤتمر أن التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة لا ينفصم عن العمل السياسي، وأن النضال من أجل الحرية السياسية ضرورة أولية ومطلقة. وعلق على هذه المسألة أهمية بالغة لدرجة أنه قرر إعادة تلاوة هذا القرار في كل مؤتمر قادم. وأيضا تبنى المؤتمر قرارا صائبا تجاه رابطة السلام والحرية البرجوازية، التي كانت قد تحدرت حديثا من صلب البرجوازية الراديكالية وعقدت مؤتمرها بعد ذلك بقليل في جنيف. فقد أجيبت كل محاولات الرابطة للحصول على دعم العمال بالكلمات البسيطة التالية: سندعمكم بسرور كلما كان ذلك في مصلحتنا.

من الغريب أن هذا المؤتمر القليل الأهمية اجتذب اهتمام العالم البرجوازي أكثر من سابقه بكثير، على الرغم من أنه يجب بالطبع أن لا ننسى أن المؤتمر الأول انعقد في وقت كانت لا تزال فيه أصداء الحرب البروسية-النمساوية تزعج أوروبا. فقد أبدت الصحافة الانجليزية، على

وجه الخصوص و«التايمز» قبل من عداها، اهتماما بالغا بمؤتمر لوزان، على الرغم من أنها كانت قد تجاهلت سابقه تماما. وبالطبع، لم تكن تعليقات الصحف تخلو من السخرية، ولكن البرجوازية مع ذلك بدأت تنظر إلى الأممية بجدية. وقد كتبت السيدة ماركس في رسالة إلى «دير فوربوت» تقول: «عندما كان مؤتمرنا يقارن بأخيه غير الشقيق مؤتمر السلام، كانت المقارنة لمصلحة الأخ الأكبر باستمرار، ذلك أن هذا كان ينظر إليه كتهديد جدي بينما كان ينظر إلى مؤتمر السلام على أنه مهزلة ومسخرة». وكذلك عزى ماركس نفسه بطريقة شبيهة، فقد كان من المستحيل عليه أن يرضى بمناقشات لوزان: «بدأت الأمور تتحرك، وبدون أية أموال في صناديقنا! يحق لنا أن نكون راضين تماما، فهناك مكائد البرودونيون في باريس وماتزيني في ايطاليا، واودغر الغيور وكريمر وبوتر في لندن وشولز-دلتريش واللاساليون في ألمانيا». وأعلن انغلز أنه لا يهم ما الذي قرره المؤتمر في لوزان، ما دام المجلس العام قد بقي في لندن. كان هذا صحيحا جدا، ذلك أن الأممية في سنتها الثالثة أنهت فترة التطور غير المعاق ودخلت فترة صراعات شرسة.

وبعد انتهاء مؤتمر لوزان حدث حادث كان له آثار بعيدة المدى. ففي الثامن عشر من أيلول 1867 اعترض الفينيانيون المسلحون عربة سجن تقل اثنين من رفاقهما. وقد قاموا بهذا الهجوم المسلح في وضح النهار، فكسروا أبواب العربة وأطلقوا سراح رفيقيهما بعد أن أطلقوا النار على أحد الحراس فأردياه قتيلا. ولم يلق القبض على الذين اشتركوا فعليا في الهجوم، ولكن عددا من الرجال اختير من بين الجماهير التي ألقي القبض عليها فيما بعد، وقدموا للمحاكمة بتهمة القتل. كانت المحاكمة متحيزة منذ البداية، ولم يؤت بأية أدلة حقيقية ضد المتهمين، ومع ذلك فقد حكم عليهم بالموت وشنقوا. أحدث الأمر أصداء واسعة في انجلترا، وفي كانون الأول انفجر «هلع فينياني» عندما نسف الفينيانيون أسوار سجن في كلاركينويل، وهي منطقة يسكنها العمال وأفراد الطبقات الوسطى الدنيا، مما أدى إلى مقتل اثني عشر شخصا وجرح ما ينوف على المائة.

لم يكن للأممية بالطبع أية علاقة بأعمال الفينانيين، وقد شجب ماركس وانغلز نسف سجن كلاركينويل بوصفه عملا أحمقا سيضر بالفينانيين أكثر مما يضر بغيرهم، لأنه سيحد من تعاطف العمال الانجليز مع القضية الايرلندية، بل ربما دمر هذا التعاطف، ولكن المعاملة التي عاملت بها الحكومة الانجليزية المتمردين الفينانيين وكأنهم قتلة عاديون، رغم أنهم متمردون سياسيون ضد اضطهاد شرس يعود إلى أكثر من قرن، أثارت السخط في نفوس كل الثوريين. فكتب ماركس إلى انغلز في حزيران 1867: «هؤلاء الخنازير المثيرون للتقزز يفاخرون بإنسانيتهم الانجليزية لأنهم يعاملون مساجينهم السياسيين على قدم المساواة مع القتلة والمزورين والمنحرفين». وكان تأثر انغلز أبلغ لسبب إضافي هو أن اليزابيت بيرنز، التي نقل إليها عواطفه بعد وفاة شقيقتها ماري، كانت وطنية ايرلندية متقدة الحماسة.

غير أن التعاطف الذي أبداه ماركس تجاه القضية الايرلندية كان له من الأسباب ما هو أعمق من مجرد التعاطف مع شعب مقهور. فقد أدت به دراساته إلى نتيجة هي أن حرية الشعب الايرلندي شرط ضروري يعتمد عليه انعتاق البروليتاريا الانجليزية، التي يعتمد عليها بدورها انعتاق الطبقة العاملة الأوروبية. وكان يشعر أن الإطاحة بالاوليغاركية الانجليزية المالكة للأرض مستحيلة ما دامت هذه تتمتع بموقع قوي في ايرلندا. ولكن حالما يتسلم الشعب الايرلندي زمام مصيره بيديه، ما أن ينتخب هذا الشعب مشرعيه ويعين حكومته ويحصل على استقلاله السياسي، فإن تدمير الارستقراطية للأرض، التي تتألف في معظمها من ملاك انجليز، سيكون أسهل في ايرلندا منه في انجلترا، لأنه سيكون في ايرلندا مسألة وطنية وليس مسألة وطنية وليس مسألة اقتصادية فحسب. لقد كان ملاك الأرض في انجلترا هم الوجهاء التقليديون، أما في ايرلندا فهم مكروهون كراهية شديدة بوصفهم ممثلين للاضطهاد القومي. ومع اختفاء البوليس الانجليزي والجيش الانجليزي من ايرلندا، ستقع ثورة زراعية.

أما فيما يتعلق الأمر بالبرجوازية الانجليزية، فإن لها مصلحة مشتركة مع الارستقراطية الانجليزية في تحويل ايرلندا إلى مجرد مرعى يزود السوق الانجليزي باللحوم والصوف بأبخس الأسعار الممكنة. ولكن لها عدا عن ذلك أسباب أكثر أهمية للرغبة في استمرار النظام الايرلندي القائم. فايرلندا تزود سوق العمل الانجليزي بفائض من سكانها باستمرار، مما يخفض أجور الطبقة العاملة الانجليزية ويضعف موقعها المادي والمعنوي. ونتيجة لذلك تنقسم الطبقة العاملة في كل المراكز التجارية والصناعية في انجلترا إلى معسكرين متعاديين: العمال الايرلنديون من جهة ورفاقهم العمال الانجليز من جهة أخرى. والعامل الانجليزي العادي يكره العامل الايرلندي بوصفه منافسه ويشعر بالتفوق عليه بوصفه فردا من عرق مسيطر، وبذلك يصبح أداة في يد الارستقراطيين والرأسماليين ضد ايرلندا، وفي الوقت نفسه يقوي سيطرة هاتين الطبقتين عليه. والعامل الانجليزي متحيز ضد العامل الايرلندي دينيا واجتماعيا وقوميا وهو يعامله بطريقة تشبه الطريقة التي يعامل بها البيض» الزنوج. ومن جهة أخرى يرد العامل الايرلندي على الانجليزي، فيعتبره حالا متواطئا في السيطرة على ايرلندا وأداة غبية في يد هذه السيطرة. وضعف الطبقة العاملة في انجلترا برغم تنظيمها الجيد يعود على هذا التعادي، الذي تبقيه حيا بصورة مصطنعة الصحف وكل ما عداها من الأدوات التي تستخدمها الطبقة المسيطرة.

أكثر من ذلك، امتد الشر إلى الجانب الآخر من الأطلنطي، إذ حال التعادي بين الانجليز والايرلنديين دون أي تعاون فعال صادق بين الطبقة العاملة في انجلترا والطبقة العاملة في أمريكا. كانت المهمة الرئيسية الملقاة على عاتق الأممية هي تسريع الثورة الاجتماعية في انجلترا، عاصمة رأس المال، والسبيل الوحيد للوصول إلى هذه الغاية هو استقلال ايرلندا. ولذا فإن على الأممية أن تقف علنا إلى جانب ايرلندا في كل مناسبة ممكنة، ويجب أن يضع المجلس العام نصب عينيه إقناع العمال الانجليز بأن استقلال ايرلندا ليس فحسب مسألة عدالة مجردة وتعاطف إنساني، بل هو الشرط الأولي لانعتاقهم هم أنفسهم.

كرس ماركس في السنوات اللاحقة كل قواه لهذه المهمة. فكما كان قد اعتبر المسألة البولندية (التي اختفت من على جدول أعمال الأممية منذ مؤتمر جنيف) رافعة للإطاحة بالسيطرة الروسية، كذلك اعتبر المسألة الايرلندية رافعة للإطاحة بسيطرة انجلترا على العالم، ولم يتأثر موقفه بأن ذلك منح «المتآمرين» في حركة الطبقة العاملة، أولئك الذين كانوا حريصين على أن يصبحوا أعضاء في البرلمان القادم (ولقد حسب ماركس اودغر، رئيس المجلس العام للأممية، بينهم)، عذرا للالتحاق بالبرجوازية الليبرالية. ذلك أن غلادستون كان يستغل المسألة الايرلندية

كشعار انتخابي فأصبحت المسألة إحدى المسائل الملحة. فنظم المجلس العام عريضة على الحكومة الانكليزية ضد تنفيذ حكم الإعدام بثلاثة من فينانيي مانشتر، دون أن تصادف العريضة نجاحا بالطبع، ثم شجب المجلس تنفيذ الحكم ووصفه بأنه جريمة قتل «شرعية»، كما أن المجلس نظم اجتماعا عاما في لندن لنصرة القضية الايرلندية.

أثار هذا النشاط الحكومة الانجليزية، واغتنمت الحكومة الفرنسية الفرصة لشن هجوم على الأممية. فقد كان بونابرت يراقب تطور الأممية طوال ثلاث سنوات دون أن يتدخل في ذلك، آملا بذلك أن يفزع البرجوازية المترددة. وعندما فتح الأعضاء الفرنسيون في الأممية مكتبا في باريس، أخبروا رئيس الشرطة ووزير الداخلية بذلك، ولكن أيا من هذين المحترمين لم يصدر إشعارا بتسليم هاتين الرسالتين. غير أنه كانت هناك بعض التحايلات من جانب السلطات. فبعد مؤتمر جنيف، أرسلت الأممية محاضر جلسات المؤتمر إلى المجلس العام في لندن بواسطة شخص سويسري المولد انجليزي الجنسية. ولكن الشرطة سرقت هذه المحاضر على الحدود الفرنسية. غير أن وزارة الخارجية في لندن أخذت المسألة على عاتقها، وفي النهاية اضطر اللصوص إلى إعادة ما سرقوا.

وعاملت الأممية بازدراء روهر، المؤتمن على أسرار الإمبراطور، عندما أعلن أنه مستعد للسماح بنشر بيان تقدم به المندوبون الفرنسيون إلى مؤتمر الأممية في جنيف بشرط أن تضاف إليه «بضعة كلمات الإمبراطور، الذي فعل الكثير من أجل الطبقة العاملة»، فرفضت الأممية هذا الطلب، على الرغم من أن السياسية العامة لأعضاء الأممية الفرنسيين كانت تجنب إغضاب الوحش الكاسر ما أمكن ذلك، لمعرفتهم الكاملة بأنه ينتظر الفرصة المناسبة، وقد أدى ذلك بالبرجوازيين الراديكاليين إلى الشك بأن أعضاء الأممية الفرنسيين ليسوا غير بونابرتيين متخفين.

ويؤكد بعض الكتَّاب الفرنسيين أن البرجوازيين الراديكاليين إنما عبروا عن هذا الشك كي يدفعوا بأعضاء الأممية إلى دعم بيان أو اثنين أصدرهما البرجوازيون الراديكاليون ضد الإمبراطور. ولكن هاذ أمر غير هام، ذلك أن الأسباب التي أدت ببونابرت إلى الخصام المعلن مع الطبقة العاملة أعمق بكثير، فقد نمت حركة الإضرابات التي أعقبت أزمة 1866 الطاحنة إلى حدود أزعجته. وبعد ذلك، وفي ربيع عام 1867 عندما أصبح خطر الحرب مع الجامعة الألمانية الشمالية ماثلا بسبب النزاع حول لوكسمبورغ، تبادل عمال باريس بتأثير الأممية، خطابات السلام مع عمال برلين. وفي النهاية كانت البرجوازية الفرنسية تحدث ضجيجا يصم الآذان مطالبة بالانتقام لسادوفا (سادوفا قرية في بوهيميا، وهي الاسم الذي يطلقه النمساويون على معركة كونيغراتر في 3 تموز 1866 والتي هزمهم البروسيون فيها هزيمة ساحقة) لدرجة أن رجال القصر توهموا أنهم يستطيعون إيقاف هذا الضجيج بالقيام بتنازلات «ليبرالية» لمصلحة البرجوازية.

في ظل هذه لظروف، تخيل بونابرت أنه يضرب عصفورين بحجر واحد إذ يعد ضربة ضد مكتب الأممية في باريس متذرعا بأنه مركز للمؤامرة الفينيانية. فأغير على بيوت أعضاء المكتب دون سابق إنذار وفي هدأة الليل، ولكن بالطبع لم يتم العثور على أي أثر لمؤامرة. ولكي لا يصبح بونابرت أضحوكة في نظر الرأي العام، لم يكن أمانه إلا تقديم الرجال الذين القي القبض عليهم للمحاكمة بتهمة أنهم أعضاء في جمعية غير قانونية يزيد عدد أعضاؤها عن العشرين. وفي 6 و20 آذار حوكم خمسة عشر عضوا من أعضاء الأممية ووجدوا مذنبين، فحكم على كل منهم بغرامة قدرها مئة فرنك وأعلن حل المكتب. ولم يفلح الاستئناف ضد الحكم.

ولكن قبل أن ينظر في الاستئناف، بدأت محاكمات جديدة. وكان المدعي العام والمحكمة قد عاملوا المتهمين بلطف غير معتاد، في حين أن تولين دافع عن المتهمين وعن نفسه باعتدال. ولكن بعد يومين اثنين فقط، من بدء المحاكمة تشكل مكتب جديد، فأنهى هذا التحدي الساخر أية أوهام كانت تراود بونابرت. وفي 22 أيار أوقف تسعة من أعضاء المكتب الجديد أمام المحاكم، وبعد دفاع لامع حاد ولاذع تقدم به فارلان، حكمت المحكمة على المتهمين بالسجن ثلاثة أشهر لكل منهم. وبذلك تبدت العلاقات بين الإمبراطورية والأممية على حقيقتها، وكسب فرع الأممية الفرنسي قوة وعزما جديدين نتيجة هذا الشقاق النهائي والمعلن مع جزار كانون الأول.

كذلك اشتبكت الأممية مع الحكومة البلجيكية. فقد دفع أصحاب المناجم في حوض كارليروي العمال المفقرين إلى الثورة بفعل المغالطة والاحتيال المستمرين، ومن ثم أطلقوا عليهم قوات الدولة المسلحة. وفي خضم الهلع الذي أحدثه حكم الإرهاب الذي تبع ذلك، انتصرت الأممية لقضية العمال الذين عوملوا بوحشية، فنشرت قضيتهم على الملأ في الصحافة وفي الاجتماعات العامة، ورعت من يعيلهم العمال المقتولين والمصابون وزودت العمال المسجونين بمساعدة قانونية أدت في النهاية إلى تبرئتهم.

وعند ذلك، أطلق وزير العدل البلجيكي سيلا من الشتائم المقذعة ضد الأممية في مجلس النواب البلجيكي، وهدد باتخاذ إجراءات قمعية، بما في ذلك منع المؤتمر القادم للأممية من الانعقاد في بروكسيل حيث كان مقررا أن يعقد. غير أن هذه التهديدات لم تهب أعضاء الأممية البلجيكيين، فردوا على الوزير برسالة مفتوحة تفيض تحديا انتهت بالتأكيد أن مؤتمر الأممية القادم سيعقد في بروكسيل سواء أرضى ذلك وزير العدل أم أغضبه.

2-سويسرا وألمانيا

كانت القوة الدافعة العظيمة التي دفعت بالأممية إلى الأمام خلال هذه السنوات هي موجة الإضرابات التي اجتاحت إلى هذا الحد أو ذاك كل الأقطار الرأسمالية المتقدمة نتيجة الانهيار الاقتصادي عام 1866.

لم يكن المجلس العام للأممية مسؤولا بأي شكل عن اندلاع هذه الإضرابات، ولكنه دعمها بالنصح والمساعدة، وعبأ التضامن الأممي للبروليتاريا لمصلحتها. وبهذه الطريقة حرمت الأممية الطبقة الرأسمالية سلاحا فعالا جدا، فلم يعد المستخدمون قادرين على الحد من صلابة

عمالهم باستيراد العمل الأجنبي الرخيص. أكثر من ذلك، استطاعت الأممية تجنيد حلفاء مخلصين من بين من كانوا يساعدون العدو المشترك عن غير وعي. وكانت الأممية تسعى حيثما كان لها نفوذا أو أثر إلى إقناع العمال أن مصلحتهم ذاتها تفرض عليهم أن يدعموا نضالات رفاقهم الأجانب من أجل تحسين الأجور.

أثبت هذا النشاط أن له قيمة دائمة، وكسب للأممية سمعة أوروبية تفوق بكثير الزيادة الحقيقية في قوتها. إذ لم يكن العالم البرجوازي قادرا على إدراك أن سبب موجة الإضرابات يمكن في الأوضاع المزرية التي يعيش العمال في ظلها، ولذا سعى إلى تفسير هذه الإضرابات بأنها نتيجة مكائد سرية تحيكها الأممية. ونتيجة لذلك أصبحت الأممية في نظر البرجوازية وحشا شيطانيا يجب تحطيمه في كل إضراب. ومن هنا أصبح كل إضراب كبير يتحول بسرعة إلى صراع حول الأممية، ومن كل إضراب من هذه الإضرابات كانت الأممية تخرج وقد ازدادت قوة على قوة.

كان إضراب عمال البناء في ربيع عام 1868 في جنيف مثلا نموذجيا على هذا النوع من الإضرابات، وكذلك كان إضراب عمال النسيج وصباغة الحرير الذي اندلع في خريف السنة ذاتها في بازل واستمر حتى الربيع التالي. بدأ إضراب عمال البناء في جنيف بالمطالبة بأجور أعلى ويوم عمل أقصر، ولكن سرعان ما بدل أصحاب العمل طبيعة الإضراب بأن طالبوا أن يقطع العمال المضربون كل صلة لهم بالأممية كشرط أولي لعقد أية اتفاقية. وفي الحال رفض العمال المضربون هذه الوقاحة، واستطاعوا بفعل المساعدة التي أمنها لهم المجلس العام للأممية في انجلترا وفرنسا وغيرهما من الأقطار أن يستمروا في النضال من أجل مطالبهم الأصلية. أما في بازل فقد لعبت غطرسة الرأسماليين لعبة أخطر من ذلك. فقد أخبر عمال النسيج في أحد مصانع البلدة أنهم سيحرمون تلك السنة من العطلة التقليدية التي كانوا يحصلون عليها كل سنة في نهاية موسم الخريف والتي كانت تستمر بضع ساعات، وأن أي عامل يتوقف عن العمل رغم هذا التحذير سيفصل في الحال. أصر قطاع من العمال على حقوقهم التقليدية، وفي اليوم التالي ردتهم الشرطة عن أبواب المصنع، رغم أنه كان يحق لهم في الواقع الحصول على إنذار قبل الفصل بأسبوعين. استثارت وحشية الرأسماليين وحماقتهم هذه عمال بازل، فخاضوا نضالا استمر بضعة أشهر وتتوج بمحاولة من جانب الحكومة المحلية لإرهاب العمال بتهديديهم باتخاذ إجراءات عسكرية ضدهم، بما في ذلك فرض قوانين تعني عمليا إعلان الحكم العسكري.

سرعان ما تبين أن هدف هذا الهجوم الشرس كان محاولة تحطيم الأممية. فحاول الرأسماليون كل ما أمكنهم لسحق العمال من الفظاعات الوحشية كطرد عائلات العمال من منازلهم ومنع المتاجر من بيعهم دينا، إلى الإجراءات السخيفة كإرسال رسول إلى لندن لتقصي المصادر المالية للأممية. وقد قال ماركس تعقيبا على ذلك، وعلى غرار مقارنة عقدتها صحيفة «التايمز» بين الأممية والجماعات المسيحية الأولى: «لو عاش هؤلاء السادة المسيحيون الأتقياء في أيام المسيحية الأولى لبدأوا بالتحري عن حساب الحواري بول في بنوك روما». ولكن على الرغم من كل محاولات الرأسماليين ظل عمال بازل مخلصين للأممية، وعندما أحرزوا النصر في نهاية الأمر احتفلوا به في مسيرة كبيرة اجتازت المدينة واجتماع جماهيري في ساحة السوق. وكان عمال بازل قد تلقوا دعما سخيا من عمال البلدان الأخرى، وأحدث نضالهم أثره حتى في الولايات المتحدة، حيث كان سورج، وهو أحد المهاجرون من عام 1848 أصبح معلما للموسيقى في نيويورك، قد بدأ ينشط لصالح الأممية.

وفوق كل شيء، فتحت موجة الإضرابات ألمانيا أمام الأممية التي لم يكن لها حتى ذلك الحين سوى مجموعات معزولة فيها. فبعد صراعات عنيفة وبعد الكثير من التخبط أصبحت منظمة «الغماينه دويتشه ارباتيرفيرن» منظمة صلبة، واستمرت في التقدم خاصة بعد أن أصبح شفايتزر رئيسا لها. وكان شفايتزر وخصمه القديم ليبكنشت عضوين في الرايشتاغ الألماني الشمالي. وسرعان ما اشتبك الخصمان في الرايشتاغ نتيجة خلافاتهما حول المسألة القومية. فبينما كان شفايتزر قد قبل النتائج التي تمخضت عنها معركة كونيغراتز، ظل ليبكنشت يرفض هذه النتائج بعناد ويعتبر جامعة شمال ألمانيا نتاجا لعنف غير مشروع يجب أن يحطم بلا رحمة حتى ولو كان من الضروري التخلي مؤقتا عن الأهداف الاجتماعية للطبقة العاملة. وفي خريف 1865 ساهم ليبكنشت في تأسيس حزب الشعب الساكسوني الذي تبنى برنامجا ديمقراطيا راديكاليا ولكنه غير اشتراكي، وفي عام 1868 أصدر في ليبزيغ صحيفة «ديمقراطيشه فوشنبلات» كلسان للحزب، الذي كان يجند أعضاءه بصورة رئيسية من بين العمال.

أشار ليبكنشت في العدد الأول من الصحيفة إلى شفايتز واصفا إياه بأنه رجل شجبه كل رواد القضية الاشتراكية الديمقراطية، لكن هذا الهجوم لم يكن فعالا بصورة عامة، ذلك أن شفايتزر لم يتأثر للصفعة التي كان قد تلقاها من ماركس وانغلز قبل ذلك بثلاث سنوات، بل مضى في نشاطه، وفعل كل ما في وسعه ليعرف العمال الألمان إلى المجلد الأول من «رأس المال». وفي تيسان 1868 اتصل بماركس سائلا إياه النصح بصدد مسألة تخفيض عائدات استيراد الحديد الذي كانت الحكومة البروسية تخطط له.

كان ماركس ملزما بإسداء النصح لشفايتزر، فهو بوصفه سكرتير المجلس العام للأممية للمراسلة مع ألمانيا ملزم بإجابة أية أسئلة يضعها أماه الممثل البرلماني للعمال في بلد صناعي كبير. وذلك على الرغم من خلافاته، هو وانغلز، مع شفايتزر. إذ لم يكن أي منهما قد تخلى عن شكه الشخصي بشفايتزر، وإن كانا ربما قد كفا عن الشك بأنه كان يتآمر مع بسمارك) أثبت التاريخ صحة شكوك ماركس وانغلز بلاسال وشفايتزر ففي عام 1928 (اكتشفت مراسلات تثبت التواطؤ بين لاسال وبسمارك-المترجم)، وبالإضافة إلى ذلك كان ماركس وانغلز يعتقدان اعتقادا جازما أن منظمة «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» مجرد شيعة، وأن شفايتزر يريد «حركة طبقة عاملة خاصة به».

وعلى الرغم من صداقة ماركس الشخصية لليبكنشت وشكه الشخصي بشفايتزر، إلا أنه أجاب هذا الأخير على سؤاله حول عائدات استيراد الحديد، وعلى الرغم من أن الجواب كان يتسم بالتحفظ الحذر إلا أنه كان شاملا وموضوعيا في محتواه. وعند ذالك فعل شفايتزر أمرا كان قد اقترحه قبل ذلك بعدد من السنين. ففي اجتماع عام عقدته «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» في هامبورغ في نهاية آب 1868، اقترح الارتباط بالأممية. وبالنظر إلى القوانين التي تحظر الانتظام، اقترح أن يتخذ هذا الارتباط شكل إعلان التعاطف مع أهداف الأممية وليس شكل ارتباط

تنظيمي رسمي. ودعي ماركس إلى حضور الاجتماع العام ليتلقى شكر العمال الألمان على خدماته العلمية لقضية الطبقة العاملة. لكن ماركس أجاب على تساؤلات شفايتزر بهذا الخصوص بلهجة ودية، ولم يحضر الاجتماع في النهاية رغم إلحاح شفايتزر.

وفي رسالة شكر على «الشرف» الذي أسبغ عليه، اعتذر ماركس عن حضور الاجتماع، على أساس أن الاستعدادات التي يقوم بها المجلس العام لعقد المؤتمر القادم للأممية تحول دونه ومغادرة لندن. وفي الوقت ذاته، لاحظ ماركس «بسرور» أن جدول أعمال الاجتماع العام يتضمن البنود الضرورية الحيوية لبداية أية حركة جدية للطبقة العاملة: التحريض من أجل الحقوق السياسية الكاملة، التنظيم القانوني ليوم العمل، التعاون الأممي الدائم للطبقة العاملة. وبعد ذلك، أعلن ماركس في رسالة إلى انغلز أنه إنما هنأ اللاساليين على تخليهم عن برنامج لاسال.

كان شفايتزر نفسه هو الذي قام بالتخلي الحقيقي عن تقاليد لاسال في الاجتماع العام، وذلك عندما نجح، رغم معارضة شديدة وبعد أن هدد بالاستقالة، في الحصول على تفويض بالدعوة إلى مؤتمر عام للطبقة العاملة في برلين في نهاية أيلول بهدف إنشاء منظمة عمالية عامة تقود الإضرابات. لقد تعلم شفايتزر من حركة الإضرابات الأوروبية، فلم يكن يقدرها بأكثر مما تستحق، ولكنه في الوقت ذاته أيقن أن حزب طبقة عاملة، يريد أن يظل أهلا للمهام الملقاة على عاتقه، لا يمكن أن يدع الإضرابات التي كانت تندلع في كل مكان وبعنف شديد تتحلل وتتحول إلى فوضى غير منتظمة. ولذا لم يتردد في إنشاء نقابات مختلفة، مع أنه فشل في إدراك الطبيعة الخاصة للنقابات، فأراد أن ينظمها على أسس حازمة شبيهة بتلك التي تأسست عليها «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» وكمجرد أدوات مساعدة لهذه الأخيرة.

حذر ماركس شفايتزر من اقتراف هذا الخطأ الخطير. وعلى الرغم من أن كل رسائل شفايتزر إلى ماركس بهذا الخصوص لا تزال باقية، إلا أن رسالة واحدة فقط من ماركس إلى شفايتزر لا تزال موجودة. تلك هي رسالة الثالث عشر من تشرين الأول 1868. تبدي هذه الرسالة اهتماما وديا بوجهة نظر شفايتزر، وهي تورد أهم الاعتراضات على الخط الذي يتبعه شفايتزر في العمل النقابي، ولكنها تشير إلى أن المنظمة التي أنشأها لاسال ويقودها شفايتزر «شيعة» يجب أن تندمج في الحركة العامة للطبقة العاملة. فأجاب شفايتزر بأنه فعل كل ما في وسعه على الدوام لينسق الخطى مع الحركة العامة للطبقة العاملة الأوروبية.

وبعد انعقاد الاجتماع العام لمنظمة «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» في هامبورغ، عقدت «رابطة المنظمات العمالية الألمانية» مؤتمرها في نورمبرغ. ولقد أثبت هذا المؤتمر كذلك أنه استطاع رؤية الأمور على حقيقتها، فقررت أغلبية المؤتمر أن تتبنى «موضوعات الأممية» برنامجا للصحيفة الناطقة باسمها «ديمقراطيشه فوشنبلات»، وعند ذلك انسحبت الأقلية واختفت إلى الأبد. وكان مؤتمر هامبورغ قد برر الارتباط بالأممية على أساس أن أحزاب الطبقة العاملة جميعا لها مصالح مشتركة، أما مؤتمر نورمبرغ فقد كان أقل وضوحا في موقفه. وبعد ارفضاض مؤتمر نورمبرغ ببضعة أسابيع، أعلنت «ديمقراطيشه فوشنبلات» أن مؤتمر حزب الشعب الألماني في شتوتغارت قرر تبني برنامج نورمبرغ.

غير أن «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» و«رابطة المنظمات العمالية الألمانية» اقتربتا من بعضهما البعض، وبذل ماركس جهده كوسيط كمحايد بين ليبكنشت وشفايتزر لتحقيق وحدة الطبقة العاملة الألمانية، ولكنه في النهاية لم ينجح. فقد رفضت رابطة نورمبرغ حضور المؤتمر النقابي الذي دعا إليه شفايتزر في برلين، لكن المؤتمر كان ناجحا وأدى إلى تأسيس العديد من «النوادي العمالية» التي كان التنسيق بينها يتم عبر «اتحاد عمالي» يقوده شفايتزر.

وعندئذ بدأت رابطة نورمبرغ تشكل «تعاونيات نقابية» على أساس أنظمة أساسية وضعها بيبل وكانت تتفق مع حاجات الحياة النقابية أكثر بكثير من مقترحات شفايتزر، وبعد ذلك عرضت رابطة نورمبرغ التفاوض مع «اتحاد» شفايتزر، لكن العرض رفض.

لم يستطع ماركس أن يحول دون انشقاق حركة الطبقة العاملة الألمانية، ولكن الدعم الذي قدمه الطرفان للأممية، كان مع ذلك يمثل مكسبا. وبذلك بدأت الأممية تحدث أثرا ملحوظا في كل مكان، رغم أن حدود هذا التأثير كانت لا تزال غير محددة تماما هنا وهناك. وفي تلك المرحلة، بدأ ماركس يفكر بنقل مقر المجلس العام للأممية من لندن إلى جنيف. وكان للمضايقات التي يحدثها الفرع الفرنسي في لندن أثر في دفع ماركس إلى ذلك. وعلى الرغم من أن هذا الفرع لم يكن كبيرا عدديا، إلا أنه كان كثيرا الضجيج، وكان يسبب للأممية حرجا بالغا بدعمه الصاخب للمهرج بيات الذي كان يروج لاغتيال لوي بونابرت. وبالطبع، فعل المجلس العام كل ما في وسعه لإيقاف هذه الحماقة، فما كان من الفرع الفرنسي إلا أن أحدث قدرا هائلا من الضجيج الدرامي حول «ديكتاتورية» المجلس العام، وبدأ يعد هجوما على المجلس في مؤتمر الأممية القادم في بروكسيل.

لحسن الحظ، نصح انغلز ماركس بشدة أن لا يقوم بهذه الخطوة الخطرة، قائلا أن لا يمكن تسليم قيادة الحركة لأناس لا يستطيعون رغم طيب نواياهم وصدق حدسهم أن يلعبوا هذا الدور، وكل ذلك لمجرد أن مجموعة من الحمقى تثير قدرا من المتاعب. وكلما أصبحت الحركة أكبر، وخاصة الآن وبعد أن بدأت الحركة تشق طريقها في ألمانيا، كلما أصبح أكثر أهمية أن يحتفظ ماركس بمقاليد الأمور في يديه. ولم يمض وقت طويل، حتى تبين وفي جنيف بالذات، أن طيب النوايا وصدق الحدس لا يكفيان بحد ذاتها.

3-تحريض باكونين

انعقد المؤتمر الثالث للأممية في بروكسيل ما بين 6 و13 أيلول 1868. وكان عدد حضور هذا المؤتمر أكثر من عدد الحضور في أي مؤتمر سابق أو لاحق، ولكنه كان محليا في طابعه، فقد كان أكثر من ثلث الحضور بلجيكيين. وكان ما يقرب من خمس الحضور ممثلين

لفرنسا، أما انجلترا فقد مثلها أحد عشر مندوبا، ستة منهم أعضاء في المجلس العام وبينهم ايكاريوس ويونغ ولسنر والنقابي لوكرافت. وحضر المؤتمر ثمانية مندوبين عن سويسرا، أما ألمانيا فلم يمثلها غير ثلاثة مندوبين بينهم موسى هس مندوبا عن فرع كولون. وكان شفايتزر قد تلقى دعوة رسمية، إلا أنه لم يتمكن من الحضور بسبب أعمال قضائية كانت تستدعي وجوده في ألمانيا. وبدلا من ذلك أرسل رسالة يعلن فيها تعاطف «الغماينه دويتشه اربالیترفیرن» مع أهداف الأممية، ويشرح أن انضمام هذه المنظمة الرسمي إلى الأممية تحول دونه القوانين التي تحظر الانتظام والتي تسود ألمانيا. أما ايطاليا واسبانيا فقد أرسلنا مندوبا واحدا عن كل منهما.

جعلت الحياة الناشطة للأممية في سنتها الرابعة نفسها محسوسة في جلسات المؤتمر. فقد تحولت المعارضة التي كان البرودونيون قد أبدوها ضد النقابية والإضرابات في مؤتمري لوزان وجنيف إلى العكس تماما. ولكنهم ظلوا متمسكين بأفكارهم القديمة عن «التسليف الحر» و«بنك التبادل» ونجحوا في حمل المؤتمر على تبني قرار أكاديمي لمصلحة هذه الأفكار، رغم أن ايكاريوس بين استحالة العلاجات البرودونية عمليا على أساس التجربة الانجليزية، بينما بين موسى هس خطأها نظريا على أساس رد ماركس على برودون قبل ذلك بعشرين عاما.

أما في «مسألة الملكية» فقد عانى المندوبون الفرنسيون هزيمة ماحقة فقد تبنى المؤتمر بناء على اقتراح من دي بيب البلجيكي قرارا طويلا حول الموضوع، يطالب بأن يستولي نظام اجتماعي منظم جيدا على المناجم وسكك الحديد ويديرها لمصلحة المجتمع ككل، أي أن تقوم دولة جديدة مؤسسة على مبادئ العدالة، وحتى يحين ذلك يجب أن تدير هذه المناجم والسكك شركات من العمال تقدم الضمانات الضرورية للمجتمع ككل. أما الأرض والغابات فيجيب أن تستولي عليها الدولة هي الأخرى وتنيط بشركات شبيهة من العمال مهمة إدارتها وتقديم الضمانات الكافية للمجتمع. وفي النهاية يجب أن تصبح كل القنوات والطرق والتلغراف وباختصار كل وسائط النقل والمواصلات ملكية عامة للمجتمع ككل. فاحتج المندوبون الفرنسيون بعنف على هذه «الشيوعية البدائية»، ولكنهم لم يستطيعوا سوى الوصول إلى اتفاق يقضي بأن يبحث المؤتمر القادم، الذي تقرر عقده في بازل، هذه المسألة من جديد.

يقول ماركس أنه لم يلعب أي دور في وضع قرارات مؤتمر بروكسيل، ولكنه لم يكن مستاء من نتائجه. ذلك أن المؤتمر أولا اقتفى أثر مؤتمري هامبورغ ونورمبرغ وشكر ماركس باسم الطبقة العاملة العالمية على العمل العلمي الذي قام به من أجلها، وكان في ذلك ما يرضي ماركس خصيا وسياسيا. وثانيا رد المؤتمر هجوما قام به الفرع الفرنسي في لندن على المجلس العام. غير أن ماركس امتعض لقرار اتخذه المؤتمر ويقضي بأن تحول الطبقة العاملة دون أية حروب في المستقبل بإعلان إضرابات عامة، بل إضراب عام تقوم به جميع الشعوب، ووصف هذا القرار بأنه مجرد «هراء». ولكنه من جهة أخرى سر لقرار آخر اتخذه المؤتمر بقطع كل العلاقات مع «رابطة السلام والحرية» التي عقدت مؤتمرها الثاني بعد ذلك بقليل في بيرن وكانت الرابطة قد اقترحت عقد تحالف مع الأممية، ولكن مؤتمر بروكسيل أجاب بحدة قائلا أن ليس هناك من سبب واضح لاستمرار وجود الرابطة، وأن أفضل ما يمكنها أن تفعل هو أن تحل نفسها وتوصي أعضاءها بالانضمام إلى الفروع المختلفة للأممية.

كانت فكرة هذا التحالف تحظى بصورة رئيسية بدعم ميخائيل باكونين، الذي كان قد حضر مؤتمر رابطة السلام والحرية الأول في جنيف، وانضم إلى الأممية قبل انعقاد مؤتمر بروكسيل ببضعة أشهر. وعندما رفضت الأممية اقتراحه لعقد تحالف بين المنظمتين، بذل كل جهده لإقناع مؤتمر رابطة السلام والحرية في بيرن بتبني تدمير كل الدول وإقامة فيدرالية لروابط إنتاجية في كل البلدان. غير أنه كان ضمن الأقلية أيضا في مؤتمر الرابطة، جنبا إلى جنب مع جوهان فيليب بيكر وغيره، وعندئذ انشق مع هذه الأقلية وأسس «التحالف الاممي للاشتراكية الديمقراطية»، على أن تنضم هذه المنظمة إلى الأممية دون تحفظ لتعمل من داخلها على دراسة كل المسائل السياسية والفلسفية على أساس مبدأ المساواة التامة بين البشر على امتداد العالم.

أعلن بيكر إنشاء التحالف في عدد أيلول من «ديرفوربزوت»، وأعلن أن هدفها هو إنشاء فروع للأممية في فرنسا وايطاليا واسبانيا وحيثما كان لها نفوذ. ولكن بيكر لم يطلب رسميا من المجلس العام للأممية قبول التحالف عضوا فيها إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر، وفي 15 كانون الأول 1868. وكان هذا الاقتراح قد قادم في هذه الأثناء إلى المجلسين الفيدراليين للأممية في فرنسا وبلجيكا ولكنهما رفضاه. وبعد ذلك بأسبوع واحد، أي في 22 كانون الأول، كتب باكونين إلى ماركس من جنيف يقول: «صديقي العزيز، أفهم الآن بوضوح أكثر من أي وقت مضى، كم كنت محقا في السير على طريق الثورة الاقتصادية العظيم، داعيا إيانا جميعا للسير معك، شاجبا منا من أهدروا طاقاتهم في مسالك فرعية تمثل جزئيا مغامرات قومية وأحيانا مغامرات سياسية. إنني الآن أفعل ما تفعله أنت منذ عشرين سنة. فمنذ انشقاقي الجدي والمعلن عن البرجوازية في مؤتمر بيرن، وأنا لا أعرف عالما غير عالم العمال. وطني الآن هو الأممية، التي تنتمي أنت إلى مؤسسيها البارزين. ولذا يا صديقي العزيز فأنا أعتبر نفسي تلميذا لك، وأنا فخور بذلك. هذا هو موقفي وهذه هي آرائي الشخصية».

في اليوم الذي كتب فيه باكونين هذه الرسالة، كان المجلس العام قد قرر رفض الطلب الذي تقدم به «تحالف الاشتراكية الديمقراطية» عبر بيكر، للانضمام إلى الأممية. وكان ماركس وراء هذا الرفض. فقد كان يعلم بوجود التحالف، الذي أعلن عنه في «ديرفوربوت»، ولكنه كان يعتبره جهيضا لا أهمية له. كما كان يعرف بيكر، ويعتقد أنه رفيق موثوق ولكنه ميال إلى الدخول في مؤامرات تنظيمية. وكان بيكر قد قدم ببرنامج التحالف ونظامه الأساسي إلى المجلس العام، مرفقا ذلك برسالة يعلن فيها أن التحالف يتوق إلى الانضمام إلى الأممية ليعوض نقص «المثالية» فيها.

أثارت هذه الملاحظة السيئة الطالع «سخطا هائلا» بين أعضاء المجلس العام، وعلى الأخص بين «المندوبين الفرنسيين» كما كتب ماركس لانغلز، فتقرر رفض الطلب على الفور. وكلف المجلس ماركس بكتابة رسالة تتضمن قراره حول المسألة. وتدل الرسالة التي كتبها ماركس إلى انغلز للحصول على نصيحته حول المسألة أن ماركس نفسه كان حانقا. فقد أثار برنامج التحالف غيظه قدر ما أثاره نظامه الأساسي. فقد أعلن البرنامج قبل كل شيء أن التحالف ملحد، وطالب بإلغاء كل الأديان وإحلال العلم محل الإيمان والعدالة الإنسانية مكان العدالة الإلهية. ثم

طالب بالمساواة السياسية والاقتصادية لكل الطبقات ولكل الأفراد من الجنسين، وأعلن أنه يجب البدء بإلغاء حق الإرث. وبعد ذلك انتقل البرنامج إلى المطالبة بإعطاء فرصة متساوية للنمو لأفراد الجنسين منذ الولادة، أي إعطائهم الرعاية المادية والثقافية في كل حقول العلم والصناعة والفن. وانتهى البرنامج إلى شجب كل أشكال النشاط السياسي التي لا تهدف مباشرة إلى تحقيق انتصار العمل على رأس المال.

لم يكن حكم ماركس على هذا البرنامج محبذا. فقد أشار إليه بعد ذلك بقليل على أنه: «خليط عجيب من التفاهات البالية، هراء فارغ، ومجموعة من الأفكار المدعية تجعل الفرائص ترتعد قرفا، وارتجال مبتذل لا يهدف إلا إلى أحداث أثر مؤقت». غير أن الأممية كانت على استعدادا للتغاضي عن الكثير في المجال النظري، ذلك أن هدفها التاريخي كان تطوير برنامج مشترك للبروليتاريا العالمية من خلال نشاطها العملي، ولهذا السبب بالذات كان تنظيم الأممية مسألة ترتدي قدرا بالغا من الأهمية، لكن النظام الأساسي للتحالف كان يشكل تعديا خطيرا في هذا المجال بالضبط.

لقد أعلن التحالف نفسه فرعا من الأممية يقبل كل نظمها الأساسية العامة، ولكنه أراد أن يظل تنظيما مستقلا، وقد شكل مؤسسوه من أنفسهم لجنة مركزية مؤقتة في جنيف، على أن تفتتح مكاتب في كل الأقطار وتشكل جماعات في كل مكان تنضم بعد ذلك فقط إلى الأممية. واقترح التحالف أن يعقد مندوبوه إلى مؤتمرات الأممية السنوية اجتماعات عامة خاصة بهم في غرفة مستقلة.

قرر انغلز في الحال أن قبولهم مستحيل، إذ ستكون النتيجة مجلسين عامين ومؤتمرين. وفي أول فرصة سيجد المجلس العام العملي في لندن نفسه مشتبكا في نزاع حاد مع المجلس العام «المثالي» في جنيف. وفيما عدا ذلك، نصح انغلز بأن يعالج الأمر بهدوء، فأي رفض عنيف سيثير المدعين بين العمال (وعلى الأخص في سويسرا) ويسبب الضرر للأممية. ولذا يجب رفض طلب التحالف بحزم وهدوء، ويجب أن يوضح أن التحالف قد اختار لنشاطه حقلا خاصا، وأن الأممية ستنتظر لترى النتائج التي يتمخض عنها هذا النشاط. وفي أثناء ذلك، ليس هناك ما يمنع أن يكون أعضاء إحدى المنظمتين أعضاء في الأخرى إذا هم أرادوا ذلك.

في هذه الأثناء، كان غضب ماركس قد هدأ، فكتب رسالة ضمنها رفض الأممية لطلب التحالف بصيغة هادئة لا يمكن الاعتراض عليها. وأشار ماركس في الرسالة إلى بيكر قائلا أن عددا من مؤسسي التحالف كانوا قد حسموا المسألة من قبل بتعاونهم كأعضاء في الأممية في صياغة قرار مؤتمر بروكسيل برفض انضمام «رابطة السلام والحرية» إلى الأممية. وأضاف أن السبب الرئيسي وراء القرار السلبي للمجلس العام هو أن قبول منظمة أممية ثانية توجد داخل الأممية وخارجها في وقت واحد هو أفضل سبيل لتدمير الأممية.

ردت اللجنة المركزية للتحالف في جنيف على رسالة المجلس العام برفض قبول التحالف عضوا في الأممية بأن عرضت أن تتحول فروع التحالف إلى فروع للأممية إذا اعترف المجلس العام للأممية بالبرنامج النظري للتحالف.

أثناء ذلك تلقى ماركس رسالة باكونين الودية، ولكن شكه كان قد تعاظم، فلم يعر هذه «المناورة العاطفية» أي التفات. كذلك ساورته الشكوك بصدد الاقتراح الجديد للتحالف، لكنه لم يسمح لمشاعره بأن تؤدي به إلى إجابة هذا الاقتراح إجابة غير موضوعية. فقرر المجلس العام في 9 آذار 1869، بناء على اقتراح منه، أنه ليس من صلاحية المجلس أن يدقق البرامج النظرية للمنظمات العمالية المرتبطة به. فالطبقة العاملة في الأقطار المختلفة تمر في مراحل مختلفة من التطور، ولذا يجد نشاطها العملي تعبيرا عنه في أشكال نظرية مختلفة. غير أن العمل المشترك، الذي هو هدف الأممية، والنقاشات المباشرة في مؤتمرات الأممية السنوية كفيلة بأن تؤدي تدريجيا إلى برنامج نظري مشترك لحركة الطبقة العاملة كلها. أما الآن فإن مهمة المجلس العام تقتصر على تقرير ما إذا كان الاتجاه العام للبرامج المختلفة يتفق مع الاتجاه العام للامية، أي مع النضال من أجل الانعتاق الكامل للطبقة العاملة.

وفي هذا الصدد، أشار قرار المجلس العام إلى أن برنامج التحالف يحتوي جملة قد تكون عرضة لسوء فهم خطير: فالمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات لا يمكن أن تعني إذا أخذت حرفيا غير المصالحة بين رأس المال والعمل على غرار ما كان يبشر به الاشتراكيون البرجوازيون. وسر الحركة البروليتارية والهدف العظيم للأممية هما في الواقع تدمير كل الطبقات. غير أن البند موضع البحث يمكن أن يكون عائدا إلى مجرد السهو، والمجلس العام لا يشك في أن التحالف على استعداد للتخلي عن هذا البند الخطر، وعندئذ لن تكون هناك عقبة في سبيل تحول فروع التحالف إلى فروع للأممية. وعندما يحصل ذلك، يجب أن يبلغ المجلس العام، طبقا للنظام الأساسي للأممية، بمكان وجود وعدد أعضاء جميع هذه الفروع.

عندئذ، عدل التحالف البند الذي اعترض عليه المجلس العام، أعلن في 22 حزيران أنه حل نفسه ودعا فروعه إلى التحول إلى فروع للأممية. وقبل فرع التحالف في جنيف، الذي كان يقوده باكونين، في الأممية بإجماع الأصوات في المجلس العام. وزعم حينذاك أن جمعية باكونين السرية قد حلت نفسها هي الأخرى، ولكنها ظلت في الواقع موجودة بشكل عام وإلى هذا الحد أو ذاك، أما باكونين نفسه فقد استمر يعمل للبرنامج الذي وضعه التحالف لنفسه.

خلال ذلك، ساد الهدوء الفروع الفرنسية-الايطالية-السويسرية للأممية فترة من الوقت وفي كانون الثاني 1869، شكلت هذه الفروع بمبادرة من باكونين مجلسا فيدراليا مشتركا وأصدرت مجلة أسبوعية نافذة نوعا ما اسمها «ايغاليتيه» ساهم في الكتابة لها باكونين وبيكر وايكاريوس وفارلان وغيرهم من أعضاء الأممية اللامعين. بعد ذلك، أقنع باكونين المجلس الفيدرالي أن يطرح مسألة الإرث للنقاش في المؤتمر القادم للأممية في بازل. وكان من حقه أن يفعل، ذلك أن إحدى المهام الرئيسية التي حددت للمؤتمر كانت بحث مسائل كهذه، وعلى الفور وافق المجلس العام على ذلك.

غير أن ماركس اعتبر ذلك تحديا من باكونين له، فرحب به على أنه كذلك.

4-مؤتمر بازل

انعقد المؤتمر الرابع للأمية في بازل في 5 و6 أيلول، وفيه راجعت الأممية نشاطاتها في السنة الخامسة لوجودها.

لقد أثبتت هذه السنة أنها أكثر سنوات الأممية حيوية بفضل «قتال الغوار بين العمل ورأس المال»، أي تلك الإضرابات التي بدأت الطبقات الحاكمة في أوروبا تفسرها أكثر فأكثر لا على أنها نتيجة تعاسة البروليتاريا أو استبداد رأس المال، بل على أنها نتيجة المكائد السرية التي تحيكها الأممية.

ونتيجة لذلك تعاظمت الشهوة الوحشية لسحق الأممية بقوة السلاح. فحتى في انجلترا حدثت صدامات دموية بين عمال المناجم المضربين وبين الجيش. وفي مقاطعة لوير ارتكب الجنود السكارى مجزرة ذهب ضحيتها عشرون شخصا بينهم امرأتان وطفل. وميزت بلجيكا نفسها مرة أخرى بوحشية –«مثال الدستورية الأوروبية، جنة ملاك الأرض والرأسماليين والقساوسة المحروسة جيدا» على حد تعبير نداء وضعه ماركس وأصدره المجلس العام إلى عمال أوروبا والولايات المتحدة للتضامن مع الضحايا الذين سقطوا صرعى الغضب الوحشي للباحثين عن الربح في سيرانج وبوريناج. وأعلن ماركس: «كما أن الأرض تتم دورتها مرة كل سنة، كذلك تقوم الحكومة البلجيكية بمذبحتها ضد العمال سنويا».

جعلت البذرة الدموية نفسها محسوسة في حصاد الأممية، ففي خريف 1868، تمت الانتخابات في انجلترا على أساس الإصلاح الانتخابي، لكن النتائج أكدت صحة التحذيرات التي كان ماركس قد أطلقها ضد السياسية الوحيدة الجانب لـ«عصبة الإصلاح»، إذ لم ينتخب أي من ممثلي العمال، بل نجح «المتولون» وجاء غلادستون إلى سدة الحكم ثانية، ولكنه لم يكن ينوي إحداث تسوية نهائية للمسألة الايرلندية ولا إنهاء الظلامات التي كانت تشكو منها النقابات. وحمل ذلك كله رياحا جديدة إلى أشرعة النقابية الجديدة.

وفي المؤتمر السنوي العام للنقابات الذي انعقد في بيرمنغاهم عام 1869، صدر نداء ملحاح إلى كل المنظمات العمالية في المملكة المتحدة للارتباط بالأممية، لا لأن مصالح الطبقة العاملة العالمية هي ذاتها في كل مكان فحسب، بل أيضا لأن مبادئ الأممية كانت موضوعة بحيث تؤدي إلى سلام دائم بين شعوب العالم. وفي صيف عام 1869، كانت نذر الحرب بين انجلترا والولايات المتحدة تتجمع في الأفق، فبعث ماركس خطابا إلى المؤتمر العمالي الوطني في الولايات المتحدة يقول: «دوركم الآن أن تمنعوا نشوب حرب ستكون نتيجتها الحتمية إذا وقعت إلقاء حركات الطبقة العاملة المتقدمة على جانبي الأطلنطي إلى الخلف». وقد كان لهذا الخطاب أصداء واسعة في الولايات المتحدة.

وفي فرنسا أيضا، كانت قضية الطبقة العاملة تحرز تقدما جيدا، ولم يكن للاضطهاد البوليسي غير النتيجة المعتادة، وهي اجتذاب أنصار جدد للأممية. وقد أدت مساعدة المجلس العام للأممية في العديد من الإضرابات إلى تشكيل نقابات قوية لا يمكن قمعها مهما كانت روح الأممية بادية فيها. ولم يشترك العمال في انتخابات عام 1869 بترشيح ممثلين لهم، ولكنهم دعموا مرشحي اليسار البرجوازي المتطرف الذين تقدموا ببرنامج انتخابي راديكالي جدا. وبهذه الطريقة ساهم العمال، بصورة غير مباشرة على الأقل، في الهزيمة الساحقة التي لحقت ببونابرت، على الأخص في المدن الكبيرة، رغم أن ثمار جهدهم قد سقطت في حضن الديمقراطية البرجوازية. لقد بدأت الإمبراطورية الثانية تتزعزع من الداخل، ومن الخارج تلقت ضربة قاصمة نتيجة للثورة التي اندلعت في اسبانيا في خريف 1868 وطردت الملكة إيزابيلا خارج البلاد.

كان مسار التطور في ألمانيا مختلفا نوعا ما، ذلك أن البونابرتية كانت لا تزال في صعود هناك، ولما يبدأ نجمها بالأفول بعد. كذلك كانت المسألة القومية سببا في انشقاق الطبقة العاملة الألمانية، فكان هذا الانشقاق عقبة كؤودا في وجه تطور الحركة النقابية. ووقع شفايتزر بسبب سياسته الخاطئة في التحريض النقابي أسير وضع لم يعد يستطيع السيطرة عليه، وفي الوقت ذاته أدت الهجمات المتكررة على نزاهته الشخصية إلى إحاطته بالشك حتى من جانب بعض أتباعه، وزاد الأمر سوء أنه عرض سمعته للخطر الجدي بقيامه بانقلاب صغير.

لذا أدارت أقلية في «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» ظهرها له واندمجت برابطة نورمبرغ لتشكيل حزب اشتراكي ديمقراطي جديد، أصبح أعضاؤه يعرفون بالايزناخيين، لأن مؤتمرهم الافتتاحي انعقد في ايزناخ. وفي البداية قاتل الجناحان بعضهما قتالا مريرا، ولكنهما اتخذا موقفا متقاربا تجاه الأممية. وكان هذان الجناحان متفقان من حيث المبدأ، ولكنهما كانا مختلفين شكلا طالما ظلت قوانين حظر الانتظام الحزبي والنقابي مفروضة في ألمانيا. وعلى الرغم من أن ماركس وانغلز رحبا بـ«انحلال الكنيسة اللاسالية» إلا أنهما رفضا التعامل مع المجموعة الأخرى إلى أن تفصل نفسها تماما عن حزب الشعب الألماني أو على الأقل تحتفظ بمجرد علاقة فضفاضة معه.

أما تقدم حركة الطبقة العاملة الهنغارية-النمساوية، والذي لم يكن قد بدأ إلا بعد هزائم عام 1866، فقد كان أكثر اتساقا. ولم يكن للمبادئ اللاسالية هناك أي موطئ لقدم، وبدأت جماهير العمال تنضوي تحت لواء الأممية، كما أشار المجلس العام في تقريره إلى مؤتمر بازل.

هكذا اجتمع المؤتمر في ظل ظروف مؤاتية. ولم يحضر المؤتمر غير 78 مندوبا، ولكنه كان «أمميا» أكثر بكثير من المؤتمرات السابقة، فقد تمثلت فيه تسعة أقطار. تمثل المجلس العام كالعادة بايكاريوس ويونغ بالإضافة إلى نقابيين لامعين هما لوكارافت وابليغارث. أما فرنسا فقد أرسلت ستة وعشرين مندوبا، وبلجيكا خمسة مندوبين، وألمانيا اثني عشر، والنمسا اثنان، وسويسرا ثلاثة وعشرين، وايطاليا ثلاثة، واسبانيا

أربعة، والولايات المتحدة مندوبا واحدا. وقد مثل ليبكنشت جناح ايزناخ بينما مثل موسى هس فرع برلين. كذلك كان باكونين مندوبا مفوضا لكل من ايطاليا وفرنسا. وترأس المؤتمر يونغ.

عالج المؤتمر في البداية المسائل التنظيمية، فقرر بناء على اقتراح من المجلس العام توصية جميع فروع الأممية والهيئات المرتبطة بها إلغاء منصب الرئيس، وكان ذلك عملا قد أخذه المجلس العام على عاتقه قبل ذلك بسنوات عدة على اعتبار أن الإبقاء على مبدأ سلطوي وملكي كهذا ضمن صفوف منظمة عمالية أمر لا يليق بكرامة منظمة كهذه، ذلك أن وجود منصب الرئيس حتى ولو كان فخريا يخرق المبدأ الديمقراطي. ومن جهة أخرى، اقترح المجلس العام توسيع سلطاته التنفيذية، بحيث يحق له تعليق عضوية أي فرع من فروع الأممية حتى انعقاد المؤتمر القادم والبت في ذلك، إذا ما خالف أي فرع من الفروع روح الأممية فتم تبني الاقتراح بعد إدخال تعديل عليه يقضي بأن يستشير المجلس العام المجلس الفيدرالي، إذا وجد مثل هذا المجلس الأخير، قبل اتخاذ قراره. وقد دعم كل من باكونين وليبكنشت هذا الاقتراح بحماسة، وإذا كان أمرا طبيعيا من جانب ليبكنشت فإنه لم يكن كذلك من جانب باكونين، إذ أنه يتعارض مع مبدئه الفوضوي مهما كانت دوافعه الانتهازية إلى ذلك.

كانت أهم المسائل النظرية المدرجة على جدول الأعمال هي مسألة الملكية العامة للأرض ومسألة حق الإرث. وكانت المسألة الأولى قد حسمت بالفعل في مؤتمر بروكسيل، وفي هذا المؤتمر تم الانتهاء من بحثها باختصار. وقرر المؤتمر بأغلبية أربعة وخمسين صوتا أن من حق المجتمع إقامة ملكية عامة للأرض، كما قرر بأغلبية ثلاثة وخمسين صوتا هذا الإجراء من صالح المجتمع ككل. أما الأقلية فقد امتنعت في الغالب عن التصويت، وصوت ثمانية مندوبين ضد القرار الثاني، بينما صوّت أربعة ضد القرار الأول. ولكن عددا كبيرا من الآراء المختلفة ظهر حول الإجراءات العملية لوضع القرارين موضع التنفيذ، وفي النهاية ترك للمؤتمر القادم في باريس أمر بحث المسألة بحثا شاملا.

أما في مسألة حق الإرث، فكان المجلس العام قد وضع تقريرا حول المسألة يلخص أهم النقاط ببضع كلمات بالطريقة المعهودة الرائعة التي يتسم بها أسلوب ماركس. فقوانين الإرث، مثلها في ذلك مثل كل التشريعات البرجوازية، ليست السبب بل هي النتيجة، إنها النتيجة القانونية للتنظيم الاقتصادي للمجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. لم يكن حق وراثة العبيد سببا للعبودية، بل على العكس من ذلك، كانت العبودية السبب في وجود حق وراثة العبيد. وإذا ما أصبحت وسائل الإنتاج ملكية عامة، فإن حق الإرث سيختفي عندئذ كعامل له أهمية اجتماعية، ذلك أن المرء حينئذ لا يستطيع أن يترك لورثته غير ما امتلكه في حياته. ولذا فإن الهدف العظيم للطبقة العاملة هو إلغاء تلك المؤسسات التي تسمح لبضعة أفراد بامتلاك ثمار عمل الكثيرين. ومن هنا فإن المطالبة بإلغاء قوانين الإرث على اعتبار أن ذلك هو نقطة البداية في الثورة الاجتماعية سخيف سخف المطالبة بإلغاء قوانين التعاقد بين الباعة والمشترين ما دام نظام تبادل السلع الراهن قائما. إن حق الرث لا يمكن أن يحول إلا في فترة انتقالية، عندما لا تكون الأسس الاقتصادية الراهنة للمجتمع قد تحولت بعد، بينما تكون الطبقة العاملة من جهة أخرى قد امتلكت من القوة ما يكفي لاتخاذ إجراءات تمهيدية تهيئ تحويل كامل للمجتمع. وأوصى المجلس العام بأن يكون من بين الإجراءات الانتقالية هذه رفع ضرائب الوفاة والحد من حقوق الوراثة بالوصية، تلك الحقوق التي تتميز عن الإرث العائلي بأنها تضخم مبادئ الملكية الخاصة بطريقة خرافية واعتباطية.

غير أن اللجنة التي أحيل عليها بحث المسألة اقترحت المطالبة بإلغاء حق الرث على أساس أن ذلك واحد من المطالب الأساسية للطبقة العاملة، على الرغم من أن اللجنة لم تستطع أن تعدم اقتراحها بغير بضعة جمل إيديولوجية عن «الامتيازات» و«العدالة السياسية والاقتصادية» و«النظام الاجتماعي». وفي المناقشة الموجزة التي تبعت ذلك، تكلم ايكاريوس والمندوب البلجيكي دي بيب والمندوب الفرنسي فارلان إلى جانب تقرير المجلس العام، بينما تحدث باكونين إلى جانب اقتراح اللجنة الذي كان في الواقع أباه الروحي. أوصى باكونين بتبني اقتراح اللجنة لأسباب زعم أنها عملية، بينما كانت في الحقيقية أسباب وهمية. وقال أن من المستحيل إقامة الملكية العادلة دون أن يسبق ذلك إلغاء حق الإرث. ذلك أنه إذا ما حاول المرء انتزاع الأرض من الفلاحين فإنهم سيقاومون،ولكنهم لن يشعروا أن إلغاء حق الإرث موجه ضدهم، وهكذا تندثر الملكية الخاصة بالتدريج. وعندما أخذت الأصوات تبين أن هناك 32 صوتا إلى جانب اقتراح اللجنة و32 صوتا ضده و13 ممتنعين عن التصويت و7 مندوبين غائبين. أما تقرير المجلس العام فقد حصل على 19 صوتا، وصوت ضده 37، وامتنع عن التصويت 6 وتغيب 13. وهكذا لم يحرز أي من التقرير أو الاقتراح أغلبية واضحة، ولم تتمخض المناقشة عن نتيجة حاسمة.

كان لمؤتمر بازل أصداء واسعة في العالمين البرجوازي والبروليتاري معا، أكثر من أي مؤتمر سبقه. فقد لاحظ أكثر ممثلي البرجوازية ثقافة، بنفس يشوبها الهلع من جهة والرضى الحقود من جهة أخرى، إن الطابع الشيوعي للأممية قد انكشف في نهاية الأمر، أما في العالم البروليتاري فقد استقبل القرار المحبذ للملكية العامة للأرض بفرح غامر. ففي جنيف أصدر فرع الأممية الناطق بالألمانية بيانا إلى السكان المزارعين ترجم إلى الفرنسية والايطالية والاسبانية والبولندية والروسية ووزع على نطاق واسع. وفي برشلونة ونابولي تأسست أول فروع للعمال الزراعيين تابعة للأممية. وفي لندن، تشكلت «رابطة الأرض والعمل» في اجتماع جماهيري حاشد تحت شعار «الأرض للشعب!»، وكان عشرة من أعضاء المجلس العام أعضاء كذلك في لجنة الرابطة.

أما في ألمانيا، فقد استشاط السادة المحترمون في حزب الشعب الألماني غضبا لقرارات مؤتمر بازل، وفي البداية سمح ليبكنشت لنفسه أن ينصاع لتهديداتهم، حتى أنه أصدر بيانا بما معناه أن جناح ايزناخ غير ملزم بقرارات المؤتمر. ولكن لحسن الحظ، لم يقنع قادة حزب الشعب الغاضبون بذلك، بل طالبوا بشجب قرارات المؤتمر علنا، وعندئذ وفي النهاية قطع ليبكنشت كل علاقاته معهم، مقدما على خطوة كان ماركس وانغلز قد حضاه على القيام بها منذ أمد طويل.

5-العفو الايرلندي والاستفتاء العام الفرنسي

كان شتاء 1869-1870 فترة تخللتها آلام جسدية عصفت بجسد ماركس، ولكنه على الأقل تخلص من متاعبه المالية الدائمة. ففي 30 حزيران 1869 تخلص انغلز في النهاية من «عمله الملعون». وكان قبل ذلك بستة أشهر قد سأل ماركس عما إذا كان يستطيع العيش بثلاثمائة وخمسين جنيها في السنة. فقد كان انغلز يريد أن يصفي أعماله معه شريكه بحيث يؤمن هذا المبلغ لماركس مدة خمس أو ست سنوات. ولا تدل المراسلات بين الصديقين على الكيفية التي سوي بها الأمر في النهاية، لكن انغلز على أية حال استطاع إنهاء متاعب ماركس المالية لا لمدة خمس أو ست سنوات وحسب بل حتى وفاته.

شغل كل من ماركس وانغلز نفسه خلال هذه الفترة بالمسألة الايرلندية. فقام انغلز بدراسات تاريخية مستفيضة لتطور الحركة، ولكن ثمار هذه الدراسة لم تنشر قط لسوء الحظ. بينما حث ماركس المجلس العام على دعم الحركة الايرلندية التي طالب بعفو عام عن الفينيانيين الذين كانوا يعاملون معاملة وحشية في السجون. فعبر المجلس العام عن إعجابه بالطريقة الصلبة الشجاعة التي قاتل بها الشعب الايرلندي من أجل حقوقه، وشجب غلادستون الذي رفض رغم كل وعوده الانتخابية منح عفو عام، أو اشترط لمنح هذا العفو شروطا تشكل إهانة لضحايا سوء الحكم الانجليزي وللشعب الايرلندي.

وأنب المجلس رئيس الوزراء تأنيبا قاسيا لتبشيره بعقيدة الخضوع للشعب الانجليزي، بعد أن كان هو بالذات قد عبر رغم منصبه الرسمي عن موافقته الحماسية على الثورة ضد ملاك العبيد الأمريكيين، وأعلن المجلس أن موقف رئيس الوزراء بصدد العفو الايرلندي إنما هو نتيجة أكيدة «لسياسة الغزو» التي كان شجب غلادستون الصارخ لها سببا في إقصاء منافسيه المحافظين عن الحكم. وفي رسالة بعث بها ماركس إلى كوغلمان، أعلن أنه يهاجم الآن غلادستون، كما كان قد هاجم من قبل بالمرستون، وأضاف «أن اللاجئين الديمقراطيين هنا يحبون الهجوم على الطغاة في القارة الأوروبية من مسافة آمنة. أما أنا فأحب أن أهاجم عندما استطيع رؤية عدوى وجها لوجه».

وسر ماركس على وجه الخصوص لأن ابنته الكبرى أحرزت نجاحا مرموقا في الحملة الايرلندية. فقد ظلت الصحافة الانجليزية صامتة بعناد حول الفظاعات البربرية التي كانت ترتكب ضد المساجين الفينيانيين، ولذا قامت يبني ماركس بإرسال العديد من المقالات إلى صحيفة «مارسيليز» الفرنسية تحت اسم مستعار هو ويليامز، وكان والدها قد استخدم هذا الاسم من قبل في الخمسينات. وفي هذه المقالات وصفت يبني ماركس بحرارة كيف كانت انجلترا الديمقراطية تعامل سجناءها السياسيين. فكان نشر مثل هذه المقالات في صحيفة ربما كانت أوسع الصحف في القارة الأوروبية انتشارا أكثر مما يستطيع غلادستون تحمله، وبعد ذلك ببضعة أسابيع كان معظم السجناء الفينيانيين أحرارا وفي طريقهم إلى أمريكا.

كانت «مارسيليز» قد اكتسب شهرة أوروبية نتيجة لهجومها المقذع على بونابرت المزيف، الذي كان حكمه في ذلك الوقت على شفير الانهيار. وفي بداية عام 1870 قام بونابرت بمحاولة يائسة أخيرة لإنقاذ نظامه الدموي الرث بالقيام بتنازلات للبرجوازية، فعين الليبرالي اوليفييه رئيسا للوزراء. فعل اوليفييه كل ما في وسعه بواسطة ما يسمى بالإصلاحات، ولكن بونابرت طلب أن تحصل هذه «الإصلاحات» على البركة البونابرتية النموذجية عن طريق الاستفتاء. وكان أوليفييه أضعف من أن يرفض، فأصدر أوامره للحكام الإداريين بأن يفعلوا كل ما من شأنه أن ينجح الاستفتاء. ولكن الشرطة البونابرتية كانت تعرف أكثر من الليبرالي المهذار كيف يضمن نجاح الاستفتاءات، فاكتشف عشية الاستفتاء مؤامرة مزعومة حاكها أعضاء الأممية لقتل بونابرت. فكان من جبن اوليفييه أن خضع للشرطة، خاصة وأن الإجراء كان موجها ضد العمال، فقامت الشرطة ليلا بمفاجأة «قادة» الأممية في كل أنحاء فرنسا وألقت القبض عليهم.

لم يضع المجلس العام أي وقت لتفادي الضربة، فنشر في 3 أيار احتجاجا يقول: «إن أنظمتنا الأساسية تجعل من واجب كل فروع منظمتنا العمل علانية، وحتى لو لم تكن الأنظمة الأساسية واضحة حول هذه النقطة، فإن طابع منظمة تتمثل بالطبقة العاملة يستثني أية إمكانية لأن تتخذ منظمة كهذه شكل جمعية سرية. وإذا كانت الطبقة العاملة، التي تشكل أغلبية أية أمة من الأمم والتي تنتج كل الثروات والتي يحكم باسمها كل المغتصبين، إذا كانت هذه الطبقة تتآمر فإنها تفعل ذلك علانية كما تتآمر الشمس على الظلام، بوعي كامل لحقيقة أنه ما من قوة مشروعة توجد خارج مدارها.. إن الإجراءات العنيفة الصاخبة التي اتخذت بحق فروعنا في فرنسا إنما قصد بها غرض واحد وحيد هو التأثير على الاستفتاء». كانت هذه هي الحقيقة الناصعة البسيطة، لكن الوسائل الحقيرة خدمت مرة أخرى الأغراض الحقيرة، وتم التبشير «بالإمبراطورية الليبرالية» بسبعة ملايين صوت ضد مليون ونصف.

غير أن السلطات اضطرت بعد ذلك إلى التخلي عن كذبة المؤامرة. فأعلنت الشرطة أنها وجدت في حوزة أحد أعضاء الأممية قاموسا بمثابة الشيفرة، ولكن كل ما استطاعت أن تفسره من هذه الشيفرة كان اسما أو اثنين مثل نابليون ونيتروغليسيرين، وكان هذا أكثر مما يمكن أن يطلب حتى من محكمة بونابرتية ابتلاعه. ولذا تقلصت التهمة إلى الجنحة ذاتها التي اتهم بها أعضاء الأممية الفرنسية مرتين من قبل: عضوية جمعية سرية مشروعة.

وبعد دفاع رائع قام به هذه المرة الحداد شاتين، الذي أصبح فيما بعد عضوا في عامية باريس، صدر الحكم في 9 تموز وكانت العقوبة القصوى السجن سنة واحدة وفقدان كل الحقوق المدنية مدة سنة، ولكن في الوقت ذاته عصفت العاصفة التي أطاحت بالإمبراطورية الثانية.

الفصل الرابع عشر

أفول الأممية

1-سيدان

كتب الكثير عن موقف ماركس وانغلز من الحرب الفرنسية-البروسية، على الرغم من قلة ما يمكن أن يكتب فعلا بهذا الخصوص. فهما بعكس مولكته لم يعتبرا الحرب تدبيرا إلهيا، بل اعتبراها تدبيرا شيطانيا يلازم المجتمع الطبقي ولا ينفصل عنه خصوصا إذا كان مجتمعا رأسماليا.

وهما كمؤرخين لم يتبنيا، بالطبع، موقفا لاتاريخيا يقول بأن الحرب هي الحرب وأن الحروب جميعها بالقدر ذاته من السوء. بل كانا يعتقدان أن لكل حرب أسبابها ونتائجها المحددة الخاصة بها، التي يجب على الطبقة العاملة أن تستند إليها في الموقف الذي تتخذه تجاهها. وكان ذلك أيضا هو موقف لاسال، الذي اختلفا معه عام 1859 حول الشروط الفعلية التي تقرر الحرب، في حين اتخذ الثلاثة موقفا واحدا تجاهها، فقد كانوا جميعا يهدفون إلى استغلال الحرب على أكمل وجه بما يخدم النضال البروليتاري من أجل الانعتاق.

كانت هذه الاعتبارات هي ذاتها التي حددت موقف ماركس وانغلز من حرب 1866. فبعد فشل الثورة الألمانية عام 1848 في تحقيقي وحدة قومية، سعت حكومة بروسيا إلى استغلال حركة الوحدة الألمانية (التي كان التطور الاقتصادي يعمل على بعثها المرة تلو الأخرى) لمصالحها الخاصة بإقامة بروسيا موسعة، على حد تعبير القيصر العجوز فيلهلم، بدلا من ألمانيا موحدة. وكان ماركس وانغلز ولاسال وشفايتزر وليبكنشت وبيبل متفقين تماما على أن الوحدة الألمانية، التي تحتاجها البروليتاريا الألمانية كمرحلة أولية في نضالها من أجل الانعتاق، لا يمكن أن تتحقق إلا عبر ثورة قومية، ولذا وقفوا بشدة في وجه جميع النزعات العائلية الضيقة التي اتسمت بها سياسة إقامة بروسيا الكبرى. غير أنهم جميعا اضطروا بعد أن تقرر الأمر في كونيغراتز إلى إدراك الحقيقة المرة في أوقات مختلفة، كل بقدر ما كان يتوفر له من رؤية للشروط الفعلية. فقد أصبح واضحا أن الثروة القومية لم تعد ممكنة بسبب جبن البرجوازية وضعف البروليتاريا،كما أصبح واضحا كذلك أن بروسيا الكبرى القائمة على «الدم والحديد» أضحت توفر لنضال البروليتاريا الطبقي ظروفا أفضل مما توفره عودة المجلس الجرماني الهزيل، تلك العودة التي أصبحت مستحيلة على أي حال.

كان هذا ما توصل إليه ماركس وانغلز على الفور،وكذلك شفايتزر كخليفة للاسال، فقبلوا جميعا رابطة شمال ألمانيا الكسيحة الجوفاء لكونها توفر لنضال الطبقة العاملة قاعدة أمتن من سوء غدارة المجلس الجرماني، رغم أن قبولهم هذا كان يفتقر إلى الحماسة، بل حتى إلى الرضى. أما ليبكنشت وبيبل فقد حافظا على نظرتهما الثورية الألمانية-الكبرى، وظلا حتى بعد عام 1866 يعملان على تحطيم رابطة شمال ألمانيا.

أصبح موقف ماركس وانغلز، بعد القرار الذي توصلا غليه عام 1866، تجاه حرب 1870 مستقرا إلى حد ما. فهما لم يطرحا أية آراء حول الأحداث المباشرة التي أدت إلى الحرب، سواء فيما يتعلق بترشيح بسمارك لأمير من آل هوهنزلرن لعرش أسبانيا ضد مطامح بونابرت، أو بالنسبة لسياسة بونابرت في عقد تحالف فرنسي-نمساوي-ايطالي ضد بسمارك. وعلى أية حال، كان من الصعب جدا في ذلك الوقت إصدار حكم معقول على أي من الطرفين. ولكن بقدر ما كانت سياسة بونابرت العسكرية موجهة ضد الوحدة القومية الألمانية، سلم ماركس وانغلز بأن ألمانيا كانت في موقف دفاعي.

وفي بيان صدر عن المجلس العام للأممية في 23 تموز، أعطى ماركس الذي أعد البيان أسبابا تفصيلية لهذا الموقف. فأعلن أن مؤامرة حرب 1870 لم تكن أكثر من نسخة منقحة عن انقلاب 1851، ولكنها دقت ناقوس موت الإمبراطورية الثانية، التي كان لا بد أن تنتهي كما بدأت: كمهزلة. ومهما يكن من أمر فإن على المرء أن لا ينسى أن الطبقات الحاكمة والحكومات الأوروبية هي التي مكنت بونابرت من تمثيل مهزلة الإمبراطورية المستعادة لثماني عشرة سنة. لقد كانت الحرب حربا دفاعية بقدر ما يتعلق الأمر بألمانيا. ولكن من الذي دفع ألمانيا إلى هذا الوضع، ومن الذي مكن لوي بونابرت من شن الحرب عليها؟ بروسيا، فقبل كونيغراتز لم ينشئ بسمارك ألمانيا موحدة مقابل فرنسا مستعبدة، ولكنه توج كل غدر النظام القديم بكل حيل الإمبراطورية الثانية، مما مكن النظام البونابرتي من أن يزدهر على ضفتي الراين. أي نتيجة، إذن، كان يمكن أن ينتج عن هذا غير الحرب؟ «وإذا ما سمحت الطبقة العاملة الألمانية للحرب الحالية أن تفقد طابعها الدفاعي وتتحول إلى حرب ضد الشعب الفرنسي، فإن نتيجتها ستكون قاتلة، يستوي في ذلك النصر مع الهزيمة. إذ سيعود من جديد كل البؤس الذي عانت منه ألمانيا بسبب ما يسمى بحروب الاستقلال، ولكن بشكل أفظع هذه المرة». ثم أشار البيان إلى أن التظاهرات التي قام بها العمال الألمان والفرنسيون جعلت الخشية من الوصول إلى نتيجة محزنة كهذه أمرا لا ضرورة له، وأعادت إلى ذاكرة العمال أن شبح روسيا الشرير يقف في خلفية الاقتتال الانتحاري متربصا، وان كل صنوف العطف التي يمكن للألمان أن يطلبوها كحق لهم في نضالهم الدفاعي ضد الهجوم البونابرتي سوف تتبخر في الهواء، إذا هم سمحوا لحكومة بروسيا أن تطلب أو حتى تقبل مساعدة القوقاز.

في 21 تموز، أي قبل صدور البيان بيومين، صوت رايشتاغ شمال ألمانيا على اعتماد للحرب قدره 120 مليون ثالر. وصوت ممثلو اللاساليون لصالح الاعتماد، تمشيا مع سياستهم التي درجوا عليها منذ عام 1866. بينما امتنع ممثلو الايزناخيين، ليبكنشت وبيبل، عن التصويت، لأن التصويت لصالح الاعتماد كان بمثابة منح الثقة للحكومة البروسية التي غرست بذور الحرب الحاضرة بموقفها الذي اتخذته عام 1866، في حين أن التصويت ضد الاعتماد يمكن أن يفسر بأنه تعبير عن الموافقة على سياسة بونابرت الإجرامية الشريرة. لقد نظر

ليبكنشت وبيبل إلى الحرب نظرة أخلاقية بالدرجة الأولى، وقد أوضح ليبكنشت ذلك لاحقا في كتابه عن حملة ايمز، كما أوضحه بيبل في مذكراته.

قوبل موقف ليبكنشت وبيبل بمعارضة حادة من جانب جناحهما، وعلى الأخص من لجنة برونزويك التي كانت بمثابة قيادته. فامتناعهما عن التصويت لم يكن، في حقيقة الأمر، سياسة عملية قدر ما كان احتجاجا أخلاقيا لا يتمشى مع المتطلبات السياسية للوضع، بغض النظر عن أي تبرير للموقف بحد ذاته. وإذا كان بمقدور المرء في الحياة الخاصة أن يخاطب خصمين بقوله: أنا أرفض أن أدخل في نزاعكما، لأن كلا منكما على خطأ، فإن ذلك مستحيل في حياة الدول حيث يؤدي نزاع الملوك إلى ويلات الشعوب. وقد تكشفت النتائج العملية لمثل هذا الحياد المستحيل بالموقف الغامض واللامنطقي الذي اتخذته صحيفة «فولكسشتات» الناطقة بلسان جناح ايزناخ في ليبزيغ في الأسابيع الأولى للحرب، إذ احتدم النزاع نتيجة لذلك بين هيئة التحرير، أي ليبكنشت،وبين لجنة برونزويك التي وجهت نداء إلى ماركس تطلب منه النصح والتأييد.

في 20 تموز، فور نشوب الحرب وقبل امتناع ليبكنشت وبيبل عن التصويت، كتب ماركس إلى انغلز منتقدا «الشوفينية الجمهورية» في فرنسا بحدة قائلا: «حقا يحتاج الفرنسيون إلى هزيمة. ذلك أنه إذا انتصر البروسيون، فسيكون تمركز سلطة الدولة في صالح تمركز الطبقة العاملة. لأن الثقل الألماني إذ ذاك سوف يحول مركز حركة الطبقة العاملة من فرنسا إلى ألمانيا. ويكفي أن يقارن المرء حركة عام 1866 في كلا البلدين ليدرك أن الطبقة العاملة الألمانية متقدمة نظريا وعمليا على الطبقة العاملة الفرنسية. وفي الوقت ذاته، فإن تفوق الألمان على الفرنسيين في الميدان العالمي سيعني أيضا تفوق نظريتنا على نظرية برودون، الخ». وعندما تسلم ماركس نداء لجنة برونزويك اتصل بانغلز، يسأله النصح، كما كان يفعل دائما في المسائل الهامة. وكما حدث عام 1866، كان انغلز هو الذي قرر تفاصيل التكتيك الذي تم تبنيه.

كتب انغلز، في رسالته الجوابية بتاريخ 15 آب يقول: «يبدو الوضع لي كما يلي: لقد أرغم بونابرت ألمانيا على دخول الحرب دفاعا عن وجودها القومي. وإذا انهزمت ألمانيا، فإن البونابرتية ستظل قوية سنين عدة، وستظل ألمانيا ضعيفة مفككة سنوات طويلة وربما أجيالا. وفي مثل هذه الظروف، لا يمكن أن تكون هناك حركة عمالية ألمانية مستقلة. فحينئذ سيمتص النضال لتحقيق وحدة قومية كل الطاقات، وفي أحسن الأحوال سيكون العمال الألمان تحت رحمة الفرنسيين. أما إذا انتصرت ألمانيا فستتحطم البونابرتية وتنتهي في الوقت ذاته المشاحنات الأزلية حول إقامة الوحدة الألمانية، وعندئذ سيكون بمقدور العمال الألمان أن ينظموا أنفسهم على قاعدة أوسع مما سبق، وفي الوقت ذاته سيتمتع العمال الفرنسيون بقدر من حرية الحركة أعظم بكثير مما كان لهم في عهد البونارتية مهما كانت هوية الحكومة التي ستخلفها. لقد أدركت الجماهير الألمانية الواسعة بكل طبقاتها أن وجود ألمانيا القومي أصبح مهددا بالخطر، ولذلك هبت جميعها على الفور لتأدية واجبها. واعتقد أن من المستحيل في هذه الظروف أن يدعو حزب سياسي ألماني إلى عرقلة التشريعات البرلمانية عرقلة تامة على طريقة فيلهلم (ليبكنشت)، واضعا كل صنوف الاعتبارات الثانوية فوق المسألة الأساسية».

وأدان انغلز بعنف، مثل ماركس، الشوفينية الفرنسية التي أصبح أثرها ملموسا بعمق حتى في صفوف مختلف الفئات الجمهورية: «لم يكن باستطاعة بونابرت على الإطلاق أن يبدأ هذه الحرب لولا شوفينية الجماهير الفرنسية، شوفينية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة والفلاحين وبروليتاريا البناء التي خلقها بونابرت في المدن الكبيرة، والتي يتحدر أفرادها أساسا من أصول فلاحية. إن السلام بين فرنسا وألمانيا سيظل مستحيلا ما لم تسحق هذه الشوفينية سحقا كاملا. ربما كان المرء يتوقع في الماضي أن تتكفل ثورة بروليتارية بمثل هذا العمل، أما الآن وقد بدأت الحرب، فلم يعد أمام الألمان بديل غير أن يقوموا هم أنفسهم بهذه المهمة وفي الحال».

كانت «الاعتبارات الثانوية»، أي القول بأن الحرب قد أعدها بسمارك وشركاءه وأن الانتصار الألماني من شأنه أن يضفي عظمة على نظام بسمارك، ناجمة عن هزال البرجوازية الألمانية. لقد كان الأمر كريها كله، ولكن لم يكن بالإمكان فعل شيء حياله: «أما أن ترتفع مناهضة البسماركية بسبب ذلك لتصبح مبدءا هاديا فأمر غير معقول. أولا لأن بسمارك يؤدي قسطا من عملنا، تماما كما حدث عام 1866. إنه يقوم بذلك على طريقته الخاصة ودون رغبة منه، ولكنه مع ذلك يفعله. إنه يؤمن لنا مجالا أرحب مما كان لدينا من قبل. ثم غننا لم نعد نعيش في عام 1815، إذ يقوم يتحتم الآن على الألمان الجنوبيين أن يدخلوا الرايشتاغ، فبدخولهم تصبح هناك قوة مضادة لبروسيا... وعلى أية حال، فإن رغبة ليبكنشت في أن يعيد مجرى التاريخ إلى عام 1866، لان ما حدث بعد ذلك لا يعجبه، مجرد هراء. ولكننا بذلك نتعرف على نموذج ألماننا الجنوبيين».

ويعود انغلز في الرسالة مرة أخرى لسياسة ليبكنشت: «إن حجة فيلهلم مضحكة، فهو يقول أنه ما دام بسمارك قد تواطأ مرة مع بونابرت، فالموقف السليم إذن هو الحياد. ولو ساد هذا الرأي ألمانيا لتوجب علينا أن نبعث رابطة الراين من جديد، وعندئذ سينهمك فيلهلم النبيل في البحث عن دور يلعبه فيها، هذا بغض النظر عن حركة الطبقة العاملة. إن الخرقة المناسبة لتفصيل ثورة اجتماعية في مثل دويلات فيلهلم المحببة هذه هي شعب لم يعتد إلا على تلقي الضربات والركلات! ومن البديهي أن فيلهلم يعتمد على انتصار بونابرت ليصفي حسابه مع بسمارك. ألا تذكر كيف كان يهدده دوما بالفرنسيين. وبالطبع فأنت تقف إلى جانب فيلهلم». أضاف انغلز عبارته الأخيرة هذه متهكما، إذ كان ليبكنشت قد صرح بأن ماركس يتفق معه ومع بيبل في امتناعهما عن التصويت على اعتماد الحرب.

اعترف ماركس بأنه عبر عن موافقته على «بيان» ليبكنشت. فقد حدث ذلك في «لحظة» تعتبر فيها إثارة الاعتراضات من أجل المبادئ «عمل شجاعة»، ولكن يجب أن لا يستنتج من ذلك أن هذه اللحظة ستستمر، أو أن موقف البروليتاريا في حرب أصبحت حربا وطنية يمكن أن يتلخص بكراهية ليبكنشت لبروسيا. لقد كان لدى ماركس سببا وجيها للإشارة إلى «البيان» وليس إلى الامتناع عن التصويت ذاته. ففي حين وقف اللاساليون مع جوقة الأكثرية البرجوازية يصوتون إلى جانب اعتمادات الحرب دون أن يؤكدوا موقفهم الاشتراكي بشكل ما، اصدر ليبكنشت وبيبل بيانا أوضحا فيه أسباب امتناعهما عن التصويت. ولم يكتفيا بإيراد أسباب موقفهما فحسب، ولكنهما «كجمهوريين اشتراكيين وكعضويين في الأممية التي ناضلت ضد جميع المضطهدين أيا كانت جنسيتهم وسعت لتوحيد المضطهَدين في تحالف أخوي» أضافا احتجاجا

مبدئيا ضد الحرب وضد كل حروب الأسر المالكة، وعبرا عن الأمل في أن تتعظ شعوب أوروبا من تجاربها الحالية المدمرة، لتفعل كل ما باستطاعتها لانتزاع حقها في تقرير المصير والتخلص من العسكرية القائمة ومن الحكم الطبقي الذي يقف وراء جميع شرور الدول وجميع المآسي الاجتماعية. وبالطبع، كان ماركس راضيا تماما عن هذا «البيان» الذي رفع علم الأممية بكل تحد ووضوح لأول مرة في تاريخ وفي برلمان أوروبي وفي قضية ذات أهمية تاريخية على المستوى العالمي.

إن اختيار ماركس للكلمات هو الذي يبين أن موافقته كانت تنحصر في البيان فقط. فالامتناع عن التصويت لم يكن بحد ذاته «اعتراضا في سبيل المبادئ» بقدر ما كان مساومة. ففي الواقع كان ليبكنشت يعتزم التصويت صد الاعتماد، غير أن بيبل أقنعه بتغيير موقفه والامتناع عن التصويت. أكثر من ذلك، لم يكن الامتناع عن التصويت، كما بينت صحيفة «فولكسشتات» في مختلف أعدادها، عملا يحدد سياستهما فيما يتعلق بتلك «اللحظة» فقط. وأخيرا فإن ذلك لم يكن «عمل شجاعة» بمعنى أنه كان يتضمن بحد ذاته تبريره الخاص به. ولو أن ماركس استخدم تعبير «عمل شجاعة» بهذا المعنى، لتوجب عليه أن يوجه قدرا اكبر من المديح إلى تيير الذي وقف في البرلمان الفرنسي يهاجم الحرب بعنف، على الغرم من أن مماليك الإمبراطورية الثانية ثاروا عليه وأغرقوه بأقذع الشتائم، أو كان عليه أن يمتدح الديمقراطيين البرجوازيين أتباع فافر-جريفي الذين لم يمتنعوا عن التصويت فحسب بل رفضوا صراحة منح الاعتمادات، هاذ مع العلم أن عاصفة الحماسة الوطنية لم تكن في باريس أقل عنفا مما كان عليه في برلين.

يمكن تلخيص الاستنتاج الذي توصل إليه انغلز، عبر تقديره للوضع، بصدد سياسة الطبقة العاملة الألمانية كما يلي: أن تنضم للحركة الوطنية طالما اقتصرت هذه على الدفاع عن ألمانيا (وذلك لا يستثني في ظروف معينة شن حملة هجومية حتى يتم توقيع السلام)، وأن تؤكد على الفرق بين المصالح الوطنية الألمانية وبين مصالح الأسرة البروسية المالكة، وأن تعارض أي اقتطاع للالزاس واللورين، وأن تتعاون فورا مع أية حكومة جمهورية تخلف الحكومة الشوفينية في باريس من أجل تحقيق سلام مشرف، وأن تؤكد دوما على وحدة مصالح العمال الفرنسيين والألمان، الذين لم يؤيدوا الحرب والذين لم يكونوا يقاتلون بعضهم بعضا.

أعلن ماركس أنه يتفق تماما مع هذا التحديد، وضمن ذلك رده الذي بعث به إلى لجنة برونزويك.

2-بعد سيدان

كان الوضع قد تغير تماما قبل أن يكون بمقدور لجنة برونزويك الاستفادة عمليا من النصيحة التي بعث بها ماركس من لندن. فقد وقعت معركة سيدان، وأخذ بونابرت أسير حرب، وتحطمت الإمبراطورية الثانية، وأعلنت في باريس جمهورية برجوازية ونصب نواب العاصمة الفرنسية السابقون أنفسهم على رأس الجمهورية معلنين من أنفسهم «حكومة دفاع وطني».

ومن هنا كفت الحرب عن أن تكون حرب دفاع وطني فيما يتعلق بالألمان. فقلد كان ملك بروسيا، بوصفه زعيم الجامعة الألمانية الشمالية يكرر بوقار أنه لا يخوض الحرب ضد الشعب الفرنسي بل ضد حكومة الإمبراطور الفرنسي، كما أن الحكام الجدد في باريس أعلنوا عن استعداداهم لدفع أي مبلغ من المال تعويضا عن الخسائر الألمانية. ومع ذلك طالب بسمارك فرنسا بتقديم تنازلات إقليمية واستمر في الحرب مستهدفا الاستيلاء على الالزاس واللورين، متجاهلا أنه بذلك يحول ادعاء ألمانيا بأنها تخوض حربا دفاعية إلى مهزلة.

أصبح بسمارك يسير على خطى نابليون بعمله هذا وبترتيبه استفتاء كان الهدف منه تحرير ملك بروسيا من تعهداته الوقور. فحتى عشية سيدان، اصدر «ذوو الشأن» من مختلف الأصناف بيانات عامة موجهة إلى الملك تطالب «بحدود آمنة». فأحدثت «الإرادة الاجتماعية للشعب الألماني» هذه في نفس السيد العجوز أثرا بالغا جعله يكتب إلى أسرته في السادس من أيلول قائلا: «إن البيوتات الحاكمة ستجازف بعروشها إذا هي قاومت مثل هذه المشاعر ، وفي 14 أيلول أعلنت صحيفة «بروفنشال كروسبونددنز» شبه الرسمية بأنه «مطلب ساذج وغير معقول» ذلك الذي يقول أن على زعيم الجامعة الشمالية الألمانية الالتزام بتعهدات أطلقها علنا وبملء إرادته! ولكي تدعم السلطات «الإرادة الاجماعية للشعب الألماني» لجأت إلى سحق كل معارضة وبدون رحمة. ففي الخامس من أيلول، أصدرت لجنة بونزيك نداء يدعو الطبقة العاملة للتظاهر من أجل سلام مشرف مع الجمهورية الفرنسية وضد ضم الازاس واللورين، وتضمن النداء فقرات من الرسالة التي كان ماركس قد أرسلها إلى اللجنة. فما كان من السلطات العسكرية إلا أن قامت في التاسع من أيلول باعتقال الذين وقعوا على النداء واقتادتهم مقيدين بالأغلال إلى قلعة لوتزن. كذلك أودع جوهان جاكوبي المكان ذاته سجينا لأنه احتج أثناء اجتماع عقد في كونيفسير على ضم أراض فرنسية، وطرح رأيا مهرطقا إذ قال: «منذ أيام كنا نخوض حربا دفاعية، حربا مقدسة من أجل وطننا الحبيب، أما اليوم فقد أضحت حربا من أجل الغزو، حربا لتحقيق هيمنة الجنس الجرماني على أوروبا». وفي الوقت ذاته تعاظمت موجة من القمع والمصادرة والتفتيش والاعتقال لتكمل حكم الإرهاب العسكري الذي كان يهدف إلى جعل «الإرادة الاجماعية للشعب الألماني» فوق كل الشكوك.

وفي اليوم الذي تم فيه اعتقال أعضاء لجنة بروزنويك، اصدر المجلس العام للأممية ثانية بيانا أعده ماركس وساهم فيه انغلز حول الوضع الجديد. وأشار المجلس في بيانه إلى السرعة التي تحققت بها نبوءته بأن الحرب سوف تدق ناقوس موت الإمبراطورية الثانية، وإلى السرعة التي تأكدت بها شكوكه حول المدى الذي ستظل فيه هذه الحرب حربا دفاعية بالنسبة لألمانيا. لقد قررت الزمرة العسكرية البروسية أن تخوض حربا غازية. ولكن كيف تسنى لها أن تحل ملك بروسيا من تعهداته الوقور فيما يتعلق بالحرب الدفاعية؟ «كان على الأيدي القابضة على زمام الأمور أن تظهره وكأنه إنما ينصاع لمطلب عام تقف وراءه الأمة الألمانية بأسرها، وعلى الفور أعطت الإشارة للطبقة الوسطى الليبرالية الألمانية بأساتذتها ورأسمالييها وسياسييها ورجال صحافتها. الطبقة الوسطى ذاتها التي أظهرت ما لا مثيل له من التردد والعجز والجبن أثناء النضال من أجل الحرية المدنية في الفترة ما بين 1846 و1870، هذه الطبقة ابتهجت أيما ابتهاج بالفرصة التي تمكنها من الظهور على

المسرح الأوروبي في دور أسد الوطنية الألمانية المزمجر. لقد قبلت أن تظهر بمظهر المستقل كي تدعي أنها تضغط على الحكومة البروسية لقبول شيء ما –لقبول ماذا؟ لقبول الخطط السرية للحكومة البروسية لا أكثر ولا أقل. لقد كفرت عن إيمانها الطويل، الذي كاد يكون إيمانا دينيا، ببونابرت بأن رفعت عقيرتها مطالبة بتجزئة الجمهورية الفرنسية».

وبعد ذلك فند البيان «الأعذار المقبولة ظاهريا» التي قدمها «هؤلاء الوطنيون الأشداء» لضم الالزاس واللورين. فهم لم يجرأوا على الادعاء بأن أهالي هاتين المقاطعتين يتحرقون شوقا إلى أحضان ألمانيا، ولكنهم أشاروا إلى أن المنطقة التي تقوم عليها هاتان المقاطعتان كانت في الزمن الغابر جزءا من الإمبراطورية الألمانية المندثرة. «فإذا كانت خريطة أوروبا سيعاد تخطيطها طبقا للحقوق التاريخية القديمة لتوجب علينا أن لا ننسى أن حاكم مقاطعة براندنبرغ الآن كان في إحدى الفترات تابعا للجمهورية البولندية بقدر ما كان الأمر يتعلق بممتلكاته البروسية».

وأضاف البيان أن «الكثيرين من ذوي العقول الضيقة» ضللوا بالقول أن «الوطنيين الدهاة» طالبوا بالالزاس واللورين «كضمانة مادية» ضد أي هجوم فرنسي في المستقبل. ثم أوضح البيان بموضوعة علمية عسكرية، كانت مساهمة انغلز فيه، أن ألمانيا لم تكن بحاجة إلى هذه التقوية في حدودها ضد فرنسا كما بينت ذلك بوضوح تجربة الحرب الحالية: «إذا كانت الحملة الحالية قد برهنت شيئا، فإنها برهنت سهولة مهاجمة فرنسا من جهة ألمانيا». ولكن ألم يكن جعل الاعتبارات العسكرية أساسا لتحديد الحدود الوطنية سخافة ومفارقة؟ «ففي حال إقرار مثل هذا المبدأ سيكون للنمسا الحق في امتلاك مقاطعة البندقية وخط مينشيو، كما سيكون من حق فرنسا المطالبة بالراين حماية لباريس التي هي بالتأكيد أكثر عرضة للهجوم عليها من الشمال الغربي أكثر مما هي برلين عرضة له من الجنوب الغربي. وإذا ما أصبحت الحدود الوطنية محكومة للاعتبارات العسكرية، فلن تكون هناك نهاية للمطالب العديدة التي ستنشأ تباعا، لأن أي وضع عسكري سيجد نفسه بالضرورة يعاني من ضعف في مكان ما تمكن تقويته بالاستيلاء على المزيد من الأراضي. وأخيرا فإن حدودا توضع بهذه الطريقة لن تكون نهائية أبدا لسبب بسيط هو أنها ستكون دوما حدودا يفرضها المنتصرون على المقهورين، ولذا فإنها ستحمل في أحشائها بذور حروب جديدة».

وأعاد البيان إلى الأذهان «الضمانات المادية» التي كان نابليون قد حصل عليها في صلح تلست. ومع ذلك لم تمض سوى سنوات قلائل حتى انهارت قوته الجبارة كخشبة نخرة أمام هجمة الشعب الألماني. «وما هي الضمانات التي يمكن لبروسيا أن تفرضها أو تتجرأ على فرضها على فرنسا حتى في أكثر أحلامها تطرفا قياسا بتلك الضمانات التي كان نابليون قد فرضها على بروسيا؟ أن النتيجة لن تكون أقل شؤما هذه المرة».

أعلن المتحدثون باسم الوطنية الألمانية أن على المرء أن لا يخلط بين الألمان والفرنسيين. فالألمان أرادوا الأمن ولم يسعوا وراء مجد عسكري لأنهم شعب محب للسلام بطبيعته. فأجاب البيان ساخرا: «لم تكن ألمانيا، بالطبع، هي التي غزت فرنسا عام 1792 لهدف نبيل هو تحطيم ثورة القرن الثامن عشر بالحراب. الم تكن ألمانيا هي التي لطخت يديها بإخضاع ايطاليا وقهر هنغاريا وتجزئة بولندا؟ إن نظام بروسيا العسكري الحالي الذي يقسم كل ذكور الأمة البالغين اللائقين جسديا قسمين-جيش يحمل السلاح وآخر يقضي إجازته- يتميز كل منهما بالطاعة العمياء لأوامر الحاكم بأمر الله، إن نظاما عسكريا كهذا يشكل بالطبع «ضمانة مادية» للسلام العالمي، بل ولأسمى أهداف المدنية أيضا! وفي ألمانيا، كما في كل الدول الأخرى، يعمل عملاء السلطة على تسميم الرأي العام بإثارته وإطرائه بالمدائح الكاذبة. إنهم يستشيطون غضبا عند رؤيتهم للتحصينات الفرنسية حول ميتز وستراسبورغ –هؤلاء الوطنيون الألمان- ولكنهم لا يرون ضررا في التحصينات الروسية الهائلة حول وارسو ومودلين وايفانغو رود. إنهم يرتعدون لمجرد التفكير بهجوم بونابرتي، بينما يغمضون أعينهم عن فضيحة الحماية القيصرية».

ثم أعلن البيان مكملا هذه السلسة من الأفكار أن ضم الالزاس واللورين سيدفع الجمهورية الفرنسية إلى الارتماء في أحضان القيصرية. فهل كان دعاة الجرمانية يعتقدون فعلا أن هذا سيؤمن أية ضمانة لسلام ألمانيا وحريتها؟ «وإذا ما انخدعت ألمانيا بغنائم الحرب وتيه النصر ومكائد الأسرة المالكة واستولت على أراض فرنسية فلن يبقى أمامها سوى طريقتين: أما أن تستسلم لكونها الأداة الطيعة للتغلغل الروسي مهما تكن النتيجة، أو أنه سيتوجب عليها أن تعد نفسها، بعد أن تلتقط أنفاسها، لحرب «دفاعية» جديدة، حرب ليست من طراز الحروب «المحلية» بل حرب عنصرية ضد القوى الموحدة للشعوب السلافية واللاتينية-الحديثة».

إن الطبقة العاملة الألمانية، لتي لم تكن تستطيع أن تحول دون الحرب، أيدت هذه الحرب بكل قوة على أنها حرب في سبيل الاستقلال الألماني ومن أجل خلاص ألمانيا وأوروبا من نير الإمبراطورية الثانية الثقيل. «لقد كان العمال الصناعيون والزراعيون الألمان هم الذين شكلوا العمود الفقري للجيوش البطولية، مخلفين وراءهم عائلاتهم تتضور جوعا». وبعد الهلاك الذي لحق بهم في ميدان القتال كان عليهم أن يواجهوا الهلاك من جديد، يلحق بهم البؤس والشقاء في بيوتهم. ولقد طالبوا، بعد هذا كله، بضمانات تكفل لهم أن لا تذهب التضحيات الجسام التي قدموها سدى، طالبوا بالحصول على حريتهم، وبأن لا تتحول الانتصارات التي أحرزوها على جيوش بونابرت إلى هزيمة للشعب كما حدث عام 1815. وعلى رأس الضمانات التي أرادوا كان مطلب «السلام المشرف مع فرنسا» و«الاعتراف بالجمهورية الفرنسية». وأشار البيان إلى النداء الذي أصدرته لجنة برونزويك قائلا أنه لا يمكن لسوء الحظ التحدث عن أي نجاح مباشر أحرزه هذا النداء، إلا أن التاريخ مع ذلك لا بد أن يذكر أن الطبقة العاملة الألمانية لم تكن من الطينة المطواعة ذاتها التي جبلت عليها الطبقة الوسطى الألمانية. لقد قامت الطبقة العاملة بواجبها.

وبعد ذلك، وجه البيان اهتمامه إلى الجانب الفرنسي، فبين أن الجمهورية لم تقم بقلب العرش، ولكنها احتلت المقعد الشاغر فحسب، وأنها لم تعلن على أنها انجاز اجتماعي بل على أنها إجراء للدفاع الوطني. كانت الجمهورية بيد حكومة مؤقتة تتألف من عناصر سيئة الصيت من آل اورليان ومن عناصر جمهورية برجوازية بينها عدد أصيب بوصمة عار لا تمحى بسبب موقفه من انتفاضة تموز عام 1848. ولم يكن توزيع الحقائب الوزارية يبشر بالخير. فقد حصل الاورليانيون على المراكز الأقوى –الجيش والبوليس- بينما تسلم الجمهوريون المزعومون المراكز

التي تتطلب سوى الكلام. كما أن الأعمال الأولى التي قامت بها الحكومة الجديدة برهنت أنها لم ترث عن الإمبراطورية الثانية أكوام حطام فحسب، بل ورثت عنها أيضا خشيتها من الطبقة العاملة.

«وهكذا تجد الطبقة العاملة الفرنسية نفسها في وضع صعب للغاية. فأي محاولة للإطاحة بالحكومة الجديدة والعدو يتربص على الأبواب لن تكون سوى حماقة يائسة. إن على العمال الفرنسيين أن يقوموا بواجبهم كمواطنين صالحين، ولكنهم يجب أن لا يجعلوا من أنفسهم فريسة لذكريات عام 1792 الوطنية مثلما خدع الفلاحون الفرنسيون بالذكريات الوطنية الإمبراطورية الأولى. إن عليهم أن لا يكرروا الماضي بل أن يبنوا المستقبل. فليستخدموا بهدوء وتصميم الوسائل التي توفرها لهم الحرية في ظل الجمهورية كي ينظموا صفوف طبقتهم على أكمل وجه. ولسوف يؤمن لهم ذلك قوة جبارة لإحياء فرنسا، ولمهمتنا المشتركة ألا وهي تحرير البروليتاريا. إن مصير الجمهورية يتوقف على قوتهم وعلى حكمتهم».

كان لهذا البيان صدى عميق في أوساط العمال الفرنسيين، فتخلوا عن مقارعة الحكومة المؤقتة وقاموا بواجبهم كمواطنين صالحين، خاصة بروليتاريا باريس التي انتظمت في الحرس الوطني ولعبت دورا بارزا في الدفاع البطولي عن العاصمة الفرنسية، ولكنها لم تجعل ذكريات عام 1792 الوطنية تعمي بصيرتها، بل عملت بحماسة شديدة على تنظيم نفسها كطبقة. وكذلك اثبت العمال الألمان أنهم ليسوا أقل قدرة على القيام بمهمتهم. فبرغم التهديد والاضطهاد، وقف اللاساليون والايزناخيون يطالبون بعقد سلام مشرف مع الجمهورية الفرنسية. ولما اجتمع رايشتاغ شمال ألمانيا في كانون الأول ليصوت على اعتمادات جديدة للحرب، وقف الممثلون البرلمانيون للجماعتين بحزم وصوتوا ضد أية اعتمادات جديدة، وقد قاد ليبكنشت وبيبل بوجه خاص هذا النضال بحماسة متفجرة وشجاعة متحدية، ولهذا السبب وحده يعزي الفضل في ذلك إليهما بصورة رئيسية، وليس بسبب امتناعهما عن التصويت في تموز كما تردد أسطورة الشائعة. وعند انتهاء دورة الرايشتاغ وجهت إلى كل منهما تهمة الخيانة العظمى.

خلال الشتاء، أصبح ماركس مثقلا بأعباء العمل من جديد. ففي آب أرسله الأطباء إلى الساحل، ولكن بردا قارسا «أوقعه طريح الفراش»، وفي نهاية الشهر عاد إلى لندن دون أن يطرأ على صحته أي تحسن. ومع ذلك، كان عليه أن يقوم بجميع المراسلات الدولية للمجلس العام للأممية، إذ كان العدد الأكبر ممن يقومون بهذه المراسلات قد ذهب إلى باريس. وفي رسالة بعث بها إلى صديقه كوغلمان في 14 أيلول، شكى ماركس من أنه لا يستطيع أن يأوي إلى فراشه قبل الثالثة صبحا، ولكنه عبر عن أمله في الحصول على بعض الراحة في المستقبل لأن انغلز أصبح يقيم الآن في لندن بصورة دائمة.

كان ماركس يأمل بلا شك أن تتمكن الجمهورية الفرنسية من خوض مقاومة ناجحة ضد حرب الغزو البروسية. فقد كانت الأحوال في ألمانيا تملؤه مرارة، وقد كتب إلى كوغلمان في 13 كانون الأول يقول: «يبدو أن ألمانيا لم تلتهم بونابرت وجنرالاته وجيشه فحسب، بل التهمت كذلك النظام الامبريالي كله، الذي يتحرك الآن بملء حريته في بلاد البلوط والزيزفون». ويشير ماركس في هذه الرسالة بارتياح واضح إلى أن الرأي العام في انجلترا، الذي كان في البداية مغاليا في تأييده لبروسيا، قد تحول الآن إلى نقيض ذلك تماما. فعدا عن التعاطف الحاسم لجماهير الشعب مع الجمهورية «أدت الطريقة التي خاض بها الألمان الحرب –نظام السخرة وإحراق القرى وإعدام المتطوعين المدنيين الفرنسيين واحتجاز الرهائن، وما شابه ذلك من أعمال تعيد إلى الذهن حرب الثلاثين عاما- قد سببت سخطا عاما. لقد فعل الانجليز ولا شك الشيء ذاته في الهند وجامايكا وغيرهما، ولكن الفرنسيين ليسوا هندوسا ولا صينيين ولا زنوجا، كما أن البروسيين ليسوا انجليزا مرسلين من السماء. إنها لفكرة هوهنزلرنية نموذجية تلك التي تقول أن شعبا يستمر في الدفاع عن نفسه بعد أن يتحطم جيشه إنما يقوم بارتكاب جريمة». ولقد عانى فريدريك ويليام الثالث من هذه الفكرة ذاتها أثناء الحرب البروسية ضد نابليون الأول.

اعتبر ماركس تهديد بسمارك بقصف باريس «مجرد خدعة». «إن عملا كهذا، واستنادا إلى جميع قوانين الاحتمالات، لن يؤدي إلى تأثير فعلي على باريس. فعلى فرض أن عددا من التحصينات قد دمر وأن عددا من الثغرات قد فتح- فما نفع ذلك إذا كان المحاصرين يفوقون من يحاصرونهم عددا؟ إن الوسيلة الوحيدة لإخضاع باريس هي تجويعها». إنها لصورة طريفة بالفعل: فهذا «الرجل الذي لا وطن له» والذي لم يدع أية معرفة علمية بالمسائل العسكرية يصف تهديد بسمارك بقصف باريس بأنه «مجرد خدعة» للسبب ذاته الذي جعل جميع الجنرالات الألمان البارزين، باستثناء الجنرال رون، يدينون هذه الخطة على أنها «مغامرة طائشة لا يأتيها غير تلامذة كلية عسكرية» وذلك في مناقشات سرية حامية استغرقت أسابيع عدة في القيادة الألمانية العليا، بينما جعل أفراد معسكر الأساتذة ورجال الصحافة الوطنيين جميعا أنفسهم ألعوبة بيد عملاء بسمارك الذين دفعوهم إلى نوبة غضب أخلاقي ضد ملكة بروسيا وزوجة ولي العهد على أساس أنهما منعتا زوجيهما البطلين المسكينين من قصف باريس، أما لأسباب عاطفية أو ربما بسبب الخيانة الوطنية.

وعندما أعلن بسمارك متحذلقا أن الحكومة الفرنسية تحول دون حرية الرأي في الصحافة والبرلمان، أجاب ماركس في «الدايلي نيوز» يوم 16 كانون الثاني 1871 على «فكاهة برلين هذه» واصفا بسخرية لاذعة النظام البوليسي الذي يكمم فم ألمانيا. وأنهى مقالته بالكلمات التالية: «إن فرنسا، ومما يفرح أن قضيتها لم تعد معرضة للضياع، لا تقاتل هذه اللحظة من أجل استقلالها الوطني فحسب، بل أيضا من أجل حرية ألمانيا وحرية أوروبا». عن هذه الجملة تلخص موقف ماركس وانغلز من الحرب الفرنسية-البروسية بعد سيدان.

3-«الحرب الأهلية في فرنسا»

استسلمت باريس في 28 كانون الثاني. ونصت الاتفاقية التي عقدت بين بسمارك وجول فافر لتحديد شروط الاستسلام صراحة على احتفاظ حرس باريس الوطني بأسلحته.

أسفرت انتخابات الجمعية الوطنية عن فوز أكثرية ملكية-رجعية قامت بعد ذلك بانتخاب المخادع العجوز تيير رئيسا للجمهورية. وبعد تبني الجمعية الوطنية لخطوات السلام التمهيدية- التخلي عن الالزاس واللورين ودفع خمسة مليارات فرنك كتعويض حربي- أصبح هم تيير الأول أن يجرد باريس من السلاح، ذلك أن باريس وهي تحمل السلاح كانت بمثابة الثورة في نظر البرجوازي العريق، تيير، ونظر ملاك الأراضي الرجعيين.

وفي 18 آذار، حاول تيير أن يستولي على بنادق الحرس الوطني باسم ادعاء كاذب هو أنها ملك للدولة، على الغرم من أن هذه البنادق كانت قد صنعت أثناء الحصار على نفقة الحرس الوطني، وعلى الرغم من أن اتفاقية 28 كانون الثاني كانت قد اعترفت بأن هذا السلاح ملك للحرس الوطني. قوبلت المحاولة بالمقاومة، وقامت الفرق العسكرية التي اختيرت للقيام بالانقلاب بالانحياز إلى الشعب. وبذلك بدأت الحرب الأهلية. ففي 26 آذار انتخبت باريس العامية (الكومونة) ذات التاريخ الغني بالبطولة والتضحيات التي سطرها عمال باريس، وكذلك بالجبن والوحشية والخسة التي اقترفتها جميعا أحزاب القانون والنظام في فرساي.

وليس هناك ما يدعو إلى التأكيد على الاهتمام المتحرق والتعاطف الذي كان ماركس يتتبع به تطور تلك الأحداث. ففي 12 نيسان كتب إلى كوغلمان: «أية عزيمة صلبة وأية بادرة تاريخية وأية تضحية بالذات، تلك التي يبديها هؤلاء الباريسيون! فبعد ستة أشهر من الجوع والتدمير أحدثتها الخيانة الداخلية أكثر مما تسبب فيها العدو الخارجي، يثور هؤلاء وكأنه لم تكن هناك حرب بين فرنسا وألمانيا، وكأن الحراب البروسية ليست موجودة، وكأن العدو لا يرابط على الأبواب. إن التاريخ لا يمكن أن يقدم لهذه العظمة مثيلا!» أما إذا هزم الباريسيون، فسوف يكون ذلك بسبب «طبيعتهم الطيبة». لقد كان عليهم أن يزحفوا فورا إلى فرساي بعد أن رأوا الجنود والفئة الرجعية من الحرس الوطني يتركون ميدان القتال، ولكن ضميرهم الحي جعلهم يحجمون عن إشعال الحرب الأهلية. وكأن الجهيض تيير لم يكن قد بدأها فعلا بمحاولته تجريد باريس من السلاح! ولكن حتى لو هزم الباريسيون فإن انتفاضتهم ستكون أعظم انجاز حققه حزبنا منذ ثورة حزيران. «فلتقارن هؤلاء الجبابرة مع عبيد الإمبراطورية الرومانية المقدسة البروسية الألمانية، بحفلاتها التنكرية التي ما زالت قائمة حتى الآن تعج بالهواء الفاسد ينبعث من العنابر والكنائس والظلامية الريفية، وفوق ذلك كله من الفلستية».

عندما أشار ماركس إلى عامية باريس على أنها انجاز «لحزبنا» فإنه كان محقا في ذلك بمعنى عام هو أن الطبقة العاملة الباريسية كانت تشكل العمود الفقري للعامية، وبمعنى خاص هو أن الأعضاء الباريسيين في الأممية كانوا من أشجع وأقدر المقاتلين من أجل العامية على الرغم من أنهم كانوا ممثلين بعدد قليل في مجلسها. كانت الأممية قد أصبحت شهيرة على أنها السبب في جميع متاعب البرجوازية، فصارت الطبقات الحاكمة في كل البلدان تحملها مسؤولية جميع الأعمال التي لا ترضيها. ولذا كان طبيعيا أن تعتبر البرجوازية مكائد الأممية مسؤولية عن عامية باريس أيضا. والغريب في الأمر أن إحدى الصحف التابعة لشرطة باريس حاولت أن تبرئ «المسؤول الأول» في الأمية من أية مسؤولية. فنشرت في 19 آذار رسالة زعمت أنها موجهة منه إلى فصائل باريس يوبخهم فيها لأنهم يركزون اهتمامهم على المسائل السياسية ولا يعبرون المسائل الاجتماعية سوى القليل من الاهتمام. وعلى الفور بعث ماركس رسالة إلى «التايمز» اللندنية واصفا هذه الوثيقة بأنها «تزييف وقح».

كان ماركس يعرف أكثر من أي إنسان آخر أن الأممية لم تكن هي التي أقامت العامية، ولكنه منذ اللحظة الأولى اعتبرها صنو الأممية بلحمها ودمها. غير أنه اعتبرها كذلك بالطبع على أساس أن روح برنامج ومبادئ الأممية تعتبر جميع الحركات العمالية على تحرير البروليتاريا منتمية إلى الأممية. فلا الأكثرية البلانكية في مجلس العامية، ولا الأقلية التي كانت رغم انتسابها للأممية خاضعة كليا لأفكار برودون، يمكن اعتبارها من مؤيدي ماركس المباشرين. ولقد ظل ماركس خلال فترة العامية على اتصال بهذه الأقلية قدر ما كان الوضع يسمح بذلك، ولكن الدلائل المتبقية على ذلك محدودة جدا لسوء الحظ.

كتب ليوفرانكل، أحد مندوبي دائرة الأشغال العامة في مجلس العامية، في 25 نيسان ردا على رسالة من ماركس لم يحتفظ بها، قائلا: «سأكون في غاية السرور إذا ساعدتني بنصيحتك بقدر ما يمكن، لأنني في هذه اللحظة مسؤول مسؤولية كاملة في الواقع عن كل الإصلاحات التي ينوي إحداثها في دائرة الأشغال العامة. إن السطر والسطرين الأخيرين في رسالتك السابقة يشيران إلى أنك ستفعل كل ما يمكنك لجعل جميع الشعوب وجميع العمال، والألمان منهم على الأخص، يفهمون أنه ليس هناك من شيء مشترك بين عامية باريس وبين البلديات الألمانية التي أكل الدهر عليها وشرب. ولسوف تؤدي بعملك هذا خدمة جليلة لقضيتنا في هذا المجال». إلا أننا لا نملك أي دليل حول ما إذا كان ماركس قد أجاب على رسالة فرانكل أو قدم له أية نصيحة.

كذلك فقدت رسالة بعث بها فرانكل وفارلان إلى ماركس، ولكن ماركس أجاب عليها في 13 أيار قائلا: «لقد تحدثت إلى ناقل الرسالة. ولكن أليس من الأفضل أن توضع مثل هذه الأوراق المعرضة للخطر من جانب أنذال فرساي في مكان أمين؟ ليس هناك أي ضرر في هذه الإجراءات الاحترازية. لقد تسلمت رسالة من بوردو تقول أن أربعة من أعضاء الأممية فازوا في الانتخابات البلدية الأخيرة فيها. وفي المقاطعات أيضا، بدأت الأمور تتحرك، إلا أن عملهم لسوء الحظ محدود وذو طبيعة مسالمة. أما بخصوص قضيتكم، فقد كتبت مئات الرسائل إلى كل مكان في العالم لنا اتصال به. وعلى أية حال فالطبقة العاملة قد أيدت العامية منذ البداية حتى أن الصحافة الانجليزية البرجوازية تخلت الآن عن عداوتها السابقة. وقد نجحت أحيانا في تسريب مقالات مؤيدة إلى صفحاتها. يبدو لي أن العامية تضيع كثيرا من الوقت في تفاصيل غير مهمة وفي نزاعات شخصية. ومن الواضح أن هناك تأثيرات أخرى غير تأثيرات البروليتاريا. إلا أن ذلك كله لن يكون له أي أثر إذا استطعتم أن تعوضوا عن الوقت الضائع». وفي النهاية أشار ماركس إلى ضرورة التحرك السريع بالنظر إلى أن معاهدة السلام النهائية بين ألمانيا وفرنسا وقعت في فرانكفورت قبل ثلاثة أيام، مما يجعل لبسمارك الآن مصلحة تيير ذاتها في قمع العامية، خاصة وأن دفع التعويضات الحربية يجب أن يبدأ مع توقيع المعاهدة.

يشعر المرء أن ماركس كان متحفظا في كل نصيحة قدمها في هذه الرسالة، ولا شك في أن كل ما كتبه إلى أعضاء العامية قد صيغ باللهجة ذاتها. ولم يكن ذلك ناجما عن عدم رغبته في تحمل مسؤولية كاملة تجاه كل ما فعلته العامية وكل ما لم تفعله، إذ قام بذلك فور سقوطها وأعلنه على الملأ وبكل التفاصيل، ولكن تحفظه كان يعود إلى عدم ميله إلى لعب دور الدكتاتور وعدم رغبته في أن يملي من بعيد ما يتوجب أن يقوم به من هم في ساحة المعركة، فهم أقدر على رؤية ما يجب وما لا يجب أن يقوموا به.

وفي 28 أيار سقط آخر المدافعين عن الأممية، وبعد ذلك بيومين تقدم ماركس إلى المجلس العام للأممية ببيان حول «الحرب الأهلية في فرنسا» كان من أروع الوثائق التي خطها قلمه، ولا زال حتى يومنا هذا يمثل ذروة سامقة بين الكتابات الضخمة التي نشرت حول العامية. فقد كشف ماركس مرة أخرى في هذه المشكلة الصعبة المعقدة عن قدرته الخارقة على إدراك الجوهر التاريخي لموقف ما وراء القشرة الخادعة لتشوش يبدو غير قابل للحل وفي خضم مئات الإشاعات المتضاربة. وبقدر ما تعرض البيان للوقائع –وهو يصف في أقسامه الأول والثاني والرابع والأخير المجرى الفعلي للأحداث- جاء على الحقيقة في كل حادثة، ولم يحدث أن تعرض للنقض في أية نقطة تفصيلية جاء على ذكرها.

صحيح أن البيان لا يقدم تاريخيا نقديا للعامية، إلا أن ذلك لم يكن هدفه. فقد كتب للدفاع عن شرف العامية بهدف تبرئته من التشويهات التي ألحقها به أعداؤها، ولقد ادى ذلك بشكل باهر. إنه لم يكتب كحكم تاريخي بل كتقييم سجالي. ومنذ ذلك الحين تعرضت نقاط ضعف وأخطاء العامية لنقد عنيف من جانب الاشتراكيين كان قاسيا جدا في بعض الأحيان. أما ماركس فقد اكتفى حينذاك بالتنويه التالي:

«في كل ثروة من الثروات، يبرز في الصفوف الأولى إلى جانب الممثلين الحقيقيين للثورة جماعة تختلف بطبيعتها كليا عن هؤلاء. بعض هؤلاء من بقايا ثورات سابقة ما زالوا مشدودين إليها كليا، فلا يستطيعون فهم الثورة الحالية، ولكنهم بفضل ما اشتهروا به من شجاعة فائقة وشخصية رفيعة، أو ربما بسبب التقليد فحسب يظلون يتمتعون بتأثير كبير على جماهير الشعب. والبعض الآخر مجرد أبواق ظلت سنوات عدة تردد الخطب ذاتها ضد الحكومة القائمة، فاكتسبوا بالمظاهر الكاذبة سمعة كثوريين من الدرجة الأولى. إن مثل هؤلاء الناس ظهروا أيضا على مسرح الأحداث بعد 18 آذار، بل ولعبوا دورا بارزا في بعض الحالات. ولقد عرقلوا قدر ما يستطيعون العمل الحقيقي للطبقة العاملة تماما كما أعاقوا من قبل التطور الكامل للثورات السابقة». ثم أشار البيان على أن هذه العناصر تمثل شرا لا مكن تجنبه، وكان من الممكن إسقاطها خلال فترة من الزمن إلا أن هذه الفترة الضرورية لم تتوفر للعامية.

أما القسم الثالث من البيان، الذي يتناول الطابع التاريخي للعامية، فهو ذو أهمية خاصة. ففيه يكشف ماركس ببصيرة نافذة عن الفارق بين العامية وبين الأشكال التاريخية السابقة التي يمكن أن تبدو شبيهة به –من عاميات العصور الوسطى حتى نظام البلديات البروسي في المدن: «إن عقلية كعقلية بسمارك (ذلك الرجل الذي لو لم يكن أسير مكائده الخاصة، لعاد بسرور إلى عمله القديم كمساهم في تحرير «كلادرا اداتش» فهو أنسب لقدرته العقلية) إن عقلية كهذه فقط يمكن أن تعزو لعامية باريس أي حنين إلى نظام البلديات المديني البروسي الذي يمنح الإدارة المدينية ليحولها إلى مجرد عجلة صغيرة في آلة الدولة البروسية، والذي لا يمثل في الواقع غير كاريكاتور لدستور البلديات الفرنسي القديم لعام 1791». وفي خضم التفسيرات المختلفة للعامية والمصالح المتعددة التي عبرت هذه التفسيرات عنها، أدرك البيان أن العامية كانت شكلا سياسيا قابلا للاتساع بسهولة، بينما كانت جميع الأشكال التي اتخذتها الحكومات في السابق ذات طبيعة استبدادية: «إن سرها الحقيقي يكمن في أنها كانت أساس حكومة الطبقة العاملة، وأنها كانت نتيجة للصراع بين الطبقات المنتجة والطبقات المستغلة، والشكل السياسي النهائي الذي يمكن أن يتحرر العمل اقتصاديا في ظله».

ولم يستطع البيان أن يدعم هذا القول ببرنامج حكومي تفصيلي للعامية، ذلك أن العامية ذاتها لم تتطور إلى هذا الحد، فقد وجدت نفسها منذ يومها الأول وحتى يومها الأخير مرغمة على خوض نضال حياة أو موت ضد أعدائها. ولكن البيان أثبت وجهة نظره اعتمادا على السياسية العملية التي مارستها العامية، تلك السياسية التي كانت تقوم في جوهرها على تحطيم الدولة التي لم تمثل في أكثر أشكالها عهرا (الإمبراطورية الثانية) أكثر من «ورم طفيلي» في الجسم الاجتماعي يمتص قوته ويحول دونه والتطور الحر. فقد ألغت العامية، في أول مرسوم أصدرته، الجيش النظامي واستبدلته بالشعب المسلح. كذلك جردت العامية قوات الشرطة، التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد أداة بيد الحكومة، من جميع وظائفها السياسية وحولتها إلى أداة مسؤولة تجاه العامية. وبعد أن ألغت العامية الأسلحة المادية للحكومة القديمة، أي الجيش النظامي وقات الشرطة، انتقلت إلى تحطيم سلاحها الروحي في القمع، ألأي قوة الاكليروس (رجال الدين). فأصدرت قرارا بحل جميع الكنائس ومصادرة أملاكها بقدر ما كانت هذه هيئات لها ملكيات خاصة، وفتحت المؤسسات العلمية أمام الجميع، وجعلت التعليم فيها مجانيا وحررتها من أي تدخل من جانب الدولة أو الكنيسة. وأخيرا اقتلعت العامية بيروقراطية الدولة القديمة من الجذور إذ أخضعت جميع رسميي الدولة، بما في ذلك القضاة، للانتخاب والعزل في أية لحظة، وجعلت الحد الأقصى لرواتب موظفي الدولة ستة آلاف فرنك.

عالج البيان هذه التفاصيل بطريقة بارعة. ولكن كان هناك بعض التناقض بين ما جاء في البيان وبين الآراء التي اعتنقها ماركس وانغلز منذ ربع قرن وطرحاها في البيان الشيوعي. فقد قالا حينذاك أن النتائج النهائية للثورة البروليتارية القادمة ستكون انحلال تلك المؤسسة السياسية المعروفة «بالدولة»، إلا أن هذا الانحلال سيتم بصورة تدريجية. وأضافا أن الهدف الرئيسي لهذه المؤسسة كان على الدوام استخدام قوة السلاح لحماية الاضطهاد الاقتصادي لأكثرية الشعب العاملة من جانب أقلية تحصر في يديها ثروة المجتمع. وبزوال هذه الأقلية الثرية، فإن الحاجة إلى جهاز قمعي مسلح كالدولة ستزول أيضا. وفي الوقت ذاته أشار ماركس وانغلز إلى أنه كي يتحقق هذا الهدف والأهداف الأخرى الأكثر أهمية لمستقبل الثورة الاشتراكية يتوجب على الطبقة العاملة أن تقبض على القوة السياسية المنظمة للدولة وتستخدمها لسحق مقاومة الرأسماليين وإعادة تنظيم المجتمع. لم تكن هذه الأفكار الواردة في البيان الشيوعي تتفق مع المديح الغزير الذي كاله بيان المجلس العام للطريقة العنيفة التي بدأت بها العامية إبادة الدولة الطفيلية.

كان ماركس وانغلز يدركان بالطبع هذا التناقض، ففي مقدمة طبعة جديدة من البيان الشيوعي، صدرت في حزيران 1872 تحت تأثير العامية المباشر، عدلا في أفكارهما مستعينين صراحة ببيان المجلس العام معلنين أنه لا يمكن للعمال أن يستولوا على آلة الدولة الجاهزة ويطوعوها لأهدافهم الخاصة. وبعد وفاة ماركس، وجد انغلز نفسه مضطرا إلى خوض نضال ضد الاتجاهات الفوضوية في الحركة العمالية، فتخلى عن هذا الموقف وعاد إلى موقف يقوم على البيان الشيوعي. ليس من الصعب أن يدرك المرء أن أتباع باكونين كان لا بد أن يفسروا بيان المجلس العام بطريقتهم الخاصة. وبالفعل، أعلن باكونين ساخرا أنه على الرغم من أن العامية قد أطاحت بكل أفكار ماركس فإن هذا انحنى لها احتراما منتهكا بذلك كل منطق، ووجد نفسه مرغما على قبول برنامجها وأهدافها على أنها برنامجه وأهدافه هو. وإذا كان تمرد لم يهيأ له، بل فرض على العمال بسبب تعرضهم لهجوم شرس، قد استطاع أن يلغي كل آلة الدولة القمعية بعدد محدود من القرارات، أفلا يكون في ذلك تأكيد لصحة موقف باكونين الثابت؟ لم يكن صعبا على من أرادوا تصديق ذلك أن يجدوا ما يؤيد موقفهم في البيان الذي عرض ما كان مجرد إمكانية يحتمل أن تتطور العامية إليها وكأنه شيء موجود بالفعل. وعلى أية حال، كان الاستحسان الذي بدا تحريض باكونين يلاقيه في عام 1871 أكثر من أي وقت مضى يعود إلى الانطباع القوي العميق الذي تركته عامية باريس على الطبقة العاملة الأوروبية.

انتهى البيان بالكلمات التالية: «ستظل ذكرى باريس العمال وعاميتها ماثلة إلى الأبد على أنها الرائد العظيم لمجتمع جديد. وسيظل شهداؤها محفورين في قلب الطبقة العاملة الكبير، أما محطموها فقد وصمهم التاريخ، ولن تستطيع كل صلوات قساوستهم أن ترفع عنهم هذه الوصمة». أثار البيان على الفور ضجة كبرى، وفي رسالة إلى كوغلمان أعلن ماركس: «لقد أثار البيان ضجة بالغة، وأنه ليشرفني أن أكون اللحظة أكثر إنسان في لندن تعرضا للتشهير والتهديد. إن لفي ذلك ما يفيدني بعد عشرين سنة طويلة مملة قضيتها منعزلا كضفدع في مستنقع... حتى صحيفة الحكومة –الاوبزرفر- تهددني بإقامة دعوى علي. فليجربوا ذلك! إنني أزدري هؤلاء الأنذال». وحالما هدأت سورة الغضب في ماركس، أعلن أنه صاحب البيان.

تعرض ماركس في السنوات اللاحقة للتعنيف من جهات اشتراكية ديمقراطية على أساس أنه عرض الأممية للخطر بتحميلها مسؤولية العامية، على الرغم من أنه لم يكن من واجبها تحمل أي قسط من هذه المسؤولية. وقالت هذه الجهات أنه كان أمرا حسنا أن يدافع عن العامية في وجه التهجمات الظالمة التي تعرضت لها، ولكن كان يتوجب على ماركس أن يعترض على عيوبها وأخطائها. وعلى أية حال، لم تنشر هذه الآراء على نطاق واسع، وكان ممكنا أن يكون التاكتيك المقترح مناسب «لسياسي» ليبرالي، ولكن ليس لماركس، لا لشيء إلا لأنه كان ماركس. إذ لم يكن يخطر بباله قط أن يعرض مستقبل قضيته للخطر اعتمادا على أمل خادع قد يمكنه من تقليل الأخطار التي تتهدد هذه القضية في الوقت الراهن.

4-الأممية وعامية باريس

واجهت الأممية عالما من الأعداء بتبنيها تركة العامية دون أن تقوم قبل ذلك بتنقيب مخلفاتها.

كان أقل هذه العداوات أهمية تلك التهجمات الافترائية التي غمرتها بها الصحافة البرجوازية في مختلف البلدان. بل على العكس، اكتسبت الأممية نتيجة هذه التهجمات، بشكل ما ولدرجة معينة، سلاحا دعاويا، إذ كان بإمكان مجلسها العام أن يرد علانية وبذلك ضمنت الأممية لنفسها فرصة طرح وجهة نظرها في الصحافة الانجليزية.

أما المشكلة الكبيرة التي واجهتها الأممية فقد نجمت عن ضرورة تقديم المساعدة للعدد الكبير من أعضاء العامية الذي فر إلى بلجيكا وسويسرا وخاصة إلى الذين فروا إلى لندن. فقد وجدت الأممية، بسبب أوضاعها المالية المتردية، صعوبة كبيرة في جمع الأموال الأزمة لمساعدة هؤلاء، وتطلب ذلك بذل جهود مضاعفة، فكان عليها عدة أشهر أن تكرس معظم وقتها وطاقتها لهذه المشكلة على حساب أعمالها الاعتيادية التي كانت الحاجة إليها تزداد إلحاحا، خاصة وأن جميع الحكومات تقريبا بدأت الآن تعبئ قواها ضدها.

ومع ذلك لم تكن حرب الحكومات هذه ضد الأممية هي المشكلة الرئيسية التي واجهتها، فعلى الرغم من أن الحملة ضد الأممية تعاظمت في مختلف الأقطار بدرجات متفاوتة، إلا أن محاولات توحيد الحكومات للقيام بحملة قمعية مشتركة ضد البروليتارية الواعية فشلت في الحال. جاءت أولى هذه المحاولات من الحكومة الفرنسية في 6 حزيران 1871 في تعميم أصدره جول فافر، ولكن هذه الوثيقة كانت غبية وكاذبة لدرجة لم تترك معها سوى القليل من الأثر على الحكومات أخرى، حتى على بسمارك، الذي كان يتلهف على سماع أي اقتراح رجعي خاصة إذا كان موجها ضد الطبقة العاملة، بعد أن اهتز جنون عظمته بسبب التأييد الذي منحته الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، بجناحيها اللاسالي والايزناخي، للعامية.

وبعد فترة وجيزة، قامت الحكومة الاسبانية بمحاولة ثانية لتوحيد الحكومات الأوروبية ضد الأممية، فأصدر وزير خارجيتها تعميما إلى الحكومات جميعا أعلن فيه أن لا يكفي أن تقوم كل حكومة على حدة باتخاذ الإجراءات القاسية الضرورية ضد الأممية وفصائلها في بلدانها، بل يجب على الحكومات جميعا أن تتوحد لاستئصال الشر. وكان يمكن لهذه الحجة أن تلاقي نجاحا كبيرا لولا أن الحكومة البريطانية دحضتها على الفور. فقد أجاب اللورد غرانفيل بان الأممية «في هذه البلاد» قصرت نشاطها على تقديم النصح والمشورة في الإضرابات، وهي لا تملك سوى أموال محدودة جدا لدعم إضرابات كهذه، أما الخطط الثورية التي تشكل جزءا من برنامجها فهي تمثل أعضاءها الأجانب أكثر مما تمثل العمال البريطانيين، الذين يوجهون نشاطهم بصورة أساسية إلى مسائل الأجور. ومن ناحية أخرى فإن الأجانب في انجلترا يتمتعون بحماية القوانين في البلاد تماما مثلما يتمتع بها المواطنون البريطانيون. ولسوف يتعرض هؤلاء للعقاب حال انتهاكهم للقوانين وقيامهم بنشاطات

حربية ضد أية دولة تقيم معها بريطانيا العظمى علاقات صداقة، أما في الوقت الحاضر فلا داعي لاتخاذ إجراءات خاصة ضد الأجانب في الأراضي البريطانية. جعل هذا الرفض المعقول لطلب غير معقول الصحيفة شبه الناطقة باسم بسمارك تعلن مزمجرة أن أية إجراءات تتخذ ضد الأممية ستبقى دون أثر طالما بقيت الأراضي البريطانية تشكل ملجأ يمكن أن يكون مصدر إزعاج لباقي الدول الأوروبية في ظل الحصانة التي يضمنها القانون البريطاني.

ومع أن أعداء الأممية لم ينجحوا في تنظيم حملة صليبية من مختلف الحكومات ضدها، إلا أن الأممية نفسها لم تنجح في تنظيم مقاومة صلبة ضد الاضطهادات التي كانت تلحق بفصائلها في مختلف أنحاء القارة الأوروبية. وكان هذا هو مصدر قلقها الرئيسي، وأصبح الأمر أكثر خطورة عندما بدأت الأممية تشعر أن الأرض تهتز من تحت قدميها في البلدان التي كانت الطبقة العاملة فيها تعتبر حصن الأممية المتين: انجلترا وفرنسا وألمانيا، حيث التطور الصناعي الواسع متقدم إلى درجة كبيرة وحيث يتمتع العمال بحقوق دستورية إلى هذا اللحد أو ذاك. وكانت أهمية هذه البلدان بالنسبة للأممية تنعكس على تركيب مجلسها العام الذي كان يضم عشرين بريطانيا وخمسة عشر فرنسيا وسبعة ألمان مقابل ممثلين اثنين عن كل من سويسرا وهنغاريا وممثل واحد عن كطل من بلجيكا وبولندا وايرلندا والدنمرك وايطاليا.

أدت الحرب ضد فرنسا إلى ركود مؤقت في حركة الطبقة العاملة الألمانية. وكان لكل من الجناحين اللاسالي والايزناخي من القضايا الخاصة ما يشغله عن الالتفات إلى الأممية. ومع أن كلا الجناحين أعلن أنه يعارض ضم الالزاس واللورين ويؤيد عامية باريس، إلا أن جناح ايزناخ، الذي اعترف المجلس العام به وحده كفصيل من فصائل الأممية، برز في الطليعة فتعرض لمضايقات السلطة واتهاماتها له بالخيانة العظمى وما شابه ذلك أكثر بكثير مما تعرض له جناح لاسال. وكان بيبل، على حد قول بسمارك، هو الذي أثار شكوك هذا الأخير بالخطاب الناري الذي ألقاه في الرايشتاغ معلنا تضامن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية مع عاميي باريس. وقد دفع ذلك بسمارك إلى توجيه المزيد من الضربات العنيفة إلى حركة الطبقة العاملة الألمانية. وعلى أية حال، كان العنصر الحاسم في موقف جناح ايزناخ من الأممية هو أن هذا الجناح أصبح، منذ أن شكل من نفسه حزبا مستقلا على أساس وطني، أكثر غربة وابتعادا عن الأممية.

أما في فرنسا، فقد جعل تيير وفافر الجمعية الوطنية الملكية الرجعية تتبنى قانونا استثنائيا وحشيا ضد الأممية أدى إلى شل الطبقة العاملة الفرنسية، لتي كانت قواها قد أنهكت بالمجازر الدموية المخيفة التي ارتكبها قصر فرساي. أكثر من ذلك، ذهب حماة القانون والنظام هؤلاء، تحت وطأة شهوتهم المجنونة للثأر، إلى حد الطلب من سويسرا وحتى من انجلترا تسليم من فروا من العاميين كمجرمين عاديين، وكادت محاولتهم تنجح بالفعل مع سويسرا. وفي ظل هذه الظروف، انقطعت صلات المجلس العام للأممية بفرنسا بشكل كامل، ولكي تؤمن الأممية تمثيل العمال الفرنسيين في مجلسها العام اختارت عددا من العاملين الفارين (كان عدد من هؤلاء عضوا في الأممية وعدد آخر امتاز بنشاطه الثوري أبان العامية) وذلك بهدف تكريم العامية. كانت هذه فكرة حسنة بحد ذاتها، ولكنها أدت إلى أضعاف المجلس العام بدلا من أن تعضده، فقد قاسى العاميون الفارون المصير المحتم لكل المهاجرين واستنفدوا قواهم بالمنازعات الداخلية. وكان على ماركس الآن أن يواجه مع المهاجرين الفرنسيين المصاعب والمتاعب ذاتها التي كان قد خبرها مع المهاجرين الألمان قبل ذلك بعشرين عاما. كان ماركس بالتأكيد آخر رجل يطلب أي ثناء على ما يعتبره هو في كل الأحوال واجبا يترتب عليه أن يؤديه، ولكن مشاحنات الفرنسيين الفارين المستمرة جعلته في تشرين الثاني عام 1871 يتنهد بأسف: «وهذا جزائي لأنني صرفت من أجلهم خمسة أشهر من وقتي وذدت عن شرفهم في البيان!».

وأخيرا فقدت الأممية التأييد الذي كانت تحظى به من العمال الانجليز. وكان أول ما كشف النقاب عن هذا الشقاق استقالة قائدين بارزين في الحركة النقابية من المجلس العام بسبب البيان حول الحرب الأهلية في فرنسا. كان هذان القائدان هما لوكارافت واودغر اللذين ظلا محتفظين بعضوية المجلس منذ إنشائه، بل أن اودغر كان رئيسا للمجلس طيلة وجوده فيه. وأدى ذلك إلى ظهور الخزافة القائلة بأن النقابات الانجليزية افترقت عن الأممية بسبب موقفها المعارض أدبيا لدفاع الأممية عن عامية باريس. إلا أن بذرة الحقيقية في هذه الخرافة لا تمثل على الإطلاق كل الحقيقة أو جلها، فقد كان للشقاق أسباب أعمق وأكثر أهمية.

كان تحالف الأممية مع نقابات العمال منذ البداية «زواج مصلحة»، فقد كان كل من الطرفين بحاجة إلى الآخر، إلا أن أيا منهما لم يربط نفسه بالآخر في السراء والضراء وحتى الموت. لقد كان ماركس حاذقا لدرجة استطاع معها أن يصيغ برنامجا مشتركا في البيان الافتتاحي والنظام الداخلي للأممية، ومع أن النقابات قبلت بهذا البرنامج إلا أنها لم تطبق منه إلا ما كان ملائما لغرضها. ولا شك في أن اللورد غرانفيل كان مصيبا في وصفه للعلاقات بين النقابات الانجليزية والأممية في رسالته الجوابية إلى الحكومة الاسبانية. فقد كانت هذه النقابات تهدف إلى تحسين شروط العمل على أساس المجتمع الرأسمالي، وهي لم تحتقر في سعيها لهذا الهدف النضال السياسي، ولكنها لم تسترشد في اختيارها لحلفائها وأسلحتها بأية اعتبارات أساسية ما لم تخدم هذه الاعتبارات هدفها الحقيقي مباشرة.

سرعان ما وجد ماركس نفسه مرغما على الاعتراف بأن هذه الفردية الأنانية المميزة للنقابات والتي تمتد جذورها عميقا في تاريخ وطبيعة البروليتاريا الانجليزية لا يمكن كسرها بسهولة. لقد كانت النقابات بحاجة إلى الأممية لكي تحصل على إقرار «مشروع قانون الإصلاح»، وعندما تحقق لها ذلك بدأت في مغازلة الأحرار لأنها لا تستطيع دون مساعدتهم الفوز بمقاعد في البرلمان. وحتى في عام 1868، اشتكى ماركس من هؤلاء «المتآمرين»، وذكر اودغر، الذي رشح نفسه لانتخابات البرلمان، في عدادهم. وفي مناسبة أخرى برر ماركس وجود عدد من مؤيدي العصبوي الايرلندي برونتير اوبريان في المجلس العام بالكلمات المعبرة التالية: «إن هؤلاء الاوبريانيين، على الرغم من حماقاتهم، يمثلون قوة مضادة (ضرورة في الغالب) للنقابيين في المجلس العام. إنهم أكثر ثورية وأكثر تحديدا في موقفهم تجاه مسألة الأرض وأقل قومية وليسوا عرضة للفساد بأي شكل من الأشكال، ولولا ذلك لطردوا منذ فترة طويلة». وعارض ماركس الاقتراح الذي طرح مرة أخرى لإقامة مجلس فيدرالي لانجلترا، منطلقا في ذلك على الأرجح من الاعتبارات ذاتها التي أعطيت في التعميم الصادر عن المجلس العام في 21 كانون الثاني عام 1870، وهي أن الانجليز تنقصهم الحماسة الثورية والقدرة على التعميم، بحيث أن مجلسا فيدراليا كهذا سيصبح أداة بيد الأعضاء الراديكاليين في البرلمان.

وبعد انفصال قادة الطبقة العاملة الانجليزية عن الأممية، اتهمهم ماركس بأنهم باعوا أنفسهم لوزارة الأحرار. وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لبعضهم، إلا أنه لا ينطبق عليهم جميعا حتى ولو افترض المرء أن «للفساد» أشكالا أخرى غير تلقي الأموال نقدا. فقد كان ابليغارث يتمتع كزعيم نقابي بسمعة جيدة لا تقل عن سمعة اودغر ولوكرافت، وكان مجلسا البرلمان يعتبرأنه الممثل الرسمي للنقابية. وعلى إثر مؤتمر الأممية في بازل، خضع ايليغارث لاستجواب رعاته البرلمانيين له حول موقفه من قرارات المؤتمر الخاصة بالملكية العامة للأرض الخ، ولكنه رفض أن يخضع لتهديديهم المبطن. وفي عام 1870 عين عضوا في اللجنة الملكية التي شكلت بموجب «مرسوم الأمراض المعدية»، فكان أو عامل يطلق عليه صاحب الجلالة لقب «موضع ثقتنا وحبنا»، مع ذلك وقع بيان المجلس العام حول الحرب الأهلية في فرنسا، وظل عضوا في المجلس حتى النهاية.

يبين موقف ابليغارث، الذي كان شخصه فوق أي شبهة، الأسباب الحقيقية لانفصال قادة النقابات. فقد كان الهدف المباشر للنقابات ينحصر في ضمان حماية قانونية لها ولأحوالها. وبدا في ربيع عام 1871 أن هذا الهدف قد تحقق عندما تقدمت الحكومة بمشروع قانون يعطي أية نقابة حق تسجيل نفسها كجمعية مصادق عليها، ومن ثم تحصل على حماية قانونية لأموالها شريطة أن لا تتعارض أنظمتها الأساسية مع القانون. ولكن الحكومة سرعان ما استردت بيد ما أعطته باليد الأخرى، فقد تضمن القانون فقرة مطولة ألغت بصورة خاصة حق الانتظام، وذلك بتأكيدها على العبارات القديمة المطاطة التي تهدف إلى حظر الإضراب عبر تحريم «العنف» و«التهديد» و«التخويف» و«المضايقة» و«عرقلة العمل» الخ. ولم يكن ذلك في الواقع سوى قانون استثنائي ضد النقابات، فبموجبه لأصبح أي عمل تقوم به هي أو يقوم به أي كان تعزيزا لقضيتها خاضعا للعقاب، في حين يعتبر هذا العمل ذاته مشروعا إذا قامت به هيئات أخرى. وقد أعلن مؤرخو النقابية البريطانية بكل تهذيب وتحفظ: «لم يكن هناك من فائدة ترجى في الإعلان عن شرعية الجمعيات المهنية ما دام قانون العقوبات قد وسع ليشمل الوسائل السلمية المعتادة التي تلجأ إليها هذه الجمعيات لتحقيق أغراضها».

هكذا اعترف بشرعية النقابات لأول مرة وحصلت على الحماية القانونية، ولكن في الوقت ذاته جرى تثبيت جميع التدابير القانونية ضد العمل النقابي بوضوح بل وبشكل أقوى من ذي قبل.

وبالطبع رفضت النقابات ورفض قادتها هذه الهبة المسمومة، إلا أن احتجاجاتهم لم تفلح إلا في إقناع الحكومة بتقسيم القانون إلى قسمين منفصلين: قانون يعترف بالوجود الشرعي لنقابات العمال، وقانون معدل لقانون العقوبات يتضمن كل البنود المضادة لنشاط النقابات. لم يكن ذلك نجاحا حقيقيا بالطبع، بل كان مجرد فخ نصب لقادة النقابات الذين سقطوا فيه بالفعل لأن اهتمامهم بأموال النقابات كان أكبر من ولائهم للمبادئ النقابية. فقاوما جميعا، وعلى رأسهم ابليغارث، بتسجيل منظماتهم بموجب القانون الجديد. وفي أيلول عام 1871، قام مؤتمر المهن الموحدة، وهو الهيئة الممثلة «للنقابية الجديدة» والذي شكل فيما مضى حلقة الوصل بين الأممية والنقابات، يحل نفسه بصورة رسمية «لأنه أنجز الواجبات التي أقيم من أجلها».

وبسبب شعور قادة النقابات بأنهم يقتربون تدريجيا من مكانة الطبقة الوسطى، أصبحوا ينظرون إلى الإضرابات على أنها أكثر الوسائل التي تلجأ إليها النقابات بدائية، ومن ثم لم يكن من الصعب عليهم أن يرضوا ضمائرهم. ففي أوائل عام 1867، أعلن أحدهم في شهادة أدلى بها أمام لجنة ملكية أن الإضرابات إهدار محض لأموال وقدرات العمال وأصحاب العمل على حد سواء. ولذا عندما قامت في عام 1871 حركة قوية ممن أجل تحديد يوم العمل بتسع ساعات وانتشرت في إنحاء البلاد، بذل قادة النقابات أقصى جهدهم لكبح جماح العمال الذين كانوا يغلون غضبا على قانون العقوبات الجديد المعدل الموجه ضد نشاطات النقابات. بدأت هذه الحركة في أول نيسان بإضراب عمال الهندسة في صندرلاند وانتشرت بسرعة حتى بلغت أوجها بإضراب نيوكاسل الذي استمر خمسة أشهر وانتهى بانتصار كامل للعمال.

كان اتحاد الهندسة والجمعية الموحدة للمهندسين معارضين بشدة لهذه الحركة الجماهيرية التي قام بها العمال، ولذلك لم يحصل المضربون من أعضائها على أي دعم إلا بعد مضي أربعة عشر أسبوعا على إضرابهم، وكان هذا الدعم يقتصر على خمسة شلنات في الأسبوع. أما قيادة الحركة التي امتدت سريعا إلى عدد من المهن والصناعات الأخرى، فكانت تنحصر في «رابطة الساعات التسع» التي كانت قد تشكلت لهذا الغرض بقيادة قائد كفؤ جدا هو جون بيرنت.

ومن جهة أخرى، حصلت رابطة الساعات التسع على دعم نشيط من المجلس العام للأممية الذي أرسل اثنين من أعضائه هما كوهن وايكاريوس إلى بلجيكا والدنمرك ليمنعا وكلاء أصحاب العمل من استخدام عمال من هناك للعمل مكان المضربين، وقد أديا هذه المهمة على أكمل وجه. غير أن ماركس لم يستطع، أثناء محادثاته مع بيرنت، أن يكتم ملاحظة ساخرة هي أن من سوء الحظ أن تظل المنظمات العمالية مترفعة عن الأممية إلى أن تواجه المتاعب، في حين أن من الأسهل بكثير اتخاذ إجراءات احترازية لو أن هذه المنظمات تتصل بالأممية في الوقت المناسب. على أية حال، بدأ في تلك الآونة وعبر تطور الأحداث وكأن الجماهير ستعوض الأممية ما فقدته هذه بقادتها، إذ أنشئت فروع جديدة للأممية وتقوت الفروع والقائمة. إلا أن مطلب إقامة مجلس فيدرالي لانجلترا أثير من جديد وبصورة أكثر إلحاحا.

وعندئذ وافق ماركس في النهاية على ما كان قد رفضه فترة طويلة. فمع سقوط عامية باريس تراجعت إمكانية قيام ثورة جديدة إلى الخلف، ويبدو أن ماركس لم يعد يعلق أهمية كبرى على بقاء المجلس العام ممسكا مباشرة بعتلة الثورة. ولكن سرعان ما تأكد صدق ظنونه القديمة، فمع إقامة المجلس الفيدرالي بدأت آثار الأممية تختفي في انجلترا أسرع منها في أي بلد آخر.

5-المعارضة الباكونينية

بعد سقوط عامية باريس، كان على الأممية أن تواجه ما يكفي من الصعوبات في ألمانيا وفرنسا وانجلترا، إلا أن هذه لم تكن شيئا إذا قيست بالمتاعب التي واجهتها في البلدان التي كان وجودها فيها ضعيفا. فمركز المتاعب الصغير الذي قام في سويسرا حتى قبل الحرب الفرنسية-البروسية انتشر الآن إلى ايطاليا واسبانيا وبلجيكا ودول أخرى، وبدا أن أفكار باكونين ستنتصر على أفكار المجلس العام.

ولم يكن هذا التطور ناجما عن مؤامرات حاكها باكونين كما افترض المجلس العام. صحيح أن باكونين توقف في بداية عام 1871 عن متابعة ترجمة الجزء الأول من رأس المال ليتفرغ كليا للنشاطات السياسية، إلا أن هذه النشاطات لم يكن لها شأن بالأممية، وفي النهاية أدت هذه النشاطات إلى تدمير سمعته السياسية، نتيجة لمسألة نيتشاييف الشهيرة التي لا يمكن طرحها جانبا بسهولة كما يفعل المعجبون المتحمسون لباكونين عندما يعزون أخطاءه إلى «الثقة الزائدة عن الحد التي كان يمنحها نتيجة طيبته الزائدة عن الحد».

كان نيتشاييف إذ ذاك شابا في العشرينات. وكان قد ولد قنا، ولكنه تمكن بفضل رعاية أشخاص ليبراليين من الدخول إلى معهد عال ليتدرب كمدرس. ثم انخرط في الحركة الطلابية الروسية آنذاك، واكتسب مكانة خاصة فيها، لا بسبب ثقافته التي كانت هزيلة ولا بسبب ذكائه كان عاديا، بل بسبب طاقته الفياضة وكراهيته اللامتناهية للاضطهاد القيصري. وكانت أهم خصاله هي تحرره الكامل من أية اعتبارات خلقية عندما يعتقد انه يخدم قضيته. فلم يكن يطلب شيئا لشخصه، وكان يستغني عن كل شيء عندما يكون ذلك ضروريا، ولكنه كان على استعداد لتجاوز كل شيء مهما كان ذلك كريها، حينما يعتقد أنه يتصرف بطريقة ثورية.

ظهر نيتشاييف في البداية في ربيع عام 1869، وهو يطلب إعجابا مضاعفا به كسجين سياسي هرب من قلعة سان بيتر-بول، وكمندوب للجنة ثورية ادعى أنها تعد سرا للثورة في روسيا. وكان كلا الادعاءين مختلفا. فناتشاييف لم يكن أبدا سجينا في قلعة سان بيتر-بول، كما لم يكن للجنة التي ادعاها أي وجود. فقد غادر روسيا بعد اعتقال عدد من رفاقه الأقربين ليحاول، على حد زعمه، إقناع المهاجرين القدامى باستخدام أسمائهم وكتاباتهم لإثارة حماسة الشباب الروسي. ولقد نجح في ذلك بقدر ما يتعلق الأمر بباكونين بصورة لا تصدق. فقد أعجب باكونين إعجابا عميقا بهذا «المتوحش الشاب» وهذا «النمر الشاب» (كما اعتاد أن يدعوه)، كممثل لجيل جديد ستطيح قدرته الثورية بروسيا القيصرية. وآمن باكونين جازما «باللجنة» إلى حد أنه وضع نفسه دون قيد أو شرط تحت أوامرها التي كانت تأتيه من نيتشاييف ، وأعلن فورا عن استعداده لنشر عدد من الكتابات الثورية المتطرفة بالاشتراك مع نيتشاييف وإرسالها عبر الحدود.

ليس هناك من شك في مسؤولية باكونين عن هذه الكتابات، وليس مهما أيهما المسؤول، هو أو نيتشاييف، عن أكثر أمثلتها سوءا. أكثر من ذلك لم يحدث أن أنكرت علاقة باكونين بالنداء الذي وجه إلى ضباط الجيش القيصري يدعوهم لوضع أنفسهم تحت تصرف «اللجنة» دون قيد أو شرط، كما فعل باكونين نفسه من قبل، أو علاقته بالمنشور الذي جعل من اللصوصية في روسيا مثلا أعلى، أو علاقته بذلك المنشور الذي أطلق عليه اسم «الدليل الثوري» والذي أطلق فيه باكونين العنان لشغفه بالأفكار المروعة والكلمات العنيفة. ولكن لم تثبت من ناحية أخرى أية مشاركة من جانب باكونين في أعمال نيتشاييف الطائشة، فقد كان هو نفسه إحدى ضحايا هذه الأعمال، وكان إدراكه لذلك في وقت متأخر جدا هو الذي جعله يطرد «النمر الصغير».

اتهم مجلس الأممية العام كلا من نيتشاييف وباكونين بتعريض أناس أبرياء للهلاك بإرسال رسائل أو برقيات لهم، بطريقة تجتذب انتباه الشرطة الروسية نحوهم. وبعد هذا التعريض اعترف نيتشاييف بحقيقة الأمر، فقد أعلن بكل صفاقة أنه اعتاد تعمد إلحاق الأذى بجميع من لا يتفقون معه كلية، وذلك كي يدمرهم أو يجبرهم على الانغماس في الحركة، وأنه كان طبقا لهذه المبادئ الكريهة يقنع البعض وهم في حالة انفعال بتوقيع بيانات تلحق الضرر بهم، أو يختلس وسائل من شأنها أن تضير أصحابها كي تمكنه في المستقبل من ممارسة ضغط ابتزازي عليهم.

وعندما عاد نيتشاييف إلى روسيا في خريف عام 1869، لم يكن باكونين قد عرف بعد بأمر هذه الأساليب فأعطاه تفويضا ينص على أنه «الممثل المعتمد»، ليس للأممية بالطبع، ولا حتى لتحالف الاشتراكية الديمقراطية، وإنما للتحالف الأوروبي الثوري الذي كان باكونين «بعبقريته الخلاقة» قد أسسه كفرع لتحالف «للشؤون الروسية». لم توجد هذه المنظمة على الأرجح إلا على الورق، ولكن اسم باكونين كان كافيا كي يؤمن لتحريض نيتشاييف بعض التأييد في الوسط الطلابي. وكانت «اللجنة» الخرافية ما زالت هي وسيلة نيتشاييف الرئيسية في كسب النفوذ، ولما بدأ أحد مؤيديه الجدد، الطالب ايفانوف، يشك في وجود هذه السلطة السرية، تخلص من هذا الشكاك المزعج باغتياله. وأدى العثور على جثة ايفانوف إلى اعتقالات واسعة، إلا أن نيتشاييف تمكن من التسلل عبر الحدود.

وفي بداية كانون الثاني عام 1870، ظهر نيتشاييف مرة أخرى في جنيف وبدأت اللعبة القديمة من جديد. تقدم باكونين مدافعا بحماسة عن نيتشاييف، معلنا أن مقتل ايفانوف جريمة سياسية وليس جريمة عادية، وبالتالي يجب أن لا تستجيب الحكومة السويسرية لطلب الحكومة القيصرية بتسليمه. ظل نيتشاييف مختفيا في تلك الآونة، ولم تستطع الشرطة السويسرية الاهتداء إليه. وفي هذه الأثناء احتال على حاميه باكونين حيلة قذرة، فقد أقنعه بالتخلي عن ترجمة الجزء الأول من رأس المال، كي يكرس نفسه للدعاية الثورية، ووعده أن يتوصل إلى اتفاق مع الناشر بشأن المبلغ الذي كان هذا قد أسلفه لباكونين. اعتقد باكونين، الذي كان يعاني ضائقة مالية حادة، أن نيتشاييف أو «اللجنة» الغامضة ستقوم بسداد مبلغ الثلاثمئة روبل. لكن نيتشاييف عمد بدلا من ذلك إلى إرسال رسالة «رسمية» على ورقة تحمل اسم «اللجنة» وخاتما على شكل بلطة وخنجر ومسدس، وأرسلها لا إلى الناشر بل إلى لوبافن، الذي كان قد لعب دور الوسيط بين باكونين والناشر، وفي هذه الرسالة حذر لوبافن، تحت طائلة التهديد بالموت، من مطالبة باكونين بإعادة المبلغ. كان أول ما اتصل بعلم باكونين عن المسألة رسالة مهينة وصلته من لوبافن. وعلى الفور أرسل باكونين إلى لوبافن رسالة يعترف فيها بالدين ويكرر وعده بإعادة المبلغ حالما يتمكن منذ ذلك. وأخيرا قطع علاقاته بنتشاييف، بعد أن كان قد اكتشف عنه في هذه الأثناء أسوأ الأمور، مثل تخطيطه لمهاجمة وسرقة بريد سيمبلون.

كان لهذه السذاجة التي أبداها باكونين، والتي لا تغتفر لزعيم سياسي، أسوأ النتائج بالنسبة له. علم ماركس بالمسألة في تموز عام 1870، ومن مصدر لا يرقى إليه الشك هو لوباتين الموثوق تماما والذي حاول عبثا خلال إقامته في جنيف أن يقنع باكونين بعدم وجود لجنة في روسيا، وبأن نيتشاييف لم يكن أبدا سجينا في سان بيتر-بول وبأن خنق ايفانوف كان جريمة غبية تماما. فما كان من هذه المعلومات إلا أن جعلت ماركس يعزز رأيه غير المحبذ الذي كان قد كونه عن باكونين. وبعد أن اكتشف الحكومة الروسية حقيقة نشاطات نيتشايف نتيجة الاعتقالات الواسعة التي قامت بها على اثر مقتل ايفانوف، قامت باستغلال الفرصة الثمينة حتى النهاية، فكي تسخر من الثوريين وتشهر بهم أمام العالم أجمع، عقدت لأول مرة محكمة سياسية علنية وأمام محلفين. وبدأت إجراءات الحكم في ما سمي قضية نيتشاييف في سان بطرسبرغ في تموز 1871. وكان هناك أكثر من ثمانين منهما معظمهم من الطلاب، حكم على معظمهم بالأشغال الشاقة مددا طويلة في سيبيريا.

أما نيتشاييف نفسه فقد كان لا يزال طليقا متنقلا بين سويسرا ولندن وباريس، حيث ذهب أثناء الحصار والعامية. ولم يقع في أيدي الشرطة إلا في خريف عام 1872 بعد أن وشى به أحد الجواسيس. وعندئذ أصدر باكونين وأصدقاؤه منشورا يدافع عن نيتشاييف ويعارض تسليمه كمجرم عادي، وليس في ذلك بالطبع ما يشين باكونين. وفي النهاية سلم نيتشاييف إلى الحكومة القيصرية، فقضى في السجن عشر سنوات إلى أن توفي.

اندلعت الحرب الفرنسية-البروسية في الوقت الذي افترق فيه باكونين عن نيتشاييف. وفي الحال سارت أفكار باكونين في اتجاه آخر، فاعتبر أن غزو ألمانيا لفرنسا سيعطي إشارة البدء للثورة الاشتراكية في فرنسا، فالعمال الفرنسيون لا يمكن أن يظلوا مكتوفي الأيدي في وجه غزو ارستقراطي وملكي وعسكري، إلا إذا كانوا يريدون لا خيانة قضيتهم الخاصة فحسب، بل خيانة القضية الاشتراكية أيضا، ذلك أن انتصار ألمانيا سيكون انتصارا للرجعية الأوروبية. كان باكونين محقا في إعلانه أن ثورة داخلية في فرنسا لا تعني شل مقاومة الشعب الفرنسي، وقد استعان بالتاريخ الفرنسي بشكل خاص ليثبت وجهة نظره، ولكن اقتراحاته لحمل البونابرتيين والفلاحين الرجعيين على عمل ثوري مشترك مع عمال المدن كان خياليا إلى أبعد حد: يجب على المرء أن لا يتقدم من الفلاحين بأية بيانات أو اقتراحات أو أشكال تنظيمية شيوعية، لأن ذلك سيجعلهم يثورون ضد المدن، بل يتوجب على المرء بدلا من ذلك أن يستخرج الروح من أعماق نفوسهم- وما إلى ذلك من أفكار محض خيالية.

وبعد سقوط الإمبراطورية الثانية، نشر غيلوم نداء في «سوليدارتيه» يدعو إلى تشكيل فرق مسلحة من المتطوعين تسارع إلى نجدة الجمهورية الفرنسية. وكان ذلك عملا أحمق تماما، خاصة وأنه أتى من جانب رجل عارض بتعصب أي مساهمة للأممية في السياسة، ولم تؤد الدعوة إلى شيء سوى السخرية. إلا أن محاولة باكونين إعلان عامية ثورية في ليون في 28 أيلول يجب أن لا توضع على المستوى ذاته. فعندما دعي إلى ليون من قبل العناصر الثورية هناك، كانت دار الحكومة المحلية قد احتلت، و«آلة الدولة الإدارية والحكومية قد ألغيت»، وأعلن بدلا عنها «اتحاد العامية الثوري»، وحدث ذلك كله عندما أعطت خيانة الجنرال كلسريت وجبن عدد آخر من الأشخاص، نصرا سهلا للحرس الوطني. حث باكونين لدى وصوله على وجوب اتخاذ إجراءات حازمة وعلى وجوب اعتقال ممثلي الحكومة، ولكن عبثا. ففشلت الحركة، وبقي باكونين عدة أسابيع في مرسيليا على أمل أن تنتعش الحركة من جديد، ولكن لما تبين أن الأمل في ذلك لا يقوم على أساس، أقل عائدا في نهاية تشرين الأول إلى لوكارنو.

قد يكون من المنطقي أن يترك أمر الهزء بهذه المحاولة الفاشلة للرجعية، وفي ذلك كتب احد معارضي باكونين، الذين لم تفقدهم معارضتهم للباكونينية القدرة على تكوين حكم موضوعي، يقول: «ارتفعت الأصوات الساخرة للأسف حتى في الصحافة الاشتراكية الديمقراطية، على الرغم من أن محاولة باكونين لا تستحق ذلك بالتأكيد. إن من واجب الذين لا يشاركون باكونين وأتباعه أفكارهم الفوضوية أن يتبنوا موقفا نقديا من آمال هؤلاء التي لا تقوم على أساس. ولكن باستثناء ذلك، فإن العمل الذي قام به باكونين في ليون كان محاولة شجاعة لإيقاظ قدرات البروليتاريا الفرنسية وتوجيهها ضد العدو الخارجي والنظام الرأسمالي في آن معا. لقد قامت عامية باريس في وقت لاحق بمحاولة شبيهة ونالت مديحا حارا من ماركس». إن هذا بالتأكيد موقف أكثر موضوعية ومنطقية من موقف «فولكسشتات» في ليبزيغ، فقد أعلنت هذه، متبنية موقفا تكتيكا باليا، أنه لو حاول المكتب الصحفي لبسمارك أن يعد بيانا لما استطاع أن يأتي ببيان أكثر ملائمة لبسمارك من البيان الذي أصدره باكونين في ليون.

أصيب باكونين بكآبة عميقة بسبب فشل الحركة في ليون. فقد كان مؤمنا بأن الثورة على الأبواب، وها هو يراها تختفي طي المستقبل البعيد، خاصة بعد أن أطيح بعامية باريس التي كانت قد نفخت الأمل في نفسه من جديد. وازدادت كراهيته للدعاية الثورية التي كان ماركس يقوم بها، فقد خيل إليه أن هذه الدعاية هي التي أدت إلى موقف البروليتاريا الحائر. وبالإضافة إلى ذلك كان يعاني من وضع شخصي بائس، إذ لم تعد تصله أية مساعدة من أشقائه، فكان يقضي أياما عدة لا يملك فيها خمسة سنتيمات ثمنا لفنجان من الشاي اعتاد تناوله. وكانت زوجته تخشى أن تخور قواه وينتهي. ومع ذلك قرر أن يدون آراءه حول تطور الإنسانية والفلسفة والدين والدولة والفوضوية في كتاب يعد تدريجيا في لحظات فراغه، ليكون وصيته السياسية.

غير أن باكونين لم يتمكن من انجاز هذا العمل. ففي جنيف، نجح روسي يدعى اوتين، كان قد بدأ التحريض ضد باكونين منذ فترة من الزمن، في طرده وعدد من أصدقائه من الفرع المركزي للأممية في جنيف في آب 1870، بحجة أنهم كانوا أعضاء في التحالف. وبعد ذلك أطلق اوتين كذبة تقول أن المجلس العام لم يوافق أبدا على قبول التحالف عضوا في الأممية في يوم من الأيام، وأن الوثائق الموجودة في حوزة التحالف بتوقيع يونغ وايكاريوس وثائق مزورة. وفي تلك الأثناء هاجر روبين إلى لندن وأصبح عضوا في المجلس العام، على الرغم من أنه كان قد شن على المجلس هجوما عنيفا في «ايغاليتيه»، وبرهن المجلس بهذا العمل عن موضوعيته، لان روبين لم يكف يوما عن أن يدين بالولاء للتحالف. وفي 14 آذار 1871، قدم روبين اقتراحا بأن تعتقد الأممية مؤتمرا خاصا لتسوية النزاع في جنيف. لكن المجلس رأى عشية

عامية باريس أن من الأفضل رفض هذا الاقتراح، ولكنه قرر في 25 تموز أن يدعو لمؤتمر يعقد في أيلول التالي لبحث نزاع جنيف. وفي الجلسة ذاتها أكد المجلس، بناء على طلب روبين، صحة الوثائق الموقعة من يونغ وايكاريوس والتي تبلغ التحالف قبوله في الأممية.

لم تكد هذه الرسالة تصل جنيف، حتى حل فرع التحالف نفسه طواعية في 6 آب، وقام على الفور بإبلاغ هذه الخطوة إلى المجلس العام. وكانت الفكرة وراء هذه الخطوة إيجاد انطباع جيد، فبعد أن برأ المجلس العام الفرع من كذب اوتين، ارتأى الفرع أن يضحي بنفسه من اجل الوفاق. إلا انه، كما اعترف غيلوم فيما بعد، كانت هناك دوافع أخرى حاسمة لهذه الخطوة. إذ كان فرع التحالف قد أصبح بلا أهمية على الإطلاق، وبدأ لأعضاء العامية الذين فروا على جنيف انه لا يمثل سوى مخلفات ميتة لنزاعات شخصية. فرأى غيلوم في هؤلاء عناصر مناسبة لمقارعة المجلس الفيدرالي في جنيف على أسس أوسع. وهكذا حل فرع التحالف لتوعد بقاياه بعد أسابيع قليلة فتتوحد مع العاميين في فرع جديد هو «فرع العمل والدعاية الثورية الاشتراكية» الذي أعلن انه يتفق مع المبادئ العامة للأممية، ولكنه احتفظ لنفسه بحق استخدام الحرية التي تمنحها مؤتمرات الأممية وأنظمتها الأساسية.

لم يكن لباكونين أو الأمر علاقة بهذا كله. فقد اعتبر أن حل فرع التحالف في جنيف خدعة مدبرة، مما دفعه إلى الاحتجاج بشدة قائلا: «فلنكن غير جبناء بحجة انقاد وحدة الأممية». وفي الوقت ذاته بدأ يعد شرحا تفصيليا للفوضى الناشبة في جنيف، كي يعرض المبادئ التي كان النزاع، في رأيه، يعرضها للخطر، وكي يكون كذلك دليلا لمؤديه في المؤتمر القادم في لندن.

لا زالت أجزاء كبيرة مما كتبه باكونين في هذا الصدد باقية حتى الآن، وهي تختلف تماما عن الكراسات الروسية التي كان قد أعدها بالاشتراك مع نيتشاييف قبل ذلك بسنة واحدة. إذ تميزت، باستثناء تعبير أو اثنين شديدي اللهجة، بالهدوء والموضوعية. لم ينكر باكونين لحظة واحدة الفروقات الأساسية بينه وبين ماركس حول مسألة «شيوعية الدولة» التي نادى بها ماركس، فلم يكن باكونين سهلا أبدا في التعامل مع خصومه. ولكنه لم يصور ماركس أمرا لا خير فيه ولا يكترث لشيء إلا لأغراضه الخاصة غير النزيهة، بل عمد بدلا من ذلك إلى شرح كيف تطورت الأممية من بين جماهير الشعب بمساعدة رجال أكفاء كرسوا أنفسهم لخدمة قضية الشعب، وأضاف: «إننا ننتهز هذه الفرصة لنقدم احترامنا لقادة الحزب الشيوعي الألماني العظام، والمواطنين ماركس وانغلز بشكل خاص والمواطن ف. بيكر (صديقنا السابق وعدونا اللدود في الوقت الحاضر) خالقو الأممية الحقيقيون، بقدر ما يمكن أن يعزى للبشر قدرة على الخلق. إننا نعترف بخدماتهم، سيما وأننا سنكون مضطرين لمحاربتهم عما قريب. إننا نحترمهم بصدق ومن كل قلوبنا، ولكن ذلك لا يصل بنا إلى حد تأليههم، ولن نقبل أبدا أن نكون لهم عبيدا. ومع أننا نقر بفضل الخدمات الجليلة التي قدموها والتي لا زالوا يقدمونها لقضية الأممية، إلا أننا سنقاتل حتى النهاية ضد نظرياتهم الخاطئة المستبدة، ضد غطرستهم الدكتاتورية، ضد أساليبهم في الخداع الخفي والمكائد المختالة، ضد إدخالهم شخصيات وضيعة إلى الأممية، ضد اهاناتهم وافتراءاتهم المشينة، تلك الأساليب التي يتميز الصراعات لسياسية للألمان جميعا، والتي أدخلت للأسف إلى صفوف الأممية». كان ذلك في منتهى الصراحة، لكن باكونين لم يسمح لأي انفعال أن يجره إلى إنكار الخدمات الخالدة التي قدمها ماركس لحركة الطبقة العاملة كمؤسس وقائد للأممية.

غير أن باكونين لم يتم هذا العمل أيضا. فقد كان منهمكا به عندما نشر ماتزيني هجوما عنيفا على الأممية في نشرة أسبوعية كان يصدرها في لوغانو. وعلى الفور اشتبك باكونين معه في مقالة بعنوان «رد أممي على ماتزيني»، ولما التقط ماتزيني ومؤيدوه القفاز، اتبع باكونين ذلك بكراسات أخرى من الطراز ذاته. وبعد كل الإخفاقات التي مني بها باكونين حديثا، أصبح الآن يتمتع بنجاح كامل: فالأممية التي لم يكن لها في ايطاليا حتى ذلك الوقت سوى آثار وجود، بدأت الآن تنتشر بسرعة. ولم يحقق باكونين هذا النجاح بتدبير الدسائس، بل بفعل الكلمات البليغة التي تمكن بها من إزالة التوتر الذي ولدته عامية باريس في أوساط الشباب الايطالي.

لم تكن الصناعة الثقيلة في ايطاليا قد تطورت بعد، وكان تفتح البروليتاريا على الوعي الطبقي لا يزال يسير ببطء شديد،كما أن هذه البروليتاريا لم تكن تمتلك أي سلاح قانوني تستطيع استخدامه سواء في الهجوم أو الدفاع. وبالمقابل كان نضال نصف قرن من اجل الوحدة القومية قد ساهم في تنمية تقليد ثوري في أوساط الطبقات البرجوازية وفي الحفاظ على هذا التقليد. فقد قام عدد لا يحصى من التمردات والمؤامرات من أجل تحقيق الوحدة القومية إلى أن تمت أخيرا بصورة كانت خيبة أمل كبيرة للعناصر الثورية. تفتحت حماية السلاح الفرنسي ثم السلاح الألماني تمكنت الدولة الأكثر رجعية في البلاد من تأسيس مملكة ايطالية. ثم جاء نضال عامية باريس البطولي ليوقظ شباب ايطاليا من حالة الركود المعنوي التي كان قد انحدر إليها. لقد أعرض ماتزيني وهو على حافة القبر عن النور الجديد الذي أثار فيه كراهيته القديمة للاشتراكية، أما غاريبالدي الذي كان بطلا قوميا إلى حد اكبر بكثير، فقد رحب «بشمس المستقبل المشرقة» المتمثلة في الأممية.

كان باكونين يعرف جيدا إلى أي قطاعات السكان ينتمي مؤيدوه، فكتب في نيسان 1872: «لم يكن ما افتقدته ايطاليا حتى الآن هو الغريزة السليمة بل التنظيم والفكرة. أما الآن فكلاهما يتطور بشكل سريع لدرجة أن ايطاليا مع اسبانيا ربما كانتا في هذه الآونة أكثر البلاد ثورية. هناك في ايطاليا أمر لا يتوفر في البلدان الأخرى: شباب يتفجر حماسة وقوة، دون أي أمل في مهنة أو عمل أو حل، شباب على الرغم من أصوله البرجوازية لم يستنفذ أخلاقيا وذهنيا كالشباب البرجوازي في البلدان الأخرى. وهو اليوم يقحم رأسه في الاشتراكية الثورية ببرنامجنا كاملا، برنامج التحالف». كتب باكونين هذه السطور إلى مؤيدي اسباني، وقصد بها أن تكون باعثا على الشجاعة للتقدم نحو أعمال أعظم. ولقد قدر باكونين أن نجاحه في اسبانيا، حيث كان لا يزال يمارس نفوذه من خلال أصدقاء له، لا من خلال وجوده الشخصي، لا يقل إن لم يفق ما حققه من نجاح في ايطاليا. ولم يكن ذلك مجرد وهم جميل، بل حقيقة لا سبيل إلى إنكارها.

كان التطور الصناعي في اسبانيا أيضا لا زال على درجة كبيرة من التخلف. وكانت البروليتاريا، في حال وجود بروليتاريا بالمعنى الحديث، مكبلة اليدين والقدمين وبدون أية حقوق قانونية، فلم يعد أمامها وهي في حالة اليأس هذه غير سلاح واحد هو الانتفاضة المسلحة. فلم تشهد أي مدينة في العالم من ناضل المتاريس ما شهده تاريخ برشلونة المدينة الصناعية الاسبانية العظيمة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الحرب

الأهلية التي استمرت سنوات طويلة قد عكرت صفو البلاد. وبعد أن تمكنت العناصر الثورية من طرد آل البوربون في خريف عام 1868، أصيبت بخيبة أمل كبيرة إذ وجدت نفسها تحت سيطرة متداعية لملك أجنبي. وفي اسبانيا أيضا سقطت الشرارات المتطايرة من الحريق الثوري في باريس على كومة من المواد القابلة للاشتعال.

أما في بلجيكا، فكان الوضع مختلفا إلى حد ما عما هو عليه في ايطاليا واسبانيا، فقد كان في بلجيكا حركة جماهيرية بروليتارية، وإن كانت هذه الحركة محصورة كليا في مقاطعات الوالون. وكان عمال المناجم الثوريون المتطرفون في بوريفاج يشكلون العمود الفقري لهذه لحركة. وكلما راودتهم فكرة تحسين وضعهم الطبقي بالوسائل القانونية، غرقت هذه الفكرة وهي في مهدها في حمامات الدم التي كانت تخضب بها إضراباتهم سنة بعد أخرى. وكان قادتهم برودونيون، ولذلك كانوا يميلون إلى أفكار باكونين.

هكذا، إذا تتبع المرء تطور المعارضة الباكونينية في الأممية بعد سقوط عامية باريس، لوجد أنها حملت اسم باكونين لأنها كانت تأمل أن تتمكن بأفكاره من حل التناقضات والتوترات الاجتماعية التي نبتت الباكونينية ذاتها في الحقيقة منها.

6-المؤتمر الثاني في لندن

كان المجلس العام يريد للمؤتمر الذي قرر عقده في أيلول في لندن أن يكون بديلا عن المؤتمر السنوي الذي كان موعد انعقاده قد أصبح وشيكا.

وكان مؤتمر بازل عام 1869 قد قرر عقد المؤتمر لثاني في باريس، إلا أن حملة التحريض التي نظمها اوليفييه ضد فرع الأممية الفرنسي احتفالا بالاستفتاء العام، جعلت المجلس العام يمارس حقه في تغيير مكان انعقاد المؤتمر، فقرر في تموز عام 1870 أن يكون انعقاد المؤتمر في مينز. وفي الوقت ذاته اقترح المجلس العام على الفيدراليات الوطنية أن ينقل مقره من لندن إلى أي مكان آخر، ولكن هذا الاقتراح رفض بالإجماع. ثم جاء نشوب الحرب الفرنسية-البروسية ليجعل عقد المؤتمر في مينز مستحيلا، وعندها خولت الفيدراليات المجلس العام حرية ترتيب موعد انعقاد المؤتمر وفق ما تقتضيه الظروف الراهنة.

بدا من تطور الأحداث أن من غير المرغوب فيه دعوة المؤتمر للانعقاد في خريف عام 1871. فقد بان واضحا أن الضغط الذي كان يتعرض له أعضاء الأممية في مختلف الأقطار لن يمكنهم من إرسال مندوبيهم إلى المؤتمر بحرية، كما أن الأعضاء الذين سيتمكنون من حضور المؤتمر سيتعرضون فور عودتهم إلى بطش من حكوماتهم لم يسبق لها مثيل. ولم تكن الأممية راغبة في القيام بما من شأنه زيادة عدد الضحايا، لأنها لا تكاد تستطيع تأمين المساعدة إلى المضطهدين الحاليين من أعضائها، ولأن هذه المهمة كانت تستحوذ على طاقاتها ومصادرها.

لذلك قرر المجلس العام أن من الأفضل في الظروف الراهنة الدعوة إلى مؤتمر خاص مغلق في لندن، على غرار المؤتمر الذي عقد في عام 1865 بدلا من عقد مؤتمر عام علني. وجاء عدد الحضور القليل في المؤتمر ليؤكد ظنون المجلس العام. استمر المؤتمر من السابع عشر من أيلول إلى الثالث والعشرين منه بحضور ثلاثة وعشرين مندوبا فقط، كان من بينهم ست مندوبين من بلجيكا واثنان من سويسرا ومندوب واحد من اسبانيا. كذلك حضر المؤتمر ثلاثة عشر عضوا من المجلس العام، ولكن كان لستة منهم أصوات استشارية فقط. ومن بين القرارات الواسعة والمتعددة التي اتخذها المؤتمر، كان هناك عدد من القرارات، يتعلق بإحصاءات الطبقة العاملة والعلاقات الدولية لنقابات العمال والزراعة، لم يكن له في ظل الظروف القائمة حينذاك غير أهمية أكاديمية. أما المهام الرئيسية للمؤتمر فكانت أن يرد عن الأممية الهجمات الحاقدة التي تشن عليها من الخارج وان يجعلها تتماسك ضد العناصر التي تهدد بنسفها من الداخل، وهي مهمات تتطابق على وجه الإجمال.

أما أهم القرارات التي اتخذها المؤتمر فكانت تتعلق بالنشاط السياسي للأممية. فقد استعادت هذه القرارات البيان الافتتاحي والقوانين الأساسية والقرار الصادر عن مؤتمر لوزان والبيانات الرسمية الأخرى الصادرة عن الأممية، والتي تعلن جميعا أن الانعتاق السياسي للطبقة العاملة لا يمكن أن ينفصل عن انعتاقها الاجتماعي. ثم أشارت القرارات إلى أن الأممية واجهت حملة رجعية شرسة قمعت بوحشية كل جهد قامت به الطبقة العاملة لتحرير ذاتها. وسعت بالقوة إلى تكريس التمييز الطبقي المطلق وحكم الطبقات المالكة المستند إليه. وأعلنت الأممية أن الطبقة العاملة لن تستطيع مقاومة هذا العنف الذي فرضته عليها الطبقات الحاكمة، إلا إذا تصرفت كطبقة، وذلك بأن تشكل نفسها في حزب سياسي خاص بها ضد كل التنظيمات الحزبية للطبقات المالكة، وهذا أمر لا غنى عنه من اجل انتصار الثورة الاشتراكية وهدفها النهائي، إلغاء كل الطبقات، وأخيرا فإن توحيد القوى المعزولة عن بعضها التي أنشأتها الطبقة العاملة إلى درجة معينة بقواها الاقتصادية يجب أن يستخدم كسلاح قفي النضال ضد القوة السياسية للمستغلين. ولهذه لأسباب مجتمعة، إعادة المؤتمر إلى ذاكرة جميع أعضاء الأممية أن الحركة الاقتصادية والحركة السياسية في نضال الطبقة العاملة مرتبطان ارتباطا وثيقا لا تنفصم عراه.

وفيما يتعلق بالأمور التنظيمية، طلب المؤتمر من المجلس العام أن يجعل عدد الأعضاء الذين يختارهم لينضموا إليه محدودا وان لا يفصل جنسية على أخرى. وتقرر أن يقتصر اسم «المجلس العام» على المجلس العام، أما المجالس الفيدرالية فعليها أن تتخذ لنفسها أسماء حسب البلدان التي تمثلها، وتعرف الفروع المحلية كل باسم منطقته الإقليمية الخاصة به. وحظر المؤتمر استعمال أية أسماء عصبوية مثل الوضعيين، التبادليين، الجماعيين، الشيوعيين. كما قرر أن يستمر كل عضو في الأممية في دفع بنس واحد في السنة دعما للمجلس العام.

وأوصى المؤتمر بالنسبة لفرنسا بالقيام بتحريض عنيف في المصانع وتوزيع المنشورات على نطاق واسع. وبالنسبة لانجلترا، أوصى بتشكيل مجلس فيدرالي خاص على أن يتم تثبيته من قبل المجلس العام فور أن تعترف به فروع المقاطعات والنقابات. وأعلن المؤتمر أن العمال الألمان قد أدوا واجبهم البروليتاري خلال الحرب الفرنسية-البروسية، ورفض أن يتحمل أي مسؤولية فيما يعرف بمؤامرة نيتشاييف.

وأعلن المؤتمر أن قضية التحالف قد سويت، بعد ما قام فرع جنيف بحل نفسه طواعية، وبعد ما حظر اختيار الفروع لأسماء عصبوية تشير إلى مهمات منفصلة عن أهداف العامة للأممية. أما فيما يختص بفروع الجورا، التي كانت تؤيد باكونين وترفض الخضوع للمجلس الفيدرالي في جنيف، فقد أكد المؤتمر قرار المجلس العام في 29 حزيران 1870 معترفا بالمجلس الفيدرالي في جنيف ممثلا وحيدا للفروع السويسرية الأعضاء، ولكنه في الوقت ذاته ناشد روح الوحدة والتضامن التي يجب أن تحرك العمال أكثر من أي وقت مضى بعد أن أصبحت الأممية مضطهَدة في مختلف الأنحاء. ولذلك نصح المؤتمر عمال فروع الجورا أن يرتبطوا بالمجلس الفيدرالي في جنيف من جديد. واقترح في حالة استحالة ذلك أن يطلقوا على أنفسهم اسم فيدرالية الجورا. وخول المؤتمر أيضا المجلس العام سلطة كاملة للتنصل من الصحف المنسوبة إلى الأممية مثل «بروغريه» و«سوليدارتيه» التي كانت قد طرحت المسائل الداخلية للأممية أمام الجمهور البرجوازي. وأخيرا ترك المؤتمر للمجلس العام حرية تقرير زمان ومكان المؤتمر العام العلني التالي أو استبداله بمؤتمر خاص مغلق.

لا يمكن بوجه عام إنكار أن قرارات المؤتمر صدرت عن روح من الاعتدال الموضوعي، فالاقتراح الذي تقدمت به فروع الجورا أي العمل تحت اسم فيدرالية الجورا، كانت قد بحث من جانب هذه الفروع نفسها. ومما لا شك فيه أن قرارات المؤتمر أوجدت أساس للاتفاق، سيما وأن الوفاق الداخلي كان ضرورة ملحة خاصة وأن الأعداء يحيطون بحركة الطبقة العاملة من كل صوب. وفي 20 تشرين الأول تقدم الفرع الجديد للعمل والدعاية الثورية الاشتراكية إلى المجلس العام يطلب الالتحاق بالأممية، وكان هذا الفرع قد تشكل في جنيف من بقايا التحالف وعدد ممن فروا بعد سقوط العامية. غير أن الطلب رفض بعد أن قام المجلس العام باستشارة المجلس الفيدرالي في جنيف، وعندئذ بدأت صحيفة «لا ريفولسيون سوسيال»، التي أخذت تصدر بدلا من «سوليدارتيه»، تشن هجوما عنيفا على «اللجنة الألمانية التي تسير الأمور بعقلية بسماركية»، على حد تعبير محرري الصحيفة الذين كانوا يعتقدون أن يمثل الوصف الحقيقي للمجلس العام للأممية. ووجد هذا الشعار صدى سريعا، مما جعل ماركس يكتب إلى صديق أمريكي: «إن ذلك يعود إلى مسألة لا تغتفر وهي أنني ألماني الولد، ولأن لي في الواقع تأثيرا فكريا حاسما على المجلس العام. ملاحظة: إن الألمان في المجلس هم من الناحية العددية اضعف بمقدار الثلثين من الانجليز والفرنسيين. الجريمة إذا هي أن العناصر الانجليزية والفرنسية خاضعة(!) في المسائل النظرية للألمان، وتجد أن هذه السيطرة، أي العلم الألماني، مفيدة ولا غنى عنها».

شنت فروع الجورا هجومها العام في مؤتمر عقدته في 12 تشرين الثاني في سونفييه، على الرغم من أن عدد الحضور لم يزد عن ستة عشر مندوبا يمثلون تسعة فروع فقط من أصل اثنين وعشرين. ولكي يعوض هؤلاء السادة عن هذا، قاموا بإحداث ضجة أكثر صخبا من أي وقت مضى، فقد شعروا باهانة بالغة لأن مؤتمر لندن فرض عليهم اسما كانوا هم أنفسهم قد فكروا به، ومع ذلك قرروا الإذعان وإطلاق اسم فيدرالية الجورا على أنفسهم في المستقبل، بينما ثأروا لأنفسهم بالإعلان عن حل فيدرالية جنيف، وهو قرار لم يكن له بالطبع أي أهمية عملية. غير أن الانجاز الرئيسي للمؤتمر تمثل في صياغة وإرسال تعميم إلى جميع فيدراليات الأممية يحثها على عدم الاعتراف بشرعية مؤتمر لندن، ويطلب منها أن تقرر الدعوة إلى مؤتمر عام في أسرع وقت ممكن.

انطلق هذا التعميم، الذي أعده غيلوم، من فرضية أن الأممية تسلك سبيلا مميتا. فقلد تشكلت في الأساس «كاحتجاج عظيم ضد كل أنواع السلطة»، ومنحت القوانين الأساسية لها كل فرع أو مجموعة من الفروع استقلالا تاما، في حين لم تترك في يد السلطة التنفيذية ممثلة بالمجلس العام سوى سلطات محدودة. ومع مرور الزمن، بدأ الأعضاء يثقون بالمجلس العام ثقة عمياء مما أدى إلى تخلي المؤتمر نفسه عن سلطته حين منح المجلس العام سلطة قبول ورفض أو حل الفروع بانتظار قرار المؤتمر التالي. ولم يشر كاتب البيان أبدا أن هذا القرار اتخذ بعد أن تحدث باكونين بحرارة لصالحه وبموافقة غليوم نفسه.

إن المجلس العام، يتابع التعميم، المؤلف من الأشخاص ذاتهم والذي قبع في المكان ذاته خمسة أعوام متتالية يأتي اليوم ليعتبر نفسه «الرأس الشرعي» للأممية. إن هذا المجلس يعتبر نفسه أشبه ما يكون بحكومة، وهو بالطبع يعتبر أفكاره الخاصة نظرية رسمية للأممية فهي الأفكار الوحيدة المسموح بها. أما الأفكار المغايرة التي تبنتها المجموعات الأخرى فقد اعتبرها المجلس العام هرطقة لا غير. وهكذا نمت في الأممية وبصورة تدريجية اورثوذكسية مقرها لندن وممثلوها أعضاء المجلس العام. وليس من الضروري التذمر من مقاصدهم، لأنهم إنما كانوا يتصرفون حسب أفكار مدرستهم الخاصة، ولكن على المرء أن يقاتل ضدهم بقوة لان سلطتهم المطلقة ولدت بالضرورة فسادا، فمن المستحيل على رجل يتمتع بمثل هذه السطوة على أقرانه أن يحتفظ بشخصية أخلاقية.

وأضاف التعميم يقول أن مؤتمر لندن أكمل عمل مؤتمر بازل، واتخذ قرارات كان القصد منها أن تحول الأممية من رابطة حرة لفروع مستقلة إلى منظمة سلطوية ذات بناء هرمي يسيطر عليها المجلس العام. وتتويجا لهذا كله، أعطى المؤتمر للمجلس العام سلطة تحديد زمان ومكان المؤتمر العام التالي، أو الاستعاضة عنه بمؤتمر خاص مغلق. وهكذا تركت للمجلس العام حرية مطلقة اعتباطية في الاستعاضة عن المؤتمر العام، تلك الجلسات العظيمة المفتوحة للأممية، بمؤتمرات أو مداولات سرية. ولذلك كله يتوجب تقليص سلطات المجلس العام بما يتناسب ومهمته الأصلية، كي يعود مكتبا بسيطا يقوم بالمراسلات وجمع الإحصاءات، وذلك للتوصل بالمشاركة الحرة لجماعات مستقلة إلى تلك الوحدة التي أراد المجلس العام أن يحققها عبر الدكتاتورية والمركزية. وفي هذه المجال ينبغي على الأممية أن تكون رسول المجتمع المقبل.

وعلى الرغم من الصورة الداكنة التي حاول تعميم فروع الجورا رسم الوضع بها، أو ربما بسبب هذه الصورة، فإنه لم يتمكن من انجاز هدفه الحقيقي. وحتى في بلجيكا وايطاليا واسبانيا لم يلق طلب الدعوة السريعة إلى مؤتمر عام أي تأييد. ففي اسبانيا أثارت الهجومات الحادة على المجلس العام الشك بأن تكون الغيرة بين ماركس وباكونين هي السبب الذي يكمن وراء ذلك كله. أما في ايطاليا فلم تكن فروع الأممية تميل إلى انتزاع مقاليد الأمور من يد لندن لتوضع في يد الجورا. وفي بلجيكا فقط اتخذ قرار بتغيير القوانين الأساسية للأممية كي تعلن الأممية أنها رابطة تتشكل من فيدراليات مستقلة تماما وأن مجلسها العام لا يعدو كونه «مركزا للمراسلة والإعلام»

عوضت الصحافة البرجوازية تعميم سونفييه عن الإهمال الذي لحق به، فقد تلقفته بحماسة بالغة، ذلك أنه جاء ليؤكد ومن داخل الأممية بالذات كل الأكاذيب التي راجت، خاصة بعد سقوط عامية باريس، حول القوة الشريرة للمجلس العام. ووجدت «بولتين جوراسيان» التي أخذت تصدر بدلا عن «ريفولسيون سوسيال، التي لم تعمر طويلا، متعة في إعادة نشر مقالات الاستحسان الحماسية من الصحافة البرجوازية.

دفعت الضجة التي أثارها تعميم سونفييه المجلس العام إلى إصدار رد عليه بصورة تعميم أيضا بعنوان: التفكك المزعوم في الأممية.

7-انحلال الأممية

أحرز تعميم المجلس العام انتصارا سجاليا في دحضه للاتهامات التي صدرت عن سونفييه وأماكن أخرى حول الانتهاكات المزعومة أو حتى تزييف القوانين الأساسية والتعصب وما شابه ذلك. ولكن المرء لا يملك إلا أن يأسف لأن التعميم قد ضاع في معظمه على مسائل تافهة.

يجد المرء، في هذه الأيام، أن عليه أن يتخلص من قدر كبير من الإحجام، كي يتعب رأسه في دراسة مثل هذه المسائل غير الهامة. فمثلا، عند تأسيس الأممية قام الأعضاء الباريسيون بحذف مقطع من القانون الأساسي كي تجنبوا مضايقات الشرطة البونابرتية. فقد كان القانون الأساسي يضمن فقرة تقول أن على كل الحركات السياسية للطبقة العاملة أن تجعل نفسها وسيلة لتأمين الانعتاق الاقتصادي للطبقة العاملة. إلا أن تعبير «وسيلة» اسقط من النص الفرنسي. وعلى الرغم من أن الوضع كان في غاية الوضوح، إلا أن الكذبة انتشرت مرة بعد أخرى حتى التخمة بأن المجلس العام إنما أدرج تعبير «وسيلة» فيما بعد. وعندما اعترف مؤتمر لندن بأن العمال الألمان قاموا بواجبهم البروليتاري أثناء الحرب الفرنسية-البروسية، اتخذ ذلك ذريعة لاتهام المجلس العام بـ«القومية الجرمانية».

مزق التعميم هذه التهم المضحكة أشلاء. وعندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أن هذه التهم حيكت لتنسف مركزية الأممية، على الرغم من أن الحفاظ على هذه المركزية وتماسكها كان السبيل الوحيد لتجنيب المنظمة المترنحة الركوع أمام الهجمات الرجعية، عندما يأخذ المرء ذلك بعين الاعتبار، فإن بإمكانه أن يتفهم المرارة المتضمنة في الفقرات النهائية من التعميم والتي تتهم التحالف بأنه يتصرف لمصلحة الشرطة الدولية: «إنه ينادي بالفوضى في صفوف البروليتاريا كوسيلة محققة لتحطيم المركزية القوية التي تتمتع بها القوى السياسية والاجتماعية للمستغلين. إنه يتذرع بهذه الحجة، في وقت يسعى فيه العالم القديم إلى تحطيم الأممية، ليطالب الأممية أن تستعيض عن التنظيم بالفوضى». وبقدر ما كانت الأممية تتعرض لهجمات الأعداء الخارجيين، كانت الهجمات التي تنش عليها من الداخل تبدو أكثر تفاهة خاصة إذا كانت لا تقوم على أساس.

غير أن رؤية المجلس الواضحة لهذا الجانب من المسألة رافقها فشل ذريع في رؤية الجانب الآخر. إذ لم يكن التعميم مستعدا، كما يبدو من عنوانه، للاعتراف بأكثر من «تفكك مزعوم» في الأممية. كما أنه عزى النزاع بأكمله، كما كان ماركس قد فعل في رسائله الشخصية، إلى مكائد «بعض الدساسين» وخصوصا باكونين. وبالإضافة إلى ذلك، كانت نقطة الضعف الكبرى في التعميم دفاعه عن المجلس العام ضد تهمة «الأرثوذكسية»، فقد استشهد بان مؤتمر لندن حظر على الفروع اختيار أسماء عصبوية. كان هذا القرار مبررا تماما على اعتبار أن الأممية كانت تكتلا غير متجانس من التنظيمات النقابية والتعاونيات والجمعيات الثقافية والدعاوية، لكن التفسير الذي قدمه تعميم المجلس العام لهذا القرار خاضع لنقاش إلى حد بعيد.

يقول التعميم: «التمييز المرحلة الأولى من نضال البروليتاريا ضد البرجوازية بنمو الشيع. ووجود هذه الشيع أمر مبرر في الوقت الذي لا تكون فيه البروليتاريا قد تطورت إلى حد تتصرف معه كطبقة. يبدأ المفكرون الأفراد بانتقاد التناقضات الاجتماعية ويسعون إلى التغلب عليها بحلول طوباوية يتوقعون منة جماهير العمال أن تقبل بها وتعمل على نشرها وتنفذها. إن من طبيعة هذه الشيع التي تلتف حول هؤلاء الرواد أن تظل منعزلة وبعيدة عن أية نشاطات عملية، بعيدة عن السياسة والاضرابات والنقابات، وبكلمة بعيدة عن أي شكل من أشكال الحركة الجماهيرية. أما جماهير العمال فتظل غير مكثرة بهم أو حتى معادية لدعايتهم. فعمال باريس وليون كانوا بعيدين عن السانسيمونيين والفوريين والايكاريين، شأنهم في ذلك شأن الميثاقيين والنقابيين الانجليز مع الاونيين. إن هؤلاء يشكلون في البداية قوة دافعة لحركة الطبقة العاملة، ولكنهم يصبحون عقبة رجعية عندما تتخطاهم هذه الحركة. ومن أمثلة ذلك، شيع فرنسا وانجلترا واللاساليون الذين ظهروا بعد ذلك في ألمانيا واستمروا يعرقلون تنظيم البروليتاريا عدة سنوات إلى أن تحولوا في النهاية إلى مجرد أدوات بيد الشرطة». غير أن السبب الحقيقي لانحلال الأممية، كان في الواقع هو التناقضات التي يصعب حلها والتي نمت في المؤسسة الكبيرة بعد سقوط عامية باريس. فبعد سقوط العامية، عبأ العالم الرجعي قواه ضد الأممية، وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن للأممية أن تدافع بها عن نفسها هي مركزة قواها بشكل أقوى. غير أن سقوط العامية ذاته أكد من جهة أخرى ضرورة النضال السياسي وهو نضال مستحيل دون إضعاف الروابط الأممية، لأن القيام به غير ممكن إلا ضمن الحدود القومية.

وفي التحليل الأخير، يمكن القول أن مطلب الامتناع السياسي، بغض النظر عن المبالغات التي أحاطت به، كانت نتيجة عدم الثقة بمكائد البرلمانية البرجوازية، وعدم الثقة هذه قد طرحت بوضوح وبأقصى حدة في الخطاب الشهير الذي ألقاه ليبكنشت عام 1869. وبالمثل كان

الاعتراض على دكتاتورية المجلس العام الذي زاد حدة في معظم الأقطار بعد سقوط عامية باريس، وبصرف النظر عن كل المبالغات، ناجما عن الإدراك بأن الحزب الوطني للطبقة العاملة يجب أن يسترشد بالدرجة الأولى بشروط وجوده في الأمة التي يشكل جزءا منها، أي أنه لا يستطيع أن يقفز فوق هذه الشروط تماما كما لا يستطيع المرء أن يقفز فوق ظله. وبكلام آخر، لم يكن ممكنا قيادة الحركة من الخارج. وعلى الغرم من أن ماركس كان قد أشار في القانون الأساسي للأممية على الارتباط الوثيق يبين النضال السياسي والنضال الاجتماعي للطبقة العاملة، إلا أنه عمليا كان ينطلق دوما من المطالب الاجتماعية للعمال، تلك المطالب المتشابهة في كل الأقطار الخاضعة لنمط الإنتاج الرأسمالي، ولم يكن يتوقف عند المسائل السياسية إلا حين تنجم عن هذه المطالب الاجتماعية –المطالبة بتقليص قانوني ليوم العمل، على سبيل المثال. أما المسائل السياسية بالمعنى الحقيقي والمباشر للكلمة- مثل المسائل المتعلقة بدستور الدولة، والتي تختلف من بلد لآخر- فقد كان يفضل إغفالها إلى حين تكون فيه البروليتاريا قد اكتسبت ثقافة ووضوحا بفضل جهود الأممية.

ولقد قيل أن ماركس كان سيستمر في تحفظه هذا لولا أن سقوط عامية باريس والتحريض باكونين فرضا المسألة السياسية عليه. وهذا أمر محتمل، لكن ماركس كان بطبيعته يقبل التحدي فور أن يشعر به، على الغرم من أنه في الحالة التي نحن بصددها لم يستطع إدراك أن المسألة لا يمكن حلها ضمن إطار القوانين الأساسية للأممية، وأن الأممية ستعاني من الانحلال الداخلي قدر ما تحاول مركزة قواها للنضال ضد الأعداء الخارجيين. ذلك أنه ما أن تشكلت أحزاب عمالية وطنية حتى أخذت الأممية بالتفسخ. كم كان عنيفا التأنيب الذي وجهه ليبكنشت على شفايتزر بسبب فتور هذا اتجاه الأممية! إلا أن ليبكنشت عندما وجد نفسه على رأس جناح ايزناخ كان عليه أن يسمع التأنيب ذاته من انغلز، ولم يكن من ليبكنشت إلا أن أعاد الجواب ذاته الذي كان قد سمعه من شفايتزر، أي التذرع بالقوانين الألمانية التي تحظر الانتظام: «أنا لا أحلم أن أعرض وجود منظمتنا للخطر من أجل هذه المسألة وفي هذا الوقت بالذات».

كان تشكيل جناح ايزناخ بمثابة الضربة الأولى التي وجهت إلى فرع الأممية الناطق بالألمانية في جنيف، أما الضربة القاضية التي وجهت لهذا الفرع الذي كان أقدم وأقوى منظمات الأممية في القارة الأوروبية فقد جاءت بتشكيل حزب عمالي سويسري عام 1871، ففي نهاية هذا العام اضطر بيكر إلى التوقف عن إصدار صحيفة «دير فوربوت».

لم يكن ماركس وانغلز في عام 1872 قد أدركا بعد الأسباب الحقيقية للوضع، وقد قللا من قدر خدماتهما ذاتها عندما اعتقدا أن الأممية انهارت نتيجة مكائد ديماغوجي واحد (باكونين)، مع أنه كان يمكن في لحقيقة القول أنها انسحبت من الميدان بكل شرف بعد أن أدت قسطها من مهمة تاريخية عظيمة تخطتها الآن. فليس هناك أمر أكثر لاماركسية من القول أن فردا خبيثا «ماكرا خطيرا» استطاع أن يدمر منظمة بروليتارية مثل الأممية، ولا شك أن فكرة كهذه ستغضب أولئك الاورثوذكسيين الذين تقشعر أبدانهم هولا إذا قيل أن ماركس وانغلز ربما سهوا عن كتابة حرف ما بشكل كامل. ولكن لو كان ماركس وانغلز اليوم على قيد الحياة، لما أبديا غير الازدراء الشديد للقول أن النقد الذي لا يرحم، والذي كان سلاحهما الحاد، لا يجوز أن يستخدم ضدهما أبدا.

لم تكن عظمة ماركس وانغلز الحقيقية تكمن في أنهما لم يعرفا الخطأ على الإطلاق، وإنما كانت في تراجعهما الفوري عن الخطأ عندما يثبت لهما أنه فعلا كذلك. ولقد اعترف انغلز عام 1874 أن الأممية عاشت أكثر مما يجب. «ولسوف يكون من الضروري أن تلحق بحركة الطبقة العاملة هزيمة عامة كالتي قاستها بين عامي 1849 و1864 قبل أن ينبثق أممية جديدة، قبل أن ينبثق حلف من كل الأحزاب البروليتارية في مختلف الأقطار، على الأسس ذاتها التي قامت عليها الأممية الأولى. أما الآن فالعالم البروليتاري اكبر مما يجب وأكثر انتشارا مما يجب». وعزى انغلز نفسه بأن الأممية سيطرت على مسرح التاريخ الأوروبي عشر سنوات لمصلحة المستقبل وأنه يمكن لها أن تنظر إلى الوراء بفخر بسبب ما فعلت.

وفي عام 1878 كتب ماركس في نشرة انجليزية، مهاجما الادعاء بأن الأممية فشلت وأصبحت ميتة، يقول: «إن الأحزاب العمالية- الاشتراكية-الديمقراطية المنظمة بشكل أو بآخر ضمن حدود قومية في ألمانيا وسويسرا والدنمرك والبرتغال وايطاليا وبلجيكا، تمثل في الواقع جماعات أممية. لم تعد الأممية فروعا مبعثرة ومنعزلة في مختلف الأقطار يجمعها مجلس عام من الخارج، بل أصبحت أحزابا تجمعها الطبقة العاملة نفسها برباط ثابت ونشيط ومباشر، يجمعها تبادل الأفكار والمساعدة المتبادلة والأهداف المشتركة.. وهكذا فإن الأممية لم تمت ولكنها تطورت من مرحلة إلى مرحلة أعلى تحقق فيها بالفعل كثير من الاتجاهات الأصلية للأممية. ولسوف يتعرض هذا التطور الثابت إلى كثير من التغيرات قبل أن يصبح بالإمكان كتابة الفصل الأخير في تاريخه».

أظهر ماركس في هذه السطور رؤياه النبوية من جديد. ففي وقت كانت فيه أحزاب الطبقة العاملة لا تزال في مرحلة النمو وقبل أن تتشكل أممية جديدة بما يزيد على عقد من الزمن، تنبأ ماركس بطابعها التاريخي، ولكنه لم يقل أن هذا الشكل الجديد سيكون نهائيا. لقد كان متأكدا من شيء واحد: ستظل الحياة الجديدة تنبثق من بين رماد الحياة القديمة، إلى أن تتمكن روح العصر من تحقيق ذاتها.

8-مؤتمر لاهاي

كان التعميم الذي أصدره المجلس العام في 5 آذار قد أعلن عن موعد انعقاد المؤتمر السنوي في بداية أيلول، وفي أثناء ذلك قرر ماركس وانغلز أن يقترحا نقل مقر المجلس على نيويورك.

ثار الكثير من الجدال حول ضرورة وحكمة هذا الاقتراح والسبب في تقديمه. فاعتبر البعض أنه كان جنازة من الدرجة الأولى تقام للأممية، وقال آخرون أن ماركس كان يحاول إخفاء حقيقة أن لم يعد في الأممية أمل ولا رجاء. غير أن هذه الفكرة تتعارض مع استمرار ماركس

وانغلز في دعم الأممية بكل قوة وبذلهما أقصى الجهود لجعلها تستمر في الحياة حتى بعد أن انتقل المجلس العام إلى نيويورك. وقيل أيضا أن ماركس كان قد أصبح تعبا بسبب نشاطاته نيابة عن الأممية، وكان يرغب في تكريس نفسه لعمله العلمي، ووجدت هذه الفكرة سندا لها في رسالة كان انغلز قد بعث بها إلى ليبكنشت في 27 أيار 1872، وفي هذه الرسالة يشير انغلز إلى اقتراح بلجيكي بإلغاء المجلس العام برمته فيقول: «أما بالنسبة لنا فليس لدينا أي اعتراض. ذلك أننا لن نكون لا ماركس ولا أنا أعضاء فيه على أية حال. فكما هي الأمور الآن ليس لدينا ما يكفي من الوقت لعملنا، وذلك أمر يجب أن يتوقف». ولكن هذا لم يكن أكثر من تعليق عابر في لحظة انزعاج. وحتى لو كان ماركس وانغلز سيرفضان ترشيح نفسيهما من جديد لعضوية المجلس العام، فإن ذلك لم يكن سببا كافيا لنقله إلى نيويورك. وبالإضافة إلى ذلك، كان ماركس يرفض دوما أن يهمل الأممية من أجل عمله العلمي ما لم يأت وقت يضمن فيه أن الأممية تسير على خط سليم. ولهذا فإن من المستبعد كثيرا أن يكون هذا هو السبب الذي جعل ماركس يفكر في ترك الأممية وشأنها خلال أخطر أزمة واجهتها منذ وجودها.

ولعلنا نجد في رسالة كتبها ماركس إلى كوغلمان في 29 تموز ما يقربنا من الحقيقة. يقول ماركس في هذه الرسالة «أن مؤتمر الأممية الذي سيفتتح في لاهاي في الثاني من أيلول سيكون مسألة حياة أو موت بالنسبة للأممية، وقبل أن انسحب أريد على الأقل أن احميها من قوى الانحلال». لقد كان نقل المجلس العام من لندن حيث ازداد انغماسا في الخلافات إلى نيويورك جزءا من خطة ماركس لحماية الأممية من «قوى الانحلال» فمع أن الاتجاهات الباكونينية لم تكن ممثلة في المجلس العام أو كان وجودها فيه ضعيفا إلى حد لم تكن معه تشكل خطرا، إلا أن التشوش الذي كان ناشبا بين الأعضاء الألمان والفرنسيين والانجليز اضطر المجلس إلى تشكيل لجنة فرعية لتبحث في النزاعات المستمرة.

وبالإضافة إلى ذلك، حدث جفاء بين ماركس وعضوين في المجلس العام كانا سنين طويلة أخلص مساعديه وأكفأهم، وهما ايكاريوس ويونغ. ففي أيار عام 1872 وقع شقاق واضح بين ماركس وايكاريوس. فقد كان ايكاريوس يعاني ضائقة مالية حادة، وكان يظن أنه لا يمكن الاستغناء عنه. فقدم إشعارا بتخليه عن منصبه كأمين عام للأممية ما لم يضاعف راتبه المتواضع الذي كان يبلغ خمسة عشر شلنا في الأسبوع. ولكن جرى انتخاب الانجليزي جون هيلز بدلا عنه، فلام ماركس عن غير حق على ذلك، مع أن ماركس كان في الواقع يؤيده دوما ضد الانجليز، رغم انه كان كثيرا ما يعنفه لأنه يسرب إلى الصحافة البرجوازية معلومات حول الأمور الداخلية للأممية، وبشكل خاص حول المؤتمر المغلق الذي عقدته الأممية في لندن. أما يونغ فقد ألقى باللوم على انغلز وأسلوبه الاوتوقراطي على الجفاء الذي حدث بينه وبين ماركس. ولربما كان ذلك صحيحا إلى حد ما، إذ ربما كان ماركس، بعد أن صار على اتصال يومي بانغلز، قد أصبح دون نية سيئة يعبر ايكاريوس ويونغ اهتماما اقل من ذي قبل. في حين أن «الجنرال، كما كان انغلز يدعي في أوساط المجلس العام، كان يتكلم بلهجة عسكرية حادة، وكان الأعضاء يستعدون تلقائيا للصراخ كلما جاء دوره في الحديث في اجتماعات المجلس العام.

وبعد انتخاب هيلز أمينا عاما نشأت بينه وبين ايكاريوس عداوة لدود حاز فيها ايكاريوس على تأييد قسم من أعضاء الانجليز. أما ماركس فلم يحظ بغير القليل من التأييد من الأمين العام الجديد. بل على العكس من ذلك، عندما تأسست فيدرالية انجليزية استنادا إلى قرارات مؤتمر لندن، وعقدت أول مؤتمر لها في نونتغهام في 21 و22 تموز، اقترح هيلز على المندوبين الحاضرين أن تقيم الفيدرالية علاقات مع الفيدراليات الأخرى مباشرة وليس عن طريق المجلس العام، كما اقترح أن تقف الفيدرالية في المؤتمر العام القادم إلى جانب المطالبة بتعديل القوانين الأساسية بهدف تقليص سلطة المجلس العام. وكان هذا كله يتفق وشعار باكونين «استقلال الفيدراليات في خطر»، غير أن هيلز سحب الاقتراح الثاني، أما الاقتراح الأول فقد تم تبنيه، ولم يظهر المؤتمر أي ميل إلى برنامج باكونين، ولكنه كان بالتأكيد ميالا إلى الراديكالية الانجليزية. فعلى سبيل المثال، وقف المؤتمر إلى جانب الملكية العامة الأرض ولكنه رفض الملكية العامة لجميع وسائل الإنتاج، وأيده هيلز في ذلك أيضا. لقد كان هيلز يتآمر علنا على المجلس العام، وفي آب اضطر المجلس إلى إقصائه عن منصبه.

كان الاتجاه البلانكي سائدا بين الأعضاء الفرنسيين في المجلس العام. وكان البلانكيون موضع ثقة تامة فيما يتعلق بالمسألتين الرئيسيتين المطروحتين، مسألة النشاط السياسي ومسألة المركزية الشديدة. لكن هؤلاء كانوا يشكلون خطرا اكبر في دعوتهم الأساسية لانقلابات ثورية في وقت كانت الرجعية الأوروبية فيه تنتظر أية ذريعة لتنقض بكل قوتها على الأممية. وفي الواقع كان قلق ماركس من أن يتمكن البلانكيون مرة أخرى من السيطرة على المجلس العام هو على الأرجح الذي دفعه إلى اقتراح نقل المجلس من لندن إلى نيويورك، حيث يمكن أن يضمن له تركيب أممي وتتأمن سلامة وثائقه، الأمر الذي أصبح مستحيلا في أي مكان في القارة الأوروبية.

كان لدى ماركس في مؤتمر لاهاي (الذي انعقد من 2 على 7 أيلول عام 1872) أغلبية أكيدة، بفضل قوة تمثيل المندوبين الفرنسيين والألمان. ومع أن خصوم ماركس اتهموه بأنه فبرك هذه الأكثرية بشكل مصطنع، إلا أن هذا الاتهام لا أساس له. فعلى الرغم من أن المؤتمر صرف حوالي نصف وقته يبحث الاعتمادات، إلا أنه وافق عليها جميعا باستثناء اعتماد واحد. كان ماركس قد كتب فعلا في حزيران إلى أمريكا اعتمادات لانتداب أعضاء فرنسيين وألمان، كما أن بعض المندوبين كانوا يمثلون فروعا في غير بلادهم، واستعمل آخرون أسماء مستعارة في المؤتمر حتى لا يقعوا في يد الشرطة عندما يعودون بعد ارفضاض المؤتمر، أو قاموا بإخفاء أسماء الفروع التي يمثلونها للسبب ذاته. وهذا ما يفسر الاختلافات الكبيرة في الأعداد التي أوردتها التقارير المختلفة التي كتبت حول المؤتمر فيما يتعلق بتمثيل الأقطار المختلفة فيه.

كان هناك بالتحديد ثمانية مندوبين يمثلون المنظمات الألمانية: برنارد بيكر (برونزويك)، كانو (شتوغرات)، دييتزغن (درسدن)، كوغلمان (كيبل)، ميلك (برلين)، ويتنغهوزن (ميونخ)، شو (دارتمبرغ)، شوماخر (سولنغن). أما ماركس الذي كان ممثلا للمجلس العام فقد حصل أيضا على اعتماد من كل من نيويورك وليبزيغ وميتز، وحصل انغلز على اعتماد من نيويورك ومن برسلو (بولندا). وحصل هنبر مندوب ليبزيغ على اعتماد من نيويورك، كما حصل فريدلاندر مندوب برلين على اعتماد من زيوريخ. وكان هناك مندوبان آخران بأسماء ألمانية هما والتر وسوان، اللذان كانا في الحقيقة فرنسيين هما هيديغيم وونتراجيه، وكان كلاهما ذا شخصية مريبة. وعند انعقاد مؤتمر لاهاي، كان هيديغم قد أصبح بالفعل جاسوسا بونابرتيا. ولما كان المندوبون الرفنسيون ممن فروا بعد سقوط العامية، فقد ظهروا في المؤتمر بأسمائهم الحقيقية. وكان

فرانكل ولونغيه من بينهم يؤيدان ماركس، بينما كان رابفييد وفيلان وغيرهما بلانكيين، ولكن الأماكن التي حصلوا على اعتماداتهم منها ظلت سرية. ومثل المجلس العام بعضوين انجليزيين هما روش وسكستون وعضو بولندي هو فروبسكي وثلاثة أعضاء فرنسيين هم سيراليه وكورنييه ودوبون، بالإضافة إلى ماركس نفسه. ومثل لسنر جمعية العمال الشيوعيين في لندن. وأرسل المجلس الفيدرالي البريطاني أربعة كمندوبين كان من بينهم ايكاريوس وهيلز الذي بدأ على الفور مغازلة الباكونيين.

ولم يرسل الباكونيون الايطاليون أي مندوب إلى المؤتمر، إذ كانوا قد عقدوا مداولة في مدينة ريمني قرروا فيها قطع كل العلاقات مع المجلس العام. أما المندوبون الأسبان الخمسة فكانوا باكونيين عدا لافارغ، وكذلك كان الممثلون البلجيكيون الثمانية والهولنديون الأربعة. وأرسلت فيدرالية جورا غيلوم وشفايتزر غيبل، بينما ظلت جنيف مخلصة لبيكر. ومن أمريكا جاء أربعة مندوبين هم سورج الذي كان مثل بيكر من أكثر أنصار ماركس إخلاصا، ودريد العضو السابق في العامية والذي كان بلانكيا، أما المندوب الثالث فكان باكونينيا، وأما الاعتماد الرابع فقد كان الوحيد الذي لم يعترف به المؤتمر. ومثلت كل من الدنمرك والنمسا وهنغاريا واستراليا بمندوب واحد.

حدث في المؤتمر مشاهد عاصفة، حتى أثناء البحث في الاعتمادات الذي استمر ثلاثة أيام. فقد اعترض بشدة على الاعتمادات الاسباني للافارغ، وأخيرا اعترف بعد ضد أقلية امتنعت عن التصويت. وعند مناقشة اعتماد أرسله أحد فروع شيكاغو إلى عضو يقيم في لندن، اعترض احد ممثلي المجلس الفيدرالي البريطاني قائلا أن هذا العضو لم يكن معروفا كقائد عمالي، وعندها أجاب ماركس أنه يشرف هذا العضو أن لا يكون قائدا عماليا انجليزيا لأن أغلبية هؤلاء باعت نفسها لليبراليين. وعندئذ ووفق على الاعتماد، إلا أن هذه الملاحظة الساخرة أثارت البعض، واستغلها هيلز وأصدقاؤه ضد ماركس بعد المؤتمر. أما ماركس فقد ثبت على تصرفه، ولم يبد أسفه على الملاحظة التي أبداها ولم يسحبها. وبعد أن انتهى التدقيق في الاعتمادات، شكلت لجنة خماسية لتقوم بالتمحيص الأولي لعدد من الوثائق الخاصة بالنزاع مع باكونين، وروعي قدر الإمكان عند انتخاب أعضاء هذه اللجنة أن يكونوا بعيدين عن النزاع حول التحالف. فتشكلت من الألماني كانو رئيسا وعضوية كل من الفرنسيين لوكين وفيتشارد ووالتر (هيديغم) والبلجيكي سبلنغارد.

لم يبدأ المؤتمر عمله الفعلي إلا في اليوم الرابع، وذلك بتلاوة تقرير المجلس العام. كان ماركس هو الذي أعد هذا التقرير وتلاه أمام المؤتمر بالألمانية، ثم تلاه سكستون بالانجليزية ولونغيه بالفرنسية وابيل بالفلامية. حمل التقرير بشدة على كل أعمال العنف التي ارتكبت ضد الأممية من الاستفتاء البونابرتي إلى القمع الدموي لعامية باريس وجرائم تيير وفافر والأعمال الشائنة للوزارة الفرنسية ومحاكمات الخيانة العظمى في ألمانيا، حتى أن الحكومة الانجليزية لم تنجح من التوبيخ بسبب الإرهاب الذي مارسته ضد الفروع الايرلندية وبسبب التحقيقات التي كانت تقوم بها سفاراتها في الخارج حول فروع الأممية. ومضى التقرير إلى القول أن الحملة الشرسة التي قامت بها الحكومات ترافقت مع حملة مكثفة من الكذب جندت لها كل قوى العالم المتمدن. لقد قذفت الأممية بالافتراءات والبرقيات المثيرة والتزييف الوقح للوثائق العامة، مثل الافتراء النموذجي الجهنمي الذي ينسب للأممية حريق شيكاغو الكبير. إنه لأمر عجيب، يقول البيان، إن الإعصار الذي دمر جزر الهند الغربية لم ينسب هو أيضا إلى الأممية.

وردا على هذه الحملة الوحشية، أوجز تقرير المجلس العام التقدم العام المطرد الذي حققته الأممية: تغلغلها في هولندا والدنمرك والبرتغال وايرلندا وسكوتلندا، ونموها في الولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا وبيونس ايريس. ووفق على التقرير وسط التصفيق والهتاف، وبناء على اقتراح تقدم به مندوب بلجيكي سجل المؤتمر إعجابه بجميع ضحايا النضال البروليتاري من اجل الانعتاق وتعاطفه معهم.

ثم بدأ النقاش حول المجلس العام. فقام لافراغ وسورج بالدفاع عن بقائه على أساس الصراع الطبقي: إن النضال اليومي لطبقة العاملة ضد الرأسمالية لا يمكن أن يشن بفعالية دون هيئة مركزية، ولو أن المجلس العام لم يكن موجودا لكان الضروري أن نوجده. وكان المتحدث الرئيسي باسم المعارضة هو غيلوم، فنفى أن تكون هناك حاجة إلى مجلس عام إلا إذا كان مكتبا مركزيا للمراسلة والإحصاء ودون أن تكون لديه أية سلطات. فالأممية لم تكن اختراع رجل ذكي يمتلك نظرية سياسية واجتماعية معصومة عن الخطأ، ولكنها كما يعتقد ممثلو الجورا نجمت عن ظروف وجود الطبقة العاملة، وهذه الظروف ذاتها توفر ضمانة كافية لوحدة جهود الطبقة العاملة.

انتهى النقاش في اليوم الخامس للمؤتمر خلف أبواب مغلقة، كما كانت مناقشة الاعتمادات قد جرت خلف أبواب مغلقة كذلك. وفي خطاب طويل ألقاه ماركس، لم يطالب فقط بالحفاظ على سلطات المجلس العام السابقة، بل طالب أيضا بزيادتها: يجب أن يكون للمجلس العام الحق، في ظروف معينة، ليس في تعليق فروع معينة فحسب بل في تعليق فيدرياليات كاملة على أن يبت في الأمر مؤتمر قادم. والمجلس العام الذي لا يملك تحت إمرته لا شرطة ولا عسكرا لا يستطيع أن يسمح لقوته الأدبية بالاضمحلال. إنه لمن الأفضل أن يلغي المجلس العام تماما على أن يتحول إلى مجرد صندوق بريد. فازت وجهة نظر ماركس بأغلبية 36 صوتا مقابل 6 أصوات وامتناع 15 عن التصويت.

بعد ذلك اقترح انغلز أن يتنقل المجلس العام من لندن إلى نيويورك، وأشار إلى أنه جرى التفكير في عدد من المناسبات بنقل المجلس من لندن إلى بروكسيل رفضت ذلك استمرار، في حين أن الظروف السائدة تحتم نقل المجلس إلى نيويورك. وأضاف أن ذلك يجب أن يتم لسنة واحدة على الأقل. أثار الاقتراح دهشة عامة كانت في معظمها دهشة استنكار. فقد هاجمه المندوبون الفرنسيون بعنف، ونجحوا في حمل المجلس على التصويت أولا حول ما إذا كان يتوجب نقل المجلس من حيث المبدأ ثم يجري التصويت حول ما إذا كان يتوجب نقله إلى نيويورك أو إلى مكان آخر. ففاز الاقتراح بنقل المجلس بأغلبية بسيطة هي ستة وعشرون صوتا مقابل ثلاثة وعشرين وامتناع تسعة عن التصويت، بينما أيد ثلاثون نقله إلى نيويورك. وبعد ذلك جرى انتخاب اثني عشر عضوا في المجلس العام الجديد ومنحوا حق اختيار سبعة أعضاء آخرين.

افتتح النقاش حول العمل السياسي في الجلسة ذاتها، فطرح فيلان مشروع قرار بروح قرار مؤتمر لندن، معلنا أن الطبقة العاملة يجب أن تشكل حزبها السياسي الخاص المستقل والمعادي لجميع الأحزاب السياسية البرجوازية. واستشهد فيلان ومن بعده لونغين بدروس عامية باريس التي انهارت بسبب افتقارها إلى برنامج سياسي. ومن جهة أخرى، أشار غيلوم على أحداث سويسرا حيث قام العمال أثناء الانتخابات بإقامة تحالفات انتخابية مع الراديكاليين وأحيانا أخرى مع الرجعيين، وقال أن فروع جورا لا تريد أن يكون لها شأن بهذا الخداع، فأعضاؤها هم أيضا سياسيون ولكنهم سياسيون سلبيون. إنهم يريدون تدمير السلطة السياسية لا السيطرة عليها.

استمر حتى اليوم التالي، اليوم السادس والأخير في المؤتمر الذي بدأ بمفاجئة. فقد غادر رانغييه وفيلان والبلانكيون الآخرون المؤتمر بسبب القرار الذي اتخذ بنقل المجلس العام إلى نيويورك، تاركين وراءهم رسالة يعلنون فيها «أن الأممية انهارت عندما دعيت إلى القيام بواجبها. لقد هربت من الثورة إلى ما وراء الأطلنطي». تسلم سورج رئاسة المؤتمر عوضا عن رانغييه، ثم ووفق على اقتراح فيلان بأغلبية خمسة وثلاثين صوتا ضد ستة وامتناع ثمانية عن التصويت. وكان عدد من المندوبين قد عاد إلى بلاده، ولكنهم تركوا رسائل مكتوبة تحدد موقفهم المؤيد من مشروع القرار.

خصصت الساعات الأخيرة من اليوم الأخير للمؤتمر للاستماع إلى تقرير اللجنة الخماسية حول باكونين والتحالف. أعلنت الجنة بأغلبية أربعة أصوات مقابل واحد (هو العضو البلجيكي) أنها ترى من الثابت أن تحالفا سريا قد وجد بقوانين أساسية تتناقض مباشرة مع القوانين الأساسية للأممية، ولكن ليس هناك دليل كاف على أن التحالف ما زال موجودا. وقالت اللجنة أنه ثبت ثانيا من خلال مسودة القوانين الأساسية للتحالف ومن وسائل باكونين أنه حاول أن يشكل، وربما نجح في تشكيل، جمعية سرية داخل الأممية بقوانين أساسية تختلف جذريا عن قوانين الأممية سياسيا واجتماعيا. واستنادا إلى ذلك، طالبت اللجنة بطرد باكونين وغيلوم وعدد من أنصارهما من الأممية. ولم يقدم كانو الذي تلى تقرير اللجنة أي دليل مادي، ولكنه أعلن أن أغلبية اللجنة قد وصلت إلى يقين أدبي بصحة استنتاجاتها، وطلب الثقة من المؤتمر على هذا الأساس.

طلب الرئيس من غيلوم أن يدافع عن نفسه، وكان غيلوم قد رفض المثول أمام اللجنة. فوقف هذا وأعلن أنه لن يحاول الدفاع عن نفسه لأنه لا يرغب في الاشتراك في مهزلة. وقال أن الهجوم لم يكن موجها ضد عدد من الأفراد، بل ضد الاتجاهات الفيدرالية بوجه عام. أما ممثلو هذه الاتجاهات، بقدر ما كانوا لا يزالون حاضرين في المؤتمر، فقد استعدوا لمثل هذا وأعلنوا اتفاقية تضامن. ثم قام مندوب هولندي وقرأ هذه الاتفاقية، التي كانت موقعة من خمسة بلجيكيين وأربعة أسبان ومندوبين اثنين من اليور وأمريكي واحد وهولندي واحد. وأعلنت الاتفاقية أن الموقعين يرغبون الحفاظ على علاقات إدارية مع المجلس العام تجنبا لأي انقسام في صفوف الأممية، ولكنهم يرفضون أي تدخل من جانب المجلس العام تجنبا لأي انقسام في صفوف الأممية، ولكنهم يرفضون أي تدخل من جانب المجلس في الشؤون الداخلية للفيدراليات إذا تم هذا التدخل على أساس أن الفيدراليات خرقت القوانين الأساسية للأممية. وناشد الموقعون جميع الفيدرليات والفروع أن تهيئ للمؤتمر التالي كي تنتصر فيه مبادئ المشاركة الحرة. لكن المؤتمر لم يكن على استعداد للتفاوض، فطرد باكونين في الحال بأغلبية سبعة وعشرين صوتا ضد سبعة وامتناع ثمانية عن التصويت. أما باقي اقتراحات اللجنة الخاصة بالطرد فقد رفضت، ولكن طلب منها أن تنشر ما ورد يف تقريها حول التحالف.

9-آلام الوداع

انتهى تاريخ الأممية الأولى بمؤتمر لاهاي، رغم كل جهود ماركس وانغلز للإبقاء عليها حية. لقد حاولا أقصى ما يستطيعان تسهيل عمل المجلس العام الجديد في نيويورك، ولكن هذا لم ينجح في تثبيت أقدامه على الأرض الأمريكية. فقد كان هناك أيضا الكثير من النزاعات بين الفروع في أمريكا، بالإضافة إلى أن الحركة هناك كانت تفتقر إلى الخبرة والاتصالات وإلى القوى الفكرية والوسائل المادية. كان سورج هو حياة وروح المجلس الجديد، وكان على معرفة تامة بالظروف الأمريكية وعارض نقل المجلس إلى نيويورك. وقد اعتذر في البداية عن قبول انتخابه أمينا عاما، ثم عاد ووافق على ذلك لأن إخلاصه لم يسمح له بخذلان الأممية في وقت كانت أحوج ما تكون فيه إلى خدماته.

إن استخدام وسائل دبلوماسية في لشؤون البروليتارية أمر سيء على الدوام. فقد كان لدى ماركس وانغلز من الأسباب ما يجعلهما يخشيان أن يواجه اقتراحهما بنقل المجلس العام من لندن إلى نيويورك بمعارضة عنيفة من العمال الألمان والفرنسيين والانجليز، وحاولا إخفاء مقاصدهما أطول مدة ممكنة كي لا يضيفا نزاعا جديدا إلى النزاعات العديدة القائمة. ومع أنهما نجحا في مفاجأة مؤتمر لاهاي إلا أن النتائج كانت سيئة. فالمقاومة التي كانا يخشيانها لم تخف حدتها، بل على العكس من ذلك ازدادت قوة ومرارة.

كانت مقاومة الألمان هي الأقل عنفا نسبيا. ومع أن ليبكنيشت كان ضد نقل المجلس العام وأعلن باستمرار أن ذلك خطأ، غلا انه كان في ذلك الحين سجينا مع بيبل في هوبرتوسبورغ. وكان اهتمامه بالأممية قد تضاءل إلى حد كبير. كما كان هذا هو حال الأكثرية في جناح ايزناخ أيضا. أما الانطباع الذي عاد به مندوبو الجناح إلى مؤتمر لاهاي فلم يمكن له من أثر غير زيادة عدم الاكتراث. كتب انغلز في 8 أيار عام 1873 رسالة إلى سورج قال فيها: «على الرغم من أن لدى الألمان هم أيضا نزاعاتهم مع اللاساليين، إلا أنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة في لاهاي، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا انسجاما وأخوة قياسا بنزاعاتهم الخاصة. لقد أصبحوا غير مبالين». لربما كان هذا هو السبب الذي حدا بالأعضاء الألمان في الأممية إلى عدم إبداء معارضة شديد لنقل المجلس العام.

كان الأمر الأكثر خطورة يتمثل بانسحاب البلانكيين، الذين كان ماركس وانغلز يريان أنهم يأتون بعد الألمان ومعهم في المسائل الحاسمة المطروحة والذين اعتمدا بشكل خاص على تأييدهم ضد البرودونيين، الفرع الفرنسي الآخر الذي جعله موقفه يميل إلى الباكونينيين بوجه عام.

فقد تضاعفت مرارة البلانكيين عندما عرفوا أن قرار نقل المجلس العام إلى نيويورك اتخذ للحيلولة دونهم والسيطرة عليه واستخدامه في دعم تاكتيكاتهم التآمرية. على أية حال، كانت فرنسا مغلقة في وجه تحريض البلانكيين، فما أن افترقوا عن الأممية حتى راحوا ضحية المصير المعتاد للمهاجرين. فأعلن انغلز في رسالة بعث بها إلى سورج في 12 أيلول عام 1874: «لقد تحول المهاجرون الفرنسيون إلى جماعات صغيرة فتشاجروا مع بعضهم البعض ومع الآخرين لأسباب شخصية صرفة، وغالبا بسبب أمور مالية، ولسوف نتخلص منهم تماما في وقت قريب... لقد أفسدت الحرب والعامية والمنفى أخلاقهم إلى حد مخيف، ولا يستطيع غير ظرف صعب تخليص فرنسي انحطت أخلاقه». غير أن هذا كان عزاء باردا جدا.

كذلك كان لنقل المجلس العام إلى نيويورك أسوأ النتائج على الحركة في انجلترا. ففي 18 أيلول تقدم هيلز باقتراح إلى المجلس الفيدرالي البريطاني يطلب فيه التصويت على لوم ماركس بسبب ما قاله حول فساد قادة الطبقة العاملة الانجليزية، ووفق على الاقتراح ورفض بتعادل الأصوات تعديل له يقول أن ماركس نفسه لم يكن يؤمن بالتهمة التي ألقاها، ولكنه فعل ليخدم أغراضه الخاصة فحسب. وذكر هيلز أن يعتزم تقديم مشروع قرار يدعو إلى طرد ماركس من الأممية، بينما أعلن عضو آخر عن مشروع قرار برفض قرارات مؤتمر لاهاي.

ثم استمر هيلز في علاقاته العلنية مع فيدرالية جورا التي كان قد أقامها سرا في لاهاي. ففي 6 تشرين الثاني كتب إلى هذه الفيدرالية باسم المجلس الفيدرالي البريطاني قائلا أن نفاق المجلس العام القديم قد افتضح الآن. فقد حاول أن يقيم جماعة سرية داخل الأممية بحجة القضاء على جماعة سرية أخرى كانت مجرد اختلاف من بنات أفكاره، وذلك كي يحقق أغراضه الخاصة. وفي الوقت ذاته أشار هيلز إلى أن الانجليز لم يكونوا متفقين سياسيا مع فيدرالية جورا، فهم مقتنعون بجدوى العمل السياسي، ولكنهم بالطبع على استعداد لإعطاء الفيدراليات الأخرى استقلال كاملا حسب ما تتطلبه الأوضاع المختلفة في الأقطار المختلفة.

وبعد ذلك وجد هيلز لنفسه حليفين غيورين في ايكاريوس ويونغ، وخاصة يونغ الذي أصبح بعد تردد قصير من اعنف خصوم ماركس وانغلز. لقد ارتكب ايكاريوس ويونغ خطيئة شنيعة، إذ اخضعا تقييماتهما السياسية لاعتبارات شخصية بالدرجة الأولى، مثل الغيرة والحساسية اللتين ثارتا في نفسيهما لأن ماركس اظهر اهتماما اكبر تجاه انغلز، أو هكذا بدا، ومثل تخليهما عن المركز المشرف والمؤثر الذي كانا به كعضوين في المجلس العام. ولسوء الحظ، تعظم الضرر الذي ألحقاه بسبب موقعهما السابق هذا بالذات، فقد عرفا من قبل في عدد من المؤتمرات بأنهما أكثر مؤيدي أفكار ماركس غيرة وثقة، فلما ناشدا تسامح فيدرالية جورا ضد تعصب قرارات لاهاي، بدا ذلك وكأنه برهان قاطع وأكيد على دكتاتورية ماركس وانغلز.

وفي هذه الحالة أيضا، كان القول أنهما ما دمرا إلا نفسيهما مجرد عزاء بارد لا حياة فيه. لقد واجها مقاومة عنيفة في الفروع الانجليزية وخاصة في الفروع الايرلندية وحتى في المجلس الفيدرالي نفسه. ولكنهما بعد ذلك قاما بشبه انقلاب في الفرع الانجليزي، فأصدرا نداء إلى جميع الفروع وجميع الأعضاء يعلنان فيه أن المجلس الفيدرالي البريطاني منقسم على نفسه إلى حد أصبح معه استمرار التعاون مستحيلا. وطالبا بالدعوة إلى مؤتمر عام للفروع البريطانية للبحث في صلاحية قرارات لاهاي التي زعم نداؤهما أنهما لم تقران العمل السياسي ملزم لكل فروع الأممية فحسب –لأن ذلك، يقول النداء، كان رأي الأكثرية أيضا- بل أنها أيضا تعني أن على المجلس العام أن يقرر السياسات التي يجب أن تختطها الفيدراليات في بلدانها. ردت الأقلية على هذه المكائد في الحال ببيان مضاد يبدو أنه كان من إعداد انغلز، وقد أدان هذا البيان المؤتمر المقترح واعتبره غير قانوني، إلا أن هذا المؤتمر عقد بالفعل في 26 كانون الثاني عام 1873 لأن أكثرية الفروع أيدت عقده، وكانت هي وحدها الممثلة فيه عند انعقاده.

افتتح هيلز هذا المؤتمر بهجوم عنيف على المجلس العام القديم وعلى مؤتمر لاهاي، وأيده في ذلك يونغ وايكاريوس بكل قوة. ثم أدان المؤتمر بالإجماع قرارات لاهاي ورفض الاعتراف بالمجلس العام الجديد يف نيويورك. وأعلن المؤتمر أيضا أنه يؤيد عقد مؤتمر أممي جديد حالما تعرب الأغلبية الفيدراليات عن رغبتها في عقد مؤتمر كهذا. وهكذا اكتمل الانقسام في الفيدرالية البريطانية، واثبت كلا الطرفين أنه أضعف من أن يقوم بدور فعال في الانتخابات العامة التي جرت عام 1874 وأطاحت بحكومة غلادستون. وزاد عجزهما يف هذه الانتخابات نتيجة تدخل النقابات التي خاضت المعركة الانتخابية بعدد من المرشحين واستطاعت لأول مرة إيصال اثنين منهم إلى البرلمان.

انعقد المؤتمر السادس للأممية في 8 أيلول في جنيف بناء على دعوة من المجلس العام في نيويورك. ويمكن القول أن هذا المؤتمر وضع صك وفاة الأممية. وكان مؤتمر باكونيني مضاد قد عقد في أول أيلول، وحضره مندوبان انجليزيان هما ايكالاريوس وهيلز وخمسة مندوبين من كل بلجيكا وفرنسا واسبانيا وأربعة مندوبين من ايطاليا ومندوب واحد من هولندا وستة مندوبين من يورا، ببنما كان معظم الذين حضروا المؤتمر الماركسي من السويسريين ومعظمهم من جنيف، حتى أن المجلس العام لم يتمكن من إرسال مندوب عنه، ولم يكن في المؤتمر أي انجليزي أو فرنسي أو اسباني أو برتغالي أو ايطالي وحضره ألماني واحد ونمساوي واحد. وقد تباهى بيكر بأنه أحضر بطريقة ما ثلاثة عشر مندوبا من المندوبين الذين لم يصل عددهم الثلاثين، وذلك كي يزيد من مكانة المؤتمر ويتأكد من ضمان الأغلبية. ولكن ماركس لم يكن ليسمح لنفسه بالوقوع ضحية خداع الذات فاعترف صراحة بأن المؤتمر أخفق «إخفاقا تاما»، ونصح المجلس العام أن لا يشدد على الناحية التنظيمية الرسمية، بل يعمد للاحتفاظ بسيطرته على الحلقة المركزية في نيويورك إذا كان بإمكانه ذلك حتى لا تقع في أيدي حمقى ومغامرين يمكن أن يلحقوا الضرر بالقضية. وقال أن الأحداث ذاتها والتطور الحتمي والمعقد للأشياء سوف يضمن بكل تأكيد انبعاث الأممية في شكل أفضل.

الفصل الخامس عشر

العقد الأخير

1-ماركس في البيت

في نهاية عام 1853، وبعد أن لفظت عصبة الشيوعيين آخر أنفاسها، اعتزل ماركس في غرفة مكتبه، وفعل الشيء ذاته مع اقتراب نهاية عام 1878 بعد أن هدأت آخر خلجات موت الأممية، لكن العزلة كانت هذه المرة إلى الأبد.

كثير ما وصف العقد الأخير من حياة ماركس بأنه «موت بطيء» ولكن في هذا الكثير من المبالغة. صحيح أن الصراعات التي نشبت بعد سقوط عامية باريس كانت لصحته ضربات قاصمة: فعانى في خريف 1873 كثيرا من رأسه وأصبح مهددا بالصراع، بينما جعلته حالة الهبوط العقلي المزمن غير قادر على العمل وحرمته من كل رغبة في الكتابة. غير انه شفي من ذلك بعد عدة أسابيع من العلاج في مانشستر على يدي الدكتور غمبرت، الذي كان صديقا لانغلز والذي كان ماركس يثق به ثقة مطلقة.

ذهب ماركس بناء على نصيحة من غمبرت إلى كارلسبارد في عام 1874 وفي السنتين اللاحقتين. وفي عام 1877 ذهب إلى بادنونار، ولكن في عام 1878، حدثت محاولتان لاغتيال القيصر الألماني، فاغلقت الحملة الشرسة المعادية للاشتراكية القارة الأوروبية في وجهه. غير أن الزيارات الثلاث إلى كارلسبارد كانت قد ناسبته، فتغلب على ألم الكبد تماما تقريبا، فبقيت اضطرابات المعدة المزمنة والإرهاق العصبي الذي كان يسبب له صداعا حادا وأرقا عنيدا. لكن هذه الآلام كانت تختفي إلى هذا الحد أو ذاك بعد زيارة لشاطئ البحر في الصيف لتعود ثانية في السنة اللاحقة.

لعله كان من الممكن أن يستعيد ماركس صحته لو انه منح لنفسه الراحة والسكينة اللتين كان يحق له أن ينالهما، وهو على أعتاب الستين، بعد القدر الضخم من العمل الذي قام به في شبابه والمعاناة التي قاساها إذ ذاك. ولكنه لم يكن ليحلم بذلك، بل كان بدلا من ذلك يندفع بكل حماسته القديمة في الدراسات الضرورية لإتمام عمله العلمي، تلك الدراسات التي اتسع مداها إلى حد بعيد في تلك الأثناء.

كتب انغلز يقول: «بالنسبة لرجل كان يدرس كل شيء ليكتشف منشأه التاريخي وشروط تطوره، كانت كل مسألة تؤدي بالطبع إلى مسائل جديدة. وعلى الأخص درس ماركس التاريخ القديم وعلم الزراعة والروسية وعلاقات ملكية الأرض في أمريكا والجيولوجيا الخ وذلك لكي يجعل القسم المتعلق بإجازة الأرض من الكتاب الثالث أكمل وأشمل من أي معالجة سابقة للموضوع. لقد كان ماركس يقرأ كل اللغات الجرمانية واللاتينية الحديثة بسهولة، ثم تعلم بعد ذلك السلافية القديمة والروسية والصربية». ولم يكن ذلك كله يستغرق منه سوى نصف وقته، ذلك أن ماركس، على الرغم من اعتزاله الحياة العامة، كان لا يزال نشيطا في حركات الطبقة العاملة الأوروبية والأمريكية. فقد كان يراسل تقريبا جميع قادة الطبقة العاملة في البلدان المختلفة، وكان هؤلاء يأتونه كلما سنحت الفرصة ليستوضحوا رأيه في المسائل الهامة. لقد أصبح أكثر فأكثر مستشار البروليتاريا المناضلة.

وصف لافارغ ماركس في السبعينات وصفا ساحرا كذلك الذي وصف به ليبكنشت ماركس في الخمسينات. فقال أن حماه لا بد أن يكون ذا بنية متينة ليستطيع الصمود في وجه نمط غير معتاد من الحياة ويقوم بنشاطات فكرية مرهقة. «لقد كان في الواقع قويا جدا. وكان طوله أكثر من المعدل، وكتفاه عريضان وصدره ممتلئ وأطرافه متناسقة، رغم أن عموده الفقري كان أطول بقليل بالمقارنة مع رجليه، وهذه خاصة كثيرا متا توجد في اليهود». وليس في اليهود فحسب، فقد كانت بنية غوته كذلك هو الآخر، حتى انه سمي بالعملاق الجالس، لأنه واحد من أولئك الذين يبدون وهم جالسين أضخم بكثير مما هم فعلا.

ويرى لافارغ أن ماركس كان يمكن أن يكون ذا قوة غير معتادة لو انه مارس الرياضة في الشباب، ولكن الشكل الوحيد من النشاط الجسدي الذي كان يمارسه بانتظام هو المشي. فقد كان يمشي لساعات، وهو يتحدث طوال الوقت، أو يصعد المرتفعات دون أن تبدو عليه أية علامة من علامات الإنهاك، ولكن حتى هذا الشكل من النشاط الجسدي، كان يمارسه أكثر مما يمارسه في غرفة مكتبه، ولسبب وحيد هو انه يعنيه على ترتيب أفكاره. لقد كانت السجادة في تلك الغرفة تبدي بوضوح شريطا يمتد من النافذة إلى الشباك وكأنه طريق شقته وطأة الأقدام في أرض خضراء.

وعلى الرغم من أن ماركس لم يكن يأوي إلى الفراش إلا في ساعة متأخرة جدا، إلا انه كان دائما يستيقظ صباح اليوم التالي بين الثامنة والتاسعة، فيشرب القهوة السوداء ويقرأ الصحف، لينسحب بعدها إلى غرفة مكتبه ويظل هناك حتى منتصف الليل وأبعد، فلا يخرج إلا لتناول وجبات طعامه، أو ليتمشى في الأمسيات الجميلة عبر هامبستيدهيث. وكان يستلقي في العصر على كنبة مدة ساعة أو ساعتين. كان العمل قد أصبح شهوة جامحة استبدت به إلى حد أصبح معه كثيرا ما ينسى وجبات طعامه، فكان على معدته أن تعاني من جراء ذلك، ومن جراء نشاطه الفكري الفائق. وكان ماركس غير أكول ويعاني من فقدان الشهية، فيلجأ إلى معالجة ذلك بأكل الأغذية المبهرة والسمك المدخن والكافيار والمخللات. كذلك لم يكن يشرب كثيرا، وإن لم يكن ممتنعا عن الشراب، بل كان ككل أبناء الراين يتذوق النبيذ الجيد. أما من ناحية أخرى فقد كان كثير التدخين ويستهلك الكثير من أعواد الثقاب. ولقد اعتاد أن يقول ضاحكا أن كتابه «رأس المال» لن يدر عليه من المال ما يكفي

لتعويض ما أنفقه على السيجارات التي دخنها خلال كتابته له. ولا شك أنه كان عليه خلال سنوات الفقر الطويلة أن يدخن أصنافا سيئة، ونتيجة لذلك أصاب التدخين صحته بالضرر، وفي الواقع حظر الطبيب عليه التدخين عددا من المرات.

كان ماركس يقصد الراحة العقلية في الأدب، فظل الأدب عزاء كبيرا له طيلة حياته. وكان يملك معرفة واسعة في هذا المجال دون أن يفخر بذلك أبدا. فأعماله عدا عن سجاله ضد فوخت، لا تدل إلا على القليل من سعة إطلاعه، عدا بالطبع ما هو ضروري لغرض المباشر لما يكتبه. أما في كتابه ردا على فوخت، فقد استخدم مقتطفات عدة من الآداب الأوروبية جميعا.

وكما أن العمل العلمي الذي قام به ماركس كان مرآة لحقبة كاملة، كذلك كان من يفضلهم من الأدباء هم أولئك الذين كانت أعمالهم مرآة للحقب التي عاشوا فيها: من أخيل إلى هومر إلى دانته وشكسبير وسيرفانته وغوته. ويقول لافارغ أن ماركس كان يقرأ أخيل في النص الإغريقي الصالي مرة واحدة في السنة على الأقل. فقد كان على الدوام صديقا حميما للإغريق القدماء، وكان يستشيط حنقا على أولئك الذين يريدون أن يحرموا العمال من تذوق ثقافة العالم الكلاسيكي.

وكانت لماركس معرفة كاملة بالآداب الألماني تعود إلى القرون الوسطى. وكان غوته وهاينه هما المفضلان لديه من بين الكتاب الألمان المحدثين. ويبدو أن أطنان المديح التي كان يغدقها الجهلة المدعون الألمان على «مثالية» ستيللر التي أسيء فهمها إلى هذا الحد أو ذاك، جعلت ماركس ينفر من هذا الشاعر منذ أيام شبابه، فبدت له هذه «المثالية» مجرد محاولة لتغطية تعاسة أدبية مبتذلة بكلمات رنانة. ويبدو أن ماركس لم يعد بعد خروجه من ألمانيا يهتم بالأدب الألماني الحديث، فهو لا يذكر كتابا مثل هيبل وشوبنهاور اللذين كانا يستحقان الالتفات إليهما، أما تصهير ريتشارد فاغنر للميثولوجيا الألمانية فيتلقى من ماركس نقدا لاذعا.

أما من الكتاب الفرنسيين فقد كان يقدر ديدرو ويعتبر «ابن أخ رامو» رائعة من بدايتها حتى نهايتها. كذلك كان أدب الاستنارة الفرنسي، الذي وصفه انغلز بأنه يمثل أرفع إنجازات العقل الفرنسي شكلا وموضوعا، يحوز على إعجاب ماركس، أما الرومانسيون الفرنسيون فقد كان يرفضهم بصورة قاطعة وعلى الأخص شاتوبريان الذي كان ماركس يكره فيه عمقه المزيف ومبالغاته البيزنطية وعاطفيته المفرطة التي لا تساوي شيئا. أما من ناحية أخرى فقد ملأته رائعة بلزاك «الكوميديا الإنسانية» حماسة واعتبرها تصور في مرآة الأدب حقبة كاملة. وكان في الواقع ينوي أن يكتب دراسة عن بلزاك، بعد أن يتم هو عمله العظيم «رأس المال»، ولكن هذه اللحظة لم تسفر عن شيء ككثير غيرها من خططه.

وبعد أن أصبح ماركس يقيم في لندن، احتل الأدب الإنجليزي المكانة الأولى لديه، وصار شكسبير يستحوذ على جل اهتمامه، وفي الواقع كانت العائلة كلها تمارس نوعا من العبادة لشكسبير. غير أن ماركس لم يعالج يوما موقف شكسبير من قضايا عصره، أما بالنسبة لبايرون وشيللي فقد أعلن أن من يجب ويفهم هذين الشاعرين، لا بد أن يعتبر أن حسن الطالع هو الذي جعل بايرون يتوفى عن ستة وثلاثين عاما، فلو عاش أكثر من ذلك لانتهى بالتأكيد رجعيا برجوازيا، أما وفاة شيللي عن تسعة وعشرين عاما فأمر مؤسف، فقد كان ثوريا تماما، ولو عاش لظل في ركب الاشتراكية طيلة حياته. كذلك كان ماركس يقدر روايات القرن الثامن عشر الإنجليزية، وعلى الأخص رائعة فيلدينغ «توم جونز»، التي كانت بطريقتها الخاصة مرآة للعصر الذي عاش فيه المؤلف. كما اعتبر ماركس أن عددا من روايات والتر سكوت يحتل مكانة أولى بين الروايات من نوعه.

كان ماركس في احكامه الأدبية متحررا من كل تحيز سياسي أو اجتماعي، كما يثبت من إعجابه بشكسبير ووالتر سكوت. ولكنه لم يعتنق يوما فكرة «الجمالية المحصنة» ولا فكرة «الفن من أجل الفن» التي كثيرا ما تقترن بعدم الاكتراث السياسي بل وحتى بالخنوع السياسي. لقد كان في هذا المضمار أيضا فحلا ذا عقلية مستقلة لا تقاس بالمعايير المعهودة. وفي الوقت ذاته لم يكن بالغ التشدد في اختيار ما يقرأ. وقد كان كداروين وبسمارك يلتهم الروايات التهاما، وقد شغف منها بالأقاصيص المرحة وحكايا المغامرات. فانحدر في سعيه إليها من سيرفانته وبلزاك وفيلدنغ إلى بول دي كوك واسكندر دوماس الأكبر.

كذلك كان ماركس يجدد نشاطه العقلي على مستوى آخر مختلف تماما، هو الرياضيات. فقد كان يلجأ خاصة في أوقات القلق العقلي والمعاناة إلى العزاء في الرياضيات، التي كان لها تأثير مهدئ عليه. وقد ادعى انغلز ولافارغ أنه اكتشف اكتشافات مستقلة في هذا المضمار، لكن علماء الرياضيات الذين راجعوا مخطوطاته بعد وفات لم يقرأو هذا الرأي.

لم يكن ماركس، رغم كل اهتماماته الفكرية، فاغنر آخر يعيش في متحف ولا يرى العالم إلا عن بعد، كما لم يكن فاوستا تتصارع في صدره روهان. لقد كان يقول دائما «العمل من أجل العالم»، وكان يشعر أن من ييسر له حسن حظه أن يكرس نفسه للبحث العلمي يجب أن يضع نفسه في خدمة الإنسانية. لقد كان هذا الموقف الفكري هو الذي جعل الدم ينبض قويا في عروقه والنخاع حيا في عظامه. وفي محيط عائلته، وبين أصدقائه، كان الرفيق الودود الذي تنطلق ضحكاته بسهولة. أما أولئك الذين كانوا يسعون إلى لقاء «الدكتور الإرهابي الأحمر»، كما أصبح يسمى بعد عامية باريس، فلم يكونوا يجدون فيه المتعصب الحانق ولا الفيلسوف المسترخي، بل كانوا يجدون فيه رجل دنيا يجيد الحديث في موضوعات الحديث.

يدهش قراء ماركس للسهولة التي تنزلق فيها روحه المتقدة من توتر الغضب إلى التأمل الفلسفي الهادئ العميق، ويبدو أن ذلك أصاب بالدهشة أيضا من كانوا يستمعون إليه، فقد قال هايدمان مشيرا إلى حديث بينه وبين ماركس:

«بينما كان يتحدث بحنق شرس عن سياسة حزب الأحرار، خاصة تجاه ايرلندا، كانت عينا المحارب القديم الصغيرتان الفائرتان تتقدان بالهب، وحاجباه الكثيفان مجعدين، ووجهه وأنفه العريض القوي يتحركان حماسة. كل ذلك بينما كان يطلق سيلا من الشجب العنيف، دلّ فيه على مزاجه الحار مثلما دل فيه على تمكنه الرائع من لغتنا (الإنجليزية). وكانت المفارقة واضحة جدا بين طريقته في الحديث عندما كان يتحدث بغضب، وبين سلوكه عندما تحدث عن آرائه في الأحداث الاقتصادية. فقد تحول من لعب دور النبي إلى دور الفيلسوف الهادئ دون أن يبذل في ذلك أي جهد، وشعرت منذ البداية أن سنوات طويلة ستمر قبل أن أكف عن تلقي العلم على يديه في هذا المجال».

استمر ماركس مترفعا عن النشاط الاجتماعي، رغم أنه أصبح في ذلك الحين أكثر شهرة مما كان قبل ذلك بعشرين عاما، وفي الواقع تعرف هايدمان إليه من خلال عضو محافظ في البرلمان. غير أن بيته أصبح في السبعينات يشهد الكثير من الرواح والغدو، فقد أصبح ملجأ للهاربين من أعضاء العامية يجدون فيه العون والنصح. ولا شك في أن هؤلاء جلبوا في أثرهم الكثير من الضجيج والمضايقة، مما جعل السيدة ماركس، رغم حسن ضيافتها، تقول بعد أن هذا ضجيج الموجة الأولى منهم: «لقد كان لدينا ما يكفي من العمل».

ولكن كانت هناك استثناءات. ففي عام 1872، تزوج شارل لونغيه، الذي كان أحد أعضاء مجلس العامية ومحرر صحيفتها الرسمية، ابنة ماركس بيني. لكنه لم يصبح أبدا قريبا من العائلة، سواء شخصيا أو سياسيا، كما صار لافارغ. غير أنه كان رجلا قادرا. كتبت السيدة ماركس تقول: «أنه يطبخ ويصيح ويناقش كما دائما. ولكنني يجب أن أقول كلمة لصالحه: إنه يلقي محاضراته بانتظام في كلية كينغ ويحوز على رضى رؤسائه». مرت في سماء هذا الزواج السعيد غمامة بموت أو مولود للزوجين، ولكن بعد ذلك ولد «صغير قوي وحيوي» فأدخل السعادة على قلوب أعضاء العائلة، وعلى الأخص قلب جده.

كذلك كان لافارغ وزوجته من بين هاربي العامية، وعاشا في الجوار ذاته الذي كان يعيش فيه ماركس. وكان الزوجان قد فقدا في السنوات الأولى للزواج اثنين من أطفالهما، وتحت وطأة الكارثة، قرر لافارغ أن يتوقف عن ممارسة الطب، معلنا أنه لا يستطيع الاستمرار فيها إلا إذا مارس الغش، وهو غير مستعد لذلك. وبعد ذلك فتح لافارغ دكانا للتصوير، ولكن على الرغم من تفاؤله الدائم وسجيته الطيبة والدعم الشجاع الذي كان يحظى به من زوجته، ورغم أنه كان يعمل كشقي، إلا أنه لم يحرز نجاحا في عمله، فقد كان عليه أن يصارع ضد مؤسسات للتصوير تملك من المال والتجهيزات أكثر مما كان يملك.

وفي ذلك الوقت، كان شاب فرنسي يخطب ود الابنة الثالثة. ذلك هو ميسارغي، الذي في ما بعد تاريخ العامية، التي كان قد قاتل في صفوفها. ويبدو أن اليانور ماركس كانت تميل إليه، ولكن والدها كان يشك في موثوقيته، وفي النهاية وبعد بعض التردد لم يسفر الأمر عن شيء.

وفي ربيع عام 1875، انتقلت العائلة ثانية، إلى منزل آخر في المنطقة ذاتها يقع في الشارع «متيلاند بارك رود». وفيه أمضى ماركس سنواته الأخيرة، وفيه قضى.

2-الاشتراكية الديموقراطية الألمانية

استطاعت حركة الطبقة العاملة الألمانية، لكونها قامت على أسس وطنية محلية منذ البداية، تجنب الأزمة التي وقعت فيها حركة الطبقة العاملة في البلدان الأخرى عندما بدأت فروع الأممية تتحول إلى أحزاب وطنية محلية. وفي العاشر من كانون الثاني عام 1874، وقبل مهزلة مؤتمر جنيف ببضعة أشهر، احتفلت الطبقة العاملة الألمانية بأول نجاح انتخابي عظيم لها، فقد أحرزت في انتخابات الرايشتاغ 350 ألف صوت وحصلت على تسعة مقاعد، ستة منها لجناح ايزناخ وثلاثة منها للاساليين.

كان اثنان من أعضاء جناح ايزناخ الستة، وهما بيبل وليبكنشت، لا يزالان في السجن، فلم يستطيعا احتلال مقعديهما، بينما سبب موقف الأربعة الباقين وهم غيب وموست وموتلر وفالتيش خيبة أمل كبيرة في صفوف مؤيديهم. ويقول بيبل في مذكراته أن الكثيرين اشتكوا له من أن ممثلي ايزناخ الأربعة سمحوا للاساليين الثلاثة، هازينكليفر وهاسلمان ورايمر، بالتفوق عليهم. أما نغلز، فقد كان له رأي مختلف تماما، إذ كتب إلى سورج يقول: «لقد جلب ممثلو اللاساليين العار عليهم حتى أن الحكومة اضطرت إلى اتخاذ إجراءات ضدهم لخلق انطباع بأن حركتهم جدية. أما في ما عدا ذلك، فقد وجد اللاساليون منذ بداية الانتخابات لزاما عليهم أن يقتفوا أثر جماعتنا. إنه لا من حسن الحظ، أن ينتخب هازينكلفر وهاسلمان إلى الريشتاغ. إن عليهما أن ينضما إلى جماعتنا أو يرتكبا حماقات عدة، وكلا الأمرين يجلب الدمار عليهما».

كان خلاف اللاساليين وجناح ايزناخ اعظم ما يكون في المسائل التنظيمية. لكن حماسة المدعي العام نجحت في انتزاع قرارات من المحاكم كانت نتيجتها تدمير الشكل التنظيمي المرن الذي اختاره جناح ايزناخ لنفسه، والشكل الأكثر مركزية الذي اختاره اللاساليون.

وهكذا كانت وحدة الجامحين تقترب، ففي تشرين الأول 1874 عرض تولكه مقترحات وفاق تقدم بها اللاساليون على ليبكنشت، الذي كان قد خرج من السجن في تلك الأثناء. فقبل ليبكشنت هذه المقترحات بحماسة، أما في لندن فقد قوبل الأمر بالإعراض. كان ماركس وانغلز لا زالا يعتبران اللاساليين شيعة في طريقها إلى التسليم دون قيد أو شرط عاجلا أم آجلا، ولذا بدت لهما فكرة التفاوض معهم على قدم المساواة جريمة ضد مصالح الطبقة العاملة الألمانية. وعندما نشرت مسودة البرنامج المشترك الذي اتفق عليه الطرفان في شباط 1875، على مرجل الغضب في ماركس وانغلز.

وفي الخامس من أيار، وبعد أن أرسل انغلز رسالة احتجاج تفصيلية إلى بيبل، بعث ماركس إلى قائد جناح ايزناخ، ليبكنشت، برسالة عرفت فيما بعد باسم الرسالة البرنامجية. وفيها يهاجم ماركس لاسال بقسوة لم يسبق أن هاجمه بمثلها. فهذا قد حفظ «البيان الشيوعي» عن ظهر قلب، ولكنه زيفه ليخفي به تحالفه مع العدو الإقطاعي ضد البرجوازية، معلنا أن كل الطبقات الأخرى تسلك سلوكا رجعيا في وجه الطبقة العاملة. وبعد ذلك انتقل ماركس إلى بحث المبادئ الأساسية للاشتراكية العلمية بحثا مستفيضا، فلم يترك في البرنامج المشترك حجرا على حجر. ولكن لم يكن لهذه الرسالة من أثر، غير قيام أصحاب البرنامج بإدخال تعديلات طفيفة على برنامجهم. وبعد ذلك بعقود، أعلن ليبكنشت أن معظم المعنيين بالأمر كانوا يتفقون مع ماركس، وانه كان يمكن الحصول على أغلبية توافق على هذه الآراء في مؤتمر الوحدة، ولكن كانت الأقلية ستظل غير راضية، ولما كان هدف المؤتمر توحيد الجناحين وليس صياغة مبادئ الاشتراكية العلمية، فقد ارتؤي أن من الضروري تجنب اللجوء إلى هذا السبيل.

غير أنه يمكن العثور على تفسير للطريقة التي تم بها تجاهل الرسالة البرنامجية بصمت في أنها كانت تفوق المستوى الفكري لأعضاء جناح ايزناخ، مثلهم في ذلك مثل اللاساليين. وكان ماركس قبل ذلك ببضعة أشهر قد اشتكى من أن صحيفة الايزناخيين تنشر من حين لآخر أوهاما شبه أكاديمية، يكتبها مدراء مدارس ودكاترة وطلاب، ويجب أن يحاسب ليبكنشت على ذلك. و في الوقت ذاته كان ماركس يخشى أن تطغى العصبوية اللاسالية بإيديولوجيتها المقترضة من الديموقراطيين والاشتراكيين الفرنسيين على الأفكار الواقعية التي حقن بها جناح ايزناخ بصعوبة والتي كانت قد بدأت تضرب جذورها في أرضه.

كان ماركس مخطئا في ذلك. فقد كان الجناحان يقفان على قدم المساواة في المسائل النظرية. إذ لم يقابل برنامج الوحدة بأي اعتراض من جانب أعضاء جناح ايزناخ، بينما تعرض لنقد عنيف، يشبه في كثير من مناحيه نقد ماركس وانغلز له، في مؤتمر عمالي عقد في غربي ألمانيا.

وكان مؤلفا في معظمه من اللاساليين. على أن ذلك لا يعني الكثير، فقد كان الجناحان لا يزالان بعيدين عن الاشتراكية العلمية كما أسسها ماركس وانغلز، فلم يكونا يعرفان عن المنهج المادي غير لمحات، بينما ظل سر نمط الإنتاج الرأسمالي سرا مغلقا عليهما. ولعل الطريقة المضحكة التي تعثر بها شرام (إبراز منظري جناح ايزناخ في ذلك الحين) بنظرية ماركس في القيمة أبلغ دليل على ذلك.

غير أن توحيد الجناحين أدى عمليا إلى نتائج حسنة، فلم يكن لدى ماركس وانغلز ما يقولانه في ذلك، رغم أنهما كانا لا يزالان يعتقدان أن جناح ايزناخ ربما كان قد سمح للاساليين بفرض أنفسهم عليه. لكن ماركس نفسه كان قد قال في رسالته البرنامجية: إن كل خطوة عملية في الحركة أفضل من عشرة برامج. على أية حال، زاد التخبط النظري في الحزب الموحد بدل أن يقل، وعزى ماركس وانغلز ذلك إلى الوحدة غير الطبيعية. وبدآ يعلنان عن استيائهما أكثر من أي وقت مضى.

لا بد أن يكون ماركس وانغلز قد لاحظا أن مصدر ضيقهما يوجد بين أعضاء جناح ايزناخ أكثر منه بين اللاساليين السابقين. فقد قال انغلز أحيانا أن اللاساليين سيصبحون عما قريب أنقى المفكرين في الحركة، ذلك أن صحيفتهم –التي استمرت تصدر بعد الوحدة نسبة- تنشر قدرا أقل من الهراء. وقد تضايق انغلز أكثر ما تضايق من موست، الذي لخص رأس المال كله دون أن يفهم منه شيئا» ودعم «اشتراكية» دوهرنغ. وكتب انغلز إلى ماركس في 24 أيار 1876: «من الواضح، أن دوهرنغ قد أحدث أثرا عميقا على عقول هؤلاء الناس بهجماته المبتذلة عليك، وإذا ما حاولنا الآن أن نسخف هراءه النظري، فإن ذلك سيبدو من جانبنا رغبة في الانتقام الشخصي». وكذلك لم ينجح ليبكنشت من الانتقاد اللاذع: «إن فيلهلم يتوق إلى تعويض النقص في نظريتنا. يتوق إلى إيجاد جواب جاهز على كل اعتراض سخيف، ورسم صورة جاهزة للمجتمع المقبل في ذهنه، لأن الجهلة الأدعياء قد يسألونه عن ذلك، ويريد في الوقت ذاته أن يظل مستقلا في المسائل النظرية قدر الامكان. ولا شك في أنه نجح في تحقيق هذا الاستقلال أكثر مما يدرك وذلك بسبب افتقاره الكامل إلى أية نظرية».

كان النمو السريع للنجاحات العملية التي أحرزها الحزب هو ما أدى به إلى عدم الاهتمام بالنظرية، أو ما اعتقد أنه حذلقة نظرية. فتدفق على الحزب المخترعون الذين لم يلاقوا تقديرا والمصلحون الذين أسيء فهمهم، ومن يعارضون التذبذب وما أشبه ذلك ممن كانوا يأملون أن يلاقوا في صفوف الطبقة العاملة التقدير الذي لم تمنحهم البرجوازية إياه. وكان كل من أبدى طيب النية يجد الترحيب في صفوف الحزب، خاصة أولئك الذين كانوا يأتون من الدوائر الأكاديمية والذين كان دخولهم إليه يعد بتحقيق تحالف البروليتاريا والعلم. فلم يكن أي أستاذ جامعي يقابل الاشتراكية في أي شكل من أشكالها المتعددة بالود، يخشى أن يواجه بالنقد في صفوف الحزب.

كان دوهرنغ على وجه الخصوص حصينا تجاه أي نقد، فقد كان يتمتع بخصال عديدة، شخصية وغير شخصية، كانت لا بد أن تجتذب إليه أكثر العناصر في حركة الطبقة العاملة الألمانية ثقافة. ولا شك أن مواهبه وقدراته وشخصيته وسلوكه كانت جميعا تجد صدى بين العمال. فقد أصيب بالعمى وهو صغير السن، ولم تكن لديه موارد مالية، ومع ذلك فقد شق طريقه في الحياة ليصبح محاضرا في الجامعة. ولم يحدث أن قام بأي تنازل للطبقات الحاكمة، وحافظ باستمرار على راديكاليته في قاعة المحاضرات، فلم يكن يتردد في امتداح مارا وبابوف وأبطال العامية. أما الجانب السيئ في شخصيته: الغطرسة لتي كان يدعي أنه متمكن تماما من عدد من مواضيع الاستقصاء العلمي بينما لم يكن ذلك ممكنا على الأقل بسبب عجزه الجسدي، وجنون العظمة المتزايد الذي أدى به إلى محو من سبقوه من الوجود: فيخته وهيغل في الفلسفة وماركس في الاقتصاد، أما هذا الجانب من شخصيته فقد بقي في الظل، أو كان يغتفر ويفسر بأنه نتيجة لعزلته الفكرية وللصراعات القاسية التي كان عليه أن يخوضها.

لم يعر ماركس التفاتا على هجمات دوهرنغ «المبتذلة» عليه، وفي الواقع لم يكن لهذه الهجمات من القيمة ما يجعلها تشعر ماركس بالتحدي. ولم تحدث حماسة اشتراكيي برلين المتزايدة لدوهرنغ أي أثر على ماركس، على الرغم من أن دوهرنغ بادعائه عصمة «حقائقه النهائية» كان عصبويا نموذجيا. وحتى عندما أرسل ليبكنشت، الذي كان قد أصبح متيقظا في ذلك الحين، رسائل من بعض العمال إلى ماركس وانغلز

يحذرون فيها من خطر تدهور دعاية الحزب، رفض ماركس وانغلز الرد على دوهرنغ على أساس أن ذلك «أمر ثانوي جدا»، ولكن يبدو أن رسالة وقحة كتبها موست إلى انغلز في أيار 1876 كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

عندئذ بدأ انغلز يدرس «حقائق دوهرنغ المنهجية»، وسجل نقده لها في عدد من المقالات بدأ يظهر في بداية عام 1877، في «فوروارتز» التي كانت قد أصبحت الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الموحد. تمخضت هذه المقالات عن واحد من أهم الآثار الأدبية التي تعرض الاشتراكية العلمية متخذة مكانها جنبا إلى جنب مع «رأس المال»، ولكن الاستقبال الذي لاقته حينذاك في الحزب بين بوضوح أن الخطر فيه ماثل. فقد أوشك المؤتمر السنوي للحزب الذي عقد في أيار 1877 في غوتا على «محاكمة» انغلز بتهمة الهرطقة على غرار «المحاكمة» التي كان يتعرض لها دوهرنغ من جانب طغمة الأساتذة المحافظين في الجامعة. ذلك أن أغلبية المؤتمر تقدمت بمشروع قرار يقضي بأن تكف الصحيفة المركزية للحزب عن نشر مقالات انغلز على أساس أنها «لا تهم، بل تعارض رأي، أغلبية قراء فوروارتز»، بينما وضع فاليتش، الذي كان فيما عدا ذلك خصما لموست، يده في يد هذا الأخير معلنا أن اللهجة التي يكتب بها انغلز عارية عن الذوق وأنها يمكن أن تجعل الأفكار التي تعرضها «فوروارتز» غير قابلة للهضم. ولكن لحسن الحظ، تم تبني اقتراح بحل وسط، يقضي بأن يستمر نشر السجال لأغراض عملية وتحريضية لا في الصحيفة الرئيسية بل في ملحق علمي يصدر عنها.

وفي الوقت ذاته قرر المؤتمر أن يصدر الحزب صحيفة علمية نصف شهرية ابتداء من تشرين الأول. وقد تم تبني هذا القرار بناء على اقتراح من كارل هوشبرغ، الذي وعد أيضا بتقديم الدعم المالي للمشروع. كان هوشبرغ هذا واحدا من «الخبراء» البرجوازيين في الاشتراكية، الذين كانت ألمانيا تعج بهم في تلك الأيام. وعلى الرغم من المديح الشخصي الذي يغدقه عليه كل من عرفه، إلا أن قدراته السياسية والفكرية كانت ضحلة تماما. إذ لم يكن يعرف عن نظرية وتاريخ الاشتراكية شيئا، كما كان جاهلا بالآراء العلمية التي طورها ماركس وانغلز، ولم يكن يعتبر الصراع الطبقي البروليتاري السلاح الذي تنتزع به الطبقة العملة تحررها، بل كان يعتقد أنه السبيل لكسب الطبقات الحاكمة وعلى الأخص أفرادها المثقفين إلى قضية العمال على أسس من التطور القانوني السلمي.

غير أن ماركس وانغلز لم يكونا يعرفان عنه شيئا عندما رفضا التعاون مع «داي زوكونفت» كما دعيت الصحيفة الجديدة. وكانا قد تلقيا دعوة للمساهمة عن طريق تعميم مطبوع أرسل إلى الكثيرين غيرهما. فقد أعلن انغلز أنه بينما يمكن أن تكون قرارات المؤتمر العملية مفيدة جدا، إلا أنها لا قيمة لها فيما يتعلق بالإنجاز العلمي، وهي بالتأكيد غير كافية لضمان أن تكون المجلة علمية. فمن المستحيل أن تكون مجلة اشتراكية علمية دون أن يكون لها سياسة محددة وموقف محدد، ولما كانت الاتجاهات الرائجة في ألمانيا متنوعة وغامضة، فليس هناك ما يضمن أن تكون السياسة التي ستتبناها الصحيفة مناسبة.

أثبت العدد الأول من الصحيفة صحة الموقف المتحفظ الذي اتخذه ماركس وانغلز. فقد كانت مقالة هوشبرغ الافتتاحية خليطا من كل المواقف والاتجاهات التي كانا قد حارباها في اشتراكية الأربعينات، وهكذا وفرا على نفسيهما أي نزاعات محرجة. وعندما سألهما احد أعضاء الحزب الألماني، عما إذا كانا قد شعرا بالضغينة بسبب مناقشات مؤتمر غوتا، أجاب ماركس: «لا يحمل قلبي أي ضغينة، ولا قلب انغلز كذلك. والبرهان على ذلك هو معارضتي الدائمة لكل أنواع عبادة الشخصية. فخلال فترة الأممية لم أسمح أبدا بجعل بادرات العرفان التي كانت تأتيني من مختلف البلدان علنية، ولم أجب عليها إطلاقا إلا ربما بالتوبيخ. ولكن ما حدث في مؤتمر الحزب الأخير –وهو أمر يستغله استغلال كاملا أعداء الحزب في الخارج- علمنا أن نكون حذرين في علاقاتنا بأعضاء الحزب في ألمانيا». ومع ذلك، لم تكن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد من السوء، فقد استمر انغلز في نشر مقالاته ضد دوهرنغ في الملحق العلمي لصحيفة «فوروارتز».

غير أن ماركس بدأ يتضايق وينزعج «للروح الفاسدة» التي بدأت تظهر لا بين الجماهير بل بين قادتها. فكتب إلى سورج في 19 تشرين الأول يقول: «لقد أدت المساومة مع اللاساليين إلى المساومة مع كل الاشتراكيين المزيفين، مع دوهرنغ والمعجبين به في برلين، مع العشرات من الطلبة غين الناجحين والأكاديميين المتعالين، الذين يريدون الاشتراكية «اتجاها مثاليا أرفع»، أو يريدون بكلمات أخرى أن يستبدلوا الأساس المادي للاشتراكية بميثولوجيا حديثة آلهتها الحرية والمساواة والإخاء. إن السيد هوشبرغ، الذي يحرر «داي زوكونفت» ممثل لهذا الاتجاه، وأنا مستعد لافتراض أطيب النوايا من جانبه، ولكني لا أعبر النوايا أي اهتمام. فليس هناك في الواقع برنامج أحط من برنامجه في «داي زوكونفت» قدم للعالم بقدر أكبر من الادعاء».

في الحقيقة كان على ماركس وانغلز أن يرتدا على ماضيهما كله كي يستطيعا التوافق مع هذا «الاتجاه».

3-الفوضوية والحرب في الشرق الادنى

قرر مؤتمر غوتا عام 1877 أيضا أن يتمثل الحزب في مؤتمر اشتراكيي عالمي دعي إلى الانعقاد في غنت في أيلول من السنة ذاتها، وانتخب ليبكنشت ممثلا للحزب فيه.

كانت بادرة الدعوة إلى هذا المؤتمر قد أتت من البلجيكيين، الذين كانوا في هذه الأثناء قد وجدوا شعرة في الحساء الفوضوي فصاروا يتوقون إلى إعادة توحيد الجماعتين اللتين افترقتا في مؤتمر لاهاي. وكانت الجماعة الفوضوية قد عقدت مؤتمراتها في جنيف عام 1873، في بروكسيل عام 1874 وفي بيرن عام 1876، ولكن بعدد متناقص باطراد. لقد تفتت هذه الجماعة في وجه الضرورات العملية للنضال البروليتاري من أجل الانعتاق تماما كما كانت قد نشأت عن هذه الضرورات.

لن نتعرض هنا لأفول الفوضوية الريع بتتبع مؤتمراتها المختلفة، غذ يكفي القول أن هذا الأفول كان مطردا وكاملا. فقد الغي المجلس العام وألغيت الاشتراكات السنوية، وحظر على المؤتمرات اتخاذ أية قرارات بصدد المسائل المبدئية، ولم يتم التغلب على محاولة لإغلاق الأممية في وجه العمال العقليين إلا بصعوبة بالغة. غير أن الجانب المهم في الأمر هو الصعوبة التي واجهتها الفوضوية في وضع برنامج جديد وتاكتيكات جديدة. فقد نشب خلاف في مؤتمر جنيف حول الإضراب العام بوصفه الوسيلة المعصومة الوحيدة للثورة الاجتماعية، ولكن لم يتم التوصل إلى اتفاق، بينما لم يكن المؤتمر الثاني في بروكسيل أقدر على التوصل إلى اتفاق حول مسألة الخدمات العامة، التي كانت المسألة الرئيسية في المؤتمر والتي تكلم دي بيب حولها بشكل جعل أعضاء المؤتمر يؤنبونه لأنه تخلى عن الفوضوية ككل، وكان في الواقع قد فعل. فبعد نقاشات عنيفة أجلت المسألة إلى المؤتمر القادم لتسويتها، ولكن المؤتمر القادم فشل كذلك في حلها. وعندئذ أعلن الإيطاليون أن «حقبة المؤتمرات قد انتهت» وطالبوا بالدعاية عن طريق العمل. فقاموا باستغلال المجاعة في ايطاليا، ليدبروا ستين مؤامرة فشلت جميعا.

لم تنحط الفوضوية إلى شيعة معزولة لا رجاء فيها بسبب تشوشها النظري فحسب، بل وبصورة رئيسية إلى الموقف السلبي الذي تبنته تجاه كل المسائل العملية المتعلقة بالمصالح المباشرة للبروليتاريا الحديثة. فعندما نمت حركة قوية للمطالبة بتحديد يوم العمل قانونيا بعشر ساعات في سويسرا، رفضت الفوضوية أن تكون لها أي علاقة بالحركة، كما اتخذت الموقف ذاته تجاه الحملة التي قام بها العمال الفلاميون لمنع عمل الأطفال في المصانع قانونيا. وبالطبع رفضوا كذلك المشاركة في النضال من اجل الحصول على حق الاقتراع العام، أومن اجل إعطاء العمال حق ممارسته حيث كان يوجد. وبالمقارنة مع هذه السياسية البائسة، كان نجاح حركة الطبقة العاملة الاشتراكية الألمانية باهرا، مما حدا بالجماهير في كل مكان إلى رفض الدعاية الفوضوية.

كانت الدعوة إلى المؤتمر الاشتراكي العلمي في غنت في السنة القادمة، والتي اقرها المؤتمر الفوضوي في برن عام 1876، اعترافا بفشل الفوضوية الكامل في كسب الجماهير. انعقد مؤتمر غنت في 9 إلى 15 أيلول، وحضره 42 عضوا، كان من بينهم نواة من 11 فوضويا بقيادة غيلوم وكروبتكين. وقد انضم الكثيرون من أنصار الفوضوية السابقين، بما في ذلك معظم المندوبين البلجيكيين والإنجليزي هيلز إلى جانب المجموعة الاشتراكية بقيادة ليبكنشت وغريليش وفرانكل. وحدث في المؤتمر صدام حاد بين ليبكنشت وغيلوم عندما اتهم غيلوم العمال الألمان بأنهم طووا برنامجهم في جيبهم عندما اقبلوا على الانتخابات، ولكن فيما عدا ذلك كانت أعمال المؤتمر تتميز بما يكفي من الهدوء. إذ فقد الفوضويون غرامهم بالكلمات الطنانة، وصاغوا خطبهم بلهجة هادئة رزينة جعلت خصومهم يتخذون موقفا أكثر ودا. غير أن «التضامن» المقترح لم يسفر عن شيء، فقد كانت الآراء المتصادمة متباينة إلى حد بعيد.

لم يكن ماركس يتوقع أي نتيجة غير هذه، وكان انتباهه قد تحول إلى مركز عاصف آخر توقع أن تحدث فيه أحداث ثورية، ذلك هو الحرب التركية-الروسية. فبدأ أول رسالتي النصح اللتين بعث بهما إلى ليبكنشت، وهي المؤرخة في 4 شباط 1876، بالكلمات التالية: «إننا بالتأكيد نقف إلى جانب الأتراك، وذلك لسببين: اولهما أننا درسنا الفلاح التركي، أي جماهير الشعب التركي، فوجدنا أنه بلا شك أحد اقدر ممثلي الفلاحين الأوروبيين وأكثرهم استقامة خلقية، وثانيهما أن هزيمة روسيا ستسارع إلى حد كبير التحول الاجتماعي، الذي تبدو عناصره في كل مكان في روسيا، وبالتالي يسارع ذلك في التحويل الاجتماعي في أوروبا كلها». وكان ماركس قد كتب إلى سورج قبل ذلك بثلاثة أشهر يقول: «أن الأزمة نقطة تحول جديدة في الشارع الأوروبي. لقد درست الأوضاع الروسية مصادر أصلية، بعضها غير رسمي وبعضها رسمي (هذه المصادر الأخيرة متوفرة لدى القلائل، وقد حصلت عليها بواسطة أصدقاء في بطرسبرغ)، فوجدت أن روسيا تقف منذ أمد على عتبة الثورة، وأن كل العناصر الضرورية متوافرة. لقد سارع الأتراك الطيبون تفجر الموقف سنوات بفضل الهزيمة التي ألحقوها لا بالجيش الروسي والخزينة الروسية وحدهما، بل وكذلك بالعائلة المالكة شخصيا. إن تهريجات الطلبة الروس الغبية ليست إلا عرضا، وهي لا قيمة لها بحد ذاتها، ولكنها مع ذلك عرض له دلالته: إن كل قطاعات المجتمع الروسي تعيش حالة تحلل اقتصادي وأخلاقي وفكري». لقد ثبت أن ملاحظات ماركس هذه صحيحة تماما، ولكن وكما كان يحدث كثيرا، قلل ماركس في عجلته الثورية من أهمية عامل الزمن، وذلك إنما يعود إلى الوضوح الذي كان يرى به الاتجاه الذي تسير به الأمور.

أفسحت هزائم الروس الأولية الطريق لانتصارات لاحقة، نتيجة الدعم السري الذي تقدم به بسمارك، ونتيجة للخداع الذي مارسته انجلترا والنمسا، وفوق كل شيء نتيجة فشل الأتراك أنفسهم في الإطاحة بالنظام العتيق في القسطنطينية، رغم أن هذا النظام كان من أفضل أصدقاء القيصر. فأعلن ماركس أن شعبا يفشل في التصرف بعزيمة ثورية لحظة الأزمة الطاحنة لا بد أن يتعرض للضياع.

هكذا لم تنته الحرب-الروسية بثورة أوروبية، بل بمؤتمر دبلوماسي، في المكان ذاته واللحظة ذاتها بدأ فيهما أن الحركة الاشتراكية الألمانية تلقت ضربة قاصمة.

4-فجر يوم جديد

برغم الانتكاسات، بدأ فجر يوم جديد يلوح في أفق العالم. فقد أدى القانون المعادي للاشتراكية الذي كان بسمارك يأمل أن يحطم به الحركة الاشتراكية الألمانية إلى افتتاح عصر بطولي جديد لهذه الحركة، وإلى تبديل كل التخبط والشقاق الذي كان يسود علاقاتها بمحاربي الاشتراكية القديمين في لندن، على الرغم من أن نزاعا واحدا نشب بين الطرفين.

اجتاز الحزب الألماني بشجاعة امتحان الحملة الصليبية المعادية للاشتراكية والانتخابات التي حصلت في صيف عام 1878 بعد محاولتي اغتيال القيصر الألماني، ولكنه لم يقدر في إعداده لمجابهة الضربة المقبلة شراسة الهجمة وحقدها وضراوتها. فما كاد القانون يصبح نافذا، حتى نسي ممثلو الحكومة كل التنظيمات التي قدموها للرايشتاغ بأن القانون سيطبق «دون تيحز»، فحظروا كل مؤسسات الحزب حارمين

الآلاف من سبل عيشهم. وبعد ذلك ببضعة أسابيع، أعلن ما دعي بالحكم العسكري المخفف على برلين وضواحيها، رغم أن ذلك كان يتعارض مع نص القرار، وتم إبعاد ما يقرب من ستين اشتراكيا، لم يحرموا من وظائفهم فحسب بل ومن مساكنهم أيضا.

سبب هذا وحده فوضى مبررة لم يكن من الممكن تجنبها في صفوف الاشتراكيين. فبعد سقوط عامية باريس، اشتكى المجلس العام للأممية من انه لم يستطع شهورا عدة القيام بمهامه المعتادة بسبب ضرورات تقديم المساعدة للاجئين، لكن قيادة الحزب الألماني كانت تواجه وضعا أكثر صعوبة، فقد كان الاضطهاد البوليسي يعيق كل خطوة من خطواتها في وقت شلت فيه البلاد أزمة اقتصادية طاحنة. لا يمكن للمرء أن ينكر أن الأزمة فصلت القمح عن الزوان: فغالبا ما أثبتت العناصر البرجوازية التي اجتذبها الحزب في السنوات السابقة أنها غير موثوقة، كذلك فشل بعض القادة في اجتياز الامتحان، بينما فقد آخرون وبينهم الكثيرون من الرجال القادرين شجاعتهم تحت وطأة الضربات التي كالتها الرجعية للحزب وأصبحوا يخشون أن يجلبوا لأنفسهم وللحزب ضربات اشد ضراوة إذا ما واجهوا الحملة بمقاومة عنيفة.

وبالطبع لم يرض هذا كله ماركس وانغلز. ولا شك في أنهما قللا من قدر الصعاب التي كانت تكشف الموقف، ولكن موقف الجماعة الاشتراكية الديموقراطية في الرايشتاغ، التي استطاعت الصمود في وجه العاصفة وعادت إلى الرايشتاغ بتسعة أعضاء، كان سببا كافيا للشكوى. فقد اعتقد احد الأعضاء، وهو ماكس كيزر، أي من الضروري الوقوف إلى جانب زيادة ضرائب استيراد الحديد أثناء مناقشة مشروع فرض ضرائب جديدة على الاستيراد. وقد أثار ذلك استياء واسعا، فقد كان الكل يعلم أن الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء الضرائب الجديدة هو استدرار بضعة ملايين سنويا لخزينة الرايخ وحماية ملاك الأرض ضد المنافسة الأمريكية ومساعدة الصناعة الثقيلة على إصلاح الضرر الذي ألحقته بنفسها نتيجة توسعها المحموم خلال سنوات الازدهار المزيف. كما كان الجميع يعلمون أن هدف القوانين المعادية للاشتراكية كان في التحليل الأخير محاولة كسر مقاومة الطبقة العاملة قبل القيام بهجوم واسع النطاق على مستوى معيشتها.

وعندما حاول بيبل أن يدافع عن موقف كيزر، قائلا أن هذا الأخير قام بدراسة خاصة للمسألة، أجاب انغلز بحدة: «لو كانت دراساته تساوي نقرة من اصبع، لعرف أن هناك مصنعين لصب الحديد في ألمانيا، يكفي أحدهما لسد حاجات ألمانيا كلها من الحديد، بالإضافة إلى عدد من المصانع الأصغر. ولذا فإن فرض ضرائب على استيراد الحديد أمر غبي، فالحل الوحيد هو غزو أسواق أجنبية، أي أن الاختيار المطروح هو إما التجارة الحرة بصورة مطلقة وإما الإفلاس. كان عليه أن يعرف أن رأسماليي صناعة الحديد أنفسهم لا يمكن أن يقبلوا بزيادة الضرائب على استيراده، إلا إذا كانوا قد شكلوا حلقة، بل عصابة، لفرض أسعار احتكارية على السوق الداخلي، ليتخلصوا من فائض إنتاجهم بأسعار بخسة في الأسواق أجنبية، وهذا في الواقع ما يفعلونه الآن إلى حد كبير. لقد تكلم كيزر لمصلحة هذه الحلقة، لمصلحة هذه المؤامرة الاحتكارية، وعندما صوّت في الرايشتاغ فلمصلحتها صوّت». وعندما هاجم كارل هيرش تاكتيكات كيزر في صحيفة «داي لاتيرن»، اتخذت الجماعة الاشتراكية الديمقراطية في الرايشتاغ، لسوء الحظ، موقف من جرحت كرامته لأن كيزر تكلم بإذن من الجماعة. فكان هذا الموقف آخر قشة قصمت ظهر البعير بالنسبة لماركس وانغلز، فقال ماركس: «لقد نخرت القماءة البرلمانية عظامهم، إلى درجة أصبحوا معها يتخيلون أنفسهم فوق النقد، ويشجبونهم كما لو أنه طعن في الذات الملكية».

كان كارل هيرش صحافيا شابا اكتسب شهرته كممثل لليبكنشت في «فولكشتات» خلال السنوات التي كان فيها ليبكنشت سجينا. وبعد ذلك عاش في باريس، إلا انه أبعد عنها، فقام بما كان يجب أن يقوم به قادة الحزب الألماني منذ البداية، إذ بدأ في كانون الأول 1878 إصدار صحيفة أسبوعية «داي لا تيرن» من بريدا في بلجيكا، على شكل صحيفة جيب يمكن أن تطوي وتوضع في مغلفات عادية ترسل إلى ألمانيا لتشكل أداة تحريض للحركة لاشتراكية. كانت الفكرة جيدة، كما كان هيرش نفسه واضحا تماما بصدد المسائل المبدئية، ولكن أسلوبه في الكتابة بجمل مختصرة حادة لامعة لم يكن يتناسب مع حاجات القراء من الطبقة العاملة. ولذا كانت صحيفة «داي فرايهايت» التي بدأ موست يصدرها بعد ذلك ببضعة أسابيع في لندن وبمساعدة في لندن وبمساعدة رابطة الثقافة العمالية الشيوعية أكثر ملائمة، ولكنها لسوء الحظ انغمرت بعد بداية جيدة في الهواية الثورية.

وبعد صدور هاتين الصحيفتين «المستقلتين»، إن صح التعبير، طرحت مسألة إصدار صحيفة رسمية للحزب في الخارج نفسها بإلحاح على قيادة الحزب. فدعم كل من ليبكنشت وبيبل الفكرة بإصرار، وفي النهاية نجحا في التغلب على معارضة عنيدة أبدتها دوائر نافذة في الحزب كانت تريد إتباع سياسة التحفظ الحذر. وعند هذه النقطة، لم يكن ممكنا الوصول إلى اتفاق مع موست، لكن هيرش تخلى عن «داي لاتيرن» وأعلن استعداده لتولي تحرير صحيفة جديدة للحزب. كذلك كان ماركس وانغلز، اللذان كانا يثقان بهيرش ثقة كاملة، على استعداد للمساهمة فيها. تقرر أن تصدر الصحيفة الجديدة أسبوعيا في زوريخ، وأعطيت التعليمات لثلاثة من أعضاء الحزب المقيمين هناك بإعداد الترتيبات الضرورية لذلك، وكان هؤلاء الثلاثة هم شرام الذي كان قد طرد من برلين، وكارل هوشبرغ وادوارد برنشتاين الذي كان هوشبرغ قد كسبه إليه وجعل منه مستشاره الأدبي.

لم يكن الثلاثة على عجلة من أمرهم، وبدأ سبب التأخر واضحا عندما قاموا في تموز 1879 بإصدار «سنوية العلم الاجتماعي والعلم السياسي» لحسابهم. وكان من المقرر أن تظهر هذه الصحيفة كل نصف سنة، وبدت الروح التي ستحرر بها جلية في مقالة بعنوان «مراجعة للحركة الاشتراكية» وقعت بثلاث نجمات، وكان مؤلفها الحقيقيان هما هوشبرغ وشرام، أما برنشتاين فلم يساهم فيها إلا ببضعة اسطر.

كانت المقالة هجوما يفتقر إلى الحصافة على «خطايا» الحزب، وكانت لهجتها وتحقيرها لخصومها ومغازلتها للجماهير وحضها لها على إهمال الطبقات المثقفة، تعبر في الواقع عن كل ما يكرهه الجهلة البرجوازيون الصغار في الحزب البروليتاري. وقد تمخضت حكمتها البالغة عن نصيحة للحزب بأن يستخدم الفراغ الذي تفرضه عليه القوانين المعادية للاشتراكية كي يتوب ويستغفر. استشاط ماركس وانغلز غضبا، وطالبا في رسالة خاصة بعثا بها إلى كل قادة الحزب بمنع هؤلاء الأشخاص من التحدث باسم الحزب على الأقل، إذا كان الحزب يرى من الضروري أن يتسامح تجاه وجود أشخاص يحملون مثل هذه الآراء فيه. وفي الواقع لم يكن هوشبرغ قد خول سلطة واسعة من جانب الحزب،

ولكنه اخذ الأمور على عاتقه، تماما كما فعل عندما طالب بأن تخضع المقالات الافتتاحية التي يكتبها هيرش لرقابة الثلاثي في زوريخ وأن يكف هيرش عن الأسلوب الذي كان يحرر به «داي لاترين». وعندئذ رفض هيرش ومعه المحاربان القديمان في لندن أن تكون لهم أي علاقة بالصحيفة الجديدة للحزب.

لم يبق اليوم من المراسلات الضخمة حول هذا الموضوع سوى القليل. وهذا القليل يبين أن ليبكنشت وبيبل كانا ابعد ما يكونان عن الموافقة على موقف ثلاثي زوريخ، ولكن من الصعب أن يرى المرء السبب في عدم تدخلهما بحزم. ذهب هوشبرغ نفسه إلى لندن حيث قابل انغلز، ولكنه لم يقابل ماركس، وقد ترك تخبطه الفكري أسوأ الانطباعات لدى انغلز، على الغرم من أن ماركس وانغلز لم يكونا يشكان في نواياه إطلاقا. لكن المرارة التي أورثتها القضية في الطرفين جعلت الاتفاق مستحيلا، وفي 19 أيلول 1879، كتب انغلز على سورج قائلا أنه إذا حررت صحيفة الحزب الأسبوعية الجديدة بروح هوشبرغ، فإنه وماركس سيجدان لزاما عليهما الاحتجاج على هذا «التعهير» للحزب ومبادئه. «لقد حذرنا هؤلاء السادة، وهم يعرفوننا بما فيه الكفاية ليدركوا أن المسألة يجب أن تسوى الآن بطريقة أو بأخرى وبصورة حازمة. فإذا أصروا على إلحاق الضير بأنفسهم، فهذا شأنهم، ولكننا لن نسمح لهم إطلاقا بإلحاق الضير بنا».

ولكن لحسن الحظ لم تدفع الأمور إلى حدها الأقصى. فقد تولى فولمار تحرير الصحيفة، وفعل ذلك بشكل «تعيس» في نظر ماركس وانغلز، ولكن ليس إلى الحد الذي يقتضي احتجاجا علنيا. وكانت هناك «نزاعات مستمرة مع ليبزيغ، وكثيرا ما كان الجو يضطرب»، لكن تبين أن الثلاثي في زوريخ غير مؤذ، فقد تراجع شرام إلى الخلف، وكان هوشبرغ يقضي معظم وقته مسافرا، أما برنشتاين فقد حرر نفسه من الكآبة التي أحدثتها الهجمات الأولى للرجعية، كما فعل ذلك أيضا العديدون من أعضاء الحزب الذين كانوا يميلون في البداية إلى ترك الأمور تسير على هواها. وفي النهاية ربما كان تقدير ماركس وانغلز للصعوبات التي كان على قيادة الحزب أن تواجهها اثره في تهدئة الجو. فكتب ماركس إلى سورج في 5 تشرين الثاني 1880 قائلا: «إن أولئك الذين يتمتعون بهدوء وسلام نسبيين في الأراضي الأجنبية، لا يحق لهم أن يجعلوا الأمور أكثر صعوبة بالنسبة لأولئك الذين يعملون في اشق الظروف وأقساها في ألمانيا». وبعد ذلك ببضعة أسابيع تم إحلال السلام رسميا بين الأطراف المتنازعة.

استقال فولمار في 31 كانون الأول 1880، وعندما قرر قادة الحزب تعيين هيرش خلفا له، فإنما كانوا يرديون أن يسووا الأمور تماما مع ماركس وانغلز. ولما كان هيرش يعيش في لندن، فقد سافر بيبل إليها ليتفاوض معه شخصيا، وفي الوقت نفسه ليبحث الوضع بحثا كاملا مع ماركس وانغلز. واخذ برنشتاين معه، كي يقضي على التحييز الذي كان سائدا ضد هذا الأخير في لندن، ذلك أنه كان أثناء ذلك قد صحح موقفه تماما. حقت الرحلة أهدافها المختلفة، عدا عن أن هيرش عدل خطته الأساسية في قبول رئاسة تحرير الصحيفة قائلا أنه يود أن يقوم بالعمل في لندن. لكن هذا اعتبر أمرا غير مرغوب فيه، فعين برنشتاين محررا مؤقتا. وفي النهاية أصبح تعيينه دائما، وقام بعمله بشكل أرضى الجميع بما في ذلك ماركس وانغلز. وعندما تمت الانتخابات في ظل القوانين المعادية للاشتراكية، كان فرح انغلز غامرا وأعلن أنه ما من بروليتاريا حاربت من قبل بهذه الشجاعة.

كذلك تطورت الحركة في فرنسا بطالع حسن. فبعد المجازر الدموية في أيار 1871، أعلن تيير للبرجوازية المرتعدة في فرساي أن الاشتراكية في فرنسا قد دفنت إلى الأبد، متجاهلا أنه كان قد هدأ من روع البرجوازية بالتأكيد نفسه فيما مضى، أي بعد مذبحة حزيران 1848 واثبت أنه نبي كاذب. ولربما كان قد اعتقد أن الدماء الفياضة التي سفكت عام 1871 ستكون أكثر فعالية هذه المرة، ذلك أن خسائر البروليتاريا الباريسية نتيجة لقتال الشوارع والإعدامات الجماعية وعمليات الترحيل والإبعاد والأحكام الجائرة والهجرة الاضطرارية قدرت بنحو مئة ألف. لقد احتاجت الاشتراكية بعد عام 1848 عقدا من الزمن كي يصبح بمقدورها أن تسمع العالم صوتها ثانية، ولكنها بعد عام 1871 لم تحتج أكثر من نصف عقد. ففي عام 1876، وعندما كانت المحاكم العسكرية لا تزال تقوم بعملها الدموي، وبينما حماة العامية لا يزالون يسقطون صرعى رصاص فوق الإعدام، انعقد أول مؤتمر عمالي في باريس. صحيح أن المؤتمر لم يكن إذ ذاك سوى إشارة، إذ انعقد تحت رعاية البرجوازيين الجمهوريين الذين سعوا إلى دعم العمال ضد ملاك الأراضي الإقطاعيين، ولم يشر إلا إلى شؤون تعاونية لا ضير فيها. غير انه كان من الواضح أن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد. فقد تطورت الصناعة الميكانيكية الثقيلة، التي كانت قد بدأت في النمو بعد توقيع الاتفاقية التجارية مع انجلترا عام 1803، بعد عام 1871 بسرعة اكبر بكثير. وكان عليها أن تواجه مهاما ضخمة: أن تصلح الأضرار التي ألحقتها الحرب البروسية-الفرنسية بمناطق واسعة، وأن تراكم من رأس المال ما يسمح بإعادة بناء العسكرية مرة أخرى وعلى نطاق أوسع بكثير، وان تعوض في النهاية النقص الذي أحدثته خسارة الالزاس، أكثر مقاطعات فرنسا تصنيعا، عام 1870. أثبتت الصناعة الثقيلة أنها قادرة على القيام بالمهام الملقاة على عاتقها، فقد انبثقت المصانع في طول البلاد وعرضها، ومعها نشأت بروليتاريا حديثة، في حين أن البروليتاريا الصناعية لم تكن موجودة في أيام الأممية الأولى إلا في بعض مدن شمال-شرقي فرنسا.

مكنت هذه الظروف جول غيد من النجاح، فاندفع بفصاحة نارية يؤجج حركة الطبقة العاملة التي ابتدأت ثانية بعد مؤتمر باريس عام 1876. كان غيد قد تحول عن الفوضوية حديثا، ولم يكن يتميز بأي وضوح نظري كما يبدو واضحا من مقالاته في «ايغاليتيه» التي أسسها عام 1877. وعلى الرغم من أن «رأس المال» كان قد ترجم إلى الفرنسية، إلا أنه لم يكن يعرف عن ماركس شيئا، ولم يلتفت إلى نظريات ماركس إلا بعد أن نبهه كارل هيرش إليها. لكنه كان قد التقط بشكل كامل فكرة الملكية المشتركة للأرض ولوسائل الإنتاج، واستطاع بفضل فصاحته البارعة استثارة الطبقة العاملة الفرنسية إلى جانب هذين المطلبين بوصفهما الكلمة الأخيرة في النضال الطبقي البروليتاري، على الرغم من أنهما كانتا يقابلان بمعارضة شديدة من جانب المندوبين الفرنسيين في كل مؤتمرات الأممية القديمة.

وفي مؤتمر ثان قد في ليون في شباط 1878، ولم يكن يقصد به منظموه غير أن يكون تكرارا لمؤتمر باريس، نجح غيد في جمع أقلية من عشرين مندوبا تحت رايته. وهنا بدأت الأمور تصبح خطيرة في نظر البرجوازية والحكومة، فبدأت اضطهادات حركة الطبقة العاملة ثانية، وأجبرت صحيفة «ايغاليتيه» على التوقف عن الصدور بفرض الغرامات الضخمة عليها وسجن محرريها. لكن غيد وأنصاره لم ييأسوا، بل

استمروا في العمل بعزيمة صلبة حتى استطاعوا في المؤتمر العمالي الثالث، الذي انعقد في مرسيليا في تشرين الأول عام 1879، الحصول على أغلبية أصوات المندوبين، فقاموا على الفور بإنشاء فيدرالية اشتراكية للإعداد لتنظيم النضال السياسي. وعادت «ايغاليتيه» إلى الحياة ثانية لتجد في لافارغ مساهما قيما يكتب جميع مقالاتها النظرية. وبعد ذلك بقليل، بدأ مالون وهو أيضا باكونيني سابق إصدار صحيفة «ريفيو سوسياليست» التي دعمها ماركس وانغلز بالمقالات من حين لآخر.

وفي ربيع عام 188، ذهب غيد إلى لندن ليصيغ برنامجا انتخابيا للحزب الاشتراكي الشاب بمساعدة ماركس وانغلز ولافارغ. فتم التوصل إلى اتفاق على ما دعي ببرنامج الحد الأدنى، الذي تضمن مقدمة قصيرة تشرح الهدف الشيوعي النهائي للحركة لينتقل بعد ذلك في قسمه الاقتصادي إلى إيراد مطالب كانت تنجم مباشرة عن أوضاع حركة الطبقة العاملة بشكلها الراهن. ولا شك في انه لم يكن هناك اتفاق كامل بشأن كل نقطة من النقاط، فعندما أصر غيد على أن يحتوي البرنامج على مطلب بتحديد الحد الأدنى للأجور قانونيا، قال ماركس بصرامة أنه إذا كانت الطبقة العاملة الفرنسية لا تزال من الطفولة بما يجعلها بحاجة إلى طعم كهذا، فإن الأمر كله لا يكاد يستحق صيغة برنامج.

غير أن الأمور لم تكن على هذا النحو من السوء، فقد اعتبر ماركس بشكل عام أن البرنامج خطوة عظيمة على طريق تحرير العمال الفرنسيين من الكلامية المتخبطة ووضعهم على أساس واقعي، وتوصل غير المعارضة التي لقيها البرنامج والموافقة التي حصل عليها إلى الاستنتاج أن أول حركة حقيقية للطبقة العاملة في فرنسا قد بدأت تنمو. ففي رأيه انه لم يكن في فرنسا حتى ذلك الحين غير شيع يصيغ شعاراتها عصبويون، بينما ظلت جماهير البروليتاريا مترفعة تلحق بالبرجوازية الراديكالية أو شبه الراديكالية، فتقاتل ببطولة من اجل هذه البرجوازية لتجد نفسها في اليوم التالي وقد ذبحها أولئك الذين دفعت بهم إلى سدة الحكم. ولذا كان ماركس موافقا تماما على عودة صهريه إلى فرنسا حالما سمح لهم بذلك العفو العام عن أعضاء العامية والذي انتزع من الحكومة انتزاعا. فعاد لافارغ ليعمل مع غيد، بينما احتل لونغيه موقعا نافذا في صحيفة «لاجوستيس» الناطقة بلسان كليمنصو الذي كان على رأس اليسار المتطرف.

كانت الحالة في روسيا مختلفة، ولكنها كانت أكثر مواتاة من وجهة نظر ماركس. فقد كان «رأس المال» يقرأ ويلقي التقدير قي روسيا أكثر من أي بلد آخر، وخاصة في عالم العلم والأدب الشاب الذي كسب فيه ماركس لنفسه كثيرا من الأنصار بل ومن الأصدقاء الشخصيين. غير أن الاتجاهين الرئيسيين في الحركة الجماهيرية الروسية، وهما حزب إرادة الشعب وحزب التوزيع الأسود، كانا لا يزالان يجدان آراءه غريبة عنهما تماما. ولقد صاغ ماركس وانغلز المسألة الرئيسية التي كانت مطروحة على هذين الجناحين على النحو التالي: هل يستطيع المجتمع الفلاحي الروسي، الذي يمثل شكلا منحطا من الملكية المشتركة للأرض، الانتقال مباشرة إلى شكل أرقى من الملكية الشيوعية، أم يتعين عليه أن يجتاز عملية التحلل ذاتها التي شهدها التطور التاريخي في الأقطار الأوروبية الغربية؟

أعطى ماركس وانغلز «الجواب الوحيد الممكن اليوم» في مقدمتهما لترجمة روسية جديدة للبيان الشيوعي قامت بها فيرا زاسوليتش: «إذا أعطت الثورة الروسية إشارة البدء لثورة عمالية في الغرب، كي تكمل الثورتان بعضهما، فإن الملكية الجماعية القائمة في روسيا يمكن أن تكون نقطة البدء في تطور شيوعي». وتفسر وجهة النظر هذه الدعم الحار الذي كان ماركس يمنحه لحزب إرادة الشعب، الذي كانت سياسته الإرهابية قد جعلت القيصر عمليا سجينا للثورة في قصره، بينما كان يشجب بشدة حزب التوزيع الأسود لأنه يرفض كل أشكال العمل السياسي والثوري ويقتصر على الدعاية، على الرغم من أن رجالا مثل اكسلرود وبليخانوف عملوا كل ما في وسعهم لحقن حركة الطبقة العالمة الروسية بروح الماركسية كانوا أعضاء في الحزب الثاني.

وفي النهاية، بدأ الفجر يبزغ في انجلترا أيضا. ففي عام 1881 ظهر كتاب صغير بعنوان «انجلترا للجميع»، كتبه هايندمان ومثل برنامج الفيدرالية الديموقراطية، التي كانت قد تأسست لتوها من جماعات إنجليزية وسكوتلندية مختلفة نصف برجوازية نصف بروليتارية. وكانت الفصول المتعلقة بالعمل ورأس المال مقتطفات حرفية من «رأس المال» أو تلخيصا لأفكاره، لكن هايندمان لم يذكر لا الكتاب نفسه ولا مؤلفه، مكتفيا بإيراد ملاحظة في نهاية المقدمة تقول انه مدين لمفكر عظيم وكاتب أصيل بالآراء والكثير من المادة الواردة في الكتاب. سببت هذه الطريقة في معاملة كتاب ماركس بعض الانزعاج له، ومما زاد في هذا الانزعاج الطريقة التي حاول هايندمان أن يبرر الأمر بها: اسم ماركس «مكروه جدا»، الإنجليز لا يحبون أن يعلمهم أجانب، وما إلى ذلك من الأعذار الشبيهة. وعندئذ قطع ماركس كل علاقة له بهايندمان.

غير أن ماركس سر سرورا عظيما لمقالة عنه كتبها بلفورت باكس في السنة ذاتها في إحدى المجلات الشهرية. صحيح انه وجد معظم المعلومات عن سيرته خاطئة، ووصف مبادئه الاقتصادية مشوشا وخاطئا في كثير من المناحي، ولكنه قدر للمقالة كونها أول مقالة إنجليزية من نوعها تملؤها الحماسة للأفكار الجديدة. وقد أحدث ظهور المقالة، التي أعلن عنها وبحروف كبيرة على جدران وست إند، صدى عميقا.

قد يبدو أن الرجل الحديدي الذي لم يكن ليهتم في كثير أو قليل للمديح أو اللوم، قد أصيب بنبوة خفيفة من الرضى عن النفس، في رسالة بعث بها إلى سورج. وفي الحقيقة كان هذا أمرا يمكن للمرء أن يجد له الكثير من العذر. ولكن الرسالة كتبت في لحظة عاطفة جياشة، كما تدل على ذلك خاتمتها: «أهم ما في الأمر أنني تسلمت نسختي في 30 تشرين الثاني، مما جعل الأيام الأخيرة لزوجتي أكثر مرحا بقليل. أنت تعرف الاهتمام العاطفي الذي كانت تبديه نحو أمور كهذه». لقد ماتت السيدة ماركس في 2 كانون الأول عام 1881.

5-الشفق

بينما كانت السحب تنقشع بالتدريج في السماء السياسية والاجتماعية في كل مكان –وهذا ما كان الأمر الرئيسي بالنسبة لماركس على الدوام- تلبدت سماء ماركس وسماء بيته بسحب الغسق أكثر فأكثر. فعندما أغلقت القارة الأوروبية في وجهه، فلم يعد يستطيع زيارة المنتجعات التي

كانت تسبب لصحته بعض التحسن، ازدادت آلامه الجسدية سوءا فجعلته غير قادر على العمل. فمنذ عام 1878 لم يستطع أن يفعل شيئا ليكمل كتابه، وفي الوقت ذاته بدأ قلقه المضني على صحة زوجته.

كان السيدة ماركس قد تمتعت بالفترة الأخيرة من حياتها بالصفاء السعيد الذي كانت يسم طبيعتها الطيبة. وكتبت إلى آل سورج، الذين كانوا قد فقدوا ابنين شابين معزية تقول: «اعلم جيدا كم هو الأمر رهيب، وكم من الوقت يمضي قبل أن يجد المرء العزاء بعد خسارة كبيرة كهذه. لكن الحياة اليومية بمباهجها الصغيرة ومتاعبها الكبار، بقلقها وعذاباتها، تهب لنجدتنا، وبالتدريج تقضي متاعب اللحظة على العذاب الكبير حتى ليكاد القلق العنيف يمضي دون أن يلاحظ. لأن جرحا كهذه تشفى تماما، وهي بالتأكيد لا تشفى خاصة في قلب آلام، ولكن المرء يستعيد بالتدريج تفتحه بل وحتى حساسيته لعذابات جديدة ومباهج جديدة، ويمضي المرء في العيش بقلب مكسور، ولكنه آمل، إلى أن يتوقف القبل إلى الأبد ويأتي السلام الأبدي». من يستحق موتا سهلا هنيئا كتلك المرأة الشهمة الصبور؟ لكن حظها لم يكن كذلك، بل كان عليها أن تعاني مرة ثانية عذابا محضا قبل أن تأزف نهايتها.

في خريف عام 1878 اخبر ماركس سورج أن زوجته «مريضة جدا»، وكتب بعد ذلك بسنة: «لا تزال زوجتي مريضة بشكل خطر، وأنا نفسي لا أكاد أقوى على الوقوف». ويبدو انه اتضح بعد طول شك أن السيدة ماركس تعاني من سرطان لا شفاء له سيأتي بنهايتها بالتدريج يصحبه الكثير من الألم والعذاب. ولا يستطيع المرء تصور المعاناة التي قاساها ماركس أثناء ذلك، إلا إذا وعى عظم الدور الذي لعبته زوجته في حياته. أما هي فقد تحملت الآلام بشجاعة أكثر من زوجتها وعائلتها. فقد كانت تكظم ببطولة كل إمارات الألم لتبدي على الدوام وجها صافيا. وفي صيف عام 1881، وفي وقت كان المرض فيه قد أصبح متقدما، استجمعت من الشجاعة ما يكفي لزيارة ابنتيها المتزوجتين في باريس. ولما كانت حالتها ميئوسا منها فقد سمح لها الأطباء بتجشم مخاطر الرحلة. فكتب إلى ابنته السيدة لونغيه في حزيران 1881 يخبرها بمقدمهما: «أجيبي في الحال، لأن ماما لن تغادر لندن إلا بعد أن تعلم ماذا تريدينها أن تجلب لك. أنت تعلمين أنها تحب أن تفعل هذه الأشياء». مرت الرحلة بسلام بقدر ما كان ذلك ممكنا للسيدة ماركس، أما ماركس فقد عانى عند عودتهما من نوبة مرضية عقدها التهاب شعبي وبداية التهاب رئوي. كان ذلك مرضا خطيرا، ولكن ماركس استطاع التغلب عليه بفضل العناية الفائقة والاهتمام البالغ الذي تلقاه على يدي ابنته اليانور ويدي لينشن ديموث. كانت تلك أياما حزينة، فكتبت اليانور: «أمي تستلقي في الغرفة الأمامية الكبيرة، أما المغربي (ماركس) فيستلقي في الغرفة الصغيرة المجاورة. الاثنان اللذان اعتادا على بعضهما وأصبحت حياتهما مرتبطة ارتباطا لا ينفصم، لم يعودا يستطيعان أن يكونا في الغرفة ذاتها... تغلب على مرضه مرة أخرى. لن أنسى ابدأ ذلك الصباح الذي شعر فيه بقوة كافية وذهب إلى غرفة والدتي. كانا كما لو أنهما عادا شابين من جديد –هي فتاة عاشقة وهو شاب متقد يبدآن حياتهما معا، وليسا رجلا عجوزا هدّه المرض وسيدة محتضرة يودعان بعضهما الوداع الأخير».

وعندما توفيت السيدة ماركس في 2 كانون الأول 1881، كان ماركس لا يزال مريضا، فمنعه الطبيب من مرافقة زوجته في رحلتها الأخيرة. فكتب إلى ابنته السيدة لونغيه: «خضعت لأوامره، لأن والدتك العزيزة عبرت قبل موتها بأيام عن رغبتها في أن لا تكون هناك جنازة، وقالت: «نحن لا نعلق أية أهمية على المظاهر. كان عزاء كبيرا لي أن تقضي بسرعة. فكما تنبأ الطبيب، اتخذ المرض شكل انهيار عام، كما لو أن سببه الشيخوخة. وحتى في الساعات الأخيرة، لم يكن هناك صراع مع الموت، بل انزلاق بطيء إلى النوم، وكانت عيناها اكبر، وأجمل وأكثر لمعانا من أي وقت مضى».

تكلم انغلز على قبر بيني ماركس، فتحدث عنها باحترام وإعجاب عميقين كرفيق مخلص لزوجها، واختتم كلمته قائلا: ليست بي حاجة إلى التحدث عن فضائلها الشخصية. فأصدقاؤها يعرفونها ولن ينسوها أبدا. إذا هناك من امرأة سعادتها الكبرى هي جعل الآخرين سعداء، فقد كانت هي تلك المرأة»

6-السنة الأخيرة

عاش ماركس بعد زوجته بأكثر من سنة بقليل، ولكن هذه الفترة لم تكن في الحقيقة أكثر من «موت بطيء» فقد كان انغلز على حق عندما قال بأسى يوم توفيت السيدة ماركس: «لقد مات المغربي أيضا».

كان الصديقان مفترقين طوال الجزء الأكبر من هذه الفترة القصيرة، وتصور مراسلاتهما كيف مرت السنة الأخيرة بعظمة حزينة، ولا شك في أن هذه المراسلات مؤثرة جدا لما تحتويه على تفاصيل تغلب المصير المحتم لكل البشر على روح ماركس.

كان كل ما يزال يربطه بالحياة هو تلك الرغبة الحارقة في تكريس ما تبقى من قوته للقضية العظيمة التي كرس لها كل حياته. فكتب إلى سورج في 15 كانون الأول يقول: «لقد خرجت من مرضي الأخير مقعدا بصورة مزدوجة: معنويا بسبب وفاة زوجتي، وجسديا بسبب احتقان الغشاء الرئوي وازدياد حساسية الشعيبات الهوائية. ولسوف اخسر قدرا من الوقت قبل أن أستطيع استعادة صحتي».

أرسله الأطباء أولا إلى فنتنور على جزيرة وايت ثم إلى الجزائر، فوصل إلى الجزائر في 20 فبراير عام 1882، ولكن إصابته نوبة من ذات الجنب بفعل برد أصابه خلال الرحلة. وزاد الأمر سوءا أن الشتاء والربيع كانا ابرد وأكثر رطوبة من العادة. ولم يكن حظه في مونت كارلو أفضل من ذلك، فقد وصل إليها في 2 أيار، مصابا مرة أخرى بنوبة من ذات الجنب بسبب برودة الرحلة وصادف هناك طقسا سيئا باستمرار.

ولم تبدأ صحته بالتحسن قليلا إلا بعد أن ذهب في أوائل تموز للإقامة مع ابنته السيدة لونغيه في أرجنتييه. ولا شك في أن دفء الحياة العائلية ساعده كثيرا، كذلك اقبل على شرب المياه الكبريتية من منتجع اينفين القريب لشفاء التهاب الشعيبات المزمن. وبعد ذلك قضى ستة أسابيع مع ابنته لورا على شواطئ بحيرة جنيف، وساعد ذلك على تحسن صحته، فبدا عندما عاد إلى لندن ثانية في أيلول انه استعاد قواه، فكان أحيانا يتسلق هامبستيد هيث التي ترتفع عن بيته 300 قدم دون أن تبدو عليه علامات إرهاق.

عندئذ قرر أن يستأنف عمله، ومع أن الأطباء منعوه من البقاء في لندن، إلا أنهم سمحوا له بالإقامة على الشاطئ الجنوبي. وعندما جاء ضباب تشرين الثاني ذهب إلى فنتنور ثانية، ولكنه وجد هناك ضبابا وطقسا رطبا كالذي وجده في الجزائر ومونت كارلو في الشتاء السابق. فأصابه البرد ثانية، وبدلا من أن يتمتع بالمشي في الهواء الطلق، اضطر إلى ملازمة غرفته وبدأت قواه تضمحل. فكان مستحيلا عليه القيام بأي عمل علمي، على الرغم من أن اهتمامه بالعلوم كان لا يزال حيا، حتى تلك العلوم التي لم تكن لها علاقة مباشرة بحقله مثل تجارب ديبريه الكهربائية في معرض ميونخ الكهربائي. وتبدي رسائله في هذه الفترة قنوطا واكتئابا. وعندما بدأت الآلام المحتمة تظهر على حزب العمال الشاب في فرنسا، استاء ماركس للطريقة التي يعرض بها صهراه آراءه: «لونغيه كآخر البرودونيين، ولافارغ كآخر الباكونينيين، فليخذهما الشيطان معا». وفي هذه الفترة قال عبارته التي يسر لها كل المنافقين: بقدر ما يتلق الأمر بي، فأنا بالتأكيد لست ماركسيا.

وفي 11 كانون الثاني 1883 تلقى الضربة القاضية الأخيرة بوفاة ابنته ييني، فعاد في اليوم التالي لندن يعاني من نوبة حادة من الالتهاب الشعيبي، سرعان ما عقدها التهاب أصاب حنجرته، وجعل من الصعوبة عليه ابتلاع الطعام، فصار يشرب الحليب الذي كان يكرهه طيلة حياته. وفي شباط أصابه خراج في الرئة. وبدأ يضمحل من يوم لآخر، ولكن الأطباء لم يفقدوا الأمل، إذ قارب الالتهاب الشعيبي على الاختفاء وأصبح التهاب الحنجرة اخف. لكن النهاية جاءت فجأة، ففي عصر 14 آذار 1883، وبينما كان يجلس على كرسي مريح، لفظ كارل ماركس آخر أنفاسه بهدوء ودون ألم.

ورغم الحزن الذي أصاب انغلز للخسارة التي لا تعوض، إلا انه وجد في الأمر بعض عزاء. «ربما كان يمكن للمهارة الطبية أن تجعله يجرجر حيا بضعة سنوات أخرى، فيعيش حياة معقد محتضر، ليموت لا فجأة ولكن إنشا اثر آخر، لتهنأ بذلك مهنة الطب. أن يعيش ماركس وقدر كبير من العمل لم ينته بعد، ورغبة حارقة في إتمامه تعذبه دقيقة فدقيقة وهو يعرف انه لن يستطيع إتمامه، إن هذا أمر اشق عليه بكثير من الموت الذي أخذه».

وفي 17 آذار دفن كارل ماركس إلى جانب زوجته. ولم يجر أي احتفال جنائزي، بل وقف على القبر بضعة أصدقاء فقط: انغلز ولسنر ولوخنر، رفاقه القدامى في العصبة الشيوعية، لافارغ من فرنسا وليبكنشت من ألمانيا. وكان العلم ممثلا باثنين من ابرز وجوهه الكيميائي شورلمر وعالم البيولوجيا راي لانكستر.

إن كلمات الوداع التي خاطب بها انغلز رفيقه تلخص بكلمات بسيطة ما كانه ماركس وما سيظله بالنسبة للجنس الإنساني، ولذا فإن من المناسب أن نختتم بها هذا الكتاب:

«كما اكتشف داروين قانون التطور في الطبيعة العضوية، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور في التاريخ الإنساني، تلك الحقيقة البسيطة التي كانت مخفاة تحت أكوام من الإيديولوجيات: إن الإنسان يجب أن يأكل ويشرب ويجد مأوى ويلبس قبل أن يلتفت إلى السياسة والعلم والأدب والدين، ولذا فإن إنتاج وسائل الحياة المادية المباشرة وبالتالي التطور الاقتصادي لشعب أو لفترة يشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة والمبادئ القانونية والفن وحتى الأفكار الدينية، وعلى هذا الأساس يجب أن تفسر هذه جميعا، وليس العكس كما كان يجري من قبل.

«ولكن ليس هذا فحسب، لقد اكتشف ماركس القانون الخاص لتطور نمط الإنتاج الرأسمالي الراهن ونظام المجتمع البرجوازي الذي يقوم عليه. فقد سلط الضوء فجأة باكتشاف فضل القيمة على الظلام الذي يتخبط فيه كل الاقتصاديين الآخرين، برجوازيين واشتراكيين.

«إن اكتشافين كهذين يكفيان أية حياة، بل محظوظ هو من يتيسر له أن يقوم باكتشاف واحد، ولكن ماركس قام باكتشافات مستقلة في كل حقل قام بالبحث فيه، حتى في حقل الرياضيات. «لقد كان هذا الرجل رجل علم، ولكن ليس ذلك فحسب. كان العلم بالنسبة لماركس قوة تاريخية وثورية خلاقة. وبقدر ما كان سروره عظيما عندما يتم اكتشاف جديد في هذا الحقل أو ذاك من حقول العلم النظري، وإن لم تكن نتائج هذا الاكتشاف العملية منظورة بعد، كان سروره أعظم عندما يتم اكتشاف يؤثر مباشرة على التطور الصناعي أو التطور التاريخي ككل بطريقة ثورية. فهو مثلا تتبع عن كثب تطور الاكتشافات في حقل العلم الكهربائي.

«ذلك أن ماركس كان ثوريا قبل كل شيء، وكان هدفه الكبير في الحياة هو المساعدة بهذا الشكل أو ذاك على الإطاحة بالمجتمع الرأسمالي ومؤسسات الدولة التي خلقها، أن يساعد على انعتاق البروليتاريا، التي كان أول من منحها وعيا لوضعها الطبقي واحتياجاته الطبقية، ومعرفة للشروط الضرورية لانعتاقها. ولقد كان في هذا النضال يقاتل بحماسة وتماسك ونجاح لم يحصل عليه غير القلائل. أولا «راينخيه تزايتونغ» في عام 1842، ثم «فوروارتز» في باريس عام 1844، و«دويتشه بروسلر تزايتونغ» عام 1847، و«نيو راينخيه تزايتونغ» من عام 1848 إلىعام 1849، و«نيويورك تريبيون» من عام 1852 إلى عام 1861 –وبعد ذلك ثروة من الكتابات السجالية، والعمل التنظيمي في باريس وبروكسيل ولندن، وفي النهاية الرابطة الأممية للرجال العاملين لتتوج هذا كله. وفي الواقع كان هذا وحده يستغرق حياة كاملة يحق لصاحبها أن يفتخر بها ولو لم يفعل شيئا غير ذلك.

«ولذا كان ماركس أكثر رجل كره وطعن فيه عصره. فقد طردته الحكومات، مطلقة وجمهورية من أراضيها، بينما تنافست البرجوازية، محافظة وديمقراطية، في حملة التشهير به. ولكنه تجاهل هذا كله ولم يكن يجيب عليه إلا عندما يضطر إلى ذلك. ومات ميتة مشرفة، يحبه ملايين العمال الثوريين من مناجم سيبيريا إلى سواحل كاليفورنيا وعبر أوروبا وأمريكا، وإنني لأجرؤ على القول أنه وإن كان خصومه كثر إلا أنه لم يكن عدو شخصي واحد. سيعيش اسمه عبر القرون، وكذلك سيعيش عمله».